الشيوعية المحلّية ومعركة العرب القوميّة

تأليف
الحكم دروزة

الشيوعية المحلية ومعركة العرب القومية

تأليف

الحكم دروزة

تمهيد

هذا الكتاب هو دراسة بالوثائق لسلوك الحركة الشيوعية فى الوطن العربى ومواقفها من كافة وجوه المعركة العربية ـ موقفها من القومية العربيـــة والوحدة العربية ، من قضية فلسطين ، من معركة التحرر العربى ، ومن حركة التطور القومى التاريخى التقدمى للعرب ، وذلك على ضوء كافة التطورات التى مرت بها ، ومنذ بدء عمل الحركات الشيوعية فى الوطن حتى الآن .

الهدف من هذا الكتاب هو دراســة الشيوعية المحلية كقوة من القوى العاملة فى الوطن العربى ، واطلاع المواطن العربى ، بشكل مفصل ، على حقيقة الدور الذى تلعبه فى ساحة المعركة العربية .

طابع هذه الدراسة عرض وتحليـــــل مواقف الحركة الشيوعية فى الوطن العربى فقـط ، فلن تتطرق الى مواقف الحركة الشيوعية العالميـة الا بمقدار ما يملى ارتباط البحث عرض تلك المواقف على ضوء الوضع السياسى العالمى الســائد فى كل فترة . والملاحظات النظرية الواردة فى القسم الأول من الكتاب تقتصر فقط على موقف النظرية الشيوعية «الماركسية ـ اللينينية» من مسألة الامة والقومية ، نظرا لارتباطه بكثير من مواقف الشيوعية المحليـة فى الوطن من الوجوه الرئيسية للمعركة العربية .

اسلوب هذه الدراسة ، من اولها لآخرها ، هو الاسناد الكامل بالوثائق . يمكن القول اننا لن نتكلم نحن بقـدر ما سنترك وثائق الشيوعيين العـرب تتكلم . ولن نحكم عليهم نظــريا ومن بعيد ، بل سنترك التقدير النهائى للقارىء العربى على ضوء الحكم الذى تصدره وثائقهم هم أنفسهم . ولذلك لن نعتمد على ما كتبه الغير عنهم ، بل على ما خطته ايديهم . لم نستطع عمليا أن نحصر كافـة وثائق الشيوعية المحلية ، فبعض الاحـــزاب الشيوعية ـ الحزب الشيوعى فى تونس ومـراكش خاصة ـ كانت بعيدة عن متناول ايدينـــا ، والنقص الذى يبدو واضحا فيها مرده حرصنا على الاعتماد على وثائق هذه الأحزاب نفسها فقط .

هذا الأسلوب فى دراسة مواقف الشيوعية المحلية فى الوطن العربى ، رغم التطويل الذى يستلزمه ، تحتمه طبيعة أحزاب الشيوعيـــة المحلية . بعض مواقفها الفادحة التى تبدو لأول وهلة أقرب من أن تصدق ، استعداد هذه الحركة اللامتناهى للتنصل من مواقفها ، قدرتهـــا الفائقة على التراجـــع التكتيكى والتلاؤم الظرفى مع الاوضـــاع السائدة ، امكانياتها الملحوظة على المناورة والظهور بمظهـــر الحركة « المؤمنة » بأهداف التيار الشعبى .. كل ذلك ، يجعل من الضرورى اسناد كل كلمة فى هـذه الدراسة بالوثائق .

من الضرورى ضرورة قصوى أن نؤكد فى ختام هذه الكلمة ، أن موقفنا من الشيوعية المحلية ، مهما كان معاديا ، لا علاقة له اطلاقا بموقفنا من المعسكر الشرقى . حقنا فى اتخاذ موقف حازم من الشيوعية المحلية المعادية بشراسة لمعظم وجوه معركتنا القومية الشاملة ، لا يؤثر أبدا على استمرار علاقة التعاون الشريف غير المشروط مع الاتحـــاد السوفييتى وسائر بلدان المعسكر الشرقى ، طالما بقيت قائمة على أسس المساواة والحرية والمنفعة المتبادلة التى حددتها مبادىء الحياد الايجابى .

المحتويات

الصفحة

القسم الخامس :

مقدمة

— ١ —

الارتفاع الى مستوى الثورة العربية الهادفة لتحرير الوطن العربي وتوحيده واقامة المجتمع القومي الاشتراكي الديمقراطي ، يتطلب من جملة ما يتطلب ، تحديدا علميا دقيقا لكافة القوى العاملة في ساحة المعركة العربية . من هي القوى المؤيدة لحركة التقدم العربي نحو هذا الهدف الكبير ، ومن هي القوى المعرقلة لها .. ما هي العوامل التي تتحكم بسلوك كل قوة من هذه القوى وتعين اتجاه نشاطها في الوطن .. ما هو الأساس العقائدي ، الفكري والسياسي ، الذي يجب أن يحدد للحركة القومية العربية موقفها تجاه هذه القوى ويشكل اساس معركتها معها .

ان لمثل هذا التحديد أهمية قصوى ، لأن اخطر ما يمكن أن تقع فيه الحركة القومية العربية ، هو أن تخوض معركة الثورة العربية دون دراسة مسبقة لطبيعة القوى العاملة في ساحة المعركة ، أو دون معرفة دقيقة جازمة بجبهة الاعداء المقابلة أو دون ادراك واع للأساس العقائدي الذي يجب أن يوجه كافة معارك حركة القومية العربية ضمن اطار الثورة الراهنة الشاملة .

واذا كان هذا المبدأ النضالي الهام ، يحتم على حركة النضال العربي أن تلقي ضوء الدراسة على كافة القوى العاملة في الوطن العربي ، فان القاء ضوء الدراسة على الحركة الشيوعية في الوطن ، كقوة من القوى العاملة في ساحته ، يأتي في الطليعة من هذا الواجب . ورغم تأكيدنا أن الصراع القائم بين الحركة القومية العربية والشيوعية المحلية لا يعني أن التناقض الرئيسي في المعركة العربية اليوم هو هذا التناقض القائم بينهما ، لأن استراتيجية هذه المرحلة لا زالت تحتم بوضوح كون الاستعمار والصهيونية والرجعيين العملاء هم العدو الاول ، الا أن هذا لا يعني مطلقا أن تغمض الحركة القومية العربية عينيها عن القوى الاخرى المعادية للاهداف القومية ، والشيوعية المحلية من ضمنها .

ضمن التناقض الرئيسي القائم بين حركة القومية العربية الثورية وبين العدو الأول ، الاستعمار والصهيونية والعملاء من الرجعيين ، عدد من التناقضات الأخرى ، وضمن المعركة الرئيسية الدائرة بينها وبين هذا العدو الأول ، عدد من المعارك الفرعية الهامة الناشئة بينها وبين القوى الداخلية المعادية . والتخطيط النضالي السليم لمعركة الثورة العربية القومية الراهنة هو : **عدم جعل القوى المعادية الداخلية هي العدو الاول والتناقض الفرعي هو التناقض الرئيسي ، لكيلا تتحول المعركة العربية الى معركة داخلية ، وبالمقابل ، عدم اغفال القوى المعادية الداخلية واهمال التناقضات الفرعية ، لكيلا يفسح لها مجال النمو والتكامل والتحول الى عقبة كأداء في طريق الاهداف القومية .**

واذا كانت هذه القاعدة النضالية الأساسية تحتم العمل الدائم على عزل كافة القوى الداخلية المعادية لأهداف التطور القومي العربي التقدمي ، فان الحركة الشيوعية في الوطن ، تكتسب من بين هذه القوى ، أهمية خاصة ، نظرا لعدة عوامل تعطي الصراع الناشب معها تميزا خاصا عن سائر القوى المعادية التي فضح الوعي القومي الشعبي حقيقتها ، وهو يسير بجد في طريق عزلها كليا عن معركة الأهداف القومية الثورية .

فقد طرحت الشيوعية المحلية نفسها في الوطن على انها أصلب الفئات في مكافحة الاستعمار ، وعملت منذ أن وجدت على احاطة نفسها بهالة دعاوية ضخمة مؤداها : أنها أقدر الحركات ، ان لم نقل الحركة الوحيدة ، القادرة على التصدي

للاستعمار والرجعية بالصلابة التي تتطلبها ضراوة المعركة ضدهما . وبذلك قدمت الشيوعية المحلية نفسها على أنها ممثلة الاتجاه التحرري الثوري في الوطن العربي .

وطرحت الشيوعية المحلية نفسها في الوطن على أنها حركة «وطنية» تؤمن بالقومية العربية والوحدة العربية وسائر أهداف الشعب القومية الأخرى ، وأنها تنطلق في مخططاتها وسلوكها من أرض الوطن العربي ، وان رائدها هو المصلحة العليا للشعب العربي . وبهذا قدمت الشيوعية المحلية نفسها كاتجاه وطني من اتجاهات الحركة القومية العربية ومن «صلبها» .

وطرحت الشيوعية المحلية نفسها في الوطن على أنها الحل الوحيد لمشكلة المجتمع العربي المتخلف ، وعملت منذ أن وجدت على الادعاء بأنها الطريق لخروج جماهير الشعب العربي من حياة البؤس ، وبهذا قدمت الشيوعية المحلية نفسها على أنها ممثلة الاتجاه التقدمي في الوطن العربي .»

كذلك طرحت الشيوعية المحلية نفسها على أنها حركة انسانية ، بل قدمت نفسها لجماهير الشعب العربي على أنها ممثلة الاتجاه الانساني الثوري الذي يعمل لتحرير الانسان أينما كان ، ويرفض كل مساومة مع الاستعمار في أية ظروف ، ولا يتخلى قيد شعرة عن مبدأ حق الأمم في تقرير مصيرها .»

هذا ما قالته الشيوعية المحلية في الوطن .

اما ما كان يقوله واقعها ، ما كان يقوله سلوكها ومواقفها منذ أن ابتدأت عملها حتى يومنا هذا ، فهو شيء مختلف تماما .

وهذه « الهالة التحررية الوطنية التقدمية الانسانية » التي أحاطت بها الأحزاب الشيوعية نفسها في الوطن ، توجب على الحركة القومية العربية ، في غمرة معركتها ضد الاستعمار الغربي و « اسرائيل » والرجعية العميلة ، ان تكشف حقيقة تلك الهالة الكاذبة ، لتضع الشيوعية المحلية في مكانها الحقيقي . . قوة منافية لحركة التطور العر[بي] القومي التقدمي .»

المعركة المحتدمة بيننا وبين الشيوعية في الوطن العربي على الصعيدين السياسي والنضالي ، والتي يصح ان نطلق عليها تعبير تنازع البقاء بين القومية العربية والشيوعية المحلية . هذه المعركة كانت في تقديرنا لا بد واقعة عاجلا أم آجلا . وهي معركة لا بد واقعة بهذا الشكل الذي اتخذته اثر قيام النواة الأولى للوحدة العربية أولا ، ثم اثر ثورة ١٤ تموز في العراق بعد ذلك .

ونحن عندما نقول بهذا الشكل ، فانما نعني الشكل الذي لم يعد يترك مجالا لتعايش الحركتين الشيوعية والقومية العربية . ذلك ان المعركة بيننا وبين الشيوعيين كانت قائمة ـ بشكلها العام ـ منذ زمن بعيد .. منذ أن وجدوا في هذا الوطن ، ومنذ ان بدأت اليقظة القومية تنير للحركة العربية السبيل وتفتح امامها باب التكامل .

ولكن هذه المعركة كان لها في السابق شكل آخر .

المعركة في السابق اتخذت شكل الصراع العقائدي الذي بقي يسمح ـ بفعل عوامل متعددة ـ بقيام نوع من المهادنة بين الحركتين ، سواء اكانت هذه المهادنة في شكل تعاون مع بعض اطراف الحركة القومية ، أم في شكل لقاء بعيد متقطع . ولم يتطور الصراع العقائدي بفعل تلك العوامل الى صراع عملي مكشوف مباشر .

وجاء قيام الجمهورية العربية المتحدة ثم ثورة العراق ليضع المعركة في اطارها الطبيعي الذي أصبح يعني امرا واحدا هو : بقاء الحركة القومية أو انتصار الحركة الشيوعية . فهذه التطورات الهامة قد اعادت توضيح وتحديد ساحة المعركة العربية من جديد ، وكان لابد ان تؤدي الى دفع التناقض العقائدي النظري الى صراع نضالي عملي . فالحركة الشيوعية بطبيعتها لاتقبل التعايش مع الحركات الاخرى الا كسياسة مرحلية مؤقتة .

ولكن هذه الاسباب القريبة المباشرة التي دفعت بالمعركة الى شكلها الصريح المكشوف ، هي أسباب مهما بلغت من الاهمية الظاهرية ، الا ان من الخطأ دراستها بمعزل عن الاسباب الجوهرية الكامنة التي كان لابد ان تؤدي الى وقوع المعركة بهذا الشكل والتي تعود الى ما قبل ثورة ١٤ تموز ، والى ما قبل قيام الوحدة بزمن بعيد . فقيام النواة الاولى لوحدة العرب وانفساح المجال لقفزة وحدوية جديدة اثر ثورة العراق ، كانا مجرد الكاشف الذي اظهر لون الحركة الشيوعية على حقيقته ، بعد ان ساعدتها على اخفائه الظروف السياسية الخارجية والداخلية المواتية في الوطن ، هذا من جهة ، والتلون اللااخلاقي الغريب الذي اتصف به عملها طيلة هذه السنوات من جهة أخرى .

ذلك ان بين الحركة القومية العربية والحركة الشيوعية في الوطن تناقضا جذريا أساسيا يستحيل معه قيام أي اتفاق متكامل ، ويستحيل معه الا أن تكون العلاقة بينهما علاقة صراع . وهذا التناقض الجذري ومايترتب عليه من صراع حتمي بالنتيجة . تؤكدهما بشكل قاطع حقيقة هامة هي : ان الحركة الشيوعية لايمكن ابدا ان تكون جزءا من صلب تكوين الحركة القومية للامة العربية .

اثبتت هذه الحقيقة مرة بعد مرة تطور النضال القومي العربي في معظم أجزاء الوطن والاحداث السياسية التي رافقت ذلك التطور . الشيوعيون كانوا فريقا اقترب في بعض الاحيان من الحركة القومية . ولكن هذا الاقتراب لم يصل ، وما كان ممكنا ان يصل ، الى وضع اندماج وتطابق يجعلهم جزءا مكونا لهذه الحركة منذ بدايتها حتى نهاية اهدافها ، وهم ان كانوا قد التقوا التقاء جزئيا مع بعض شعارات المعركة العربية ، الا انهم ظلوا حركة تتطور في اتجاه مغاير لحركة التطور القومي الاشتراكي الديمقراطي للعرب ، حركة تختلف في الطبيعة والتركيب عن حركة القومية العربية الاشتراكية الديمقراطية .

وهذه الحقيقة الاساسية كانت تعكس ، في حيز النضال العملي ، طيلة عشرات من السنين ، حقيقة أخرى هامة هي : **أن الشيوعيين لم يكونوا ولا يمكن أن يكونوا ، فريقا ثابتا في معركتنا القومية .**

لقد اشترك الشيوعيون خلال هذه السنوات الماضية في كثير من معارك التحرر العربي ، وظهروا في بعض الفترات بمظهر المؤيد لأهداف العرب جميعها، في سوريا ولبنان والعراق والجزائر ونسبيا في مصر . ولكن هذا الاشتراك لم يجعلهم فريقا ثابتا في المعركة العربية يخوض المعركة منذ بدايتها ولا يتخلى عنها الا في نهايتها ولم يصبح الشيوعيون أبدا وما كان ممكنا أن يصبحوا ، جزءا أصيلا من هذه المعركة ، لأن مساهمتهم كانت تظهر باستمرار صفتين رئيسيتين أصبحتا الطابع المميز لعمل الشيوعيين في الوطن :

الصفة الأولى : هي أنها مساهمة جزئية متقطعة لا يتوفر فيها الثبات والاستمرار ، تظهر وتختفي ، وتؤيد تارة نضال العرب القومي وتحاربه بشراسة تارة أخرى . وكان من الطبيعي أن تكون مساهمتهم بهذا الشكل ، لأنها مساهمة امتصت حيويتها وجديتها المحاولة المضنية التي كانوا يقومون بها ، باستمرار ، للتوفيق ما بين شعارات ومتطلبات المعركة العربية، وشعارات ومتطلبات المخطط الشيوعي الدولي ، الذي لم يكن ينسجم دوما مع خط تطور هذه المعركة والذي كان يعكس في معظم الفترة الطويلة الماضية مصلحة الاتحاد السوفييتي .

والصفة الثانية : انه كان من الطبيعي والحالة هذه **أن يكون التكتيك لا المبدأ** هو المحدد الاول والمقرر الرئيسي لمواقف الشيوعيين النضالية ، بل وحتى الفكرية . ومما يؤكد هذه الحقيقة بما لا يقبل الشك هذا التقلب النضالي والسياسي المغرق في التناقض الذي أصبح طابعا مميزا لمساهمة الشيوعيين في المعركة العربية ، وفي كل جزء عربي ، بحيث أنه من الصعب جدا أن نضع يدنا على خط موحد متسجم يربط مواقف الشيوعيين بعضها ببعض . وهذه الصفة البارزة التي كانت تتكرر باستمرار ، هي التي كانت تضعهم تارة في موقف الفريق المؤيد بحماس لأهداف المعركة العربية ، وتارة في موقف الفريق المعارض بشدة لهذه الاهداف نفسها ، وتارة في موقف الفريق الحيادي اللامبالي بمصير هذه الاهداف نفسها !

فهذه المساهمة المتقطعة المتقلبة التي كانت تتحرك باستمرار — سواء في مستوى نشاطها او في اتجاه هذا النشاط — بايحاء من خارج الوطن والتي يبيح لها التكتيك ويفرض عليها المخطط السياسي النضالي المرسوم خارج الوطن ، أن تذهب من أشد درجات الحماس والتأييد الى اقصى درجات الفتور والمعارضة ، مثل هذه المساهمة ، من الطبيعي أن تكون أحيانا مساهمة جزئية ، وأحيانا عقبة خطيرة في وجه النضال العربي ، كما أنه من الطبيعي أن تكون فترات الوفاق مجرد التقاء سطحي يحمل في طياته طوال هذه السنوات عناصر التناقض الجذري وعوامل الصراع الحتمي .

وكان لابد لهذا التناقض أن يظهر عاجلا أم آجلا ليضع الحركة الشيوعية في طريقها الحقيقي المنسجم مع نفسها وغاياتها ، وليكشف بوضوح قناع الدجل الذي ارتدته طويلا في الوطن العربي .

* * *

فما هو هذا التناقض الجذري بين الحركة القومية العربية الحديثة والحركة الشيوعية في الوطن ؟

ماهي أسباب التناقض وماهي العناصر التي يرتكز اليها ؟

وماهي الاسس التي عملت ، وتعمل وفقها الحركة الشيوعية في الوطن ، والتي تجعل صدامها مع الحركة القومية أمرا حتميا وتجعل بالتالي فضح الحركة الشيوعية في الوطن واظهارها على حقيقتها وتعريتها من الثوب النضالي والتقدمي الكاذب الذي لبسته ، واجبا قوميا ملحا ؟

ان هذا التناقض الجذري يرتكز في الواقع الى أربع حقائق رئيسية تكون بمجموعها الصفات المميزة للحركة الشيوعية في الوطن ، وتحدد الاسس التي عملت وتعمل حتى الآن وفقا لها . وهذه الحقائق هي نفسها التي تجعل الحركة الشيوعية في الوطن مناقضة على خط مستقيم للحركة القومية ، وتصنفها بما لا يقبل اي تردد في صف القوى المعادية لاهداف العرب ولحركة التطور القومي التقدمي .

فالحركة القومية والحركة الشيوعية تختلفان في نقطة الانطلاق .

والحركة القومية والحركة الشيوعية تختلفان بالتالي في الاهداف .

والحركة القومية والحركة الشيوعية تختلفان في طابع عقيدة كل منهما .

والحركة القومية والحركة الشيوعية تختلفان في المخطط النضالي الذي تسترشد به كل منهما وتخوض المعركة العربية على أساسه .

* * *

القسم الأول

ملاحظات نظرية

١

الحركة القومية والحركة الشيوعية تختلفان فى نقطة الانطلاق

نقصد بنقطة الانطلاق ، المنطلق الذى يصنف منذ البدء كلا من الحركتين ويحدد هويتهما، والذى بناء عليه يتحدد لكل حركة : فكرها ومبادؤها وأهدافها وكذلك طريقها وخط عملها •

وهنا نجد اختلافا اساسيا بين الحركة القومية العربية الاشتراكية الديمقراطية وبين الحركة الشيوعية يضعهما على طرفى نقيض ويحدد لكل منهما موقفا فكريا مغايرا جذريا للآخر . فلكل منهما نقطة انطلاق مختلفة قائمة بذاتها ومناقضة تماما للاخرى . •

الحركة القومية العربيه تنطلق من **الامة** • فنقطة انطلاقها **قومية** تقوم على اعتبار الامة هى الخليسة الاجتماعية الاساسيه فى المجتمع البشرى الكبير، وهى كيان اجتماعى متكامل ووحدة اجتماعية تامة فيهسا وحدها كل عناصر البقاء والحياة والاستمرار . ويترتب على هذا المنطلق مترتبات فكريه ونضاليسة هامة تشكل الملامح والدوافع الاساسية للحركة القومية • فبناء على هذا المنطلق :

تؤمن الحركة القومية ان تاريخ التطور البشرى رغم تفرعاته ، وتشعبه وتعدد العناصر المؤثرة فيه كان يبرز ويؤكد دوما خطا عاما أصبح بمثابة القانون التاريخى الاجتماعى وهو : ان الجماعات البشرية كانت ، ومازالت تتطور باستمرار نحو التآلف فى أمم تشكل كل منها وحدة اجتماعية متكاملة ، ولكل أمة منها روابطها وشخصيتها وهويتهـا المتميزة • وهذا التطور الذى يرسم خطسير السلوك الانسانى تطور لايمكن وقفه أو تغيير مجراه لانه تشكل تشكلا تاريخيا عبر العصور ، ونقل الجماعات البشرية من جماعات غير محددة الى أمم مستقلة متمايزة، ونقل بالتالى اشكال الاجتماع البشرى من اشكال مائعة الى مجتمعات قومية ثابتة متبلورة • لذلك تعتبر الحركة القومية ان الحفاظ على كيان الامة ومدها بكافة أسباب النمو والتطور هو الطريق الوحيد لاقامة مجتمع بشرى سليم ، وان تشكل العالم على أساس المجتمعات القومية الاشتراكية الانسانية ، المتمايزة فى شخصيات أممها والمتفاعلة فى مجهود حضارتها ، هو الاساس الصحيح لتنظيم العالم تنظيما متجانسا واقعيا ينسجم وطبيعة الحياة البشرية، وهو الطريق لايجاد تعايش قومى سلمى حقيقى •

وتؤمن الحركة القومية ان **الرابطة القومية** هى التى تجعل من أية جماعة من الناس أمة ، ومن الامة كلا واحدا متجانسا متماسكا • وهى الرابطة الرئيسية الاولى التى توحد أفراد الجماعات البشرية وتشدهم الى بعضهم البعض وتخلق فيهم الاحاسيس والمشاعر الواحدة والترابط الواحد والارادة الواحدة فى حياة مشتركة واحدة . لذلك فان أصلح أشكال الجماعة وأقدرها على توفير اكمل اشكال الانسجام والتجانس والتكامل ، وأقدرها على توفير سبل الانطلاق والتطور للافراد ، انما هو شكل المجتمع ـ الامة • فليست الرابطة الطبقية المصلحية هى التى رسمت الخارطة الاجتماعية للعالم، أو التى سترسمها مستقبلا ، كما تدعى الماركسية ـ اللينينية ، وانما هى الرابطة القومية التى تقوم على حقيقة اجتماعية تاريخية هى **الامة** :

كذلك تؤمن الحركة القومية الاشتراكيـة ان مجتمعات الامم فى العالم كثيرا مايكون فيها فروقات

اقتصادية ومستويات طبقية تؤدى الى تضارب فى المصالح بين فئات المجتمع المختلفة ، ولكن هذا الاختلاف فى المصالح لايغير من علمية وواقعية المنطلق الاساسى للحركة القومية (مجتمع ـ الامة) لانه يبقى فى عرفها خاضعا للحقائق الاساسية التالية :

اولا : ان هذا الاختلاف فى المصالح مهما بلغت حدته لاينفى مطلقا ، ولا للحظة واحدة ، كون الامة وحدة اجتماعية متكاملة فيها وحدها كل عناصر الحياة والاستمرار والانسجام • فاختلاف المصالح داخل مجتمع الامة لايهدم كيان الامة الى فريقين متناقضين يرتبطان ـ كل حسب مصلحته الاقتصادية ـ بكيان اجتماعى عالمى آخر ، ولايخرج جميع أفراد الامة ـ حسب مصالحهم الاقتصادية ـ من نطاق الرابطة القومية ومن حقيقتهم الاجتماعية الموضوعية كامة ليلحقهم برابطة عالمية طبقية تتخطى الامة كوحدة اجتماعية. صحيح، ان اختلاف المصالح داخل مجتمع الامة يشتد احيانا لدرجة التضارب الحاد فى المصالح الاقتصادية ، وصحيح، ان مثل هذا الوضع يؤثر تأثيرا كبيرا على بنية المجتمع ، ولكن هذا التضارب حتى فى هذه الدرجة ، لاينفلت من نطاق مجتمع الامة ليبحث لنفسه عن رابطة عالمية أخرى لاتتوفر فيها أية مقومات تاريخية اجتماعية راسخة ولاتتوفر فيها عناصر الانسجام والتماسك والوحدة الحياتيه المتكاملة • ونحن حين نؤكد هذه الحقيقة التى أثبتها التاريخ كمرتكز اساسى فى منطلق الحركة القومية ، فانما نتحدث عن القاعدة العامة ، وعن الغالبية العظمى فى مجتمع الامة عبر التاريخ لا عن مواقف القلة التى تنفصل عن الشعب احيانا فى بعض الفترات •

ثانيا : ولهذا فان اختلاف المصالح مهما بلغت حدته لايطغى على الحقيقة الاساسية وهى ان مجتمع الامة يبقى فى النهاية وحدة تركيبية متفاعلة قائمة بذاتها . لان هذا التضارب فى المصالح مهما اشتد يبقى النطاق الذى يحل فيه هو نطاق مجتمع الامة • **فالرابطة القومية التى توحد افراد الامة وتجعلهم واحدا متماسكا هى اقوى واكثر عمقا من تضارب المصالح الاقتصادية فيما بينهم** • لقد أكد مجرى تطور الاحداث فى التاريخ هذه الحقيقة كما يؤكدها كل يوم . وهنا لابد أن نوضح المقصود كيلا يساء فهم هذه الحقيقة •

الحركة القومية الاشتراكية لاتحاول ابدا ان تتجاهل اختلاف المصالح الذى قد يوجد فى مجتمع الامة ، ولكنها تؤكد ان هذا الاختلاف فى المصالح والفروقات والمستويات الاقتصادية والاجتماعية انما تخضع كلها للتحديدات القومية وتبقى ـ كقاعدة عامة ـ محصورة داخل نطاق المجتمع القومى للامة لان التناقض الاجتماعى لايمكن أن يصل الى حد سحق الوحدة القومية وتفتيت كيان الامة • لقد تطورت الجماعات البشرية نحو أمم مستقلة متمايزة رغم اختلاف المصالح الذى وجد فى مجتمعاتها ولم تكن خلافاتها الاقتصاديه الداخلية أقوى من رابطتها القومية ومن وحدتها القومية ، بل يمكننا القول أن العكس كان هو الصحيح • وهذه الحقيقة الهامة هى التى جعلت التطور البشرى عبر التاريخ هو تاريخ التطور نحو الامم والتآلف فى مجتمعات قومية رغم ان التاريخ أظهر فى كثير من الاحيان نضالات اجتماعية اقتصادية حادة ، والا لكان المفروض مثلا أن يتطور الناس ويتوحدوا وينسجموا حسب المصلحة الاقتصادية لكل منهم بغض النظر عن رابطة الامة ، أى كان المفروض الا يكون فى العالم اليوم أمم ومجتمعات قومية •

ثالثا : ان اختلاف المصالح داخل مجتمع الامة ليس وضعا من صلب تكوين هذا المجتمع يولد معه ولا يزول الا بزواله ، وانما هو وضع يتوقف وجوده أو انتفاؤه على وجود أو انتفاء النظم الاقتصادية الاجتماعية التقدمية العادلة •

وهنا نقطة أخرى يجب أن نتوقف عندها لما لها من أهمية خاصة •

فقد درجت الحركة الشيوعية على اتهام كل من يؤكد هذه الحقائق السابقة التى يؤكدها العلم والتاريخ بأنها اتجاهات تعمل على (خنق التناقضات الاقتصادية الاجتماعية باسم وحدة الامة) . واذا كان مثل هذا الموقف يصح على الاتجاهات البورجوازية فهل يصح أن يعمم على الحركات القومية الاشتراكية الحقيقية ؟ ان الحركة الشيوعية فى الواقع لاتفرق !

وقد جرت الحركة الشيوعية نتيجة هذا الموقف الى خطأ فكرى وتاريخى كبير ••

فالحركة القومية الاشتراكية اذ تنطلق من حقيقة ان مجتمع الامة هو المجتمع الذى يوفر للفرد اكمل أشكال الانسجام والتجانس ، فانما تؤكد فى هذا الصدد على الروابط التاريخية الاجتماعية التى جمعت بين أفراد الامة ووحدت تاريخهم ولغتهم ووطنهم وثقافتهم وأهدافهم ، واوجدت بذلك ارقى الاشكال الاجتماعية القادرة على أن تكون **الوسط المهيء** الصحيح للحياة التقدمية المتطورة العادلة • اما هذه الحياة التقدمية العادلة نفسها فترجع الى التكوين

الاقتصادى الاجتماعى السياسى للمجتمع ونــوع النظم السائدة فيه والعلاقات التى تربط بين افراده • فاذا كانت هذه النظم والعلاقات نظما وعـلاقات موجهة لمصلحة غالبية الشعب ، كان مجتمع الامة فى حالة طبيعية والمصالح فيه متكاملة متوافقة . اما اذا كانت نظما وعلاقات موجهة لمصلحة أقلية تعيش على استثمار واستعباد الغالبية كان المجتمع فى وضـع شاذ والمصالح فيه مصالح متناقضة متضاربة . وفى أوضاع مثل هذه المجتمعات يكون الحل فى تقويض الانظمة والعلاقات الرجعية والجائرة لتقـام على أنقاضها نظم وعلاقات اشتراكية عادلة تستهدف خدمة غالبية الشعب العظمى • فالانظمة الجائرة (سواء تمثلت بالاقطاع الاجتماعى والسياسى أو بالرأسمالية والاحتكارات) تعالج بتقويضها لاحلال الانظمـة الاشتراكية الديمقراطية ، لا بتقويض مجتمع الامـة نفسه واصطناع تركيب اجتماعى جديد - كالطبقية العالمية - لاتتوفر فيه مقومات التطور ولا عنـاصر الانسجام والتكامل •

فاتخاذ الاوضاع الشاذة فى المجتمع القومى للامة دليلا للحكم على خطأ قيام هذا المجتمع نفسه أصلا ولتقديم الطبقة ككيان حياتى اجتماعى بدل الامة، هو اتجاه خاطىء علميا وواقعيا ، وهو تماما كمن يتخذ من المرض الذى يصيب الانسان دليلا على وجـوب اصطناع كائن وهمى غير الانسان بدلا من ان يعمل على معالجة أسباب المرض فى الانسان نفسه •

هذا هو بايجاز منطلق الحركة القومية الاشتراكية وهذه بايجاز بعض المترتبات الاساسية التى تترتب عليه •

وبناء على ذلك كله ، تؤمن الحركة القومية ان ولاء العربى هو لامته أولا وقبل كل شىء • وتؤمن أن نقطة الانطلاق الاولى فى بناء المجتمع البشرى الكبير بناء انسانيا سليما تبتدىء ببناء مجتمع الامة بناء تقدميا سليما • فكل اتجاه بالتالى يعمل لحرف ولاء العربى نحو جهة أخرى غير أمته ومجتمعه القومى ذى المحتوى الاشتراكى الديمقراطى هو عمل يهدم الخلية الاساسية التى يتكون منها المجتمع البشرى ، فضلا عن أنه يدفع التطور البشرى - قسرا - فى اتجاه متناقض لطبيعته وواقعه

* * *

هذا عن الحركة القومية •

اما الحركة الشيوعية فلها منطلق آخر متنـاقض كليا لمنطلق الحركة القومية ومغاير له تمـاما فى أسسه ونتائجه •

الحركة الشيوعية تنطلق من الطبقة لا من الامة • فنقطة انطلاقها أممية لاقومية • وتقوم على اعتبـار الطبقة هى أساس تكوين المجتمع البشرى • ويترتب على هذا المنطلق هنا ايضا مترتبات فكرية ونضالية تشكل الملامح والدوافع الاساسية للحركة الشيوعية فى الوطن ، فبناء على هذا المنطلق اللاقومى :

تعتبر الحركة الشيوعية أن تاريخ التطـور الاجتماعى يدلل على أن تكوين المجتمع البشرى ، منذ القديم حتى يومنا هذا ، هو تكوين طبقى . فالناس لم يتطوروا نحو التالف فى أمم وتكوين مجتمعات قومية بل تطوروا نحو التالف والانتظام فى طبقات تكون كل منها وحدة اقتصادية اجتماعية قائمـة بذاتها • ورغم ان الحركة الشيوعية تعترف بوجود الامم وتقر أن هذه الامم شكلت دولا قومية فى العصر الحديث ، الا أنها لاتعترف بالقوميات كظاهرة تعبر عن الاتجاه الطبيعى للتطور الاجتماعى التـاريخى للجماعات البشرية ، ولاتعتبر الامة الخلية الاجتماعية الاساسية الطبيعية فى المجتمع البشرى ، وانما تعتبر ان نشوء الامم والقوميات لم يكن شيئا آخر غير شكل من أشكال الصراع الطبقى ونتيجة من نتائجه .. فالامم والقوميات نشأت بنشوء الرأسمالية! وذلك لان البورجوازية النامية فى كل مجتمع عملت على تكوين دولة قومية لكى توجد لنفسها سوقا اقتصـادية موحدة متجانسة تؤمن مصالحها الاقتصادية الخاصة ولكى تكون قادرة على الدفاع عن هذه المصالح ضد أطماع بورجوازية الدول الاخرى ، وهكذا (نشأت الامم فى عصر الرأسمالية الصاعدة) . ولهذا فبالرغم من أن تكوين العالم يظهر أمما ومجتمعات قومية الا أن هذا ليس هو التكوين الحقيقى للمجتمـع البشرى ، ويجب ان نفتش عن هذا التكوين الحقيقى فى التكوين الطبقى للعالم لا فى الامم والقوميات التى هى مجرد مظهر من مظاهره .. مظهر من مظاهر نشوء الطبقات البورجوازية واتسـاع الفروقات والتناقضات الطبيعية . فنشوء الامم والقوميات هو (مشروع) وضعته البورجوازية لتـأمين مصالحها •

وبناء على ذلك تعتبر الحركة الشيوعية أن (انقسام الناس الى طبقات هو أعمق أثرا وابعـد أصولا من انقسام الناس الى أمم) •

وبناء على هذا المنطلق تعتبر الحركة الشيوعية أن الرابطة الطبقية - وليست الرابطة القومية - هى التى توحد (توحيدا حقيقيا) بين أفراد الجماعات

البشرية وهى التي تخلق فيهم المشاعر والترابط والارادة الواحدة الحقيقية على أساس طبقي بحت وتجعل منهم كلا واحدا متجانسا • فليس للرابطة القومية للامة والقائمة على وحدة اللغة والتاريخ والوطن والثقافة والعادات والتقاليد والمصلحة القومية ، أى اعتبار (حقيقى) فى عرف الحركة الشيوعية فى هذا الصدد • ذلك ان الحركة الشيوعية رغم اعترافها بالامة وروابطهـا الا انها جعلت للرابطة الطبقية التاثير الحاسم الاول فى تكوين الناس بغض النظر عن أممهم وقومياتهم لان : « انقسام المجتمع (وبالتالى كل أمة) الى طبقات متناحرة هو أشد عمقا وأبعد أصولا من انقسام الناس الى امم » (١)

وبناء على هذا المنطلق ، تعتبر الحركة الشيوعية كنتيجة طبيعية لما سبق ، ان تضارب المصالح وتناقضها هو وضع من صلب تكوين مجتمع الأمة يولد معه ولا يزول الا بزواله . فالاستغلال والاستثمار والظلم الاجتماعى الجائر ، كلها ، صفات ملازمة للقومية . ذلك لان هذه الصفات هى صفات ملازمة للبورجوازية التى تستغل جهد الطبقة العاملة لزيادة ارباحها ، وما دامت القومية هى من نتائج نمو البورجوازية ، لذلك فهى تحمل ايضا كل صفات هذه البورجوازية •

وبناء على هذه الفرضيات الفكريه المغلوطة تصل الشيوعية الى رسم الطريق النضالى الذى يجب أن تسير فيه حركة التطور الانسانى فتقول :

ان الطبقات البورجوازية المستغلة (الطبقات المالكة لوسائل الانتاج) تجمعها فى اية دولة كانت مصلحة واحدة مع الطبقات البورجوازية الاخرى كافة •• ورغم أن البورجوازية قد تخوض أحيانا نضالا ضد بعضها البعض لدرء أطماع بعضهـا عن بعض . الا انها تتحد مع بعضها حين يشتد خطـر الطبقات المستغلة ، وهكذا تتصل هذه الطبقات البورجوازية فى النهاية لتشكل طبقة واحـدة كبيرة عالمية تقوم على رابطة المصلحة التى هى اقوى من رابطة الأمة . فالمصلحة الاقتصادية الطبقية توحـد البورجوازية بغض النظر ودون أى اعتبار للتقسيمات القومية للعالم او للامم التى تنتسب اليها .

وان الطبقات المستغلة (الطبقـة العاملة التى لا تملك وسائل الانتاج) ، تجمعها فى اية دولة كانت مصلحة واحدة مع الطبقات المستغلة الأخرى كافة ، ورغم أن العمال ينخدعـون احيانا بنـداءات البورجوازية التى تحـاول الهاءهم عن مطالبهم الاقتصادية وخنق وعيهم الطبقى بتغذية الشعور القومى فى نفوسهم ودعوتهم للدفاع عن كيان الوطن وحمايته ، الا أن العمال يجب الا ينخدعوا بهـذه النداءات والاسـاليب ، وان يرفضوا النداءات القومية لأنها تهدف لطمس مصالحهم الاقتصادية . وهكذا توحد المصلحة الاقتصـادية الطبقية كافة العمال بغض النظر عن قومياتهم وعن الامم التى ينتسبون اليها ، وهذه الرابطة الطبقية المصلحية هى اقوى من اية رابطة أخـرى . ويتصل العمال عن هذا الطريق ببعضهـم البعض ليشكلوا طبقة واحدة عالمية كبيرة .

وهكذا .. ينجلى التكوين الحقيقى للمجتمـع البشرى الكبير عن طبقتين عـالميتين متصارعتين هما البورجوازية والطبقه العاملة (٢) •فليس للامم والقوميات والمشاعر القومية اى اعتبار حقيقى اذن فى تكوين الناس فى العالم !

وبما أن الناس لا يتميزون ولا يتالفون بنـاء على انهم أمم وبناء على تكوينهم القـومى ، بل بناء على انهم طبقات وبناء على تكوينهم الاقتصادى الـذى لا يعترف بالحدود القومية ، لذلك تصل الشيوعية بناء على هذه الفرضية الخاطئة الى نتيجة خاطئة هى : أن القوميات وقد نشأت بنشوء الرأسماليـة ستزول بزوال الرأسمالية وزوال الطبقات . ولذلك فان النضال ضد مفهوم (وحدة الامة) وتغـذية الصراع الطبقى ودفع التناقضـات الطبقية الى ذروتها هو الواجب الاول الملقى على عاتق الطبقـة العاملة ، وبنتيجة هذا النضال يتضح أكثر فأكثر التكوين الطبقى الحقيقى للعالم ويستحق الشعور بالوحدة القومية فى الامم ، وهكذا يبدأ مجتمع الأمة بالتفكك ، وبانتهاء هذا النضال بانتصار الطبقـة العاملة تزول الطبقات وتزول الامم .

وبناء على ذلك كله ، تعتبر الشيوعيـة ان ولاء الفرد ليس لأمته ومجتمعه القومى بالدرجة الاولى وانما لطبقته العالمية التى ينتسب اليها . فمـا دامت الرابطة الطبقية (التى تعتبرها الشيوعيـة الرابطة الاولى التى توحـد بين أفراد العالم) هى رابطة عالمية لا تعترف بالرابطة القومية ، ومـا دام التصنيف الطبقى الذى تقسم على اساسه الجماعات

---

(١) فليبرولين – الطبقة والامة ، ص ٥

(٢) نتحدث هنا بالطبع عن تركيب المجتمـع البشرى – من وجهة نظر الماركسية – فى العصر الحديث ، اى بعد انهيار الإقطاع ونمو البورجوازية •

البشرية هو تصنيف عالمي يتخطى نطاق الامة ولا يعترف بالحدود القومية للمجتمع ، فمن الطبيعي أن تصل الحركة الشيوعية بناء على هذه الفرضية اللاعلمية الى اعتبار ولاء الفرد هو ولاء عالمي لا قومي ، وهو ولاء لطبقته قبل أن يكون ولاء لامته .

* * *

هذا هو بايجاز منطلق الحركة الشيوعية . وهذه بايجاز بعض المترتبات الاساسية التى تترتب عليه .

ولا شك ان بين نقطتي انطلاق الحركة القومية والحركة الشيوعية اختلافا واضحا لا بد وان يؤدي الى خلاف جذري في النظرة للحياة البشرية والتطور الاجتماعى التاريخي للعالم والشكل الذى يجب ان ينظم على أساسه هذا العالم . ومن الطبيعي ان نعنى ونحن بصدد بحث معركة الحركة القومية العربية مع الشيوعية في الوطن ، بكيفية انعكاس هذا الاختلاف (وماينجم عنه من خلاف) في النظرة للامة العربية ولحركة التطور القومي للعرب وللمعركة العربية التى توافق هذا التطور التاريخي . كما انه من الطبيعي والواجب أن نهتم ، بعد أن اتخذت الحركة الشيوعية في الوطن موقفا معاديا من حركة التطور القومي العربي التاريخي ، بابراز الفرضيات الفكرية المغلوطة التى يحاول على أساسها الشيوعيون الانحراف بخط هذا التطور وقطع أنفاس نهضتنا العربية وطعن نضال الامة العربية في معركة تحقيق وجودها القومي . وان أهم مايعنينا في هذا البحث هو :

موقف الحركة الشيوعية من : الامة والقوميه :

ان هذه التجربة الطويله للاتحاد السوفيتي ثم للمعسكر الشرقي عامة ، قددلت رغم التمركز المطلق للسلطة في دول هذا المعسكر ، ورغم الديكتاتورية الفكرية والتوجيهية المطلقة لمدة طويلة ، ان الحركة الشيوعية تعاني بشدة من الموقف الفكرى الخاطيء تجاه الامة والقومية ، بحيث يصح بكل علمية ، أن نشير الى الازمة التى تعانيها الحركة الشيوعية تجاه عمق فكرة القومية اكثر من ان نقول أزمة القومية تجاه الماركسية ـ اللينينية .

هذا الموقف الفكرى الخاطيء يظهر بوضوح في المفهوم الشيوعي عن الامة . سواء على الصعيد الفكري : في تعريف الامة وقضية الامة والطبقة والامة والدولة ، أو على الصعيد العملي : في التطور الانساني الاجتماعي وفي مجريات الاحداث التاريخية الواقعية في العالم ، حيث نجد أن الحركة الشيوعية تقع في عدة أخطاء هامة ، حين تحاول عبثا أن تصطنع موقفا فكريا منسجما يوفق بين اعترافها بالامة وبالتكوين القومي للناس في أمم ، ثم بين محاولة اخضاع هذا الاعتراف لقوانين التطور الماركسية التى تعود وتجعل الامة مجرد نتيجة من نتائج تطور قوى ووسائل وأساليب الانتاج الاقتصادي التى اتخذت شكلا معينا في القرنين الثامن عشر ثم التاسع عشر بشكل خاص .

فالشيوعية أقرت بوجود الامة وعرفتها بانها : « جامعة اناس ثابتة تألفت تاريخيا ، نشأت على أساس جامعة اللغة ، والارض والحياة الاقتصادية والخصائص النفسية التى تتجسد في جامعة الثقافة » . (١)

وان من يقرأ هذا التعريف للامة لاول مرة ، يعتقد لاول وهلة ، ان الشيوعية تعطى الامة مفهوما تاريخيا اجتماعيا يجعلها حقيقة اجتماعية تاريخية لها خط تطورها العميق الذى يحدد تطور الناس الاجتماعي بانه التطور نحو التألف في امم وتكوين المجتمعات القومية . ولكن الشيوعية لا يمكن ان تنحو هذا المنحى في التفكير لانها لابد أن توجد لهذه الظاهرة الاجتماعية التاريخية أساسا اقتصاديا ، اى لا بد أن تربط نشوء الامم ووجودها بقوانين التطور الاقتصادي وتطور قوى وعلاقات الانتاج ، ولهذا اتبعت هذا التعريف للامة بمفهوم غريب لتفسير نشوء الامم فقالت : « ليست الامة مجرد مفهوم تاريخي ، ولكنها مفهوم تاريخي في عصر معين ، عصر الرأسمالية الناهضة . ان سير تصفية الاقطاعية ونمو الرأسمالية هو في ذات الوقت سير تألف الناس في أمم » . (٢)

ان الانسان لا يستطيع الا ان يصدم بهذا الخطأ الجذرى الذى تقع فيه الشيوعية في محاولة فاشلة لتفسير كافة مظاهر الحياة الانسانية بقوانين اقتصادية محضة . والقصة بالنسبة للشيوعية تتسلسل على الشكل التالي : بما ان موضوع تكون الامم ونشوئها لا يمكن أن يفسر علميا بهذه القوانين الاقتصادية المحضة من جهة ، وبما ان نصوص الانجيل الماركسي المقدس لا يجوز أن تبدل حتى ولو خالفت الحقائق العلمية المتعارف عليها من جهة

---

(١) ى . ستالين ـ الماركسية والمسألة الوطنية ـ ص ١١ ، دار الطبع والنشر باللغات الاجنبيه ، موسكو .

(٢) المصدر نفسه : ص ٢٠ .

أخرى . اذن فلتزور الحقائق العلميــة لكى تطابق نصوص الانجيل الماركسى !

فالامة جماعة ثابتة من الناس » . ومن الواضح أن أي جماعة من الناس لا تصل الى وضع « ثبوت » الا نتيجة تفاعل اجتماعي تاريخي استغرق زمنا طويلا . لا سيما وان ستالين يوضح المقصود بكلمة « ثابتة » بقوله : « ومن جهة أخرى لا مجال للشك فى أن الدولتين الكبيرتين ، دولة سيروس أو دولة الاسكندر ، لم يكن بالامكان تسميتهما أمتين مع انهما تآلفتا تاريخيا . تآلفتا من مختلف القبائل والعروق . لم تكونا امتين ، بل اوزاع جموع عرضية ضعيفة الترابط فيما بينها ، تنفرط وتلتئم تبعا لنجاحات أو هزائم هذا الفاتح أو ذاك .

وهكذا فالأمة ليست اوزاعا عرضية ولا سريعة الزوال ، بل جامعة أناس ثابتة » (١)

والامة جماعة ((تآلفت تاريخيا)) ، ولايمكن لاية جماعة أن تتآلف تاريخيا ، الا وفق المعنى البسيط الواضح لكلمة ((تاريخ)) ، اى انها تآلفت عبر تسلسل الأجيال التاريخية ، وعاشت حياة واحدة لزمن طويل .

والامة ((لها لغة واحدة)) ، ولا يمكن لاية جماعة أن تكون قد استكملت لغتها الواحدة الا نتيجة حياة مشتركة عاشتها سوية لمدة طويلة وقامت خلالها بتفاعل اجتماعى تاريخى طويل .

والامة لها ((تكوين نفسى مشترك)) ، ولا يمكن لاية جماعة أن تمتلك تكوينا نفسيا مشتركا ، اى خصائص نفسية مشتركة تميزها عن سائر الجماعات الا نتيجة حياة تاريخية مشتركة واحدة ، خاضت فيها الجماعة تجارب واحدة وجابهت مشكلات مشتركة .

والثقافة المشتركة لا يمكن أن تتشكل فى أية جماعة الا نتيجة عملية حضارية ـ مهما كان مستواها ـ شهدت تفاعلات اجتماعية استغرقت زمنا طويلا .

فكل هذه العناصر المكونة للامة الواحدة لم تتشكل فجأة ، ولا فى مدة زمنية وجيزة ، بل تشكلت فى الامة تشكيلا تاريخيا عبر تسلسل اجيال طويلة .

فكيف اذن يمكن أن نقول ان الامم نشأت بنشوء الرأسمالية فى القرن الثامن عشر أو التاسع عشر على وجه الخصوص ؟

يبقى الآن للشيوعية « مخرج » واحد ذلك هو : ان هناك عنصرا آخرا هو الحياة الاقتصادية الواحدة ؟ وان الحياة الاقتصادية لم تكن واحدة ولم تتوحد الا مع تصفية النظام الاقطاعي نهائيا ونشوء الرأسمالية الصاعدة في القرن التاسع عشر ، ولذلك فان الناس لم يكونوا أمما قبل هذا التاريخ بل كانوا ((جماعات)) فيها امكانية أمة ، ولم يتحولوا الى أمم الا في ذلك القرن .

لاشك أن هذه النظرية الفكرية غريبة حقا ! فهل يجوز ، علميا ، أن نعلق وجود الامم أو عدم وجودها على وجود حياة اقتصادية واحدة أو عدم وجودها ؟

هل توجد الامة في حالة وجود سوق واحدة وينتفي وجودها اذا لم توجد هذه السوق ؟

ولعل الاغرب من ذلك أن الشيوعية ترد بالايجاب !.. يقول ستالين في رسالة شهيرة وجهها الى بعض منتقدى مفهومه للامة من الماركسيين نشرت فيما بعد في كراس باسم « اللينينية والمسالة الوطنية » : « ان الامة خلافا لمزاعمكما المغلوطة لم توجد ولا كان ممكنا أن توجد في عهد ما قبل الرأسمالية ، ما دامت السوق الوطنية لم تكن بعد موجودة ، كما لم تكن هنالك مراكز اقتصادية ولا ثقافية وطنية ، وعليه فان العوامل التي يمكن أن تقضى على التجزئة الاقتصادية عند شعب معين وأن تجمع في كل وطن واحد أقساما منه لاتزال مجزأة ، لم تكن موجودة » ! (اللينينية والمسالة الوطنية ـ ى . ستالين ص ٦)

ولاشك أن كل انسان يستطيع الآن أن يدرك أن التعريف الشيوعي للأمة هو تعريف مغلوط من أساسه ، وأن وضع « الحياة الاقتصادية الواحدة » كشرط رئيسي (أو كشرط اول يتوقف وجود الامة وعدم وجودها عليه) ليس الا محاولة فكرية فاشلة لايجاد تفسير اقتصادي « ديالكتيكي » لكل حدث اجتماعي انساني مهما كان صغيرا أو كبيرا .

ان وجود الامة لا يشترط بالحتمية وجود حياة اقتصادية واحدة . ورغم أن الفكرة الشيوعية جاءت تعبر في كثير من جوانبها عن ردة فعل غير متوازنة لظروف المجتمع الاوروبي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الا أن « عقدة الاقتصاد » التي تسيطر على الفكرة الشيوعية لاتجد لها أي سند علمي بصدد هذه القضية الهامة لا في أوروبا ولا في غير أوروبا . وهذا الموقف الفكري الخاطيء من الامة ان كان يبرز

---

(١) ى . ستالين ـ الماركسية والمسالة الوطنية ، ص ٨

بوضوح في المجتمع الاوروبي فهو يبرز بشكل صارخ في مناطق أخرى من العالم .

فهل ان الامة الالمانية لم توجد الا في عام ١٨٧٠ او الا بعد اقامة الاتحاد الاقتصادي الجمركي عام ١٨٣٠ لأن التجزئة التي كانت تعيش فيها كانت تمنع وجود حياة اقتصادية واحدة وسوق اقتصادية واحدة ؟

وهل ان الامة الايطالية لم تكن امة قبل قيام الوحدة الايطالية (والتي لم تتم بشكلها الكامل الا عام ١٨٧٠) لعدم وجود حياة اقتصادية واحدة وسوق اقتصادية واحدة ؟

واذا تركنا جانبا المجتمع الاوروبي وأخذنا الامة العربية فماذا نجد ؟

لم يكن في الوطن العربي سوق اقتصادية واحدة ، ولم تقم حياة اقتصادية واحدة تنظم الشعب العربي بكافة اجزاء الوطن . ذلك ان الاستعمار عمل مذ دخل الوطن العربي على خلق وتعميق التجزئة فيه ، واقام دولا وكيانات عديدة اضفى عليها صفة « الرسمية » واقام الحواجز الجمركية بين القطر والاخر ، كما فرض قيودا هامة على التنقل والسفر الخ ..

ومن الواضح ان قيام حياة اقتصادية واحدة في ظل هذا الوضع أمر مستحيل عمليا . يضاف الى ذلك ، ان الاستعمار عامة لا يمكن ان يساعد على تطوير اقتصاد اية أمة يستعمرها ، بل لا يمكن الا ان يفتش عن وسائل جديدة باستمرار لكي يعرقل نمو الحياة الاقتصادية فيها .

واذا تفحصنا الوطن العربي اليوم ، فربما لا نستطيع ان نقول ، بكل اطمئنان علمي ، ان هناك حياة اقتصادية واحدة ، بمعنى سوق اقتصادية واحدة ، تنتظم الشعب العربي بأسره . واذا تجاوزنا مشكلة الحواجز الجمركية والاقتصادية المختلفة القائمة في الوطن العربي نتيجة التجزئة والاستعمار ، فان بعض اجزاء وطننا لا يكاد يوجد بينها حتى علاقات وتبادلات اقتصادية هامة كما هي الحال بين اجزاء المشرق واجزاء المغرب العربي في الوطن .

فهل نقول ، بناء على ذلك ، ان الامة العربية لم توجد بعد ؟ ان العرب لا يؤلفون أمة ، وان ليس هناك أمة عربية اليوم ؟!

واذا سرنا ابعد من ذلك وفرضنا جدلا ان هناك سوقا اقتصادية واحدة قد بدأت تتكون في الوطن ، فمنذ متى يمكن ان تكون قد بدأت تتكون هذه السوق ؟ منذ بضع سنوات ؟ منذ بضع عشرة سنة؟ فهل ان الامة العربية اذن ـ بناء على هذا الافتراض ـ قد وجدت منذ بضع سنوات أو منذ بضع عشرة سنة ؟! .

ان ما ينطبق على الامة العربية بصدد هذا المفهوم الخاطىء للشيوعية عن الامة ينطبق كذلك على كافة الامم الاخرى . ليس هناك ارتباط سببي حتمي ، بأي شكل ، بين وجود الامة ووجود سوق اقتصادية واحدة ، وذلك ببساطة ، لان الامم لا تتكون في السوق كما يدل الاستقراء العلمي للواقع التاريخي. وجود الامة يرتكز الى عوامل من نوع آخر غير نوع العوامل التي يرتكز اليها وجود السوق الاقتصادية الواحدة . فبينما يرتكز نشوء ووجود الامة الى عوامل تاريخية ولغوية وجغرافية وثقافية الخ .. يرتكز نشوء ووجود السوق الاقتصادية الواحدة الى عوامل تتعلق بوضع مجتمع الامة من حيث كونه موحدا متلاحقا او مفككا مجزءا ، ومن حيث مدى سهولة ويسر عمليات الاتصال والاحتكاك والتفاعل بين مختلف اجزاء وطن الامة ، او صعوبة الحواجز والعوائق التي تحول دون هذا الاتصال والتفاعل . وهذا ما يفسر لنا ان امما كانت موجودة ، وبعضها موجود اليوم (كالامة العربية) ، رغم عدم وجود سوق اقتصادية واحدة تنظم كافة اقسام الامة . ان الحياة الاقتصادية الواحدة والسوق الاقتصادية الواحدة تلعب دورا اساسيا في حياة الناس ، ولكنها تلعب هذا الدور في تسريع قيام دولة الامة لا في ظهور الامة نفسها ، في زيادة الاحتكاك والترابط بين اقسام الامة وزيادة حيوية التفاعلات والمبادلات الاقتصادية فيما بينها ، لا في وجود او عدم وجود الامة نفسها .

ومن هنا يتضح بجلاء ان السوق الاقتصادية الواحدة هي نتيجة من نتائج وجود الامة الواحدة وليست الشرط الاساسي الاول لتكون الامة . لقد تكونت الامم قبل ظهور السوق الاقتصادية الواحدة .

* * *

ان هذا المفهوم الفكري الخاطىء لنشوء الامة له اهمية قصوى في هذا البحث الذي نحن بصدده سواء من حيث تأثيره على موقف الحركة الشيوعية في الوطن ، أو من حيث ابرازه للتناقض الفكري الرئيسي بين الحركتين القومية والشيوعية بشكل عام .

فعلى الصعيد الداخلي ، نجد انه بناء على هذا المفهوم لنشوء الامة ووجودها ، كان الشيوعيون في الوطن العربي مثلا ، ينكرون وجود أمة عربية

واحدة إلى ما قبل فترة قصيرة . بل وذهبوا استناداً الى هذا المفهوم الى ابعد من ذلك (كما سنرى) ، حيث لم ينفوا وجود الامة العربية لعدم وجود سوق اقتصادية واحدة فحسب ، بل تضخمت في عقولهم عقدة الاقتصاد لحد انهم نفوا كذلك وجود وحدة جغرافية ووحدة تاريخية لجمعان الامة العربية !

وعلى الصعيد الفكري العام ، يتضح التناقض الفكري الجذري بين الحركة الشيوعية والحركة القومية اكثر فأكثر .. فبعد هذا المفهوم الخاطيء لنشوء الامة والذي جعل الامة نتيجة للتطورات الاقتصادية ، تنتقل الشيوعية الى تحديد مستقبل الامة حيث تخضع مصيرها ايضا للتطورات الاقتصادية . وهكذا تحدد الشيوعية نظرية نشوء الامم ومستقبلها بالمراحل التالية :

مرحلة نشوء الامم — وبما ان هذه المرحلة تتم في « عهد الراسمالية الصاعدة » ، لذلك فالامم التي تتكون قبل انتصار الحركة الشيوعية في اي منطقة من العالم هي « امم بورجوازية » ذلك ان : « نشوء هذه الروابط الوطنية لم يكن شيئا آخر غير نشوء الروابط البورجوازية » . (لينين) .

مرحلة الامم الاشتراكية — وتتكون هذه الامم في البلاد التي تنتصر فيها الحركة الشيوعية وتنهار الراسمالية . فبما ان الامم التي تكونت في عهد الراسمالية الصاعدة هي امم بورجوازية ، فالامم التي تتكون في عهد الماركسية اللينينية هي « امم اشتراكية » . فبما ان « الامة ليست مجرد مقولة تاريخية ، بل مقولة تاريخية لعهد معين هو عهد الراسمالية الصاعدة » (١) لذلك « ان مصير هذه الامم مرتبط بمصير الراسمالية ، ومؤدي ذلك انه مع سقوط الراسمالية يجب ان تغيب هذه الامم عن المسرح » (٢) . وقد اكد ستالين مرة اخرى على هذا الارتباط السببي الحتمي بين بقاء الراسمالية وبقاء «الامم البورجوازية» بقوله في الرد على ميشكوف وكوفالتشوك : « انكما لستما موافقين على هذا الامر ، وهو ان يربط مصير الامم ، وفي هذا المورد مصير الامم البورجوازية القديمة ، بمصير الراسمالية . كما انكما غير موافقين على هذا المبحث القائل انه بزوال الراسمالية تزول الامم البورجوازية القديمة . اذن فباي شيء يمكن ان يربط مصير هذه الامم ان لم يربط بمصير الراسمالية ؟ وهل من العسير ان تفهم انه بانطواء الراسمالية ينطوي عهد الامم البورجوازية ..؟ » (٣) .

ونتيجة لهذا الربط السببي بين ظهور الراسمالية وظهور الامة تصل الشيوعية الى المرحلة الثالثة وهي :

مرحلة اندثار الامم — فبانتصار الحركة الشيوعية في العالم واندثار الراسمالية من العالم ، تندثر الامم . ذلك ان الامم التي ظهرت في عهد الراسمالية ، تزول حين لا يبقى في العالم راسمالية !

وبناء على ذلك تخيل ستالين مشروعا لعملية اندثار الامم من العالم في هذه المرحلة فقال : «وهكذا ستكون هناك في هذه المرحلة لغة اممية عامة بموازاة اللغات الوطنية . من الجائز ان لا يؤسس في باديء الامر مركز اقتصادي عالمي واحد عام لجميع الامم مع لغة عامة ، بل يؤسس عدد من المراكز الاقتصادية الاقليمية لزمر مستقلة من الامم ، مع لغة مستقلة لكل زمرة من الامم ، وفي اعقاب ذلك فقط تتحد هذه المراكز في مركز عالمي واحد للاقتصاد الاشتراكي مع لغة عامة واحدة لجميع الامم » . وهكذا « اذ ذاك تبدا الفوارق الوطنية واللغات بالاندثار . » (١)

فملخص هذه النظرية : ان الامة هي مجرد ظاهرة لقوانين التطور الاقتصادي لها بداية ولها نهاية فهي قد ظهرت بظهور الراسمالية في العالم لذلك ستزول بزوال الراسمالية من العالم . وبين فترة ظهورها (في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر) واندثارها (حين تنتصر الشيوعية في العالم) تمر بمرحلة وسيطة هي مرحلة الامم الاشتراكية » .

والواقع ان هذه النظرية تبدو اقرب الى مشروع يقوم على التخيلات اكثر مما هي نظرية تستند الى الواقع الاجتماعي للناس رغم هذه المحاولات الجاهدة لإلباسها ثوبا من الحتمية تحت ستار العلم .

ومهما يكن ، فما يهمنا فيها هو مناقشة هذا الاتجاه الفكري . فمن الواضح ان كل هذه النتائج المغلوطة التي تصل اليها الشيوعية ليست الا نتيجة للفرضية المغلوطة التي انطلقت منها وهي ربط ظهور الامة بظهور الراسمالية . فبناء على هذه الفرضية تصل الشيوعية الى القول : بان هناك امما بورجوازية وامما اشتراكية ، وبناء عليها تصل الى نظرية اختفاء الامم باختفاء الراسمالية ، وبناء عليها ايضا جعلت الامة مجرد ثمرة من ثمار البورجوازية

(٤) ستالين : رد على الرفيقين ميشكوف وكوفالتشوك ــ « اللينينية والمسألة الوطنية » ، ص ٤٠

(٣) ستالين ــ « اللينينية والمسألة الوطنية » ، ص ١٢

(٤) ستالين ــ « اللينينية » والمسألة الوطنية ، ص ٢٢ ، ٢٣

ستجف وتسقط بمجرد سقوط شجرة البورجوازية، وبناء عليها تقول بأن نشوء الامة قد ســار في خط متواز مع الاضطهاد الطبقي والاستثمار والاستغلال، وان القضاء على الاستثمار الطبقي والاضطهـاد القومي لا يمكن الا ان يمر عبر عملية القضاء علـى الامم لانه بتهديمه للبورجوازية المستثمرة سيؤدي ضمنا الى تهديم الامم !

فلنبدأ بتفحص صحة الفرضية اذن لنصل الى الحكم على صحة النتائج التي بنيت عليها .

فهل حقا يرتبط ظهور الامة بظهور الراسمالية ؟ وهل يجوز بالتالي ان نصنف الامم تبعا لذلك الى «امم» بورجوازية و «امم» اشتراكية ؟

وهل يجوز علميا ، بناء على ذلك ، ان نقول ان الامم ستبقى ما بقيت الراسمالية وانها ستختفي حين تختفي الراسمالية ؟ هل ان ما يزول بزوال البورجوازية هو الامة ام هي النظم والعلاقات البورجوازية ؟

لقد تبين لنا من العرض السابق ان الامم قد تكونت قبل تكون السوق الاقتصادية الواحدة ، وبالتالي ، قبل ظهور الراسمالية الصاعدة . والواقع ان الشيوعية تبدو - في اصرارها على هذا التلازم بين ظهور الامة وظهور الراسمالية - كمن يقع في خلط فكري ثان هو : الخلط بين ظهور الامة وبين ظهور الحركات القومية للامم . بين الامة ككائن اجتماعي تاريخي تكون عبر الاجيال ، وبين الحركة القومية ، اي حركة تيقظ الشعور القومي لوجود الامة الواحدة وضرورة تجسيده في دولة واحدة ، والتي شهدها القرنان الثامن عشر والتاسع عشر ويشهدها القرن العشرون حاليا . فما نشأ ووجد في هذين القرنين ليس الامم وانما الحركات القومية الهادفة الى اقامة دولة الامة الواحدة ذات السيادة .

وهناك فرق كبير ، علميا ، بين الحدثين .

ومن هنا يتبين لنا ان عملية تصنيف الناس الى امم بورجوازية وامم اشتراكية ، ونظرية اندثار الامم باندثار الراسمالية ، ليست الا نتيجة واستمرارا للخلط بين الامة وبين ظهور الحركات القوميــة الهادفة لاقامة دولة الامة والتي ربما يصح ان نقول ان البورجوازية لعبت دورا فيها في اوروبا . لذلك فالحركة القومية الاشتراكية لا تقول : هنـاك امم بورجوازية وامم اشتراكية ، بل تقول : هنـاك دول او مجتمعات بورجوازية ودول او مجتمعـات اشتراكية . بمعنى ، ان هناك مجتمعات تسـود فيها انظمة اقتصادية اجتماعيـة بورجوازية ، ومجتمعات تسود فيها انظمة اقتصادية اجتماعيـة اشتراكية .

ولا يجوز الخلط بين الامة وبين الانظمة والعلاقات التي تسود مجتمع الامة .

وجود نظام راسمالي او وجود نظام اشتراكي في مجتمع امة ما ، لا علاقة له بالامة بل بمجتمع الامة . اي ، ان الامة ككائن اجتماعي تاريخي ، كجماعة ثابتة من الناس تألفت تاريخيا بناء على روابط معينة ، قد توجد في ظل نظام راسمالي وقد توجد في ظل نظام اشتراكي ، وليست الامــة هي التي تكون بورجوازية في الحالة الاولى واشتراكية في الحالة الثانية ، وانما هو مجتمع الامة الذي يكون بورجوازيا في الحالة الاولى واشتراكيا في الحالة الثانية .

وهنا ايضـا ، هناك فرق كبير ، علميا ، بين المفهومين .

لذلك ، فبينما تقول الحركة الشيوعية ان الامم ستزول بزوال الراسمالية وانتصار الاشتراكية في العالم ، نقول نحن : ان المجتمعـات البورجوازية ستزول بزوال الراسمالية وانتصار الاشتراكية في العالم . بانتصار الاشتراكية يتهدم المجتمـع البورجوازي ، تتهدم النظم والعلاقات الاقتصادية الاجتماعية البورجوازية ليقوم على انقاضها المجتمع الاشتراكي ، لتقوم النظم والعلاقات الاقتصـادية الاجتماعية الاشتراكية . اما الامة نفسها ، فتبقى موجودة دوما « كجماعة ثابتة تألفت تاريخيا بناء على روابط معينة » ، تبدل وتغير في نوعية انظمتها وعلائق مجتمعها ، ولا تختفي ابدا من الوجود بزوال نظم وعلائق معينة وحلول نظم وعلائق اخــرى . فوجودها وتكونها ونشوؤها لم يكن اصــلا نتيجة لسيادة نظم وعلاقات اقتصادية اجتماعية معينة ، ووجودها وبقاؤها بالتـالي ليسا مشروطين ولا متوقفين على التغييرات التي تحدث في هذه النظم والعلاقات .

هكذا تكون الامة كوجود وتكوين هي الثـابت ، والنظم والعلاقات كمحتوى وكشكل لحيـاة الامة هي المتحول ، اذا اردنا ان نستعمل تعبيرا رياضيا .

* * *

وكل هذه النظرية الخاطئة لنشوء الامم ومستقبلها تعود وتوجهنا مرة ثانية الى نقطة الانطلاق الاساسية لكل من الحركتين القومية والشيوعية وهي مسالة الامة والطبقة ، مسالة اولوية الامة او اولوية الطبقة في تكوين العالم الاجتماعي .

ولسنا هنا في معرض مناقشة الاساس الفلسفي الذي انبثقت عنه هذه النظرية . ولكن مما لا شك فيه ان الشيوعية تحاول في هذا الصدد ان تطبق

قوانينها في الطبيعة والاشياء الجامدة على السلوك الاجتماعي الانساني والعقل . ولاي حد نستطيع فعلا أن ننقل مشاهداتنا في الطبيعة والاشياء الجامدة لنطبقها تطبيقا حرفيا على السلوك الانساني والعقل متجاهلين دور الوعي ودور الارادة في تكييف وتطوير وتوجيه الحياة الانسانية ؟ ولكن ما يهمنا أن تشير اليه هو هذا المأزق الذي تقع فيه الشيوعية في محاولة جعل الامة مجرد مظهر للتطور الاقتصادي ولتغير اسلوب وعلاقات الانتاج الاقتصادية ، ومجرد نتيجة من نتائج تطور العلاقات الطبقية في العالم ونشوء الرأسمالية الصاعدة في القرن التاسع عشر . والواقع انه لم يكن من السهل على الشيوعية وقد اصطدمت بوجود الامة ان توفق بين الاعتراف بالتكوين القومي للناس في أمم وبين العودة الى اخضاع هذا التكوين القومي لاساس طبقي اقتصادي . والآراء التي تبديها الشيوعية في محاولة التوفيق هذه تدعو فعلا لدراسة عميقة .

فبعد الاقرار بوجود الامم حسب التعريف السابق للامة تؤكد الشيوعية ان المجتمع الانساني الكبير يتألف من أمم متميزة مستقلة في شخصياتها : « وتتميز الامم عن بعضها البعض ، لا بشروط حياتها وحسب ، بل بمظهرها الروحي . ان هذه الخصائص التي تميز مظهر الامم الروحي أو تكوينها النفسي ، ونعني بها خصائص الطابع القومي ، تتكون في الامم خلال اجيال اذ ليس للامم شروط معيشة واحدة » (١) . وان : « الاختلافات في العقلية الطبقية لا تنفي وجود النفسية الوطنية المشتركة » (٢) وذلك بسبب « ان انقسام الناس الى طبقات يرتكز على اساس غير الاساس الذي يرتكز عليه انقسام الناس الى أمم . ولهذا فان وجود طبقات متناحرة في داخل الامة ، وذات مصالح متضادة على خط مستقيم .. لا ينفي ابدا واقع الامة بوصفها جماعة ثابتة من الناس تتصف بوحدة اللغة والارض والحياة الاقتصادية والتكوين النفسي » (٣) .

وبما أن الشيوعية مطالبة ــ بعد هذه الآراء السابقة ــ ان تفسر كيف توفق بين هذا الموقف وبين نقطة انطلاقها الاقتصادية الطبقية ، تعود فتلخص موقفها بصدد هذه المشكلة بقولها : « وكان مؤسسا الاشتراكية العلمية يعتبران ان انقسام المجتمع (وبالتالي كل امة) الى طبقات متناحرة هو أشد عمقا وابعد اصولا من انقسام الناس الى أمم » ! (١)

ومن الغريب فعلا ان تقر الشيوعية بوجود الامة استنادا الى عوامل تاريخية وعلائم ثابتة ، وان تعترف بتميز الامم عن بعضها البعض بمظهرها الروحي وتكوينها النفسي وخصائصها القومية ، وان تقر بأن وجود طبقات ذات مصالح متضادة في مجتمع الامة لا ينفي واقع الامة كجماعة ثابتة من الناس توحدها عوامل متعددة .. من الغريب ان تقر الشيوعية بكل هذا ، ثم تنتقل الى نقيض هذه الآراء حيث تضع كل هذه العوامل في كفة والمصلحة الاقتصادية الطبقية في كفة اخرى راجحة وتجعلها هي الأساس الاعمق والافعل في تكوين الناس وتمييزهم عن بعضهم البعض بغض النظر عن قومياتهم أو عن الامم التي ينتسبون اليها .

ومهما يكن ، فلا يهمنا هنا في الواقع ان نظهر ان الشيوعية تتناقض مع نفسها في هذا الموقف ، ذلك ان الفكرة التي تقول « ان انقسام المجتمع (وبالتالي كل امة) الى طبقات متناحرة هو اشد عمقا وابعد اصولا من انقسام الناس الى امم » ، هي التي تشكل القاعدة الفكرية للنظرية الشيوعية بصدد مسألة الامة والطبقة .

ونحن نريد ان نتوقف قليلا عند هذه المسألة الجوهرية .

فانقسام الناس الى طبقات متناحرة هو اشد عمقا وابعد اصولا من انقسام الناس الى امم .. والتشكل الطبقي كان اسبق تاريخيا من التشكل القومي . أي ان الطبقات تكونت قبل نشوء الامم . « .. الامم قد ظهرت بعد الطبقات بزمن طويل .. » (٢)

وما دامت الطبقات كانت اسبق تاريخيا من الامم ، وما دامت اشد عمقا من الامم في تكوين الناس وانقسامهم ، فنحن نريد ان نسأل : لماذا اذن تطورت الجماعات البشرية وكونت أمما مستقلة متمايزة لكل منها عناصرها الموحدة الخاصة وطابعها القومي الخاص ؟ .

---

(١) غليزرمين : الطبقية والامة ، ص ٢٠ .
(٢) غليزرمين : الطبقية والامة ، ص ٢٠ .
(٣) غليزرمين : الطبقية والامة ، ص ٢١ .
(١) غليزرمين : الطبقية والامة ، ص ٥ .
(٢) غليزرمين : الطبقية والامة ، يتحدث عن مفهوم ستالين للامة ، ص ٥٤ .

أما كان المفروض حسب هذه الفرضية السابقة أن يتطور الناس بناء على مصلحتهم الطبقية ويكونوا طبقات مستقلة متمايزة لا أمما مختلفة ؟

اما كان المفروض أن نجد فى العالم اليوم مجتمعات طبقية تتشكل على أساس الواقع الاقتصادي للناس ، لا أمما تتشكل على أساس واقعهم القومي .

ولكننا ماذا نجد (*)؟

نجد ان الجماعات البشرية عبر التاريخ اخذت تتقارب وتمازجت وتوحدت على أساس وحدة تاريخها ولغتها وأرضها وثقافتها ومصلحتها الكلية، ولم تتقارب وتتمازج وتتوحد على أساس مستوياتها الاقتصادية الطبقية . لذلك الفت الجماعات البشرية أمما ثم دولا قومية ، شاهدناها عبر التاريخ ، ونشاهدها اليوم فى العالم ، ولم تتفرق الى تجمعات اقتصادية بحتة .

ان الشيوعية لم تجابه هذا التساؤل الجذري صراحة ، بل حاولت أن تجيب عليه بشكل غير مباشر من خلال مناقشتها لمسالة الامة بشكل عام ، وذلك بتأكيدها على نقطتين :

الاولى . ان الامم ظهرت فى عهد الراسمالية الصاعدة ، فقبل هذا التاريخ لم يكن هناك أمم يمكن ان نتحدث عنها .

والثانية : انه بعد تكون الامم لا تزول الامم الا بعد زوال اختلاف المصالح الاقتصادية بين مختلف الامم وذلك بزوال البورجوازية والتناقض الطبقي وقيام نظام اشتراكي واحد .

ان مثل هذه الاجابة ، كما هو واضح ، تتجاهل النقطة الحساسة فى التساؤل ولا تمسها ، انها اجابة ((من منتصف الطريق)) لا من بدايته . واذا نحن تركنا جانبا وجهة نظر الحركة القومية وتركنا جانبا الخطأ الفكري الكامن فى القول بان الامة ظهرت بظهور الراسمالية ، فان الشيوعية نفسها لم تستطع تجاهل تطور الناس الاجتماعي المستقل نحو التالف فى امم حتى قبل عهد الراسمالية ، ولهذا قالت :

((وطبيعي ان عناصر الامة ونعني جامعة اللغة والارض والثقافة الخ لم تهبط من السماء ، وانما نشأت بالتدريج فى عهد ما قبل الراسمالية . الا ان هذه العناصر كانت اذ ذاك فى حالة جنينية ، وهي فى أفضل الحالات لم تكن سوى تمهيد لتشكيل الامة ، أى امكانية تشكيلها فى المستقبل عند توفر ظروف ملائمة معينة . وهذه الامكانية لم تتحول الى واقع الا فى عهد نهوض الراسمالية وسوقها الوطني ومراكزها الاقتصادية والثقافية)) (١) .

واذا تركنا مرة أخرى هذا الخلط بين الامة والدولة أو بين الامة والحركات القومية الهادفة لتوحيد الامة فى دولة واحدة والتى ظهرت فى عهد نهوض الرأسمالية ، فماذا نجد بصدد تساؤلنا السابق ؟

نجد انه قد كان هناك اذن ، حتى قبل عهد الراسمالية ، خط تطور اجتماعي انساني نحو التالف فى أمم على أساس ((جامعة اللغة والارض والثقافة والخ)) . واذا تجاوزنا وفرضنا جدلا ان الناس لم يكونوا امما آنذاك فقد كانوا ((امكانية امم)) على الاقل باعتراف الشيوعية ، فلماذا تطور الناس نحو تكوين ((امكانية الأمم)) ولم يتفرقوا حسب مصالحهم الاقتصادية الطبقية ؟

لا شك ان مرحلة ((الامة ــ الامكانية)) هي مرحلة اضعف فى تماسكها القومي من مرحلة الامة التامة التكون ، فاذا كان الناس لم يتفرقوا حسب مصالحهم الاقتصادية الطبقية فى تلك المرحلة ، فهل يمكن ان يتفرقوا فى المرحلة الجديدة ، مرحلة الامة التامة التكون ؟

كيف اذن يمكن ان نقول : ان انقسام الناس الى طبقات هو أشد عمقا وأبعد اصولا من انقسام الناس الى أمم ؟

ترى الا تدل هذه الظاهرة الاجتماعية الانسانية العميقة على شيء ؟

ان الحركة القومية الاشتراكية لا تحاول ولا للحظة واحدة طبعا ، أن تنفي تضارب المصالح الاقتصادية الطبقية داخل مجتمع الامة البورجوازي* أبدا ، ولكن ما تعنيه أن الناس قد تطوروا عبر التاريخ نحو التالف فى أمم رغم الخلافات والمستويات الاقتصادية بين صفوف الامة ، ولم يحل ذلك دون انتظام الناس فى أمم بناء على وحدة روابطهم اللغوية والتاريخية والجغرافية والثقافية الخ ..

وهنا نقطة الخلاف الجوهرية بين الحركة القومية الاشتراكية والحركة الشيوعية .

فبينما تنطلق الشيوعية من أن : انقسام الناس الى طبقات هو اشد عمقا وأبعد أصولا من انقسام الناس الى امم ، تنطلق الحركة القومية ، على

(١) ستالين ــ اللينينية والمسالة الوطنية ــ ص ٧

العكس ، من فرضية مناقضة تماما هي أن انقسام الناس الى امم هو اشد عمقا من انقسام الناس الى طبقات .

وهنا تكمن نقطة القوة الكبرى في موقف الحركة القومية الاشتراكية .

فهذا الموقف الذي رغم انطلاقه في الاساس من الامة ، لا يجعل من ((وحدة الامة)) ستارا يحجب عن عينيه تناقض المصالح الاقتصادية الذي قد يوجد في مجتمع الامة ، بل يعترف به ويسعى لحله حلا اشتراكيا يتلائم مع الظروف والخصائص القومية لكل امة .. هذا الموقف هو الموقف العلمي الذي نستطيع أن نفسر على أساسه تجربة التاريخ ، والذي ينسجم من جهة مع واقع الناس الاجتماعي المقسم الى أمم مستقلة متمايزة ، ومن جهة ثانية مع النضال الاقتصادي الذي ينشأ داخل مجتمع الامة حين تسوده علاقات اقتصادية اجتماعية جائرة .

اما موقف الحركة الشيوعية فيعطي صورة مختلفة تماما تظهر نقطة الضعف الكبرى فيها بهذا الصدد ، فعبثا تحاول الشيوعية ، رغم تطويرات لينين ثم ستالين بشكل خاص حول مسألة الامة والقومية ، أن تجد مخرجا للمأزق الذي تقع فيه باصرارها ان انقسام الناس الى طبقات تبعا لمصالحهم الاقتصادية هو أعمق من انقسامهم الى أمم تبعا لروابطهم القومية ، وهذا هو بالضبط ما جعل الشيوعية تتخبط في موقف فكري عصيب بين النظرية التي تنادي بها وبين المجريات الواقعية للتطور الاجتماعي في العالم . ومعظم الهزات التي أصابت الماركسية ـ اللينينية نظريا والحركة الشيوعية عمليا كانت ناتجة عن هذا الموقف الذي اهمل معنى وجود الامة كظاهرة اجتماعية تاريخية ثابتة في الحياة البشرية .

***

القوميـــــة :

ويعود التناقض الجذري بين الحركة القومية الاشتراكية والحركة الشيوعية ليبرز بشكل اوضح في موقفها الخاطيء المعادي على طول الخط للقومية . ومن الطبيعي أن يقود ذلك المفهوم الخاطيء للامة الى مفهوم خاطيء للقومية ايضا .

فالقومية بعرف الشيوعية ليست سوى الوجه البارز للعصر البورجوازي . فهي حركة رافقت انهيار الاقطاع ونمو وتمركز البورجوازية التجارية والصناعية على انقاضه . وكما أن الامة مفهوم ظهر لاول مرة في عهد الرأسمالية الصاعدة ، كذلك القومية .

وعلى هذا ، فليست القومية تعبيرا عن رابطة الامة وحركتها لتحقيق وجودها الواحد في دولة واحدة متحررة ، بقدر ما هي ـ سواء في أسباب نشوئها أو في جوهرها ـ مجرد نتيجة لعمل البورجوازية في سبيل ايجاد سوق وطني واحد لمصالحها التجارية ثم الصناعية . فالبورجوازية هي التي هدمت نظام الاقطاع لانه كان عائقا أمام قيام السوق الوطنية الواحدة ، وهي التي عملت بعد ذلك على اقامة هذه السوق وذلك بالدعوة الى توحيد الامة في دولة واحدة .

والتطور التاريخي الذي رافق هذا العمل هو ما يعرف بالقومية ، وهكذا تكون القومية مجرد وسيلة او أداة أوجدتها البورجوازية في البداية لاقامة السوق الواحدة ، وبعد ذلك لحماية هذه السوق أمام مزاحمة البورجوازية في الامم الاخرى ، وبعد ذلك (حين تبلغ حدا كافيا من القوة) لكي تستولي على أسواق الامم الاخرى وتخضعها لمصالحها الطبقية الخاصة . وبما ان الطبقة البورجوازية تحتاج لتحقيق هذه الغايات الى مساهمة الكتل الشعبية في الامة ، لذلك فهي تسعى لصبغ هذه الغايات بالصبغة الوطنية .

ففي البداية تعمل لاقامة السوق الواحدة دافعة العمال لتحقيق هذا المأرب باسم ((وحدة الامة في دولة قومية واحدة)) ، وبعد ذلك تعمل لحماية هذه السوق والمحافظة عليها وعلى أرباحها المتعاظمة منها دافعة العمال لتحقيق هذا المأرب باسم ((حماية الوطن)) والمحافظة على ((وحدة الامة)) ، وهي في الحقيقة انما تدافع عن مصالحها الطبقية سواء ضد المطاليب الاقتصادية لعمالها ، أو ضد خطر غزو بورجوازيات الامم الاخرى لسوقها ومقاسمتها أرباحها .

وهكذا عبر ماركس عن مفهوم الشيوعية للقومية بقوله : بأن القومية بدعة أوجدها البورجوازيون لتحقيق مآربهم النفعية وصرف نظر الطبقة الكادحة عن صراعها معهم باثارة حروب قومية يشترك فيها الكادحون والبورجوازيون ضد الكادحين والبورجوازيين لدولة ثانية .

وعلى هذا الاساس فالقومية انما تتكون في السوق الاقتصادية ، اذ أن البورجوازية تعبر عن الميول الاقتصادية لاسلوب الانتاج الرأسمالي المتعاظم به

والبورجوازية تضطلع بالدور القيادي في الامم القومية ، والسوق هو المسالة الرئيسية بالنسبة للبورجوازية الفتيه ، هدفها تصريف بضائعها والخروج ظافرة من المزاحمة مع بورجوازية من قومية اخرى ، ومن هنا رغبتها في ان تضمن لنفسها سوقها الوطني الخاص ، فالسوق هو المدرسة الاولى حيث تدرس البورجوازية القومية .. وان بورجوازية الامة المظلومة تهب للحركة بطبيعة الحال وهي تتوجه الى الفئات السفلى من شعبها وتبدا بالصياح عن الوطن جاعلة قضيتها الخاصة قضية عامة الشعب)) .

وبناء على هذا المفهوم النظري للشيوعية عن القومية ، والذي يجعلها السمة البارزة في العصر البورجوازي ، وبالتالي السمة البارزة للاضطهاد والاستثمار ، حددت الشيوعية موقفها المعادي الشرس للقومية : ((وفي هذا الظرف الصعب القيت على عاتق الاشتراكية ـ الديمقراطية رسالة سامية ، هي انزال ضربة ساحقة بالقومية ووقاية الجماهير من العدوى العامة ، اذ ان الاشتراكية الديمقراطية هي وحدها كانت تستطيع عمل ذلك ، مقاومة القومية بسلاح الاممية المجرب ، بوحدة النضال الطبقي وعدم قابليته للتجزؤ .. يجب على جميع الاشتراكيين الديمقراطيين المثقفين ان يعملوا يدا واحدة وبدون كلل ضد الضباب القومي من اية جهة جاء)) (ستالين ـ الماركسية والمسالة الوطنية) .

هذا ما قاله ستالين عام ١٩١٣ مؤكدا اقوال الماركسية ـ اللينينية حول هذه المسالة ، وموقف الحركة الشيوعية من الحركات القومية كافة .

وبناء على هذا المفهوم يهمنا ان نؤكد على النتائج التالية :

فالشعور القومي في صفوف الامة ما هو الا خدعة كبرى تحركها البورجوازية لكي تلهي الجماهير عن مطاليبها الاقتصادية تحت ستار (حماية الوطن) ولكي تخنق الوعي الطبقي تحت ستار (وحدة الامة) و (الرابطة القومية) .

والقومية والاضطهاد الطبقي امران متلازمان لان القومية والبورجوازية هما بالسببية متلازمتان ، فليس في القومية على هذا الاساس اي مضمون تقدمي الا نسبيا ، اي بمقدار ما نستطيع ان نقول ان البورجوازية هي تقدمية بالنسبة للاقطاع . ويبقى طابع القومية طابعا استغلاليا رجعيا استثماريا .

وان القومية والاضطهاد القومي (اضطهاد الامم لامم اخرى) امران متلازمان لان الاستعمار بشتى اشكاله والحروب بكافة صورها ليست الا رحلات تقوم بها القومية البورجوازية لدعم اسواقها وتوسيعها .

وبناء على هذه الفرضيات كلها تصل الشيوعية الى القول : ان الطريق الى العدالة والمساواة والسلم انما يمر عبر القضاء على القومية بتقويض البورجوازية .



ان هذه النتائج التي تبدو منسجمة تماما مع الفرضيات التي انطلقت منها تكون صحيحة فيما اذا كانت الفرضيات صحيحة . ولكن هل ان تلك الفرضيات صحيحة فعلا ؟ وهل اذا كان بعضها صحيحا في فترة تاريخية معينة، فهو مازال صحيحا بكليته حتى الآن ؟

نحن نريد ان نتوقف قليلا عند كل فرضية .

فمن الصعب فعلا ان نجد تفسيرا معقولا للخطأ الذي تقع فيه الشيوعية حين تعترف بوجود الامة ووحدتها ثم تتنكر للشعور القومي ! ذلك ان وجود الشعور القومي هو امر طبيعي في كل امة طالما اننا نعترف بوجودها ونقر بانها ((وحدة ثابتة تاريخية لغوية جغرافية اقتصادية نفسية ثقافية)) . ومن الغريب فعلا ان نضع مثل هذا التعريف للامة ونتكلم عن العناصر الموحدة التي تجمع بين افرادها وتكون لهم طابعا نفسيا مشتركا وثقافة واحدة مشتركة ثم نقفز لنقيض هذه الفرضية ، فنصف الشعور بوحدة الامة (الشعور القومي) لدى افراد الامة بانه مجرد شعور زائف خلقته ((عملية استغلال ضخمة قامت بها البورجوازية)) !

صحيح ان البورجوازية المصلحية المستغلة تسعى احيانا كثيرة لتسخير الشعور القومي المنبثق من وحدة الامة لمصالحها الخاصة ، ولكن هل يجوز ، علميا وواقعيا ، ان نرجع الشعور الوطني بين افراد الامة في كل ظرف وباستمرار (للخطط) التي ترسمها البورجوازية ؟

ولنفرض اننا نستطيع جدلا ان نضع مثل هذا التعميم ونقول بان البورجوازية لا ترى النضال الوطني الا من خلال مصالحها الاقتصادية الخاصة (رغم ان عوامل اخرى تؤثر تاثيرا كبيرا احيانا في هذه القضية ، كالوعي الذي يتخطى واقعه الاقتصادي ، وكالتربية والبيئة التي نشأ فيها كثير ممن هم بورجوازيون الآن حسب مستواهم الاقتصادي ولم يكونوا كذلك من قبل ...) ، ولكن

لنفرض جدلا ان البورجوازية ، كل البورجوازية يصح عليها ذلك التعميم ، فهل يصح أن نضع مثل هذا التصور الخيالي لمنشأ وسير الحركات القومية النضالية فنقول : ان القضية القومية، قضية النضال ضد الاستعمار وفى سبيل الوحدةالقومية بشكل رئيسي ، هى مجرد خطة رسمت خطواتها البورجوازية على الورق فى غرفة مغلقة وعن تصور وتعمد مسبقين ثم نزلت الى ميدان النضال بعدذلك وبدأت تكتل جماهير الشعب ضد الاستعمار لتنفيذ تلك الخطة ؟

هل يصح مثلا ان نقول أن دعاة الوحدة العربية الاوائل كانوا ينشرون تلك الدعوة وهم فى الحقيقة انما يهدفون لاقامة سوق اقتصادية واحدة لترويج تجارتهم ؟ وهل ان المناضلين العرب الذين اشتركوا فى حركة النضال العربى طيلة عشرات وعشرات السنين والشهداء الذين سقطوا فى معاركها والذين يصح إن نطلق عليهم اسم بورجوازيين من حيث مستواهم الاقتصادى ، لم يكونوا مدافعين عن حرية الامة ولا مناضلين فى سبيل هدف مقدس آمنوا به هو الوحدة العربية ، وانما كانوا فى الحقيقة مدافعين عن السوق الوطنية ، وانهم استشهدوا وهم يحلمون بالسوق الاقتصادية الواحدة ؟!

من الواضح مبلغ العبث الكامن فى مثل هذا القول .

ولهذا تحاول الشيوعية أن تجد تفسيرا لهذا الموقف بقولها ((أن تكوين الاساس الاقتصادى للامم البورجوازية يجرى ، بمعظمه ، بصورة عفوية ...)) (١)

وهنا نقطة جوهرية ..

فهل ان عنصر الارادة ، الارادة بمعنى الوعى ؟ لا اثر له أبدا فى الحياة الانسانية ، لقد سجل الوعى الانسانى ، لدى معظم الامم ، قفزات واسعة جدا بصدد هذه المسألة منذ القرن التاسع عشر حتى يومنا هذا .

واصبح من المضحك فكريا أن تنظر للحركة القومية فى معظم الامم على انها حركة متجانسة ليس فيها تيارات واتجاهات مختلفة متعددة ، فالحركة القومية فى اية امة ، الحركة الهادفة الى تحرير وتوحيد الامة وبناء مجتمعها القومى ، يمكن أن تضم حركة قومية بورجوازية وحركة قومية اشتراكية جنبا الى جنب ، يجوز أن تعود الحركة القومية البورجوازية وتنقلب (بعد تصفية الاستعمار والاقطاع) ضد مصالح غالبية الشعب الفقيرة المحرومة ، بينما تسعى الحركة القومية الاشتراكية (بعد تصفية الاقطاع والاستعمار) لتحقيق نظام اشتراكي غايته ضمان مصالح غالبية الشعب الحركة الشيوعية . فهذه التطورات الهامة قد أعادت والقضاء على العلاقات الاقتصادية الجائرة وتحقيق العدالة والمساواة ، وتأمين حياة لائقة للغالبية المحرومة من العمال والفلاحين .

وهاتان الحركتان البورجوازية والاشتراكية ان كانتا تتفقان على هدف تحرير الامة وتوحيدها فهما تتناقضان تناقضا جذريا فى المرحلة التالية ، مرحلة بناء مجتمع الامة .

فهل يصح اذن أن نقول أن القومية والبورجوازية متلازمتان ؟

وهل ما يقرر بورجوازية او اشتراكية اية حركة هو كونها قومية أو أممية ، ام هو اتجاه ومحتوى النظم والعلاقات التى تريد أن تبنى المجتمع على اساسها ؟ بين ان تكون نظما وعلاقات اشتراكية فى الانتاج والتوزيع والاستهلاك والتملك ، وبين أن تكون نظما وعلاقات بورجوازية فى التملك وأسلوب الانتاج والتوزيع والاستهلاك ؟

هنا تعود الشيوعية مرة أخرى الى الخلط بين القومية ومحتوى القومية !

وهذا ما قصدناه عندما قلنا ان الشيوعية تتخذ من الاوضاع الشاذة فى مجتمع الامة دليلا للحكم على عدم صلاحية هذا المجتمع كتنظيم اجتماعى للحياة الانسانية بدلا من أن تبحث فى المجتمع نفسه عن أسباب وجود تلك الاوضاع الشاذة وتضع الحلول المناسبة لها .

لاشك أن هذا الفهم الخاطىء للقومية : الفهم الذى يقر بوجود الامة كوحدة تجمعها عناصر متعددة ثم يستغرب الشعور القومى الذى يجمع بين أفرادها بالنتيجة .. والفهم الذى يعترف بوجود الامة علميا كوحدة تجمعها عناصر متعددة ثم يجعل القومية هى الوجه البارز الملازم للبورجوازية والاستثمار الطبقى .. مثل هذا الفهم قد استوحى فى الحقيقة من ظروف معينة احاطت بتبلور القومية فى أوروبا فى القرن التاسع عشر .

ذلك أن الفترة التاريخية التى رافقت تكون الدول القومية كانت تؤرخ كذلك فترة تركز الاوضاع والنظم الاقتصادية الاجتماعية الجائرة التى سادت المجتمع الاوربى بشكل خاص والتى نجمت عن

(١) فليوزمين الطبقة والامة ، ص ١٨

الانقلاب الصناعي وتراكم الثروة بيد قلة ، والتملك الفردي المطلق لوسائل الانتاج ، ورغم أن الحركة القومية التي نشأت قبل تلك الفترة لم تكن متجانسة في اتجاه واحد وكانت منذ ذلك التاريخ تضم اتجاهات اشتراكية واتجاهات بورجوازية ، الا أن البورجوازية قد لعبت فيها دورا كبيرا ، ولعبت بالتالي دورا كبيرا في بناء الدولة القومية على أسس بورجوازية ، وفي مثل تلك الاوضاع لا يكون مستغربا أن يخيل للشيوعية أن القومية والبورجوازية متلازمتان ، وأن الاشتراكية والقومية لا تجتمعان ، وان الاشتراكية لا تتحقق الا على أساس أممي سواء في نقطة الانطلاق الفكرية أو في النهاية العملية ».

فالشيوعية بهذا المنطق ، انما تعطي صورة نموذجية عن فلسفة بنت عصرها ، وعن حركة ذهبت للنقيض في ردة فعلها ».

ولقد كان ماركس منسجما جدا مع نفسه فكريا عندما قال : « وماذا يبرهن تاريخ الافكار سوى أن الانتاج الفكري يتبدل مع تبدل الانتاج المادي...(١)» وكذلك كان انجلز منسجما مع نفسه فكريا عندما قال : « ليست مجموعة الافكار التي تعرضها الاشتراكية الا انعكاسا في الفكر لنضال الطبقات السائد في المجتمع بين المالكين وغير المالكين ، بين البورجوازيين وأصحاب الاجور ، من جهة ، والا انعكاسا للفوضى السائدة في الانتاج ، من جهة أخرى » (٢) .

وانه من الطبيعي أن تأتي أية فكرة ما ، معبرة عن الواقع الذي انبثقت منه ، ولكن الشيوعية متأثرة بالظروف الشاذة التي سادت القرن التاسع عشر قد جاءت معبرة عن ذلك العصر ، وكأنما قد اقتطع من كونه فترة من سير التاريخ ودرس كوضع قائم بذاته له صفاته وميزاته وعلاقاته ونظمه ، ثم كانت الخطوة التالية هي محاولة تفسير الماضي والمستقبل استنادا الى الظواهر الشاذة التي ابرزها بشكل صارخ ذلك العصر ».

وهنا ، نقطة جوهرية لا يجوز أن نمر عليها بسرعة .

لقد لعبت البورجوازية الاقتصادية النامية دورا رئيسيا لا شك في ارساء الدول القومية التي نشأت في القرن الثامن عشر والتاسع عشر بشكل خاص على أسس بورجوازية ، وقد بينا ان ذلك لا يجوز أن يؤدي الى استنتاج أن القومية هي بالحتمية بورجوازية بطبيعتها وأنها بالحتمية بورجوازية في أسباب نشوئها . وبينا ان في مثل هذا الاتجاه خلطا واضحا بين القومية وبين محتوى القومية . ان القومية هي تعبير عن رابطة وحركة الامة الواحدة لتحقيق وجودها في دولة واحدة متحررة وبناء مجتمعها القومي الخاص بها . وقد تتخذ هذه الحركة اتجاها بورجوازيا رجعيا أو اتجاها تقدميا اشتراكيا وذلك حسب المحتوى الاقتصادي الاجتماعي السياسي الذي تعطيه هذه الحركة لنفسها . لذلك فان الشيوعية بجعلها القومية ، كل قومية ، والحركة القومية ، كل حركة قومية ، بورجوازية رجعية بطبيعتها ، انما تطرح القضية بشكل مغلوط من أساسه . والشكل الصحيح لطرح هذه القضية والحكم على أية حركة قومية هو أن نسأل دوما : ما هو المحتوى الذي تقوم على أساسه هذه الحركة القومية ؟ هل هو محتوى تقدمي أم رجعي ؟ هل هو محتوى اشتراكي ديمقراطي يتجسد في اتجاه انساني واضح في علاقات الامة بالامم الاخرى ، أم هو محتوى بورجوازي يتجسد في اتجاه عدواني لا انساني في علاقات الامة بالامم الاخرى ؟ من هم المستفيدون الاوائل من اتجاه هذه الحركة القومية هل هم غالبية الشعب من الفقراء أم هم قلة من أصحاب رؤوس الاموال ؟ هذا هو في رأينا ، الشكل الوحيد الصحيح لطرح هذه القضية والحكم من خلالها على أية حركة قومية .

لذلك فان أكبر خطأ يمكن أن نقع فيه في هذا الصدد هو التعميم الحتمي اللاعلمي ، واعتماد الظروف الشاذة التي رافقت تبلور القومية في الغرب (وبشكل محدود في الشرق كروسيا واليابان) ، حكما قاطعا نهائيا يمكن أن يعمم على كافة القوميات ويصبح في كل الازمان ، وهذا هو بالضبط ما وقعت ــ وتقع فيه للآن ــ الشيوعية .

وقد أثبتت تجربة التاريخ هذه الحقيقة بما لا يقبل الشك .

ولتوضيح الخطأ الكبير الذي وقعت فيه الشيوعية نتيجة هذا الاسلوب المغلوط في الحكم على القومية نريد أن نطرح المسألة بالشكل التالي :

اذا كان يصح أن نقول ان البورجوازية الاقتصادية المصلحية قد لعبت دورا قياديا في توجيه الحركة القومية الهادفة لاقامة الدولة القومية في الغرب ، وان الاضطهاد الطبقي والاستثمار والاضطهاد الوطني

(١) البيان الشيوعي ، ص ٤٨
(٢) فريدريك انجلز ــ الاشتراكية العلمية والاشتراكية الخيالية ، ص ٢٥

والاستعمار كانت صفات رافقت تبلور الحركة القومية والدولة القومية هناك ، فهل يصح أن نتخذ من ذلك المثل قاعدة فكرية عامة مقدسة نطبقهـا تطبيقا حرفيا جامدا على كل حركة قومية وكل دولة قومية في أي زمان ومكان ؟ هل يصح أن نقول أن الحركة القومية في البلاد الاسيوية الافريقية في وقتنا الحاضر مثلا تحمل بالحتمية نفس تلك السمـات والمعالم ولا تشذ عن تلك القاعدة (المقدسة) ؟

المفروض — حسب منطق الشيوعية — أن يكون الرد بالايجاب ، لان الشيوعية قد رسمت مراحل التطور البشري الحديث كمراحل محتومة لا بد أن تمر فيها كافة الامم ٠

ولعله من الواضح أن الرد على هذا التسـاؤل بالايجاب هو رد مسجون بقوالب مجريات الاحداث في القرن التاسع عشر ٠ وأقل ما يمكن أن يقال اننا نعيش اليوم بعد قرن كامل من ذلك الزمن ، فهـل كانت هذه المئة عام خالية من أية تطورات في الوعي الانساني ، في وعي الشعوب لقضيتها ومستقبلها ، بحيث يصح أن نستمر في اصدار نفس الحكم على القومية والحركة القومية الحديثة ؟

ان مثل هذا الموقف الفكري للشيوعية يعني أول ما يعني (فضلا عن الاتجاه الخاطيء في تفسير ظهور القومية وفضلا عن الخلط بين القوميـة ومحتوى القومية) ، انكارا غريبا لقدرة الانسان على التطور ، وتجاهلا معيبا للتغييرات الكبيرة التي احدثها تزايد وعي الشعوب لقضيتها وللظروف التي تواجههـا ٠ ترى الا يتعلم الانسان من تجاربه ؟ أو لا تتعلم الامم من تجارب الامم الاخرى عبر التاريخ ؟ هل لا تستطيع الشعوب نتيجة تزايد وعيها واستفادتها من التجارب التي مرت بها الشعوب في الماضي وتعمق فهمها لكافة المشكلات التي تجابهها ، أن تتجنب وتتفادى مسبقا كثيرا من الاوضاع الاقتصادية الاجتماعيـة الشاذة بدراسة أسباب نشوئها وتلافيها قبـل أن تتطور وتؤدي الى الاضطهاد والاستثمار على الصعيد الداخلي ، والحروب والاستعمار على الصعيد الخارجي ؟ هـل ان التطور الاجتماعي البشري قوة عمياء ، لا دخـل للارادات فيها ! ، تتسلط على الشعوب وتدفعها دفعا في طريق تطور محتوم لا بد أن يمر بمراحل وأوضاع اقتصادية اجتماعية محتومـة ، دون أن يكون لوعي الشعوب المتزايد أية قدرة على التأثير في خط ذلك التطور أو أية قدرة على أن يكون قوة فاعلة تسيطر على هذا التطور وتوجهه وتختصر مراحل وتقفز عن مراحل وتوجد له ظروفا جديدة يسير فيها وتخلق فيه مفهومات جديدة يستند اليها ؟

لقد الغت الشيوعية — في ردة فعلها غير المتوازنة للاوضاع الاقتصادية الجائرة — الغاءا تاما دور الوعي والارادة في تطـور وتوجيه الحيـاة البشرية ٠ فالشيوعية التي جاءت كما تقول لتحتكم الى العلم في كل شيء ، ولتعمق بالتالي مكانة العقل التي وضع أساسها عصر النهضة في أوروبا قبل ذلك ، قـد عادت وسجنت العقل ثانية في قوالب حتمية للتطور لا يستطيع الخروج عنها ، ولماذا ؟ لانها قوانين حتمية للتطور ! وبهذا كبلت قدرته اللامتناهية على الافادة من تجارب الماضي والتخطيط للمستقبل وتوجيـه الحياة الانسانية بما يتلافى مسبقا كثيرا من التجارب المؤلمة التي مرت بها الشعوب في تطورها الاقتصادي الاجتماعي السياسي ٠

واننا نجد في وقتنا الحاضر ، بصدد هذه القضية البالغة الاهمية ، عدة حقائق جوهرية ، لا تنسجم أبدا مع هذا الموقف الفكري للشيوعية ، بل هي عـلى العكس ، تزيد في توضيح خطأ هذا الموقف ٠

ذلك أن تبلور القومية في معظم البلاد الآسـيوية الافريقية يعطي — في طابعه الغالب — صورة مخالفة تماما للصورة التي تبلورت عليها القومية في الغرب ٠ القومية كما تبلورت — وتتبلور — في كثير من البلاد الآسيوية الافريقية هي نموذج جديد ، نموذج مقابل لقومية الغرب ، سواء في ظروف نشأة الحركة القومية فيها أو سواء من حيث محتواها واتجاهها العام ٠

فهل يمكن الحكم على النموذجين المتقـابلين بمقاييس واحدة ؟

وأي خطأ فادح نقع فيه عندما نفعل ذلك ؟!

* * *

فاذا اخذنا القومية العربية من بين القوميـات الاسيوية الافريقية كنموذج لبحثنا هذا ، واذا تركنا جانبا مناقشة القول بأن الامة العربية ظهرت بظهور الرأسمالية في الوطن لانه أوضح من أن ينـاقش ٠ فماذا نجد اذا أردنا أن نطبق على القومية العربيـة ذلك التصور الخيالي الذي تعطيه الشيوعية لاسباب وكيفية نشوء القومية ، وماذا نجد بصدد ذلك الحكم الذي تصدره عليها ؟

هل ان الشعور القومي العربي ، وهل ان الحركة القومية في الوطن العربي ، هما في حقيقتهمـا مجرد نتيجة لكفاح البورجوازية في الوطن من أجل ايجاد سوق اقتصادية عربية مستقلة موحدة تحقق المصالح الاقتصادية الطبقية للبورجوازية العربية ؟

وهل ان الحركة القومية في الوطن ، الحـركة الهادفة لاقامة الدولة العربية الواحدة المتحررة ، هي بالحتمية حركة بورجوازية في منشئها وتركيبهـا واتجاهها العام . وأنها تعبر عن المصالح الطبقيـة الاقتصادية للبورجوازية العربية لانهذه البورجوازية هي التي أوجدتها أصلا ؟

وهل ان الحركة القومية في الوطن العربي ، تحمل بالحتمية عناصر النزعة العدوانية ، وستتحول حين تبلغ حدا كافيا من القوة ، الى قومية عدوانية ، لان الاستعمار والحروب هما الخطوة الثانية التي تقوم بهما اية أمة بعد اقامة دولتها القومية وذلك بتأثير البورجوازية الرأسمالية التي تبـدأ في البحث عن اسواق جديدة تلحقها بأسواقها الوطنية !

ان الحركة القومية العربية تظهر بالنسبة لهـذه المحاكمة الفكرية المغلوطة الحقائق الاساسية التالية:

نشوء الحركة القومية لايفسر بعوامل اقتصادية بحتة .

ولعل نشوء الحركة القومية في الوطـن العربي ، نشوء الشعور القومي بين أفراد الامة العربية ، يعطي أوضح مثل عن الخطأ الذي ترتكبه الشيوعيـة بتصويرها النضال القومي لتحرير الامة وتوحيدها في دولة قومية على أنه مجرد عملية تقوم بهـا البورجوازية (عن وعي أحيانا وعن غير وعي أحيانا أخرى) لتحرير وتوحيد السوق الاقتصادية الوطنية ضمانا لزيادة أرباحها ! ان القضية القومية في بلادنا، قضية تحرير الوطن العربي وتوحيده في دولة قومية، لم تطرح أبدا بهذا الشكل التجاري . فمن العبث أن نجد تفسيرا ينسجم وهذا التفسير للشيوعية حول نشوء الشعور القومي والحركة القومية اذا درسـنا الظروف والاوضاع التي نشأت فيها الحركة القومية في الوطن العربي .

فنحن اذا درسنا الوضع الاقتصادي للوطن العربي في الفترة المبكرة التي بدأت تتبلور فيهـا حركة النضال القومي ضد الاستعمار ، نجد أنه لم يكن في الوطن العربي آنذاك أية طبقة في المجتمـع يمكن أن نطلق عليها لفظة بورجوازية نامية بالمعنى الاقتصادي لهذه الكلمة . فالبورجوازية الصناعيـة لم تكن موجودة لسبب بسيط هو أنه لم يكن ثمة صناعة في الوطن العربي ، ولم تكن الآلة حتى بأبسط اشكالها قد دخلت الوطن بعد وكانت الصناعات اليـدوية الصغيرة والصناعات الشعبية المحلية هي الشـكل الوحيد للصناعة الموجودة . واذا أخذنا الصـورة الاجمالية للوطن نجـد أن المجتمع العربي كان في طابعه الغالب مجتمعا شبه اقطاعي .

ومع ذلك فقد ابتدأ النضال الوطني ضـد الاستعمار الافرنسي في الجزائر منذ النصف الاول من القرن التاسع عشر واستمر بعد ذلك في المغرب كله ، وكذلك جوبه الاستعمار الانجليزي بانتفاضات متكررة في جنوب جزيرة العرب منذ ذلك التاريخ ، كما ابتدأت الصيحات الداعية للتحرر من الاستعمار العثماني وتوحيد العرب تظهر على يد عدد من الكتاب والشعراء منذ أواسط القرن التاسع عشر .

واذا سرنا مع الزمن ، نجد أن الحركة القوميـة العربية استمرت تتطور وتشتد وتتضح مفاهيمهـا القوميـة نسبيا أكثر فأكثر قاضية على دعوات اللامركزية والاستقلال الذاتي نهائيـا ، وكانت الجمعيات التي تشكلت في الربع الاول من هـذا القرن كما كانت الاتجاهات المخلصة في الثـورة العربية الكبرى ، واضحة تمام الوضوح في تحـديد أهدافها بالاستقلال التام والوحدة العربية . هـذا مع اننا نجد أن الظروف الاقتصادية في الوطـن العربي لم يكن قد طرأ عليها تعديل يذكر ، فحتى ذلك التاريخ لم يكن هناك شيء اسـمه بورجوازية صناعية .

وبعد أن حل الاسـتعمار الانجليزي والفرنسي نهائيا محل الاستعمار التركي بقيت الحركة القومية تتطور ضمن نفس الاهداف ، الحرية والوحدة ، بل لقد بدأت دعوة الوحدة تتخذ مكانة أكبر نتيجـة التجزئة التي عمد الاستعمار الغربي الى تعميقهـا في الوطن منذ أول عهده ، هذا مع انه لم يحدث أيضا تغيير يذكر في الظروف الاقتصادية يؤدي الى نشوء طبقة بورجوازية صناعية .

فهل ان البورجوازية المصلحية الاقتصادية هي التي قادت النضال ضد الاستعمار ونشرت الدعوة للوحدة العربية لاقامة السوق الاقتصادية ؟ وكيف كان يمكن أن يحدث ذلك ما دامت الصناعة بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة لم تقم في الوطن بعـد ولم تتشكل بورجوازية عربية صناعية بالمعنى المفهوم من هـذه الكلمة ؟

ولا يعدل هذا الاتجاه في الغرابة الا قولنـا ان البورجوازية التجارية هي التي لعبت الدور الاول في هذا الميدان (عن وعي أو عن غير وعي !) . ولسنا بحاجة لكثير من الشرح لكي تظهر مبلغ الغرابة التي تكمن في قولنا ان التجار (البورجوازيين) هم الذين خاضوا وقادوا النضال الوطني ضد الاستعمار ،

وهم الذين شكلوا الحركة القومية العربية وهم الذين عملوا على نشر وتعميق دعوة الوحدة العربية !!

لقد تبلور الشعور القومي العربي ونشأت الحركة القومية ضد الاستعمار العثماني التركي على أساس قومي بحت وفى اطار قومي بحت • تشكلت على أساس النضال من أجل الحرية والوحدة • ضد السيطرة بكافة أشكالها ومن أجل استقلال الامة وحريتها فى تقرير مصيرها والتصرف بمقدراتها • ضد حملات التتريك والدمج التى قام بها الاستعمار التركي لمحو الشخصية القومية للعرب • ضد محاولات اذابة اللغة العربية ومن أجل حمايتها والمحافظة عليها • ضد الاذلال القومي والاضطهاد الوطني • ضد الاوضاع الاقتصادية الاجتماعية الجائرة التى فرضها الاستعمار التركي •• ضد كل هذه المظاهرة مجتمعة ••

كذلك توجهت الحركة القومية فى الوطن ضد الاستعمار الغربى الانجليزي والفرنسي ، وضد الاستعمار الغربى عامة اليوم ، على أساس قومي بحت وفى اطار قومي بحت ، وتشكلت بناء على نفس بواعث النضال ضد الاستعمار التركى العثماني •(١)

لقد كان نشوء الحركة القومية فى الغرب مواكبا زمنيا لظهور البورجوازية المتقدمة ، أما فى الوطن العربي فلقد سبق تبلور الشعور القومي ونشوء الحركة القومية ظهور طبقة بورجوازية ذات مصالح اقتصادية واضحة محددة وذات وزن وثبات بزمن طويل • فلا يمكن أبدا تفسير هذه الظاهرة بأسباب اقتصادية بحتة ، الا بمقدار ما تلعب الاوضاع الاقتصادية الشاذة دورا فى اثارة الامة على واقعها كجزء من صورة الواقع القومي الشاذ الشامل ، ولا يمكن أبدا ارجاعها الى عمل فريق من أصحاب المصالح الطبقية الاقتصادية الا بمقدار ما يشترك بعض أصحاب المصالح فى النضال الوطني • ولكن حتى هؤلاء لا يمكن فى بلادنا أن نعمم عليهم حكما واحدا متجانسا • فبعضهم قد ساهم فى النضال الوطني ضد الاستعمار وفى سبيل الوحدة بعد أن قام بعملية حسابية ليجرد ما يكسب وما يخسر من مثل هذه المساهمة ، وبعضهم قد اشترك متأثرا فعلا بالباعث الوطني عن صدق • فلا يمكن وضع قاعدة عامة بهذا الصدد فى بلادنا وفى الظروف التى رافقت نشوء الحركة القومية العربية •

هذه الحقيقة تتضح بجلاء أكبر حين ننقل حديثنا الى : النضال ضد الاقطاع وضد التجزئة فى الوطن ••

فان كل من رافق تطور حركة القومية العربية فى الوطن يدرك بوضوح أن البورجوازية الناشئة كانت فى السنوات الاخيرة قوة أميل للوقوف الى جانب الاقطاع منها الى أن تكون القوة الرئيسية فى مكافحته والقضاء عليه ! لنستعرض فى اذهاننا مواقع القوى الاجتماعية فى مصر وسورية والعراق مثلا : ان العلاقة فى هذه الاجزاء بين البورجوازية التجارية والصناعية الناشئة والاقطاع كانت علاقة تآلف أكثر منها علاقة صراع عنيف • فاذا كان القول بان البورجوازية هى القوة الرئيسية التى ساهمت فى هدم الاقطاع فى المجتمعات الاوروبية فهل يصح أن نجعل ذلك بمثابة قاعدة نتنبأ على أساسها أن البورجوازية هى التى قامت وستقوم بنفس الدور فى وطننا ؟ بل اذا سرنا أبعد من ذلك ، فاننا نجد أنه حيثما كانت الحركة القومية فى وطننا تقوم على أساس اشتراكى ، كان التآلف بين البورجوازية الناشئة والاقطاع السياسى يبرز بوضوح أكبر !

وكل من رافق كذلك حركة القومية العربية فى كفاحها ضد التجزئة من أجل الوحدة ، يدرك أيضا بوضوح ان البورجوازية الناشئة كانت هنا أيضا أميل لان تكون قوة فى وجه الوحدة منها القوة الرئيسية الاولى فى الدعوة للوحدة جديا والعمل على تحقيقها جديا • وكلنا يعلم أن قضية الوحدة قد اتخذت مجالا للتجارة بعواطف الشعب ، وان معظم الساسة العرب قد اتخذوا من التغنى بها مادة لامتصاص وعى الشعب المتزايد وأسلوبا لتخدير الدعوة للوحدة ، وانهم لم يتخذوا أية خطوة جدية فعلا جدية حقا لتحقيقها •

لنأخذ مصر قبل الثورة مثلا فى حديثنا هنا فانها تعطى أوضح صورة عن الظروف التى تطورت فيها دعوة الوحدة • المفروض طبعا ، وفقا لمنطق الشيوعية أن تكون الحركة القومية العربية ، أن يكون الشعور القومي العربى وحركة الدعوة للوحدة القومية ، أقوى ما تكون فى مصر حيث انها أكبر الاجزاء العربية

---

(١) هذا لا ينفى بالطبع ان الحركة القومية كثيرا ما استغلت لاهداف مصلحية خاصة ، وان الكثيرين قد حاولوا الظهور بمظهر المؤمن باهداف الشعب ليتاجروا باهداف الشعب ، وان كثيرا من الذين ساهموا فى النضال الوطنى ضد الاستعمار تحولوا للوقوف فى وجه الاتجاه الاشتراكى ، ولكننا لسنا هنا فى معرض البحث فى معالم النضال العربى بالتفصيل ، وانما يهمنا بالدرجة الاولى ان نبحث فى اسباب وكيفية تبلور الشعور القومى ونشوء الحركة القومية العربية .

واكثرهـــا تطورا من الناحية الاقتصـــادية ، والبورجوازية فيها أكثر تقدما منها في أي جزء عربي آخر • ومع ذلك ، نجد ، كما هو واضح للجميع ، ان مركز جيشان الشعور القومي العربي ، والدعوة للوحدة العربية ، لم يكن أبدا في مصر قبل الثورة ، وانه لم تقم في مصر قبل الثورة أية حركة فكرية او سياسية واسعة الانتشار تتبنى الوحدة العربيــة وتوجه حركة القومية العربية كما قامت في أجــزاء أخرى •

هذه الشواهد ، تدل كلها ، دلالة قاطعـــة ان العنصر الحاسم ، أن العامل الرئيسي ، في النضـال ضد الاستعمار في سبيل الحرية ، وضد التجزئة في سبيل الوحدة القومية ، كان هو الوعي • فبناء على هذا العامل بالدرجة الاولى نستطيع أن نفسر تطـور حركة القومية العربية ، واشتداد الشعور القومي ، وتعمق دعوة الوحدة العربية ، أكثر مما نفسر ذلك بعمل البورجوازية لتأمين مصالحها !

وهذه الحقيقة الاولى تتضح بجلاء أكبر في الدلائل التي تؤكدها الحقيقة الثانية لتطور حركة القوميـة العربية في الوطن •

٢ ــ حركة القومية العربية ذات محتوى اشتراكي ديمقراطي :

في هذا المجال ايضا يعطي تطور حركة القوميـة العربية في محتواه وأهدافه ، نموذجا جديدا مغايرا لتطور حركة القومية في الغرب • وهذه الحقيقـــة توضح بالبرهان العملي ، بالتحقيق التاريخي ، خطا الشيوعية في تحتيمها كون القومية والبورجــوازية متلازمتين ، ويوضح مرة أخرى الخلط بين القومية ومحتوى القومية ، وخطأ الحكم على كافة القوميات وكافة الحركات القومية للامم بمقاييس واحدة تعمم على الجميع بشكل حتمي تعسفي •

المفروض أن تكون حركة القومية العربيـــة والبورجوازية الرأسمالية متلازمتين في وطننا ، وذلك بناء على الموقف الفكري للشيوعية الذي يقول : ان البورجوازية تعمل على تهديم الاقطاع لانه عائــق رئيسي أمام قيام سوق وطنية واحدة متحركة • وبعد أن يتم لها ذلك تمتلك قوى الانتاج وتبدأ في تطوير اقتصاد البلاد وفق أسلوب الانتاج الرأســـمالي المتعاظم ، كما تلجأ الى خنق التناقض الطبقي بينهـا وبين البروليتاريا باسم « وحدة الامة » ، « التكتل لحماية الوطن » مثيرة باستمرار لهذه الغاية بواعث الشعور القومي بين أفراد الامة •

هذا الموقف الذي يصف التطور الاقتصـــادي الاجتماعي الذي رافق تطور حركة القومية في الغرب في بعض الفترات ، تحوله الشيوعية الى موقـــف فكري يفسر تطور الحركة القومية ، كل حركة قومية في كل مكان وفي أي زمن • وبهذا ، بعد الخطأ الاول الذي تتردى فيه الشيوعية في تفسيرها لنشــوء الشعور القومي والحركة القومية ، تتردى في خطــأ أكبر حين تقدم مثل هذا التفسير الحتمي لتطــور الحركة القومية •

وليس من العلمية في شيء أن يســتخرج قانون فكري يطبق على القوميـــة في كل زمـــن ومـكان بناء على مشــاهدات انطبقت على الحركة القومية في زمن معين ومكان معين •

والقومية العربية كنموذج للقوميات الاسـيوية الافريقية تفضح هذه المغالطة بتــاكيدها للحقــائق التالية :

اولا : ليست البورجوازية الناشئة في الوطــن العربي هي التي تعمل على تهديم الاقطاع • فان النار التي يتعرض لها الاقطاع قد تعرض لها منذ اللحظة الاولى من الحركة الاشتراكية لا من البورجوازية • كما أن انهيار الاقطاع في الجمهورية العربية المتحدة بعد ذلك ، تم على يد الاتجاه ذي الملامح الاشتراكية ولم يتم على يد البورجوازية • فاذا كان تهـــديم الاقطاع قد تم على أساس بورجوازي في أوروبا فانه تم ويتم وسيتم على أساس اشتراكي في الوطـــن العربي كما تظهر التجربة القومية للعرب حتى الآن •

ثانيا : الحركة القومية العربية المخلصة قد ميزت نفسها منذ فترات الحرب العالمية الثانية على أنهـــا حركة قومية اشتراكية • ولا شك انه كان من الممكن أن تتطور الحركة القومية بعد الربع الاول من هذا القرن على أساس قومي بورجوازي ، ذلك أن تحديد الحركة القومية لاهدافهــــا في ذلك الطور الاول بالتحرر والوحدة فحسب ، كان يمكن أن يتيـــح المجال لان يدخل صفوفها قوميـــون بورجوازيون ، يعملون لتحرير الامة وتوحيدها ولكنهم يريدون بناء الدولة العربية الموحدة على أســـــاس بورجوازي وتطويرها وفق أسلوب الانتاج الراسمالي • كان من الممكن طبعا أن تتطور الحركة القومية منذ الربـــع الاول وباستمرار بعد ذلك في هذا الاتجاه لولا عنصر واحد ، كان عنصرا رئيسيا حاسما في هذا الصـــدد وهو : الوعي ، تزايد وعي الشعب العربي لقضيــة ومستقبله وللشكل الذي يريد أن ينظم على أساسه حياته المقبلة • تزايد الوعي القومي التقـدمي الذي يريد حياة موحدة متحررة وعادلة انسانيــة ، تزايد

الوعي القومي التقدمي الذي استطاع أن يلم بالتجربة التاريخية التي مرت بها الشعوب في تطورها القومي السياسي الاقتصادي الاجتماعي ، وأن يستخلص أسباب التجارب المؤلمة التي مرت بها عبر ذلك التطور وأن يدخل في الاساس الفكري لتطور الحركة القومية العربية الضوابط التي تمنع تكرر تلك التجربة ؟

وهذا العامل ، الوعي الارادي ، الذي تصر الشيوعية على تجاهله كان حاسما فعلا • لقد قلب ذلك التصور الحتمي الذي تعطيه الشيوعية لنشوء وتطور الحركة القومية رأسا على عقب ، وأوجد بذلك اتجاها جديدا في الفكر الانساني وفي التطور الاجتماعي فاضحا المغالطة الشنيعة التي ترتكبها الشيوعية بمحاولتها الدائمة لتصوير القومية والبورجوازية متلازمتين بالطبيعة ، والقومية والاشتراكية متناقضتين بالحتمية •

وبهذا حددت الحركة القومية العربية الواعية خط التطور القومي للعرب في اتجاه جديد • فهي كما ميزت نفسها على أنها قومية ميزت نفسها على أنها اشتراكية أيضا • وفي الوقت الذي دعت فيه الى تحرير الامة العربية وتوحيدها في دولة قومية واحدة ، حددت كذلك أن الاساس الذي ستبنى عليه هذه الدولة القومية هو أساس اشتراكي • فاذا كانت الحركة القومية في الغرب قد انحصرت في نطاق الاهداف السياسية فقط ، في نطاق تحرير الامة واقامة الدولة القومية دون أن تعنى كثيرا بالمحتوى الذي يجب أن تبنى على أساسه هذه الدولة ، فان الحركات القومية الاسيوية الافريقية ، والقومية العربية منها بشكل خاص ، لم تقع في هذا « الاجتزاء » الخطير واستطاعت بالتالي أن تتجنب نتائجه الوخيمة • فالامم الاسيوية الافريقية ، التي عانت طويلا ظلم الاستعمار والتجزئة والفقر ونهب ثرواتها ومواردها والتخلف الفكري والاقتصادي والاجتماعي والحضاري العام ، لم تستطع أن تنظر للقضية القومية الا على أنها قضية حياة بكل شمول هذه الكلمة وامتدادها • وهي بذلك اذ استطاعت أن تفهم قضيتها وتطورها القومي على هذا الاساس العميق فقد خطت نموذجا جديدا للتجربة القومية والانسانية وهي اذ استطاعت أن تعي مسبقا قضيتها على هذا الاساس وأن تعي دور القوى الاجتماعية العاملة في مجتمعها والتيارات التي تتجاذبها ، فقد رسمت صورة جديدة كاملة متسلسلة منسجمة لكيف يمكن أن تحل الشعوب والامم قضاياها حلا قوميا وتقدميا وانسانيا دون أن تلجأ الى اصطناع مجرى جديد للتطور البشري ترغم الامم على السير فيه ويتنافى مع الواقع القومي الطبيعي للعالم •

ولهذه الاسباب مجتمعة تسير الحركة القومية العربية اليوم في خطين مترافقين :

ففي الاجزاء التي يتركز فيها النضال ضد الاستعمار والتجزئة بشكل رئيسي ، تربط الحركة القومية الاشتراكية هذه الاهداف السياسية بالاهداف الاجتماعية المقبلة وتطرح المخطط النضالي على أنه كل واحد لا تجزئة فيه وان كان فيه تقديم وتأخير حسب مقتضيات المرحلة ، وكما تعمق الوعي القومي السياسي تعمق الوعي الاشتراكي ، وتوضح الدور الذي يلعبه الاقطاع كقوة اجتماعية معرقلة للتطور القومي الاشتراكي فضلا عن الاستثمار الذي يقوم عليه وتحاربه • كذلك توضح الدور الذي يلعبه أصحاب المصالح الرأسمالية الغارقون في منافعهم الخاصة كقوة مؤخرة لسير الحركة القومية •

وفي الاجزاء التي أوجدت لنفسها فيها هذه الحركة القومية العربية الاشتراكية مرتكزا (الجمهورية العربية المتحدة) ، فالمثال أوضح • فبعد أن انهار الاقطاع وبدأت حركة التصنيع والنهوض ، يتخذ التطور الاقتصادي الصناعي والعلاقات الاقتصادية الاجتماعية ، خطا يتوجه نحو تحقيق النظام الاشتراكي بالقدر الذي تسمح فيه المرحلة (تنمية الرأسمال الوطني ليساهم في التطور الصناعي) ومتطلبات متابعة المعركة السياسية • وفي هذا الجزء لم تتطور الحركة القومية في اتجاه بورجوازي كما كان المفروض حسب منطق الشيوعية ، بل هي تتطور في اتجاه قومي واشتراكي بآن واحد(١) •

فاذا كان التطور الصناعي الهائل الذي شهدته اوروبا ، ويشهده الغرب للآن ، قد تم في معظم هذه الدول على أساس بورجوازي رأسمالي متعاظم ، فان التطور الاقتصادي الصناعي الذي بدأ يشهده الوطن العربي في دولة الوحدة يتم على أسس تستهدف الاشتراكية •

ثالثا : وبهذا تستبق الحركة القومية الاشتراكية التطور الصناعي لتصمم هذا التطور وتوجهه ، وهي لا تتجاهل التناقض الاقتصادي الطبقي الذي

(١) اخذين بعين الاعتبار ان التجربة الاشتراكية لا زالت في خطوتها الاولى وانها ورثت كل تركة التخلف الثقيلة من الاستعمار والعهود السابقة ، وانها لا زالت محصورة في جزء فقط من الوطن ، وانها ما زالت تدافع عن وجودها ضد الاستعمار كما تخوض المعركة ضده كقيادة في اجزاء اخرى •

يمكن أن يتمخض عنه مثل هذا التطور ، كما انها لا تنكر آثار الظلم والاستثمار العميقة التي يمكن أن يخلفها في بنية المجتمع القومي للامة ، ولا تسعى « لخنقه » باسم « وحدة الامة » . وهي ان كانت لا تقيم الثورة القومية الاشتراكية عن سابق تعمد وتصميم وبالضرورة الحتمية على أساس صراع طبقي عنيف ، فذلك لانها تؤمن – كما تثبت التجربة الحديثة للقوميات الاسيوية الافريقية – انه بالامكان تجنيب المجتمع هذا التمزق دون أن تنزلق في مساومات طبقية ، دون أن تساوم على المصالح المعيشية لغالبية الشعب من الفقراء ، دون أن تهادن قلة من الرأسماليين وتتنكر لمصالح المجموع ، دون أن تتخلى عن اشتراكيتها .

ذلك ان استباق الحركة القومية الاشتراكية للتطور الاقتصادي الصناعي يمكنها من انتشال هذا التطور من السير العشوائي الذي لا بد أن ينتهي به الى أيدي قلة من الراسمالية المالكة لقوى الانتاج والمتحكمة بمصير الملايين، لترسيه على أسس مصممة مسبقا وتوجهه في خط تطور اشتراكي . ولا شك انه كلما كان البرنامج الاشتراكي للحركة القومية العربية واضحا محددا مفصلا يتجنب نزعة « المحافظة » (التي تقع فيها الاشتراكية الاوروبية الآن وتدفعها لتنازلات اشتراكية هامة تكاد تنسف اشتراكيتها من الاساس) كلما نجحت الحركة القومية العربية في تعميق وترسيخ وجلاء هذه التجربة الحديثة للقوميات الاسيوية الافريقية الاشتراكية .

فالحركة القومية الاشتراكية الحديثة ، رغم ايمانها بأن المجتمعات القومية ، مجتمعات الامم ، هي الشكل الافضل والطبيعي للحياة البشرية ، لم تجعل من وحدة الامة ستارا يحجب عن عينيها تناقض المصالح الاقتصادية الذي ينشأ داخل مجتمع الامة ، ولم تقلل من شأنه ، ولم تناد بأن وحدة الامة كفيلة لوحدها ، وبشكل عفوي تلقائي ، أن تحول تناقض المصالح الى تكامل في المصالح .. أبدا . .

ولهذا السبب بالذات لن تتطور الحركة القومية العربية لحركة بورجوازية مستثمرة اذا حافظت على اتجاهها الاشتراكي الثوري .

ولهذا السبب بالذات تنسف التجربة القومية الاسيوية الافريقية ، والعربية منها خاصة ، أسطورة حتمية تلازم القومية والبورجوازية ، وحتمية تناقض القومية والاشتراكية .

حركة القومية العربية ذات محتوى انساني عميق .

وهذه هي الحقيقة الثالثة التي بدأت تبرزها التجربة القومية الاسيوية الافريقية مثبتة هنا أيضا الخطأ الذي تقع فيه الشيوعية بربطها القومية بالحروب والاستعمار . ولقد بنت الشيوعية ذلك الربط على أساس الربط بين القومية والبورجوازية، وصاغت نظريتها في هذا الصدد على الشكل التالي : ان البورجوازية القومية « المعبرة عن أسلوب الانتاج الرأسمالي المتعاظم » بعد أن تتم اخضاع سوقها الوطنية لنيرها الطبقي تبدأ في البحث عن أسواق جديدة سواء لتزويد مصانعها بالمواد الاولية أو لتصريف منتجاتها . وهكذا تبدأ تستعمر الشعوب الاخرى لتستولي بالقوة على أسواقها ، كما تخوض سلسلة من الحروب يحركها التنافس بينها وبين البورجوازيات القومية في الامم الاخرى على ثروات وأسواق العالم .

لا بد أن نقر أن هذا التحليل صحيح الى حد ما .

ولكنه هنا أيضا صحيح بالنسبة للتجربة القومية للغرب بينما يتحول الى خطأ فاحش اذا حاولنا تطبيقه حرفيا على القوميات الاسيوية الافريقية .

فمن الواضح حسب هذا التحليل أن الاستعمار والحروب يجدان أسبابهما ، بالدرجة الاولى ، في العوامل الاقتصادية . في نوع النظام الاقتصادي السائد في مجتمع ما . فاذا كان النظام السائد اقتصاديا هو نظام رأسمالي فهذا المجتمع يكون مدفوعا أكثر من غيره لان يبحث عن مصادر تمونه بالمواد الاولية ليزيد انتاجه وأرباحه وعن أسواق يصرف فيها فائض منتجاته . واذا كان النظام السائد اقتصاديا هو نظام اشتراكي فهذا المجتمع يكون ابعد من غيره عن الاستعمار والحروب لان ليس هدفه من الانتاج زيادة الارباح بقدر رفع مستوى الشعب العام، كما ليس لديه فائض ضخم من المنتجات يدفعه لامتلاك الاسواق بقصد تصريفه .

فاذا كان التطور القومي للعرب يتم على أسس اشتراكية ، فهل يبقى ثمة أي منطق فكري يبرر الربط بين القومية وبين الاستعمار والحرب ؟!

ولا بد أن نضيف بصدد هذه المسألة الهامة أن الشعوب الاسيوية الافريقية التي عانت أكثر من غيرها أقسى الوان الاستعمار والسيطرة تدرك أكثر من غيرها معنى الاذلال الوطني والشقاء والبؤس والوحشية الكامنة في الاستعمار كنظام عالمي . ولقد اكتسبت هذه الشعوب – التي تحررت والتي

لا زالت تكافح من أجل حريتها — فتى اسبانيا عقليما في ثوراتها الدامية المتواصلة ، بل ان هذه الشعوب ، والامة العربية منها بوجه خاص ، انما تعتبر كفاحها من أجل الحرية التامة جزءا من المعركة الكبرى من أجل تصفية الاستعمار كنظام أينما كان والغاء استعباد الانسان للانسان في كل بقعة من العالم .

* * *

الواقع القومي يفرض نفسه على الشيوعية من ماركس الى خروشوف

انه لم يكن من قبيل العبث أن نجد أن محاولة وضع التكوين الاقتصادي للناس في طبقات فوق التكوين القومي للناس في امم ، محاولة رفضتها الاحداث الجارية في العالم مرة بعد مرة . فكل « القوانين » التي ساقتها الشيوعية ، باسم العلم ، لتفسير التطور الاجتماعي ورسم خط مسيره ، كانت وما زالت تصطدم بحقيقة راسخة هي العجز عن التغلب على عمق الواقع القومي للناس ، القائم على كون الامة هي الوحدة التي تعطي النموذج الطبيعي للشكل الذي يحيا حسبه العالم . وهذه الحقيقة الاجتماعية التاريخية التي تتجلى بوضوح في مختلف مظاهر الحياة الانسانية قد فرضت نفسها حتى على النظرية الشيوعية ذاتها .

فقد دخل الفكر الشيوعي تغيير هام منذ أن طرحت النظرية الماركسية في أواسط القرن التاسع عشر . ويجد الملاحظ أن قسما من هذه التغييرات يمثل محاولات مستمرة لملاءمة النظرية الماركسية مع الامة كوحدة اجتماعية لا يفسر تكونها وتطورها ومصيرها بمجرد معادلات اقتصادية محضة حتمية رغم أهمية العوامل الاقتصادية . والواقع ان هذا التطوير الذي فرض نفسه على الفكر الشيوعي بصدد مسألة الامة والقومية ، ما بين الآراء التي أطلقها ماركس في منتصف القرن التاسع عشر ، والشكل الذي أصبحت عليه هذه الآراء على يد لينين وستالين ثم الشكل الذي انتهت اليه على يد خروشوف في منتصف القرن العشرين ، هو تغيير كبير له مغزاه العميق الذي يضرب جذوره في أعماق التطور الاجتماعي للمجتمع البشري .

* * *

فكتابات ماركس كانت تمثل موقفا شديد الانغلاق من مسألة الامة والقومية يعطي أحسن مثال عن المقصود بقولنا ان الماركسية جاءت تمثل ردة فعل غير متوازنة ، ردة ذهبت للنقيض ، للظروف الاقتصادية الاجتماعية التي سادت القرنين الاخيرين، وقد أدى بها ذلك الارتداد غير المتوازن الى جملة من الآراء الحتمية أثبتت هذه المئة عام الاخيرة بصددها مقدار الخطأ الذي تقع فيه والذي وقعت فيه الشيوعية ، حين تخضع كافة مظاهر الحياة الانسانية (ومسألة الامة منها) ، وبكافة دقائق أمورها ، لعامل وحيد فقط هو العامل الاقتصادي .

فقد عمل ماركس منذ البداية على تأكيد المنطلق العالمي واتجاه التطور العالمي للاشتراكية الماركسية وللحركة العمالية متغافلا أو غافلا تماما عن الواقع القومي ، بانيا هذا الموقف على أسس اقتصادية بحتة .

وانطلاقا من هذه النظرة أطلق ماركس في البيان الشيوعي قوله المشهور في معرض الرد على انتقاد موقف الشيوعية من القومية : « ويتهم الشيوعيون عدا ذلك بالرغبة في القضاء على الوطن والقومية . ليس للعمال وطن ، فليس باستطاعتنا أن نسلبهم ما لا يملكون . » (١) ومن الواضح ان ليس في هذا السرد أن نفي لذلك الموقف بل فيه محاولة لتفسيره .

وانطلاقا من هذه النظرة حدد أيضا وجهة نظره في قضية تطور الامم ومستقبلها بقوله : « ان الفروق القومية والتناقضات بين الشعوب تضمحل يوما بعد يوم تبعا لتطور البورجوازية ، وحرية التجارة والسوق العالمية ، وتماثل الانتاج الصناعي وما ينشأ عنه من ظروف المعيشة وأوضاع الحياة . وان سيادة البروليتاريا ستعمل على اضمحلالها أيضا . ذلك أن نضالها المشترك في الاقطار المتمدنة على الاقل ، هو أحد الشروط الاولية لتحررها » . (١)

فالشكل الذي حدد فيه ماركس تطور الامم ومستقبلها كان يتسلسل على الشكل التالي : ان الفوارق القومية بين الامم تسير بسرعة الى الزوال نتيجة نمو الرأسمالية من جهة ، واتساع الطبقة العاملة نتيجة ذلك من جهة ثانية ، واحتدام الصراع الطبقي بعنف بينهما من جهة ثالثة ، وهذه العوامل مجتمعة تعمل على تفكيك الروابط القومية داخل مجتمع الامة ، كما تعمل على ازالة الفوارق بين الامم

---

(١) كارل ماركس ، فريدريك انجلز — البيان الشيوعي ، ص ٥١ — منشورات الفكر الجديد .
(١) كارل ماركس ، فريدريك انجلز — البيان الشيوعي ، ص٥٣ — منشورات الفكر الجديد

المتقدمة اقتصاديا مما سيؤدي بالحتمية الى انهيار المجتمعات القومية وزوال الامم نهائيا بالتدريج . كما ذهب ماركس الى أن هذه العملية (زوال الفوارق القومية بين الامم) قد ابتدأت فعلا منذ ذلك الوقت .

لقد كان هذا الموقف الذي انتهى اليه ماركس متسجما تمام الانسجام مع المنطلقات النظرية الماركسية ، فهذه التنبؤات التي قدمها قد بنيت على الفرضيات التي انطلق منها .

فمبدأ التفسير المادي للتاريخ ، بجعله العامل المادي الاقتصادي سبب كافة الظواهر القائمة في الحياة البشرية والمفسر الوحيد لها ، هو الاساس الذي بنيت عليه هذه الفرضية .

وقانون تركز رأس المال ، هو الاساس الاقتصادي الذي قامت عليه حتمية هذا التصور التي جردت الوعي الانساني من كل قدرة على التبديل والتطوير الا في حدود المجرى الحتمي الذي اختطته الماركسية . فتركز رأس المال سيقضي على رأس المال الصغير ويؤدي الى نشوء احتكارات رأسمالية متمركزة يضيق بها النطاق القومي لذلك تقفز فوق الحدود القومية لتتخذ نطاقا عالميا منتظمة هكذا في طبقة عالمية واحدة . ينشأ عن ذلك بالتالي ، بنمو وتمركز الاحتكارات الرأسمالية ثم انتظامها في طبقة عالمية واحدة ، أن تتسع الطبقة العاملة حجما ووعيا وتتمركز أولا في النطاق القومي ثم تقفز بدورها فوق الحدود القومية لتتخذ نطاقا عالميا منتظمة في طبقة عالمية واحدة . هذه العملية التي تتم بنمو الرأسمالية ، بالاضافة الى « السوق العالمية وتماثل الانتاج الصناعي وما ينشأ عنه من تشابه ظروف المعيشة » ستؤدي الى زوال الفوارق القومية ، أي اضمحلال الامم .

هكذا رسم ماركس، متأثرا بالظروف الشاذة التي سادت عصره ، هذا الشكل الخيالي لزوال الامة وانهيار المجتمع القومي . واليوم بعد أكثر من مئة عام من وضع هذه النظرية ، جاءت الاحداث لتدلل على أن الماركسية ، ان صحت تصوراتها بالنسبة لبعض جوانب التطورات الاقتصادية في العالم ، الا أنها بصدد مسألة الامم وتطورها ومستقبلها ، كانت مجرد رسم على الورق . وسنرى كيف اضطر لينين وستالين ثم خروشوف أن يجروا تعديلات هامة على هذه النظرية خلال هذه الحقبة . وهذه التعديلات لم تكن في الواقع الا نتيجة التطورات الجديدة التي عدلت كثيرا من جوانب المبادىء الثلاثة التي استندت اليها الماركسية ـ التفسير المادي للتاريخ ، تركز رأس المال ، صراع الطبقات ـ وذلك نتيجة تدخل عامل الوعي الانساني الذي أغفل ماركس في حتميته المطلقة كل أثر له ، وجرده ، بشكل مهين ، من كل قدرة على التغيير والتبديل في خط مسير التطور الاقتصادي الذي أوحت له به النتائج التي تمخضت عن الثورة الصناعية .

لقد صدر البيان الشيوعي عام ١٨٤٨ . ولو صحت نظرية « اضمحلال الفروق القومية » وانشطار المجتمع العالمي الى طبقتين (الرأسماليون والعمال)، لكان المفروض أن تكون عملية اضمحلال الفروق القومية قد قطعت شوطا بعيدا في يومنا هذا . ذلك أن الثورة الصناعية قد حققت في العالم خلال هذه المئة عام تطورا هائلا ضخما ، ونمت القوة المالية عشرات بل مئات أضعاف ما كانت عليه ، وتمركزت القوة الاقتصادية المالية في احتكارات كبيرة فعلا كما قالت الماركسية ، **ولكننا نجد أن هذه التطورات لم تؤد أبدا الى زوال الفوارق القومية بين الامم ، بل ولم تؤد حتى الى اضعافها** . لم تتهدم الحدود القومية ولم تندثر الفوارق القومية ، بل نجد أن كافة هذه التطورات الاقتصادية الهائلة قد استوعبها مجتمع الامة ، وكانت تتم ضمن مجرى قومي واضح . لقد قامت سوق عالمية ، ونشأت احتكارات متمركزة عالمية أيضا ، واتخذت « مدى عالميا » ما في ذلك شك ، ولكن من **زاوية الاتساع الاقتصادي والانتشار الاقتصادي فقط** ، وأما من ناحية **التكوين الاجتماعي التاريخي** فقد ظلت في « مدى قومي » ، ولم ينشطر العالم الى طبقتين عالميتين كبيرتين لا تخضعان للتكوين القومي للناس في أمم .

ففي الغرب مثلا ، اذا كنا لا نلاحظ اليوم ذلك الجيشان القومي الثائر الذي كنا نلاحظه في القرن التاسع عشر ، فذلك لان المرحلة القومية التي تمر بها أمم الغرب قد تبدلت . لقد اجتازت مرحلة الكفاح في سبيل الاستقلال القومي والوحدة القومية ، وهي الآن ومنذ مدة ، في مرحلة عمل مستمر طويل المدى من أجل حياة أفضل لا ريب أن النصر فيها سيكون للقوى التقدمية ، للاشتراكية الديمقراطية الانسانية، أما هذه الامم نفسها ، وأما مجتمعاتها وفوارقها القومية ، فما زالت هي هي لم تتبدل من هذه الزاوية أبدا .

وفي البلاد الاسيوية الافريقية ، تنمو الحركة القومية وتشتد ، وتعمل على بناء مجتمعاتها القومية (مجتمع ـ الامة) على أسس جديدة تقدمية ، أسس اشتراكية ديمقراطية انسانية، محاولة أن تقفز عن مرحلة التطور الاقتصادي العفوي الذي سارت فيه الامم الاخرى ـ ولا زال بعضها يسير فيه للآن ـ

وما يعقبها عنه من نتائج اقتصادية اجتماعيـــة شاذة .

بعد تاريخ ظهور البيان الشيوعي بـ ٥٠ سنـــة ، أصدر ستالين عام ١٩١٣ كتاباته المعروفة عن الامة والمسألة القومية التي ضمنت في كتيبه «الماركسية والمسألة الوطنية» . وآنذاك ، كان ستالين في كتاباته هذه متقيدا بالنظرية الماركسية بصدد مسألة الامة والقومية وشارحا لاقوال ماركس بصددها . لذلك أكد هو الآخر النظرية الخاطئة التي تقول بزوال الفوارق القومية بنمو الراسمالية كما جاء في كتيبه « الماركسية والمسألة الوطنية » في معرض الرد على متعهدي هذا الرأى : « ان نبوءة باور عن « انقسام الانسانية الى مجتمعات محدودة وطنيا » يكذبها كل مجرى تطور الانسانية المعاصرة . لا تتوطد الحواجز الوطنية ، بل تتهدم وتنهار ... ان تطور الانسانية الذي تلا والذي رافقه نمو هائل في الانتاج الرأسمالي واختلاط القوميات وتجمع الناس على أراض تتسع باستمرار ـ يؤكد تأكيدا قاطعا رأى ماركس . » (١)

ولكن « مجرى تطور الانسانية المعاصرة » كان في الواقع يكذب تكذيبا قاطعا رأى الماركسية بصـــدد نظرية « تهدم وانهيار الحواجز الوطنية » . وكان التكذيب قاطعا لحد أن اضطر لينين وســـتالين أن يجريا تعديلات هامة لملاءمة هذه النظرية مع مجرى تطور الانسانية وحقائقها الاجتماعية .

* * *

حدث التعديل الاول (الذي يسمي الشيوعيون باستمرار لان يطلقوا عليه لفظـــة تطوير) على يد لينين ، حيث اضطر أن يجرى هذا التعديل لملاءمة بعض التنبؤات المجردة التي أطلقها ماركس في القرن التاسع عشر ورفض الواقع العلمي قبولها بعد ذلك ، وتطورت الماركسية الى ـ الماركسية اللينينية . واذا كان ما يهمنا هنا بالدرجة الاولى هو التعـــديل الذي أدخـــل للماركسية بصدد مســـألة تطور الامم ومستقبلها ، فلنقرأ بامعان كتابات لينين بعد ثلاث سنوات فقط من تلك الحماسة التي أكد بها ستالين « صحة أقوال ماركس » .

في عام ١٩١٦ نشر لينين مقالا بعنوان « الثـــورة الاشتراكية وحق الامم في تقرير المصير » عدل فيه رأى ماركس بقوله : « ان هدف الاشـــتراكية ليس فقط القضاء على تجزئة البشرية الى دويلات وعلى أي انعزال بين الامم ، وليس فقط التقريب بين الامم بل اندماجها ... وكما أن البشرية لا تستطيع أن تدخل عهد القضاء على الطبقات الا بعد فترة انتقالية تجتازها دكتاتورية الطبقة المظلــومة ، فان البشرية لا تستطيع أن تتوصل الى اندماج الامم الذي لامناص منه الا بعد فترة انتقالية من التحرير التام لجميع الامم المظلومة ، أي حرية انفصالها » . (٢)

ان هذا الرأى الجديد للينين هو تعديل واضـــح لآراء ماركس القـــديمة بصدد مسألة تصـــوراته لاضمحلال الامم . كذلك يستطيع الملاحظ أن يدرك بسهولة الفرق بين هذا الاتجاه وبين كتــــابات ستالين التي وضعها قبل ثلاث سنوات مؤكدا نظرية ماركس بقوله فيها « لا تتوطد الحواجز الوطنية بـــل تتهدم وتنهار . »

هذا الرأى اللينيني الجديد اصبح الاســـاس الجديد الذي بنى عليه ، منذ ذلك الحين ، التطوير المستمر لموقف الماركسية الخاطىء من مسألة الامة ومستقبلها . والواقع ان كتـــابات لينين وستالين الجديدة حول مسألة الامة والقومية تظهر وجهين هامين :

الوجه الاول : انها محاولة للخروج من المــــأزق الذي أوجده عدم اندثار الفوارق القومية واضمحلال الامم تدريجيا بنمو الراسمالية حسب تنبـــؤات وفرضيات النظرية الماركسية ، وذلك بعـــد مرور سبعين عاما تقريبا على اطلاق هذه الآراء .

والوجه الثاني : انها محاولة للخروج من المأزق الذي أوجده عدم اندثار الفوارق القومية واختفـــاء الامم بعد تطبيق النظام الاشتراكي والقضاء علـــى الطبقات وقيام المجتمع ذى الطبقة الواحــــدة في الاتحاد الســوفييتي كما كان المفروض ان يحصـــل وفقا لتلك المعادلات الاقتصادية التي ربطت الماركسية وجود الامة وبقاءها بها .

وكلا هذين الوجهين يعبران في الواقع عن حقيقة اساسية مشتركة هي أنهما محاولة واضحة لملاءمة النظرية الماركسية مع الواقع القومي للمجتمع البشري ، مع الامة كوحدة اجتماعية تاريخية ثابتة .

لقد وجد لينين ثم ستالين ـــ الذي عاد وتجاهل جانبا هاما من كتاباته السابقة المؤيدة لماركس فيما بعد ـــ ان أحسن حل لهذا «الاشكال» هو ... تأجيل الحـــل .

---

(١) ى ستالين ـ الماركسية والمسألة الوطنية ـ ص ٥٥
(٢) اللينينية والمسألة الوطنية ـ ى . ستالين ـ ص ٨

وهكذا ألقى لينين في عام ١٩١٦ موقف ماركس بهذا الصدد والذي لم تكن مجريات الامور بعد سبعين عاما من اتخاذه في صالحه ابدا . وبدلا من نظرية « انهيار الفوارق الوطنية » التي ادعى ماركس انها كانت قائمة منذ زمنه وانها ابتدأت ببداية النمو الذي سجلته الرأسمالية آنذاك ، والتي ادعى ستالين ان « تطور الانسانية المعاصرة » يؤكدها تأكيدا قاطعا » ، بدل هذه النظرية حلت نظرية جديدة معاكسة مؤداها : ان الفوارق الوطنية ليست آخذة بالتهدم والانهيار ، وان مثل هذه الخطوة لن تتم الا بعد فترة انتقالية من قيام ديكتاتورية الطبقةالعاملة وانتصار الحركةالشيوعية

وفي عام ١٩١٧ قامت الثورة الاشتراكية في روسيا (الثورة الاشتراكية الهادفة نحو الشيوعية). وجوبه الفكر الشيوعي عندئذ بحدة ووجها لوجه بمسألة القوميات ومصير الامم في الاتحاد السوفييتي . وكان هذا الوضع الجديد يقتضي تأكيدا اوضح واكثر ايجابية للتعديل اللينيني الجديد على نظرية ماركس وستالين ، واستبعادا اصرح لهما .

وهكذا كتب لينين عام ١٩٢٠ في كتيبه « مرض الطفولة (اليساري) في الشيوعية » ، لا ليستبعد بحزم ووضوح اتجاهات ماركس وستالين القديمة فحسب ، ولا ليؤكد ان اضمحلال الامم لن يحصل الا بعد فترة انتقالية من سيادة البروليتاريا فقط ، بل ليؤكد ان اندماج الامم سيحتاج لزمن « طويل وطويل جدا » ، وليطالب كذلك ، وهذا هو الاهم ، بضرورة ملاءمة المبادىء الاساسية للشيوعية مع الفوارق القومية . « ما دامت الفوارق الوطنية والفوارق التي تميز الدول موجودة بين الشعوب والبلدان ــ وهذه الفوارق ستبقى حتى بعد تحقق ديكتاتورية البروليتاريا في النطاق العالمي بزمن طويل وطويل جدا ــ فان ما تتطلبه وحدة التكتيك الاممي لحركة العمال الشيوعية في جميع البلدان ليس ازالة تنوع الفوارق الوطنية وليس القضاء عليها (وهو ما يعد في الحال الحاضر اضغاث احلام)، بل تطبيق المبادىء الاساسية للشيوعية (اي السلطة السوفييتية وديكتاتورية البروليتاريا) بشكل يمكن معه في ظروف معينة ، تغيير هذه المبادىء تغييرا صحيحا ، وجعلها تنسجم مع الفوارق الوطنية والفوارق الوطنية في دولة بذاتها ، ثم تطبيقها » (١)

ان هذا النص ، الذي دفع الشيوعية خطوة أبعد في تلاؤمها الاضطراري مع الواقع القومي للناس ، لهو جدير بتأمل عميق . فنظرية « اضمحلال الفروق القومية » التي كانت حتمية اقتصادية « علمية » مطلقة عند ماركس ثم ستالين ، أصبحت « تعد في الحال الحاضر أضغاث أحلام » . وعلى هذا الاساس ، لا يرفض لينين هذه النظرية فحسب بل هو يهاجم بشدة اية محاولة « لازالة تنوع الفوارق الوطنية » لانها محاولة فاشلة .

لقد كان سهلا على ماركس ان يخضع مصير الامم ، بذلك الشكل المتناهي في البساطة ، للمعادلات الاقتصادية الحتمية المحضة . لقد كان ماركس يفكر ويكتب . اما لينين وستالين فقد واجهما الاشكال عمليا ووجها لوجه بعد انتصار الثورة ، وقفا وجها لوجه امام عمق واقع التكوين القومي للناس في امم . وهكذا كان لا بد لستالين ان يتراجع عن ذلك التأييد الحماسي لآراء ماركس حول مستقبل الامم ، وكان لا بد للتعديلات الجديدة ان تدعم بمبررات فكرية .

ففي عام ١٩٢٥ ألقى ستالين خطابا في الجامعة الشيوعية لكادحي الشرق ، أكد فيه ان الفوارق الوطنية لن تندثر والامم لن تزول في حالة انهيار الرأسمالية وانتصار الاشتراكية في بلاد واحدة ، كالاتحاد السوفييتي فحسب ، وانما بعد انهيار الرأسمالية في العالم اجمع وزوال الطبقات من العالم اجمع ، وقيام نظام اقتصادي اشتراكي عالمي واحد . وفي عام ١٩٢٩ صدر مقال ستالين في الرد على ميشكوف وكوفالتشوك بعنوان « اللينينية والمسألة الوطنية » الذي حاول فيه ان يؤكد التعديل القائل ان الفوارق القومية لن تزول بين الامم الا بعد زمن طويل من انتصار الحركة الشيوعية وانهيار البورجوازية في العالم أجمع . والواقع اننا نجد ان ستالين قد اتخذ في هذه الكتابات الجديدة موقفا مغايرا كل المغايرة لآراء ماركس القديمة . ولآرائه نفسه السابقة ، كما نلاحظ بوضوح تضاؤل ذلك الاستهتار الفكري اللاعلمي الذي كان واضحا في الآراء السابقة حول قضية الامة .

فلم يلتفت ستالين الى قول ماركس « ان ليس للعمال وطن » ، بل اننا نجد في كتاباته الجديدة حملة شديدة على الافكار التي تحاول نزع الجوهر الوطني عن العمال باسم الاممية البروليتارية .

كذلك لم يلتفت ستالين ، في موقفه الجديد ، الى قضية « اضمحلال الفروق القومية بين الامم بنمو الرأسمالية ونضال العمال المشترك » ، بل اننا على

---

(١) اللينينية والمسألة الوطنية ــ ي. ستالين ــ ص ١٩ .

العكس تجد انه بصدد هذه القضية بالذات قد حدد في كتاباته موقفا فكريا مناقضا على خط مستقيم لذلك الموقف ، وحمل بشدة على مثل هذه الافكار فقال : ان الامم التي « تنشأ » بانتصار النظام الاشتراكي وانهيار البورجوازية في بلد ما هي أمم اكثر تماسكا واشد تلاحما من الامم القديمة . « فعلي اطلال الامم البورجوازية تنبثق وتتطور امم جديدة اشتراكية متراصة اكثر بكثير من اية امة بورجوازية » (١) . كما حمل بشدة على الافكار التي تقول بأن الفوارق القومية بين الامم ستزول عندما ينتصر النظام الاشتراكي وتتحقق سيادة البروليتاريا في بلد يجمع عدة أمم ، وقال على العكس ، أن الثقافة الوطنية ستنمو وتزدهر ولغة الآباء ستبعث وكل امة تكون اكثر حرية في التعبير عن ذاتها القومية !

بل انه حتى قد حمل بشدة على الافكار التي تقول ان الفوارق القومية ستزول وتضمحل الامم في مرحلة أبعد بكثير .. في مرحلة انتصار الاشتراكية عالميا وقيام سيادة البروليتاريا في العالم ، وقال على العكس ، ان ذلك سيحتاج لزمن طويل جدا « يتحدثون (كاوتسكي مثلا) عن ايجاد لغة واحدة للبشرية عامة واندثار جميع اللغات الاخرى في عهد الاشتراكية . اني قلما اؤمن بهذه النظرية ، نظرية لغة واحدة تشمل الجميع . والتجربة في جميع الاحوال ، لا تدعم هذه النظرية بل تدحضها . فلقد جرت الامور حتى الان بشكل لم تقلل معه الثورة الاشتراكية عدد اللغات بل زادته ، ذلك لان الثورة بتهييجها اعمق مراتب البشرية ودفعها الى المسرح السياسي ، فانها توقظ لمواجهة الحياة الجديدة سلسلة بكاملها من القوميات الجديدة التي كانت في السابق اما غير معروفة أو معروفة قليلا » (٢)

وكذلك قوله : « ليس صحيحا الظن بأن ازالة الفوارق الوطنية واندثار اللغات الوطنية يتمان مباشرة بعد تحطيم الاستعمار العالمي وبطرفة عين وعن طريق مايمكن تسميته باصدار المراسيم من أعلى . ليس هناك ما هو افحش من هذا الخطأ »(٣).

فاين هذا الموقف الجديد لستالين من الامة من موقفه السابق العاطفي الناقم الذي استمده من ماركس ؟ ان أقل ما يقال فيه انه موقف فكري مغاير .

لقد كتبت معظم هذه الابحاث ، والتطويرات والشروحات التي تتضمنها ، مابين ١٩١٦ و١٩٢٩ كانت الحركة الشيوعية قد بدأت تصطدم بشدة بمسألة الامة ، بواقع الامة ، وكان عليها بعد ان انتصرت الثورة في روسيا ان توجد حلا لهذه المسألة . ولم تكن الماركسية ، في تصوراتها الحتمية السابقة بصدد هذه المسألة لتعطي حلا واقعيا . فكان لا بد من تطوير اساسي يلائم الماركسية مع الواقع الاجتماعي القائم الثابت .

أما من الناحية الفكرية ، فان هذه التطويرات والشروحات لم تعترف بخطأ ربط مستقبل الامم ومصيرها وبقائها بالتطورات الاقتصادية المحضة . لقد بقيت متمسكة بهذا الخطأ ولكنها حاولت تجنب نتائجه وبعده عن الواقع الاجتماعي بايجاد تفسير جديد يؤجل اضمحلال الامم الى المستقبل البعيد. وكانت الشيوعية بهذه الخطوة تحاول التخلص من مأزق عدم اندثار الفوارق القومية في امم وقوميات الاتحاد السوفييتي رغم انهيار البورجوازية وقيام النظام الاشتراكي .

ولكن اذا كان هذا الموقف الجديد قد اوجد للحركة الشيوعية مخرجا عمليا لقضية بقاء الامم وعدم زوال الفوارق القومية ، الا ان التساؤل ما زال مطروحا والمأزق قائما على الصعيد الفكري ، بلا اجابة علمية كاملة . فالاتحاد السوفييتي يجمع عدة أمم وقوميات تنتظم في نظام اشتراكي واحد ، ورغم ان الاتحاد السوفييتي لا زال في مرحلة الاشتراكية ولم ينتقل الى مرحلة الشيوعية الكاملة، الا أن هذا لا ينفي الحقيقة التي يرددها الشيوعيون دائما وهي ان ليس في الاتحاد السوفييتي طبقات ولا استثمار طبقي . فلماذا اذن هناك أمم وقوميات؟

يصبح هذا التساؤل ذا اهمية خاصة حين نتذكر انه : فضلا عن انهيار البورجوازية واختفاء التناقض الطبقي والاستثمار الطبقي ، كما يردد الشيوعيون دوما ، فان السلطات الشيوعية قد اتخذت بعد الثورة جملة من التدابير التي من شانها الاسراع في عملية ازالة الفوارق القومية والتي يعترف ستالين نفسه انها لم تترك اي اثر في هذا المضمار « لقد قضي عندنا ، في بلادنا ، منذ امد ، على التخوم الوطنية للدولة ورفع حرس الحدود وأزيلت الجمارك ، بيد انه لا يستنتج من هذا ابدا ان الامم قد اندمجت واللغات الوطنية اندثرت ... » (٤)

مرة اخرى ، لماذا لم تندثر الفوارق القومية ولم تختف الامم رغم الاقتصاد الاشتراكي الواحد الذي يجمعها ، ورغم زوال الاضطهاد الوطني والاضطهاد

(١) ستالين ـ اللينينية والمسالة الوطنية ـ ص ١٢ و ١٣
(٢) ستالين ـ اللينينية والمسالة الوطنية ـ ص ١٦
(٣) ستالين ـ اللينينية والمسالة الوطنية ـ ص ٢٠
(٤) ى.و. ستالين ـ اللينينية والمسالة الوطنية ـ ص ١٤

الطبقي ، ورغم ازالة الحدود القومية ورفع الحرس والجمارك .. الخ ؟

ان كتابات ستالين حول هذا التساؤل الفكرى الهام لا تقدم اجابة كافية للخروج من هذا المأزق . فكل ما قاله فى محاولة تفسير هذه الظاهرة (عدم اضمحلال الفروق القومية) هو الفقرة التالية : « ان ما يثير ويسند شعور عدم الثقة الوطني والانعزال الوطنى والبغضاء الوطنية والتصادمات الوطنية ليس هوبالطبع شعور ما «فطرى» بالاحقاد الوطنية ، بل هو سعي الاستعمار فى اخضاع الامم الاخرى وخوف هذه الامم من خطر الاستعباد الوطني . وما من شك فى انه ما دام الاستعمار العالمى موجودا فان ذلك السعي وهذا الخوف سيبقيان موجودين ، وبالتالى فانعدم الثقة الوطني والانعزال الوطني والبغضاء الوطنية والتصادمات ستبقى كذلك موجودة فىالاكثرية الكبرى منالبلدان فهل يمكن التأكيد بأن انتصار الاشتراكية وزوال الاستعمار فى بلاد واحدة يعني زوال الاستعمار والظلم الوطنيفى أكثرية البلدان؟ واضحانه لايمكن. غير انه يستنبط من هذا أن انتصار الاشتراكية فى بلاد واحدة وان كان يضعف الاستعمار العالمى بصورة جدية ، الا انه لا يخلق ولا يمكنه ان يخلق الظروف اللازمة لاندماج الامم ولغات العالم الوطنية فى كل واحد عام » (١)

هذا هو كل ما قاله ستالين فى محاولة تفسير عدم اختفاء الامم رغم اختفاء الرأسمالية والاضطهاد الوطني والاستثمار الطبقي وقيام اقتصاد اشتراكى واحد يجمع كافة أمم الاتحاد السوفييتي .مؤدى هذا الرد ، ان ستالين يفسر هذه الظاهرة بكون الاستعمار العالمى ما زال موجودا ، « لانه طالما بقى هناك استعمار يبقى الخوف من العبودية الوطنية » اى يبقى الشعور القومى المتماسك يشد الامة لبعضها البعض خوفا من الانسحاق . ومن الواضح ان ليس فى هذا القول اية اجابة على التساؤل المطروح بل يلمس فيه القارىء محاولة للدخول فى عموميات تضيع جوهر الموضوع .

فنحن لا نسأل : لماذا لم تختف الامم من العالم اجمع بانتصار الاشتراكية وانهيار الرأسمالية فى الاتحاد السوفييتي ، وانما نسأل : لماذا لم تختف هذه الامم من الاتحاد السوفييتي . ليس المفروض، حسب منطق الشيوعية ، ان تزول كل امم العالم بانتصار الحركة الشيوعية فى بلاد واحدة ، ولكن المفروض ، حسب منطق الشيوعية ، ان تزول الامم فى هذه البلاد الواحدة لو صح منطق الشيوعية بصدد هذه المسألة .

***

ثم جاء فى هذه الاثناء ، التعديل الذى ادخلته الثورة الصينية حول دور العمال فى الثورة الشيوعية حيثعارضتالآراء الماركسية ــ اللينينية « المقدسة » حول هذه الناحية ، فوضعت الفلاحين فىمركز القيادة وجعلت العمال حلفاء واحتياطي الفلاحين فى الثورة . وهذا الطابع الذى اتخذته الثوره الصينية لا يجوز ابدا ان ننظر اليه على انه مجرد تبديل تنظيمي ، بقدر ما هو يعبر عن اضطرار الماركسية الى التكيف للتلاؤم مع الواقع القومى والظروف القومية الخاصة بكل أمة . ذلك ان الماركسية حين أكدت ان الطبقة العاملة هي وحدها التي تستطيع القيام بالثورة وقيادتها لم تضع هذا التأكيد بناء على الخصائص التنظيمية الموجودة فى اوساط العمال بالدرجة الاولى ، بل استنادا الى مبدأ ماركسى فكرى يقول بأن الثورة الاشتراكية الماركسية لا يمكن ان تقوم الا حيث تنمو طبقة عاملة واعية أوجدها التطور الرأسمالى . ورغم أن لينين قد عدل هذا الرأى بقوله ان وطأة الرأسمالية المتطورة تكون فى المستعمرات أكثر منها فى المدن المتقدمة صناعيا ، الا انه اكد بدوره ان القيادة هى للعمال . والشيوعيون الذين يتغنون اليوم بأن تنوع تحقيق الثورة هو مبدأ قديم فى الفكر الشيوعى التنظيمى ، يتناسون عمدا تلكالمشاحنات والمجادلات العنيفة التى دارت بين ماوتسى تونغ وقادة السوفييت فى أوائل الثورة الصينية حين اصر هؤلاء على ان القيادة يجب ان تكون للعمال نافين بذلك مبدأ التلاؤم مع الظروف الخاصة لكل امة . ولقد رفض ماوتسى تونغ التسليم بذلك المبدأ المقدس آنذاك مما دعا المكتب السياسى للحزب الشيوعى الصينى الى فصله منعضويته عام١٩٢٧ تحت تأثير نفوذ ممثلى الكومنترن السوفييت .

ولكن الواقع القومى انتصر مجددا هنا ايضا . واضطرت الشيوعية ان تتلاءم مع الظروف القومية الخاصة بالصين .

***

(١) ى ستالين ــ اللينينية والمسألة الوطنية ، ص ١٥.

ان هذه الكتابات لستالين حول مسألة الامة والقومية ، رغم انها ادخلت تعديلا واضحا على كتابات ماركس ، الا انها حاولت الاعتماد بالدرجة الاولى على التطورات والشروحات التي ادخلها لينين على الماركسية ، أي انها وان ابتعدت كثيرا ــ بصدد هذه المسألة ــ عن **الماركسية** الا انها حاولت ألا تخرج عن **الماركسية ــ اللينينية** . ولهذا ، فبالرغم من هذا التطوير الهام ، الا اننا لا نجد فيها هذا التأكيد الشديد على ضرورة تلاؤم الاشتراكية مع ظروف وخصائص كل امة كما شدد المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي السوفييتي فيما بعد ، ولا أي تنويه بامكانية تحقيق الاشتراكية عن غير طريق ثورة طبقية مسلحة تكون نتيجة صراع طبقي طويل في داخل الامة .

وكان الواقع القومي يفرض نفسه أكثر فأكثر بمرور الزمن .

فبعد ذلك التاريخ بخمس وعشرين سنة عقد **المؤتمر العشرون** للحزب الشيوعي السوفييتي وخرج بمقررات فكرية وسياسية وتنظيمية هامة يهمنا منها الاتجاهات الفكرية الجديدة حول الاشتراكية القومية .

فرغم ان لينين كان قد قال ان الامم ستحقق الاشتراكية « بطرق ليست متماثلة مطلق التماثل » الا انه لا ماركس ولا لينين ولا ستالين أيد يوما **الاشتراكية القومية** ، أي : ان تتحقق الاشتراكية ضمن نطاق الاستقلال في الشخصية القومية للامة ، وان يكون لكل امة طريقها الخاص في تحقيق الاشتراكية سواء في مرحلة **الثورة** أو في مرحلة **التطبيق** أو في مرحلة **العلاقات** بين الامم بعد مرحلة التطبيق .

والماركسية ــ اللينينية كانت تؤكد دوما أن لا سبيل لتحقيق الاشتراكية في أي بلد الا نتيجة ثورة طبقية مسلحة محركها الاساسي صراع الطبقات في المجتمع . بينما نجد ان المؤتمر العشرين قد خرج بهذا الصدد باتجاه جديد مؤداه : أن الثورة الطبقية المسلحة ليست هي بالحتمية الطريق الوحيد لتحقيق الاشتراكية ، وان كيفية تحقيق الثورة أمر يجب أن يتلاءم مع الظروف القومية الخاصة بكل امة . « ومن المتوقع كثيرا ان سبل الانتقال الى الاشتراكية ستكون اكثر فأكثر تنوعا . وليس من الالزامي بتاتا أن يؤدي سلوك هذه السبل ، في جميع الظروف الى الحرب الاهلية ... وحين يزعم اننا نقول بالعنف والحرب الاهلية كوسيلة وحيدة لتحويل المجتمع ، فان هذا الزعم لا يتفق مع واقع الامور » (١) .

أما بصدد الموقف من الاشتراكية القومية ، فان موقف العداء الشديد الذي اتخذته الحركة الشيوعية تجاهها كان يبرز على الصعيد العملي ، وكأوضح ما يمكن ، في الموقف العدائي الشديد الذي اتخذته من يوغوسلافيا .

ان يوغوسلافيا تعطي نموذجا حيا عن الاشتراكية المطبقة ضمن اطار الاستقلال في الشخصية القومية للامة بغض النظر عن مذهبها الماركسي ــ اللينيني نظريا أو عن نوع النظام الاشتراكي المطبق ، فهذا لا يبدل شيئا من الحقيقة القائمة السابقة . وقد اتخذت الحركة الشيوعية في مختلف أنحاء العالم موقفا بالغ العداء تجاه يوغوسلافيا ولم تترك وصفا سيئا الا والصقته بها ولا شك أن تبدل موقف الاتحاد السوفييتي (وبالتالي الحركة الشيوعية) من يوغوسلافيا ، بعد مجيء خروشوف (في الفترة الاولى بشكل خاص) ، هو أكثر من مجرد تبدل في السياسة الخارجية ومهما يكن فسواء أكان تبدلا سطحيا في السياسة الخارجية فقط ، أم انعكاسا للاتجاه الجديد الذي أكد عليه المؤتمر حول حق كل أمة في الوصول للاشتراكية بطرقها الخاصة ، فهو بدل دلالة واضحة على التكيف الجديد الذي اضطرت أن تجريه الحركة الشيوعية لمجابهة واقع الناس القومي في أمم ، وهكذا لم تعد يوغوسلافيا ((دولة منحرفة عن مبادىء الماركسية ــ اللينينية)) ولا ((دولة بورجوازية خانت مصالح الطبقة العاملة)) ولا ((العوبة بيد الاستعمار الاميركي)) بل لقد أشاد المؤتمر العشرون بيوغوسلافيا واشتراكيتها معرض التحدث عن انتصارات النظام الاشتراكي في العالم وقال : ((وفي الجمهورية الشعبية الاتحادية اليوغوسلافية ، حيث زمام الحكم في يد الشغيلة ، وحيث المجتمع مبني على الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج ، تقوم في سير البناء الاشتراكي سبل مبتكرة وواقعية لادارة الاقتصاد ولتنظيم الجهاز الاداري » . (٢)

وهكذا ، فان ((النزعة التحريفية الحقيرة لمبادىء الماركسية اللينية ، و « الخيانة البورجوازية لمصالح الطبقة العاملة » وغيرها من الاتهامات التي كانت توجه ليوغوسلافيا طيلة هذه السنوات ، أصبحت الآن « سبلا مبتكرة » و « سبلا واقعية » لادارة الاقتصاد وتنظيم الجهاز الاداري ، ولا

(١) خروشوف : تقرير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي امام المؤتمر العشرين للحزب ــ ص ٦٠ ، ٦١ .
(٢) خروشوف ــ تقرير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي امام المؤتمر العشرين للحزب ــ ص ٥٩

يستطيع المرء في الواقع أن يلمس مدى هذا التحول الا اذا استعاد الى ذهنه صورة ذلك الهجوم الشرس الذي تعرضت له يوغوسلافيا – وحزبها الشيوعي – لمجرد التمسك بحقها في الاستقلال في شخصيتها القومية ورفض التبعية ، ذلك الهجوم الذي كان معظمه في مستوى الشتائم الصحفية اكثر مما كان في مستوى أي انتقاد فكري علمي .

ان هذه الاتجاهات التي ظهرت في الشيوعية بعد عام ١٩٥٦ ، قد لا تشكل منذ الآن اتجاهات فكرية كاملة منتهية ، فالصراع الفكري حولها في الحركة الشيوعية نفسها لم ينته بعد ، كما أنها ما زالت مرتبطة بالدرجة الأولى ببعض الاشخاص ومن الجائز أن تختفي من جديد اذا تغيرت مواقع السلطة في الاتحاد السوفييتي ، هذا فضلا عن نقطة هامة هي انه بالرغم من أن هذه الاتجاهات تمثل في احدى جوانبها اضطرار الشيوعية للتلاؤم مع الواقع القومي للمجتمع البشري ، الا أن قصر هذه المدة لا يمكن من التأكد بعد ، وبصورة قاطعة ، فيما اذا كانت تطويرات فكرية دائمة أم تكيفات سياسية عابرة .

ولكن ما يهمنا أن نشير اليه هنا ، لما له من علاقة ببحثنا هذا ، ان هذه التطويرات التي قالت : بعدم حتمية الحرب الاهلية الطبقية المسلحة كطريق وحيد للثورة الاشتراكية ، وبتنوع سبل الانتقال الى الاشتراكية ، والتي كانت عبارات المديح ليوغوسلافيا معترفة بذلك بامكانية قيام نظام اشتراكي حقيقي ضمن نطاق الاستقلال في الشخصية القومية ومتلائما معها انما لها دلالات فكرية عميقة ، ذلك أن الشيوعية في سعيها لان تكون وحدة نظرية كلية حتمية شاملة كونية وبشرية ، انما تكرر نفس الظاهرة التي تظهرها عادة الفلسفات الكلية الحتمية ، وهي انها كالهرم المتسلسل ، سقوط حجر من وسطه يؤدي الى زعزعة قسم كبير من الهرم كله . لذلك تعيد هذه الاتجاهات الجديدة طرح جملة من التساؤلات الفكرية الهامة حول بعض المبادىء الرئيسية للشيوعية ، والتي أصبح هناك من التجربة الانسانية اليوم ، فضلا عن الملاحظة العلمية أساسا ، ما يكفي للحكم عليها .

* * *

فالاتجاه الجديد القائل بعدم حتمية الحرب الاهلية الطبقية كطريق وحيد للثورة الاشتراكية ، انما يضع نظرية الشيوعية في الامة والقومية ، مرة اخرى ، موضع تساؤل عميق ، ذلك أن الشيوعية قد بنت على نظريتها الاساسية بهذا الصدد والتي تقول ((ان انقسام الناس الى طبقات اشد عمقا وابعد اصولا من انقسامهم الى أمم)) سلسلة من الاستنتاجات التي اضفت عليها صفة الحتمية المطلقة ، واستنادا الى هذه النظرية رسمت خط تطور الشعوب نحو الاشتراكية بالمسير الحتمي التالي : انه مع نمو الراسمالية يزداد الانقسام الطبقي وضوحا كما يزداد الصراع الطبقي عنفا حتى يصل الى حد سحق الشعور بالوحدة الوطنية والى سحق الوحدة الثقافية في مجتمع الامة . وهكذا ، تتفكك روابط هذا المجتمع وتنشأ الحرب الاهلية الطبقية المسلحة كطريق وحيد لاستلام السلطة وتحقيق الاشتراكية وهذا ما عبر عنه فليزرمين شارحا آراء ستالين في هذا الصدد بقوله متحدثا عن الشعور القومي :

((ولكن هذا الشعور يضعف عند ما تتحرر الامة من النير الاجنبي ، وتتطور فيها الراسمالية ، وتقسمها أكثر فأكثر الى (امتين) . وهذا يعني أنه كلما تطورت الراسمالية ، تفككت وحدة الامم البورجوازية وتفككت لحمتها . فالامم البورجوازية تتفكك ، سواء من الداخل بسبب تفاقم النضال الطبقي ، أم من الخارج ، بسبب تطور العلاقات وتصارعها بين الامم ، نتيجة لتكوين سوق عالمي واحد واقتصاد عالمي واحد ، ((وبنتيجة تفاقم التناقضات الطبقية ، في داخل مجتمع ، تبلغ النزاعات الطبقية ، في آخر الامر ، درجة من الحدة ، بحيث تستطيع – كما يقول الرفيق ستالين – سحق الشعور بالوحدة الوطنية)) (١) .

وبناء على هذا التحليل قال ستالين أيضا : ((ولكن وحدة الامة لا تتقلص بسبب المهاجرة فقط ، انها تتقلص من الداخل أيضا بسبب تحرج النضال الطبقي ، فحين تكون الراسمالية في مراحلها الاولى يمكن الكلام عن (جامعة ثقافية) بين البروليتاريا والبورجوازية ، ولكن الجامعة ((تبدأ بالذوبان مع تطور الصناعة الضخمة وتحرج النضال الطبقي)) (٢)

وعلى هذا الاساس فان ((هذه النزاعات الطبقية تبلغ ذروتها في الحرب الاهلية التي تعني النضال السافر المسلح بين طبقة واخرى في داخل امة واحدة)) .

واليوم ، حين يقول المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي السوفييتي ان الحرب الطبقية الاهلية المسلحة ليست هي الطريق الوحيد للانتقال الى

---

(١) فليزرمين شارحا اراء ستالين – الطبقة والامة ، ص ٢٨ ، دار القلم .
(٢) ستالين – الماركسية والمسألة الوطنية ص ٥٣ .

الاشتراكية ؟ فهذا يعني من جملة ما يعني ؟ أن مجتمع الامة ، قد استطاع ، في كثير من الاحيان ، أن يستوعب التطورات الاقتصادية الهائلة التي حدثت وما حملته ضمن طياتها من تناقضات طبقية .. ان النزعات الاقتصادية الطبقية قد تمت ضمن اطار مجتمع الامة ، فالحرب الاهلية الطبقية المسلحة تمثل « ذروة النزاعات الطبقية » ، ولا يمكن أن تقوم الا بعد أن يكون الشعور بالوحدة الوطنية قد سحق وبعد أن تكون الوحدة الثقافية قد تفككت في خضم هذا النزاع . والآن ، ترى ألا نلمس في هذا الاتجاه الجديد للمؤتمر العشرين ، الذي تراجع عن حتمية الحرب الطبقية المسلحة كطريق وحيد للاشتراكية ، شعور هذا المؤتمر بأن سحق الشعور بالوحدة الوطنية ـ الذي هو الخطوة الممهدة للحرب الاهلية الطبقية المسلحة ـ هو اصعب بكثير مما ظن ستالين قبل نصف قرن ؟

وهذا الاتجاه الجديد القائل بتنوع طرق الانتقال للاشتراكية وبعدم حتمية كون الحرب الاهلية الطبقية الطريق الوحيد للثورة الاشتراكية ، انما يضع أيضا نظرية الشيوعية في الدولة موضع تساؤل عميق . ذلك أن الشيوعية حين قالت بهذه النظرية كانت تعتمد على تفسير معين للدولة مؤداه : ان الدولة هي قالب تشكله الرأسمالية كما تشاء وتستخدم كل فعالياتها في الوجهة التي تشاء ، ومن الطبيعي أن تستخدمها ضد الطبقة العاملة لحماية نفسها وامتيازاتها . ولا شك أن هذا الرأي الذي قد يحمل جانبا من الصحة في بعض الاوضاع لا يعود صحيحا حين تجعله قاعدة عامة مقدسة حتمية تنطبق على كل دولة لا تحكمها الحركة الشيوعية ، وفي كل زمان ومكان .

لقد رسمت الشيوعية صورة العالم الوحيد على أنها صورة الحروب الاهلية الطبقية المسلحة الناجمة عن انقسام المجتمعات انقساما طبقيا حادا لا تدرج فيه .

وفي مثل هذا العالم لا يمكن أن تحقق الاشتراكية الا بتقويض سلطة الدولة التي تمتلكها الرأسمالية عن طريق حرب طبقية ومسلحة ، وقد بنيت هذه الصورة على قوانين التطور الاقتصادية الحتمية التي لم تكن تعترف بامكانية بقاء طبقة وسطى في المجتمعات المتقدمة صناعيا لان هذا التقدم سيشطر الناس إما الى رأسماليين وأما الى عمال ، والتي لم تكن تتصور كذلك الا صورة الدولة التي توجه فيها الرأسمالية كل ما فيها من فعاليات لصالح امتيازاتها الخاصة فقط . ولربما كان في الزمن الذي قبلت فيه هذه النظرية كثير من الشواهد التي تدفع للاعتقاد بها ،

ولكن ترى ألم تحمل هذه السنوات الطويلة أية تغييرات في هذا الصدد ؟

ان الشيوعية في الواقع ، بإطلاقها كل آرائها على شكل قواعد وقوانين حتمية تصح في كل زمان ومكان ، لم تترك أي دور للتطور الذي يمكن أن يحدثه الوعي الانساني . فكل دولة لا تقبض على زمام السلطة فيها الحركة الشيوعية ـ التي هي وحدها الحركة الاشتراكية الحقيقية ـ هي بالحتمية دولة موجهة ضد مصلحة الطبقة العاملة ، ضد مصلحة الغالبية العظمى من الشعب . وهكذا تعود الشيوعية هنا الى الوقوع في نفس الخطأ الذي وقعت فيه حين حكمت أن الحركة القومية ، كل حركة قومية ، هي بورجوازية بالحتمية والطبيعة .

ومرة أخرى نجد في مفهوم الدولة ذلك الشكل المغلوط الذي تطرح على اساسه هذه النظريات ، والتي تضيع في حتميتها المطلقة بعض جوانب الصحة التي قد تحملها بالنسبة لقضية معينة في زمان ومكان معين وظروف معينة ، فنحن لا نقول ان الدولة ، كل دولة لا تحكمها الحركة الشيوعية ، ومهما كان نوع النظم القائمة فيها ، هي بالحتمية جهاز قمع موجه ضد الطبقة العاملة وغالبية الشعب بل نقول أن الدولة يمكن أن تكون تعبيرا عن ارادة المواطنين وجهازا يعمل لمصلحة غالبية الشعب ، أو يمكن أن تكون العكس ، وذلك بحسب نوع النظم القائمة فيها ، وطبيعة واتجاه الحكم الذي يسيرها .

على هذا الاساس ، نستطيع أن نفسر كيف أن الدولة في السويد ، في المجتمعات الاسكندنافية مثلا ليست أبدا ، كما هو واضح للجميع ، دولة موجهة ضد مصلحة الطبقة العاملة ، بل كيف انها دولة موجهة لمصلحة غالبية الشعب عامة ، هذا بالرغم من انه ليس للشيوعية أثر في تلك المجتمعات ، كما ليس فيها أي خطر على النشاط الشيوعي .

وعلى هذا الاساس أيضا ، نستطيع أن نتصور كيف أن الدولة يمكن أن تكون موجهة لمصلحة غالبية الشعب في البلاد التي يشتد فيها تيار الحركات القومية الاشتراكية الديمقراطية رغم انها ليست مسيرة من قبل الشيوعية أيضا .



وهكذا يعود تطور الانسانية المعاصرة ليطرح التساؤل الكبير بشكل أشد الحاحا .

فهل كان من قبيل العبث اننا نجد أن كل هذه التطورات من جهة ، والتطور الاجتماعي الانساني من جهة ثانية ، كانت كلها تؤكد باستمرار ان الامة هي الخلية الاجتماعية الاساسية في تكوين المجتمع

البشرى وأنها وحدها تعطى الشكل الطبيعي لحياة الناس ؟

هل من قبيل العبث ان القروقات القومية بين الامم لم تسر أبدا فى طريق الاضمحلال بنتيجة ((تطور البورجوازية وقيام سوق عالمية وتماثل أوضاع المعيشة بتماثل الانتاج ..)) رغم ان قوى الانتاج البورجوازى فى العالم قد تطورت خلال هذه المئة عام حتى بلغت حدا مخيفا من الضخامة ؟

وهل من قبيل العبث ، أن التغيرات الاجتماعية الضخمة المتعددة التي شهدتها البشرية ولا تزال ، كانت دوما تتناول شكل حياة الامة ونمط مجتمعها وأنظمة هذا المجتمع وعلاقاته الخ .. ولم تمس الامة نفسها ككائن اجتماعى تاريخى ولم تغير أبدا من كونها نمط حياة الناس ، كل الناس ؟

الا يعبر حادث خروج يوغوسلافيا من الكومنترن فى حقيقته عن الرغبة العارمة فى الاستقلال القومي كأمة ورفض التبعية رغم ايمانها العميق بالاشتراكية ؟

أليست الانتفاضات المتتابعة التى شهدتها المانيا الشرقية وبولونيا والمجر ، فى وجهها الرئيسي مظهرا للنضال فى سبيل الاستقلال القومي ورفض التبعية رغم ايمانها العميق بالاشتراكية ؟

ترى ألم يجل بذهن الشيوعية ، أن هذه الاحداث وغيرها كثير ، تعبر فى الواقع عن عمق جذور الامة كحقيقة اجتماعية تاريخية ذات تطور موضوعي خاص مستقل ، أكثر مما هى حوادث ((يحركها الاستعمار)) وتطوى الحقائق الفكرية التى تؤكد فى حملات الشتائم والتخوين على النمط الشيوعي المعروف ؟

٢

الحركة القومية والحركة الشيوعية
تختلفان في الأهداف وطابع العقيدة

المقصود هنا هو التباين بين طابع عقائدية الحركة القومية الاشتراكية الديمقراطية وطابع عقائدية الحركة الشيوعية . المنطلق المادى العالمي (نظرية المادية الديالكتيكية ثم المادية التاريخية) الذى سعت الحركة الشيوعية جهدها لان تجعل منه وحدة فكرية وعملية كلية شاملة حتمية ، يحدد لها بالمقابل مجرى فكريا وعمليا لا يمكنها أن تحيد عنه يقوم :

أولا : على ضرورة تفسير كافة مظاهر الحياة الانسانية بعامل وحيد فقط هو الاصل وكل ماعداه مجرد نتائج له ومظاهر عنه ، ذلك هو العامل الاقتصادى .

ثانيا : على ضرورة تعميم هذا التفسير ونتائجه ، على كافة أحداث التطور الانسانى ، فى كل زمان ومكان . فهو تفسير ميدانه العالم أجمع ونطاقه الزمنى التاريخ كله . أسبابه واحدة بالنسبة لكافة المجتمعات ونتائجه واحدة على كافة المجتمعات وهو صحيح فى كل فترات التاريخ ، الماضية والحاضرة والمستقبلة أيضا .

ينتج عن ذلك بالضرورة تلك الحتمية الشاملة المطلقة التى أصبحت من صلب مكونات الحركة الشيوعية وطابع عقائديتها ، فمحاولة رد كافة أحداث ومظاهر وقوى التطور الاجتماعى التاريخى الانسانى الى عامل وحيد هو العامل الاقتصادى ، قد ادى بالشيوعية لان تصور هذا التطور وكانه يسير فى خط مرسوم مسبقا وفى مجرى حتمى لا دخل للارادات وللوعى الانسانى فيه ، وكل ما يستطيعه الانسان تجاهه هو أن يسرع تطوره لا أن يخرج عن خط مجراه ولا أن يوجد له منطلقات جديدة ، وتحت تأثير هذه الحتمية المطلقة رفضت الشيوعية كل رأى لا يتفق ووجهة نظرها هذه قاضية بذلك على أية فرصة للتطوير فى تفسير التطور البشرى .

كذلك أدى ذلك التعميم الحتمى لصحة تفسير الشيوعية للتطور الاجتماعى فى كل زمان ومكان الى تلك العالمية التى لا تأخذ بعين الاعتبار اختلاف ظروف التطور والعوامل المؤثرة فيه لدى كل مجتمع والتى تهمل كذلك اختلاف درجة تأثير العوامل الموجهة للتطور البشرى ، ما بين اقتصادية وفكرية وعاطفية حسب الظروف المحيطة بهذا التطور فى كل فترة من فترات التاريخ .

ولكن الاهم من ذلك كله ، أن الشيوعية التى جاءت نتيجة للاوضاع الشاذة التى سادت بعض المجتمعات اثر الثورة الصناعية ، قد قدمت نفسها بمثابة تفسير عالمى للتطور البشرى عامة ، كما انها وان احتوت على بعض الحقائق فى بعض تفسيراتها الا انها قدمت نفسها على انها الحقيقة النهائية والصواب المطلق .

وهذا ما يجعل الشيوعية فى الواقع وحدة تامة اما أن تقبل كلها أو أن ترفض كلها .

فليست المعركة بيننا وبين الشيوعيين نتيجة لاختلاف التفسيرات بين الحركة القومية العربية

والحركة الشيوعية فحسب ، وليس نتيجة لاختلاف الاجتهادات التي تحاول كل منهما ارساء التطور العربي على أساسها فحسب ، ان المشكلة ايضا ، هي في كون الحركة الشيوعية حركة منغلقة تعلن نفسها الصيغة النهائية لتفسير التطور البشرى ورسم معالجته المقبلة ، وهي بذلك لا تؤدى بنفسها الى الانغلاق التام على فهم وجهات النظر الاخرى وعلى حرية كل أمة في صوغ تجربتها الحضارية بنفسها فقط ، بل والى رفض التفاعل مع أي تفسير آخر ، التفاعل بمعنى الاخذ والعطاء .

ليست المشكله الاولى في الشيوعية أنها ترسم سبيلا معينا للتطور بل في كونها تصر على اعتبار هذا السبيل هو وحده الصحيح وهو وحده المتفق مع قوانين التطور الاجتماعي ، وكل تفسير آخر يجب أن يسحق .

ليست المشكلة الاولى هي في كون الشيوعية تفسر التطور البشرى على أساس اقتصادى محض فحسب ، بل في كونها تصر على عدم امكانية اعادة النظر في هذا التفسير حتى عند ما يثبت منطق التاريخ عمليا خطأ هذا الاتجاه كما هو الحال بالنسبة لتفسير الشيوعية لمفهوم الامة والقومية مثلا .

وبذلك حولت الشيوعية نفسها الى دين لديه صيغ نهائية وجاهزة يعمل المؤمنون به لتطبيقه رافضين تعديله او تحويره أو الاعتراف بحرية كل امة في اتخاذ موقف مغاير .

وهذا الموقف المنغلق على نفسه والذى لا يدع مجالا للتفاعل مع التطور والمعطيات الجديدة للعقل الانساني وللتجربة ، هو الذى يؤدى الى هذه الآلية في التفكير التي تطبع الحركات الشيوعية بطابعها ، وهو الذى يؤدى — وهذه ناحية في غاية الاهمية — الى عدم الانفعال بالتجارب الخاصة لمجتمعات متمايزة .

ان الشيوعية بمجرد اعلان نفسها الصيغة النهائية للتطور البشرى ، انما تأخذ موقفا غير ثورى وغير تقدمي . فالتطور البشرى عملية متشعبة متعددة العوامل وحصرها ضمن خط جامد نهائي يسيره عنصر واحد (العنصر الاقتصادى) هو عامل تجميد لهذا التطور يعرقل أحيانا تقدمه بالرغم مما يتخذه هذا الخط من صفات ثورية وتقدمية في الظاهر . والحركات الثورية اذ هي حركات تصمم التطور يجب أن تجمع الى جانب صفة التصميم هذه صفة أخرى لا تكون الثورية ثورية بدونها هي صفة التفاعل مع النتاج الجديد للعقل الانساني وللتجربة التاريخية ومع حق وحرية الامم في اعطاء انتاج جديد وتقديم تجربة تاريخية جديدة **مادامت تبقى في اطار تقدمي انساني عام .**

وهذا الموقف لا يؤدى فقط الى انعزال الشيوعية فهما ومحتوى عن حركة التطور الصاعدة النامية ، بل هو يقرر لها موقفا من كافة الاتجاهات والحركات التقدمية الاخرى . انه موقف يرفض التفاعل مع هذه الاتجاهات والحركات وتبادل التصحيح معها ، بل هو موقف يعمل على تحطيمها بأى شكل . ونحن نفهم أن يكون موقف الشيوعية تجاه الحركات الرجعية موقف العداء المستمر ، ولكن موقف الانغلاق وعدم التفاعل مع الحركات التقدمية الثورية هو موقف غير تقدمي ، **وليس الا نتيجة لاعتقاد الشيوعية بأنها نهاية المطاف الفكرى والتفسير الوحيد للحياة الكونية والانسانية .**

ولهذا السبب نرى :

ان الشيوعية قد رفضت باستمرار مجرد التفكير باحتمال وجود حركات واتجاهات فكرية تحتوى حقائق اجتماعية صحيحة يمكن التفاعل معها وقبول اجراء عمليات تصحيح فكرية متبادلة تخدم الحقيقة الفكرية عامة .

ولهذا نجد مثلا أن الشيوعية — كما سنرى — قد رفضت باستمرار امكانية قيام اشتراكية ديمقراطية حقيقية ضمن النطاق القومي لمجتمع الامة ، بل وحاربت هذا الاتجاه بعنف شديد . ولم تقدم الشيوعية — تأثرا بطابع عقائديتها الختمية المنغلقة — انتقادات فكرية تقوم على تقييم عادل لهذا الاتجاه ، بقدر ما اعتمدت دوما أسلوب الحملات التهجمية في مستوى الصحف والنشرات السياسية اساسا لها .

فكل ما هو غير شيوعي هو رجعي واستعماري وسخيف . والاشتراكية القومية اينما وجدت ومهما كان جوهرها وطابعها هي « انتهازية » و « خداع للجماهير وتآمر عليها » . وهكذا ، لم تناقض الشيوعية اشتراكية يوغوسلافيا — رغم منطلقها الماركسي — على أساس كونها تجربة اشتراكية جديدة قد يكون فيها كثير من التطبيقات والتطويرات الفكرية الصحيحة المفيدة ، بل تركزت مناقشتها لهذه التجربة ، بالدرجة الاولى ، بالهجوم الحاد على تيتو ونعته ((بالعميل المرتمي في احضان الاستعمار الاميركى)) ، ونعت النظام الاشتراكي القائم بانه ((نظام مرتمي في احضان البورجوازية))

ولهذا نرى أيضا أن الشيوعية لم تحصر اهتمامها في مناقشة الوجودية — رغم ما تحـ

الكثيرة عليها ــ على أساس كونها حركة فكرية يحكم عليها بالحجج الفكرية ، بقدر ما اهتمت بأن تركز عليها دعاية صحفية مؤداها أن الوجودية هي فلسفة الاستعمار بعد الحرب العالمية الثانية .

كذلك كان موقف الشيوعية من سياسة الحياد الايجابي قبل التغيير الذى أجراه المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي السوفييتي . فلم تجد الشيوعية ما تقدمه في نعت هذا الاتجاه الانساني الجديد في ارساء العلاقات الدولية سوى سيل من الشتائم التي تقول : ان الحياد سياسة استعمارية مستترة وأن الداعون لها هم عملاء مستترون للاستعمار .

ولهذا السبب بالذات أيضا ، ظلت الحركة الشيوعية في الوطن العربي مغلقة على قبول تقدمية حركة القومية العربيه الحديثة ، كما رفضت الاعتراف بأن الوحدة العربية في مضامينها الحديثة هي موجهة لمصلحة غالبية الشعب من الذين يعيشون بؤس الواقع الراهن .

كذلك نلاحظ لهذا السبب ناحية في غاية الاهمية ، تلك هي الجمود الفكرى التام الذى يطبع الحركة الشيوعية نفسها والذى يمنع قيام أى تطوير فكرى حتى في داخل صفوفها الا بالاستناد الى القوة المادية . فاختلافات وجهات النظر في المعسكر الشيوعي عامة ، أو في داخل الاتحاد السوفييتى ، أو في داخل أى حزب شيوعي في العالم ، لم يحدث أبدا ان أخذت على انها وجهات نظر يمكن أن تتفاعل ، بل كانت وجهات النظر تتحول الى صراع مادى يرافقه حملات قمع وتطهير واسعة عنيفة تتراوح بين الابعاد حتى الاعدام ، والمنتصر هو الذى يقرر الموقف الفكرى في النهاية، والخصوم يتحولون آليا الى مخربين وعملاء لمخابرات الاستعمار . وهذا ما يجعل السلطة التنفيذية هي التى تقرر المواقف العملية والفكرية في الحركة الشيوعية العالمية أكثر مما تقررها الحقيقة الفكرية المتوصل اليها نتيجة تفاعل فكرى طبيعي .

والامثلة في الواقع كثيرة جدا اذا أردنا الاستمرار، وكلها تدور حول محور واحد هو : الانغلاق ورفض ومحاربة كل اتجاه تقدمي فكرى واجتماعى يقدم للانسانية طريقا جديدا غير الشيوعية .

يقابل هذه الصفات في الشيوعية صفات أخرى، أو طابع آخر ، للعقائدية العربية الاشتراكية الديمقراطية تتناقض مع تلك الصفات تماما .

فالعقائدية العربية اذ تنطلق من اعتبار القومية الإنسانية الأساس الطبيعي لحياة الجماعات البشرية في العالم بشكل يحقق حرية تقرير المصير والتعايش القومي السلمي، واذ تعتبر الاشتراكية الديمقراطية أساسا لتحقيق الثورة العربية التقدمية والقضاء على مظاهر التخلف والظلم والرجعية بكافة عواملها ومظاهرها في الوطن العربي ، العقائدية العربية اذ تلزم نفسها بهذه المفاهيم لا تعتبر نفسها نهاية المطاف الفكرى ، بل ولا تعلن أنها وصلت الحقيقة المطلقة والصواب المطلق كما تفعل الشيوعية ، كما أنها تعمل باستمرار لابقاء نفسها منفتحة دوما على التطور تتأثر به وتؤثر .

وهذا لا يعنى أبدا بالطبع انتفاء عنصر التصميم والتخطيط والاستباق والبرمجة في العقائدية العربية ولا يعنى أن نترك التطور العفوى التلقائي يقود الثورة . أبدا .. بل على العقائدية العربية أن تستبق التطور وتخططه ، ولكنها مع ذلك تجعل دوما للعقل والوعى والتجارب والارادة الدور الاول في التغيير والتبديل بحيث يستطيع مجتمع الامة أن يتكيف باستمرار مع نتاج الفكر الانساني الجديد ومع التجارب التاريخية الجديده لمجتمعات العالم .

وهذه الخصائص الاساسية في العقائدية العربية والتي تتناقض تماما مع صفات النظرية الشيوعية هي التى تحدد كذلك ناحية في غاية الاهمية ، هي علاقة العقائدية العربية بالعقائد الاخرى او الاتجاهات الاخرى سواء على الصعيد الداخلي أو على الصعيد العالمي ، فكون العقائدية العربية لا تعلن نفسها وحدها الصواب المطلق والصيغة النهائية لعملية التطور الاجتماعى ، وكونها تنطلق من أساس قومي يقدس تمايز تجارب الامم ونتاجها وحقها الكامل في تقرير مصيرها ، كل ذلك يجعلها ترفض رفضا قاطعا الديكتاتوريات الفكرية وتؤمن بشرعية قيام تيارات فكرية متفاعلة بين مختلف الامم، لان وجود هذا التفاعل هو الكفيل بايجاد نوع من التصحيح المتبادل فيما بينها يكون حتما في صالح عملية التطور الاجتماعى لشعوب العالم . وكل ما يشترطه الاتجاه القومي الانساني التقدمي للعقائدية العربية هو : أن تكون كافة تلك التيارات موجهة لصالح التقدم الانساني ، أى موجهة لمصلحة وخدمة غالبية مجموع الشعب وتحقيق انسانيتها عن طريق العدالة والمساواة .

لذلك نجد هنا اختلافا هاما أساسيا بين طابع كل من عقيدتى الحركتين القومية والشيوعية ، فالحركة القومية لا تحكم مسبقا على كل تيار في أية جهة من العالم لمجرد أنه يخالفها في وجهة النظر بالنسبة لبعض الامور ــ اذا كان يدور في اطار تقدمي عام كما أسلفنا ــ بل تقيم كل تيار فكرى اجتماعى بقدر ما يحمل من جوانب ايجابية وجوانب

سلبية ، كما انها ترفض اتباع أسلوب الفرض القهري لاملاء وجهة نظرها الفكرية .

ومن كل هذا العرض يتضح انه ليس بالامكان قيام علاقات عقائدية متفاعلة بين الشيوعية وبين العقائدية العربية . فنحن اليوم اذ نتخذ موقف العداء الصريح تجاه الشيوعية في وطننا على كافة المستويات الفكرية والدعاوية والتنظيمية ، فذلك لان الشيوعية ليست اتجاها يمكن أخذه والتفاعل معه ، بل هي قوة تعتقد – وتعمل بموجب هذا الاعتقاد – بأنها الحل الوحيد والطريق الوحيد وكل ما عداها هو خاطيء .

وهذا هو احد الاسباب الاخرى الكامنة وراء الازمة التي ستبقى قائمة بين الحركة الشيوعية والحركة القومية العربية الاشتراكية الديمقراطية، انه التباين الجذري بين روح العقائدية الشيوعية ومنهجها وبين روح العقائدية العربية ومنهجها .. بين حتمية الحركة الشيوعية على الصعيد الداخلي والعالمي وانفتاح حركة القومية العربية على الصعيد الداخلي والعالمي .

* * *

ان هذا الاختلاف في نقطة الانطلاق وطابع عقائدية كل من الحركة القومية العربية الاشتراكية الديمقراطية والحركة الشيوعية ، لابد أن يؤدي الى تناقض واضح في الاهداف ، ولعل هذه الناحية اختلاف الاهداف، هي أهم نواحي التناقض الجذري بين الحركتين .

فالحركة القومية العربية الحديثة قد حددت معالمها على أنها حركة : قومية تقدمية ، انسانية ، حددت كذلك مبادؤها وأهدافها بوضوح . فالمعركة العربية الراهنة بايمانها هي وحدة لا تتجزأ تحتوي كل مضامين النهضة العربية الحديثة . فهي معركة تحرير وتوحيد للوطن العربي . وهي معركة بناء اشتراكي ديمقراطي للمجتمع العربي، وهي مساهمة في معركة الاتجاه التحرري التقدمي على الصعيد الانساني الشامل . لذلك من الطبيعي أن يمتد التناقض بينها وبين الشيوعية المحلية الى كافة معالم هذه المعركة ومستوياتها ، السياسية والاجتماعية .

فمعركة التحرر العربي ، بايمان الحركة القومية العربية الحديثة ، هي غاية قومية ومساهمة انسانية بآن واحد ، هي غاية لتحقيق حرية العرب وايجاد المجتمع العربي المتحرر المالك لسيادته ومقدراته ومصيره ، وهي مساهمة انسانية لزيادة قوى التحرر والتقدم الانساني في العالم كله . اما التحرر العربي في نظر الشيوعية المحلية ، فليس – في تكوين الحركة الشيوعية العالمية التي هي بمثابة فروع منتشرة في أجزاء متعددة ومرتبطة بمركز واحد – الا مجرد وسيلة لخدمة مخطط الشيوعية الدولية .

مقياس الحركة القومية العربية في معركة التحرر العربي ، قومي انساني ، أي يقوم على حق ومصلحة الامه العربية وكافة أمم العالم في التحرر ، بينما مقياس الشيوعية المحلية في معركة التحرر العربي هو مصلحة مخطط الشيوعية الدولية فحسب ، والمقياسان لا ينطبقان على بعض دواما كما يتبادر للذهن أو كما تحاول تصويره الدعاية .

فالحركة الشيوعية العالمية لم تعد مجرد حركة شعبية في حيز الدعوة وانما تجسدت في دول . وهذه الدول لا تحدد مواقفها السياسية دوما على أساس المبادىء العقائدية التي تستند اليها نظريا ، بل على أساس المصالح السياسية للدولة القائدة فيها ، اي الاتحاد السوفييتي .

ومصالح الاتحاد السوفييتي السياسية لاتنسجم دوما مع مصالح الامم، لذلك كثيرا ماتتناقض مواقف الشيوعية الدولية مع قضية حرية الامم كما يحدث حين تهادن الشيوعية الدولية الاستعمار لضمان مصالحها السياسية كدولة ، والشيوعية المحلية في مثل هذه الحالات لا تعتمد في تحديد موقفها مقياس حق الامم في التحرر بل تعتمد مقياس مصلحة مخطط الشيوعية الدولية ، وهذا ما يفسر طعن الشيوعيين في سوريا ولبنان لمعركة التحرر العربي طيلة أعوام ١٩٣٦ – ١٩٣٩ ، وسكوتهم من قضية سلخ لواء الاسكندرونة ابان تهادن الشيوعيه الدولية والاستعمار الفرنسي والبريطاني بحجة مقاومة النازية .. وطعن الحزب الشيوعي الجزائري لنضال العرب التحرري في في الجزائر ابان حكم الجبهة الشعبية المدعمه برضاء الشيوعية الدولية في فرنسا .. وهذا مايفسر انقلاب الشيوعيين ضد بريطانيا وفرنسا ابان تحالف الشيوعية الدولية والمانيا النازية بين ١٩٣٩ – ١٩٤١ ومهادنتهم المجانية لالمانيا النازية .. وهذا ما يفسر الدور المهادن المشين الذى لعبته الشيوعية المحلية في الوطن العربي في خدمة الاستعمار الفرنسي والبريطاني طيلة سنوات الحرب العالمية الثانية بعد انتهاء التحالف السوفييتي النازي وعودة التحالف السوفييتي الغربي .. وهذا ما يفسر ايضا الموقف الخائن الذى وقفته الشيوعية المحلية من قضية فلسطين وتأييدها لقيام وطن قومي لليهود فيها ابان التقاء الشيوعية الدولية

والاستعمار الغربي حول هذه القضية عام ١٩٤٧ . وهذا ما يفسر الموقف المتخاذل الذى يقفه الحزب الشيوعى الجزائرى من ثورة الجزائر ودعوته لاتحاد الجزائر وفرنسا حتى هذه اللحظة لان الحزب الشيوعى الفرنسى يقف هذا الموقف .

التحرر العربى غاية قومية ومساهمة انسانية بعرف الحركة القومية العربية لذلك يبقى دوما هدفا رئيسيا من أهدافها منذ بدء المعركة حتى انتهائها ، بينما التحرر العربى بعرف الشيوعية المحلية وسيلة تتكيف حسب الموقف السياسى للشيوعية الدولية ، لذلك فقد يكون أحيانا هدفا رئيسيا من أهدافها وقد يتوارى أحيانا أخرى بل ويخمد كليا حسب الموقف السياسى العالمى السائد .

ومعركة الوحدة العربية ، بايمان الحركة القومية العربية الحديثة ، هى عملية تصحيح للاوضاع الشاذة لاعادة الامة العربية لوضعها الطبيعى أولا ، وركيزة المجتمع العربى التقدمى ثانيا ، ومساهمة انسانية لزيادة وزن التيار التحررى التقدمي الانسانى فى العالم ثالثا . بينما الوحدة العربية بنظر الشيوعية المحلية — عند ما تتجاوز انغلاقها وتعترف بها — هى عملية مدبرة من قبل الراسمالية العربية لإقامة سوق وطنية واحدة بهدف ترويج تجارتها وصناعتها ، ولقد حفظت الشيوعية المحلية عن ظهر قلب النظرية الشيوعية عن الوحدة السياسية للامة والتى تقول : ((ان البورجوازية واحزابها ، التى تعبر عن الميول الاقتصادية لاسلوب الانتاج الراسمالى المتعاظم ، تسعى عامدة ، الى توحيد الارض الوطنية وتوسيعها ، والى القضاء على الحواجز الجمركية ، والتقسيمات الاصطلاحية والى اقامة حرية التبادل بين جميع مناطق البلاد ، وهذا ما تتناسب معه أيضا عقلية معينة تصوغها الاحزاب القومية التابعة للبورجوازية ، وهى عقلية تطالب بـ ((وحدة الامة)) (١) .

فحركة الوحدة العربية ، بنظر الشيوعية المحلية ، لا تحتوى من عناصر التقدمية سوى كونها ستعمل على تهديم الاقطاع لمصلحة البورجوازية ، أما فى القياس النهائى فهى حركة رجعية تستهدف تنظيم المجتمع العربى على أسس راسمالية والمستفيد الاول منها هى القلة الراسمالية لاغالبية الشعب .

وليس هذا خلافا بسيطا بين الحركة القومية العربية وبين الشيوعية المحلية .

فانطلاقا من هذه النظرة الخاطئة غفلت الشيوعية المحلية عن حركة التقدم العربي العظيمة التى ستأتى بها الوحدة ، وعن المعانى الثورية الكبرى التى ستتمخض عنها بالنسبة لحاضر العرب ومستقبلهم ، كما غفلت كليا عن المعالم التقدمية الواضحة فى حركة الوحدة العربية الحديثة ، هذه المعالم القائمة على الاشتراكية الديمقراطية ، وانطلاقا من هذه النظرة لم تسقط الشيوعية المحلية الوحدة العربية كليا من أهدافها فحسب ، بل حاربتها دوما على أنها موجهة ضد مصلحة الشعب ، وحاولت تشويه جوهرها التقدمى بصبغها بصبغة رجعية .

***

واذا تركنا جانبا تناقض الاهداف القومية السياسية بيننا وبين الشيوعية المحلية ، فان هذا التناقض يبرز بوضوح أكثر فى الاهداف القومية الاجتماعية ، أى فى المحتوى الاقتصادى الاجتماعى للمجتمع العربى ، ونقصد بالتحديد موقف الشيوعية من **الاشتراكية القومية** .

فلقد حاربت الحركة الشيوعية دوما ، ومنذ ان وجدت ، الاشتراكية القومية ، وقدمت منطقها فى هذا الصدد على الشكل التالى : ان الاشتراكية الوحيدة الحقيقية هي ((الاشتراكية العلمية)) المنبثقة عن النظرية الماركسية — اللينينية ، وكل اشتراكية لا تستند الى النظرية الشيوعية ليست اشتراكية وهمية خيالية فقط ، وانما هى انتهازية وخيانة لمصلحة الطبقة العاملة ، وهى ليست الا حركة بورجوازية مستترة .

وعلى هذا الاساس اطلق لينين قوله المشهور : ((ولا شك بوجود القرابة ، والرابطة ، بل والوحدة الفكرية والسياسية بين الانتهازية والاشتراكية القومية)) .

وهكذا حكمت الشيوعية مسبقا على كل حركة اشتراكية لا بناء على المفاهيم الاشتراكية التى تحملها ولا استنادا الى الاسس التى ستقيم عليها النظام الاشتراكى ، وانما ، وقبل كل شيء ، بناء على استنادها أو عدم استنادها الى النظرية الماركسية — اللينينية .

ونحن نعتقد أن فى هذا الحكم الحتمى المنغلق ، تجنيا كبيرا على العقل الانسانى . فليس من العدل

(١) فليزرمين — الطبقة والامة — ص ٤٦

في شيء ، بل من الخطأ الفاحش ، قبول مثل هـذا الاحتكار الفكري الغريب لقضية الاشتراكية .

ان الحركه القومية الاشتراكية تبني منطلقها لهذه القضية من زاوية مختلفة تماما ، فاذا كانت ملكية قوى ووسائل الانتاج هي ملكية جماعيـة لا فردية، واذا كان اسلوب الانتاج هو اسلوب اشتراكي يتطور تحت اشراف جماعي لا اسلوب رأسمـالي يتطور عفويا لمصلحة القلة ، واذا كان شكل علاقات الانتاج والتوزيع هو شكل اشتراكي جمـاعي لا فردي، واذا كانت المفاهيم التي تقوم عليها الاشتراكية مفاهيم انسانية لا تخضع الصالح الانساني العـام للمصلحة القومية ، فبأي حق اذن ، وبأي منطق ، يجوز القول بأن أية اشتراكية لا تنبثق عن النظرية الشيوعية ــ الماركسية ــ اللينينية ــ هي انتهازية وخداع للجماهير ، وان الاشتراكية الماركسية هي وحدها الاشتراكية الحقيقية ؟

ليس هو مقياسا انسانيا عاما ، وليس هو تقييما علميا منفتحا ، هذا الذي تعتمده الشيوعية في بحث قضيه الاشتراكيه القوميه ، بل هو مقيـاس (حزبي) منغلق وتقييم اضاع صفة انفتاح الحقيقة في تحيـزه الشـديد . ولهذا لابد أن نعي حقيقـة هامة : وهي أن الشيوعية عندما تتحـدث عـن البورجوازية فان هذا التعبير لا يقتصر على مـا تقصده سائر الاتجاهات الاشتراكية به ، بل يتسع ــ بعرفها ــ بحيث يضم كل حركة ليست شيوعية حتى ولو كانت حركة اشتراكية .

وهكذا قام منطق الشيوعية الآن على عمليـة ايهام ضخمة . عملية ايهام النـاس أن كل اتجاه اشتراكي لا ينطلق من الشيوعية هو بالحتميـة بورجوازي . ولقد هدفت الشيوعية من ذلك الى ايهام الناس أن لا أمل لهم بحياة جديدة تقوم على العدالة الا بالشيوعية . ولعل هذا ما يفسر لنـا سبب اتجاه الشيوعية الواضح الى محاربة الاتجاهات التقدمية وتصفيتها ، والاتجاهات الاشتراكيـة القومية منها بشكل خاص ، ولا نبالغ اذا قلنا ان الشيوعية تعتبر ــ في كثير من الاحيان ــ معركتها الرئيسية مع هذه الاتجاهات الاشتراكية رغم وجود القوى الرجعية . وقد عبر ستالين بوضوح عن هذه الحقيقة حين قال متحدثا عن الاشتراكية القومية :

((حقا ان هذه القومية ليست جلية كل الجلاء ، لانها مقنعة ببراعة بعبارات اشتراكية ، ولكنها لهذا السبب أكثر ضررا بالبروليتاريا . من المـمكن دائما القضاء على القومية الصريحة، لان من السهل معرفتها ، يصعب جدا النضال ضد القومية المقنعة التي لا تمكن معرفتها تحت قناعها ، فهي حـين تكون مغطاة بدرع الاشتراكية تكون اكثر منـاعة وحيوية .)) (1)

ان هذا التبرير يعطينا بوضوح احدى الاسباب الجوهرية لمحاربة الشيوعية للاتجاهات الاشتراكية فهذه الحركات التقدمية الاشتراكية ، والاشتراكية القومية منها بشكل خاص ، كفيلة باظهار كثير من تناقضات المنطق الشيوعي ، ذلك أنها تقدم للانسان اتجاها جديدا في تنظيم حياة المجتمعات الانسانية على أسس العدالة دون أن يضطر لان يدفع ثمن هذه العدالة القبول قسرا بكثير من القضايا التي يعتقد بخطئها في الشيوعية .

لذلك ، فان ظهور اتجاهات اشتراكية واضحة المعالم توفر للشعوب العدالة والتقدم من جهـة ، وتتجاوز الثغرات الموجودة في الشيوعية من جهـة أخرى ، هو بمثابة قطع الطريق على الشيـوعية وانتزاع زمام المبادهة منها ورسم طريق جـديد للتطور الانساني التقدمي ، ولهذا تعتقد الشيوعية انها لا يمكن أن تتثبت الا بتحطيم وتشويه كل تطلع اشتراكي وكل اتجاه ثوري تقدمي آخر .

ومنذ اصدرت الشيوعية هذا الحكم على الحركات الاشتراكيـة غير الماركسيـة ، اتخـذت الحـركة الشيوعية عامة موقفا بالغ العداء تجـاه هـذه الحركات .

مثال واضح على ذلك ، هو تقرب الحـركة الشيوعية من الحركة النازية في اوروبا قبل استلام هتلر الحكم عام ١٩٣٣، وموقف العداء الذي اتخذته تجاه الحـركات الاشتراكية الديمقراطيـة آنذاك مفسحة بذلك المجال لنمو النازية ، وقد كان تفسير ذلك الموقف الغريب للحركة الشيوعية : أن النازية عدو مكشوف يسهل محاربته بعكس الحـركات الاشتراكية الديمقراطية !

فهل كانت مصلحة الاتجاه التقدمي في العالم هي المقياس الذي احتكمت اليه الحركة الشيوعية آنذاك للوصول الى هذا المنطق ، أم مصلحة الحـركة الشيوعية التي تعمل لتحطيم كل اتجاه تقدمي ؟

ومثال واضح على ذلك أيضا موقف العـداء الشرس اللاعلمي الذي اتخذته الشيوعية من التجربة الاشتراكية في يوغوسلافيا ، والذي عبر عنـه

---

(1) ى . ستالين . الماركسية والمسألة الوطنية ــ ص ٥٦

غليزرمين بقوله : ((ان القومية تقود في اياملنا الى خيانة معسكر السلم والديمقراطية والاشتراكية وبالتالى الى خيانة المصالح الوطنية للشعوب ، وليس من قبيل الصدفة أبدا ان زمرة تيتو التروتسكية ــ الفاشستية قد أخفت نشاطها الاستفزازى وتجسسها فى خدمة المستعمرين الانجليز والامريكان ، تحت علم القومية الرث [illegible]))

(غليزرمين ، الطبقة والامة ، ص [illegible])

فهل هو المنطق الفكرى الذى تحاول به الشيوعية هنا الحكم على تجربة يوغوسلافيا ، ام هو منطق التهجم السياسى الذى يخشى ظهور تجارب اشتراكية جديدة ؟

لقد كانت نقطة القوة الاولى التى حاولت الشيوعية الاعتماد عليها دوما هى : تصوير العالم وكأنه اختيار محتوم بين الشيوعية وبين الاتجاهات الرأسمالية السائدة فى بعض اجزاء العالم : وفى دول الغرب بشكل خاص ، ولكن الاشتراكية المطبقة ضمن نطاق مجتمع الامة والمدركة لالتزاماتها الانسانية بوضوح ، تقلب هذه الصورة ، وتعطى الانسان اتجاها جديدا فى التفكير والعمل . ولهذا السبب بالذات تحاربها الشيوعية بهذه الشراسة ، ولهذا السبب كذلك ، ستبقى هذه القضية مجال تناقض رئيسي بين أهداف الحركة القومية العربية الاشتراكية الديمقراطية وبين أهداف الشيوعية المحلية ■

القسم الثاني

موقف الشيوعية المحلية من القومية العربية والوحدة العربية

موقف الشيوعية المحلية من القومية العربية والوحدة العربية

ان موقف الخيانة الذى وقفه الشيوعيون من قيام الجمهورية العربية المتحدة ، أول نواة للوحدة العربية بعد عهود طويلة من التجزئة القاتلة ، لم يكن موقفا غريبا ولا غير متوقع . ذلك ان هذا الموقف المتآمر من قضية الوحدة التى يتعلق فيها مصير العرب لم يكن موقفا جديدا ولا مفاجئا ، بل هو نتيجة طبيعية منطقية لطبيعة تركيب الحركة الشيوعية فى الوطن وطابع عملها واهدافها طيلة هذه السنوات المنصرمة . ان هذا الموقف المتآمر الذى حارب ــ ويحارب ــ فيه الشيوعيون الوحدة العربية بشراسة لامتناهية فاقت شراسة الاستعمار عدو الوحدة الاول ، انما يجد اساسه فى عشرات من المواقف المماثلة التى وقفها الشيوعيون طيلة ثلاثين عاما تجاه هذه القضية والتى جعلتهم حركة غريبة فى تفكيرها وعملها عن اهداف العرب القومية ، حركة لم تستطع ان تفهم امانى العرب ولا ان تتمثل مشاعرهم ، مما جعلها دوما حركة اجنبية فى جوهرها وان حاولت احيانا ان تبدو عربية فى مظهرها .

ولسنا نتوقع من مثل هذه الحركة ان تكون سندا للعرب على تحقيق وحدتهم القومية .

يصبح لهذه المسألة اهمية خاصة فى هذه الفترة من معركتنا القومية ، لان الشيوعية المحلية تحاول ان تظهر موقفها التآمرى المكشوف بمظهر الخلاف على شكل الوحدة واسسها لا على مبدأ الوحدة أصلا ، وتحاول ان توهم الشعب انها تؤمن بوحدة الامة العربية وحقها فى الحياة فى دولة واحدة متحررة ايمان القوميين الاصليين بها ، بل وتذهب فى وقاحتها الى حد الادعاء انها قد عملت منذ زمن طويل على تحقيق اهداف العرب القومية ، ومنها بشكل خاص ، مطلب الوحدة العربية !

ولكن هذه المحاولة التى يعصر فيها الشيوعيون كل براعتهم فى النفاق .. محاولة فاشلة مفضوحة. تفضحها مواقفهم المعروفة من كل قضية ذات صبغة قومية عربية ، وقضية الوحدة العربية منها بالذات. وتفضحها وثائقهم ومنشوراتهم وبياناتهم .

ولئن كان الشيوعيون يعتمدون فى اكذوبتهم الكبرى عن الايمان القديم بالوحدة العربية والعمل منذ القديم لها ، ان كانوا يعتمدون فى ذلك على نسيان الشعب ، فان الشعب لا ينسى ! وان كانوا يعتمدون على ان ماضيهم بصفحاته السوداء فى حق هذه الامة مدفون فى صدرهم ، فان الحقيقة التاريخية لا تطمسها محاولات التزوير الوضيعة .

فماذا كان موقف الحركة الشيوعية من هذه القضية القومية الخطيرة ؟

ان تجربة ثلاثين عاما من عمل الشيوعيين فى الوطن تظهر بما لا يقبل الشك ان موقفهم من الوحدة العربية والقومية العربية كان موقفا **تكتيكيا** لا موقفا **عقائديا** ، وان محاولة تجاوبهم مع قضية الوحدة فى السنوات القلائل الماضية ــ وقبل انقلابهم ثانية عليها ــ لم تكن ابدا الا **تلاؤما** ظرفيا لا **ايمانا** ثابتا .

لقد ظل الشيوعيون طوال ثلاثين عاما بعيدين كل البعد عن هذه القضية القومية الاساسية للعرب . ولم يحددوا موقفا فكريا يؤيد **وحدة الامة العربية** وضرورة قيام وحدة عربية ، الا منذ بضع سنوات فقط ، اى بعد زمن طويل ، طويل جدا من بدء عملهم فى الوطن العربى . ولكن حتى هذا الموقف بقى نظريا ! بقى اعترافا جامدا على الورق بوجود الامة العربية « وشرعية » مطلب الوحدة ، ولم

يتجسد ابدا في عمل الحركة اليومي ولا في مخططاتها ولا في برامجها ولا في منشوراتها ولا في شعاراتها .

ولسنا ندرى كيف يمكن للحركة الشيوعية التي تدعي الايمان بالوحدة العربية ان تغفل هذه القضية الجوهرية ، هذه القضية الاولى ، طيلة ثلاثين عاما من العمل ، ثم تتذكرها فجاة وتجـــــد انه من «المناسب» ان تذكر بعض الفقرات عنها وان تتخذ قرارا بشأنها في بعض مؤتمراتها الاخيرة ، فتدرجها في بعض سطور وتعتبر هذا العمل هو قمة النضال لتحقيق الوحدة العربية !

جاءت الاحداث بالطبع لتظهر الحقيقـة الاكيدة التي ينطوي عليها مثل هـــذا الاسلوب العجيب في العمل الحزبي والنضالي .. اسلوب ان تنسى حركة الاهداف التي تدعي الايمان بها ثلاثين سنة كاملة ! اظهرت الاحداث ان هذه المحاولة لارتداء ثوب عربي لم تكن الا محاولة للتقرب من الحركة القوميـــة العربية بعد ان بلغ الشعور القومي العربي جـــدا اصبح تجاهله يعني الانعزال التـــام عن جماهير الشعب المتفتحة على حقيقتها القومية ، وبعد ان بلغ ضغط الشعب لتحقيق مطلب الوحدة حـــدا اصبح تجاهله يعني ان يقذف الشعب بهـــا الى زوايا النسيان .

ولهذا ، عدلت الحركة الشيوعية موقفها السابق « وقررت » ان تؤمن بالوحدة العربية وان تعترف بالامة العربية الواحدة !

ومن الجدير بالذكر ان الحركة الشيوعية التي نسيت الوحدة العربية طيـلة عشرات السنين ولم تذكرها بحرف واحد ، لم تكن قد نسيت ان تتحدث باستمرار عن ضرورة وشرعية وحدة كوريا الشمالية والجنوبية ، ولا عن ضرورة وشرعية وحدة شطري الهند الصينية ، ولا عن ضرورة وشرعية وحدة المانيا الشرقية والغربية « التي مزقهـــا الاستعمار الاميركي » ..

ولكن هل كان موقف الحركة الشيوعية تجـــاه الوحدة هو موقف الاهمال فقط ؟

ان كانت الاحداث الاخيرة ــ موقف الشيوعيين من قيام وحدة مصر وسوريا ــ قد جاءت لتظهــر عمليا ان نسيان الحركة الشيوعية للوحدة العربية يدلل انها لم تهتم بالوحدة يوما ولم يهمها كثـــيرا سواء توحد العرب في دولة واحدة ام ظلوا ممزقين في خمسين كيانا ، فان ما تثبته مواقفهم ووثائقهم طيلة هذه المدة السابقة هو اشد اسودادا بكثير مما اظهرته الاحداث الاخيرة .

فالحركة الشيوعية في الوطن لم تهمل فقط مطلب الوحدة طوال سني عملها ، بل لقد اتخذت منهـــا موقفا عدائيا صريحا ؛ فانكرت وجود امة عربيـــة واحدة «لان العرب لاتتوفر فيهم مقومات الامة» ، كما عارضت دعوة الوحدة العربية وقالت انها دعوة خيالية لان مقومات الوحدة غير موجودة في العرب !

واذا كان الشعب الذي لم يستطع ان يفهم كيف نسيت الحركةالشيوعيةطوال ثلاثين عاماهدفاتدعي الايمان به اليوم ، فبالاحرى الا يستطيـع ان يفهم كيف حاربت الحركة الشيوعية بالامس هدفا تدعى الايمان به اليوم .

ان هذا الموقف الذي وقفته ــ وتقفه ــ الحركة الشيوعية من قضية الوحدة ومن قضية العـــرب القومية عامة يجد تفسيره في الواقع . في اكثر من ظاهرة .

فهناك اولاالمنطلق اللاقومي،المنطلق الطبقي،الاممي فان الحركة الشيوعية في الوطن تتصف فضلا من التبعية السياسية الجامدة بتبعية فكرية اشـــد جمودا . لقد كانت الحركة الشيوعية المحليـة وما زالت اصغر بكثير واعجز بكثير من انتفهم قضية العرب القومية بكل ما فيها من عمق وشمول ولم تستطع الا ان تردد ترديدا ببغائيا نصوص النظرية الشيوعية بصدد مسالة الامة والقومية . وهكـذا حاولت ان تطبق هذه النصوص تطبيقا حرفيا على الامة العربية فاجتمع فيها فضلا عن الخطا الـذى تقع فيه الشيوعية اصلا بهذا الصدد ، العجز عـن استيعاب حقيقة العرب كامة واحدة قديمـــة في التاريخ . وكان من الطبيعي ان تبقى الحـــركة الشـــيوعية منغلقة ســواء في تفكيرها او عملها في حدود التفكير الطبقي محاولة عبثا ان تجد فيـــه وفي التفسير الشيوعي الطبقي لمسالة الامة والقومية « واقعا عمليا » ينطبق على الوطن العربي .

وهناك ثانيا ، التفسير الفكري الذي تعطيـــه الشيوعية لاسباب نشوء الوحدات السياســـية القومية للامم . فالحركة الشيوعية في الوطن ، التي استظهرت ان الوحدة القومية لاية امة هي عمليـــة تقوم بها البورجوازية لاقامة سوق اقتصادية تزيد ارباحها ، لم تستطع ان ترى من قضية الوحـــدة العربية الا هذا التفسير الضيق . وكان من الطبيعي ان تبقى عاجزة عن تفهم حركة العرب القوميـــة الجارفة للوحدة وما تثيره فيهم من اعمق المشاعر وانبلها ، وعن تفهم ان العرب يعتبرون معـــركة الوحدة معركة وجودهم وبقائهم ومصيرهم ونهضتهم وهكذا بقيت الحركة الشيوعية غريبة عن هـــذه المشاعر مغلقة على فهم جوهر حركة الوحدة العربية ونتائجها .

وهناك ثالثا ، الطابع غير العربي لاحزاب الحركة الشيوعية في الوطن ولا سيما في مراحل عملهـــا الاولى ، والذى استمر طويلا بعد ذلك . فالحركة الشيوعية التي ابتدات عملها مغلقــــة على جوهر واهداف الحركة العربية كانت في تلك المرحلة شبه منعزلة عن الاوساط العربية ايضا ، بينما وجدت فيها بعض الاوساط غير العربية مجالا خصبا لنفث احقادها وسمومها على العروبة ، وبعضهـــا ظـن مخدوعا ان فيها تحقيقا لاهداف خاصة اعتقـــد خاطئا ان التيار العربي سيقضي عليها .

والحقيقة ان هذه الظاهرة تلفت النظر فعلا .

فالحزب الشيوعي المصرى مثـــلا الذى تاسس عام ١٩٢٠ انتشر أول ما انتشر ، كما ظل لاكثر من ربع قرن ، يعتمد بالدرجة الاولى على اليهـــود واليونان والطليان ، لدرجة ان « تمصير » الحـزب كانت شعارا رئيسيا اطلقه بعض الشيوعيين العرب في الحزب بعد ذلك . والحزب الشيوعي في سوريا ولبنان ابتدأ عمله معتمدا على الارمن والاكــراد بنسبة هامة ، والحزب الشيوعي العراقي ابتداعمله معتمدا بشكل رئيسي على اليهود والارمن والاكراد.

ولقد لعبت هذه العناصر ـ بعضها عن قصـــد وبعضها عن طيبة ـ دورا لا يجوز اغفاله في ابعـاد الحركة الشيوعية اكثر فاكثر عن فهم جوهر الحركة القومية للعرب ، كما عادت الحركة الشيوعيـــة واثرت بالمقابل على الجو المحيط بهذه الاوســـاط وحاولت باستمرار أن تستقطب الاقليـــات حولها وتخيفها من التيار القومي .

وهناك موقف الشيوعية الدولية من الوحـــدة العربية . فمن العبث ان نتجاهل الصلة بين موقف الشيوعيين من قضية الوحدة وحركة الوحدة وبين موقف الكومنترن والكومنفورم وسياسة الاتحـاد السوفييتي بصددها .

ومهما تكن الاسباب التي تحدد موقف الحـركة الشيوعية من الوحدة ، فما لا شك فيه ان موقف الشيوعيين من هذه القضية قد تراوح بين المعارضة ثم التأييد النظرى ثم المعارضة النظرية والعملية .

وليس من قبيل الصدفة ابدا انه لم يقم في الوطن العربي حزب شيوعي واحد يعمل على صعيد عربي عام ، وانه لم يكن للشيوعيين برنامج او ميثاق عمل واحد يحدد مخططاتهم واهدافهم بالنسبة للشعب العربي عامة ، بل وجدنا انه قد قامت في الوطن عدة احزاب ، بل قامت أحزاب بقدر عدد الاجزاء العربية الموجودة ! ولم تكن هذه الاحزاب فروعا من حركة مركزية واحدة ، بل كان كل منها حزبا مستقلاقائما بذاته يعتبر فرعا من فروع الكومنترن ثم الكومنفورم فالشيوعيون الذين لم يكونوا ليؤمنوا أصلا بوحدة الوطن العربي والامة العربية ، كانوا يعتبـــرون الكيانات الموجودة كيانات قائمة لكل منهـــا تطوره الخاص وظروفه الخاصة . وهكذا بقيت الاحزاب الشيوعية تعمل على صعيد اقليمي محلي وتتطور على هذا الصعيد ، ولم تتجاوز في تفكيرها الضيق هذه الحدود لتنظر الى الوطن العربي كساحـــة واحدة ، لانها اصلا لم تنفتح في مشاعرها وفكرها على الساحة العربية كساحة اجتماعية تاريخيـــة واحدة يجمعها مصير واحد واهداف واحدة. كذلك وجدنا بدل الميثاق الموحد للعمل عدة برامج ومواثيق وطنية كان يضعها كل حزب في الجزء الذى يعمـل به .

فالحركة الشيوعية لم تنطلق في البدء من نقطة انطلاق قومية عربية لا على الصعيد الفكري ولا على الصعيد العملي كما يتبين ، ولم تستطع ان تنفعل بظروف الوطن الواحد وقضاياه الواحدة ومشاكله الواحدة ولا ان تتفاعل مع مصيره الواحد . وبهـذا لم تكن الحركة الشيوعية باحزابها المختلفة الا نموذجـــا للحركات الاقليمية الاخرى التي ظنت ان حـدود الكيان هي حدود الساحة التي تعمل بهـــا فكريا ونضاليا .

ولهذا لم يكن من المستغرب ايضا ، ان الحـركة الشيوعية في موقفها من الوحدة (في فترات عـــدم المعارضة بل وحتى في فترات التأييد النظرى الحار) لم يكن لها اية صلة واى تماس بجماهير الشعب . والحركة الشيوعية التي تتبجح دوما بأنها « وسط الجماهير » ، « وسط اهدافهم وامانيهم » ، كانت بصدد قضية الوحدة في وسط جماهـــير كوريا الشمالية ، ووسط اهداف واماني شعب الفيتنام اكثر بكثير مما كانت وسط الجماهير العربية معبرة عن اهدافها واماتيها . وحتى ان بعض الاحزاب الشيوعية في الوطن (الحزب الشـــيوعي المصرى والجزائرى مثلا) لم تتعرض لقضية الوحدة طوال فترة عملها الطويلة لا سلبا ولا ايجابا ، فالقضية اصلا لم تكن مطروحة في اذهانها ولم تكن لتشغل اى حيز من تفكيرها لدرجة انها لم تكن جديـــرة بالمناقشة ! وهذا في الوقت الذى حبر الشيوعيون صفحات طويلة بعد تقسيم فلسطين وجندوا كـل امكانياتهم الفكرية ليثبتوا أن اليهود ((أمة في طريق التكوين)) ، بينما لم يخطر في بالهم ابدا أن اية حركة تؤمن بالوحدة العربية وبالامة العربيـــة الواحـــدة عليها واجبات كبيرة جدا لايقـــــاظ شعور العرب القومي ، وتعميق الوعي وحمـــاية الفكرة العربية من الدعوات الاستعمارية والاقليمية

والطائفية التي كانت طوال السنوات الماضية تتضافر كلها لاظهار الامة العربية كأمم متعددة لا يجمعها رابط . . .

*

ام ترى ان الحركة الشيوعية نفسها كانت احدى هذه الدعوات الموجهة ضد الحركة العربية ؟

هذا هو الواقع .

فحين تدعى الحركة الشيوعية اليوم انها تؤمن بالمبدأ ولكنها تختلف مع الحركة القومية على التفاصيل ، انها تؤمن بالوحدة العربية ولكنها تختلف على شكلها واسسها ، فليس لنا الا ان نسخر طويلا ! وحين تحاول الحركة الشيوعية اليوم ان تخفي انغلاقها التام عن جوهر الحركة القومية العربية التقدمي وراء عبارات « العلمية » ، « ومصلحة جماهير الشعب » ، « ومستقبل القضية العربية » يصبح من الواجب ان نمزق هذا القناع الصفيق لنظهر وجه الحركة الشيوعية على حقيقته بصدد هذه المسألة الاساسية ، وجها بعيدا عن العلمية بعد السماء عن الارض ، عاملا ضد مصلحة جماهير الشعب العربي ، متـآمرا على مستقبل القضية العربية .

ولن نتكلم نحن بل سنترك وثائقهم تتكلم . فماذا تقول هذه الوثائق ؟

اية دراسة دقيقة لموقف الشيوعيين من الوحدة العربية والقومية العربية خلال تاريخ عملهم في الوطن ، لا يمكن ان تؤخذ كفترة زمنية واحدة منسجمة ولا تظهر موقفا واحدا منسجما طيلة هذه الفترة . ذلك ان موقف الشيوعيين تجاه هذه القضية لم يكن موقفا عقائديا ثابتا يحدد نظرة الاحزاب الشيوعية لهذه القضية القومية الجوهرية منذ بدء عملها حتى الان ، فالتعديلات التي كانت تدخل عليه لملاءمة موقف الشيوعيين مع التطورات السياسية العربية والدولية ومع نمو وعي الشعب القومي تجعل من الصعب جدا دراسة تاريخهم بصدد هذه القضية كفترة زمنية واحدة او دراسة موقفهم كنظرة عقائدية ونضالية ثابتة لا تتغير .

لهذا يظهر موقفهم من الوحدة العربية والقومية العربية ثلاث فترات رئيسية !

الفترة الاولى : موقف الحركة الشيوعية من الوحدة العربية قبل عام ١٩٥٥ ، ١٩٥٦ .

الفترة الثانية : موقف الحركة الشيوعية من الوحدة العربية منذ عام ١٩٥٥ ، ١٩٥٦ حتى الشهور الاولى من قيام الوحدة عام ١٩٥٨ .

الفترة الثالثة : موقف الحركة الشيوعية من الوحدة العربية بعد عام ١٩٥٨ حتى الان .

الفصـــل الأول

موقف الشيوعية المحلية من القومية العربية والوحدة العربية

١٩٢٠ – ١٩٥٦

هذه الفترة تعطي في الواقع افضل صورة لموقف الحركة الشيوعية الحقيقي من القومية العربيـــة والوحدة العربية . فالاوضاع السياسيـة الدولية (موقف الاتحـــاد الســوفييتي والكومنترن ثم الكومنفورم من الوحدة العربيـــة) ، والاوضـــاع السياسية العربية (ضعف الحركة القومية العربية والوعى القومى شعبيا بالقياس للمرحلة الاخيرة من هذه الفترة وبعدها ، وواقع التجزئة الذى كان يبدو آنذاك انه لن يتهدم بسهولة الخ ..) ، هذه الاوضاع السياسية العربية والدولية لم تكن تضطر الحـركة الشيوعية لان تتظاهر بغير ما تؤمن به حقيقة بصدد وحدة الامة العربية والوحدة العربيـــة ، ولم تكن تضطرها لان تتخذ موقفا تكتيكيا بدل موقفها الاصيل كما اضطرت ان تفعل مثلا حين تغيرت تلك الاوضـاع العربية والدولية . لهذه الاسباب مجتمعة ، نستطيع ان نعتبر هذه الفترة نموذجا صافيا واضحا يعبـر تمام التعبير عن موقف الحركة الشيوعية الحقيـــقى من هذه القضية .

ولقد جاء هذا الموقف واضحا فعلا لابعد حدود الوضوح ، صريحا لابعد حدود الصراحة .

فماذا كان هذا الموقف ؟

اولا : طيلة هذه الفترة الممتدة منذ الربع الاول من هذا القـــرن حتى عام ١٩٥٥ – ١٩٥٦ ، لم تكن الحركة الشيوعية بكافة احزابها تقر بوجود امـــة عربية واحدة . فالعرب حسب التعريف الشـيوعى الكلاسيكي الذي أعطاه ستالين للامة لا تتوفر فيهـم مقومات الامة الواحدة !

ثانيا : طيلة هذه الفترة ، لا نجد كذلك بالتـالى ، أى اقرار بضرورة قيام وحدة عربيـة تجمع كافة العرب فى الوطن فى دولة واحدة . بل اننا نجد على العكس معارضة صريحة من قبل الحركة الشيوعية لدعوة الوحدة العربيـــة . « فبناء على الشروط الموضوعية المادية لا تستند دعوة الوحـــدة الى اى سند علمى واقعى فى ظروف الوطن العربى » ! ولهذا فان أقصى ما قالت به الحركة الشيوعية بالنسـبة لهذه القضية هو : « تنمية الروابط بين الشــعوب العربية » ، « وتوســيع التعـــاون » ، « وتنمية العلاقات الاخوية » !

هذا هو الطابع العام لموقف الحركة الشيوعية من القومية العربية والوحدة العربية فى هذه الفترة الطويلة . ومن الواضح ان الحركة الشيوعية لم تكن خلال هذه الفترة فى ذيل الاحداث فحسب بالنسبة لتطور الحركة القومية ودعوة الوحدة ، بل انها كانت قوة معرقلة لهذا التطور ، وقفت فى وجهه وعملت على تأخيره حيثما كان لها قوة تمكنها من القيام بهـــذا العمـــل .

* * *

فالحزب الشـــيوعي المصرى الذى تأسـس عام ١٩٢٠ ، لم يذكر حرفا واحدا يعطى فيه اى موقف بصدد وحدة الامة العربية نظريا او الوحدة العربية عمليا منذ زمن تأسيسه حتى عام ١٩٥٨ ، اى طيلة ثمانية وثلاثين عاما كاملة ! بل اننا نجد على العكس ، وبشكل واضح ، أن كافة ابحاث وبيانات الحــزب الشــيوعى المصرى كانت تؤكد باســتمرار على « الخصائص القومية الخاصة للمجتمع المصرى » ،

ولم تشر اية اشارة لا من قريب ولا من بعيد الى اية روابط واحدة قومية تجمع العرب فى الوطن . كذلك لا نجد فى برامج هذا الحزب المتعددة ، وفى اية فترة ، اى بند ينص او يوحى بشكل مباشر ان الحزب يؤمن بوجود مثل هذه الروابط اصلا لا على الصعيد الفكرى ولا على الصعيد السياسى . والموقف الوحيد الذى عبرت فيه الحركة الشيوعية فى مصر عن رأيها بمسالة الروابط والعلاقات العربية فى هذه الفترة هو الموقف المعارض الذى اتخذته من جامعة الدول العربية ، حيث نص البند السابع من البرنامج الوطنى للحزب الشيوعى المصرى :

« ٧ ـ عدم الارتباط بأى حلف من الاحلاف الاستعمارية والانسحاب من الجامعة العربية اداة المستعمرين . » (١)

وطبعا لم يقدم الحزب الشيوعى المصرى اى اقتراح او مشروع بديلا عن الجامعة العربية !. ومثل هذا الموقف الذى تطالب فيه الحركة الشيوعية فى مصر بالغاء الجامعة العربية دون أن تقدم حلا مقابلا لا يجوز نعته بالسلبية فقط بقدر مايعبر عن موقف هذه الحركة التى لم تكن لتهتم كثيرا او قليلا بأمر العلاقات والروابط العربية . هذا بينما نجد ان معارضة الحركة القومية الثورية للجامعة العربية كانت على اساس انها فى تكوينها الحالى تكريس للتجزئة اكثر منها خطوة فى طريق الوحدة ، لذلك لا يجوز ابدا ان تلهينا عن الهدف الاساسى وهو الدولة العربية الواحدة .

هذا الموقف عبر عن نفسه بوضوح بعد ذلك حين طرحت قضية وحدة مصر والسودان عام ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤ ، حيث وقفت الحركة الشيوعية فى السودان (التى كانت تتأثر الى حد كبير بموقف الحركة الشيوعية المصرية) ضد وحدة وادى النيل ، وهاجمت الحزب الوطنى الاتحادى الذى كان قد نجح فى الانتخابات واستلم الحكم آنذاك على اساس برنامجه الانتخابى القاضى بتحقيق وحدة وادى النيل ، واتهمته بأنه يعمل « لالحاق » السودان بمصر « وبيعه لعبد الناصر . » ! (٢)

واذا كانت الحركة الشيوعية فى مصر والسودان قد وقفت ضد وحدة وادى النيل رغم العلاقة التاريخية الوثيقة التى تربط هذين الجزئين العربيين بالاضافة لوحدة الرابطة القومية ، ورغم ارادة الشعب العربى فى السودان الذى بتصويته للحزب الوطنى الاتحادى قد صوت للوحدة ، فبالاحرى اذن ان تكون هذه الحركة مغلقة على حركة الوحدة العربية الشاملة وعلى مفهوم وحدة الامة العربية وهي التى عاشت طيلة عمرها منعزلة عنها .

وظلت الحركة الشيوعية المصرية المخنوقة بالاقليات الاجنبية غير العربية ، اجنبية فعلا بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ، كما ظلت عاجزة عن ان تدرك حركة التطور القومي التاريخى ، فعاشت على هامش هذا التطور القومي الشامل الذى كان يرفض فكرة التطور الاقليمي القومى المستقل للكيانات العربية . وبقى هذا الموقف الانفصالى يوجه الحركة الشيوعية فى مصر (والسودان) حتى عام ١٩٥٨ حين اعترفت ، **لاول مرة فى تاريخها** ، بالقومية العربية الواحدة والامة العربية الواحدة ، وكان ذلك فى دراسة صغيرة اصدرتها فى كراس بعنوان « مفهوم القومية العربية » .

ولكن حتى هذه الدراسة لم يعتبرها الشيوعيون المصريون تمثل موقفهم النهائى من وحدة الامة العربية ، اذ جاء فى تقديمها : انها دراسة اعدها المكتب السياسى للحزب الشيوعى المصرى ليناقشها الاعضاء ويرفعوا ملاحظاتهم بشأنها !

* * *

اما الحزب الشيوعى فى الجزائر والذى كان يضم الشيوعيين العرب الجزائريين الى جانب المستوطنين الشيوعيين الفرنسيين والاوروبيين عامة واليهود ، فان موقفه من القومية العربية والوحدة العربية بل ومن عروبة الجزائر نفسها هو خيانة فكرية ونضالية كبرى اكثر مما هو موقف خاطىء فحسب . وقبل أن نستعرض موقف الشيوعيين الجزائريين بصدد هذه القضية ، من الانصاف لشعبنا العربى فى الجزائر ان نذكر ان غالبية الحزب الشيوعى الجزائرى ليست من العرب ، وان الحزب قد عين له سكرتيرا عاما عربيا (هو العربى بوهالى) كمحاولة للتمويه واضفاء الطابع العربى على الحزب .

كان الحزب الشيوعى فى الجزائر وما زال مرتبطا ارتباطا تاما فكريا ونضاليا بالحزب الشيوعي الفرنسي الذى لم تكن سياسته تجاه الجزائر وتجاه الحركة القومية العربية لتقل حقدا عن سياسة الاستعمار

---

(١) « البرنامج الوطنى للحزب » اصدره المكتب السياسى للحزب الشيوعى المصرى فى بيان نشر فى نشرة « راية الشعب » الشيوعية ، عدد ٨١ .

(٢) كان الاتحاد السوفييتى يعارض وحدة وادى النيل بحجة ان اتفاقية الجلاء التى عقدت بين حكومة الثورة فى مصر وبريطانيا ستؤدى اذا تمت الوحدة الى جعل السودان ايضا تحت النفوذ البريطانى !

الفرنسي نفسه (كما سنرى) ، أما عملية انفصال شيوعيي الجزائر عن الشيوعيين الفرنسيين وتأليف حزب شيوعي جزائري مستقل سنة ١٩٣٦ ، فقد تمت بمبادرة وموافقة الحزب الشيوعي الفرنسي ، ولم تكن في الواقع الا مناورة قام بها هذا الحزب للتأكيد بانه لا يعتبر الجزائر ارضا فرنسية . ولكن هذه المناورة ، ككل مناورة ، لم تكن الا دعاية كاذبة فضحتها دوما المواقف الفكرية والنضالية التي وقفها هذا الحزب وما زال من قضية الجزائر .

لقد حدد الشيوعيون الفرنسيون موقفهم بصراحة من القومية العربية ومن عروبة الجزائر ومن دعوة الوحدة العربية وعلاقة الجزائر بها ، وتبنى الحزب الشيوعي في الجزائر موقف الشيوعيين الفرنسيين تبنيا تاما كاملا .

ولم يكن هذا الموقف الصريح الا خيانة صريحة . وقد قام بالنسبة للقضايا السابقة على الاتجاهات الرئيسية التالية :

اولا : انكار وجود امة عربية واحدة .

ثانيا : انكار عروبة الجزائر .

ثالثا : مهاجمة فكرة الوحدة العربية والدعوة الى اتحاد الجزائر مع فرنسا .

فحتى عام ١٩٥٧ كان شيوعيو فرنسا والجزائر لا زالوا ينكرون وجود امة عربية واحدة ، وكانوا يصفون حركة القومية العربية تارة بانها مجرد حركة اسلامية تجديدية وتارة بانها حركة عدوانية توسعية ، وانها في كلا الحالين تستند الى فكرة مغلوطة لا اساس لها من الصحة ! يقول « مارسيل افرتو » عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي :

« منذ اواخر القرن التاسع عشر ، نشأت ونمت في الشرق الادنى وخاصة في مصر ، تيارات مختلفة تهدف الى تجديد الاسلام وتكييف الحضارة واللغة العربية مع مقتضيات النهضة الحديثة . وقد ولدت هذه التيارات افكار البان اسلاميسم ـ الرابطة الاسلامية ـ والبان ارابيسم ـ الرابطة العربية ، وهي ايديولوجيات ترتكز على مفاهيم مغلوطة تاريخيا كمفهوم وجود « أمة عربية » ... » (١)

وكان هذا بالطبع هو موقف الحزب الشيوعي في الجزائر ايضا الذي يهمنا فيه موقف الشيوعيين العرب الجزائريين بشكل خاص . اي ان الحزب الشيوعي في الجزائر الذي كان قد استقل عن الحزب الشيوعي الفرنسي عام ١٩٣٦ ظل طيلة عشرين عاما ، والاغلب لهذه الساعة ، ينكر وجود امة عربية واحدة بل ويحارب هذه الحقيقة على انها فكرة اسلامية رجعية او عربية توسعية ! ولنتذكر ان هذا الموقف من وحدة الامة العربية يعطي في عام ١٩٥٧ ، اي بعد الزخم الكبير الذي كانت قد وصلته حركة العرب القومية ، وبعد الاضراب الشامل الشهير الذي شمل الوطن العربي باسره عام ١٩٥٦ احتجاجا على اعتقال زعماء الجزائر الخمسة ، بل وبعد بدء محادثات حكومتي مصر وسوريا لتحقيق الوحدة !

ولم يكن الحزب الشيوعي في الجزائر جاهلا بالطبع لهذه التطورات العميقة التي يشهدها الوطن العربي ، بل كان متجاهلا لها تجاهلا مقصودا وضمنيا لسبب بسيط : هو ان الشيوعيين الفرنسيين ، والشيوعيين الفرنسيين والاوروبيين واليهود المستوطنين في الجزائر ، كانوا يرون في تطور ونمو الحركة القومية العربية خطرا يهدد مصالح فرنسا في الجزائر . وهكذا وقف شيوعيو الجزائر الى جانب الاستعمار الفرنسي ، ووضعوا امكانياتهم في خدمته لطمس « عروبة العرب » !

وطبعا ، حاول الشيوعيون الفرنسيون والجزائريون أن يبرروا هذا التآمر الصريح على القومية العربية ، فخرجوا بمنطق فكرى مفلوج قالوا فيه ـ في مقابل حقيقة تطور العرب القومي كامة واحدة ـ بأن لكل جزء عربي تطوره (القومي) الخاص المستقل وروابطه الخاصة المستقلة ، وان فكرة القومية العربية التي توحد هذه الاجزاء هي وهم يجب القضاء عليه . وهكذا كان شيوعيو الجزائر يرددون في كل مكان الموقف الفكرى الذي لقنهم اياه قادة الشيوعيين الفرنسيين : ((ان التأكيد التدريجي للمصالح القومية الخاصة بكل شعب من شعوب الشرق الادنى والاوسط قد ساهم في تبديد أوهام فكرة الرابطة العربية » ! (٢) .

اننا في الواقع حين نناقش شيوعيي الجزائر هذه الخيانة الفكرية والنضالية التي يظهرونها موقفهم المخزى من وحدة الامة العربية ، انما نحسن الظن بهم اكثر مما يجب ، ونقدرهم باكثر مما يستحقون بكثير . فهل نتوقع من الحزب الشيوعي في الجزائر ان يعترف بأمة عربية واحدة تجمع العرب من المحيط الى الخليج وهو الذي انكر ـ ولا زال ينكر ـ عروبة الجزائر نفسها ؟

---

(١) مارسيل افرتو « كتاب « حقيقة الامة الجزائرية » الصادر في تموز ١٩٥٧ ـ « الحزب الشيوعي الفرنسي وقضية الجزائر » تأليف الياس مرقص ، ص ١١٩

(٢) افرتو ، المرجع السابق ص ١٨٦ ـ « الحزب الشيوعي الفرنسي وقضية الجزائر » ، الياس مرقص ص ١٢٤

لقد انكر الشيوعيون الفرنسيون والجزائريون عروبة الجزائر نفسها وقالوا : ان الجزائر هي امة (!) مستقلة قائمة بذاتها لها مقوماتها الخاصة وروابطها القومية الخاصة ومصالحها واهدافها الخاصة .

وهذه « الامة » لا يجمعها بالامة العربية ، او حسب تعبيرهم الاستعماري « بشعوب الشرق الادنى والاوسط » اية رابطة او اية علاقة الا بمقدار العلاقات التي تقوم عادة بين مختلف امم العالم !

ونسجت خيوط هذه المغالطة الفكرية الشنيعة ، بما تنطوي عليه من خيانة اشنع ، على الشكل التالي : في عام ١٩٣٩ ابتدأ موريس توريز ، الامين العام للحزب الشيوعي الفرنسي ، مؤامرة نفي عروبة الجزائر وسلخها عن جسم الامة العربية حين صرح قائلا : ان الجزائر امة في طريق التكوين . وفي عام ١٩٥٧ اعلن اكتمال فصول هذه المؤامرة واتسلاخها نهائيا (برأيه طبعا) عن جسم الامة العربية حين صرح قائلا : ان الجزائر قد اصبحت امة تامة التكوين

وممن تتكون هذه الامة الجزائرية ؟ هنا الاجابة الانكى .

تتكون من المستوطنين الفرنسيين والبربر والعرب والمستوطنين الاوروبيين، الاسبان والطليان والمالطيين واليونان ، الذين هاجروا من بلادهم واستوطنوا الجزائر !!

ترى هل نبالغ ؟

اذن لنرجع الى الوثائق .

يقول « ليون فيكس » ، وهو عضو آخر من اعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي ، في كتيبه « الجزائر حتف الاستعمار » :

« لقد درسنا الوجوه الرئيسية للجزائر ، بوصفها بلدا مستعمرا . والجزائر تعرض علينا خاصة اخرى ، تمنحها اصالة لا يمكن انكارها : انها امة في طور التكون .

« لقد عبر عن هذا المفهوم لاول مرة موريس توريز في ١١ شباط ١٩٣٩ ، اثناء مهرجان اقيم في الجزائر .

« .. عرف في شباط ١٩٣٩ الامة الجزائرية الآخذة في التكون فقال :

« .. أليس ثمة بينكم هنا ، الابناء المتحدرون من تلك العشائر النوميدية القديمة .. أليس بينكم احفاد اولئك البربر .. أليس بينكم احفاد اولئك القرطاجنيين ، والرومان .. وكذلك بينكم الآن ابناء اولئك العرب .. وكذلك ابناء الاتراك .. ان جميع هؤلاء انصهروا على ارضكم الجزائرية ، وانضم اليهم اليونان ، والمالطيون ، والاسبان ، والطليان ، والفرنسيون ..

« ان ثمة امة جزائرية آخذة في التكون ، هي ايضا ، من انصهار اجناس مختلفة . » (١)

هذا الموقف الفكري العجيب الذي حدده موريس توريز زعيم الحزب الشيوعي الفرنسي كان هو نفس موقف شيوعيي الجزائر بالطبع ، وهو نفس موقف الشيوعيين العرب والحزب الشيوعي السوري واللبناني منهم بشكل خاص الذي كان مرتبطا بدوره آنذاك بالحزب الشيوعي الفرنسي . وهذا الموقف الفكري العجيب ، بل هذه المغالطة الفكرية الضحلة تعني من جملة ما تعني :

أولا : ان الجزائر ليست جزءا من الوطن العربي، وشعب الجزائر ليس جزءا من الامة العربية . بل هناك « امة جزائرية » تنشأ وتنمو بشكل مستقل وفي مجرى خاص لا علاقة له من قريب او بعيد بالامة العربية لا من حيث التكوين ولا من حيث التطور !

ثانيا : ان العرب لا يشكلون الغالبية الساحقة في الجزائر وانهم ليسوا سكان واصحاب البلاد الاصليين والوحيدين ، فهم مجرد « جنس » من « الاجناس » المختلفة المتعددة التي تكون الامة الجزائرية .. انهم في هذا الصدد مثل وعلى نفس مستوى اليونان والطليان والاسبان والمالطيين والاتراك والفرنسيين !

ولتبرير هذه السقطة الفكرية التاريخية المعيبة كان على الشيوعيين ان يحلوا مشكلتين : مشكلة كيان الشعب العربي في الجزائر الذي كان قائما موجودا قبل ان يطأ ارض الجزائر هذا الخليط الغريب الذي يريد ان يجعله الشيوعيون جزءا من صلب تكوين الشعب في الجزائر ، ثم كان هناك مشكلة ايجاد سمات وخصائص وروابط مشتركة بين عرب الجزائر وبين هذا الخليط من الفرنسيين والاسبان والطليان والمالطيين والاتراك واليهود الى آخر هذه النكتة المضحكة ..

وكان الاشكال في رأيهم بسيطا يمكن ان يحل .

فهم الذين امتلكوا ناحية الفكر الذي لا يرد بامتلاكهم الماركسية ـ اللينينية ، بامتلاكهم الاشتراكية العلمية ، ليس اسهل عليهم من ان يرفعوا

---

(١) موريس توريز « ابن الشعب » ص ١٥٢-١٥٤ ، طبعة عام ١٩٥٤ . ـ ليون فيكس ، « الجزائر حتف الاستعمار » ، ص ٢٥-٢٦ ترجمة محمد عيتاني

عصا « الاشتراكية العلميـــــة » فيخرجوا من بطن الارض شعوبا ويخلقوا امما وينزلونها فيزيلوا شعوبا ويخسفوا امما .

وهكذا حاولوا كخطوة اولى ان يبرهنوا انه لم يكن في الجزائر شعب قبل مجيء الفرنسيين وخليــــط الاقوام عام ١٨٣٠ . الشعب العربي في الجـــزائر قبل ذلك التاريخ كان مجرد جماعات ليس لها اى هوية ، مثلهم مثل القبائل التى كانت تعيش فى غابات وادغال افريقيا السوداء ! فتاريخ وجود شـــعب الجزائر ليس ، بناء على هذا المنطق العبقــــرى ، الا تاريخ وجود الفرنسيين والاوروبيين عامة .

وحاولوا كخطوة ثانية ان يبرهنوا بعـــد ذلك ان تلك « الجماعات » التى كانت تعيش فى الجـــزائر قد الفت مع الخليط الذى وفد عليها واستوطن فيها شعبا واحدا متجانسا بدأ يكون امة واحدة !

يقول ليون فيكس عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الفرنسى فى هذا الصدد :

« ان بعض القـــوميين يزعمـــون .. ان الامة الجزائرية كانت موجودة عام ١٨٣٠ ، منذ بداية غزو الجيوش الفرنسية للجزائر . فما حظ هذا التأكيد من الصحة ؟ (فيكس ، المصدر نفسه ـ ص ٢٧) .

وبعد ان يستشهد الكاتب الكبير بتعريف ستالين الشهير للامة يصل الى النتيجة الاولية التى يريدها حيث يقول : « ولم تكن ثمة علاقات اقتصـــادية وبشرية حقيقية بين مختلف اجزاء البلاد . لقـــد كانت اللغة ، واسلوب المعيشة ، والتقاليـــد تختلف باختلاف الجماعة العنصرية او الاقليم . » (فيكس ، المرجع نفسه ص ٢٧ ، ٢٨) .

اى : « وهكذا يتضح ان الجزائر كانت عام ١٨٣٠ بعيدة عن ان تملك صفة الامة » (فيكس ، المصدر نفسه ص ٢٨) .

نحن طبعا لا نقول انه كان فى الجزائر « امة » ، بل نقول انه كان هناك شعب يكون جزءا من امة هى الامة العربية ، ويشترك معها بكافة الروابط التى توحد كافة اقسامها وتجعلهم امة واحدة .

من الحجج الفكرية ما يشعر الانسان انها تبلغ من السخف والضحالة حدا لا تستحق معه مجــــرد المناقشة . والكاتب الشيوعى الكبير الذى يستشهد بهذا الصدد « بالاشتراكية العلمية » ليدعم هــــذا المنطق الاخرق الذى يخجل طفل ان يتفوه به ، انما يظهر ان « الاشتراكية العلمية » .. علمية جـــدا بالتجائها لمثل هذه المغالطات الفكرية الفاحشة لتزوير الوقائع التاريخية .

فهل حقا كانت اللغة تختلف فى الجزائر من اقليم لاقليم قبل الغزو الاستعمارى الفرنسى ؟ هل كان هناك عدد من اللغات بعدد الاقاليم الموجودة ؟ الم تكن اللغة العربية هى اللغة الواحدة التى يتكلمها الشعب العربى فى الجزائر ؟ الا يخجل الشيوعيون من اطلاق مثل هذه الاقوال التى لا تعتمد الا على شيء واحـــد هو : الكذب الصارخ ؟

وهل حقا لم يكن هناك فى الجزائر اسلوب معيشة واحد وتقاليد واحدة ؟ هل حقا انه كان فى الجزائر اساليب متعددة للمعيشة بقدر الاقاليم الموجودة ؟ وبعد .. من هى « الجماعات العنصرية » التى كان لها تقاليدمختلفة ؟ هل يختلف اثنان ان العرب هـــم الاغلبية الساحقة من سكان الجزائر وان البقيـــــة الباقية هم اقلية من البربر ؟

وهل حقا لم يكن فى الجزائر عـــــلاقات بشرية حقيقية؟ هل لم يسمع مفكرو الحزب الشيوعى الكبار بالدول العربية العديدة التى قامت فى المغرب ؟ وهل لم يسمعوا بمراكز العلم والثقافة التى قامت فى المغرب حين كان الرسم هو شكل الكتابة المعروف فى فرنسا؟ هل لم يسمعوا أن المغرب قد استطاع أن يفـــرض استقلاله عن الامبراطورية العثمانيـــة فى وقت كانت جيوشها تدق ابواب أوربا ؟ هل لم يسمعـــوا عـــن الجزائر الغنية التى كانت فرنسا تستدين منهـــا القمح لتأكل ؟

أم لعل الكتاب الشيوعيين الكبار ، المتسلـــحين بالاشتراكية العلمية ، يعلقون وجود « عــــلاقات اقتصادية وبشرية بين مختلف أجزاء البلاد » ووجود الامم بالتالى ، على وجود معامل وقطارات كهربائيـــة سريعة تربط بين مختلف أجزاء البلاد ؟!

نصيحة واحدة لنا نقدمها للشيوعيين الفرنسيين والجزائريين : أن يعيدوا قراءة التاريخ ليصـــححوا معلوماتهم .

وهكذا ، بناء على هذه النتيجة الاولى التى وصل اليها الشيوعيون استنادا الى فرضية مغلوطة يصلون الى النتيجة الثانية حيث يلخصون الوجهيــــــن الرئيسيين الحاسمين فى تكوين « الامة الجزائرية » وأنهما :

« .. الارادة الجماعية الشاملة للجماهير العربية والبربرية بأن تبقى جزائرية .. »

« والوجه الثانى هو الطابع الخاص للسكان الذين هم من أصل أوروبى ، الذين تدفقوا على الجزائـــر منذ عام ١٨٣٠ ، والذين تسهم اكثريتهم الساحقة هى أيضا ، فى هذا التكون القـــومى » (فيكس ، المصدر السابق ، ص ٣٢) .

وللعلّ الشيوعيين يدركون ان كلّ فرد في الوطن العربى بل في العالم سيطالبهم بتفسير لهذه العملية السحرية التى سيفقد فيها الفرنسيون والاوروبيون من جهة ، وعرب الجزائر من جهة ثانية ، خصائصهم وسماتهم وروابطهم ويتحولون الى أمة واحـــــدة متجانسة في خصائصها وسماتها وروابطهـــــا ، فيوردون لتفسير ذلك كلاما مصفوفا يسمونه بنظرية الشيوعيين الفرنسيين والجزائريين بصدد قضية تكوين شعب الجزائر • وهـــذه النظرية الفكرية هي :

« ان اغلبية هؤلاء الرجال والنســـاء يعتبرون الجزائر ــ وهي البلاد التي ولدوا فيها ، وفيهـــا يعملون ، ولهم فيها عائلاتهم ومصالحهم ــ بوصفها وطنا لهم • ان نمط معيشتهم ، وطريقة نظرهم الى كثير من القضـايا يختلفـان عـن نمـط معيشـة الفرنسيين ونظرتهم ••• اذن فلا يمكن أن يعتبـر السكان الذين هم من أصل أوروبى ويقيمـــون في الجزائر ، بوصفهم أقلية قومية فرنسية : بل هـم يشكلون جماعة من الناس تندمج شيئا فشيئا في مجتمع جديد ، في الامة الجزائرية الآخذة في التكون•» (فيكس ، المصدر السابق ص ٣٤) •

لاى حد من الغباء نحتاج نحن العرب بل يحتاج أى انسان في العالم ، لكي يقتنع بهـــذا اللغو الذى يسميه الشيوعيون « فكرا » ويحاولون به اصطناع « أمة » بل وتغيير سمات وخصائص الفرنســيين المستوطنين في الجزائر ؟

هل يعتبر الفرنسيون الجزائر وطنا لهم ؟ نعم • ولكن بأى منظار ؟ تجاهل الشيوعيون أن الفرنسيين يعتبرون الجزائر وطنهم على أســاس انها جزء من الارض الفرنسية !

وهل حقا أن نمط معيشة فرنسيي الجزائـــر ونظرتهم للامور تختلفان عنهمـــا لدى فرنسيي فرنسا ؟ هل من أحد يجهل للان ان المستـوطنين الفرنسيين يجعلون حياتهم في الجزائر قطعـــة من فرنسا في نمط معيشتها وعاداتها وثقافتها الخ ••؟ وأن الاختلاف الوحيد ـ الذى يبدو أحيـــانا ـ في النظرة للامور هو أن المستوطنين الفرنســيين في الجزائر هم أكثر تطرفا من الاستعمار الفرنسي نفسه، هم قمة الاستعمار الفرنسى ؟

وبعد •• هل هناك أى تماثل بين نمط معيشـــة الفرنسيين المستوطنين ونظرتهم للامور ، وبين نمط معيشة عرب الجزائر ونظرتهم للامور؟ وبماذا يتجسد هذا التماثل ؟

هلْ يتجسد النمط الواحد في المعيشة والنظرة للامور بتماثل العادات والتقاليد بين المســتعمرين الفرنسيين وعرب الجزائر ؟ أم لعل هـذا المغالط الشيوعى الفذ أكبر عقلا من ذلك •

هل يتجسد بتماثل المشاعر والارادة ؟ أم لعـل المغالط الشيوعى الفذ أوسع افقا من أن يتجاهـل معاني الثورة العربية الدامية الدائرة في الجزائر ؟

هل يتجسد بوحدة اللغة ؟ ان مجال التهرب هنـا مغلق تماما فالتساؤل محدد جدا ، فكيف حـل الشيوعيون هذا الاشكال ؟ لقد قدموا حلا مضحكا ان كان قد ساهم بشيء فبتسريع تمزيق هذا التسـوب العلمى الذى تحاول الشيوعية أن تلبسه لنظريتهـا بصدد مسألة الامة والقومية • حل الشيوعيون عائق اختلاف اللغة بجملة واحدة من ست كلمات فقـط بالتحديد اذ قالوا : « أما مشكلة اللغـــة فيمكن أن تحل » ! (فيكس ، المصدر السابق ص ٤١) •

هكذا ، وبكل بساطة ، لا يشكل اختلاف اللغة اى عائق أمام كون المستوطنين الفرنســيين جزءا من (الامة الجزائرية) . ولماذا ؟ لسبب فكرى عميق جدا هو : ان مشكلة اللغة يمكن أن تحل !

وطبعا لم يكن موقف شيوعيي الجزائر الا نفس هذا الموقف الخائن • وقد أعلن الحزب الشــيوعى في الجزائر موافقته على تقطيع أوصال وحــدة الامة العربية وطمس عروبة الجزائر بشكل رسمى قبل خمسة عشر عاما .

فقد جاء في بيان « الحزب الشيوعى الجزائرى » الرسمى الصادر في تموز ١٩٤٦ بصدد هذه القضية ما يلي :

« •• ونحن الجزائريين من جميع الاجنــاس ، نكون بالفعل ، على أرضنا المشتركة ، جماعة ثابتة « ونحن مرتبطون بمصالح عامة مشتركة وبالنضـال ضد الاعداء أنفسهم •

« وهذه الوحدة تؤلف أساس الامة الجـزائرية الناشئة ، الغنية بجهود جميع ابنائها ، على اختلاف أصولهم وأجناسهم •• » ! (فيكس ، المصــدر السابق ص ٣٧) •

هـــذا هو موقف الشيوعيين الفرنســيين والجزائريين من الامة العربية الواحـدة ومن عروبة الجزائر • وهذه هى « نظريتهم الفكرية » لنفى وجود أمة عربية واحدة وطمس عروبة الجزائر • في كل كلمة منها خطأ فكرى وتاريخى تدحضه كل الوقائع الفكرية والتاريخية الماضية والقائمة اليوم ، ووراء كل كلمة منها تآمر صريح على مصير العرب ترفضه ابسط المشاعر القومية •

ومن الطبيعي أن يؤدي مثل هذا الموقف المستند الى مثل هذه النظرية الى محاربة كل اتجاه يدعو الى الوحدة العربية واقامة دولة واحدة تجمع كافة العرب .

وقد كان يمكن أن نتجاوز موقف الشيوعيين الجزائريين من الوحدة العربية على أساس انه نتيجة طبيعية لموقفهم من الامة العربية الواحدة ، لولا الصدمة التى يصاب بها كل عربى حين يتلقى المفاجأة الكبرى التى يتوج بها الشيوعيون فى الجزائر موقفهم من هذه القضية •

ففي الوقت الذى رفض فيه شيوعيو الجزائر الوحدة العربية كانوا يدعون الى الاتحاد مع فرنسا ! !

ففى ٣ تموز ١٩٥٦ أعلن « اتيين فاجون » ، عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعى الفرنسى أنه :

« يرى الحزب الشيوعى الفرنسى وجوب قيام علاقات دائمة بين فرنسا والجزائر فى الميادين السياسية والاقتصادية والثقافية ضمن اتحاد فرنسى حقيقى • » (١) !

وهذه الصدمة تشتد حين نتذكر أن هذا الموقف من الوحدة العربية ، تبناه شيوعيو الجزائر رغم مضى قرابة ثلاث سنوات على البيان الذى أعلنت فيه جبهة التحرير عام ١٩٥٤ أن من أهداف الثورة فى الجزائر : اقامة اتحاد بين أجزاء المغرب العربى يكون خطوة للوحدة العربية الشاملة !

* * *

أما الحزب الشيوعى العراقى فلم يشذ فى موقفه من وحدة الامة العربية عن موقف الحركة الشيوعية عامة طيلة هذه الفترة والذى كان يتصف بمعارضة الوحدة وتجاهلها وتضخيم الفروقات المصطنعة بين أجزاء الوطن العربى وتأكيد مبدأ « التطور الخاص الموضوعى » للكيانات العربية •

وهنا أيضا نجد أن الحزب الشيوعى العراقى الذى تأسس رسميا حوالى عام ١٩٣٥ ، ١٩٣٦ ، لم يحدد أى موقف فكرى وسياسى رسمى من القومية العربية أو من الوحدة العربية حتى عام ١٩٤٤ • أى أنه بقى عشر سنوات كاملة وهو بعيد كل البعد عن أى تفاعل مع حركة العرب القومية ! هذا بالرغم من أن العراق كان فى فترة من الفترات مركز جيشان قومى عربى عميق ، كما أن ثورة عام ١٩٤١ لم تكن ثورة ضد الاستعمار الانجليزى فقط بل كانت واضحة تمام الوضوح بالنسبة لهدف الوحدة العربية •

وكانت السنوات التى تلت ثورة ٤١ تحمل سمات هامة فى هذا الصدد •

فالشعب العربى فى العراق كان لا يزال يعيش متأثرا بحرارة الجو القومى التحررى الوحدوى الذى خلقته ثورة عام ١٩٤١ .

وفى تلك السنوات وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها • وكان الشعب العربى فى العراق وسوريا ولبنان والمغرب يعيش فى جو نضالى ملتهب • وكان، فضلا عن مطلب الجلاء الرئيسى الذى تركز حوله نضال الشعب ، تحدوه آمال كبيرة بالسير فى طريق الوحدة العربية بعد أن يجلو الاستعمار الذى كان العائق الرئيسى الاول أمام هذا الهدف الكبير •

وفى تلك السنوات أيضا ، بدأت مباحثات اقامة جامعة الدول العربية التى كانت من جهة حدثا فرضه ضغط الشعب المتطلع نحو الوحدة ، ومن جهة ثانية خطوة لامتصاص هذا المد الوحدوى ••

وفى غمرة مثل هذه الظروف لم يكن باستطاعة الحزب الشيوعى فى العراق أن يتجاهل هذا المد الوحدوى الكبير ، وكان لا بد أن ينسجم ولو نسبيا مع هذا المد حفاظا على المظهر على الاقل •

فهل اعترف الحزب الشيوعى العراقى بالامة العربية الواحدة وجعل هذه الحقيقة مبدأ فكريا أساسيا فى تحديد أهدافه ؟

وهل أيد الحزب دعوة الوحدة العربية وهدف اقامة دولة عربية واحدة تجمع العرب ؟

لقد وضع الحزب الشيوعى العراقى ميثاقه الوطنى عام ١٩٤٤ وثبت الميثاق نهائيا عام ١٩٤٥ • وقد جاء هذا الميثاق يتجاهل قضية الوحدة تجاهلا تاما ويستعيض عنها بعبارات مائعة عائمة جاءت فى الواقع تعبر أحسن تعبير عن موقف الشيوعيين فى العراق من مفهوم وحدة الامة العربية ودعوة الوحدة العربية •

فقد نص الميثاق الوطنى فى قسم بعنوان : « موقفنا من القضايا العربية » على ما يلى :

---

(١) مجلة « المجاهد » لسان جبهة التحرير الجزائرية ، من بيان نشر فى العدد الصادر باللغة الافرنسية ــ ترجم البيان فى صحيفة البعث ــ عدد ٢ ، بتاريخ ٣٠ ايار ١٩٥٨

« ١٣ - (أ) • نناضل فى سبيل التقارب والتعاون السياسى بين الشعوب العربية ، بين أحزابهـا وجماعاتها السياسية الديمقراطية ، من أجـل الاستقلال والسيادة الوطنية لفلسطين والاقطـار العربية المستعمرة والمحمية ••• »

(ب) نناضل فى سبيل ايجـاد حلف شريف أداة تنفيذ لهذه الغايات •

« ١٤ - نناضل فى سبيل التعاون الاجتماعى بين شعوب البلاد العربية ، بين منظمات العمال والمثقفين والطلاب فى البلاد العربية ••• »

« ١٥ - نناضل فى سبيل التعاون الاقتصادى بين الاقطار العربية ••• »

هذه هى اهم بنود الميثاق الوطنى للحزب الشيوعى العراقى • الميثاق الصادر عام ١٩٤٤ ، ١٩٤٥ ، وفى الظروف القومية والسياسية الآنفة الذكر ، والذى مفروض فيه أن يعبر تماما عن أهداف الحزب بالنسبة لقضايا العرب القومية طيلة مرحلة استراتيجية كاملة !

وهذا الميثاق ذى الاهمية الخاصة كما هـو واضح :

أولا : يتجاهل تجاهلا تاما مسألة وحـدة الامة العربية ، مسألة وجود أمة عربية واحدة • وهـذه الناحية من الخطأ الفاحش أن ننظر اليهـا على انها مجرد « نسوة » ، فلا مجال للنسيان فى ميثـاق وطنى رسمى لحزب منظم ، هذا فضـلا عن أن تجاهل مسألة الامة العربية الواحـدة لم يكن مجرد « نسوة » بالنسبة للحركة الشيوعية فى مصـر والسودان ، ومهاجمة فكرة الامة العربية الواحدة لم يكن مجرد « غلطة » بالنسبة للحزب الشـيوعى فى الجزائر ، وانكار وجود أمة عربية واحدة صراحة لم يكن مجرد لا « نسوة » ولا « غلطة » بالنسبة للحزب الشيوعى فى سوريا ولبنان « كما سنرى » • فعـدم النص على وحدة الامة العربية كمبدأ أساسى ، كمبدأ أول ، يقرر الحزب انطلاقا منه كافة مواقفه العملية تجاه قضية الامة العربية ، انما كان عملا مقصـودا يعبر عن موقف الحزب الشـيوعى فى العراق الذى كان أيضا حتى ذلك التاريخ لا يؤمن بوجـود أمة عربية واحدة تامة التكون !

ثانيا : ان هذا الميثاق لا يذكر ولا بكلمة واحـدة قضية الوحدة العربية !

بل لقد مسخ هدف الوحدة العربية الى عمليـة « تعاون » ، وتقارب !

التعاون والتقارب السياسى بين الشعوب العربية ؟

والتعـاون الاجتماعى بين شعوب البـلاد العربية •

والتعاون الاقتصادى بين الاقطار العربية •

فهل كان التعاون السياسى والاقتصـادى والاجتماعى هو الهدف الكبير النهائى الذى يعمـل من أجله الشعب العربى ، أم كان التوحيـد السياسى والاقتصادى والاجتماعى لاقسـام الامة العربية فى مجتمع قومى عربى واحد ؟!

بل لقد مسخت فكرة الدولة العربية الواحدة الى مجرد حلف !

فهل ان هدف العرب فى الحياة الواحدة ، ارادتهم ومشاعرهم واحاسيسهم ، بل واقعهم الموضوعى كامة واحدة ، يختزل كله فى حلف ؟ فى مجرد حلف يمكن أن يعقد بين أية دولة وأخرى ؟

ان الحركة القومية العربية الثورية لهـا موقف واضح من قضية التعاون والتضامن والمواثيق • انها تشجع وتؤيد التضامن شرط الا يكون عملية تجميـد وتخدير للمد الوحدوى ، وتؤيد المواثيق العربية على اختلافها شرط الا تكون هى الهدف النهائى • انهـا خطوة فى طريق الهـدف وليست بديلا عن الدولة العربية الواحدة •

والمفروض فى الحزب المخلص الثورى أن يرسم الاهداف الكاملة بوضوح أمام جماهير الشعب ، وأن يعبئها وراء هذه الاهداف الواضحة ، وان كان طريق النضال العملى يمكن ان يقسم الى مراحل • ولكن حين تطمس الاهداف الكاملة ولا تذكر بكلمة واحدة ويستعاض عنها دوما بتعابير جزئية مائعة عنـدئذ يكون أى حزب متآمرا على هذه الاهداف ، متآمرا على على وضوحها وجلائها وثوريتها •

* * *

و فى عام ١٩٥٦ ، أى بعد أكثر من عشرين عـاما كاملة ، ومنذ أربع سنوات فقط ، « اكتشـف » الحزب الشيوعى العراقى فجأة وجـود أمة عربية واحدة ، « وقرر » أن يعترف بها ! وهكـذا نصت مقررات « الكونفرنس » الثانى للحزب الشـيوعى العراقى المعقود فى ايلول ١٩٥٦ أن الامة العربيـة تمتلك جميع الخصائص القومية للامة العربية •

ولكن ، لعل الشعب العربى أذكى من أن يقتنع ان الوحدة لم تكن الا قناعا للدجل ارتداه الشيوعيون فى العراق آنذاك ، وقد جاءت الاحـداث لتثبت ذلك عمليا كما سنرى ، حين عاد الشيوعيون انفسـهم

واستبدلوا الوحدة بالاتحاد ثم الاتحاد بالتضامن ومزقوا ذلك القناع ونثروه نتفا على مشانق أعمدة الكهرباء في الموصل •

* * *

اما الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان ، فمن الواجب أن نقف طويلا جدا عنده ..

فالظروف التى توفرت لهذا الحزب لان يكون أكثر انفتاحا على تطور العرب القومى كامة واحدة ،كانت ظروفا نموذجية لم تتوفر لاى حزب شيوعي اخر في الوطن العربي • فمنذ عام ١٩١٠ ، بل ومنذ أواسط القرن التاسع عشر ، وسوريا تلعب دورا رئيسيا في تعميق فكرة القومية العربية الواحدة ، وتمثل المركز الرئيسى لهذه الفكرة • فاى حزب تتوفر فيه ذرة اخلاص لوحدة الامة العربية ما كان ممكنا أبدا أن يبقى منعزلا عن دعوة الوحدة العربية ، وعن الجيشان القومي العربي المتواصل الذى شهدته سوريا « ولبنان » لنصف قرن كامل من الزمن !

ولكننا انما نتحدث عن الحزب الشيوعي السورى اللبناني الذى فقد حتى ذرة الاخلاص هذه !

ان تجربة خمسة وثلاثين عاما من تاريخ عمل هذا الحزب في هذين الجزئين من الوطن ، وفى مثل هذه الظروف العربية النموذجية المواتية ، لم تؤثر فيه الا من ناحية واحدة : هي انها جعلته في مواقفه المخزية من وحدة الامة العربية يعطى صورة نموذجية عن موقف الحركة الشيوعية الاجنبى الغريب البعيد بل والمعادى لهذه القضية نظريا وعمليا •

فالحزب الشيوعي في سوريا ولبنان الذى تأسس حوالى عام ١٩٢٥ ، لم يكتشف وجود الامة العربية الواحدة الا منذ أربع سنوات أيضا ، ولم يعترف بها رسميا الا عام ١٩٥٦ ! أى أنه بقى طيلة ثلاثين عاما كاملة يهمل قضية وجود أمة عربية واحدة .

بل ان هذا الحزب لم يهمل مسالة وجود الامة العربية الواحدة فحسب ، بل أنكر وجودها أيضا قائلا : انه حسب مقاييس « الاشتراكية العلمية » لا تتوفر في العرب مقومات الامة !

وحين اضطرت الظروف هذا الحزب لان يضفى شيئا من اللون العربي على عمله ، جاءت محاولته هذه ، كما جاءت محاولة شيوعيي العراق ، مؤامرة لمسخ مفهوم الوحدة العربية وتقليصها الى مفهوم سطحى ضحل كالتقارب العربي !

وهكذا تعود القاعدة لتبرز من جديد في مواقف الحزب الشيوعي السورى اللبناني : انه حيث لا يؤمن الحزب بوجود الامة العربية الواحدة على الصعيد الفكرى ايمانا ينبثق عن مبدأ مخلص ، فلا يمكن أن يعمل للوحدة العربية على الصعيد العملى عملا مخلصا • ولهذا نرى أن حتى هذا الاعتراف بوجود الامة العربية (والذى جاء في سرعته متناسبا تماما مع مدى ثورية هذا الحزب !) ، لم يكن الا مجرد تلازم ظرفى تكتيكي سرعان ما نسف مرة أخرى حين عادت — لتحل محل ذلك الاعتراف — نظرية بل مؤامرة الفروقات الضخمة بين أقسام الامة العربية ، والتطور المستقل لكل جزء عربى •

هل نبالغ وهل نظلم الحزب الشيوعى في سوريا ولبنان حين نقول انه دبج مقالات طويلة في انكار وجود أمة عربية واحدة ؟ بل وانه كان في كتاباته يؤكد على اصطلاح غريب هو « الامة السورية » « والامة اللبنانية » ؟

وهل نبالغ ونظلم الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان حين نقول انه لم يضع الوحدة العربية في اى يوم من أيامه وطوال تاريخ عمله كهدف يسعى لتحقيقه ؟ انه لم ينص ولا مرة واحدة على الوحدة العربية بمعنى الدولة العربية الواحدة ؟ انه لم يضع الوحدة العربية ضمن مخططاته ولا ضمن شعاراته مع انه حدد مرارا في مقرراته الكثيرة الشعارات الرئيسية للحزب ومخططات عمله ؟

لنرجع اذن الى الوثائق لنرى ما تقول :

نحن الان في عام ١٩٣٩ • الحزب الشيوعى في سوريا ولبنان يعمل منذ خمسة عشر عاما شهد خلالها كافة التطورات الهامة التى مرت على الوطن وهو ينكر وجود أمة عربية واحدة .. أما الكاتب فهو خالد بكداش الامين العام للحزب الشيوعى في سوريا ولبنان في مقدمة كتابه « طريق الاستقلال » الذى نشر فيه بعض أبحاث ستالين المعروفة في الامة والقومية مع بعض موضوعات أخرى •

ونقطة الارتكاز في نفى وحدة الامة العربية هى — بالطبع — نظرية ستالين الآنفة الذكر في مسالة نشوء الامم والقوميات ، ومحاولة تطبيقها على الواقع القومي للعرب تطبيقا ببغائيا بلا أي تفكير وبلا أية اضافة وبلا أية اصالة .

فالامة العربية الواحدة غير موجودة لانه كما يقول خالد بكداش مستطردا في تفسير اقوال

ستالين : « نشأت الامم بنشوء الرأسمالية . قبل نشوء الرأسمالية لم يكن هناك امم » (١)

وبناء على هذا النص المقدس ، الذي يصح في كل زمان ومكان ، يريد الشيوعيون ان يثبتوا في اذهان الشعب العربي ان الامة العربية لم توجد بعد لانه لم توجد بعد رأسمالية في الوطن العربي . وبما ان الرأسمالية لم تنشأ في الوطن بعد ، فالحياة الاقتصادية المشتركة (التي هي احدى العلائم الرئيسية في مفهوم الشيوعية لتكوين الامة) لم تنشأ ايضا في الوطن العربي بعد ، وبانتفاء وجودها ينتفي ضمنا وجود أمة عربية واحدة .

يا للسخرية !

والامة العربية غير موجودة كذلك لانه لا تتوفر في العرب لا الوحدة الجغرافية (الارض الواحدة)، ولا الوحدة الثقافية ولا الوحدة الاقتصادية ولا البنيان النفسي (التكوين النفسي المشترك) ! يقول خالد بكداش :

« فالوضع الجغرافي الذي يفصل بين سوريا والجزائر أو بين العراق ومصر سيظل فاصلا بينهما (!) وهو قد اثر ويؤثر على تطور كلا القطرين وعلى ثقافة كل منهما وحياته الاقتصادية وعقليته وبنيانه النفسي . . » (٢)

وأما قضية اللغة العربية الواحدة فليست كافية لتكوين أمة . يستطرد خالد بكداش معلقا على التعاريف التي حاول البعض وضعها للامة العربية مؤكدين على رابطة اللغة المشتركة والاماني والآمال :

ولم يلحظ كذلك صاحبا الاقتراحين المذكورين ان اللغة المشتركة ووحدة الامال والاماني ، اللتين اراد ابقاءهما وحدهما في التعريف ، لو كانتا كافيتين لتاليف الامة ، لاصبح الانكليز واميركيو الشمال أمة واحدة ، بالرغم من المحيط الاطلنطي الواسع الذي يفصل بينهما ، اذ ان كلا الشعبين يتكلمان اللغة الانكليزية ولهما (أي الشعبين لا الحكومتين) آمالا وأماني واحدة هي بلوغ حياة تؤمن لهما الحياة والحرية والخبز » (٣) .

والحركة القومية تدرك أن اللغة وحدها لاتكون الامة ، ولكنها تقول ان اللغة العربية بالاضافة الى عوامل التاريخ والعادات والثقافة والارادة ، كروابط مشتركة ، تؤكد وحدة الامة .

ذلك الكلام يريد أن يثبت به خالد بكداش والشيوعيون في سوريا ولبنان ان ليس هناك شيئا اسمه : أمة عربية واحدة .

فالعرب لايعيشون على ارض مشتركة واحدة ، فهناك حواجز جغرافية تفصل ، بل ، « وستظل فاصلا » بينهم !

ولكل جزء ثقافته الخاصة .

ولكل جزء حياته الاقتصادية الخاصة .

بل ولكل جزء عقليته وبنيانه النفسي الخاص .

واللغة صحيح انها مشتركة ، لكن اللغة لوحدها لا تكون أمة .

اذن ، بماذا يشترك العرب ، وماذا يوحدهم ؟!

ونحن لا يهمنا ان نناقش الشيوعيين هذا اللغو ، ولا ان نظهر ضحالة المستوى الفكري المعيب لدى حزب يتبجح ليل نهار بالعلمية . ولكننا نريد ان نتساءل ما هي النتائج التي تترتب على مثل هذا التوجيه الفكري والسياسي الذي يقوم به حزب رسمي منظم ؟ ومن الذي يستفيد من انكار وجود أمة عربية واحدة لها حق تقرير مصيرها ، وتصويرها كجماعات منفصلة متباعدة لا يجمعها رابط ؟ الم تكن نظرية الاستعمار الكلاسيكية الشهيرة في تبرير استعمار العرب : انهم ليسوا أمة بل رقعة من الفسيفساء المتضاربة الاشكال والالوان ؟

بئس الفكر !

وما يهمنا ان هذه النظرية ، انكار وجود امة عربية واحدة ، كانت تعكس في جانبها الثاني ، كما هو واضح ، النظرية المشؤومة الاخرى التي حددت موقف الشيوعيين عامة تجاه الواقع القومي للعرب طيلة هذه الفترة (١٩٢٠ ــ ١٩٥٦) وهي : نظرية التطور القومي الخاص المستقل للاجزاء العربية بدل التطور القومي العربي الواحد ، وتضخيم الفروقات بينها بدلا من اعتبارها ــ كما هي فعلا ــ فوارق مصطنعة اوجدها واقع التجزئة والاستعمار.

والنتيجة الفكرية والسياسية الطبيعية لهذا الاتجاه المنحرف المغلوط هي القول بشعوب عربية متعددة ، بل بأمم متعددة بدل الامة العربية الواحدة وهكذا ، فان ذلك التحليل الغث الذي قدمه خالد

---

(١) مقدمة كتاب « طريق الاستقلال » لخالد بكداش الصادر عام ١٩٣٩ ــ « صفحات مجهولة من تاريخ الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان » ، تأليف محمد علي الزرقا والياس مرقص ، ص٦٢

(٢) « طريق الاستقلال » ص ٦ ، ٨ ــ المرجع السابق ، ص٦٥ ــ محمد علي الزرقا والياس مرقص .

(٣) نفس المصدر السابق .

بكداش لم يلق اعتباطا . بل كان فعلا يحدد موقفا فكريا للشيوعيين يقول : ان هناك امة سورية وامة لبنانية وامة مصرية وامة جزائرية الخ ..

يقول خالد بكداش في « طريق الاستقلال » مستانفا برهانه لعدم وجود أمة عربية واحدة : « ومن هنا يتبين بوضوح ان ما قاله ستالين في تعريف الامة وتحديد العلائم التي تميزها ذو أهمية كبرى لتنوير اذهان العرب حول القضايا التي يجابهونها تبعا لخصائصهم القومية التي تكونت وتتكون في كل قطر من اقطارهم ..» (١)

فهناك اذن : خصائص قومية خاصة بكل قطر ، تكونت وتتكون فيه بشكل مستقل !

وخالد بكداش حريص جدا على ان لا يحصل أي التباس بأن المقصود « بالخصائص القومية لكل قطر » هو : ان هناك أمة تكونت وتتكون في كل قطر ، لذلك يسارع الى توضيح هذه الناحية بقوله :

« فأمتنا في سوريا العربية مثلا منعتها سيطرة الاستعمار من السير بسرعة في طريق التكون ... فأمتنا لا تزال في طريق التطور والتكوين أي في طريق استتمام العلائم التي تميز الامة » (٢)

اذن : فالامه في سوريا « العربيه » سوف تتطور وتستكمل العلائم التي تميز الامة التامة ، أي يصبح هناك أمة سورية حسب تعريف ستالين للامة وعلائمها وهذا القول بالامة السورية مقابل الامة العربيه ، منسجم تماما فكريا مع التحليل الذى ابتدأ به خالد بكداش بحثه هذا ونفى فيه توفر مقومات وعلائم الامة في العرب ، وأكد فيه على فكرة «التطور القومي الخاص» ، و «الخصائص القومية الخاصة» . ويبرهن فيه أن اللغة - وهي الاشكال الوحيد الباقي أمام فكرة أمم متعددة لا أمة عربية واحدة ! - لا تكفي لوحدها لتشكيل أمة ، وانه يمكن اشتراك عدة أمم في لغة واحدة .

وهكذا تتم فصول المؤامرة الفكرية « الاساس الفكرى » لنفي وحدة الامة العربية ، وتصبح القضية على الشكل التالي : امم متعددة تتكلم لغة عربية واحدة . تماما كما هناك امة انجليزية وأمة اميركية تتكلمان لغة انجليزية واحدة .

بئس الفكر !

وقد انعكست هذه النظرية المنحرفة في موقف الحزب الشيوعي السوري اللبناني من دعوة الوحدة العربية طيلة هذه الفترة ، كما عادت بعد ذلك وشكلت الاساس النظرى « الموضوعي » (!) لاستئناف المعارضة الشرسة للوحدة بعد قيام الجمهورية العربية المتحدة .

فكيف تجسد هذا الموقف في دعوة الوحدة العربية ؟

* * *

في عام ١٩٣٧ القى خالد بكداش خطابا نشره الحزب في كراسة بعنوان « في سبيل حريات الشعب الوطنيه والديمقراطية » ، حدد فيه بوضوح موقف الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان من الوحدة . وقد جاء هذا المفهوم مطابقا ومنسجما تماما مع مفهومهم لوحدة الامة العربية المذكور آنفا مما يدل انهم كانوا دوما يتبنون هذا المفهوم حتى قبل ان يكتبوا عنه رسميا عام ١٩٣٩ . يقول الخطاب :

« يناضل الحزب الشيوعي منذ تأسيسه لاجل وحدة البلاد الوطنية التامة ، التي تستطيع وحدها أن تؤمن تطورا سريعا أمينا لوطننا العزيز . ولذلك نرى بعين الغبطة والسرور كل خطوة تجرى في هذا السبيل ، نرى بعين الغبطة والسرور الحفلات التي جرت أخيرا في اللاذقية وجبل الدروز برئاسة السيد سعد الله الجابرى .

« والبلاد تنتظر الخطوة الاخرى ، اى تحقيق الاتحاد السورى اللبناني الذى ستفشل كل محاولة تقف في طريقه ، لان الضرورات الاقتصادية الحيوية نفسها تقتضى هذا الاتحاد . » (١)

هذا الخطاب هام فعلا ، لانه يلقي الضوء على موقف الشيوعيين من الوحدة طوال هذه الفترة التي تلت تأسيس الحزب . ونلاحظ في هذا الموقف :

اولا : لا يذكر الخطاب قضية الوحدة العربية ولا بحرف واحد ولا يضعها أبدا كهدف « ناضل الحزب الشيوعي في سبيله منذ تأسيسه » . وكل ما وصلت اليه آفاق الشيوعيين في هذا الصدد لم يكن الا : « وحدة البلاد الوطنية » .

---

(١) المصدر السابق - « صفحات مجهولة من تاريخ الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان » ، ص ٦٥

(٢) « طريق الاستقلال » ، ص ١٤ « صفحات مجهولة .. » محمد علي الزرقا والياس مرقص ص ٧٠

(٣) خالد بكداش ، « في سبيل حريات الشعب الوطنية والديمقراطية » ، ص ١٨ - ٢٢ كانون ثاني ٩٣٧

انها لآفاق واسعة حقا !

وهذه الآفاق الواسعه جدا ـ وحدة البلاد الوطنيه ـ لم تقف عبثا عند هذه الحدود لمفهوم الوحدة • بل انها تتمشى مع مفهوم «الامة السورية» التى يجب أن تتطور وتستكمل علائمهما كأمة ؟ **فالوحدة العربية** ليست قضية مطروحة ولا مجال حتى للتفكير فيها لان العرب ليسوا أمة واحدة ، بل القضية التى يجب التفكير فيها فقط هى **الوحدة السورية** ، لان السوريين هم أمة ، أو أمة فى طريق التطور والتكون على الاقل !

ثانيا : يؤكد حقيقة هذا الموقف القسم الثانى من الفقرة ، حيث نجد أن الشيوعيين حتى حين حاولوا أن يتجاوزوا فى آفاق تفكيرهم حدود الوحدة السورية ، لم يتجاوزوها الى حدود الوحدة العربية أبدا ، بل الى حدود **الاتحاد** مع لبنان فقط • (ولننتبه جيدا الى التعبيرين المستعملين : **الوحدة والاتحاد**) • فقضية الوحدة العربية كانت منكمشة فى ذهنهم المنكمش الى الصورة التالية : **وحدة الامة السورية التى يمكن أن تحقق اتحادا مع الامة اللبنانية !**

ثالثا : يؤكد هذه الحقيقة أيضا ، أن دعوتهم « للاتحاد » مع لبنان ، لم تكن على أساس وحدة الروابط القومية التى تجمع بين العرب ، على أساس وحدة الامة العربية تاريخا ولغة ووطنا وثقافة الخ •• وأنما فقط : (لان الضرورات الاقتصادية الحيوية نفسها تقتضى هذا الاتحاد) ومادامت هذه الضرورات الحيوية لا تجمع بين بقية أجزاء الوطن ، اذن فلا يجوز التفكير حتى بمجرد اتحاد معها !!

نحن الآن فى عام ١٩٤٣ ، حيث كان يسير جنبا الى جنب مع مطلب جلاء القوات الفرنسية ، الامل القديم فى انفساح المجال للسير فى طريق الوحدة العربية • وفى ذلك الوقت أيضا بدات ـ بتأثير تزايد المد الوحدوى ـ الاتصالات الاولية بين المسؤولين العرب آنذاك والتى تمخضت فيما بعد ـ مختزلة مطلب الوحدة الشعبى ـ عن قيام جامعة الدول العربية •

المفروض طبعا فى أى حزب يؤمن بالقومية العربية وبالوحدة العربية ، أن يلقى آنذاك ، وفى مثل تلك الظروف ، بكل قواه فى هذه المعركة • المفروض أن يضع مطلب الوحدة العربيه كهدف مقدس يعبر عن حقيقة العرب القومية وعن ارادة الشعب • المفروض أن يطالب المسئولين بتحقيقه والا يتنازل عنه ولا يقبل مساومة فيه • المفروض أن يطرح هذا الهدف كشعار قائم ملح ـ فى مثل تلك المرحلة الملائمة ـ وأن ينزل بكل قواه الى صفوف جماهير الشعب ليعبئها وراءه ، ويفضح الاتجاهات والتيارات العديدة التى كانت تتغنى بالوحدة بينما تعمل فعلا لتشويهها واختزالها الى أشكال مائعة هدفها تثبيت التجزئة •

فماذا كان موقف الحزب الشيوعى فى سوريا ولبنان من هذه القضية المطروحة ؟ وماذا كان موقفه من الاتصالات الجاريه بين الحكام العرب آنذاك ؟

لقد كان الحزب الشيوعى ، « حزب أوسع الجماهير الشعبية » بعيدا منعزلا عن الجماهير الشعبية ! بل لم يكن بعيدا عن فهم مشاعر ومطالب جماهير الشعب العربى فقط ، بل كان بعيدا كل البعد عن قضية الوحدة العربية أو الاتحاد العربى ، فحارب هذه الدعوة وعمل على كبح المد الشعبى الوحدوى ، وتشويه التيار الذى كان ينمو بسرعة•

وهكذا خرجت مجلة الطريق(١) فى تلك الظروف تقول :

« كثر النشاط والاخذ والرد فى الآونة الاخيرة حول فكرة الوحدة العربية والاتحاد العربى ، لسنا بغرباء عن فكرة الوحدة العربية والاتحاد العربى ، وليست عروبتنا مرتجلة • على اننا نرى ، كما يرى الكثيرون ، طائفة كبيرة من العقبات تجعل بسط الوحدة العربية والاتحاد العربى على بساط البحث الآن أمرا غير عملى •

« فالاقطار العربية ـ حتى العراق وسوريا ولبنان وفلسطين وشرقى الاردن منها ـ تختلف فى أنظمتها ، ومشاكلها المعلقة ، ومدى تطورها وارتباطاتها الخارجية ، اختلافا بينا اساسيا لا يجوز اهماله أو التهاون به •

« عدا عن أن كل قطر من الاقطار العربية يرفض ان تعنى الوحدة أو الاتحاد ، سيطرة غيره عليه .

« هذا أبسط ما يمكن ان يقال فى الموضوع » .

(١) « الطريق » مجلة كانت تصدرها عصبة مكافحة الفاشية فى لبنان ، وهى منظمة واجهة اسسها الحزب الشيوعى السورى اللبنانى عام ١٩٣٧ ، « لمكافحة خطر الفاشية المتزايد فى العالم » قبل الحرب العالمية الثانية ، وقد كان لهذه المجلة كما كان لصحيفة الحزب الرسمية «صوت الشعب» مواقف مخزية فى مهادنة الاستعمار الفرنسى كما سترى • وقد تحولت مجلة الطريق بعد انتهاء الحرب الى مجلة « انصار السلام » •

«وفى رأينا أن المسالة فى الاقطار العربية ليست جغرافية حدودية — اذا صح التعبير — ولكنها مسالة أصلاح داخلي ، وسير نحو الحرية ، وبناء صحيح للديمقراطية ، بناء اقتصادى وطنى صامد وبناء سياسى واجتماعي وثقافى متين • » (٢)

هذا هو موقف الحزب الشيوعي من قضية الوحدة والاتحاد ، (حزب الطليعة المعبر بأمانة عن أهداف الشعب » !!

ولسنا نرى في هذا الموقف ، كما لا بد يرى كل عربى ، الا خيانة لاهداف الشعب وطعنا لآماله وتآمرا على مصيره ، هذا فضلا عن أن موقف كذبه الوضيع لا يقل عن تآمره الصريح •

اولا : فالشيوعيون ليسوا غرباء عن فكرة الوحدة العربية وليست عروبتهم مرتجلة ! ولعله كان بودهم أن يقولوا أيضا أن أحسن شاهد على اصالة عروبتهم وايمانهم بالوحدة العربية هو مقدمه كتاب طريق الاستقلال التى نفوا فيها على « اسس الاشتراكية العلمية ، وجود أمه عربية واحدة ، واستخدموا كل امكانياتهم الحزبية فى نشره وتوسيع توزيعه • وأن أحسن شاهد على اصالة عروبتهم وقربهم من فكرة الوحدة العربية هو : نظرية الخصائص القومية لكل قطر ، والتطور القومى الخاص لكل قطر ، وانعدام الوحدة الجغرافية والثقافية والاقتصادية بين العرب •

لقد كان القوميون السوريون اجرأ على الاقل فى التعبير عن آرائهم المنحرفه بصدد هذه القضية !

ولعل الشيوعيون يدركون جيدا بالطبع نظريتهم ، بل خيانتهم ، الفكريه والعمليه فى هذا الصدد عام ١٩٣٧ و ١٩٣٩ ، ولذا نراهم يسارعون بالدرجة الاولى الى نفى كونهم غرباء عن فكرة الوحدة أو مرتجلين فى عروبتهم •

ويكاد المتهم يقول خذونى ! فلم نر حزبا يعمل للوحدة العربية بصدق ويؤمن بالعروبة بأصالة يبدأ حديثه عن الوحدة العربية بنفى كونه غير مؤمن بالعروبة الا اذا كان فى تاريخ هذا الحزب ومواقفه ما يثبت ذلك فعلا •

ما يهمنا ان نثبته على اية حال فى هذا الصدد ، أن الحزب الشيوعى فى سوريا ولبنان ، ابتدأ منذ هذه الفترة — ومرغما تحت تأثير المد الشعبى الوحدوى — يتجاهل كتاباته السابقة بنفى وجود أمة عربية واحدة ، يتناساها نظريا مع أنه استمر فى مواقفه يجسد تلك النظرية عمليا ، كما لم يرافق بدء هذا التكيف التكتيكى المنافق اية كتابات تناقض تلك الكتابات الاولى •

ثانيا : هناك « « طائفة كبيرة من العقبات تجعل بسط الوحدة العربية أو الاتحاد العربى على بساط البحث الآن امرا غير عملى » • نحن نفهم أن يتحدث حزب عن العقبات التى تقف فى وجه الوحدة العربية ، ولكن كل انسان يفهم ويدرك ان التحدث عن هذه العقبات يكون — بالنسبة لاى حزب مخلص — بقصد فضح العقبات التى توضع عمدا فى وجه الوحدة ، بقصد انارة السبيل لكيفية حلها وتجاوزها لتسريع تحقيق الوحدة ، بقصد التأكيد على أنها عقبات مصطنعه يثبتها الحكام المصلحيون الذين يعيشون على التجزئة وأنها تزول بسهوله اذا توفرت النية الجدية المخلصة لتحقيق الوحدة ، بقصد قطع الطريق على التيارات التى تحاول أن تأخذ من تلك العقبات حجة لابقاء التجزئة ، بقصد ذلك كله نفهم أن يتحدث حزب عن العقبات الكبيرة التى تقف فى طريق الوحدة ، ولكن حين يأتى الحزب الشيوعى لا ليقف موقف المتفرج من تلك العقبات فقط ، بل ليكرس بقاءها ويقبل بها أمرا واقعا ويتخذ منها مبررا لعدم طرح موضوع الوحدة والاتحاد ، فذلك ما لا نفهمه ، ولا يفهمه كل انسان ، الا حسب منطقه الواضح : تآمر رخيص على الوحدة العربية •

وبعد •• فلماذا نذهب بعيدا ؟ فما يسميه الحزب الشيوعى فى هذه الفترة «عقبات» (اختلاف الانظمة ، مدى التطور ، المشاكل المعلقة الخ ••) لم يكن عقبات قبل مدة وجيزة ، بل كان تعبيرا عن حقيقه طبيعية فى رأيه ، « حقيقة » التطور القومى الخاص والخصائص القومية الخاصة لكل قطر !! فهل نتوقع من حزب يؤمن أن الاختلافات البسيطة الموجودة بين أجزاء الوطن انما تعبر عن الواقع الاجتماعى « لشعوب البلاد العربية » ، وعن اتجاه التطور الطبيعى لهذا الواقع ، أن يؤمن أنها عقبات بسيطة أوجدها الاستعمار والتجزئة وستزول بسرعة اذا توفر العمل الجدى لازالتها ؟

لا نتوقع ولا يتوقع انسان ذلك بالطبع .

ثالثا : ما هو المقصود بالقول : « ان كل قطر عربى يرفض ان تعنى الوحدة سيطرة غيره عليه » ؟ هل يمكن ان يفهم من مثل هذا الكلام آنذاك الا انه توجيه متعمد يقصد به تشويه فكرة الوحدة العربية وكبح بل قطع انفاس المد الوحدوى بتصوير تلك الموجة الوحدوية التى دفعها الشعب آنذاك ، انها

---

(٢) مجلة « الطريق » — عدد اول ايار ، ١٩٤٣.

مجرد خطة لسيطرة بعض الاقطار على الاقطـــار الأخرى ؟ وهل يمكن ان يكون مثل هذا التوجيـــه السياسى الذى يقوم به حزب منظم الا خطة منظمة لتشكيك الشعب بالوحدة ودفعه للانفضاض عنها !!

رابعا : والمسالة فى راى الشيوعيـــين « ليست جغرافية حدودية الخ ... »

وهكذا يدفـع الشيوعيون اخيـرا بزبدة اتجاههم هذا .

فالوحدة العربية ليست الا « مسالة جغرافيـة حدودية » !! ليست الوحدة تجسيدا لحقيقة الامة الواحدة ، ليست الطريق الوحيد للنهوض السياسى ليست الطريق الوحيد لتجميع الثورات المبعثرة والنهوض الاقتصادى ، ليست تعبيرا عن اعمـــق انقلاب يقوم به العرب على واقعهم المستعمر المجزأ الفقير الضعيف ، ليست تمثيلا لمشـــاعر الشعب الواحد وارادة الشعب الواحد فى ان يعيش حياة واحدة فى دولة واحدة .. ليست الوحدة أعمــــق ثورة سياسية تغير وجه تاريخ الحياة العربية .. ليست الوحدة العربية اى شىء من هذا ، بل هى مجرد «مسألة جغرافية حدودية» ثانوية لا تستحق اى اهتمام وأى تفكير !!

لم تبلغ الوقاحة حتى بأعدى اعداء العروبة ان يقولوا هذا القول .

كان اعداء العروبة يقولون أن الوحدة العربيـة لو تمت فذلك شىء عظيم ولكنها لا يمكن ان تتـــم لانها « دعوة خيالية » . حاربوها بوصفهــــــــا « بالخيالية » ولكنهم لم يحاربوهـــــا أبدا بطمس جوهرها ونتائجها على هذا الشكل المزرى الـــذى حاربها به الشيوعيون .

وقديما قال « مترنيخ » مثل هذا القول عن ايطاليا ابان حركة وحدتها القومية . قال ان ايطاليا هى مجرد « مصطلح جغرافى » فلا مجال للتحدث عن أمة ايطالية ودولة ايطالية واحدة . والشيوعيون يعرفون جيدا أن مترنيخ كان الدعامة الرئيسية للرجعية فى أوروبا فى النصف الاول من القرن التاسع عشر .

فبصوت من ، وبمنطق من يتكلم الشيوعيون : هل الا بصوت ومنطق الرجعيـــة الاستعمارية التى تتجاهل الامم والشعوب ولا تفهمها الا كمصطلحات «حدودية جغرافية» تمدها بالمواد الاولية وتستهلك منتجاتها وتؤمن مواقعها الاستراتيجية ؟

واخيرا .. فهذا الموقف الخائن المتآمر علـــى الوحدة هو (أبسط ما يمكن أن يقال فى الموضوع)

واذا كان هذا الموقف هوأبسط مايمكن أن يقال فكم كان بودنا ان يطلع الشعب العربى على (أعمق) ما يمكن أن يقال !

وهكذا استمر الحزب الشيوعى فى سوريا ولبنان فى هذا الموقف المعارض للوحدة العربية طوال هذه الفترة التى انتهت بقيام جامعة الدول العربية على الاسس المعروفة .

فبعد ستة أشهر من الموقف السابق ، عاد خالد بكداش فأكد من جديد على طمس فكرة الوحـــدة العربية والاتحاد العربى ، وحدد الهدف الرئيسى الذى يجب ان يسعى اليه الشعب ب « التضامن العربى » !

ففى كراس لخالد بكداش بعنوان « بعض مسائلنا الوطنية » صادر فى تشرين الاول ١٩٤٣ ، يقول فى فصل « مباحثات الوحدة العربية » معلقا علـــــى الاتصالات الجارية بشأن الوحدة وسفر الوفـــــد السورى الى مصر : « هذه هى الاهداف الرئيسية التى يجب أن يستهدفها كل سعى لتحقيق التعاون بين الشعوب العربية ، وكل تشاور أو تفاوض بين الحكومات العربية : التضامن لاجـــل الاستقرار والتحرر أولا ، والتساند فى حل المشاكل الكبرى التى يجابهها كل قطر ثانيا ، وتوطيد العلاقات الاقتصادية ثالثا ، والتعاون الثقافى رابعا » .

تضامن ، تساند ، توطيد ، تعاون !

هذه هى الاهداف التى يحددها زعيم الحـــزب الشيوعى فى سوريا ولبنان بلهجة صريحة قاطعة . هل نجد بينها أى نص على الوحدة العربية ؟ على الدولة العربية الواحدة ؟ وهل مثل هذه الخطوات هى كل اهداف الامة المجزأة بصدد قضية وحدتهـــا القومية ؟ واذا استبدلنا كلمة (الشعوب العربية) فى هذا النص بكلمة « شعوب العالم » فهل يضطرب شىء أو يتغير شىء ؟ أليست مثل هـــذه الخطوات علاقات يمكن ان تقوم بين أى شعب واخر وأية أمة وأخرى وأية دولة وأخرى من قوميـــات مختلفة ؟ اذن ، هل يمكن لاى حزب مؤمن بوحدة أمته فعلا أن يضع هذه الخطوات كأهداف نهائيـــة ، كشكل نهائى لحياة الامة ؟

لسنا نعتقد ذلك ، وليس هناك فرد عربى واحد يعتقد ذلك .

هذا المفهوم للوحدة العربية حدده الحــــــزب الشيوعى السورى اللبنانى بعد ذلك بشهر بشكل رسمى فى قرارات المؤتمر الوطنى للحـــــزب الذى انعقد فى بيروت عام ١٩٤٣ ، ١٩٤٤ . فقد جـــاء فى « الميثاق الوطنى للحزب الشيوعى السورى » :

« ١ ـ استقلال سورية وسيادتها التــــامة وتحررها الوطني الكامل .

« ٢ ـ نظام جمهوري ديمقراطي صحيح .

« ٣ ـ توثيق صلات التضـــامن الوطني بين الشعوب العربية لتحقيق تحررهـــا الوطني الكامل .

٤ ـ توطيد الروابط الاقتصادية والثقافيــة بين سوريا وجميع الاقطار العربية الشقيقة (١) .

وجاء في « الميثاق الوطني للحزب الشـــيوعي اللبناني » :

« ١ ـ استقلال لبنان وسيادته وتعزيز كيــانه وتحرره الوطني الكامل .

« ٢ ـ نظام جمهوري ديمقراطي صحيح .

« ٣ ـ توثيق صلات التضامن الاخوي بين سوريا ولبنان وسائر الاقطار العربية وتوطيـــد الروابط الاقتصادية والثقافية بينه وبينها » .

نلاحظ مرة أخرى ان هذا الميثاق الوطني لاينص أبدا على الوحدة العربية ولا على الدولة العربية .. فالقضية هنا أيضا لا تتجاوز بأي حال حدود توثيق صلات وتوطيد روابط اقتصادية وثقافية .

وطبعا ليست المسالة هنا مسالة كلمات مجردة ، فهذا « الميثاق الوطني » للحزب الشيوعي له أهميــة كبرى خاصة ، ذلك أن المؤتمر الوطني الذي انبثقت عنه هذه القرارات عام ١٩٤٣ ، ١٩٤٤ ، هو أول مؤتمر رسمي للحزب يعقد منذ عام ١٩٢٥ ، كما لم يعقد الحزب بعده أي مؤتمر رسمي آخر . وقد عاد الحزب الشيوعي عام ١٩٥١ وحدد موقفـــه من « القضايا العربية » ، مستندا الى نفس بنود هـــذا الميثاق ، كما سنرى ، أي أن ماورد في الميثاق الوطني للحزب الشيوعي في سوريا أو في لبنان هو فعلا أقصى ما يمكن أن يعتــرف به الشيــوعيون بصدد قضية الوحدة العربية .

ومرة أخرى يمسخ هدف الوحدة العربيـــة الى توثيق صلات ، وتمسخ فكرة الدولة العربية الواحدة الى توطيد روابط ! وليس لنا ان نقول ، الا ان جامعة الدول العربية التي قامت في ذلك الوقت بتكوينها المعروف ومواثيقها المعروفة كانت أكثر فعلا ممـــا طالب به الشيوعيون بصدد قضية الوحدة العربية . لقد كان الحكام العرب ـ وآنذاك ـ أكثر ثورية من الحزب الشيوعي ! فالحزب الشيوعي الســـوري اللبناني ، حزب « طليعة » الجماهير « الثوري » لم يكن بصدد قضية الوحدة الجوهـــرية متخلفا عن جماهير الشعب فحسب بمراحل ومراحل بل كان أيضا متخلفا عن الحكام العرب أنفسهم .

بئس الثورية !

وفي عام ١٩٤٦ انتصر الشعب العربي في سوريا ولبنان في معركة الحرية وجلا الاستعمار الفرنسي مرغما عن سوريا ولبنان . وقد لعب الحزب الشيوعي دورا مشينا في مهادنة الاستعمار الفرنسي وتبريــر الانتداب وسياسته وأعماله ، بل وفي معركة الجلاء نفسها (١) . وفي العام التالي ١٩٤٧ جرت أول انتخابات « العهــــد الوطني » وخاض الحـــزب الشيوعي هذه الانتخابات متبجحا بالدور الـــكبير الذي لعبه الحزب في طرد الاستعمار الفرنسي !

ولاشك ان هذه الانتخابات كانت تؤذن بـــبدء مرحلة جديدة في نضال الشعب العربي في سوريا ولبنان . وأي حزب عقائدي يجد أمامه في مثل تلك المرحلة جملة من المهمات القومية الجديدة التي يجب ان يتوجه فيها نضال الشعب العربي . وأي حزب عقائدي عربي سيجد في هذه المرحلة ، وبعد جلاء الاستعمار ان النضال من اجل تحقيق الوحدة العربية هو مهمة رئيسية من جملة تلك المهمات القومية ، وان تثبيت هذا الهدف كمهمة تطرحها المرحلة الجديدة اصبح مهمة قومية ملحة انفسح مجال واسع أمامهـا بجلاء الاستعمار ، فضلا عن كونها الاطار الســليم لضمانة المكاسب التحررية التي حققها الشـــعب والاساس الراسخ لصيانة الاستقلال الحديث .

وخاض الحزب الشيوعي الانتخـــابات تحت شعارات : « الاستقلال ، والنظام الجمهوري ، ورد مشروع سوريا الكبرى » (٢) . أي أن شعارات الحزب الانتخابية كانت خالية من أية اشارة للوحدة العربية وهذا الموقف له بالطبع أهمية واضحة . فهـــذه

(١ـ٢) البتق الميثاقان الوطنيان للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان من المؤتمر الوطني الذي عقده الحزب في مدينة بيروت بتاريخ ٣١ كانون الاول ١٩٤٣ ، و ٢ و ١٢ كانون ثاني ١٩٤٤ . وقد نشر كل من هذين الميثاقين في كراس صغير الحجم ، ووزع ، وفي هـــذا المؤتمر اقر تكوين حزبين مستقلين ـ رسميا ـ سوري ولبناني .

(١) سنتكلم بالتفصيل عن مواقف الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان من الاستعمار الفرنسي في هذه الفترة الحاسمة .

(٢) « صفحات مجهولة من تاريخ الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان » ، ص ١٣٥ ـ محمد علي الزرقا والياس مرقص .

الشعارات كانت تحدد الشعارات التي طرحها الحزب على أنها أهداف المرحلة الجديدة ، مرحلة استراتيجية كاملة ، أصبح فيها الشعب العربي أقدر وأكثر امكانية على العمل لأهدافه بوضوح وحزم . فحين تأتي الشعارات التي سيناضل من أجلها هذا الحزب خالية من أية اشارة للوحدة العربية ، فمعنى ذلك بوضوح وبساطة : ان هذا الحزب لايعتبر الوحدة هدفا مطروحا يجب أن يناضل من أجله .

ولم يكن هذا التجاهل للوحدة « نسوة » . بل لقد عمل الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان فعلا ضمن خطوط تلك الشعارات طوال هذه المرحلة متجاهلا هدف الوحدة تجاهلا تاما .

وعاد الحزب الشيوعي فخاض انتخابات عام ١٩٤٩ ، ومرة أخرى جاءت شعاراته الانتخابية خالية تماما من تحديد أي موقف ، بل من مجرد الاشارة الى قضية الوحدة العربية .

والواقع أننا لانجد في تاريخ أي حزب له مجرد صلة بالعروبة ، مثل هذا الاصرار الغريب على التنكر لهذه القضية الجوهرية ، كما نجد في تاريخ الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان .

ففي عام ١٩٥١ عقدت اللجنتان المركزيتان للحزبين الشيوعيين السوري واللبناني اجتماعا يعد من أخطر الاجتماعات التي عقدها الحزب في تاريخ عمله السياسي ، وانبثقت عن ذلك الاجتماع مقررات في غاية الاهمية تناولت : اعادة تثبيت « أهداف الحزب الكبرى » طوال مرحلة التحرر الوطني ثم التحرر الديمقراطي اللتين تسبقان المرحلة الاشتراكية ، وموقف الحزب من القضايا العربية ومن قضية فلسطين (حيث أكد ان اليهود أمة لها حق الحياة في فلسطين ، وأيد التقسيم ودعا لتحقيق الصلح) ، ومن الحياد الايجابي (حيث هاجم فكرة وسياسة الحياد الايجابي واصفا اياها بالسياسة الاستعمارية) ، ومن الاحزاب والتيارات الموجودة في سوريا ولبنان (حيث حمل بشدة على الاتجاه القومي الاشتراكي) ، وعددا من الموضوعات التنظيمية الاخرى الهامة . وقد كان التقرير الرئيسي في هذا الاجتماع هو الذي ألقاه خالد بكداش سكرتير عام الحزب تحت عنوان : « لأجل النضال بنجاح في سبيل السلم والاستقلال الوطني والديمقراطية يجب الاتجاه بحزم نحو العمال والفلاحين » ، وقد أعيد طبع هذا التقرير عام ١٩٥٥ بعد ان حذفت منه فقرات وافكار هامة (لتتكيف مع متطلبات التقرب من الحركة القومية والشعارات والاهداف القومية !) تحت عنوان جديد هو : « حزب العمال والفلاحين » (١)

وقد لخصت أعمال ومقررات هذا الاجتماع في رسالة مطولة تقع في ٢٢ صفحة فولسكاب وجهتها القيادة المركزية للحزب (المكتب السياسي) الى : « أعضاء اللجان المركزية في اللجان المنطقية » .وقد عرفت الرسالة الموجهة من القيادة المركزية هذا الاجتماع مؤكدة على أهميته بقولها :

« أيها الرفاق ..

(ان الاجتماع المشترك الذي عقدته مؤخرا اللجنتان المركزيتان للحزبين الشيوعيين السوري واللبناني كان من أهم الاجتماعات التي عقدتها قيادة حزبنا فهو اجتماع سيكون له أثر عميق في تطورات حزبنا ، في تطور نضاله في جميع الميادين وفي تقوية تنظيمه وتوطيد وحدته السياسية والفكرية

« والغاية من هذه الرسالة ، هي تلخيص أعمال الاجتماع ومساعدة أعضاء اللجنة المركزية واعضاء اللجان المنطقية على القيام بهذا الواجب الكبير .

« لقد انعقد الاجتماع لبحث المقررات التي وضعها ممثلو اللجنتين المركزيتين ، بعد التداول مع بقية أعضاء اللجنتين ومع اللجان المنطقية وعن مهمات الحزبين والنقائص في عملهما على ضوء قرار مكتب الانباء عن الحالة في الحزب الشيوعي .. »

وتنتهي الرسالة باعادة تأكيد أهمية المقررات : « أيها الرفاق — تلك هي أهم القضايا التي عالجتها اللجنة المركزية .. وترون من درس هذه القضايا ، أنها على جانب كبير من الاهمية ، **وينبغي ان نهتدي بها جميعا في عملنا ، وأن تكون دستورا لنا .** » كما تؤكد الرسالة في نهايتها على « الانتباه الشديد الى عدم ضياع أي نسخة من هذه الرسالة وعدم تعريضها للوقوع في أيدي الاعداء أو جواسيس الامن العام والشرطة . »

وسنتطرق في الفصول القادمة الى موقف الحزب من كل قضية من القضايا السابقة في حينها ، ولكن يهمنا الآن في صدد بحثنا هذا أن نتوقف عند ناحيتين رئيسيتين :

اولا : « شعارات الحزب الاستراتيجية » التي تحدد الاهداف التي سيناضل في سبيلها الحزب طوال مرحلة استراتيجية كاملة .

---

(١) « صفحات مجهولة ... » محمد علي الزرقا والياس مرقص ص ٥٤ .

وثانيا : موقف الحزب من « القضايا العربية » كما تحددها هذه الرسالة :

تحدد المقررات « شعارات الحزب الاستراتيجية الرئيسية » بأنها : « القضاء على كل سيطرة وكل نفوذ للاستعمار في بلادنا وتحقيق الاستقلال الصحيح ، ومصادرة الرأسمال الاجنبي وجعله ملكا للأمة ، وتوزيع اراضي الاقطاعيين وكبار المالكين على الفلاحين وتحقيق نظام ديمقراطي شعبي ... »

وهذه هي : « الشعارات الرئيسية للانقلاب الوطني الديمقراطي الذي تجابهه بلادنا في تطورها الحالي ... »

فهذه الشعارات كما هو واضح خالية تماما من قضية الوحدة العربية ! ومعنى ذلك أن الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان ، لا يعتبر ابدا ان النضال لتحقيق الوحدة او الاتحاد ، هو قضية مطروحة في هذه المرحلة التي تجابهها البلاد في تطورها الحالي ! ومعنى ذلك أن الحزب لن يجعل هذه القضية مطروحة امامه طوال هذه المرحلة لا في دعايته ولا في نشراته ولا في عمله في صفوف الشعب ولا في اتصالاته الخ ...

هذه هي شعارات الحزب الرئيسية . ولكن الحزب الشيوعي في هذه المقررات الشهيرة (يتكرم) ويعالج بعض الامور (الثانوية) في رأيه الى جانب الشعارات الرئيسية ، وهكذا تتطرق الرسالة في قسم منها الى موقف الحزب من « القضايا العربية » فتقول :

« تبين للجنة المركزية انه لم يقع ما يدعو الى تغيير في شعاراتنا الرئيسية في القضايا العربية وهي : الجلاء من كل الاقطار العربية ، والغاء المعاهدات الاستعمارية ، والتضامن مع جميع الشعوب العربية في النضال لاجل الاستقلال والديمقراطية والسلم وضد المشاريع والتكتلات الاستعمارية الحربية . »

بهذه السطور القلائل تلخص مقررات هذا الاجتماع الشهير — التي تصفها القيادة المركزية بانها « دستور للحزب الشيوعي » — كل موقف الشيوعيين من القضايا العربية ! وهو حقا تلخيص موفق .. وفق جدا في ابراز مدى اهتمام الشيوعيين بالقضايا العربية .

ونحن لا نجد في هذه السطور ، اية اشارة الى قضية الوحدة العربية ، بل مرة اخرى تلخص الوحدة الى « تضامن » .. ولنلاحظ ايضا أن تعبير التضامن هنا قد استعمل فقط بمعنى التضامن في الكفاح ضد الاستعمار والتكتلات الحربية . فهل اصبح مفهوم الوحدة يعني التضامن في الكفاح ؟!

فاللجنة المركزية ، او القيادة المركزية ، للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان ، لا تجد إنه قد حدث ما يؤدي الى اي تغيير في موقفها من القضايا العربية منذ ميثاق عام ١٩٤٤ حتى عام ١٩٥١ .. ونسيت القيادة المركزية ، الثورية جداً ، أنه خلال هذه الاعوام الثمانية نجد حدثين لهما اهمية قصوى في دلالتهما بصدد قضية الوحدة العربية والقضية العربية عامة :

الحدث الاول ، هو فشل جامعة الدول العربية ، كما كان متوقعا من تكوينها في أن تكون خطوة جدية ثورية في طريق القضاء على واقع الكيانات والسير في طريق الوحدة . وهذا الحدث ان دل على شيء ، فقد أوضح ان هدف الوحدة العربية او الاتحاد العربي لا يمكن ابدا أن يتحقق الا نتيجة عمل فكري مركز ونضال عملي ضخم شاق وطويل . وان مثل هذا العمل هو واجب قومي اول ملقى على عاتق الحركات الشعبية المخلصة .

ورغم ذلك ، فلم يكن لهذا الدرس اية دلالة بِرأي الشيوعيين !

والحدث الثاني ، هو نكبة فلسطين التي لم يختلف ولا يختلف اثنان ان وراء هذه النكبة مأساة اكبر هي مأساة الواقع العربي المجزأ الضعيف ، فضلا عن الاسباب الاخرى الجذرية « الاستعمار ، الحكام المنحرفين الخ ... » ومن الغريب فعلا أن تحل بالعرب هذه النكبة ولا يدعو ذلك الشيوعيين الى اجراء اي تعديل في موقفهم من الوحدة العربية والقضايا العربية !

فالنكبة ، بمآسيها الفادحة ، لم تهز ذرة شعور في قلوب اعضاء القيادة المركزية للحزب الشيوعي السوري اللبناني ، ولم تدفعهم حتى الى مجرد التفكير باعادة دراسة شعارات الحزب واهدافه . وهذه الظاهرة ان دلت على شيء ، فعلى مدى انعزال هذا الحزب من حركة التطور القومي للعرب ، ومدى (غرابته) عن فهم ظروف واقعهم القومي ، ومدى بعده عن التجاوب مع اهدافهم وأمانيهم .

ولعل ابرز ما يوضح هذه الظاهرة مرة اخرى هو نمط الثقافة الحزبية التي كان يثقف بها الحزب اعضاءه . فالحزب الشيوعي السوري اللبناني الذي اغفل من شعاراته قضية الامة العربية الواحدة ، وقضية الوحدة العربية ، واسقطها من

حملة ظيلة هذه السنوات ؟ قد أسقط هاتين القضيتين كذلك من ثقافته الحزبية ومن تثقيفه الشعبي .

لقد حددت مقررات هذا الاجتماع الخطير – التي هي بمثابة « دستور للحزب » – موقف الحزب من الثقافة الحزبية والموضوعات التي يجب أن تتناولها بالامور التالية :

« اولا – درس تاريخ الحزب البلشفي في كل الحزب ونشره خارج الحزب بين جماهير الشعب ايضا . ومن واجب القيادة المركزية واللجان المنطقية أن تساعد الكادر وكل الاعضاء على درس الفصول المترجمة الموجودة بين ايدي المنظمات ، مع العمل الجدي لوضع بقية الفصول بين ايديهم بدون تأخير .

« ثانيا – تأليف لجنة ثقافية في كل منطقة مهمتها المساعدة في تدريس تاريخ الحزب وكل العمل الثقافي .

« ثالثا – فتح باب ثقافي في جريدة الحزب « نضال الشعب » ومساهمة جميع المنظمات فيها .

« رابعا – معالجة القضايا التي تضعها المقررات على أساس نظري مع الاستشهاد بكتابات لماركس وانجلز ولينين وستالين .

« خامسا – شرح تعاليم لينين وستالين عن الستراتيجي والتاكتيك . . »

لتقرأ ايها القارئ معنا هذه البنود الخمسة كلمة كلمة ، هل نجد فيها كلمة واحدة عن اية قضية عربية أو عن أي مفهوم فكري يتعلق بهذا الشأن ؟ اننا نفهم بالطبع ، أن الثقافة الشيوعية هي البند الرئيسي في أي حزب شيوعي ، ولكن هذا الحزب الشيوعي يعمل في الوطن العربي ، فعندما يأتي برنامجه الثقافي بكافة بنوده خاليا من أي « لون عربي » ، فهل يمكن أن يكون لهذا الحزب أي جوهر عربي ؟ وحين يكون هذا البرنامج قائما على تلك الخطوط ، فهل نتوقع أن يكون مثل هذا الحزب أداة في تثقيف اعضائه وتعبئته الشعب ضمن خطوط لها أي صلة ، مجرد صلة ، بقضايا الامة العربية ؟

القيادة المركزية التي تدرك واجبها جيدا في تدريس تاريخ الحزب الشيوعي البلشفي في الاتحاد السوفييتي ، هل ادركت ، ولو للحظة ، أن قضايا الامة العربية ومشاكلها السياسية والاقتصادية والاجتماعية الكثيرة المعقدة ، جديرة ببند واحد على الاقل من هذه البنود ؟ أم أن القيادة المركزية لا تهتم اصلا بهذه القضايا ، ولا تعمل في الوطن العربي الا اسما فقط ؟

ولنمش مع الزمن . بعد هذا التاريخ ببضعة سنوات عاد الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان فحدد مرة اخرى عام ١٩٥٥ « أهدافه الثابتة في هذه المرحلة » في كتاب « حزب العمال والفلاحين » لخالد بكداش ، وفي النظام الداخلي للحزب . ومرة أخرى تجاهلت الشعارات والاهداف الشيوعية قضية الامة العربية الواحدة وقضية الوحدة العربية وأهملتها اهمالا تاما . فحتى هذا التاريخ ايضا ، ١٩٥٥ ، لم يكن قد طرأ شيء برأى الحزب الشيوعي يدعو الى اجراء اي تعديل في موقفه المتنكر المتآمر !

يقول خالد بكداش : « ان للحزب الشيوعي دائما اهدافا ثابتة لا تتغير طول مرحلة استراتيجية معينة . وهذه المرحلة الآن ، بالنسبة لبلادنا ، بالنسبة لحزبنا ، هي مرحلة التحرر الوطني الديمقراطي ، مرحلة الثورة الوطنية الديمقراطية . واهدافنا خلال هذه المرحلة تتلخص في القضاء على سيطرة الاستعمار وعملائه وتصفية بقايا الاقطاعية في بلادنا ، اي تحقيق التحرر الوطني الديمقراطي ، تحرير شعبنا من نير الاستعمار الاجنبي السياسي والاقتصادي ونير عملائه ، ومن بقايا القرون الوسطى ، واقامة حكم ديمقراطي شعبي . وعند ذلك تبدأ مرحلة جديدة ، هي مرحلة توطيد الحكم الديمقراطي الشعبي وتوفير الشروط اللازمة لتحقيق الاشتراكية في بلادنا ..» (١)

«وهكذا تكون الشعارات الرئيسية التي يناضل حزبنا في سبيل انتصارها خلال مرحلة التحرر الوطني الديمقراطي هي : السلم والاستقلال الوطني والديمقراطية .» (٢)

وهي شعارات هامة وواردة ، ولكن هل حقا انها هي كل الشعارات التي تعبر عن متطلبات المرحلة التي يمر بها العرب في واقعهم الراهن ؟ أين هو هدف الوحدة العربية ؟ أين واجب تعبئة الشعب للنضال من اجل الدولة الواحدة المتحررة ؟ وهل مثل هذا الهدف مطلب ثانوي يمكن ان يضيع ببساطة بين الكلمات الطنانة لبرنامج أي حزب ؟ اننا نفهم أن تكون الشعارات المطروحة آنفا جزءا من « اهداف ثابتة » اشمل ، ولكن ان تكون هي كل الاهداف

(١) ، (٢) خالد بكداش – « حزب العمال والفلاحين » ص ٧ دار الفكر الجديد ١٩٥٥.

في هذه المرحلة ، فهذا تقليص مصطنع متعمد للاهداف العربية لا يمكن ان يؤدي الا الى طمس هذه الاهداف وقطع انفاسها .

وهكذا جاء « النظام الداخلي للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان » يسير ايضا في نفس هذا الخط التآمري ، ويهمل اهمالا تاما وجود الامة العربية الواحدة على الصعيد الفكري ، وقضية الوحدة العربية على الصعيد العملي .

فكل ما جاء في مقدمة هذا النظام الداخلي عن الامة العربية الواحدة هو الكلمات المائعة التالية : « ان الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان ، باهدافه القريبة والبعيدة ، يعمل على احياء تقاليد شعبنا العربي الوطنية والثورية وتطويرها ، وعلى بعث الافكار التقدمية التي يزخر بها تاريخه المجيد . » (ص ٥)

وهذه هي المرة الاولى التي يستعمل فيها الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان تعبير « شعبنا العربي » . (١) ولكنه هنا ايضا ، يخشى ان « يساء فهمه » فيسارع الى توضيح المقصود « بعروبته » هذه ، فاذا كل القضية ، وفي اقصى حدودها ، هي احياء التقاليد الوطنية ! ! وهذه هي ليست الاهداف القريبة للحزب فحسب ، بل هي كذلك اهدافه البعيدة في هذا الشأن !

وانها لاهداف بعيدة جدا حقا .. بعيدة عن فهم اهداف الشعب القومية ، وبعيدة عن التجاوب مع حركة التطور القومي للعرب كأمة واحدة .

كذلك يعود النظام الداخلي ليحدد اهداف الحزب الشيوعي ، وايضا ، وللمرة المائة ، تأتي اهدافا اقليمية محلية لا تضفي اي « لون عربي » على مظهر الحزب ، عدا عن جوهره : (ويهدف الحزب الشيوعي في نضاله الى تحقيق التحرر الوطني الكامل من سيطرة الاستعمار ونفوذه ، والى اقامة حكم وطني ديمقراطي يعمل على توطيد الاستقلال وممارسة السيادة الوطنية ويحقق المطالب الرئيسية لجماهير الشعب ويساهم في النضال العالمي من اجل سلم وطيد طويل الامد .) (ص ٥)

* * *

وفي نفس هذا العام ١٩٥٥ ، القى خالد بكداش خطابا في المجلس النيابي السوري ناقش فيه البيان الوزاري لوزارة سعيد الغزي محددا موقف الحزب الشيوعي السوري من بيان الثقة ، واصدر الحزب هذا الخطاب فيما بعد في كراس سماه : (دور سوريا التاريخي في العالم العربي) .

وكنا نتوقع — حسب ما يوحي هذا العنوان الكبير — ان يكون في الكراس معالجة جدية ، ولو لاول مرة ، للقضايا العربية ، ولكن هذا الكراس الذي يقع في ثلاثين صفحة :

١ — جاء خاليا تماما من الاشارة الى قضية الوحدة العربية او الاتحاد العربي ! بل ان البيان الوزاري ، كان من هذه الزاوية ، اكثر تقدما من تفكير الشيوعيين اذ اشار : « ان سوريا ستساهم في العمل على تحرير جميع الاقطار العربية التي لم تستكمل سيادتها حتى يجتمع شمل هذه الاجزاء المتحررة في دولة عربية واحدة . » ولكن الخطاب الذي ناقش بتفصيل بعض القضايا الداخلية وذكر بالتفصيل النقاط التي يؤيد فيها الشيوعيون البيان الوزاري والنقاط التي يعارضونه فيها ، اغفل هذه النقطة من البيان اغفالا تاما ، ولم يحدد اي موقف منها لا سلبا ولا ايجابا ! فهل كان هذا الموقف متجاهلا لهذه القضية بالصدفة ؟ اما كان المفروض ان يطلب اي حزب توضيحات وتأكيدات جدية حول هذا البند الهام ؟

٢ — كان الميثاق الثلاثي هو المشروع المطروح آنذاك . وقد اكد بيان الوزارة على هذا الموضوع ، بينما جاء خطاب خالد بكداش خاليا تماما من تحديد اي موقف بشأنه . والنقطة الوحيدة التي توقف عندها الخطاب هي التحذير من المؤامرات الاستعمارية التي يمكن أن تنفذ من مشروع « الميثاق العربي الشامل » الذي نص البيان الوزاري أنه سيعمل على اقامته عن طريق توسيع الميثاق الثلاثي . أما كان المفروض أن يكون أمر تقوية الميثاق الثلاثي وتنميته وتطويره ، وكل ما يتعلق بالميثاق الثلاثي ، هو مركز الثقل في اية مناقشة يقوم بها حزب عربي مخلص لذلك البيان الوزاري ؟

اما « دور سوريا في العالم العربي » ، فقد قلصه ذلك الخطاب الطويل الى مقاومة الاحلاف فقط ،

(١) لنلاحظ ان هذا التعبير يستعمل لاول مرة عام ١٩٥٥ ، ولكنه مع ذلك ليس له اية دلالة فكرية على انه يستعمل بمعنى الاعتراف ضمنا بالشعب العربي الواحد ، وكل ما في الامر انه يستعمل كما استعمل تعبير « سوريا العربية » في الوقت الذي كان يقول فيه الشيوعيون بالامة وينفون وجود امة عربية واحدة .

« ولكن هناك سياستان وسميتان في العالم العربي » أي سياستان للحكومات العربية : سياسة الدخول في الاحلاف الاستعمارية الحربية .. وسياسة أخرى قوامها رفض الأحلاف العسكرية الحربية الاستعمارية بوجه عام ، وهي سياسة تتزعمها سوريا أو تسير في طليعتها ، وتنشدها جميع الشعوب العربية ..

« وهذا هو دور سوريا التاريخي في العالم العربي » . (١)

ولا شك أن ذلك هو دور هام يجب ان تلعبه سوريا في الوطن العربي . ولكن الحزب الشيوعي الذي أغفل - عن عمد - الدور الذي كانت تلعبه مصر في معركة الأحلاف ، اغفل - عن عمد أيضا - أن لسوريا ومصر مهمة أخرى في الوطن بوصفهما نقطتي ارتكاز الخط القومي التحرري وهي : العمل على تحقيق الوحدة العربية .

ولم يكن من قبيل الصدفة أن يتجاهل خالد بكداش هذا الدور الرئيسي التاريخي .. أبدا .

* * *

هذا هو بوضوح وايجاز الموقف الحقيقي للحركة الشيوعية بمختلف أحزابها في الوطن ، من قضية الامة العربية الواحدة والوحدة العربية طيلة هذه الفترة الممتدة بين ١٩٢٠ و ١٩٥٥ ، أي طيلة خمسة وثلاثين عاما كاملة من الزمن .

لم تعترف خلالها الحركة الشيوعية بوجود أمة عربية واحدة ، بل حاربت هذه الفكرة وعملت على تمزيق وحدة الامة العربية : بنظرية التطور القومي الاقليمي والخصائص القومية الاقليمية ، ونفي مقومات الامة الواحدة في العرب . فهل كانت الحركة الشيوعية تجهل أنها بهذا الموقف المتآمر قد جعلت من نفسها قوة رجعية معرقلة لتطور العرب القومي التاريخي ، وأنها وقفت على طول الخط مع الاستعمار الذي عمل باستمرار لتثبيت هذه المؤامرة ومع القوميين السوريين الذين قالوا بنظرية مماثلة ، ومع كافة البيانات الاقليمية المعادية للعروبة ؟

ولم تؤيد خلالها دعوة الوحدة العربية لا نظريا ولا عمليا ، بل حاربتها وعملت على ابقاء التجزئة البغيضة : بتشويه معنى الوحدة العربية الى مسألة حدودية جغرافية أحيانا ، وبمسخ فكرة الوحدة الى مجرد تعاون أحيانا أخرى . فهل كانت الحركة الشيوعية بهذا الموقف المتآمر تجهل أنها تحولت الى قوة تقف بجانب الاستعمار الذي استمات لابقاء واقع التجزئة ، والى قوة تقف في وجه نهوض العرب السياسي والاقتصادي والاجتماعي ؟

وهل كانت الحركة الشيوعيه تجهل انها بتزوير « شعارات المرحلة » ، « والاهداف الثابتة طوال مرحلة استراتيجية » ، واسقاطها قضية وحدة الامة العربية في تثقيفها الحزبي والشعبي ، وقضية الوحدة العربية فيمخططاتها وشعاراتها وبرامجها ، هل كانت تجهل أنها تتآمر على مصير العرب ومستقبلهم وتعمل لطمس واقعهم وعرقلة تطورهم التاريخي ؟

أم لعل الحركة الشيوعيةاستنادا الى « الاشتراكية العلمية » ، أداة التنبؤ بالمستقبل ، كانت تترك القيام بهذا العمل للرأسمالية العربية التي لا بد ستقوم به لاقامة سوق اقتصادية واحدة ؟!

والام كان يمكن أن تنتهي الامة العربية لو أن الحركة الشيوعية نجحت فعلا في دفع النضال العربي في هذا الخط المنحرف ؟

ولكن الشعب العربي كان بهذا الصدد أكثر وعيا بكثير من الحركة الشيوعية المسلحة « بالاشتراكية العلمية » ، وأكثر ثورية بكثير من « حزب الطليعة » ! وهكذا رفض هذا التحليل الخاطيء لحركة تطوره التاريخي ، وذلك التقدير اللا علمي بل المتآمر لطبيعة معركته القومية وشعاراتها وأهدافها ، وسار في طريقه التاريخي مخلفا « الطليعة الواعية » وراءه بمراحل ومراحل .

وكان على الحركة الشيوعية أن تركض لاهثة خلفه لعلها تلحق بأذياله .

---

(١) دور سوريا التاريخي في العالم العربي ، ٢٤ ايلول ١٩٥٥ ص ٢٢ - مطبعة دار الوفاء بدمشق

الفصل الثانى

موقف الشيوعية المحلية من القومية العربية والوحدة العربية

١٩٥٦ — ١٩٥٨

ادركت الحركة الشيوعية فى الوطن (ماعدا الحزب الشيوعى فى الجزائر) ، أن اللحاق بقافلة التطور العربى الشعبى يقتضى أن تجرى انقلابا جذريا فى موقفها النظرى من القومية العربية ومن قضية الوحدة العربية .

وهكذا شهد الوطن العربى فى هذه المرحلة انقلابا جذريا مفاجئا فى موقف الحركة الشيوعية من هذه القضية . وبهذا الانقلاب المسرحي مهدت الحركة الشيوعية للتقرب من الحركة القومية العربية .

ذلك أن التطورات القوميةالسياسية التى شهدها الوطن العربى فى هذه الفترة كانت تطورات حاسمة . فقد شهدت هذه الفترة التاريخية ، منذ نكبة فلسطين ، تزايدا مطردا عظيما فى نمو الوعى القومى العربى ، وفى تفتح الشعب العربى على حقيقته القومية الواحدة ، وكان هذا الوعى القومى النامى يتجسد فى حركة شاملة أخذت تنفذ الى أعماق مشاعر الشعب العربى وتثيرها على واقع التجزئة الشاذ الذى تعيش فيه . وشهدت هذه الفترة ، ومنذ النكبة عبر معركة الاحلاف ، اشتداد حركة النضال العربى التحررى ضد الاستعمار والاغتصاب اليهودى ، واخذت الحركة القوميةالعربية تلعب دورا هاما فى زعزعة قواعد الغرب وتصفية الاستعمار فى هذه المنطقة من العالم . وخلال هذه السنوات من الكفاح ازداد ايمان الشعب العربى بأن التحرر والوحدة هما وجهان متلازمان لمعركة الامة الواحدة ، وهكذا بازدياد وعى الشعب العربى لمخططات الاستعمار ومؤامراته كان يزداد وثوقا أن الوحدة العربية ضرورة نضالية لحماية مكاسبه التحررية ونقطة انطلاق للنهوضه الشامل ، فضلا عن كونها تجسيدا لحقيقته القومية الواحدة . وكان لثورة مصر عام ١٩٥٢، وتعمق التيار التحررى الوحدوى فى سوريا ، ثم لثورة الجزائر البطولية ، دور رئيسى اساسى فى دفع حركة النضال القومى العربى وتحقيق قفزات هامة فى المعركة العربية .

وبدأت هذه التطورات القومية الهامة تضيق الخناق على التيارات والحركات الاقليمية والانفصالية والمتنكرة للعروبة ، واستلمت حركة القومية العربية زمام المبادهة لتكنس أمامها بسرعة هذه التيارات ، كما بدأت تبرز بوضوح جوهرها التقدمى وتربط معركة العرب السياسية بمعركة النهوض العربى الشامل .

وكان على الحركة الشيوعية أن تجد مخرجا من المأزق الذى يضعها فيه موقفها المتنكر من قضية الأمة العربية والوحدة العربية فى مثل هذه الظروف .

ولكن هذه التطورات القومية السياسية فى الوطن العربى ، على أهميتها ، لم تكن هى الباعث الرئيسى فى تحول موقف الحركة الشيوعية . لقد كان الباعث الاهم والحاسم هو التبدل الهام الذى جرى فى السياسة السوفيتية فى تلك الفترة . فالشيوعية الدولية التى كانت تنظر الى حركات التحرر الوطنى فى آسيا وافريقيا على أنها بغالبيتها حركات قومية بورجوازية رجعية فى جوهرها الحقيقى ، قابلة

كأساس فكري – لتحول السياسة السوفيتية الى موقف التأييد والدعم من الحركات الوطنية في آسيا وافريقيا ، انها في المرحلة الحالية حركات تقدمية لأنها تلعب الدور الأول في تصفية نظام الاستعمار العالمي ، وانها تحمل تيارات فيها « صبغة تقدمية » ! حتى بالنسبة لما بعد مرحلة التحرر الوطني .

وكان ذلك التحول في السياسة السوفيتية فاتحة عهد جديد في علاقات السوفييت بالشعوب الآسيوية ، الافريقية ، فترك السوفييت موقفهم القديم المعارض من ثورة مصر (١٩٥٣ و ١٩٥٤ بشكل خاص) ، بعد أن وجد الاتحاد السوفيتي أن الحركة القومية العربية التحررية هي القوة الرئيسية التي يمكن ان تلعب دورا رئيسيا في تقويض نفوذ الغرب في هذه المنطقة من العالم . وفي هذه الفترة عقدت صفقة الاسلحة وعقد مؤتمر باندونغ وبدأ عهد من التعاون غير المشروط بين العرب والسوفييت تمثل في موقفه من أزمة قناة السويس والعدوان الثلاثي والتعاون الاقتصادي والدعم السياسي ضد مؤامرات الاستعمار .

فعلى الصعيد الخارجي ، كان لابد للحركة الشيوعية ، كالعادة دوما ان تتبع خطى الاتحاد السوفييتي في اتجاهات سياسته الخارجية .

وعلى الصعيد الداخلي ، كان لابد لها أن تختار بين مصير حركة القوميين السوريين فيعزلها الشعب العربي عن نفسه نهائيا والى غير رجعة ، وبين ان تجري انقلابا جذريا في موقفها النظري والدعاوي من وحدة الامة العربية .

واختارت الحركة الشيوعية الموقف الثاني .

وهكذا ، وبصور مسرحية ، حدث ذلك الانقلاب الفجائي في الموقف الفكري والسياسي للحركة . وما كان اسهل عليها ، ان تمسح بكل بساطة مواقفها السابقة ، وتنقلب بين ليلة واخرى الى حركة تؤمن بالامة العربية الواحدة منذ القديم ! وتعمل للوحدة العربية منذ القديم . بل وتذهب بها الوقاحة في استغباء الشعب العربي الى حد الادعاء (كما سنرى) أنها الحركة الوحيدة التي تعمل للوحدة العربية على أساس « علمي » !

* * *

أكان الحزب الشيوعي في سوريا هو الذي ابتدأ مرحلة التلاؤم التكتيكي الفكري والسياسي الجديد . ففي ٦ تشرين الاول ١٩٥٥ أي في نفس العام الذي صدر فيه كتاب « حزب العمال والفلاحين » متجاهلا القومية العربية والوحدة العربية ، وبعد خمسة عشر يوما فقط من خطاب خالد بكداش في مناقشة بيان وزارة سعيد الغزي والذي تجاهل أيضا هاتين القضيتين الجوهريتين ، القى خالد بكداش خطابا في المجلس النيابي السوري في الجلسة المنعقدة لبحث صفقة الاسلحة التي عقدتها مصر ، قال في احدى فقراته :

« .. ولا بأس من القول بهذه المناسبة ان الوقاحة بلغت بالصهيونيين اليوم درجة أنهم بينما يدعون ان اليهود يؤلفون قومية ، ينكرون ذلك على العرب ، بينما أن جميع مقومات الامة الآنفه التي تعتبرها الاشتراكية العلمية ، متوفرة في العرب ، كما هو واضح وساطع كالشمس في رائعة النهار ، ولنقل ان هذا الاتجاه الصهيوني لنفي القومية العربية ، يتفق تماما مع موقف عصابة القوميين السوريين بانكار القومية العربية أيضا انكارا تاما . » (١)

وهكذا ، ولأول مرة منذ ثلاثين عاما من العمل السياسي ، يعترف الشيوعيون السوريون بالقومية العربية الواحدة وبوجود أمة عربية واحدة !

ولعل الشعب العربي مدين « للاشتراكية العلمية » .. جدا التي تكرمت وباركت والجماعات العربية ، وجعلت منها امة عام ١٩٥٦ ! فباسم الاشتراكية العلمية أنكر الشيوعيون في سوريا وجود أمة عربية واحدة منذ بدء عملهم ، بل دبجوا المقالات لوضع الاساس الفكري لهذا الموقف الخاطيء المتآمر عام ١٩٣٩ ، وفي عام ١٩٤٤ وفي كل عام بعد ذلك حتى عام ١٩٥٥ . وباسم الاشتراكية العلمية اكتشفوا وجود أمة عربية قبل أربع سنوات فقط وما بين خطاب خالد بكداش في ٢٢ ايلول ١٩٥٥ وخطابه في ٦ تشرين الاول ١٩٥٥ ، في بحر اسبوعين ، وجدت امة عربية واحدة ، وتكونت مقومات الامة أو اكتملت ، بل اصبحت ساطعة كالشمس !

بالعمق الفكر وبالقداسته .

والسكرتير العام للحزب الشيوعي السوري ، وأبرز قائد شيوعي في كل الوطن العربي ، ينسى

---

(١) خطاب خالد بكداش في البرلمان السوري ، كراس « حول قضية تسليح مصر » ص ٧ – نشر هذا الخطاب في جريدة « النور » بعد ذلك ، عدد ٦٨٤ ، ١٦ ايار ١٩٥٨ « صفحات مجهولة » ... محمد على الزرقا والياس مرقص ، ص ٤٢٧ .

وهو يتحدث عن وقاحة الصهيونيين الذين ينكرون القومية العربية الواحدة ، انه هو نفسه قد أنكرها منذ تأسيس الحزب . بل وينسى أنه كان أسبق الى القول بوجود أمة يهودية من القول بوجود أمة عربيه يوم قال في عام ١٩٥١ — لتبرير خيانتهم الكبرى لفلسطين — ان اليهود يؤلفون أمة في طريق التكوين في فلسطين ! (١)

ولم يقر الحزب رسميا هذا الاعتراف الذى «ادلى» به خالد بكداش عن القومية العربية الا بعد سبعة شهور . لعله امضاها في التأكد من وجـود امة عربية واحدة على ضوء اعتبارات الاشتراكية العلمية .. ففى ٢٢ نيسان ١٩٥٦ عقدت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى فى سوريا ولبنان اجتماعا هاما دام ستة أيام (٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، من نيسان و ٦ ، ٧ من أيار) . وصدرت مقررات هذا الاجتماع في كراس بعنوان : « نحو آفاق جديدة » . وبعنوان « قرار عن قضية الوحدة العربية » تقول المقررات :

« ان طموح البلدان العربيه الى وحدتها ليس وليد ظروف طارئة أو رغبة عاطفية ، ولا نتيجة لدعاية فكرية قام بها حزب أو فريق من الناس ، بل هو مظهر لحاجة واقعية . ونتيجة لتطـور تاريخى موضوعى مستقل عن الرغبات والارادات . فان الارض المشتركة ، ووحدة اللغة ، والتاريخ المشترك والتكوين النفسى المشترك الذى ينعكس فى الثقافة المشتركة والاوضاع الاقتصادية التى يتمم بعضها بعضا ، كل هذه العوامل المشتركة التى تكونت تاريخيا والتى تتطور ، رغم ماأقيم ويقام فى وجهها من عوائق مصطنعة ، في اتجاه موحد يؤدى الى ازدياد التقارب بين مختلف أجزاء البلاد العربية ، هى الاسس الواقعية الموضوعية التى تنبثق منها قضية الوحدة العربية . » «٢»

وهكذا ، وببساطة متناهية — تظهر قدرة غريبة على امتهان الحقيقة الفكرية — دفنت فكرة « الحواجز الجغرافية التى تفصل وتستظل فاصلا بين أجزاء الوطن وفكرة التطور الاقتصادى الخاص ، وفكرة الثقافة الخاصة ، وفكرة التكوين النفسى والعقلى الخاص » دفنت كلها تحت أستار النفاق الكثيفة التى يقتضيها التكتيك الجديد . وأصبحت الاجزاء المتباعدة المستقلة فى تطورها ، فى ظرف سنوات معدودات أمة واحدة تامة !

وهكذا أيضا ، تغيرت « الشعارات الستراتيجية » « الاهداف الثابتة طوال مرحلة استراتيجية معينة » تغيرت المرحلة بين ليلة وضحاها (!) ولم تعد شعارات الكفاح ضد الاستعمار هى كل شعارات المرحلة، ولم يعد دور سوريا التاريخى يقتصر على معركة الاحلاف (تقرير عام ١٩٥١ ، حزب العمال والفلاحين ، خطاب بكداش في المجلس) ، بل أصبح الفصل بين التحرروالوحدة خطأفادحا ، بل ومناورة استعمارية ! وتناسى الشيوعيون بالطبع ان كل تقديراتهم العلمية المبنية على تعاليم ستالين العظيم حول « الستراتيجي والتاكتيك » ، كانت تقوم على الفصل بين التحرر والوحدة خطأفادحا، بل ومناورة لشعارات ومخططات الحزب التى بقيت هى الموجه الاول على الصعيد النظرى لنضال الحزب ، طوال هذه المدة بل والى ما قبل أيام معدودة من هذا التحول .. تستمر المقررات فتقول :

« لقد كان الاستعمار ومايزال العائق الرئيسى فى وجه الوحدة العربية . ولهذا فان شعار تضامن الشعوب العربية للتحرر من نير الاستعمار وانتزاع الاستقلال الوطنى ، كان الشعار النضالى الذى تمليه الظروف الواقعية . **وقد لعب هذا الشعار دورا كبيرا فى فضح واحباط مناورات المستعمرين الرامية الى فصل شعار التحرر الوطنى العربى عن شعار الوحدة العربية** » . (آفاق جديدة ص ١٨)

وهكذا ايضا ، لم تعد الوحدة مجرد « مسالة حدودية جغرافية » يمكن أن يتطور كل قطر عربى سياسيا واقتصاديا واجتماعيا بدونها ، بل أصبحت الوحدة هى الباب الوحيد الذى يفتح المجال الرحب لمثل هذا التطور ! وتناسى الشيوعيون بالطبع انهم بموقفهم الغارق الى أذنيه فى التجزئة انما كانوا اذن يقفون فى وجه التطور ، وأصبح :

« ..السير الى أمام فى طريق الوحدة العربية الشاملة .. سيخلق ظروفا أنسب لانجاز المهمات الوطنية الكبرى الموضوعة أمام سوريا ولبنان ، والسير قدما بالوسائل السلمية فى تحقيق الاصلاحات الديمقراطية الجذرية التى تجابهها بلادنا وبناء الاسس اللازمة للتطور السلمى نحو الاشتراكية » . (نفس المصدر ص ١٩)

وبناء على هذه الحقائق كلها التى اكتشفها الحزب الشيوعى السورى اللبنانى فجاة فى الوحدة العربية لم تعد الوحدة « قضية غير عملية وغير مطروحة » بل اصبحت « احدى قضايا العالم » .

(١) مقررات اللجنتين المركزيتين للحزبين الشيوعيين السورى واللبنانى عام ١٩٥١ . سنتطرق الى هذا الموقف عند بحث موقف الشيوعيين من قضية فلسطين .

(٢) « نحو افاق جديدة » ص ١٨

« واذا كان طغاة الاستعمار العالمي ، بمسورقة شيعتهم اسرائيل والصهيونية العالميـة ، يحاربون التضامن العربي وفكرة الوحدة العربيـة بمختلف الوسائل ، لانهم ينظرون الى البلاد العربية على انهـا مراكز استراتيجية ومنابع للنفط الذي يغتصبونه من اصحابه العرب ، فان المعسكر الاشتراكي العالمي ، وفي طليعته الاتحاد السوفييتي والصين الشعبية ، وكذلك الدول التي تحررت من الاستعمار في آسيا وافريقيا واخذت تنهج سياسة قوامها السلم والاعتراف بحق الشعوب في السيادة والاستقلال ، تؤيد جميعهـا نضال الشعوب العربية في سبيل تحررها الوطني وفي سبيل الوحدة العربية ، **لان قضية الوحدة العربيـة هي احدى قضايا السلم والحرية في العـالم** » . (المصدر نفسه ص ١٩) .

ومهما يكن من امر هذا التحول الذي يناقض على طول الخط الموقف النظري السابق ، فما يهمنا الان هو ان نتذكر بدقة هذه الاقوال ، لاننا سنرى كيف عاد الحزب الشيوعي السوري اللبناني فمسحها مرة اخرى بين ليلة وضحاها بعد عامين فقط !

كذلك يهمنا ان نشير هنا الى نقطة في غاية الاهمية . تلك هي أن هذا الاعتراف ، على اهميته ، ورغم انه ادانة دامغة للشيوعيين بصدد موقفهم من القومية العربية ، الا انه ايضا بقي اعترافا **نظـريا مجردا** . فلم ينعكس هذا الاعتراف النظري باية مهمـات عملية نضالية ، ولم يترجم ابدا الى عمل وواجبات واقتراحات ومشاريع تستهدف وضعه موضـع التحقيق .

والواقع أن هذه النقطة تثير الدهشة والاستغراب العميق فعلا .

فان هذه المقررات التي حاول بهـا الشيوعيون ان يظهروا بمظهر المؤمنين بالقومية العربية أكثـر من القوميين العرب انفسهم ، عادت حين حددت المهمات النضالية المطروحة امام الشعب العربي في سوريا ، فتجاهلت العمل للوحدة العربية كمهمة نضالية اولى ! فقد تحدثت المقررات في هذا الصدد عن : « صون الاستقلال وتوطيده » و « امكانيات التطور السلمي واستخدام الطريق البرلماني لتحقيق الاصلاحـات الجذرية التي تحتاج اليها سوريا » ، وعن « الجبهة الوطنية » ، ولم تشر بحرف واحد الى قضية الوحدة العربية . والفقرة الوحيـدة التي تطرقت الى السياسة العربية في معرض تحديد المهمـات كانت تقول :

« وتقضي مصلحة سوريا القومية العليا بانتهاج سياسة خارجية مستقلة جريئة ترتكز على مناهضة الاحلاف الاستعمارية الحربية ، والاسهام في صيانة السلم العالمي وتوطيده ، ومساندة جميع الشعوب المناضلة في سبيل حريتها واستقلالهـا . ويتطلب ذلك في المجال العربي ، **توثيق الاواصر في** ميـادين السياسة والاقتصاد والدفاع مع مصر وسائر الدول العربية التي تنتهج سياسة وطنية تحـررية » . (المصدر نفسه ص ٥) .

ومرة اخرى نعود الى معالجة الوحدة بمستوى « توثيق الاواصر » !

ونحن لا نعلم فعلا كيف يمكن لاي حزب ان يدلي بمثل ذلك الاعتراف **النظري** الحار عن القوميـة العربية والوحدة العربية ، ثم يهمل هذه القضية اهمالا تاما حين يحدد عمليا مهمات الشعب النضالية ويعود ويختزل ذلك الهدف مرة اخرى ـ عمليا ـ الى قضية توثيق أواصر .

لا نفهم هذا التناقض بين النظرية والتطبيق في موقف اي حزب الا اذا كان هذا الحـزب يعطي مواقفه النظرية للاستهلاك والدعاية فقط .. فـلم يكن ذلك الاعتراف النظري الا اعترافا انتزع مـن افواه الشيوعيين تحت ضغط الواقع . فاذا كـان مجرد قرار نظري يحل المشكلة ويخرج الحـزب من المأزق الواقع فيه ، فليس اسهل من اعطاء مثل هذا القرار ، فليس فيه اي «ضرر» ما دام لا يفرض عملا جديا حقيقيا لتحقيق الوحدة .

مثل هذا الموقف هل يمكن لنا ان نتهمه باللا اخلاقية فقط ؟

اننا نكون اكثر طيبة من اللازم بكثير لو تـوقفت تهمتنا عند هذا الحد .

واستمر هذا التأييد النظري طوال هذه الفترة ، ففي اواسط كانون الثاني ١٩٥٧ ، اصدرت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان بيـانا حول مبدأ ايزنهاور جاء فيه : « ان العرب مصممون على السير في طريق التحرر الوطني والوحدة العربية المتحررة ، فلا التهويل بالتدخل الاميركي المسلح ، ولا محاولات الاغراء بالدولارات ، ولا مؤامرات عملاء الاستعمار بقادرة على تحويلهم عن هذا الطريق » .

كان الوقت يمر بسرعة ، والوعي القومي الشعبي يزداد بصورة متعاظمة ، والشيوعيون في سـوريا ولبنان يمعنون جاهدين للالتصاق بتيار الحـركة القومية . وبعد هذا التاريخ بعام واحـد ، قامت وحدة مصر وسوريا ، وكان للحزب الشـيوعي في سوريا ولبنان موقف طويل .

* * *

بعد اعتراف الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان بالقومية العربية والوحدة العربية بأربعة اشهر ، اكتشف الحزب الشيوعي العراقي فجاة وجود الامة العربية الواحدة ايضا ، ففي ايلول ١٩٥٦ قدمت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي تقريرا مسهبا ناقشته وصدق عليه المجلس الحزبي — الكونفرنس — الثاني المعقود في ذلك التاريخ ، وصدر هذا التقرير في كراس بعنوان : « خطتنا السياسية في سبيل التحرر الوطني والقومي » ، يقول التقرير :

« فالامة العربية ، امة واحدة ، تمتلك جميع الخصائص القومية للامة الواحدة من حيث كونها جماعة من الناس تكونت تاريخيا ، وتسكن ارضا مشتركة — برغم الحدود المصطنعة القائمة — وتتكلم بلغة مشتركة ، ولها مقومات الوحدة الاقتصادية ، ولها تكوين نفسي مشترك يجد له تعبيرا في الثقافة والتقاليد العربية المشتركة وفي الطموح المشترك الحار نحو الوحدة » . (تقرير اللجنة المركزية في الكونفرنس — «خطتنا السياسية في سبيل التحرر الوطني والقومي — ص ٢٧) .

وهكذا وبنفس الاسلوب المسرحي ، طبق الحزب الشيوعي العراقي تعريف ستالين للامة على العرب، وقرر اخيرا ان يعتبرهم امة . وكان هذا هو اول اعتراف رسمي للحزب بالامة العربية الواحدة منذ عشرين عاما من عمله السياسي !

وبناء على ذلك يستطرد التقرير : « فان رغبة شعوب الامة العربية في التقارب والتعاون ليست رغبة عرضية أو طارئة وانما رغبة طبيعية ووليدة العوامل المادية والموضوعية التي ينبثق منها ويتوطد على اساسها شعار الوحدة » (نفس المصدر ص٢٩)

ولهذا « فان انعزال العراق عن بقية البلاد العربية وليد خطة استعمارية بحتة ، وهو انعزال غير طبيعي ومؤقت ، لانه معاكس لمنطق التطور القومي التاريخي والتحرر الاقتصادي » . (نفس المصدر ص ٢٨) .

واعداء الوحدة هم اعداء المعركة العربية عامة . « فان طريق الوحدة العربية المنشود التي يحاربها الاستعمار العالمي وصنيعته اسرائيل والصهيونية العالمية ، والتي يقف في طريقها حفنة من اعوان الاستعمار وعلى راسهم نوري السعيد .. » (نفس المصدر ص ٢٩) .

وهكذا ، ودون اي تفسير علمي من حزب الاشتراكية العلمية ، ظهرت الامة العربية فجاة . واما الحدود فهي مصطنعة ، واما الوحدة فهي وليدة عوامل مادية وموضوعية ، واما انعزال العراق فهو خطة استعمارية ، والوحدة تطور قومي تاريخي لا يمكن ان يقف في وجهها الاستعمار العالمي « واسرائيل » والصهيونية والحكام الرجعيين الذين يعيشون على التجزئة امثال نوري السعيد .

ولعل الشعب العربي هنا ايضا ، يجب ان يهنيء الشيوعيين على هذه المرونة الفائقة ، المرونة التي تغير حتى الفكر نفسه (!) وتجعله اليوم نقيض ما كان بالامس . فهل نسمي هذا « تطورا » من حزب يملك « اداة التنبؤ بالمستقبل » ، أم «تلاؤما تكتيكيا» مع ضغط الواقع القومي ؟

هذا ما كشفت عنه الاحداث المقبلة . فبعد اقل من سنتين من هذا الكلام تمت وحدة في تاريخ العرب الحديث بين مصر وسوريا ، وكان للشيوعيين في العراق موقف طويل .

* * *

اما في مصر ، فقد جاء الانقلاب الفكري في موقف الحركة الشيوعية متاخرا عنه في سوريا ولبنان والعراق ، فان هذه الحركة التي عاشت مخنوقة بالطابع الاجنبي وبعيدة كل البعد عن الواقع القومي للعرب ومشاعرهم القومية لم يكن سهلا عليها ان تنفتح على حركة العرب القومية الجارفة . ولكنها ، كباقي الاحزاب الشيوعية ، اضطرت اخيرا أن تتلاءم مع هذه الحركة وتقوم بالانقلاب السحري المشهود .

ولقد حاولت الحركة في مصر في البداية ان تعطي القومية العربية مفهوما فكريا مغلوطا يتعلق بمظهرها لا بجوهرها فقالت : « ان القومية العربية شعار مرحلي كفاحي ضد الاستعمار » ، « وشعار نضالي لمكافحة العدو المشترك ، الاستعمار » الخ . متجاهلة القضية الجوهرية : الامة العربية الواحدة .. ولكن الحركة الشيوعية لم تستطع أن تستمر في هذا المنطق الفكري الغث سيما بعد النمو المتعاظم الذي سجله الوعي القومي الشعبي فكريا ونضاليا .

وهكذا ، ايضا ، اكتشفت الحركة الشيوعية في مصر ، في عام ١٩٥٨ ، ان هناك شيئا اسمه القومية العربية ، ورجعت الى النظرية الشيوعية لتدعم فكريا اكتشافها العبقري « المبكر » جدا ، والذي لولا كونها مسلحة بالاشتراكية العلمية لما استطاعت ان تصل اليه !

ففي عام ١٩٥٨ قدم «الحزب الشيوعي المصري» الى اعضائه دراسة عن القومية اصدرها في كراس بعنوان : « مفهوم القومية العربية » بقلم الرفيقين « خالد » و « عباس » . وجاء في هذه الدراسة :

« وهكذا وجدنا ان نشأة النظام الراسمالي تعني بالضرورة القضاء على التجزئة والنظم الاقطاعية في اشكال الحكم والانتاج والحياة الاجتماعية وتدعيم كل مقومات الوحدة القومية وتطورها .

« ولهذا يؤرخ لظهور القومية بظهور النظام الراسمالي .. ولم تشذ نشأة القومية العربية عن هذا القانون الموضوعي للتاريخ وان اختلفت عن سائر القوميات الاوروبية في مدلول نشأتها وذلك للملابسات الخاصة التي صاحبت هذه النشأة . فلقد ارتبطت نشأة القوميات في اوروبا خاصة بسعى الطبقات الراسمالية الاوروبية الى الربح والاستغلال والتوسع والسيطرة . ونما هذا الاتجاه وتعاظم بتطور الراسمالية ذاتها من المرحلة الصناعية الى المرحلة الاحتكارية الاستعمارية في اواخر القرن التاسع عشر .

« اما القومية العربية فقد اتخذت في نموها اتجاها مختلفا منذ البداية » . (مفهوم القومية العربية ص ٣) .

وتفسر الدراسة هذا الاتجاه المختلف بانه :

« لم تتخذ الحركة الوطنية العربية طابعا دينيا متعصبا ، بل ساهم فيها — وما زال يساهم — المسلمون والمسيحيون على السواء . فكان المثقفون المسيحيون في بيروت والشام خاصة من اوائل الداعين الى الوحدة العربية والعاملين على احياء التراث الثقافي العربي .

« ولم تتخذ هذه الحركة الوطنية كذلك طابعا شوفينيا ضيقا ، ولا ادل على ذلك من التعاون النضالي القائم بين الاكراد والعرب في العراق وبين الزنوج والعرب في السودان لتصفية الاستعمار » . (المصدر نفسه ص ٥ ، ٦) .

وبعد ان تعدد الدراسة مقومات القومية العربية توجزها بالنقاط التالية :

« (١) القومية العربية هي حصيلة تاريخ مشترك لجماعة من الناس عاشوا وتآلفوا وناضلوا معا مئات السنين ..

« (٢) القومية العربية لها لغتها الواحدة التي تحمل تراثها وخلاصة خبرتها التاريخية .

« (٣) القومية العربية تشترك في رقعة واحدة من الارض مهما اختلفت وتعددت مظاهرها الجغرافية ..

« (٤) القومية العربية لا تشترك في حياة اقتصادية واحدة » . ولكن هذه المشكلة ليست عائقا امام وجود القومية العربية الواحدة لانه :

« .. من الواضح ان هذه الحقيقة مرتبطة تماما بان دولا استعمارية مختلفة لا تزال تسيطر على مقدرات وامكانيات وثروات اجزاء من الوطن العربي وهي بالتالي تربط هذه الاجزاء بالاقتصاد الاستعماري نفسه .

« ولقد كانت السوق العربية المشتركة موجودة في الماضي ، قبل الاحتلال الغربي ، بشكل او بآخر . وعمل الاستعمار على تحطيم هذه السوق بوعي والقضاء على تكامل الانتاج في الوطن العربي ، ومع ذلك فأسس التكامل في الانتاج لا تزال قائمة وان كانت متناثرة تقوم بينها الحدود المفتعلة . .

« (٥) التكوين النفسي المشترك (او « الطابع القومي ») « للامة العربية » (المصدر نفسه ص ١٢ ، ١٣)

واما الاختلافات البسيطة بين الاجزاء العربية ، فهي ايضا لا تشكل عائقا امام القومية العربية الواحدة :

« ومهما كانت الفوارق السطحية التي تبدو لنا هنا في مصر مقنعة للبعض منا باننا في نهاية الامر مختلفون نفسيا عن بقية العرب ، الا ان هذه النظرة ليست الا بقايا الانعزالية في مصر ازاء القومية العربية » (المصدر نفسه ص ١٤) .

بعد هذا العرض ، يصل التقرير الى تحديد ملامح القومية العربية فيقول :

« ان القومية العربية — على هذا الاساس الذي اوضحناه — ليست شعارا سياسيا تكتيكيا ، ولا هي عصبية دينية . ان القومية العربية ليست تطلع طبقة اجتماعية صاعدة نحو اسواق جديدة بهدف تكوين امبراطورية جديدة تخدم اغراضها التوسعية . ان القومية العربية ظاهرة تكوين امة واحدة ، لها كافة المقومات الاساسية للامة الواحدة ، وتناضل كافة فئاتها الوطنية الشعبية لتجميع شتاتها المبعثر . وتكامل اقتصادها الممزق وتطويره . وخلق سوقها المشتركة واستعادة ثرواتها واراضيها التي سلبها الاستعمار ، والقضاء على كل القوى الرجعية والاستعمارية المعرقلة لنموها ، ورفع مستوى معيشة ابنائها وتطوير حياتها وتنمية ثقافتها ، والمساهمة مع كافة الشعوب والدول الوطنية والاشتراكية للقضاء على الحروب وصيانة السلام العالمي » .

« لم تعطي الدراسة تقييمها للقومية العربية فتقول :

« ب ـ انها في جوهرها حركة شعبية نضالية معادية للاستعمار .. فالاستعمار هو الذى اقام الحدود والحواجز فى وجه هذه القومية فمزق وحدتها وسعى لطمس معالمها وعرقلة نموها . ولهذا كانت معركة التوحيد معركة فى جوهرها معادية للاستعمار .

« حـ ـ انها بالضرورة حركة تقدمية من الناحية الاجتماعية . ففى نضالها ضد الاستعمار تناضل كذلك ضد عملائه وحلفائه من الاقطاعيين والاحتكاريين ، وهى تحرر ثروات ارضها وطاقات شعوبها من الاستغلال والاستعباد ، وتحقق التكامل بين اقتصادها الممزق ، وتبنى اقتصادها الوطنى وتطوره ، وتنمى ثقافتها الوطنية والشعبية . وهى بهذا تتيح لابنائها ارتفاعا فى مستوى المعيشة ، كما توفر لهم حريات ديمقراطية متعاظمة .. » (المصدر نفسه ص ١٦) .

اثبتنا هذه الفقرات الهامة فى « موقف الحزب الشيوعى المصرى » من القومية العربية ، لانها احسن نموذج للمحاولة الفكرية الضمنية التى قام بها الشيوعيون للملاءمة ما بين نظرية الشيوعية فى تفسير نشوء القوميات ، وما بين محاولة اتخاذ موقف ودى من القومية العربية . ولهذا فان هذه المحاولة تظهر المتناقضات والاخطاء التى تقع فيها الحركة الشيوعية فى هذا الصدد من جهة ، كما تظهر كذلك كيف اضطرت ان تضرب عرض الحائط بكثير من آراء النظرية الشيوعية التى ان وجدت لنفسها بعض المبررات فى ظروف نشأة القومية فى اوروبا ، فانها تقع فى خطأ فادح حين تحاول نقل ذلك التفسير لتطبيقه حرفيا على القوميات الاسيوية الافريقية ، والقومية العربية منها بوجه خاص .

ولقد اصبح واضحا هنا الخطأ الذى تقع فيه الحركة الشيوعية بقولها ان القومية العربية ظهرت بظهور الرأسمالية ، ولعل الحركة الشيوعية تشعر بأن المنطق الفكرى لظروف الوطن يخذلها هنا على طول الخط ، فتلجأ الى تفسير مقتضب عائم حيث تقول : ان السوق العربية الواحدة كانت موجودة قبل الاستعمار الغربى بشكل أو بآخر .؟!

ولكن ما يهمنا بشكل خاص، ليس مناقشة هذا الموقف ، وانما أن نقرأ بدقة الفقرات الهامة لهذه الدراسة وأن نتذكرها بدقة . ففى نفس العام الذى أعطى فيه الشيوعيون المصريون هذا الموقف قامت وحدة مصر وسوريا، وكان للشيوعيين فى مصر موقف اقل ما يقال فيه أنه عاد ونسف كل هذه الاسس الفكرية التى ناقش من خلالها القومية العربية !.

* * *

اما الاحزاب الشيوعية فى الجزائر وتونس ومراكش ، فقد كانت ، وفى هذه المرحلة ، لا تزال تعيش فى عزلتها التامة عن الحركة القومية العربية . والواقع ان هذه الاحزاب الشيوعية فى المغرب العربى لم تكن تجابه ضغط الشعور القومى العربى الجارف والمنظم الذى جابهته احزاب الحركة الشيوعية فى المشرق العربى ، ولهذا فلم تكن مضطرة كثيرا لان ترتدى هى الاخرى قناع الايمان بالامة العربية الواحدة والاعتراف بحركة الوحدة العربية كتعبير عن وحدة الامة .

ومن المضحك حقا ان الماركسية ـ اللينينية، بكل « علميتها وشمولها » لم تفد الاحزاب الشيوعية بالمغرب فى « لفت انتباههم » الى وجود امة عربية واحدة ، ولم تدفعهم « بكل ثوريتها » الى النضال فى سبيل الوحدة العربية ، بل لم تدفعهم حتى الى مجرد اتخاذ « قرار » بتاييدها وفق النمط الذى حلت به الاحزاب الشيوعية فى المشرق هذه القضية!

فالاحزاب الشيوعية فى سوريا ولبنان والعراق ومصر ، كلها ، استندت فى تفسير اعترافها بوجود امة عربية واحدة وتأييدها للوحدة العربية ، على النظرية الشيوعية ، وحاولت أن تثبت اخلاصها فى هذا الموقف الاخير بقولها ان الاشتراكية العلمية نفسها تقر بوجود الامة وتعترف بالحركة القومية بناء على تفسير معين لهذه الظاهرة ، ولذلك فانها (اى هذه الاحزاب) حين تتخذ هذا الموقف المؤيد فلا تتخذ موقفا تكتيكيا بقدر ما هى تنسجم مع النظرية الفكرية التى تؤمن بها . وتناست الاحزاب الشيوعية بالطبع انه لو كان هناك اى فكر واى منطق علمى لما تأخر اكتشافها العبقرى للامة العربية الواحدة الى ما قبل سنوات معدودة حين بلغ الوعى القومى الشعبى حدا انتزع الاعتراف انتزاعا من افواهها .

ومهما يكن ، فاذا نحن تجاوزنا هذه الناحية ، فمن الغريب ، ان الاحزاب الشيوعية فى المغرب تستند الى نفس النظرية الماركسية ـ اللينينية بالطبع ، ومع ذلك : فهى حتى الان لم تعترف بأمة عربية واحدة ، ولم تؤيد دعوة وحركة الوحدة العربية . فكيف نفسر هذا الموقف ؟

لا . ليست القضية ابدا قضية فكر بل قضية تلاؤم سياسى مع ضغط الواقع القومى ، واذا كان ضغط الحركة القومية فى المغرب لم يجبر بعد الاحزاب الشيوعية هناك على اجراء هذا التلاؤم ، اذن ففى الوقت متسع ! ولنترك القضية الى حينها ! بل ولتحارب القضية أيضا !

وهكذا كان!.

ففي عام ١٩٥٧ اضطرت الاحزاب الشيوعية في المغرب ان تقول شيئا ما ، اي شيء ، عن مسالة وحدة المغرب العربي ، وعن احداث المشرق العربي ، ففي ذلك الوقت كان موضوع اتحاد اجزاء المغرب العربي قد بدأ يطرح ، وكانت المباحثات جارية بين سوريا ومصر بشأن الوحدة ، وكانت الاحزاب الشيوعية في المشرق قد اعترفت جميعها بالامة العربية الواحدة وايدت ــ نظريا ــ دعوة الوحدة العربيـــة . فماذا نتوقع ان تكون قد قامت الاحـــزاب الشيوعية في المغرب ؟ هل اعترفت بالامة العربيـة ؟ هل ايدت الوحدة العربية ؟ هل أيدت مباحثات مصر وسوريا ؛ ان اقصى ما وصلت اليه ثورية هذه الاحزاب انهـا اشارت من بعيد ــ وفي معرض الكلام ــ الى وحـدة المغرب ، وأيدت اعجابها بموقف مصر وســوريا من ثورة الجزائر .

هذا كل شيء ...

ولنرجع الى الوثائق ...

في تشرين الثاني ١٩٥٧ اجتمع ممثلو الاحــزاب الشيوعية في الجزائر وتونس ومراكش في اجتمــاع هام حضره الامين العام للحزب الشيوعي الجزائري العربي بوهالي ، وعضو من المكتب السياسي للحزب ، والامين العام للحزب الشيوعي المراكشي ، علي يعطه ، مع عضو من المكتب السياسي ، والامين العام للحزب الشيوعي التونسي ، محمد حرمل ، مع عضو عـــن المكتب السياسي .

ولخص هذا الاجتماع الهام بصدد قضـــــية الوحدة من الفقرة الوحيدة التالية :

« ان الاحزاب الشيوعية في الجـــزائر ومراكش وتونس لعلى يقين من ان تحرر الجزائر قد اضحى قضية الشعوب الثلاثة في الشمال الافريقي . (ترى الم يكن من قبل ؟!) . ويجب علينا ان نستعجل هذا التحرر لا من اجل الشعب الجزائري والســلم العالمي وحدهما ، بل لدعم استقلال الشعبين المراكشي والتونسي ودق ساعة الوحدة في افريقيا الشمالية ، الوحدة التي تتيح للشعوب الثلاثة الحرة ان تتقدم على طريق الديمقراطية والتقدم الاجتمـــــــاعي والسلم . » (١)

هل نجد في هذا الطريق الذي ترسمه الاحزاب الشيوعية في المغرب لتقدمها اية اشارة للوحــــدة العربية ؟

واما عن التطورات القومية والسياسية الهامة التي كان المشرق العربي يشهدها طيلة هـــــذه السنوات ، فان البيان الطويل الذي صدر عن هــذا الاجتماع لم يجد انها تستحق البحث ، ولم يجد فيها اي مغزى سوى القول الوحيد :

« ويجدر القول ان مصر وسوريا ، الواقفتين في وجه الاستعمار حفاظا على استقلالهما ، لا تنفكان تقدمان العون الكريم الثمين للشعب الجزائري ، وقد اسهم جهادهما في ازدياد العطف على الجزائر في بلدان شتى من اسيا وافريقيا . » (٢)

ومن الجدير بالذكر ، ان الحـــزب الشيوعي في الجزائر ، ما زال حتى الان مسجونا في نظرية «الامة الجزائرية» ذات الشخصية الخاصة والكيان الخاص والروابط الخاصة . وهذا الحزب ــ باكثريته غير العربية ــ الذي يكد ذهنــــه وذهن قادته من الشيوعيين الفرنسيين في باريس لاستخراج « امة » من مزيج مضحك من الفرنسيين والعرب ، انما يمثل اكثر الاحزاب الشيوعية العربية انغلاقا علــى فهم حركة القومية العربية ، بل وحتى على فهـــم ومتابعة الاحداث والتطورات الضخمة التي شهدتها وتشهدها هذه المرحلة من حياة العرب . وهو ، حتى هذه الساعة ، لا يزال عند موقفه التآمري الرخيص سواء بالنسبة لثورة الجزائر ، او بالنسبة لعروبة الجزائر ، او بالنسبة لموقفه من القومية العربية .

* * *

هذه ، بالوثائق ، صورة حية عن موقف الحركة الشيوعية الجديدة من الامة العربية والوحــــدة العربية ، والانقلاب الفجائي الذي اجرته تحت ضغط الوعي القومي الشعبي . وهذه هي بالوثائق الاسس الفكرية والسياسية التي قام استنادا اليها هــذا الانقلاب الفجائي . ومن الواضح للقارىء العربي ، من مقارنة هذه المواقف الفكرية الجديدة بالمواقف السابقة التي ميزت المرحلة الاولى ، ان هناك اختلافا عميقا كبيرا جدا بين المرحلتين . وهذا يدل دلالة قاطعة على ان هذا الموقف الاخير هو موقف جديد تماما ليس بينه وبين الموقف القديم اية صلة ولا اي انسجام ، بل هناك على العكس تناقض واضـــح احيانا . وهكذا يسقط القناع الاول الذي حاولت الحركة الشيوعية ان تزور عن طريقه حقيقة موقفها المتنكر لوحدة الامة العربية وان تتظاهر ان موقف التاييد الجديد ليس الا استمرارا لمواقفها القديمة .

ويهمنا هنا بشكل خاص هو ان نعيد تثبيت هذه المبررات الفكرية والسياسية التي ايد استنادا اليها

---

(١) ، (٢) : نشر البيان الصادر عن هذا الاجتماع في جريدة « النور » لسان الحزب الشيوعي السوري ، عدد «٥٨٠» ، ٢٦ كانون الاول ١٩٥٧ .

الشيوعيون حركة القومية العربية والوحدة العربية. وهذه المبررات كما تظهرها الوثائق السابقة تقول :

اولا : هناك امة عربية واحدة . **والوحدة العربية** هى تجسيد طبيعى موضوعى للامة الواحدة . وقد كان الشيوعيون واضحين جدا فى هذا الموقف ، فلم تدع كتاباتهم فى هذه الفترة الى « التضامن » أو « التعاون » أو التقارب » ، بل الى **الوحدة** التى تنبثق عن تطور قومى تاريخى موضوعى .

ثانيا : الفوارق الموجودة بين اجزاء الوطن العربى، هى فوارق **مصطنعة** اولا اوجدها واقع الاستعمار والتجزئة ، **وسطحية** ثانيا لا تشكل أبدا عائقا امام تطور العرب القومى كأمة واحدة ، « فقد تطور العرب كأمة واحدة رغم ما أقيم ويقام فى وجههم من عقبات مصطنعة » .

ثالثا : الحركة القومية العربية حركة تقدمية فى جوهرها ، وقضية الوحدة العربية هى احدى قضايا السلم والحرية فى العالم .

رابعا : الوحدة العربية هى الباب الذى سيفتح المجال امام تطور العرب ونهوضهم السياسى والاقتصادى والاجتماعى ، وهى الطريق لبناء المجتمع العربى على اسس الاشتراكية .

خامسا : وبناء على ذلك كله ، « فالاستعمار وصنيعته اسرائيل والصهيونية العالمية والحكام الرجعيون المصلحيون » هم الاعداء الاولون والحقيقيون للوحدة .

هذه الحقائق الخمس ليست من عندياتنا ، بل تتفق عليها ، واوردتها ، كافة احزاب الحركة الشيوعية (عدا أحزاب المغرب) ، وهى تشكل الاسس الفكرية لموقف الحركة الشيوعية الجديد من القومية العربية والوحدة العربية كما تبين من العرض السابق .

لنتذكر هذه الحقائق بدقة .

فسنرى بعد مدة وجيزة ، كيف اضطر الشيوعيون الى تأييد أول وحدة عربية بعد ان فشلوا فى عرقلتها ، ثم كيف عادوا عندما سنحت لهم اول فرصة فى الوضع العربى والدولى ، ونسفوا كل هذه الاسس الفكرية ، وتجاهلوها ، وبدأوا يرجعون الى الموقف الفكرى القديم الذى رأيناه فى المرحلة الاولى !!

لنتذكر الحقائق الآنفة ولنمش مع الزمن .

***

الفصل الثالث

قيام الجمهورية العربية المتحدة

في شباط ١٩٥٨ ، تمت أول وحدة عربية معاصرة في تاريخ العرب الحديث، وقامت الجمهورية العربية المتحدة من مصر وسوريا نتيجة نضال قومي عنيد خاضه الشعب العربي ضد الاستعمار والصهيونية والحكام المرتبطين بالاستعمار والرجعية المصلحية التي تعيش على التجزئة والتيارات الاقليمية المعادية للعروبة ، وهذا الحدث القومي الخطير الذي تتصل جذوره بالنضال العربي طيلة عشرات من السنين ، جاء يمثل أعظم انتصار حققه الشعب العربي ، وحققته قوى التقدم العربي ضد أعداء الامة الذين عملوا طيلة هذه السنوات ، واستماتوا في عملهم ، لابقاء الواقع العربي المجزأ المستعمر الضعيف على حاله وعدم احداث أي تغيير فيه .

كان قيام الجمهورية العربية المتحدة يمثل بدء مرحلة جديدة في تاريخ العرب الحديث ، مرحلة انفتحت فيها أمام الشعب العربي ، لأول مرة ، مجالات رحيبة للانطلاق السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، وامتلك النضال العربي بنتيجتها قوة ضخمة جديدة أخذت تلعب دورا هاما في دفع معركة العرب الى اهدافها ، في دعم معركة التحرر العربي في كافة أجزاء الوطن ، والسير بسرعة أكبر في معركة التوحيد ، والبدء ، ولاول مرة في تاريخ العرب الحديث ، في بناء المجتمع العربي على أسس تستهدف الاشتراكية ، والانتقال به من الاقتصاد الزراعي المتخلف الى مجتمع صناعي يستهدف دعم استقلال العرب السياسي والاقتصادي ، والافادة من ثروات العرب لرفع مستوى الشعب العربي الاقتصادي الاجتماعي والانتقال به الى حياة لائقة .

فماذا كان موقف الحركة الشيوعية في الوطن من هذه الوحدة العربية الاولى ؟

ماذا كان موقف الشيوعيين الذين ظهروا خلال هذه السنوات القلائل قوميين أكثر من القوميين العرب انفسهم ، وحدويين أكثر من دعاة الوحدة انفسهم ؟

ماذا كان مصير هذه الكتابات العلمية عن الامة العربية والوحدة العربية ؟

وماذا كان مصير هذه المقررات الحارة للجان المركزية للاحزاب الشيوعية في الوطن ؟

إن الموقف الذي وقفته الحركة الشيوعية في الوطن تجاه هذه الوحدة الاولية يعطي نموذجا حيا عن مواقفها المتمايلة الدائمة التي يضيع فيها المبدأ بين اقدام التكتيك ، وتداس فيها مصلحة الامة ، ومصير ثمانين مليون عربي يخوضون معركة من أشرس وأدمى معارك الانسانية ضد الاستعمار والصهيونية العالمية ، تحت اقدام المصلحة الحزبية الضيقة ومخطط الشيوعية الدولية الذي رسم بعيدا ، بعيدا جدا عن وطننا !

لقد كانت هذه الوحدة الاولى اليد المقدسة التي امتدت لتنزع قناع المتاجرة بالعروبة وتمزق برقع التدجيل بالقومية الذي ارتدته الحركة الشيوعية في الوطن ، ولتظهر بوضوح أن موقف التأييد الذي وقفته في السنوات القليلة الماضية ، لم يكن ابدا ايمانا ثابتا بل تلاؤما ظرفيا اقتضته مصلحتها في عدم الانعزال عن جماهير الشعب المتفتحة على حقيقتها القومية العربية الواحدة .

وهكذا يعود موقف الحركة الشيوعية في الوطن ليتصل مرة أخرى بالموقف السابق في سلسلة واحدة من التآمر على مصير العرب القومي . فلم تكن سنوات التأييد الكاذب ، كما ظهر عمليا ، الا

فترة استراحة ، بين موقف انكار وجود الامة العربية ومعارضة الوحدة واهمالها تماما ، وبين العودة فى الموقف الجديد الى محاربة الوحدة العربية بشراسة لا متناهية .

وتظهر هذه الفترة الممتدة ما بين قيام الجمهورية العربية المتحدة حتى هذه الساعة ، فترتين متميزتين متناقضتين .

فى **الفترة الاولى** ، حاول الشيوعيون اختزال الوحدة الى شكل اقل بكثير من **الاتحاد الفيدرالى،** واتخذوا موقفا معارضا من **الوحدة** ، ولكن ما ان خلعهم التيار القومى الشعبى وراءه ، كالعادة ، وقامت الجمهورية الجديدة على أساس الوحدة ، حتى أسرعوا الى تأييد هذه الخطوة ، وفى هذه الفترة أيد الشيوعيون الوحدة كاخلص دعاتها !

وفى **الفترة الثانية** ، حارب الشيوعيون الوحدة كاشرس أعدائها !

ولم يكن يفصل بين الفترتين الا مدة وجيزة .

وكان من الصعب على الشعب العربى ، ولا يزال، ان يفهم هذه البهلوانية الغريبة ، الا على انها انتهازية مكشوفة يطل منها وجه التآمر الصريح .

وعاد الشعب العربى فادرك أن شعار (الاتحاد الفيدرالى) الذى طرح لم يكن أبدا ((وجهة نظر فى شكل الوحدة)) ، بل كان خطوة لحرف الوحدة واختزالها وتقليصها مرة اخرى الى تعاون وتقارب، وهذا ما اثبتته الاحداث حين نسف حتى شعار (الاتحاد الفيدرالى) ، ورفع مكانه شعار (التضامن) ثم نسف التضامن نفسه عمليا ، ليرفع مكانه شعار (الجمهوريات الخالدة) ، أى ليكرس واقع التجزئة البغيض باسلوب اشد لؤما من الاسلوب الذى اتبعه الاستعمار لتثبيت هذا الواقع .

***

الفترة الاولى !

الشيوعيون يحاولون عرقلة الوحدة
ثم يؤيدونها كاخلص دعاتها

كان موضوع شكل الوحدة وأسسها موضوعا حيويا مطروحا فى الفترة القريبة التى سبقت اعلان قيام الجمهورية العربية المتحدة ، وكان هناك بصدد هذه القضية (اذا تجاوزنا التيارات الانفصالية الصريحة) ، اتجاهان !

الاتجاه الاول : هو الاتجاه القومى الوحدوى الثورى ، الذى لا يفهم من الوحدة ان تكون شكلا فارغا ، أن تكون اسما بلا معنى ، بل يفهم الوحدة على انها خطوة امتزاج واندماج تزول فيها الكيانات المصطنعة الى غير رجعة ، وتصبح فيها حياة الشعب فى الجزئين حياة واحدة بكل معنى الكلمة ، فتقوم دولة جديدة على اساس : جمهورية واحدة واقتصاد واحد وتعليم واحد وجيش واحد وسياسة واحدة ، تقوم دولة جديدة ذات شخصية واحدة جديدة تعيش حياة واحدة جديدة ، هذا كان المقياس الذى وضعه الاتجاه القومى الوحدوى الثورى على انه الشكل الافضل الذى يعبر عن الواقع القومى الواحد وعن ارادة الشعب العربى الذى ناضل طوال عشرات وعشرات السنين من أجل وحدة حقيقية تامة، وحتى حين قال بعض دعاة هذا الاتجاه المخلصين بالاتحاد الفيدرالى ، فلم يعنوا بذلك الا قيام نوع من الادارات المحلية شرط الا يؤدى ذلك الى اختزال شكل الدولة الموحدة والمجلس الواحد والاقتصاد والتعليم والجيش الخ ..

والاتجاه الثانى : هو الذى لم يصل فى مستوى ايمانه بالوحدة وفهمه لها الى المستوى القومى الثورى ، المستوى الذى يجعل هذه القضية هى مركز الاحداث ، مركز الثقل فى المعركة العربية ، مركز الثقل فى الانقلاب القومى وفى مصير العرب ومستقبل تطورهم ، بل كانت القضية تتلخص فى رأيه بايجاد اى نوع من التعاون واى مستوى من التفاعل .

وتبنى الحزب الشيوعى فى سوريا ولبنان هذا الاتجاه الثانى ، ولم يكن موقفه غريبا عليه ، بل جاء على العكس منسجما مع مستوى ايمانه وفهمه لقضية الوحدة ، هذا المستوى الذى شهدناه طيلة تاريخ عمله .

وهكذا ، وبينما كان النقاش على أشده بين هذين الاتجاهين ، عقدت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى فى سوريا ولبنان اجتماعا دام ثلاثة أيام - ١١ ، ١٢ و١٣ كانون الثانى ١٩٥٨ - حددت فيه موقفها من هذه القضية الجوهرية بمشروع غريب سمته زورا (الاتحاد فيدرالى) ، ويقوم هذا المشروع على : جمهوريتين(!) وحكوميتين(!) ومجلسين نيابيين(!) وشخصيتين سياسيتين (!) .

والواقع ان هذا المشروع الذى سمى تلفيقا اتحادا فيدراليا هو اقل من كونفدرال ، ومشمل هذا المشروع برأى الشيوعيين : (ان الاتحاد بين مصر وسوريا سيكون من شانه ايضا ان يرفع مكانة كل من **الجمهوريتين** العربيتين المتحررتين فى العالم ،

ويوطد كيانهما ، ويزيد وزنهما في الحياة الدولية لمصلحة القضايا العربية ، وقضيــة الســلام العالمي .) (١)

فبينما كان الشعب يبحث في افضل اشكال **التوحيد** ، كان الشيوعيون يتكلمون عن **الجمهوريتين والكيانين** .

فهل هذا هو شكل الوحدة الــذي كان يريده الشعب العربي ؟

كان هناك اتجاه واضح لاختزال الوحدة وتقليصها رغم العبارات الرنانة التي زين بها قرار اللجنـــة المركزية في البيان الذي صدر بعنوان : (قــرار الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان بتأييد الاتحاد بين سوريا ومصر) .

بل واكثر من ذلك ، كان هناك اتجاه واضــح لتاخير هذه الخطوة ما أمكن . فقبل اسبوعين فقط من اعلان قيام الوحدة ، كانت المرحلة التي تمر بها هذه القضية ما زالت في راى الشيوعيين مرحلة دراسة ! فليوقف العمل الآن ولتؤلف لجان **للدراسة** شكل الاتحاد ، وبعد أن تنتهي هذه اللجنة مــن دراساتها ينظر في القضية ! ((لذلك فمن أجــل اختيار أفضل الطرق وانجع السبل لتحقيق الاتحاد .. ينبغي أن تبادر الحكومتان المصرية والسورية، بدون ابطاء ، الى تاليف لجنــة مشتركة لدرس أشكال الاتحاد من جميع النواحي والزوايا ، بحيث يقوم على اسس متينة واقعية تأخذ بعين الاعتبار الظروف الموضوعية في كل بلد)) (١)

والذين تتبعوا تلك الفترة يذكرون جيدا الجهود المستميتة والمحاولات الضخمة التي كانت تبذل من بعض الجهات لعرقلة الوحدة وتأخيرها ، فهل كان من قبيل الصدفة أن يظهر في مثل تلك الظــروف اتجاه يدعو الى التوقف عن اتخــاذ اية خطوة ، وتأليف لجان لتدرس اشكال الاتحاد من كافـــة الزوايا والوجوه !

ويهمنا أن نثبت هنا ، الاسس التي ايد عــلى اساسها ـ دعاويا ـ الحزب الشيوعي في ســوريا ولبنان قيام (الاتحاد) لعلاقتها الوثيقة باظهــار ارتداده ومسح كتاباته بعد مدة ، يقول البيان :

((لقد أصبح واضحا اليوم على النطاق العالمي . ان المحتوى الرئيسي للقومية العربية هو محتوى تقدمي ديمقراطي ، فهي ترمي الى التحرر من كل استعمار واحتلال ،والى تحقيق الاستقلال الوطني، وعدم الدخول في اي حلف أو كتلة عسكرية ، وبناء اقتصادي قومي مستقل على اساس السير قــدما في طريق التصنيع والاصلاح الزراعي ورفــع المستوى المعاشي والثقافي للجماهير الشعبية العربية وخلق الظروف للسير نحو وحدة عربية شــاملة متحررة ..

((وعلى هذه الاســس الواقعية الموضوعية تقوم اليوم فكرة الاتحاد بين سوريا ومصر ، ان الاتحاد بين القطرين العربيين الشقيقين المتحررين لا يعبر فقط عن أعز أماني الشعبين المصري والســوري ، بل عن أماني ثمانين مليون عربي ، من الخليج الى المحيط ..

((ان الاتحاد بين سوريا ومصر من شأنه أيضا ان يوطد سياستهما الوطنية التحررية ويساعد عــلى تحرير سائر الاقطار العربية من نير الاستعمار ..

((ان الاتحاد بين سوريا ومصر يؤلف قوة كبرى للوقوف بوجه اسرائيل واحلامها التوسعيــة التي يقف وراءها الاستعمار الامريكي وطغاة الاحتكارات البترولية الضخمة .

((ومن البديهي أن الاتحاد يمكن ويجب ان يزيد امكانيات البلدين لاستثمار ثرواتهما الطبيعية ، لان هذا هوالطريق الوحيد الصحيح لتطورهماالاقتصادي المستقل ولنموصناعتهما وزراعتهماوتجارتهما» (١)

هذه هي الاسس التي ايد على اساسها الحزب الشيوعي الاتحاد بين مصر وسوريا ، ومهما كــان نوع شكل الوحدة الذي حاول هذا الحــزب ان يختزل به مطلب الوحدة الفعليه ، فلا شك ان هذه الاسس والتحليلات لجوهر حركة الوحدة ونتائجها هي فعلا قيمة وصحيحة . لنعتــرف بذلك .. ولنعترف أيضا أن هذه اللهجة التي يتحدث بهــا البيان عن الوحدة لا تقل ابدا من حيث حرارتهــا اللفظية عن اللهجة التي كانت تتكلم بها الحــركة القومية عنها .

لنعترف بذلك .. ولنتذكر هذه المعاني الــتي يعطيها الشيوعيون للوحدة وللاتحاد .. ولنمش مع الزمن ، طبعا ، لم يخف على الشعب العربي وجــه التآمر الذي يطل من وراء هذه الكلمــات الرنانة والذي ظهر بوضوح تام في الدعوة الى جمهوريتين وكيانين وحكومتين وسياسيتين والى تأجيل الخطوة التاريخية تحت ستار الدراسات وقابل الشــعب

---

(١) النور ــ عدد ٥٩٤ ، ١٥ كانون الثاني ١٩٥٨ .
(١) المصدر السابق نفسه .

العربي هذا الموقف بما يستحق ان يقابل به من السخط ، واعلن رايه بصراحة فى ان كل من يتخذ مثل ذلك الموقف المائع فى مثل تلك الظروف انما يعمل ضد الوحدة .

وشعر الشيوعيون ان الشعب سيخلفهم وراءه ويسير فى طريق الوحدة، وهكذا بداوا ، كالعادة ، يتراجعون تدريجيا عن اقتراحهم الامرج حول شكل الوحدة المائع الذى قدموه .

ففى ٢٧ كانون الثاني ١٩٥٨ مهدت جريدة النور لهذا التراجع فى افتتاحيتها لذلك اليوم بقولها :
((ونحن لا نعلم بعد ما هو على ، علي وجه الدقة ، شكل الوحدة ومحتواها ، بين سوريا ومصر ، ولا ما هى أسسها ، وما سيكون دستورها ، ولكن مهما كان الشكل الذي ستعلن فيه الدولة العربية المتحدة الجديدة ، وسواء كان اتحادا فيدراليا ، أو وحدة ، فليس هناك فى سوريا من يتصور أن هذا الاتحاد مهما يكن شكله ، يمكن أن يؤدى الى غير توطيد السياسة الوطنية العربية التحررية ، او ان يعيد سوريا العربية الي الوراء ، سواء فى سياستها الخارجية أم فى حياتها الديمقراطية .. وليس هناك وطنى واحد ، الا ويؤمن ايمانا تاما بأن وحدة البلدين مهما يكن شكلها ، يجب أن تؤدى الى تعزيز أواصر الصداقة مع بلدان المعسكر الاشتراكى ..

((وفى كل حال ، فليس هناك أدنى ريب باننا اليوم ، أحوج من اى وقت مضى الى توحيد جهودنا .. لكي نسحق كل مؤامرة استعمارية توجه ضد الوحدة بين سوريا ومصر ، وكل محاولة تخلق البلبلة والاضطراب والتشويش فى بلادنا)) (١) .

وواضح ان هذا الموقف ليس فيه اية اشارة الى المشروع الاتحادى المائع الذى قدم سابقا ، وليس فيه أى تمسك به .

فى ٢ شباط ١٩٥٨ اعلن قيام الجمهورية العربية المتحدة على اساس (الوحدة بين البلدين ، كخطوة اولى نحو تحقيق الوحدة العربية الشاملة) ، وادلى خالد بكداش بتصريح هام فى اليوم التالى لهذا الحدث القومي قال فيه :

((.. صحيح انه حين طرحت مؤخرا قضية الوحدة بين سوريا ومصر ، كان لنا راى فى شكل هذه الوحدة ، وهو راى لا يمس جوهر الوحدة وصميمها (!) .. وقد اوضحنا هذا الراى بصراحة للمسئولين ولاركان التجمع القومى كما نشرناه فى جريدة النور .. وليس سبيلنا الآن الدخول فى تفاصيل هذه المرحلة الماضية وتبادل الرأى ..

((فنحن الشيوعيين فى سوريا ، كنا قبل قيام الدولة العربية المتحده ، مؤيدين للخطوط الكبرى الاساسية فى سياسة الحكومة السورية وفى سياسة الحكومة المصرية **فما الذى تغير ؟** اليس من الطبيعي ان يؤيد الشيوعيون استمرار هذه السياسة فى الدوله العربية الموحدة الجديدة ؟ **بل نحن نامل** ان يؤدي التفاعل السياسى فى الدولة الموحدة **لخطوة جديدة الى امام** فى السياسة التحررية . ان ما كنا نعمل له ونناضل فى سبيله من قبل ، سنعمل له ونناضل من اجله فى ظل الدولة العربية الموحدة ، **ولن تكون لنا سياسة اخرى)) (١)**

وتظهر هنا أيضا بوضوح المحاولة الظاهرة للتلاؤم مع هذا الحدث القومي كي لا ينعزل الشيوعيون عن جماهير الشعب التى كانت آنذاك فى اوج مدها الوحدوي الجارف ، ورغم ان هذا التصريح اشارة بعيدة وبشكل تلميح لتفضيل الموقف الاتحادي الاعرج الذى قدمه الشيوعيون، الاان تاييد الخطوة الجديدة هو الطابع العام للتصريح كما يتبين من فحوى هذا الكلام ، **دعاويا** على الاقل .

وبعد ذلك بيومين عاد خالد بكداش فاكد هذا الموقف مجددا فى تصريح لوكالة انباء الشرق الاوسط حول موقف الشيوعيين من وحدة مصر وسوريا ، حيث قال :

((ان اعلان الجمهورية العربية المتحده حدث هام فى حياة الشعبين السورى والمصرى وبالنسبة لجميع الشعوب العربية .

((صحيح انه كان لنا راينا فى شكل الوحدة وقد ابديناه بصراحة للمسئولين ولجبهة التجمع القومى ونشرناه فى الصحف .

((ونحن الشيوعيين فى سوريا كنا قبل قيام الجمهورية العربية المتحدة مؤيدين للخطوط الكبرى لكل من سياسة مصر وسوريا الخارجية ، فما الذى تغير ؟)) (١)

كذلك يظهر بجلاء هنا ، ان الشيوعيين يؤيدون قيام الوحدة رغم انه قد كان لهم راى معين فى شكلها ، وسيستمرون فى تايد سياستها .

واكد هذا الموقف بعد ذلك باستمرار ، ففى ١٠ شباط علقت جريدة النور فى مقالها الافتتاحي على هذا الموقف مرة اخرى بقولها :

(١) : جريدة النور — عدد ٦٠٣ ، ٢٧ كانون الثانى ١٩٥٨ — الافتتاحية .
(١) : جريدة النور — عدد ٦١٠ ، ٣ شباط ١٩٥٨ .
(١) : جريدة النور — عدد ٦١١ ، ٥ شباط ١٩٥٨ .

((واذا كانت هناك سابقا آراء في شكل الوحدة، واذا كانت هناك الآن ايضا ملاحظات فيما يتعلق بقضية الحريات ، فان ذلك ليس صادرا الا عن الرغبة المخلصة الصادقة في توطيد دعائم الجمهورية العربية المتحدة .. كما ان ذلك لا يمكن ان يمنع بأي حال توحيد القوى الوطنية للدفاع عن استقلال الجمهورية المتحدة وعن سياستها الوطنية التحررية وعن كيانها وبقائها .

((ونحن الشيوعيين من جهتنا ، كما قال خالد بكداش : سنناضل مع جميع الوطنيين الصادقين لحماية البلاد من الهزات الاقتصادية وغيرها ، ومن المساعي الاستعمارية السوداء الرامية لخلق البلبلة والتشويش)) . (١)

ان الموقف أوضح من ان يشرح ، فالقضية ليست الا بعض ملاحظات لا يمكن بأي حال أن تمنع الدفاع عن سياسة الجمهورية وكيانها وبقائها ،أي، ان مثل تلك الملاحظات لا يمكن ابدا أن ترقى الى حد اتخاذ موقف عدائي من الجمهورية الجديدة ، بل العكس هو الصحيح .

وجريدة الحزب الرسمية ، مليئة في تلك الايام، بالدفاع عن الجمهورية العربية المتحدة وتأكيد سلامة سياستها واتجاهها التحرري ، كما انها خالية بتاتا من أي انتقاد جذري يمكن أن يؤدي الى موقف معاد لها .

وفي ٢٠ شباط ١٩٥٨ ، اي قبل موعد استفتاء الشعب بيوم واحد ، وبعد اكثر من أسبوعين من قيام الجمهورية العربية المتحدة على أساس الوحدة التامة ، أصدر الحزب الشيوعي السوري عدة بيانات دعا فيها الى التصويت على قيام الجمهورية الجديدة وانتخاب عبد الناصر رئيسا لها .

فقد أصدر فرع الحزب الشيوعي في حمص بيانا وجهه للشعب قال فيه : ((ان بلادنا قادمة على استفتاء يعطي خلاله شعبنا رأيه في الجمهورية العربية المتحدة وفي انتخاب رئيس الجمهورية .. ولا ريب أن جميع الوطنيين الواعين وجماهير المواطنين كافة ، سيجعلون اقبالهم على الاقتراع يوم الاستفتاء ، بالموافقة على قيام الجمهورية العربية المتحدة وعلى انتخاب جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية ، مظاهرة وطنية لتوطيد الاتحاد بين جميع القوى الوطنية .

((ان فرع الحزب الشيوعي بحمص ، عملا بتوجيهات اللجنة المركزية للحزب ، يوجه هذا النداء وهو على ثقة بأن الشيوعيين وجميع الوطنيين على اختلاف اتجاهاتهم وآرائهم ، سيؤدون واجبهم الوطني كاملا ، ليثبتوا للاستعمار والرجعية ، ان القوى الوطنية ساهرة موحدة الكلمة والارادة ، وان الشعب مصمم على الدفاع عن جمهوريته العربية ، وعلى توطيدها وتحقيق ازدهارها حتى تصبح فعلا حجر الزاوية في بناء صرح الوحدة العربية الكاملة المتحررة .)) (نشر هذا البيان كذلك في جريدة النور : عدد ٦٢٢ ، ٢٠ شباط ١٩٥٨) .

وفي هذا اليوم نفسه ، ٢٠ شباط ، خصصت جريدة النور مقالها الافتتاحي لتأييد الاستفتاء فقالت :

((بعد يومين يجري الاستفتاء على قيام الجمهورية العربية المتحدة ، وعلى انتخاب جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية ، وذلك لكي تستكمل المرحلة الجديدة جميع ترتيباتها ..

((ان جماهير المواطنين الواعين الذين يدركون مدى الاخطار الاستعمارية المحدقة بالبلاد سيجعلون من اقبالهم على الاقتراع بالموافقة على قيام الجمهورية وعلى رئاسة جمال عبد الناصر ،مظاهرة وطنية عربية كبرى تنزل الرعب بقلوب المستعمرين وعملائهم ، وتبين للعالم أجمع أننا يد واحدة وقلب واحد في حماية استقلال جمهوريتنا وسيادتها .. ولن نسمح للمستعمرين وعملاء الاستعمار أن يرفعوا يدهم على الجمهورية العربية .)) (نفس العدد السابق) .

وأصدر فرع الحزب الشيوعي في حلب بيانا حماسيا في نفس التاريخ بعنوان :

« عاشت الجمهورية العربية المتحدة قاعدة للنضال ضد الاستعمار ومشاريعه »

دعا فيه الى تأييد الاقتراع على قيام الجمهورية على أساس الوحدة وانتخاب الرئيس جمال عبد الناصر رئيسا لها .

((أيها العمال والفلاحون ، أيها الوطنيون على اختلاف اتجاهاتكم السياسية ، أيها الشباب والطلاب ، يا نساء وطننا ، تجتاز جمهوريتنا العربية المتحدة اليوم مرحلة خطيرة في تاريخ حياتها الوطنية حيث تتكالب عليها من كل حدب وصوب مؤامرات المستعمرين الامريكيين وعملائهم.. ولذلك

---

٢) : جريدة النور ـ عدد ٦١٤ ، ١٠ شباط ١٩٥٨ .

(١) : نشر هذا البيان كذلك في جريدة النور ـ عدد ٦٢٤ ، ٢١ شباط ١٩٥٨)

يكتسب يوم ٢١ شباط ١٩٥٨ ، يوم الاستفتاء أهمية كبرى بالنسبة لجميع القوى الوطنية والديمقراطية ان جميع العمال والفلاحين ، ان جميع الوطنيين المخلصين الذين ساروا قدما فى الماضى بالسياسة التحررية الوطنية العربية الى أمام ، سيقبلون افرادا وجماعات على صناديق الاقتراع لدعم قيام الجمهورية العربية المتحدة وجعلها صخرة منيعة تتحطم عليها جميع مؤامرات المستعمرين وحصنا حصينا للحرية والسلام .

((ان اقتراع المواطنين جميعا على انتخاب جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية العربية المتحدة يعبر عن تمسكهم بالسياسة التحررية الوطنية العربية ، السياسة التى تساعد على اجتذاب جميع الشعوب العربية نحو وحدة عربية شاملة متحررة)) (١)

كذلك اصدر فرع الحزب الشيوعى فى الجزيرة بيانا مماثلا قال فيه :

((ان شعبنا مدعو لقول كلمته فى قيام الجمهورية العربية المتحدة وفى انتخاب رئيس الجمهورية فى ظروف تشتد فيها المؤامرات الاستعمارية ... ان اللجنة المنطقية للحزب الشيوعى فى الجزيرة ، استرشادا بتوجيهات اللجنة المركزية للحزب ، توجه هذا النداء ، وهى على ثقة بأن الشيوعيين وأصدقاءهم وجميع المواطنين الشرفاء سيؤدون واجبهم الوطنى وسيعملون لجعل يوم الاستفتاء ، يوم اتحاد جميع القوى الوطنية فى سبيل توطيد الجمهورية العربية المتحدة ، والسير قدما فى طريق التطور والازدهار وبلوغ الوحدة العربية الشاملة .)) (٢)

وفى يوم الاستفتاء دعت جريدة النور مرة أخرى الى تأييد الاستفتاء واصفة اياه بانه ضربة قاصمة توجهها للاستعمار ، ففى افتتاحية بعنوان (جبهة واحدة ضد الاستعمار والسيطرة الاجنبية) قالت بعد التحدث عن مؤامرات الاستعمار :

((وبعد أربع وعشرين ساعة يضيع آخر امل للاستعمار .

((وبعد أربع وعشرين ساعة نثبت للدنيا كلها اننا بالرغم من اختلافنا فى بعض المسائل الداخلية وبالرغم من انتمائنا الى مدارس فكرية مختلفة نضع وطننا فوق كل اعتبار .

((فلننس خصوماتنا ، ولنعمل جميعا يدا واحدة وقلبا واحدا من أجل تحرير هذا الوطن العربى كله من مراكش الى بغداد ..

((ان الشعب العربى الاصيل يعرف كيف يواجه العدو متحدا .. وهو لهذا سيحقق غدا اكبر معجزة فى تاريخ الشرق العربى ، والنصر للشعب)) (١)

وفى يوم الاستفتاء ، ٢١ شباط ١٩٥٨ ، صدرت جريدة الحزب الشيوعى السورى تضج حماسة وتناست مشروع الحزب الاعرج لتشويه الوحدة والمقالات التى حبرت لاختزال هذا المطلب الى جمهوريتين وكيانين ، وصدرت افتتاحيتها لذلك اليوم بعنوان : (عاشت الجمهورية العربية المتحدة) تقول :

((ان جميع المؤمنين بالوحدة العربية ، وجميع أعداء الاستعمار ، على اختلاف أحزابهم واتجاهاتهم وافكارهم ، ومهما كان بينهم من خلاف حول هذه القضية الداخلية أو تلك ، حين يذهبون اليوم الى صناديق الاقتراع للتصويت على قيام الجمهورية العربية المتحدة وعلى ايلاء الرئيس عبد الناصر رئاسة الجمهورية ، انما يبدون عزمهم الراسخ على توطيد الجمهورية العربية الفتية وصونها وجعلها قوة عربية ودولية كبرى تساهم فى صون السلم العالمى ، وتؤدى قسطها فى تصفية الاستعمار وتحرير سائر الشعوب العربية من السيطرة الاجنبية ، وتفتح أمامها الطريق للانضواء تحت راية الوحدة العربية الشاملة المتحررة ..

((فلنجعل من يوم ٢١ شباط الذى سيصوت فيه شعبنا على قيام الجمهورية العربية المتحدة وعلى انتخاب جمال عبد الناصر رئيسا لها ، مظاهرة وطنية عربية كبرى تنزل الرعب بقلوب المستعمرين وتثبت لهم أن جميع مؤامراتهم ودسائسهم نصيبها الفشل المحتوم ، ان اتحاد القوى الوطنية سيحطم كل يد ترتفع على الجمهورية وسيجعل الجمهورية العربية الفتية انطلاقة جديدة جبارة للقومية العربية ، فى نضالها من أجل استكمال تحررها السياسى والاقتصادى واحتلال مكانها تحت الشمس .

---

(١) نشر هذا البيان كذلك فى جريدة النور ــ عدد ٦٢٤ ، ٢١ شباط ١٩٥٨ .

(٢) نشر فى جريدة النور عدد ٦٢٥ ــ ٢٢ شباط سنة ١٩٥٨

((عاشت الجمهورية العربية المتحدة)) (١) .

والواقع ، يجب أن نهنيء الشيوعيين على هذه القدرة الخطابية ، بل على هذه القدرة الفائقة على ملء صفحات جرائدهم بنقيض ما تمتليء به صفحات قلوبهم ، فالشعب العربي ، الذي كان يطالع هذه المقاطع الحماسية لم ينس ان خالد بكداش ، السكرتير العام للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان ، قد هرب من الجلسة التاريخية التي عقدها المجلس النيابي السوري لكي لا يكتب صك موت الحزب نهائيا فيما لو عبر عن موقف الرفض الحقيقي للوحدة ، أو لكي لا يجرح مشاعره العربية (الصافية جدا) — كما يدل تاريخ الحزب المذكور آنفا — اذا اضطر لان يؤيدها . بل لم ينس ان هذا السكرتير العام قد هرب من البلاد كلها — تحت ستار الاسباب الصحية — لكي لا يضطر أن يدلي بتصريحات جديدة توقع الحزب في احراجات جديدة ، أو ربما لكي لا يجرح مشاعره العربية الصافية جدا بمرأى الاحتفالات الشعبية الجماهيرية الضخمة التي عبر بها الشعب لايام وأيام متوالية عن فرحته العظمى بتحقيق هدفه القديم ، والتي كان حزب ((أوسع الجماهير)) منعزلا انعزالا تاما عنها .

أدرك الشعب العربي ، طبعا ، أن هذا التأييد الحماسي الحار للوحدة (والذي يتم في ظروف غريبة في تناقضها : معارضة الحزب للوحدة قبيل شهر ومحاولة استبدالها بمشروع يشوه معناها ، وموقف زعيم الحزب خالد بكداش) ، لم يكن الا صورة اخرى للتلاؤم الجديد الذي اضطر الشيوعيون لاجرائه .

واستمر التلاؤم الحماسي يتجسد في تأييد اكثر حماسة .

فبعد اسبوع من تصويت الشعب الكاسح على قيام الجمهورية العربية المتحدة وانتخاب جمال عبد الناصر رئيسا لها ، خصصت جريدة النور مقالها الافتتاحي لمظاهرة ترحيبية حارة بالرئيس عبد الناصر الذي جاء يزور سوريا لاول مرة ، وجاء فيها بعنوان : (مرحبا بالرئيس عبد الناصر في دمشق العربية الباسلة) .

((زحفت دمشق أمس لتستقبل جمال عبد الناصر ، رئيس الجمهورية العربية المتحدة ، زحفت لتحيي رجل القومية العربية الذي سجل ، في تاريخه القصير نسبيا في الحكم ، انتصارات وطنية كبرى زعزعت مواقع الاستعمار في كل الشرق الاوسط ، وساهمت في فتح الطريق للعمل على تصفيته تصفية نهائية من هذه البقعة من العالم .

((والجماهير ترى في عبد الناصر اول مسئول عربي حطم الطوق الاستعماري المفروض على تسلح البلدان العربية المتحررة .. وقد سدد عبد الناصر ضربة قاسية الى مواقع الراسمال الاحتكاري الاستعماري في الشرق الاوسط يوم أعلن تاميم شركة قناة السويس ... وتعبيرا عن ارادة مصر وجميع العرب ، حمل عبد الناصر ، رئيس جمهوريتنا المتحدة اليوم لواء النضال ضد الاحلاف الاستعمارية وتجاوبا مع ارادة الشعب ، كان عبد الناصر من اول المسئولين العرب الذين اكتشفوا بثاقب نظرهم وبوحي وطنيتهم وعدائهم للاستعمار ، اهمية الصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفييتي ..

((لقد زحفت الجماهير لتعبر لرئيس جمهوريتها لا عن حبها وتقديرها فقط ، بل لتعلن التفافها حول الجمهورية العربية المتحدة واستعدادها لكل نضال ولكل تضحية ولكل مشقة في سبيل حمايتها وصيانتها)) (١)

وأعداد جريدة الحزب الشيوعي في سوريا مليئة وفي كل يوم ، بالهجوم على اذاعات لندن وواشنطن واسرائيل ، وانقرة وبغداد وعمان ، (التي تسعى للنيل من الجمهورية العربية) ، وعن المؤامرات التي يدبرها الاستعمار (لتحطيم البناء الجديد الذي اقمناه) ، ومليئة بحث الشعب على الالتفاف حول الجمهورية العربية المتحدة ، (وحول السياسة التي أعلنها المسئولون فيها) الخ .. كما ان تعليقات الصحيفة الشيوعية الرسمية على خطابات عبد الناصر التي كانت تحتل صفحاتها البارزة كانت فعلا بمثابة قطع أدبية رائعة ، ولا يستطيع الانسان الا أن يعجب هنا بالقدرة الفائقة على تسخير الادب لمقتضيات تكتيك الظهور بمظهر اخلص دعاة الوحدة

ولنستمع الى هذا التعليق على خطاب للرئيس جمال عبد الناصر القاه في دمشق يوم ٢٨ شباط ١٩٥٨ ونشرته جريدة (النور) في عددها الصادر بهذا التاريخ بعنوان : (قنبلة) .

((تكلم العنفوان حينما تكلم الرئيس جمال عبد الناصر امس ..

((عاد من خط النار وهو شعلة من ايمان وحماسة ، ثم تكلم ، فاذا المذياع يهتز تحت وطأة

---

(١) : جريدة النور — عدد ٦٢٥ ، ٢٢ شباط ١٩٥٨

(١) : جريدة النور — الافتتاحية ، عدد ٦٢٨ ، ٢٦ شباط ١٩٥٨ *

نبرته الغضوب، وتتحول كلماته في لحظة الى سياط تلهب رءوس الخيانة في بغداد وعمان، وتقرع مسمعهم بالكلمة القاطعة يلفظها شهم في وجوه خونة .

((ولقد شعرت وأنا أراه يضع اصبعه في عيون عملاء الدولار والاستعمار ببغداد وعمان ، ويسميهم باسمائهم الشوهاء ، ويترك لشعوبهم ان تحاسبهم على ما اقترفوا من اثم وشر وخيانة ، انني اشاهد عملاقا من نسيج الاساطير ، يفتح الاقفاص لاسوده المحتبسة ليلقي اليها بطعام يومها المفضل ، فـلا عجب أن نسمع في وقت قريب ، زئير الرجـال في البلدان الشقيقة ، حول وليمة لن يبقى فيها من زمان الاستعباد والاستبداد سوى فتات ..

((ان خطاب الرئيس جمال عبد الناصر امس ، قد القى بالخونة الى ساحة الاسود ، وبدأت معركة جديدة من معارك القومية العربية بوجه اعدائها في الداخل والخارج ، وانها لمعركة انتصار ، ضفر لها التاريخ امس اكليل غار .))

هل يصدق من يقرأ مثل كل هذا الكلام ، ان هذا الموقف تلاؤم ظرفي تكتيكي املته ظروف معينـة لا ايمان مخلص ثابت ؟

هل يصدق من يقرأ مثل كل هـذا الكلام ، ان الشيوعيين قد انقلبوا بعد اشهر معدودة فقط الى شن أشرس هجوم على الجمهورية العربية المتحدة في صحفهم ومنشوراتهم وبكل وسيلة ، وان هـذا الاعجاب الكبير بجمال عبد الناصر قد طوي نهائيا في أشرس وأرخص حملات الدس والشتم التي لم تستطع أن تباريها اذاعات الاستعمار وعملائه التي تكلموا في هذه الفترة طويلا عنها ؟

لنتذكر هذه المواقف والاقوال جيدا الآن، ولنترك حكمنا عليها لفترة قريبة قادمة ، فبعـد بضعـة شهور قامت ثورة ١٤ تموز ، وكان للشيـوعيين موقف طويل ..

* * *

ومن الهام أن نذكر هنا ، ان الشيوعيين في هذه الفترة ، نوهوا اكثر من مرة الى ان تحقيق الوحدة او الاتحاد مع العراق يجب أن يكون الخطوة الثانية في توسيع نواة الوحدة حالما يتحرر العراق من الحكم الاسود الذي كان يرزح تحت وطأته .

فمنذ عام ١٩٥٦ ، كانت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان قد تبنت هذا الموقف ونصت عليه مقررات اجتماعها المنعقد في نيسان وايار عام ١٩٥٦ حيث قالت :

((ولا ريب أن نجاح الشعب العراقي الشقيـق في نضاله الشاق لتحطيم حلف بغداد ، والخلاص من الاحتلال الاجنبي ، سيزيل عائقا كبيرا من طريق التعاون العربي ويفتح السبيل للسير بخطى اسرع نحو **الوحدة العربية الشاملة**)) (١) وعاد الحزب الشيوعي في سوريا فأكد هذا الموقف مرة اخرى في جريدته الرسمية – النور – في اذار ١٩٥٨ **اي بعد مرور قـرابة شهرين على اعلان قيـام وحـدة مصر وسوريا** ، حيث جاء في افتتاحيـة جـريدة النور بعنوان (الشعب العـراقي يتحفز للمعركة الفاصلة ضد عملاء الاستعمار) ، ما يلي :

((لقد شجب الوطنيون العراقيون حمـلات نوري السعيد ومؤامراته ضد الجمهورية العربيـة المتحدة ، وابانوا أن شعب العراق لن يسمـح للمستعمرين بان يتخذوا من العراق منطلقا للهجوم على الجمهورية ، بل هو مستعد لتحطيم كل يـد تمتد اليها بالاذى . وطالبوا بالاتحاد مع الجمهورية تحقيقا للوحدة العربية)) (٢) .

* * *

اما بالنسبة للبنان ، فقد كان موقف الشيوعيين يؤكد بشدة على أن السياسة الوحيدة السليمة التحررية التي يجب أن ينتهجها لبنان تقاس في مدى انسجامها وتجانسها . مع سياسـة الجمهورية العربية المتحدة ، وفي مدى عمل حكومة لبنان على تنمية الروابط السياسية والاقتصادية والثقافيـة معها والسير في طريق تضامن عربي حقيقي واياها.

ففي آذار ظهرت افتتاحية النور بعنوان « لبنان العربي » وذلك بمناسبة مجيء الوفود العربيـة من لبنان احتفالا وتهنئة بقيام الجمهورية العربية المتحدة تقول :

« أثبت لبنان بوفوده العديدة الكبيرة التي زحفت الى دمشق لاعلان تأييدها لقيام الجمهورية العربية المتحدة وتهنئة رئيسها جمال عبد الناصر ، أنه بلد عربي قلبا ودما وروحا ... واتفقت هذه الالوف التي

---

(١) : قرارات اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان في دورتها المنعقدة في ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ نيسان و ٦ ، ٧ ايار ١٩٥٦ ، والتي صدرت في كراس « نحو افاق جديدة » المذكور سابقا – ص ١٩ .

(٢) : جريدة النور – عدد ٦٤٧ ، ٢١ اذار ١٩٥٨ .

تمثل الشعب اللبناني أصدق تمثيل على تأييد ودعم الجمهورية العربية المتحدة التى ستكون بسياستها العربية التحررية وجرأتها فى الوقوف فى وجه الاستعمار وعملائه ومؤامراته حصنا للسلام فى هذه البقعة من العالم ، ومركز اشعاع يلتف حوله العرب فى كل مكان .. وتدل حوادث التاريخ ، ولا سيما حوادث السنين الاخيرة ، ان سياسة لبنان الرسمية كانت دائما تبتعد عن العروبة وتجنح الى التنكر للعرب كلما وقعت هذه السياسة تحت سيطرة الاستعمار .(١)

كذلك أعلن « انطون ثابت » رئيس وفد انصار السلم فى لبنان الذى قابل الرئيس عبد الناصر مهنئا بالوحدة : « .. نحن واثقون يا سيادة الرئيس ، بأن الجمهورية العربية المتحدة وليدة القومية العربية الصاعدة ستكون قلعة منيعة للسلم ، وصخرة صلبة تتحطم عليها مشاريع الاستعمار وأحلافه .. ونحن واثقون أيضا ، أن الجمهورية العربية المتحدة ستكون درعا يقى لبنان عوادى الاستعمار ومشاريع الحرب والدمار .. واننا على ثقة بأن الجمهورية العربية المتحدة ستشكل تحت قيادتكم الرشيدة قوة دولية كبرى تلعب دورها فى الحفاظ على حياد وأمن وسلامة وطننا العربى ، وفى تحقيق رغبات وآمال شعوب آسيا وافريقيا فى الحرية والسلام ... »

أى ، أن الحزب الشيوعى فى سوريا ولبنان ،كان يعتبر فى دعايته على الاقل :

أن تحرر العراق هو خطوة لتحقيق الاتحاد مع الجمهورية العربية المتحدة تحقيقا للوحدة العربية الشاملة » .

وأن سياسة لبنان لا تتنكر للعروبة الا حين تكون واقعة تحت سيطرة الاستعمار .

لنتذكر هاتين الحقيقتين ، فسنرى بعد شهور معدودات كيف حول الشيوعيون العراق الى قاعدة لمحاربة كل خطوة نحو الوحدة العربية بعد تحرر العراق . وكيف تحولوا فى لبنان الى دعاة الكيان اللبنانى الخالد ، وراحوا يحشون أذهان الناس بأكذوبات ضخمة حول : المؤامرات التى تدبرها الجمهورية العربية المتحدة ضد العراق ولبنان !

سنتوقف الان عند هذا التاريخ ونترك الحزب الشيوعى فى سوريا ولبنان فى أوج حماسته وتأييده للوحدة وللجمهورية العربية المتحدة ، لنلتقى به بعد قليل فى أوج محاربته وتآمره ضد الوحدة والجمهورية العربية المتحدة .

يهمنا ان نسجل فى هذه الفترة ، كما تدلل وثائق الشيوعيين :

١ ـ ان الحزب الشيوعى فى سوريا ولبنان حاول حرف اتجاه الوحدة بتقديم مشروع ممسوخ لايمكن بحال من الاحوال أن يسمى اتحادا فيدراليا ، وان الحزب عاد وتراجع عن موقفه هذا تحت ضغط الوعى القومى الشعبى الوحدوى .

٢ ـ ان الحزب الشيوعى فى سوريا ولبنان قد أيد « الاتحاد » ، لانه سيحقق تلك المكاسب السياسية والاقتصادية والاجتماعية الضخمة التى عددها بيان اللجنة المركزية الصادر بتأييد « الاتحاد » .

٣ ـ أن الحزب الشيوعى قد أيد الوحدة بين مصر وسوريا فى منشوراته وصحفه لفترة بعد قيامها واعتبرها رمز كفاح العرب وقلعة النضال التحررى والخطوة الاولى نحو الوحدة الشاملة ، وانه استمر فى هذا الموقف طيلة هذه الفترة بعد قيامها .

٤ ـ وانه طيلة هذه الفترة لم يعتبر ان أيه ملاحظات حول هذه الوحدة يمكن أن ترتفع فى أهميتها الى مستوى الوحدة نفسها ، وانه صرح مرارا أن هذه الملاحظات لا يمكن أن تقف عائقا أمام العمل على توطيد كيانها .

٥ ـ انه حتى هذه الفترة ورغم مضى مدة عملياً بالوحدة كان يدعو ـ دعاويا ـ الى الاتحاد والوحدة بين الجمهورية العربية المتحدة وبين العراق

* * *

أما الحركة الشيوعية فى مصر ، فلنا عندها وقفة طويلة .

فهذه الحركة المرائية التى عاشت معزولة تماما عن تطور حركة العرب القومية ، والتى لم تكتشف وجود أمة عربية واحدة الا منذ مدة وجيزة جدا ، كانت أكثر الاحزاب الشيوعية تاييدا للوحدة فى فترتها الاولى ، واستقبلتها بحماس فاق كثيرا حماس الاحزاب الشيوعية فى سوريا ولبنان والعراق ، وأتقنت أكثر منها كلها ارتداء قناع الدجل الرخيص الكاذب .

ولنقرأ بروية هذه الاقوال :

(١) : جريدة النور ـ عدد ٦٢٣ ، ٤ اذار ١٩٥٨ م

في ٢٧ كانون الثاني ١٩٥٨ أصدر المكتب السياسي للحزب الشيوعي المصري بيانا بعنوان : « بيان الى الشعب عن الوحدة المصرية السورية » جاء فيه :

« أيها المواطنون ..

« في هذه الايام المجيدة تحرز بلادنا العربية انتصارا جديدا بتحقيق هدف من أكبر أهدافنا هو الوحدة بين مصر وسوريا ..

« فهذه الوحدة وان تكن وحدة بين بلدين عربيين الا أنها تعبير عن إرادة الملايين من شعوب بلادنا العربية جميعا ، وهي ثمرة لنضالها ، وتدعيم للانتصارات والمكاسب التي ساهمت جميعا في تحقيقها وهي كذلك نقطة انطلاق نحو التحرر الكامل والوحدة الشاملة لقوميتنا العربية .

« ولقد حملنا نحن الشيوعيين المصريين راية القومية العربية (!) ودعونا الى تحقيق الوحدة بين مصر وسورية (!) .. معبرين عن ارادة شعبنا المصري ومصالحه الحيوية ، مدركين ادراكا علميا واعيا أن هذه الوحدة هدف رئيسي من أهداف نضالنا الوطني ..

« ان الوحدة بين مصر وسوريا ، وحدة حقيقية لانها وحدة متحررة ، وحدة بين بلدين مستقلين . وهي وحدة تدعم هذا الاستقلال وتثبته وتدفعه الى الامام ، وتحمي مصر وسوريا معا من مؤامرات الاستعمار ومشروعاته العدوانية والاستغلالية .

« انها وحدة ضد حلف بغداد وقواعده النووية والصاروخية ، وحدة ضد اسرائيل صنيعة الاستعمار والصهيونية ، وحدة ضد مشروع ايزنهاور ، وحدة ضد القوى الرجعية في بلادنا العربية من عملاء الاستعمار وحكامه وبقايا الاقطاع والاحتكار .

« انها وحدة الشعبين المصري والسوري في نضال شعب الجزائر وشعب عمان ، واعادة عرب فلسطين الى أرضهم المغتصبة . وهي اطلاق قوى الشعبين وتجميع طاقاتهما من أجل رفع مستوى المعيشة وتخطيط الاقتصاد وتطويره ، وتنمية الثقافة الوطنية والشعبية ، انها وحدة تتدعم بها شعوب آسيا وافريقيا ، يتدعم بها النضال المشترك بين الشعوب الوطنية والاشتراكية ، انها وحدة من أجل السلام والتعايش السلمي والتقدم .

« .. هذا هو مضمون الوحدة المصرية السورية كما يراها حزبنا الشيوعي المصري ، انها تدعيم لكل انتصاراتنا ومكاسبنا السابقة ، وانطلاق جبار نحو مزيد من الانتصارات والمكاسب ».

« والمكتب السياسي للحزب الشيوعي المصري يعلن تأييده لهذه الوحدة تأييدا صادرا عن وعي واقتناع وثقة ، ويهنىء بها الشعب المصري والسوري وبقية الشعوب العربية .

«.. أيها المواطنون .

« ان المكتب السياسي للحزب الشيوعي المصري يهيب بكم جميعا أن تبذلوا لقضية الوحدة المصرية السورية ما تستحقه من عناية وجهد . ان هذه الوحدة هي جوهر معركتكم مع الاستعمار ، انها جوهر معركتكم من أجل تدعيم استقلالنا وتطويره» انها جوهر نضالكم من أجل رفع مستوى معيشتكم وحماية سلام العالم » .

والبيان طويل جدا ..

وبعد ذلك بأيام ، وفي يوم اعلان الوحدة ، أصدر « الحزب الشيوعي المصري » بيانا الى الشعب بعنوان : « عاشت الجمهورية العربية المتحدة » .. لنسمع ما يقول فيه :

« أيها المواطنون الاعزاء ، اليكم أيها المواطنون يزف الحزب الشيوعي المصري تهنئته الحارة بهذا العيد العظيم ، عيد مولد الجمهورية العربية المتحدة، عيد القومية العربية المنتصرة ..

« وعيد الجمهورية العربية المتحدة ، هو في الوقت ذاته عيد البشرية التقدمية كلها ، وثمرة من ثمرات كفاحها . وهو عيد الشعوب المكافحة ضد الاستعمار وضد تجار الحروب ، لان دولة قوية ومستقلة قد ولدت وقامت في الشرق الاوسط ، في آسيا وافريقيا، لتعزز كفاح الشعوب ضد الاستعمار ، لتجمع الامة العربية وتلهمها الكفاح من أجل السلام والاستقلال والوحدة العربية .

« أيها المواطنون الاعزاء .. في تاريخنا العربي المشترك انتصارات حققناها ومعارك كسبناها . ولكن وحدة مصر وسوريا بداية عهد جديد ، بداية تحولات كبرى لم يعرفها تاريخ العرب من قبل . ذلك لان الجمهورية العربية المتحدة تقوم لتضعف نظام الاستعمار في العالم كله وتهدد كيانه ، وتساعد شعوب العالم على تصفيته تصفية نهائية .. ان جمهوريتنا العربية المتحدة تقوم لتجمع القوى الوطنية والديمقراطية ، وتنظم الموارد البشرية والاقتصادية في مصر وسوريا ، ولتبني مجتمعا يتحقق فيه الرخاء والديمقراطية للشعب العربي الكادح ، مجتمعا يستهدف بناء الاشتراكية .. »

وبعد أن يتحدث عن مؤامرات الاستعمار ضد الوحدة ينتهي البيان بالقول :

« ... ان ردنا على مؤامراتهم الدنيئة هو المزيد من اليقظة والحذر ، المزيد من الوحدة والتضامن بين الشعب والحكومة الوطنية ، المزيد من الجهود للقضاء على آثار الاستعمار .

« تحية اليك أيها الشعب في عيد وحدتك المقدسة ، تحية اليك في عيد انتصارك القوى .. »

وبعد ذلك بايام ، في يوم ظهور نتيجة الاستفتاء الشعبي على قيام الجمهورية العربية المتحدة على أساس الوحدة وانتخاب جمال عبد الناصر رئيسا للدولة الجديدة ، أصدر الحزب الشيوعي المصري منشورا يهنيء فيه الشعب بهذه النتيجة جاء فيه :

« اليوم وقد أعلن الشعب العربي في مصر وسوريا عن ارادته ، اليوم وقد ولدت الجمهورية العربية المتحدة بارادة الملايين من أبناء مصر وسوريا وانتخب الرئيس جمال عبد الناصر أول رئيس لها باجماع رائع ..

« اليوم يزف الحزب الشيوعي المصري احر التهاني الى الشعب العربي في اقليمي مصر وسوريا ، بل والى الشعب العربي المتطلع الى الوحدة الشاملة في كل أرجاء الوطن العربي العظيم .. نزف احر التهاني الى جميع الوطنيين والشيوعيين العرب الذين توجت هذه الوحدة الخالدة كفاحهم المجيد (١) .. » .

وفي نفس هذه الفترة ، نشرت صحيفة « اتحاد الشعب » السرية (لسان حال الحزب الشيوعي المصري) مقالا طويلا عن الوحدة بين مصر وسوريا قالت فيه أن هذه الوحدة « تحقق في الواقع مايلي » : (١)

« ١ — أنها توحد جهود شعبين متحررين من النفوذ الاستعماري ضد الاخطار المحتملة .

« ٢ — أنها تفشل الخطة الامريكية التي ترمي الى تفتيت الصف العربي وعزل كل دولة والانفراد بها لتحطيمها .

« ٣ — أنها تقيم دولة كبرى ضد التوسع الصهيوني ..

« ٤ — ستكون الجمهورية العربية المتحدة مركزا قويا لكافة القوى الوطنية التي تكافح من أجل الاستقلال والحياد والوحدة العربية ..

« ٥ — ان كفاح حكومتي مصر وسوريا لتحرير الاقتصاد القومي في كل منهما من النفوذ الاجنبي ولتصنيع البلاد ، والنجاحات التي تحققت في مصر وسوريا بعقد اتفاقيات التصنيع مع الاتحاد السوفييتي ، وتجمع طاقات البلدين — كل هذا — يسرع بتحقيق الاستقلال الاقتصادي وهو الشرط الجوهري لصيانة الاستقلال السياسي .. »

وفي نفس هذه الفترة نشرت صحيفة « صوت الشعب » السرية لسان حال منظمة « طليعة الشعب الديمقراطية » (٢) مقالا بعنوان « الوحدة بين مصر وسوريا » جاء فيه : (٣)

« ... لقد تميزت السنوات الاخيرة من كفاح الشعوب العربية ضد الاستعمار باقترانها بمطلب الوحدة .. وخلال نضالها هذا كانت تصطدم مع الرجعيين وعملاء الاستعمار اذ أن مطلب الوحدة كان يرعب الاستعمار وعملاءه على السواء .

« ان هدف الشعوب العربية من الوحدة هو تعبئة كل الامكانيات المادية والبشرية للصمود في وجه المؤامرات الاستعمارية .. واذا كان مؤتمر الشعوب الاسيوية الافريقية المنعقد اخيرا في القاهرة تعبيرا واضحا عن رغبة هذه الشعوب في السلام والتخلص من الاستعمار .. فان حضور هذه الوفود دليل واضح على رغبة الشعب العراقي والاردني واللبناني في الوحدة مع أشقائه المصريين والسوريين .. »

لنعترف ، ان هذه البيانات والمنشورات ترحب بالوحدة بلهجة لا تقل حرارة عن استقبال القوميين الوحدويين لها .. ترى لو حاول أي قومي عربي مخلص أن يكتب عن الوحدة ، هل كان باستطاعته أن يكتب أكثر من هذا !!

ولنعترف أيضا ، ان هذه التحليلات لعمق الانقلاب الذي ستتمخض عنه الوحدة وضخامة النتائج التي ستترتب عليها ، هي فعلا تحليلات قيمة وصحيحة .

لنعترف بذلك ، ولنتذكر ذلك ... بدقة ..

---

(١) : اتحاد الشعب ، العدد الاول ، شباط (فبراير) ١٩٥٨ — ص ٥ .

(٢) : « طليعة الشعب الديمقراطية » احدى الفرق الشيوعية في مصر ، كانت « تتحالف » مع منظمة شيوعية اخرى هي « وحدة الشيوعيين المصريين » وتصدران نشرة مشتركة باسم « التنظيم الشيوعي » ، وهاتان المنظمتان تأتيان من حيث الحجم والقدرة بالنسبة للحزب الشيوعي المصري ، وهما تمثلان الخط الأكثر تطرفا في معاداة الوحدة .

(٣) : صوت الشعب — العدد التاسع ، السنة الاولى — ١ شباط (فبراير) ١٩٥٨ .

بل ان الحركة الشيوعية في مصر لم تقتصر في اتفاقها على هذا التأييد الحار للوحدة ، بل تصدت كذلك للانتقادات المغرضة التي حاول البعض آنذاك ان ينالوا بها من الوحدة وهاجمتها !

فماذا عن القول بأن الوحدة ستضر بالمصالح الاقتصادية للشعب العربي في سوريا ؟

انها اشاعات من عمل الاستعمار والحاقدين على الوحدة . ومرة أخرى لنقل ان الشيوعيين في مصر أصابوا كبد الحقيقة في هذا التحليل :

ففي شباط (فبراير) ١٩٥٨ أصدر الحزب الشيوعي المصري بيانا مطولا بعنوان :

« بيان من الحزب الشيوعي المصري عن الوحدة السورية المصرية » جاء في قسم فيه بعنوان«وسائل الاستعمار في اضعاف وحدة الجمهورية الجديدة » « ص ٣ » :

« يستخدم الاستعمار العالمي بقيادة أمريكا بجميع الوسائل التي ترمي الى اضعاف القومية العربية وتأخير اندفاع الجماهير العربية في طريق الوحدة . وهذه المؤامرات توجه من خارج البلاد العربية ومن داخلها سواء بسواء . »

وبعد أن يتحدث البيان عن المؤامرات الخارجية التي تدبر ضد الوحدة ينتقل الى المؤامرات الداخلية فيقول :

« وفي الوقت ذاته لم تقف قوى الاستعمار والرجعية عند حد التفريق بين الشيوعيين وبقية الوطنيين العرب ، بل انها بدأت تثير الذعر بين الطبقة الرأسمالية الوطنية في مصر وبين مثيلتها في سوريا . ومن هنا راحوا يشيعون في مصر ان الوحدة ستصيب بالخراب صغار التجار ومتوسطيهم .وبأن التجار المصريين سيكونون تحت رحمة التجار السوريين . وأشاعوا بأن الرأسمالية المصرية ـ وهي الرأسمالية الاقوى ـ ستزحف على سوريا لتستعمر وتستنزف دماء الشعب العربي في سوريا ، وانها تمهد لذلك بالقضاء على الحريات الديمقراطية وتشديد الكبت ضد الحزب الشيوعي السوري متعاونة في ذلك مع الرجعية السورية . »

لنقرأ هذا النص مرة اخرى ولنتذكره بدقة .

وايضا .. ماذا عن « الديمقراطية » التي بدأ يتبجح بها بعد ذلك الشيوعيون العراقيون والسوريون واللبنانيون والمصريون وهم يتطلعون بعين الاعجاب الى ديمقراطية أعواد المشانق في الموصل وكركوك ، وأقاليم السحل في كل ناحية في العراق ؟

لنسمع ما قالوا بصدد هذه القضية التي أصبحت قميص عثمان الذي يختفي تحته التآمر على الوحدة :

« .. ولكن هل تعني معارضتنا في حل الاحزاب أن مستقبل الديمقراطية مظلم في الجمهورية العربية المتحدة ؟ كلا . لانه لا يجب أن ننظر الى مستقبل التطور الديمقراطي من زاوية وجود الاحزاب وحدها ، وانما يجب أن ننظر الى المسالة من زاوية :

١ ـ ان القوى الشعبية والوطنية ستلتقي في الدولة الواحدة وتتجمع وتناضل بكيفية فعالة من أجل توسيع الحريات الديمقراطية وتدعيمها .

٢ ـ وان السياسة الوطنية التحررية السائدة في الجمهورية العربية المتحدة موجهة لاضعاف النفوذ الاستعماري وتصفيته . وهذا يخلق الظروف الملائمة لتطور الديمقراطية كما تخلقها السياسة التقدمية التي ترمي الى تصفية الاقطاع وتصنيع البلاد وتطوير الزراعة فيها .

« واذا نظرنا بعد ذلك الى الوحدة السورية المصرية في تطورها التاريخي قلنا ان هذه الوحدة ستدفع قضية التطور الديمقراطي دفعات قوية الى الامام ..

« .. ويجب علينا ـ في الوقت نفسه ـ أن نحذر من أن تنحرف بقضية الوحدة وتدعيمها الى وضع مسألة الاحزاب في مركز الاحداث ، فان المهمة الرئيسية هي في الدفاع عن الوحدة الوليدة وحمايتها والتوعية لاهميتها العظمى ورفع الشعارات التي تؤدي الى تطويرها لمصلحة الشعب . » (المصدر السابق نفسه : « بيان من الحزب الشيوعي المصري عن الوحدة السورية المصرية ـ قسم : وسائل الاستعمار في اضعاف وحدة الجمهورية الجديدة ـ ص ٧ ») .

ولم تكن هذه هي المرة الوحيدة التي أعلن فيها الشيوعيون في تلك الفترة أن تأييد قيام الوحدة هو الواجب الاول الذي يجب أن يرتفع فوق كل قضية أخرى .

ففي ١٠ شباط (فبراير) ١٩٥٨ ، أصدر « مكتب العمل الجماهيري في السكرتارية المركزية للحزب الشيوعي المصري » نداء أو توجيها داخليا لاعضاء الحزب بعنوان : « تقدموا الصفوف الوطنية في معركة الوحدة العربية » وقد فسر المكتب السياسي

الحزب الشيوعي أسباب صدور هذا التوجيه بقوله: « لاحظ المكتب السياسي في اجتماعه الاخير أن أقساما هامة من الحزب لم تشترك اشتراكا فعالا في المظاهرات والتحركات التي أعقبت اعلان الوحدة بين مصر وسوريا • وقد علل بعض الرفاق هذا الموقف بقولهم أن البيان الذي أصدره الحزب تأييدا للوحدة هو بيان « يميني » لانه لايتحدث الا بكيفية عابرة عن مسألة الاحزاب في سوريا ، وركز بعض الرفاق الآخرون اهتمامهم على موضوع الحريات الديمقراطية والخطر الذي يهددها في سوريا •• »

ثم يناقش « مكتب العمل الجماهيري في السكرتارية المركزية » هذا الاتجاه محددا موقف الحزب فيقول :

« ولكن ، هل القضية الكبرى هي قضية حل الاحزاب في سوريا ؟ كلا ، القضية الكبرى هي أن تنجح الوحدة السورية المصرية وتنشأ قوة سلام في منطقة الشرق الاوسط •

« هل الاصح أن نركز كل جهودنا في نقد حل الاحزاب والنظر الى الوحدة من هذه الزاوية ؟ كلا • أن الموقف الاصح هو أن نستفيد من المد الثوري الذي أحدثته الوحدة واقترن بها وأعقبها ••

« وهكذا نرى انه من الخطأ ان نحصر موضوع الوحدة في هذه الزاوية الضيقة : زاوية حل الاحزاب ان الاصح هو أن نضع قضية انجاح الوحدة وحمايتها فوق كل قضية داخلية •• ان الموقف الصحيح الذي يخدم قضية الديمقراطية نفسها ، هو أن نحرك أوسع الجماهير من أجل حماية الوحدة وانجاحها •• »

« أيها الرفاق :

« تقدموا الصفوف في معركة التحرر العربي ، ارفعوا لواء الوحدة العربية من أجل السلام والديموقراطية والرخاء ، أيدوا الوحدة في كافة المجالات وبكافة الاشكال • افضحوا كل المناورات التي تريد اظهار الشيوعيين بمظهر معاد للوحدة سواء في مصر أو في سوريا •• »

هذا هو بالحرف الواحد موقف الشيوعيين في مصر من قضية الاحزاب والوحدة •• موقف واضح صريح لا لبس فيه ولا أبهام • ونحن الآن في فترة ما بعد قيام الجمهورية العربية المتحدة ، والحزب الشيوعي المصري يظهر بمظهر المؤمن المتطرف بالقومية العربية الواحدة •• الداعي المتطرف للوحدة العربية (١٥) المحامي المخلص للجمهورية العربية المتحدة !

واستمر هذا الموقف الحار •

ففي ٢ اذار « مارس » ، نشرت « صوت الشعب » (لسان حال طليعة الشعب الديمقراطية) مقالا حول وحدة مصر وسوريا والاتحاد الهاشمي المزيف المنهار ومؤامرات الاستعمار ضد الوحدة جاء فيه : (١)

« لم يقف الاستعمار مكتوف اليدين ازاء الوحدة المصرية السورية ، فتحرك سريعا ليكتل كل القوى الرجعية في المنطقة ليستند اليها لكي يداوم استمرار نفوذه واستغلال الشعوب العربية واخضاع اقتصادها لسيطرته •• تحرك الاستعمار سريعا وأخرج من أدراجه المشروع القديم للوحدة بين العراق والاردن ووضعه موضع التنفيذ ، وأطلق على هذه الوحدة الخاضعة لنفوذه (الاتحاد العربي) ، ثم حرك رجاله في العراق والاردن ليتفاوضوا مع باقي الحكام العرب الرجعيين خدم الاستعمار ، فسافر الرفاعي الى المملكة العربية السعودية للتفاوض مع الملك سعود ، لكي يدخل في هذا الاتحاد الذي لا يعني أكثر من التكتل ضد الوحدة المصرية السورية ، ومناهضة حركة التحرير الصاعدة في الشرق العربي واخضاعها للنفوذ الاستعماري الاقطاعي •• ان التآمر الاستعماري بدأ فورا وعقب اعلان الوحدة ، وليست صدفة أن يعلن ذلك الاتحاد العربي عقب اعلان الوحدة المصرية السورية مباشرة ••

« ان الاستعمار ما زال يرتكز في الشرق العربي على ركائز قوية •• وسيعمل متعاونا مع الحكام الخونة لاستمرار السيطرة على شعوب المنطقة وللتآمر على الجمهورية العربية المتحدة بنفس الجنون والهوس الذي كان يحارب به مصر وسوريا قبل الوحدة •

« فوحدة مصر وسوريا هي القفزة الوحدوية التحررية الثورية الضخمة التي يحشد الاستعمار وأعوانه الرجعيون كل قواهم لمحاربتها ومحاولة تهديمها • »

وفي ١٥ آذار (مارس) كتبت اتحاد الشعب (لسان حال الحزب الشيوعي المصري) افتتاحية ملتهبة حول وحدة مصر وسوريا والمعاني الثورية للجمهورية العربية المتحدة وهاجمت الاستعمار بوصفه عدو الوحدة اللدود :

(١) : صوت الشعب — العدد ١١ — السنة الاولى ٢٠ آذار (مارس) ١٩٥٨ •

« ... والمنطقة المتحررة هي الجمهورية العربية المتحدة • انها المنطقة المتحررة من ارض الوطن العربي الكبير • انها الدولة الوحيدة من بين جميع الدول العربية التي تتمتع باستقلال حقيقي وحرية حقيقية • انها الدولة الوحيدة التي لا سيطرة لاستعماري دخيل أو لاقطاعي رجعي على مصائرها •

« بل ان جمهوريتنا الوليدة هي أكثر من هذا •

« انها قلعة الحرية في الشرق العربي • انها المنارة التي تتطلع اليها الشعوب العربية المكافحة • انها المثل والامل • انها اليد الرحيمة التي أنقذت جميلة، وهي اليد القوية الممدودة بالسلاح للمجاهدين في جبال أطلس، انها مأوى المكافحين الذين شردهم نوري السعيد وسمير الرفاعي وسعود بن عبد العزيز ، وهي القاعدة التي تنطلق منها القذائف لتردي جنود الاستعمار في صحراء عمان • انها صوت العرب الاحرار في كل مكان • انها دعوة للكفاح في كل ركن من أركان الوطن العربي • ان مجرد وجودها دعوة لشعب العراق لكي يثور ويحطم أغلال حلف بغداد ، ودعوة لشعب الاردن لكي يثور ويحطم مشروع ايزنهاور ، ودعوة للشعب العربي في الجزيرة لكي يثور ويحطم قاعدة الظهران • وهي دعوة للعرب في كل هذه البلاد لكي يسقطوا حكامهم الخونة والرجعيين وينضموا الى موكب التحرر في الجمهورية العربية المتحدة •

« لكل هذا ، لم يكن غريبا أن يتضاعف حقد الاستعمار على جمهوريتنا ، على أرضنا المتحررة • فجمهوريتنا هي الشوكة في جنب الاستعمار، وهي الضوء الكاشف لمؤامراته ، واليد الضاربة لاوكاره ، والقوة الباطشة بعملائه • ويفرز الاستعمار حقده على جمهوريتنا في مؤامرات تتتابع بعدد الايام ، ولو استطاع لجعلها تتتابع بعدد الدقائق واللحظات ... »

وهذه القطعة الادبية الرائعة في التغزل بالجمهورية العربية المتحدة ، طويلة جدا ..

لقد اطلعنا على معظم ما كتب في استقبال قيام أول وحدة للعرب بين مصر وسوريا ، والواقع اننا لم نجد ما يضاهي هذا المقال • ولنعترف بصراحة • انه لولا النشرة التي تحمل اسم الحزب الشيوعي المصري بما لا يدع مجالا للالتباس ، لحسبنا أن هذا الوصف كتبه أديب قومي ثوري في احدى سويعات انفعال وجداني عميق بهذا الحدث التاريخي •

وسنتوقف الان عند هذا التاريخ ، ونترك « الحزب الشيوعي المصري » في أوج تجاوبه الفكري وانفعالاته « الوجدانية » مع الوحدة والجمهورية العربية المتحدة • ويهمنا أن نسجل في هذه الفترة كما تدلل الوثائق :

١ ـ أن الحزب الشيوعي المصري ، قد أيد وحدة مصر وسوريا تأييدا حارا لانها ذات محتوى تقدمي داخلي وخارجي واضح •

٢ ـ لان هذه الوحدة ، كما يدل اتجاهها ، ستحقق لشعب الجمهورية وللعرب عامة مكاسب سياسية واقتصادية واجتماعية ضخمة عددتها المنشورات والصحف الآنفة الذكر بتفصيل •

٣ ـ أن الوحدة هي القضية التي يجب أن ترتفع فوق كل قضية عداها ، وهي مركز الاحداث ، ومهما كان لدى البعض من ملاحظات حول شكلها فيجب ألا توضع هذه الملاحظات في مستوى قيام الوحدة ، كما انها لا يجوز أن تؤدي الى اغفال الواجب الاول المطروح وهو : الالتفاف حول الجمهورية الجديدة وتدعيمها وحمايتها •

٤ ـ أن محاولات التشكيك الاقتصادي والسياسي واثارة البلبلة والمخاوف ، هي كلها ، مؤامرات يديرها الاستعمار ضد الوحدة التي قامت •

لنتذكر هذه الحقائق لنرى كيف انقلبت الى النقيض بعد شهور معدودة •

* * *

أما الحزب الشيوعي في الاردن ، فلم يشذ ايضا عن القاعدة • لقد كان التظاهر بتأييد الوحدة والايمان بها تخطيطا عاما للاحزاب الشيوعية كما يبدو (باستثناء أحزاب المغرب) •

ففي ٣ نيسان ١٩٥٨ نشرت القيادة المركزية للحزب الشيوعي الاردني مقالا افتتاحيا هاما في العدد الثالث من نشرة « المقاومة الشعبية » التي يصدرها الحزب بمناسبة مرور عام على النكسة الرجعية الاستعمارية في الاردن ، يهمنا منه في هذا الصدد تأييده للجمهورية العربية ودعوته للاتحاد معها • تقول النشرة منددة بالحكم في العراق والاردن وبالاتحاد الهاشمي المنهار : (١)

« وتحت ستار الاتحاد مع العراق كبل حكام الاردن الخونة البلاد بقيود حلف بغداد ... وهم يتزعمون مع شركائهم حكام العراق حملة الهجوم الاستعمارية الوقحة على الجمهورية العربية المتحدة والتآمر عليها ...

(١) : عادت جريدة « النور » ونشرت هذا المقال في عددها : ٦٨١ بتاريخ ١٣ ايار ١٩٥٨ »

«... ولكن رغم كل اعمال القهر والارهاب والتنكيل وجميع وسائل الخداع والتضليل .. فان شعبنا الباسل بجميع فئاته واحزابه الوطنية الصادقة ما يزال صامدا مصمما تصميما اكيدا راسخا على متابعة النضال في سبيل تحقيق اهدافه في الحرية والسيادة القومية والوحدة العربية والعيش الكريم ..

.. ان مرور عام على الانقلاب الاستعماري الرجعي في الاردن مناسبة لجميع القوى الوطنية في الاردن على اختلاف اتجاهاتها وميولها السياسية والحزبية لتعزيز وحدتها وتوحيد جهودها اكثر من اي وقت مضى في سبيل متابعة النضال وتشديده من اجل تخليص الاردن من سيطرة وتحكم العملاء والاذناب .. في سبيل النضال المشترك مع الشعب العراقي الشقيق وكل الشعوب العربية من اجل التخلص من قيود حلف بغداد ومشروع ايزنهاور.. **وتحقيق الاتحاد مع دولة العرب الكبرى الجمهورية العربية المتحدة المناضلة في سبيل استقلال العرب وسيادتهم القومية ..»**

اي أن الحزب الشيوعي الاردني يعتبر ان الجمهورية العربية المتحدة مركز هجوم الاستعمار والحكام الرجعيين التي يثيرون ضدها « الحملات الوقحة » ويتآمرون عليها .

وأن الوحدة العربية هي هدف رئيسي من اهداف الشعب .

وانه يعاهد الشعب على تحقيق الاتحاد مع الجمهورية المتحدة ، « دولة العرب الكبرى » .

وطبعا، عادالحزب الشيوعي الاردني ايضاومسح كل اقواله هذه بعد بضعة اشهر كما سترى :

●

أما الحزب الشيوعي في العراق ، فلم يشذ عن هذه السياسة العامة التي ظهرت بها الاحزاب الشيوعية في تأييدها للوحدة في هذه الفترة .

ففي مؤتمر الحزب الشيوعي البلغاري المنعقد بين ٢ـ٩ حزيران ١٩٥٨ ، القى مندوب الحزب الشيوعي العراقي في المؤتمر خطابا جاء فيه :

« واليوم حيث يسود العراق ابشع شكل من اشكال الحكم الاستعماري الارهابي تناضل جميع الاحزاب والقوى المتآخية في الجبهةالوطنيةفي سبيل فك ارتباط العراق بحلف بغداد ... ومن أجل حكومة وطنية تسلك سياسة وطنية تحررية تضمن للعراق المشاركة في السياسة العربية التحررية وتفتح له طريق الوحدة العربية الشاملة ...» (١)

كذلك يؤكد الخطاب : « ان الكفاح في العراق يستمر على أساس وحدة الكفاح المشترك بين العرب والاكراد وفي سبيل التحرر والديمقراطية والوحدة . »

هذا قبل ثورة ١٤ تموز في العراق وبعد ٦ أشهر من قيام وحدة مصر وسوريا . اي ان الشيوعيين في العراق كانوا يناضلون في الجبهة الوطنية من اجل الوحدة والتحرر ، **بل وان العرب والاكراد يناضلون جنبا الى جنب من اجل الوحدة ايضا .**

وفي منشور مؤرخ في ١٤ تموز ١٩٥٨ (يقول الشيوعيون العراقيون انهم اصدروه يوم الثورة) ، ونشر في كراس اصدره الحزب الشيوعي العراقي بعنوان : « في سبيل صيانة مكاسب الثورة وتعزيز جمهوريتنا العراقية » ، يقول : « اننا نحن الشيوعيين العراقيين .. نعاهد شعبنا الابي الوفي على اننا سنمضي قدما الى آخر قطرة من دمائنا وبكل قوانا بالنضال من اجل صيانة جمهوريتنا العراقية الوطنية ، ومن اجل اجتثاث آخر بقايا الاستعمار ، وتطهير أرض الوطن الحبيب من عملائه ، وفي سبيل حياة ديمقراطية كريمة لجماهير العراق **ومن اجل الوحدة العربية** والسلم والتقدم . » (ص ٥ و ٦) .

وفي منشور مؤرخ ١٢ تموز ١٩٥٨ (تقول القيادة المركزية للحزب الشيوعي العراقي انه توجيه عام كانت قد أصدرته « لكافة منظمات الحزب » قبل الثورة بيومين) حدد فيه الحزب الشيوعي شعاراته الاساسية ، وجاء في البند الرابع منه : (١)

« ٤ ـ قيام حكومة تنتهج سياسة وطنية عربية مستقلة تدعم نضال الشعب اللبناني وسائر الشعوب العربية وتخدم السلم .. وتحول « الاتحاد العربي » الى اتحاد حقيقي بين العراق والاردن يضمن مصالح شعبينا ويخدم النضال ضد الاستعمار والصهيونية ومن أجل الوحدة العربية ، واقامة اتحاد فيدرالي مع الجمهورية العربية المتحدة . »

ومن الواضح ان الحزب الشيوعي العراقي كان يؤكد قبل الثورة وفي ايامها الاولى على شعار الوحدة العربية ، وهو حتى حين تكلم عن الاتحاد الفيدرالي

---

(١) : نشر نص الخطاب في صحيفة « اتحاد الشعب » لسان حال الحزب الشيوعي العراقي ـ عدد ٩ ـ ١٧ تموز ١٩٥٨ .
(١) : نشر في كراس « في سبيل صيانة مكاسب الثورة وتعزيز جمهوريتنا العراقية .. » ص ١١ .

لم يتكلم عنه كخطوة نهائية ، بل كخطوة في طريق الوحدة كما يدل قوله : ومن أجل الوحدة العربية٠٠
وفي ١٤ تموز أيضا ١٩٥٨ ، قدمت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي مذكرة الى عبد الكريم قاسم بوصفه رئيسا للوزارة حددت فيها الخطوات السريعه الواجب اتخاذها لصيانة الثورة في العراق ، وجاء في البند الاول منها :

« أولا ــ سياسة وطنيه واضحة وحازمة ٠ وهذا يستوجب في الظرف الراهن اعلان انسحاب العراق فورا من ميثاق بغداد ، والغاء الاتفاقية الثنائية مع بريطانيا ، واعلان الاتحاد الفيدرالي مع الجمهورية العربية المتحدة واليمن ٠ » (نشر في المصدر السابق ص ٨) ٠

وفي ١٤ تموز أيضا ١٩٥٨ ، اصدرت اللجنة المركزيه للحزب الشيوعي العراقي بيانا موجها الى الشعب جاء فيه : « ٠٠ اننا ندعو حكومتنا الى المبادرة فورا الى اعلان سياسة خارجية حازمة بالخروج فورا من ميثاق بغداد والغاء كافة الاتفاقيات الاستعباديه الاستعمارية ، والاسراع باقامة اتحاد فيدرالي مع الجمهورية العربيه المتحدة ٠ » (نشر في نفس المصدر ص ٤) ٠

كذلك رافق هذا الموقف المؤيد الذي اتخذه شيوعيو العراق من الوحدة والاتحاد ، موقف تأييد حار تجاه الجمهوريه العربية المتحدة وسياستها التحررية والمسؤولين فيها ، وكانت عبارات « شقيقتنا الكبرى الجمهورية العربية المتحدة » ، « والجمهوريه المتحدة البطلة » ، و « عبد الناصر الزعيم الوطني الكبير » الخ ٠٠ تملأ نشرات وصحف الشيوعيين وتملأ أفواه الكتاب الشيوعيين في العراق ٠

سنتوقف الآن عند هذه الفترة ٠٠ وسنعود للشيوعيين العراقيين بعد فترة من الزمن لنرى كيف مزق التكتيك المنافق الذي اتبعوه للانقلاب على الوحدة والاتحاد منشورات الايام الاوائل للثورة ٠ وكيف عادوا وأغرقوا المقالات الطويله التي دبجوها في بحر الدماء التي أسالوها لمنع أية خطوة وحدوية ٠

* * *

أما الحزب الشيوعي في السودان فلم نحصل على أية وثيقه بصدد موقفه من قيام الوحدة ، ولكن هذا الحزب أيد قيام الوحدة بلسان « الجبهة المعادية للاستعمار » التي يشترك فيها الشيوعيون السودانيون بنسبة هامة ، حيث حددت موقفها المؤيد بقولها :

« انها تعتبر قيام الجمهوريه العربيه المتحدة عيدا للعرب كافة ونصرا تاريخيا للقومية العربية المتحررة وهزيمة ساحقة للاستعمار ٠» وقال البيان: « ان الجمهورية الفتيه حصن منيع لمكاسب حركة التحرر العربي وقوة ذات وزن فعال في صالح السلام العالمي والامن والاستقرار في الشرق الاوسط ، لانها ولدت خلال الصراع العنيف ضد خطط الاستعمار الراميه الى استعبادنا وضد خطط اعوان الاستعمار وأنصار التفرقة ٠ » (١)

أما الاحزاب الشيوعيه في المغرب العربي ، فكما كانت معزولة تماما عن حركة القومية العربية وعن حركة الوحدة العربيه عامة ، كذلك كانت معزولة عن وحدة مصر وسوريا ٠ ويمكننا ان نأخذ صورة عن موقف هذه الاحزاب من موقف الحزب الشيوعي المراكشي ٠

فبعد اعلان قيام الجمهوريه العربية المتحدة باربعين يوما تقريبا ، عقد المكتب السياسي للحزب الشيوعي المراكشي اجتماعا فوق العادة في ١٢ آذار ١٩٥٨ في الدار البيضاء لبحث الاوضاع السياسية وقضية الاعتداء الاسباني الفرنسي على المناطق الجنوبية من مراكش ٠

وقد دعا البيان الصادر عن المكتب السياسي الى اتحاد أجزاء المغرب العربي (وكان قد مضى مدة على انعقاد مؤتمر طنجة الذي نص على الاتحاد) حيث جاء فيه ٠

« ان هذا التواطؤ الفرنسي الاسباني تشجعه وتدعمه ماديا ومعنويا وزارة الخارجية الاميركية التي تلعب على الحبلين بشكل جلي كل الجلاء ، ومن هذا الواقع نستخلص استنتاجات لا مفر منها ، أولها وأهمها أن بلدان المغرب العربي أما أن تتوحد فتبقى ، أو تظل متفرقة فتفنى ٠ ان وحدة بلدان المغرب العربي هي قضية الساعة ٠ وليس يمكن لمناورة الحكومه الفرنسية التي تود مناهضة هذا الامر باقتراحها اقامة « ميثاق دفاعي متوسطي » على لسان غايار ، ليس يمكن لهذه المناورة أن تخدع أحدا ٠ ان شعوب المغرب العربي ستحقق وحدتها في ظروف الاستقلال التام عن كل كتلة أو حلف عسكري ٠ » (٢)

لقد كان مؤتمر طنجة الذي دعا فيه ممثلو الجزائر ومراكش وتونس الى اقامة اتحاد يجمع أجزاء المغرب

---

(١) نشرت مقتطفات من هذا البيان في جريدة « النور » ــ عدد ٦٢٨ ، ٢٦ شباط ١٩٥٨.
(٢) : نشر هذا البيان في جريدة « النور » ــ عدد ٦٤٤ ، ١٨ آذار ١٩٥٨ ٠

الثلاثة ما زال حيا في الاذهان ، فكان لا بد للحزب الشيوعي المراكشي ان يقول شيئا ما عن هذه القضية . ولكن ، كم كان بودنا أن يشرح لنا هذا الحزب واحزاب المغرب عامة كيف تنسجم هذه الدعوة ، ان كانت مخلصة حقا ، مع نظريه « الامة الجزائرية التامة التكون » والتي يشكل الفرنسيون والاوروبيون جزءا منها ؟!

ومهما يكن ، فما يهمنا أن نشير اليه هنا ، أن الحزب الشيوعي المراكشي الذي تحدث عن وحدة أجزاء المغرب (وهذه خطوة هامة لا شك) نسي نسيانا كليا أن هناك وحدة عربية أخرى قد قامت في جزء من الوطن العربي ، هي الجمهورية العربية المتحدة ! أما كان المفروض ان يؤيد هذا الحزب هذا الحدث القومي التاريخي ؟ وأما كان المفروض ، وهو الذي يقول انه يدعو لوحدة أجزاء المغرب ، ان يربط هذه الدعوة بذلك الحدث ؟ لقد حددت جبهه التحرير الجزائرية قبل قيام أول وحدة عربية من مصر وسوريا بأربع سنوات ــ ١٩٥٤ ــ انها ستعمل لتوحيد أجزاء المغرب العربي كخطوة نحو الوحدة العربية الشاملة ، وتكلم الحزب الشيوعي المراكشي عن وحدة المغرب العربي بعد قيام هذه الثورة بأربع سنوات وبعد قيام هذه الوحدة بأربعين يوما ، ومع ذلك لم يشر الى اعتبار وحدة المغرب خطوة نحو الوحدة العربية ، بل ولم يشر حتى مجرد اشارة الى الوحدة التي قامت !

***

الفترة الثانية :

الشيوعيون يحاربون الوحدة كاشرس أعدائها

هل ظلمنا الشيوعيين عندما قلنا ان هذا الموقف الحماسي في تأييد الوحدة بين مصر وسوريا والوحدة العربية عامة ، لم يكن الا موقفا مخادعا مستترا يخفي وراءه حقد شرس على وحدة مصر وسوريا والوحدة العربيه عامة ؟

هل ظلمنا الشيوعيين حين قلنا ان هذا التأييد الكاسح ليس الا مناورة تكتيكيه تقوم بها الحركة الشيوعية مرغمة لان ظروف الوضع الدولي والعربي لم تفسح المجال لظهورها بوجهها الصريح ؟

هل ظلمنا الشيوعيين حين قلنا ان موقفهم عبر تاريخهم في : انكار وحدة الامة العربية والتنكر للوحدة العربية ، ثم في اعترافهم بوحدة الامة ، وتاييدهم النظري للوحدة العربية ، ثم في عودتهم الى بعث أطراف النظرية الاقليمية ومحاربتهم الشرسه للوحدة العربيه .. هل ظلمنا الشيوعيين حين قلنا ان هذا الموقف المتقلب المتناقض لم يكن يستند الى مبررات وتفسيرات فكرية « علمية » بقدر ما كان يتحدد بعاملين في الدرجة الاولى هما : مخطط الشيوعية الدولية ، ومصلحة الاحزاب الشيوعيه في الوطن ، اي يتحدد باعتبارات سياسية تضيع في غمرة تقلباتها كل قيمة للفكر ؟

لقد اثبتنا القسم الاول من هذه الحقيقة حين عرضنا للانقلاب الفجائي في موقف الحركة الشيوعية من القومية العربيه والوحدة العربية عام ١٩٥٦ .

ومرحلة ما بعد عام ١٩٥٨ تثبت لنا القسم الثاني من هذه الحقيقة .

ولنأخذ القضية كما حدثت حسب تسلسلها الزمني .

***

كان « الحزب الشيوعي المصري » اول الاحزاب الشيوعيه التي بدأت تكشف عن حقيقة موقفها .

فبعد أسبوعين فقط من الاستفتاء الشعبي وذلك الموقف الحار ، بدأ «الدس» الناعم لاثارة العناصر التي كان لها موقف معارض معروف من الوحدة ، فعلق الحزب الشيوعي المصري على الوزارة الاولى قائلا : « ودارت الاتصالات بالشخصيات السورية كل على حدة وأدى ذلك الى استبعاد شخصيات وطنية هامة مثل خالد العظم .. » (اتحاد الشعب ــ ١٥ مارس ١٩٥٨ ــ العدد الثالث) .

وسنسمع بعد الآن كثيرا باسم خالد العظم ، فأحزاب « الاشتراكية العلمية » وجدت فجأة أنه شخص تقدمي كبير من الحرام ان لايستفاد من تقدميته في دولة تعلن أنها سائرة نحو الاشتراكية !

وبدأ هذا الحزب الذي كان أكثر الاحزاب الشيوعية حماسا ودجلا ، منذ تلك الفترة الاولى ، دسه حول الاتجاه الاقتصادي القومي للجمهورية الجديدة « في هذه الظروف التي نلاحظ فيها تدهورا مطردا لمستوى معيشة الطبقات والفئات الشعبيه ، ونلاحظ في ذات الوقت ارتفاع الارباح التي تجنيها الشركات والمؤسسات الراسمالية ، يأتي هذا القرار لكي يفاقم هذا الاتجاه .. » (اتحاد الشعب ــ ٩ نيسان ١٩٥٨) .

وهكذا ، فجأة ، ما بين يوم الاستفتاء في ٣٠ شباط والاوصاف التقدمية العديدة التي اطلقها هذا الحزب على الجمهورية الجديدة آنذاك ، وما بين

أوائل نيسان ، تدهورت الحالة الاقتصادية في البلاد وأصبحت تسير في صالح المؤسسات الرأسمالية ! وبغض النظر عن مناقشة مثل هذا القول ، فاننا لم نسمع للآن بدولة يتبدل وضعها الاقتصادي من اتجاه الى اتجاه في مدى خمسين يوما !

ولكن ، اذا تجاوزنا هذا الموقف فان التبدل الحاسم لموقف الاحزاب الشيوعيه من قضيه الوحدة العربية ، لم يحصل الا اثر ثورة العراق في ١٤ تموز ١٩٥٨ • فمنذ هذا التاريخ بدأ الشيوعيون يجرون تبديلا اساسيا سريعا في موقفهم سرعان ما وضعهم في موقف مناقض كليا للموقف السابق الذي لم يكن قد مضى عليه سوى بضعة شهور •

والواقع أننا لا بد لفهم هذا التغيير من ان نتوقف قليلا عند التغييرات التي بدأت تطرأ على الوضع السياسي العربي والدولي بعد قيام ثورة العراق • فالتغييران كانا متلازمين منسجمين •

* * *

فعلى الصعيد الدولي ، بدأنا نلمس في هذه الفترة ـ منذ قيام ثورة العراق ـ بداية تبدل في موقف الاتحاد السوفييتي والصين الشعبية من الحركه القومية النضاليه المتمثلة رسميا بالجمهورية العربية المتحدة • فالشيوعية الدولية التي أبدت بحماس كفاح العرب التحرري (وقدمت لنا في هذا الميدان مساعدات هامة) لم تكن تنظر بنفس الحماس الى الوحدة العربيه ، بل بدأ يتضح منذ قيام ثورة العراق أنها لا تنظر بارتياح الى حركة الوحدة •

وكان لهذا الموقف تفسير •

فالمعسكر الشرقي كان يحدد سياسته تجاه الوطن العربي عاملان •

العامل الاول ، هو مصلحته في التقرب من الحركة القوميه الثورية ودعمها لتقويتها في تصفية نفوذ الاستعمار الغربي في هذه المنطقة الحساسة من العالم من جهه ، ولخلق جو من العطف الشعبي يمهد لنمو الحركات الشيوعية من جهة اخرى •

والعامل الثاني ، هو مصلحته في عدم تقوية الحركه القومية الى الحد الذي يجعلها تشعر أن حاجتها اليه يمكن ان تتضاءل بازدياد قوتها او انها يمكن ان تستغني تدريجيا عن مساعداته كلما نمت قوتها السياسية والاقتصادية •

وكان على الاتحاد السوفييتي أن يوجد نقطه توازن ما بين هذين العاملين •

ومنذ أن بدأت السياسة السوفييتية تظن أن هناك امكانيه لايجاد قيادة عربية متحررة أخرى في العراق تقف في مقابل القيادة الرسميه المتمثلة بالجمهوريه العربية المتحدة ، اعتقدت انها قد وضعت يدها على نقطه التوازن هذه • وزاد خطأ هذا الظن بدء تبلور الانحراف الانتهازي والغربي والشيوعي بثورة العراق والعقبات التي بدأت توضع في وجه أية خطوة وحدوية مع الجمهورية العربية • ذلك ان السياسة السوفييتيه ظنت أن دعم هذا الوضع الجديد في العراق يوفر لها ثلاثة امور رئيسيه : اقامة قاعدة يحتل فيها الشيوعيون المرتبطون بالسياسة السوفييتية مكانا بارزا ، أولا ، وتكون مثل هذه القاعدة مركز ضغط على حركه الوحدة العربية يمكن أن تحد من نموها كلما بدأ انها ستتسع ، ثانيا ، وتكون هذه القاعدة بمثابة ثقل لموازنة الحركة القومية المتمثله رسميا بالجمهورية العربية المتحدة مما يفسح مجالا أوسع للضغط عليها اذا اقتضت الظروف ، ثالثا • ولم يكن هناك ثمة خوف من القيام بهذه المغامرة برأى السياسه السوفييتية اذا بقي اتجاه الوضع في العراق معاديا للغرب • فبهذا ينشأ في الوطن العربي مركزان متحرران يمكن أن يعتمد عليهما السوفييت في مقارعة الاستعمار الغربي في نفس الوقت الذي يضمنوا لانفسهم امكانيه أكبر لتوجيههما •

وطبعا لم تسر الامور وفق هذا المخطط لانه ، وبالدرجة الاولى ، أهمل القوة القوميه الشعبية الضخمه التي تستند اليها الجمهورية العربيةالمتحدة في جميع أنحاء الوطن العربي ، وكونها القيادة الرسميه التي تجسد آمالا هامة لملايين الشعب العربي ••

ما يهمنا أن نذكره بصدد بحثنا هنا ، أن موقف السياسه السوفييتيةالذى بدأ يتبدل تجاهالجمهورية العربيه المتحدة • ولاول مرة منذ مؤتمر باندونغ ، كان العامل الرئيسي الاول الذي دفع الحركة الشيوعية الى كشف القناع الذي ارتدته خلال هذه الشهور القلائل ، وسرعان ما بدأت تبدل موقفها بعد أن توفر لها الآن الوضع الدولي المناسب الذي لم يكن متوفرا من قبل •

اما على الصعيد العربي ، فقد كانت الحركة الشيوعيه تدرك باستمرار ، أن الحركة القومية الوحدويه بمحتواها التقدمي الذي يزداد اتضاحا باطراد ، هي الحاجز المنيع الذي سيمنع نموها وامتدادها ويمهد لتصفيتها ، وأكثر ما كان يهم الحركة الشيوعية في هذا الصدد ، أن المحتوى الاشتراكي للحركة القوميه ، والذي سيزداد عمقا

وفعالية بالانتصارات الوحدوية الجديدة التي تحققها هذه الحركة ، سيقضي تدريجيا على نقطة الثقل في نمو الحركة الشيوعية ، والتي تقوم بالدرجة الاولى على محاولة الظهور بمظهر الحركة الوحيدة التي ستحقق الاشتراكية للشعب ، وتؤمن له العدالة والمساواة والحياة المعيشية اللائقة • فاستلام الحركة القومية الاشتراكية زمام المبادهة في هذا الميدان سيضعف كثيرا من المبررات التي تعتمدها الحركة الشيوعية في عملها الشعبي ويقطع عليها الطريق • وهذه الامكانية ستزداد باستمرار كلما نجحت الحركة القومية الممثلة رسميا بالجمهورية العربية المتحدة في تعميق الخط الاشتراكي ، وتحقيق مكاسب وانجازات جديدة في هذا الميدان تتوجه لمصلحة الغالبية من الشعب العربي •

يضاف الى ذلك أن التطور القومي السياسي الخطير الذي يشهده الوطن العربي في كافة اجزائه في هذه الفترة ، انما يتم سواء في أسسه الفكرية أو في القوى التي تدفعه ، بعيدا عن الحركة الشيوعية حيث نجد أن هذه الحركة لا تلعب أي دور هام في هذا التطور • واستمرار مثل هذا الوضع من شأنه أن يزيد باستمرار في عزل الحركة الشيوعية وجعلها حركة ثانوية تعيش على هامش هذا التطور •

لكل هذه الاسباب مجتمعة ، الخارجية والداخلية، كانت ثورة العراق هي الكاشف العملي الحاسم الذى أظهر لون الحركة الشيوعية على حقيقته ، لونا غريبا لا يمت الى الايمان بوحدة العرب بصلة •• فمنذ قامت ثورة العراق لتحطم قيد الاستعمار وقيد التجزئة الذى فرض بالقوة على الشعب العربي في العراق ، ألقى الشيوعيون بكافة قواهم في هذه المعركة لتثبيت الاتجاه الانفصالي في العراق ، ومنع قيام أية خطوة وحدوية مع الجمهورية العربية المتحدة• وتحولت العبارات الطنانة التي رأيناها سابقا في تأييد الوحدة الى اصوات عالية تطالب بتكريس التجزئة .. واختفت المقالات الطويلة في التغني بالمكاسب التي ستحققها الوحدة ، لتحل محلها مقالات أطول في المشاكل التي ستولدها الوحدة .. ودفنت التحليلات الفكرية «العلمية» عن العوامل التي توحد العرب لتظهر مكانها تحليلات فكرية جديدة عن الظروف الموضوعية الكثيرة التي تفرق بين العرب

وطبعا ، حاول الشيوعيون الاذكياء ان يصبغوا هذا الموقف المعادي الشرس للوحدة بصباغ فكري كالعادة ، وقاموا بمحاولة فاشلة مفضوحة لاخفاء موقفهم التآمري وراء طائفة من الاعتراضات التي جمعوها من كافة المصادر المعادية للوحدة وحشدوها في مخطط دعاوى موجه لتثبيت التجزئة •

ولكن هل كانت الاعتبارات الفكرية هي الموجه حقا لخطوات الشيوعيين في انقلابهم ضد الوحدة ؟ ابدا .. وسنشهد هذه المرة ايضا (كما شهدنا سابقا في موقفهم الفكري من وجود الامة العربية) مهزلة جديدة من مهزلة الفكر حين يتخذ ستارا لاخفاء الموقف التآمري المكشوف على الوحدة العربية ومصير العرب ، ومهزلة اخرى من مهازل « العلمية » و « الموضوعية » حين تتخذ ستارا لاخفاء مخطط الشيوعية الدولية والمصلحة الحزبية الضيقة الخاصة ، اللذان وضعا باستمرار فوق مصلحة الامة ، وفوق مصير ثمانين مليون عربي يخوضون معركة من اشرس معارك البقاء ضد الاستعمار والصهيونية والرجعية •

ولم يكن باستطاعة الحركة الشيوعية هذه المرة ان تبدل موقفها بين ليلة وضحاها كما حدث عام ١٩٥٦، فالانقلاب هذه المرة موجه ضد التيار القومي الشعبي لا للتلاؤم معه ، وكان لابد ان يؤخذ هذا التيار الجارف بعين الاعتبار • ولهذا كان الانقلاب الجديد على مراحل رغم ان السرعة التي تم بها لا تحرم الشيوعيين أبدا من صفة الثورية التي يتمسكون بها حين يكون الامر متعلقا بالتآمر على مستقبل وكيان الامة العربية •

ووضع لهذه الغاية تكتيك مدروس لابد أن تعترف انه ما كان باستطاعة أية حركة ان تنفذه ما لم تكن تتمتع باستعداد لا اخلاقي فائق اولا ، وبقدرة فائقة على تبديل المواقف الفكرية والسياسية كما تبدل الاثواب ثانيا •

ولم يكن الامر صعبا على الحركة الشيوعية ، فقد اثبت تاريخ عملها الطويل في وطننا أن لديها الصفتين ، بل أن الصفتين هما معظم رأسمالها •

وسار المخطط في المراحل التالية :

التخلي نهائيا عن شعار الوحدة وطرح شعار الاتحاد الفيدرالي •

ثم التخلي نهائيا عن شعار الاتحاد الفيدرالي وطرح شعار التضامن العربي •

ثم التخلي نهائيا عن شعار التضامن العربي ونسفه عمليا وان بقي التغني به نظريا بين آن وآخر وحسب تحولات المد القومي الشعبي ••

ثم البدء في الدعوة ((للكيانات الخالدة)) •

هذا على الصعيد العملي •

وأما على الصعيد النظري ، فقد كان يرافق كل خطوة من تلك الخطوات العملية تحول على الصعيد

النظري ايضا . لقد سخر الفكر مرة اخرى لخدمة التكتيك المصلحي . وبين غمرة التقلبات التي يقتضيها التكتيك عادة تفضح نهائيا هذه المرة مهزلة ((العلمية)) التي يتبجح بها الشيوعيون دائما . فقد كان هناك دوما ستار فكري جديد يمهد وينفخ الدخان لستر الخيانة العملية الجديدة .

ولعلنا اطلنا الحديث ، فلنرجع الى الوثائق لنرى كيف طبق ذلك المخطط العبقري في التآمر على الوحدة العربية .

* * *

في ٢٠ تموز ١٩٥٨ ، أي بعد اسبوع واحد من ثورة العراق — وبالصدفة — هاجم خالد بكداش زعيم الشيوعيين في سوريا ولبنان وحدة مصر وسوريا منتقدا الاسس التي قامت عليها ، هاجمها من برجه البعيد الذي كان يعيش فيه متنقلا بين دول اوروبا الشرقية ، واذاع راديو بلغاريا رسميا هذا الانتقاد . ولنذكر ان هذا العمل يتم في الوقت الذي كانت الجمهورية العربية المتحدة قد اعلنت فيه ان كل اعتداء يقوم به الاستعمار الغربي على جمهورية العراق هو اعتداء عليها ، وفي الوقت الذي كان شغلها الشاغل تأمين السند للعراق استعدادا لاية ردة يقوم بها الاستعمار والرجعية العربية وانصار العهد البائد .

كانت الوحدة بين العراق والجمهورية العربية المتحدة هي القضية الاولى المطروحة في العراق بعد ان حطم الشعب والجيش قيد الاستعمار والعزلة الذي فرض عليه . وكان الاسراع في تحقيق هذه الوحدة خطوة نضالية سياسية ضرورية في ظروف الثورة . فضلا عن انها تحقيق لارادة الشعب العربي، وتعبير عن الامل القديم الذي عاش مسجونا في نفوس افراد الشعب تحت وطاة الحديد والنار . فقد كان واضحا للجميع ان قيام الثورة لا يعني أنها أصبحت آمنة من النكسات الرجعية الاستعمارية ، فما كان الاستعمار والرجعية ليسلما بسهولة بعد ان حطمت الثورة في العراق اقوى القلاع التي يستندون اليها في الوطن ، كما كان واضحا للجميع ضخامة جهاز العملاء الذي نجح الاستعمار والرجعية في ايجاده طيلة سنوات سيطرتهم البغيضة .

ولم يكن الشعب العربي مستعدا ان يعيد تجربة نكسة الاردن .

لذلك كله ، شهد العراق في الفترات الاولى للثورة زخما شعبيا جارفا كاسحا كان يعتبر أن الوحدة هي الخطوة التاليه التي يجب تحقيقها فورا . وفي تلك الفترة الاولى لم يكن باستطاعة الشيوعيين في العراق ان يحاربوا اكل خطوة وحدوية ، كما لم يكن باستطاعتهم أن ينعزلوا عن المد الوحدوي الشعبي الكاسح ، وهكذا صدرت في تلك الفترة المنشورات والمذكرات المذكورة آنفا والتي كانت تؤيد الوحدة العربية ، ثم تمزج الوحدة بالاتحاد الفيدرالي

ولنبدأ من هذه النقطه الاخيرة ، فقد أصبح من الواجب ان نفضح نهائيا هذه الاكذوبة الضخمة التي اطلقها الشيوعيون في كل مكان حول إيمانهم بالاتحاد الفيدرالي . فهل كان الشيوعيون يؤمنون حقيقيا بالاتحاد الفيدرالي ؟ لو كانت حقيقة الخلاف الذي نشب بين الحركة القومية والشيوعيين في المراحل الاولى من ثورة العراق ، هو خلاف بين دعاة وحدة كاملة ودعاة اتحاد فيدرالي عن صدق واخلاص ، لما كان الخلاف يمكن أن يتطور برأينا الى ما تطور اليه. ولكننا نعتقد جازمين ، وكما أثبتت الاحداث بصورة قاطعة ، أن الشيوعيين لم يؤمنوا حتى بالاتحاد الفيدرالي ، وانهم لم يطرحوا هذا الشعار الا لكسر موجة المد الوحدوي تمهيدا لتأجيل كل القضية ثم الانقلاب عليها كليا في النهاية .

وهذه الحقيقة الاكيدة برزت منذ بداية الثورة واكدتها الاحداث كلها فيما بعد .

***

لقد طرح الشيوعيون في سوريا شعار « الاتحاد الفيدرالي » بدل الوحدة . وحاولوا ان يظهروا القضية كلها على أنها مجرد وجهة نظر في شكل الوحدة . ولكننا حين درسنا المشروع الذي قدمه الشيوعيون السوريون باسم « اتحاد فيدرالي » اتضح بجلاء أن اسم «الاتحاد» لم يوضع الا تلفيقا فوق هذا المشروع . فالاتحاد الفيدرالي ليس جمهوريتين وحكومتين وشخصيتين ودولتين ومجلسين نيابيين الخ .. هذا شكل من اشكال التعاون ، تسميته «إتحادا» ليس الا عملية تزوير ضخمة . وهكذا حاول الشيوعيون في سوريا تحت ستار الاتحاد الفيدرالي — الذي هم دون مستواه بكثير — ان يمسخوا الوحدة والاتحاد الى تعاون وتقارب .

وسار الشيوعيون في العراق على نفس القاعدة .

طرحوا في الاسابيع الاولى للثورة شعار « الاتحاد الفيدرالي » بدل الوحدة ، وحاولوا أيضا أن يظهروا القضية كلها مجرد وجهة نظر في شكل الوحدة ، فلنر الان ، هل كان المشروع الذي اقترحوه « اتحادا فيدراليا » ؟

في ٣ ايلول ١٩٥٨ ، اي بعد شهر ونصف تقريبا من قيام الثورة ، اصدر «المكتب السياسي للحزب

الشيوعي العراقي» بيانا موقعا باسمه بعنوان : «حول الاتحاد مع الجمهورية العربية المتحدة واليمن ». ووزع هذا البيان على نطاق واسع على أساس انه يحدد الموقف الرسمي للحزب الشيوعي العراقي بصدد قضية الوحدة المطروحة بالحاح آنذاك . وتمخض كل حماس وفهم هذا الحزب للمطلب الشعبي بتأكيده ان :

« ... العمل على أساس الاتحاد الفيدرالي وانضمام الجمهورية العراقية الى اتحاد الدول العربية المؤسس بين الجمهورية العربية المتحدة واليمن ، لا تحمل معه اية نتائج سلبية مهما كانت ، ويخطو بنا خطوة كبرى تفتح آفاقا اوسع وارحب نحو اتحاد عربي شامل .. »

ان للتعبيرات التي يستعملها المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي في هذا الصدد مدلولات هامة .

فهكذا يظهر بوضوح قاطع من هذا البيان ، أن الشعار الذي طرحه شيوعيو العراق (وتبنته معظم الاحزاب الشيوعية الاخرى) في وجه الوحدة لم يكن أبدا اتحادا فيدراليا ، بل كان ايضا اقل بكثير من كونفدرال . ولن ندخل هنا في بحث حقوقي سياسي حول الفرق بين الاتحاد الفيدرالي وهذا الشكل «الثوري جدا» للوحدة الذي يطالب به البيان الشيوعي . ولكن من المعروف بداهة على الاقل ، ان الاتحاد الفيدرالي يعني : سياسة خارجية واحدة (وتمثيل سياسي خارجي واحد) ، وتنظيم اقتصادي واحد ، وتنظيم عسكري واحد ، ونظام تعليمي واحد .. هذا اقل ما يجب أن تكون السلطة فيه موحدة تماما ومركزية تماما .

فهل هذه هي الاسس التي يقوم عليها «اتحاد» الجمهورية العربية المتحدة مع اليمن ؟ .

لن ندخل هنا ايضا في بحث أسس «اتحاد الدول العربية» ، ولكن من المعروف للجميع أن هذا «الاتحاد» قد عقد في ظروف خاصة ، وأن الاوضاع الخاصة لحكام مملكة اليمن لا تبيح عقد «اتحاد فيدرالي» كامل صحيح .

مايهمنا هنا،أن نبين كما تثبت الوثائق،ان الشيوعيين في العراق لم يفكروا منذ البدء باتحاد فيدرالي يؤكد هذه الحقيقة مرة أخرى قول البيان أن انضمام العراق الى « اتحاد الدول العربية » : « يخطو بنا خطوة كبرى تفتح آفاقا أوسع وأرحب نحو اتحاد عربي شامل .. » . ولا يزال القارىء يذكر بالطبع أن هذا التعبير الجديد يختلف تماما عن التعبير القديم الذي رأيناه آنفا في كافة البيانات الشيوعية والذي كان يقول : «اتحاد فيدرالي كخطوة للوحدة العربية» . و «اتحاد فيدرالي تحقيقا للوحدة العربية » .

فهل هذا هو شكل الوحدة الذي كان يطلبه الشعب العربي في العراق ؟ ان الحزب الشيوعي العراقي لم يكن دون مستوى الوحدة بكثير فحسب» بل كان دون مستوى الاتحاد الفيدرالي بكثير ايضا .. وهو لم يطرح هذا الشعار الا كعملية تزوير دعاوية للاستهلاك المحلي ، والا كخطوة تكبح جماح المد الوحدوي الثوري تمهيدا للانقلاب على الوحدة والاتحاد ايضا ، فليس هناك برأينا اى تفسير آخر لهذا الاحتيال ، بين الشعارات التي كانت ترفع في مظاهرات الحزب الشيوعي العراقي ، وبين التفسير الذي كان يعطى لهذه الشعارات في بيانات الحزب الرسمية .

وهكذا عمل الحزب الذى «يؤمن بالشعب» على استغباء الشعب دون اى خجل ، كما عمل الحزب الشيوعي في سوريا على استغباء الشعب ايضا قبل ذلك ببضعة شهور . وهذا هو بالضبط ما قصدناه عندما قلنا ان الخلاف بين الحركة القومية والحركة الشيوعية في العراق لم يكن في الحقيقة خلافا بين دعاة وحدة كاملة ودعاة اتحاد فيدرالي ، بل كان خلافا بين حركة تطالب بالوحدة التامة كمقياس ثوري أعلى مرتبة من كل خطوة وحدوية اخرى رغم انها لا ترفض الاتحاد الفيدرالي الحقيقي اذا كان هناك ثمة ظروف طارئة تحول دون الوحدة التامة ، لانها لا تعتبر الاتحاد الفيدرالي خطوة معاكسة للوحدة ، بل خطوة في طريق الوحدة ، وبين حركة لا تؤمن أصلا لا بالوحدة ولا بالاتحاد وتطالب زيفا بمشروع تسميه « اتحادا » كخطوة لعرقلة الوحدة تمهيدا لاقصاء كل خطوة سواء كانت وحدوية أم اتحادية .

***

كانت هذه المرحلة بالنسبة للاحزاب الشيوعية عامة ، هي مرحلة التسليم الظاهري بمبدأ الوحدة العربية ثم مسخ الوحدة لشكل وحدوي مائع سمي تزويرا «اتحاد فيدرالي» . ولعل «الحزب الشيوعي المصري» يعطي في موقفه في هذه الفترة صورة واضحة جدا لتكتيك هذه المرحلة .

ففي ايلول ١٩٥٨ ايضا ، وبعد بضعة ايام من صدور بيان الحزب الشيوعي العراقي أصدر المكتب السياسي للحزب الشيوعي المصري في ١٥ ايلول بيانا مطولا بعنوان : «حول بعض التطورات الاخيرة في الشرق العربي » يعطي صورة واضحة عن كيفية

تطبيق تكتيك التسليم الظاهري بالوحدة ثم النفوذ لمسخ معناها الثوري

يتحدث البيان عن الوحده بين الجمهورية العربية المتحدة والعراق فيقول :

« ونحن من اشد انصار هذه الوحدة ، نطالب بها ونعتبرها خطوة ضرورية لتسديعيم الثورة في العراق والتعجيل بالوحدة العربية الشاملة . ولا شك أن الاستعماريين سيقفون في سبيل تلك الوحدة بكل وسيلة لديهم . وها هم يتآمرون عليهما حتى تختق تارة بمحاولة تفكيك الوحدة المصرية السورية وتارة بمحاولة الايقاع بين البورجوازية العراقية والبورجوازية المصرية ... » (المصدر السابق ص ١٤) .

وبعد هذه المقدمة الحماسية البريئة ينتقل بيان الحزب الشيوعي المصرى الى تحديد موقفه من قضية هذه الوحدة ، فاذا به ينتهي ــ بالطبع ــ الى نفس الموقف الذي حدده الحزب الشيوعي العراقي فيقول :

« .. لذلك يجب ان نحذر من محاولة فرض تجربة الوحدة المصرية السورية على الوحدة مع العراق .. هناك تجربة أخرى هي تجربة الاتحاد الفيدرالي مع اليمن ، وهي تجربة ناجحة حقا ، ابقت على الكيان الفيدرالي لليمن (!) وراعت خصائصه الاقليمية (!) ونموه الاقتصادى (!) ولسوف تكفل له تقدما ديمقراطيا (!) (المصدر السابق نفسه ص ١٤)

ومرة اخرى ، وبهذا الاسلوب ذى المستوى الفكرى والسياسى المضحك يحاول الحزب الشيوعى المصرى ايضا استغباء الشعب العربى .

وليس لنا في الواقع الا أن نهنيء المكتب السياسي للحزب الشيوعي المصرى على هذا المستوى الثوري في التفكير وتحليل الاوضاع .. ونحن لم نر بعد حزبا يبلغ به الحقد على الوحدة العربية حدا يجعله يقلب الحقائق راسا على عقب ويتدنى الى مثل هذا النمط في التفكير .

لم نسمع بحزب يؤمن بالوحدة ، بوحدة الامة ، ثم يبارك بقاء «الكيان الدولى» لكل قطر من اقطار هذه الامة الواحدة ، اى يبارك بقاء الامة الواحدة في خمسين كيانا دوليا .

ولم نسمع بحزب في وطننا ، يقرا الصحف على الاقل ، يتغنى بديمقراطية مملكه اليمن ، ويبارك بقاء اليمن منعزلا منغلقا على نفسه لان هذا يكفل له تقدما ديمقراطيا .

ولم نسمع بحزب ، يعيش في الوطن على الاقل ، ولا يعلم ان ليس هناك شيئا اسمه « خصائص اقليمية » لليمن انعكست في شكل الوحدة بينه وبين الجمهورية العربية ، وانما «نمط الحكم والاوضاع الاجتماعية الناجمة عنه» هى التى انعكست في شكل الوحدة .. في وحدة الشكل .

ومهما يكن ، فان هذا الفهم للوحده وللاتحاد ، قد افاد فعلا في اطلاع الشعب العربى على مبدى قيمة تلك الجمل الرنانة الجوفاء التى كان يوزع بها الشيوعيون بياناتهم عن الوحدة والاتحاد .

في نفس هذا الوقت الذى طرح فيه الشيوعيون في العراق شعار اتحادهم الفيدرالى المزيف تمهيدا لخنق كل خطوة وحدوية سليمة ، بداوا يتناسون كذلك موقفهم القديم من « الجمهورية العربية البطلة » ، « والجمهورية العربية المتحدة الشقيقة الكبرى » ، ويمهدون لضرب حركة الوحدة بتشويه وحدة مصر وسوريا واثارة مخاوف الشعب العربى في العراق منها . ولنرجع الى بيان الحزب الشيوعى العراقى الصادر في ٣ ايلول ١٩٥٨ حول الاتحاد مع الجمهورية العربية .

يقول البيان في معرض رفض الوحدة والاتحاد الفعلى :

« ان بلادنا ذات ثروات طبيعية وخيرات وافرة ، ينبغى ان يعاد النظر في استثمارها واستغلالها وصرف مواردها على اساس تطمين الحاجات الملحة لسائر جماهير الشعب ، وعلى اساس تطوير الاقتصاد والرأسمال الوطنى ، وعلى أساس التعاون المتين والمنافع المتبادلة مع الاقطار العربية الشقيقة . وان التفكير بالانضمام للجمهورية العربية المتحدة يقلق جماهير الشعب لان الانضمام لن يوفر للاقتصاد والرأسمال الوطنى العراقى فرصا كافية للازدهار والتطور ، ولن يوفر شروطا عادلة للتعاون الاقتصادى بين العراق والجمهورية المتحدة نظرا لاختلاف درجة تطور كل منهما ، ولاشك أن التعاون بين هذين الاقتصادين ممكن الى ابعد الحدود .. بينما اندماجهما سيوفر فرصا اكبر للاقتصاد الاكثر تقدما على حساب تضييق الفرص امام الاقتصاد العراقى المتخلف » (البيان ، ص ٦ و ٧) .

بهذا الكلام ، وبهذا المنطق الملفق ، عمل الشيوعيون الغيورون جدا على تطور رأس المال ، على ايهام الشعب العربى في العراق أن الوحدة أو الاتحاد الحقيقى سيكونان ضد مصالحه الاقتصادية وضد التطور الاقتصادى والنهوض الاقتصادى في العراق .

وهكذا ، وبلمحة عين ، دفن الشيوعيون في صدورهم الحاقدة كل أقوالهم السابقة عن المكاسب العظيمة التى ستحققها الوحدة ، وعن كونها الاساس المتين لتطوير الاقتصاد العربى وتنميته ، بل وعن

كونها الباب الذي سيفتح الطريق امام المجتمع العربي للتطور نحو الاشتراكية (١) دفنت كل تلك التحليلات الفكرية العلمية واستبدلت بمنطق فكري جديد صفف بشكل عجيب ليخدم المصالح الحزبية للحركة الشيوعية .

فهل هي الحقيقة العلمية التي تقرر مواقف الشيوعيين ؟ ام أن الحقيقة تزور باسلوب مشين لتدعم هذه المواقف التآمرية ؟

احد احتمالين، لا ثالث لهما : اما ان الشيوعيين في تلك البيانات والمنشورات عن المكاسب الاقتصادية التي ستحققها الوحدة كانوا صادقين مع انفسهم آنذاك ، وبهذا يسوقون في هذا الموقف الجديد منطقا فكريا مناقضا كليا للاول ، واما أنهم كانوا كاذبين فيها ولم يصدروها الا للتلاؤم مع الخطوة التاريخية .

وفي كلا الاحتمالين دجل بشع لا يشرف الشيوعيين ابدا .

هذا ، ونود ان نلفت انتباه القارىء الى ان هذا النص من البيان ، انما يؤكد مرة اخرى بوضوح ان الحزب الشيوعي العراقي لم يكن يطالب بالاتحاد الفيدرالي كما كان يدعي . يدل على ذلك بوضوح ان هذا الحزب يرفض توحيد الاقتصاد بين الجمهورية العربية المتحدة والعراق ويقترح في مقابل ذلك : « اقتصادين متعاونين » ! ولا يمكن في أي اتحاد فيدرالي بين دولتين التحدث عن اقتصادين بل عن اقتصاد واحد تسيره الدولة الاتحادية .

فكيف يفسر الشيوعيون اكذوبة الايمان بالاتحاد الفيدرالي بينما تطالب بياناتهم الرسمية بشيء اخر مختلف تماما ؟

وهكذا تنتهي القضية في النهاية الى : تعاون اقتصادي . وتنتهي كل هذه الضجة الى ميثاق الحزب الشيوعي العراقي عام ١٩٤٥ !

ويستمر هذا البيان التاريخي .. وبعد التشكيك الاقتصادي يأتي الجيش :

« ولا يمكن لجيشنا العراقي وضباطه المغاوير ، هذا الجيش الذي ضرب مثلا رائعا في الوطنية والشعور بالمسؤوليه تجاه قضية الشعب والاخلاص لمبادىء حركتنا التحرريه الديمقراطية في ثورة ١٤ تموز الخالدة ، الا أن يقلقه التفكير في الاسلوب الذي تم به توحيد الجيشين في الجمهورية العربية المتحدة . » (ص ٦) .

ولا يذكر البيان ما هو هذا الاسلوب الذي تم به توحيد الجيشين ، لانه ببساطة ليس لديه ما يذكره بهذا الصدد . ولكن الجيش قطاع هام ويجب أن يذكر الشيوعيون شيئا ما ليشككوه بالوحدة ، أي شيء ! ولقد كان ضباط الجيش في العراق مغاوير فعلا ، والشيوعيون الذين يتكلمون عن قلق الجيش العراقي كانوا يدركون جيدا أن الجيش معقل الاتجاه القومي ، وقد اضطروا لان يضعوا مخططا دنيئا لتفكيك وحدة الجيش وتحطيم انضباطه واثارة الجنود على الضباط ، وأساليب أخرى عديدة من هذا المستوى . وصلت الى درجة اعدام الضباط الشهداء ، ليضعفوا الاتجاه القومي الوحدوي فيه . **فهل يظهر هذا قلق الجيش في العراق من نتائج وحدة مصر وسوريا ، أم يظهر توقه لهذه الوحدة ؟!**

وبعد تشكيك الجيش يأتي دور الاكراد .

« والشعب الكردي الذي امتزجت دماء ابنائه الشجعان بدماء أبناء الشعب العربي الميامين في الكفاح ضد عهود الظلم والطغيان ، هو الآخر قلق على مصير حقوقه القومية كشعب ينشد لنفسه بحق اسباب التقدم والرفاه . هذا الشعب الذي استبشر أيما استبشار بما جاء في الدستور المؤقت للجمهورية العراقية بخصوص مشاركته في الوطن العراقي ، وهو يطمح الى تحويل هذا البند الى واقع عملي يجني ثماره جنبا الى جنب مع الشعب العربي في العراق . » (ص ٥ و ٦) .

فهل أن الوحدة أو الاتحاد يتعارضان مع اسباب التقدم والرفاه التي ينشدها لنفسه الشعب الكردي ؟ ولماذا وكيف يمكن أن يوجد مثل هذا التعارض ؟ والام يستند الشيوعيون في العراق حين يرسلون بمثل هذه الاقوال جزافا ؟

والواقع أننا يجب أن نتوقف قليلا عند مسالة الاكراد . فلقد درج الشيوعيون منذ قيام ثورة ١٤ تموز على محاولة تصوير أيه خطوة وحدوية عربية متناقضة على خط مستقيم مع وضع الاكراد ، كما حاولوا كذبا الظهور بمظهر المدافع عن حقوق الاكراد ، وحاولوا جعلهم قوة معرقلة لتطور العرب القومي .

ان الحركة القوميه العربية الثوريه حركة ذات محتوى انساني عميق ، وهي لا يمكن ابدا أن تقوم على أساس عنصري ولا على أساس استغلالي ولا على أساس عدواني . والوحدة العربية هي التجسيد العملي للقومية العربية ذات الجوهر التقدمي والانساني الواضح ، فلا يمكن الا أن تكون انسانية في مواقفها تقدمية في حلولها .

---

(١) : واجع بيانات الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان ومصر بهذا الصدد .

ولكن الشيوعيين في الواقع ، لم يكن ليهمهم ان يتوقفوا عند جوهر الحركة القومية العربية ، بل كان كل همهم على العكس ، ان يشوهوا بجوهرها ويزوروا حقيقتها ليزيدوا بذلك عدد المخدوعين ويكتلوهم للوقوف في وجه تطور العرب القومي نحو الدولة الواحدة . وهكذا لم يكن من قبيل الصدفة ان يحاول الشيوعيون ، منذ الاسابيع الاولى للثورة ، أن يظهروا الوحدة والاتحاد بمظهر الخطوة التي يجب ان يحاربها الاكراد في العراق .

ولكن الشيوعيين في العراق لم يوافقوا يوما على اعطاء دولة مستقلة للاكراد في العراق ولا على حق انفصالهم عنه . وقد أصبح من الضروري أن نفضح هذه الهالة الكاذبة التي يثيرها الشيوعيون حول موقفهم من الاكراد .

ففي ميثاق الحزب الشيوعي العراقي لعام ١٩٤٥، حددت المادة العاشرة من الميثاق موقف الحزب من الاقليات فقالت :

« ايجاد مساواة حقيقية في الحقوق للاقليات القومية الكردية ، مع مراعاة حقوق الجماعات القومية والجنسية الصغيرة ، كالتركمان ، والارمن واليزيدية ! »

ومن الواضح بجلاء ، ان هذا الميثاق لا يطالب باقامة دولة كردية في العراق ولا بوطن قومي للاكراد فيه ، وانما يطالب : بالمساواة . والفرق واضح بجلاء أيضا بين هذين الموقفين .

وفي آذار عام ١٩٥٤ ، عاد الشيوعيون فحددوا موقفهم مجددا من مسالة الاكراد في العراق ، فهاجموا دعوة انفصال الاكراد هجوما صريحا حيث نص تقرير سكرتير الحزب الشيوعي (بعنوان : جبهة الكفاح الوطني ـ آذار ١٩٥٤ ـ ص ٤٦) على : أن نداءات الانفصال تضعف وحدة الكفاح المشترك بين القوميات ، وحدد التقرير الوضع الذي تمر فيه هذه القضية بقوله : « ولكن هل المسألة الملتهبة الآنية الآن هي مسالة الانفصال أم مسالة وجود سيطرة استعمارية ؟ » . وعلى هذا الاساس ، حدد التقرير في النهاية الموقف الرسمي للحزب الشيوعي فقال : « ان حزبنا لا يرسل الدعوات الانفصالية قبل دعوات الاتحاد ... »

يتبين بوضوح ، وبالوثائق ، ان الشيوعيين في العراق لم ينظروا لقضية الاكراد على أنها قضية انفصال عن العراق ، وقد عادوا وحددوا هذا الموقف مرة أخرى بعد قيام ثورة ١٤ تموز ، فلم يطالبوا أيضا بانفصال الاكراد ، بل قالوا :

« ان الحقوق التي يجب أن يتمتع بها ابناء الاقليات هي عدم التمييز بينهم وبين المواطنين الآخرين بسبب اختلاف القومية . وينبغي ضمان تساوي الفرص أمام الجميع للتعليم والتوظيف والاشتغال وغير ذلك ... » (١)

فحتى هذا التاريخ ، لم تكن القضية أيضا قضية انفصال بل **مساواة** .

كذلك حدد الحزب الشيوعي المصري موقفه تجاه دعوة الانفصال في نفس هذا الخط ، وهاجم دعوة الانفصال على أنها دعوة استعمارية ، فقال في معرض تحليل الاوضاع في العراق بعد الثورة : « ان العدوان يمكن ان ينفذ خلال ثغرة في الجبهة الداخلية ، فالعدوان الخارجي الذي يتربص بالثورة ، لا بد أن يسعى الى تمزيق وحدة الوطنيين . والعدو الداخلي الذي بدأ يفيق من ذهوله ، أصبح أشد خطرا بعد ان فقد زمام السلطة العليا . ففي العراق اقطاعيون خونة وشيوخ عشائر تربوا في أحضان الاستعمار .. ولقد درج الاستعماريون على تغذية حركة انفصالية في صفوف القومية الكردية وفي صفوف الاقلية التركية القليلة العدد التي يتحكم بها نفر من الاقوات المباعين للاستعمار .. » (٢)

ولقد حاول الشيوعيون في العراق بل وفي الوطن العربي، أن يجعلوا من مسالة الاكراد وسيلة لعرقلة الوحدة بين العراق والجمهورية العربية المتحدة . فاذا كان هذا المنطق قد قام على أساس قضية انفصال الاكراد حاليا عن العراق، فالشيوعيون انفسهم لم يكونوا ينادون بالانفصال . واذا كان هذا المنطق قد قام على أساس قضية المساواة في الحقوق والواجبات ، فان الوحدة لن تعرقل المساواة بل ستؤكدها .

ولكن موقف الشيوعيين لم يقم على أي منطق في الواقع . لقد كان هدفهم الاول والاخير اثارة أكبر قدر من العراقيل في وجه الوحدة ، وليس مهما في اخلاقهم " النضالية " أكانوا منسجمين مع موقفهم السياسي نفسه أم متناقضين معه ؟

* * *

(١) : صحيفة « اتحاد الشعب » (لسان الحزب الشيوعي العراقي) ١٧-٢-١٩٥٩ ـ العدد ٢٠ ـ السنة الاولى .

(٢) : بيان المكتب السياسي للحزب الشيوعي المصري بعنوان « حول بعض التطورات الاخيرة في الشرق العربي » ـ سبتمبر ١٩٥٨ ـ ص ٤ .

لم يكن الشعب العربي يعتبر التحــرر والوحدة شعارين منفصلين عن بعضهما ، بل لم يكن يعتبر التحرر الاجسرا يعبرعليهالى الوحدة، والشيوعيون الذين كانوا قد وصفوا كل محاولة لفصـــل شعار التحرر عن الوحدة بانهـــا «مــؤامرة استعمارية » (١) عادوا وســـاروا في نفس مخطط الاستعمار ، بل وعملوا على تعميقه وخلق المبررات الفكرية لتدعيمه .

وكان التكتيك الذى اتبعه الشيوعيون كما أسلفنا يقوم على التسليم الظاهرى بمبدأ الوحدة العربية ، ثم قطع انفاس المد الوحدوى بمسخ الوحـــدة الى تعاون سمى زيفا اتحادا فيدراليا ، ثم الانقلاب على كل القضية . وكان لا بد من أقنعة جديدة يلبسونها، وهكذا انتهـــوا الى موقف مناقض كليـــة فكريا وسياسيا للموقف الذى اقتضاه تكتيك التظاهـــر بالايمان بالوحدة في المرحلة السابقة .

* * *

قناع الديمقراطية

كانت الديمقراطيه ، منذ الاسابيع الأولى للثورة هي الستار الذى اختبأ خلفـــه الشيوعيون لضرب الوحدة بين العراق والجمهورية العربية المتحـدة ، كما اتخذت ستارا يختفى خلفه وجه الشـــيوعيين الانفصالى في كافة أجزاء الوطن العربى . وقد كان يمكن أن يكون لنا حول مفهوم الشيوعيين بالذات للديمقراطية حديث طويل ، ولكننا في الواقع لسنا في حاجة لاجراء أية مناقشة فكرية مع الشـــيوعيين بهذا الصدد ، فلقد عاش الشعب العـــربى مهزلة ديمقراطية الشيوعيين في العراق ، ورأى بعينيه معنى الحريات الديمقراطيه التى يتبجح بها الشيوعيـون فكريا وعمليا .

على الصعيد الفكرى ، أدرك الشعب العربي مهزلة مفهوم الديمقراطية الذى حدده الشـــيوعيون مرارا بعد ثورة العراق ، والذى أعطت احسن نمـــوذج عنه صحيفة الحزب الرســـمية « اتحاد الشعب » فقالت : من الحقائق الجلية التى برهنتها احـــداث السياســـة في عصرنا ، أن الموقف الســـليم من الديمقراطية ، انما يحدده على وجه الدقة ، الموقف من الحزب الشيوعى . » (٢)

وعلى الصعيد العملى ، رأى الشعب العــــربى ديمقراطية الشيوعيين في الجو الارهابي الذى نشروه في كافة انحاء العراق ، وفي حظر كل نشاط سياسي لا يتمشى مع وجهة نظرهم ، ولمس الشعب العـــربى المنجزا تالديمقراطية الهامة التى حققوها للشعب ، لمسها في المشانق التى نصبت في الموصل ، والمذابح التى نظمت في كركوك ، وعمليات الســـحل التى شهدتها مدن العراق المختلفة ، وعدالة وقانونيـــة محاكم المهداوى .

قناع الظروف الموضوعية

لا بد أن نقرر أولا أن تعبير « مراعاة الظـــروف الموضوعية » الذى أصبح القنـــاع الاول الذى يخفى وراءه الشيوعيون موقفهم المعادى لكل خطـــوة وحدوية ، لم يظهر الا بعد ثورة العراق والعمـــل المستميت الذى قاموا به لعرقلتها . ولكن هـــذا التعبير كان في الفترة التى سبقت التحول المسرحى في موقف الشيوعيين عام ١٩٥٦ - ١٩٥٨ ، يشكل النظرية الاساسية التى اعتمدت عليها معظم الاحزاب الشيوعية في انكار وحدة الامة العربية ومعارضـــة دعوة الوحدة العربية . وكان من الطبيعى أن يعـود هذا التعبير للظهور في هذه الفترة ليشكل من جديد (بعد تعديل طفيف) الاساس النظرى لمحـــاربة الوحدة . فالحركة الشيوعية لم تكن اذن تاتي بشيء جديد ، وانما كانت تبعث نظريتها القـــديمة التى أخفتها في فترة التاييد ، وذلك بعـــد أن عادت الى موقفها القديم من الوحدة .

وهكذا ، تناسى الحزب الشيوعى العراقى تقرير لجنته المركزية في الكونفرنس الثانى عـام ١٩٥٦ ، والذى أكدت فيه ان العرب يتطورون كامة واحـدة « رغم الحدود المصطنعة » ، وان « انعزال العـراق أمر مؤقت وغير طبيعى لانه معاكس لمنطق التطور » وبدأ التمهيد لبعث نظرية التطور الاقليمي الخاص . فقد جاء في بيان ٣ أيلول الآنف الذكر الذى أصدره شيوعيو العراق حول الاتحـــاد مع الجمهـورية العربية المتحدة :

« واذ يحدد حزبنا الكيان الموحـد الذى سيكلل نضال الامة العربية في مستقبلها على اعتباره جمهورية عربية اتحادية ديمقراطية ، يضع أمام عينيه الاوضاع التاريخية والمادية المختلفة لجموع البلدان العربية .» (ص ٤) .

وانطلاقا من هذا البيان طور الشيوعيون في العراق هذا الاتجاه كما سنرى بعد فترة حين أصدروا كتيبا

(١) : راجع مقررات اللجان المركزية للحزب الشـــيوعي في سوريا والعراق ولبنان .
(٢) : « اتحاد الشعب » - عدد ٧٩ - نيسان ١٩٥٩ .

كاملا لشرح هذه النظرية التآمرية وجعلوها بمثابة خطة لعملهم ضد الوحدة • (١)

وهكذا ، أيضا تناسى الحزب الشيوعي المصرى الموقف الذى حدده المكتب السياسي والذى وصف فيه تأثر البعض بالفروقات السطحية بين أجزاء الوطن بقوله « هذه النظرية ليست الا بقايا الانعزالية فى مصر ازاء القومية العربية » ، وانقلب ثانية الى تلك النظرية التى هاجمها !

ففى كراس « حول بعض التطورات الاخيرة فى الشرق العربى » الذى أصدره المكتب السياسى فى ١٥ ايلول ١٩٥٨ ، تغير الموقف وأصبح المنطق الفكرى الجديد يقول :

« وفى ظل قومية كالقومية العربية ممتدة فى بلاد مترامية الارجاء تسودها ظروف اقليمية واقتصادية واجتماعية متفاوتة ، يصبح من الضرورى ان نضع فى الاعتبار دائما حقيقتين أساسيتين هما: الخصائص الاقليمية ، والفروق الاقتصادية • » (ص ١١) •

ويقول : « ان أية وحدة تفرض بغير مراعاة للحقائق التاريخية والموضوعية ليست وحدة ناجحة •• » (ص ١٤) ؟

وفى أقل من سنة أيضا تناسى الحزب الشيوعى المصرى أنه هو الذى كان قد قال فى دراسته لتأييد القومية العربية : « ولا ينبغى أبدا أن يصبح شكل الوحدة عقبة تحول دون تحقيق الوحدة • أو أن يتخذ هذا الشكل مظهر صراع أو تناقض سياسى • وكذلك الشأن بالنسبة للاختلافات الاجتماعية والاقتصادية ، لا ينبغي أبدا أن ترقى الى مستوى الخلافات الاساسيه التى تعرقل طريق الوحدة الشاملة • » (١)

بجرة قلم ! طويت هذه الاقوال ، وحدد الحزب الشيوعى المصرى موقفه الجديد من الوحدة استنادا الى نظريته الجديدة للقومية العربية ، نظرية الخصائص الاقليمية والفروق الاقتصادية ، فوضع شروطا سماها «الشروط الموضوعية للوحدة العربية» يقول الشرط الثالث منها :

« ٣ ـ أن تضع فى الاعتبار الخصائص الاقليمية للبلاد المتحدة حتى لا تلغى شخصيتها أو تضعفها • » (٢)

لنراجع هذه الاقوال مرة أخرى : هل هو الفكر الذى يقرر مواقف الشيوعيين بصدد قضايا الامة العربية ؟

وليس لنا أن نتكلم كثيرا ، فهذا الحزب المرائى الذى شهدناه فى الصفحات السابقة تحليلاته الفكرية العديدة وانفعالاته الوجدانيه العاطفية الكاذبه فى تأييد الوحدة، كان منذ قيام الوحدة قد أعلن لاعضائه وجوب تأييد الوحدة « لكى لا ينعزل الحزب عن جماهير الشعب » ! فالقضية قضية تكتيكية وليست أبدا قضية ايمان مبدئى • وعلى هذا الاساس كان « مكتب العمل الجماهيرى فى السكرتارية المركزية للحزب الشيوعى المصرى » قد وجه النداء المذكور آنفا للاعضاء بعنوان « تقدموا الصفوف الوطنية •• » والذى جاء فيه بهذا الصدد :

« على هذا الاساس ، على أساس ان انجاز الوحدة يعد عملا وطنيا تحريريا ، يجب أن نرتب نحن الشيوعيين جميع مواقفنا • ان نقطة البدء فى عملنا ، ان مركز الثقل فى عملنا ، هو أن ننظر الى الوحدة من هذه الزاوية ، **فاذا لم نفعل ذلك نكون قد عزلنا انفسنا عن حركة التحرر العربية ، عن الحركة الوطنية ذاتها** » !

وفى الشهور القليلة التى تلت ثورة ١٤ تموز سار المخطط الشيوعى بخطوات سريعة فى مؤامرة محاربه كل خطوة وحدوية أو اتحادية تحت ستار « الظروف الموضوعية » • وأصدر الشيوعيون عددا من الكتب لتثبيت هذه النظرية وحشدوا كل أقلامهم فى صحف العراق وصحفهم فى لبنان لهذا الغرض •

الشيوعيون الذين لم يصدروا كتابا واحدا عن القومية العربية ، ولم يوزعوا على الشعب دراسة واحدة عنها ، تجلت ثوريتهم الكبرى فى هذا النشاط المحموم لتجنيد فكرهم المريض وأقلامهم الحاقدة للكتابة ضد الوحدة العربية • كان أسهل عليهم بكثير أن يهاجموها من أن يؤيدوها ، لانه أسهل على الانسان أن يكون منسجما مع نفسه ومشاعره . ولعل موقف التأييد التكتيكى الذى دام سنتين كان أكثر مما تحتمل مشاعر الشيوعيين •

نموذج من هذا النشاط الثورى فى التآمر على حركة الوحدة العربية ، الكتيب الذى أصدره الكاتب الشيوعى العراقى عامر عبد الله بعنوان « الطريق

---

(١) : كتاب للكاتب الشيوعى العراقى عامر عبد الله صدر بعد بضعة اشهر من الثورة بعنوان « الطريق التاريخى لوحدة الامة العربية » • والكتاب قد كرس بمجمله لتثبيت نظرية :« التطور الاقليمى المستقل » ، « والفروقات والاختلافات بين اجزاء الوطن » •»

(١) : دراسة المكتب السياسى للحزب الشيوعى المصرى بعنوان « مفهوم القومية العربية » ، ص ١٧ و ١٨ •

(٢) : بيان المكتب السياسى بعنوان : « بعض التطورات الاخيرة فى الشرق العربى » ، ص ١٠ •

التاريخي لوحدة الامة العربية » حيث يدون الكتاب من أول كلمة فيه الى آخر كلمة لاثبات : بأن الطريق التاريخي لوحدة الامة العربيـــة يدلل على ان الامة العربية لا تسير في طريق الوحدة ! وفي هذا الكتاب نجد أوضح صورة عن نظرية « الظروف الموضوعية الخاصة » التي تحولت الى مؤامرة فكرية ونضاليـة كبرى على مصير العرب القومي ٠

« باستطاعة كل فرد أن يلمس مدى التفاوت في الاوضاع والعلائق الاجتماعية – في المألوفات اليومية والمواصفات وبعض التقاليد – بين جزء من الوطـن العربي وأجزائه الاخرى ٠٠ بين سوريا أو لبنان أو مصر مثلا – وبين اليمن أو العربية السعـودية أو السـودان ، بين المستويات الحضـارية والنظم الاجتماعية والعلائق الحقوقية ، بين نجد وحضرموت مثلا ، وبين لبنان وسوريا ٠٠ بين بلد من المغرب وبلد آخر من المشرق ٠

« وليس بنا من حاجة الى الاستشهادات والمقارنات بين مختلف أوجه حياة المجتمعات العربية في أوطانها المجزأة المتباعدة ٠٠ فهي معروفة للجميع ٠ » (الكتاب السابق ص ٦٠) ٠

ثم يقول :

« ونتيجة لذلك ، دخل المجتمع العربي في طريق التطور اللامتناظر ، وتوزع فصائل متبـاعدة أو متقاربة على طول هذا الطريق ، وبمضي الزمن أصبح كل بلد عربي تقريبا ، يعيش في ظروف خاصـة ، وينهج سبيل تطوره بالتفاعل مع هذه الظروف ٠ » (ص ٣٩) ٠

والكتاب كله على هذا النمط ٠ وهكذا يصل الكاتب الشيوعي بعد هذا العرض الفكري الذي يمليه الحقد أكثر مما يمليه الفكر ، الى النتيجة العمليـة التي يتوج بها كل مضمون هذا الكتاب التي تفضح نهائيا المؤامرة الشيوعية التي تركبت من أجلها كل هـذه الفرضيات المغلوطة ، فيقول ان الوحدة ليست مجال بحث الآن ولماذا ؟ لانه :

« يجب أن نسعى الى خلق تناظر في الاوضـاع والمستويات كشرط للتوحيد الاشمـل » ! (ص ٣٠) ٠

ولا شك أن القارىء يأخذه العجب بين هـذه الاقوال وبين أقوال أخرى حول نفس الموضوع قيلت قبل بضعة أشهر وكانت مناقضة كليا لما هي عليه الآن !! ونحن نفهم أن يساق هذا المنطق الفكري الذي عمم على كافة الاحزاب الشيوعية ، فيما لو كان هذا هو منطقهم الفكري طوال هذه المدة ٠ في هذه الحالة يتمتعون بفضيلة الامانة على الاقل ، أما أن يتبدل الاساس الفكري (الذي قالوا به ولو تظاهرا) يتبدل المواقف السياسية ، فتكون القومية العربية بصفات معينة ثم تصبح بصفات أخرى ، ويكون التطلـع القومي للعرب في خط ثم يصبح في خط آخر ، فهذا ما لا نفهمه الا فلسفة لتبرير الانحراف والتآمر ٠٠ وليس لنا الا أن نقول : بئس الفكر ٠

* * *

ان الحركة القومية العربية الثورية لا تنكر أثر سني التجزئة وعمل الاستعمار المتعمد في ايجاد بعض التباين بين أجزاء الوطن الواحد ٠ ولكنهـا تختلف مع الحركة الشيوعية في ثلاث نقاط جذرية :

تختلف أولا في تقييم هذا التباين ٠ ولو استعملنا تعبير الشيوعيين أنفسهم حول تقييمنا لهذه الناحية ! نقول : « ومهما كانت الفوارق السطحية التي تبدو لنا ٠٠ مقنعة للبعض منا بأننا في نهاية الامر مختلفون نفسيا عن بقية العرب ، الا أن هذه النظرة ليست الا بقايا الانعزالية ٠٠ ازاء القومية العربية » (١) ٠ ان هذه الفوارق سطحية فضلا عن كونها مصطنعة ، واذا أعدنا الشيوعيين « العلميين جدا » الى التـاريخ الانساني القريب نقول : اننا لم نجد أمة واحـدة توحدت الا و كان بين أجزاء وطنها مثل هـذه الفوارق السطحية ، و لم تمنعها هذه الفـوارق السطحية من أن تتوحد لانها فوارق سطحية زائلة تذوب سريعا أمام وعي الامة لحقيقتها الواحـدة ، كذلك لم تتبع هذه الامم الحل العبقري الذي يقدمه لنا الشيوعيون وهو : « الانتظار حتى تتمـاثل الاوضاع ! » ، لانها لو اتبعته لما كانت توحدت ٠

وتختلف ثانيا في طريقة حل هذا التباين السطحي وهذا ما يدفعنا الى التأكيد بأننا لا ننكر الاختلافات السطحية التي وجدت وتوجد في كافة أمم الارض ، ولكننا نحارب بشدة الدعوات الانفصالية التي تتستر وراء « الظروف الموضوعية الخاصة » بينما تعمـل باستماتة لتثبيت التجزئة وعرقلة الوحدة ٠

وهذا هو بالضبط ما يقوم به الشيوعيون ٠٠

(١) : بيان الحزب الشيوعي المصري « مفهوم القوميـة العربية » ٠

هناك فرق كبير بين أن نعترف ببعض الاختلافات الطفيفة وان نأخذ طريق الوحدة مفتاحا لحلهـــا والتخلص منها ، وبين أن نأخذ طريق التجزئة لحل مشاكل التجزئة ٠

فبناء على تلك المؤامرة الفكرية المفضوحة يقول لنا الشيوعيون :

لننتظر حتى يتماثل الوضع الاقتصادى والمستوى المعيشى لكافة أجزاء الوطن العربى !

ولننتظر حتى يتماثل الوضع الثقافى والمستوى العلمى ٠

ولننتظر حتى تتماثل الاوضاع الاجتماعيـــة « والمألوفات اليومية والمواصفات » !

لان شرط تحقيق الوحدة او الاتحاد الفعلى الكامل هو تماثل جميع الاوضاع والظروف الاقتصـــادية والاجتماعية والثقافية بين « المجتمعات العربية » فى «أوطانها المتباعدة » ! وبما ان هذه الاوضـــاع غير متماثلة ، اذن فكل خطوة وحدوية جدية ثورية ترتفع فوق مستوى « التعاون » غير واردة الان ، ويجب ان ننتظر حتى يتحقق هذا التماثل ٠

والام يؤدى هذا المنطق الفكرى الضحل المتآمر على مصير الوحدة العربية ؟

فكلما مر الزمن على واقع الكيانات والتجزئة كلما تعمقت « الظروف الموضوعية الخاصة » ، لان التجزئة اذا تركت للتطور العفوى التلقائى لن تؤدى ابدا الى الوحدة بل الى زيادة تعميق التجزئة ٠

وعلى العكس تماما ٠

ان نقطة الانطلاق الصحيحة للقضاء بسرعة على هذه الرواسب والاختلافات التى ولدها الاستعمار والتجزئة لن تكون الا فى وسط وحدوى ٠

وبهذا المنطق المتآمر يريد الشيوعيون أن يدفعوا حركة الوحدة الى وسط الدائرة الخبيثـــة التى لا تنتهى ٠

فكلما مر الزمن ، كلما ازدادت الظروف الخاصة « خصوصية » ، وكلما تباعدت مناحى التطـــور الاقتصادى والثقافى واتخذت تجاربها الخاصة الاقليمية ٠٠ أى : كلما وجدت ظروف خاصة جديدة تمنـــع « التناظر والتماثل » ، وتعطى للشيوعيين بالتـــالى المبرر لابعاد الوحدة من جديد !

* * *

الشيوعيون يتخلون عن الاتحاد الفيدرالى ويرفعون شعار « التضامن ووحدة الصف العربى »

قناع : القومية العربية لا تعنى الوحدة ٠ والوحدة خطأ استراتيجى

فى هذه الفترة التى كانت تتركز فيهـــا المؤامرة الفكرية على الوحدة والاتحاد لتبرير انقـــلاب الشيوعيين ضدها بشكل سافر علنى ، كانت تجرى فى العراق أحداث هامة ٠ فلقد وجد الشـــيوعيون ــ ألد أعداء الاستعمار ! ــ فى عبد الكريم قاســـم ومجموعة الانتهازيين أكبر سند لهم فى تنفيذ المخطط الهادف لضرب كل خطوة وحدوية، كذلك وجد هؤلاء، ومن ورائهم الاستعمار البريطانى ، فى الشيوعيين قوة جاهزة لضرب الاتجاه القومى الوحدوى ، وهكذا قام ذلك الحلف الذى توج ثورية الحركة الشيوعية ٠

وفى هذه الفترة أيضا ، وجنبا الى جنب مع الحلف المقدس بين الشيوعيين والانتهازيين وعملاء الغرب ، بدأ الشيوعيون يمهدون لاعمال الاتحاد الفيـــدرالى الذى تظاهروا بالايمان به طوال الفترة السابقة !

وكالعادة ، كان لا بد من تبريرات فكرية جديدة لفلسفة الخيانة الجديدة ، ومرة أخرى تداس الحقيقة الفكرية بشكل مهين ليتخذ الشيوعيون منطقا فكريا وسياسيا جديدا مناقضا على خط مستقيم لموقفهم الفكرى السابق من القومية العربية والوحـــدة العربية ٠

* * *

القومية العربية ، لا تعنى الوحدة ، والوحدة خطأ استراتيجى ٠

كان هذا هو الاتجاه الجديد الذى بدأ يحتل مكانا هاما فى توجيه الشيوعيين ٠ ولن نطيل فى عرضه بل سنأخذ نموذجا واحدا ٠ فى هذه الفترة انبرى عزيز الحاج ، أحد قادة الشيوعيين العراقيين والذى كتب كتابين كاملين لتثبيت الاساس الفكرى لفلســـفة خيانة الوحدة العربية ، انبرى ليثبت مفهوما جديدا للقومية العربية الواحدة :

« ليس حتما لكل شعب من قومية واحـــدة أن يؤلف دولة واحدة ٠

« وليس انشاء الدولة الواحدة هى الصورة التى لا صورة الاها للتعبير عن الوحدة ، بل قد لا تكون الدولة الواحدة هى الصورة المفضلة فى جميـــع الظروف »

« فاذا ادركنا هاتين الحقيقتين كان لنا أن نقول بصراحة لبعض القوميين العرب الذين يلحون على توحيد العرب كلهم في دولة واحدة ، انكم منحرفون عن جادة الصواب ، بل انكم تسيئون الى القضية العربية نفسها ، اذ يغيب عنكم أن المعنى الاول للوحدة في هذه المرحلة التاريخية ليس هو وحدة الدولة ، و انما هو وحدة الكفاح للتحرر من الاستعمار ، ومن انظمة الحكم الرجعية الخادمة للاستعمار واسرائيل ..

.. هذا ما نقوله صراحة لبعض الاصدقاء من القوميين العرب ، الذين لا يفهمون للقومية العربية معنى الا أن تكون تصفية للدول العربية القائمة وادغامها في دولة واحدة .. » (١)

والحقيقة : اننا لم نجد قولا يجسد فلسفة الخيانة لمفهوم الامة الواحدة ، ولا قولا يتدنى في مستواه الفكري لهذه الضحالة ، مثل هذا القول .

ونحن نقول للكاتب الشيوعي الكبير : نعم ، نحن القوميين العرب لا نفهم للقومية العربية معنى الا القضاء على واقع الكيانات وتوحيدها في دولة واحدة . واذا كان الكاتب الشيوعي بعقليته الانفصالية التجزيئية المقيتة يعتقد أن هذه « تهمة » فنحن فخورون جدا بها ، ولكننا نترك للشعب العربي أن يحكم بنفسه على هذه الخيانة الفكرية والعملية والتآمر الصريح على بقائها ووجود أمته العربية .

واذا كان الشيوعيون قد خرجوا أخيرا بهذا المنطق الفكري المفلوج كحل للتناقض الذي لا حل له بين ادعائهم الايمان بالقومية العربية الواحدة ثم رفضهم الوحدة العربية ، فاننا نريد أن نزود المفكرين الشيوعيين الكبار ببعض المعلومات الفكرية التي لابد لهم أن يدركوها لانقاذ انفسهم من هذا التدني الفكري المزري على الاقل .

ان الوحدة هي التجسيد العملي للقومية الواحدة . والدولة الواحدة هي التعبير المستقبل عن الامة الواحدة . ولم نسمع حتى الان ، عن اتجاه ينفي هذه الحقائق البديهية ويبرر بقاء الامة الواحدة شرعيا في خمسين دولة . ولو سار منطق التطور التاريخي الاجتماعي للامم على هذا الاساس المفلوج ، لما قامت أبدا دول الامم في العالم ، ولما توحدت أبدا هذه الامم .

فالام يؤدي هذا التوجيه الفكري للشيوعيين ؟ هل الا الى تعميق واقع الكيانات والتجزئة وخلودها؟ أو لم يقل الشيوعيون أنفسهم في كافة بياناتهم ومنشوراتهم ومقررات لجانهم المركزية ومكاتبهم السياسية أن الاستعمار هو الذي جزأ الوطن الواحد وهو وعميلته « اسرائيل » والصهيونية العالمية والحكام المصلحيون هم الذين يعملون لابقاء هذه التجزئة ؟

اذن ، فبلسان من يتكلم الشيوعيون الا بلسان الاستعمار والصهيونية و « اسرائيل » ؟

ولكن هذا لم يكن الا الوجه الواحد للمؤامرة .

وكان الوجه الثاني ، كنتيجة طبيعية ، هو التخلي نهائيا عن الاتحاد الفيدرالي الذين زعموا أنهم أخلص دعاته ، بل واتهام كل من يعمل في هذا الاتجاه بانه يعمل ضد مقتضيات المرحلة الواهنة من حياة العرب !

فالوحدة ، بل والاتحاد، بل والاتحاد الكونفدرالي، لم تعد ، كلها ، أمورا تهم الشعب العربي الان .. ويجب اقصاءها وعدم التفكير بها بتاتا . وهكذا يعود الكاتب الشيوعي ليقول :

« ان منطق اخواننا لا ينطلق من حقيقة أن ما يهم الشعوب العربية اليوم قبل أي شيء آخر ، هو وحدة كفاحها الحازم للتحرر من الاستعمار والرجعية وتحشيد الجماهير العربية الواسعة في كل مكان تحت هذه الراية المقدسة . »(١)

وهكذا اصبح الكفاح الحازم ضد الاستعمار مبررا جديدا لعرقلة الوحدة واهمال كل خطوة في طريقها !

الم يقل الشيوعيون انفسهم في قرار اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان عن الوحدة العربية عام ١٩٥٦ : « ان محاولة فصل شعار التحرر عن شعار الوحدة هي مؤامرة استعمارية » ؟

التشكيك الاقتصادي

ليس من الضروري في الواقع ان نتحدث طويلا عن حملات الدس الرخيصة التي نظمها الشيوعيون لتهديم نواة الوحدة ، ذلك أنها كانت جزءا من مخطط عام يعرف الشعب جيدا ان الحقد وليست الحقائق هو محركه الاول ، وأن الشيوعية المحلية في الوطن

---

(١) : عزيز الحاج – في كتابه « ثورتنا في العراق وقضية الوحدة » ، ص ١١٦ – في معرض تأييده مقال لرئيف الخوري حول نفس الموضوع نشر في مجلة « الآداب » ، ايلول – تشرين الاول ١٩٥٨ .

(٢) : عزيز الحاج : « ثورتنا في العراق وقضية الوحدة » – ص ٤٢

التقت فيه على صعيد واحد مع الجبهة الاستعمارية الرجعية والصهيونية التقاء واضحا .

ما يهمنا ان نشير اليه أن حملات التشكيك والهجوم على الاوضاع الاقتصادية فى الجمهورية العربية المتحدة ، تعطى صورة نموذجية عن « ثورية» الشيوعيين فى الانقلاب بكل بساطة على مواقفهم الفكرية السابقة ، وفى دوس وامتهان الحقائق العلمية فى سبيل تنفيذ مخططهم الانفصالى .

يذكر القارىء بوضوح تلك البيانات الطويلة التى اصدرتها اللجان المركزية للاحزاب الشيوعية حول الدور الذى ستلعبه الوحدة فى الميدان الاقتصادى من حياة الشعب العربى . والقارىء لا يستطيع الا أن يصاب بالذهول حين يطلع على الصورة المشينة التى تقض بها الشيوعيون تلك البيانات بعد أشهر معدودة من تدبيجها !

والمتتبع لخط التشكيك والهجوم الاقتصادى على نواة الوحدة يرى بوضوح أنه كان مخططا عاما بدأت تنفذه كافة الاحزاب الشيوعية فى الوطن . فصحف الحزب الشيوعى اللبنانى ـ الاخبار والنداء ـ وصحف الحزب الشيوعى العراقى ـ اتحاد الشعب وصوت الاحرار ـ والنشرات الداخلية الموزعة على اعضاء الحزب الشيوعى السورى ، وتصريحات خالد بكداش الحاقدة والمفتقرة لابسط مبادىء العلمية فى اذاعات بعض دول أوروبا الشرقية، وتصريحاته الشهيرة لمجلة الاخبار البيروتية ، وخطابه الناقم فى احتفالات ذكرى التحرير فى الصين الشعبية ، وحملات الدس والتشكيك التى أصبحت هى الواجب الاول لاعضاء هذه الاحزاب ، كلها ، ليست الا نموذجا عن هذا المخطط الذى ألغى فيه الشيوعيون ، ببساطة مزرية، كافة أقوالهم السابقة. وبعد أن كان قيام الجمهورية العربية المتحدة هو « عيد البشرية التقدمية كلها » كما قال الحزب الشيوعى المصرى ، وبعد أن كان الاتحاد هو « وحده طريق التكامل والنمو والتطور الاقتصادى » كما قال الحزب الشيوعى السورى ، وبعد ان كان جمال عبد الناصر « عملاقا من نسج الاساطير » كما وصفته « النور » جريدة الحزب الرسمية نفسها ، بعد ذلك كله ، وفى مدى بضعة أشهر ، أصبحت الجمهورية العربية المتحدة ، دولة بورجوازية يحكمها أكبار الرأسماليين ضد مصلحة الشعب ، وأصبحت الاوضاع الاقتصادية « ازمة خانقة » الخ ..

ويستطيع القارىء أن يجد هذه الحملة الحاقدة فى كل نشرة أو صحيفة أو كراس اصدره الشيوعيون بعد فترة من قيام الجمهورية العربية المتحدة . وسنقدم هنا نموذجا بسيطا ليرى القارىء مدى « علمية » الشيوعيين فى مناقشة الاوضاع الاقتصادية فى نواة الوحدة .

« فالصناعة السورية مهددة بالخراب ، والمعامل مهددة باغلاق أبوابها ، وزراعة القطن تضيق مساحاتها ، وزراعة الرز الغيت تقريبا ، والاسعار فى تقلب دائم . يضاف الى ذلك سوء الموسم وموت قطعان الماشية وشح الحبوب ونقص السمن .. وهذا الوضع متعمد ومقصود أملته مصالح بنك مصر وكبار الاحتكاريين المصريين الذين أخذوا يسيطرون شيئا فشيئا على السوق السورية .. » (١)

ان مقدار « الصدق » الكامن فى هذا الموقف يستطيع القارىء أن يكتشفه بسهولة من تذكره لهذه السرعة العجيبة التى حول بها الشيوعيون الوضع الاقتصادى من وضع « فتحت الوحدة أمامه أرحب مجالات التطور » الى هذه الصورة المعروضة والتى تفتقر الى ذرة واحدة من الصدق والعلمية .

ولن نتكلم عن التقدم الاقتصادى الذى حققه الاقليم الشمالى ، بعد الوحدة ، ولكننا نريد أن نشير الى هذا التحليل « العلمى » جدا الذى يسوقه الشيوعيون حين يجعلون سوء الموسم وموت قطعان الماشية وشح الحبوب « وضع متعمد ومقصود أملته مصالح بنك مصر وكبار الاحتكاريين المصريين » !

فهل هى « العلمية » أم الحقد الاسود الذى يستند اليه منطق الشيوعيين العرب ؟

هذا نموذج فى الواقع عن التحليلات الاقتصادية التى كانت تشكل قوام مخطط الشيوعيين لتخريب الوحدة عن طريق التشكيك الاقتصادى . ولعله من الواضح أن الاحزاب الشيوعية لو كانت أحزابا تحترم الفكر والحقيقة والوقائع ، لما تجاهلت الانجازات الاقتصادية الهامة التى تجرى فى الجمهورية العربية المتحدة : الاصلاح الزراعى وتوزيع الارض على الفلاحين وتصفية الاقطاع ، قوانين الشركات وتملك الاسهم وتحديد الارباح ، تأميم بنك مصر ، تشريعات العمل الجديدة ، تأميم وسائل النقل بالسيارات فى الاقليم الجنوبى ، تشريعات الضرائب ، الخ ..

اننا نعلم أن الجمهورية العربية المتحدة لا زالت فى بداية الطريق نحو الاشتراكية ، ولكن هناك فرقا كبيرا جدا بين أن نعترف بهذه الانجازات التقدمية ونؤيدها ، ونطالب بانجازات أخرى تتطور مع تطور امكانياتنا على أساس التفهم المخلص

(١) : نشرة داخلية وزعتها على اعضاء الحزب الشيوعى السورى بعد ستة اشهر فقط من قيام الوحدة !

لمتطلبات هذه المرحلة التى نمر بها خلال سيرنا نحو الاشتراكية ، وبين أن نتجاهل تجاهلا تاما كافة هذه الانجازات الاقتصادية الاجتماعية التقدمية ، بل ونصورها على العكس تماما ، بانها « أزمة خانقة » .

ولعلنا لا نزال نذكر أن البرنامج الوطنى للحزب الشيوعى السورى اللبنانى عام ١٩٤٤ لم يطالب حتى بتوزيع أراضى كبار الاقطاعيين على الفلاحين . وأن الاهداف الاستراتيجية التى حددها خالد بكداش للحزب الشيوعى عام ١٩٥٥ فى كتاب « حزب العمال والفلاحين » لم تتطرق الا لبعض اصلاحات بسيطة تجاوزتها الانجازات الاقتصادية الاجتماعية التى قامت وتقوم الجمهورية العربية المتحدة بمرحلة هامة !!

ولكن .. ومرة أخرى ، ليست الحقيقة الفكرية هى التى توجه منطق الشيوعيين ، وانما هو الحقد الاعمى .

* * *

وفى الوقت الذى كانت تطلق فيه هذه الدعوات التى تستتر وراءها نزعة انفصالية شرسة حاول الشيوعيون عبثا الباسها ثوبا من المنطق ، تغير شعار المظاهرات الشيوعية فى العراق من « اتحاد فيدرالى وصداقة سوفييتية » الى « لا وحدة ولا اتحاد بل تصنيع البلاد » و « يا كريم للامام ، ديمقراطية وسلام » .

وبرز شعار جديد ليحل محل الاتحاد الفيدرالى ، وماذا كان هذه المرة ؟

التضامن العربى !

وهكذا وضع الشيوعيون قضية الوحدة فى نطاق العموميات القديمة ، التضامن والتعاون والتنسيق . وكتب عزيز الحاج ، يعبر عن موقف الحزب الشيوعى الجديد :

« ان جمهوريتنا ولدت واضحة المبادىء منذ لحظة ولادتها .. ان سياستها الخارجية تحررية قومية ، قوامها مؤتمر باندونغ وميثاق الجامعة العربية وميثاق الامم المتحدة . » (١)

لقد كان أولى بالشيوعيين أن يقولوا منذ البداية ان غاية طموحهم هو ميثاق جامعة الدول العربية . فهكذا يريد الشيوعيون أن يستخرجوا من هذا الميثاق وحدة عربية صحيحة !

ولكن هذا لم يكن كل شىء ..

ففى الوقت الذى ارتفع فيه فى مظاهرات الشيوعيين فى العراق ذلك الشعار الدموى الحاقد « أعدم اعدم يا كريم » ، نسفت حتى دعوة التضامن العربى وارتفع شعار جديد : « الجمهورية العراقية الخالدة » ، وبدأ فى لبنان دفاع حار عن « كيان لبنان الخالد » كما بدأ الحزب الشيوعى السورى يطالب باعادة النظر فى وحدة مصر وسوريا ، أى بتهديم الجمهورية العربية المتحدة !

لقد وضعت الحركة الشيوعية المحلية نفسها فى الوطن عقبة فى طريق التطور القومى التاريخى للعرب نحو الوحدة العربية ، فلا بد أن تضعها الحركة القومية العربية الثورية فى صف أعداء الامة ، ولا بد أن تدوسها فى زحفها نحو هذا الهدف المقدس .

(راجع الصور الزنكوغرافية لاهم البيانات الرسمية التى تظهر التقلب التكتيكى المصلحى للشيوعية المحلية طوال هذه المرحلة بصدد قضية الوحدة ، فى الملحق بآخر الكتاب) .

* * *

---

(١) : ثورتنا فى العراق وقضية الوحدة — عزيز الحاج — ص ٨٤ .

القسم الثالث

الشيوعية المحلية وقضية فلسطين

الشيوعية المحلية وقضية فلسطين

ما من عربيين يختلفان ان قضية فلسطين هي من أدمى جبهات نضال الامة العربية في معركة البقاء ان لم نقل أدماها ، وان نكبة فلسطين كانت أفدح كارثة حلت بالعرب في تاريخهم الحديث . لم تكن نكبة فلسطين قضية الارض العربية التي اغتصبت فقط ، ولا قضية (الدولة) اليهودية الغازية التي قامت فيها على اساس حق قومي تاريخي مزيف ، ولا قضية المليون عربي الذين شردوا عن ديارهم ، ولا العار الذي اصاب كرامة الامة في الصميم فقط ، بل كانت كل الامور مجتمعة ، ولهذا كانت وما تزال تحتل مكانا اول في تفكير الشعب العربي ومشاعره وأهدافه .

ولئن كانت نكبة فلسطين قد كشفت الغطاء عن الواقع العربي المجزأ المستعمر الفاسد ، وايقظت في الشعب ذلك الشعور القومي الدافق المتعاظم الذي لعب الدور الاول في تحقيق انتصارات النضال العربي في السنوات التي اعقبت النكبة ، فانها كذلك قد عرت الحكام والقوى والتيارات العاملة في الوطن واظهرتها للشعب على حقيقتها .

ومزقت النكبة آخر ستار كانت ترتديه الحركة الشيوعية تجاه هذه القضية الدامية ، وابرزت للعيان حقيقة موقفها الاسود الطويل الذي فاق كثيرا موقفها المتنكر المتقلب المتآمر من القومية العربية والوحدة العربية .

والواقع أن موقف الحركة الشيوعية في الوطن من قضية فلسطين ، يؤكد أكثر من موقفها بصدد اية قضية قومية أخرى ، الحقيقتين الاساسيتين اللتين كانتا تتحكمان بموقفها وتوجهاته طيلة تاريخ عملها :

الحقيقة الاولى : تبعية الحركة الشيوعية المحلية تبعية تامة للشيوعية الدولية ، ودوسها باستمرار ودون اي تردد لمصلحة الامة العربية في سبيل مصلحة الشيوعية الدولية التي كانت بدورها تعكس طيلة هذه الفترة مصلحة الاتحاد السوفييتي .

والحقيقة الثانية : بعد هذه الحركة بعدا تاما عن مشاعر العرب القومية تجاه قضاياهم الرئيسية ، وانغلاقها كليا عليها بحيث يعطي موقفها من قضية فلسطين أوضح صورة عن واقعها كحركة غريبة اجنبية معزولة عن احاسيس الشعب وارادته وأهدافه ، بل متآمرة عليها باستمرار .

انه مهما قلنا ، فلا نستطيع ابدا أن نعبر عن مشاعر الازدراء التي تمتلك أي فرد عربي حين يتابع تفاصيل خيانة الشيوعيين لهذه القضية الدامية المقدسة ، وقد كان أكثر ما يعلق بذهن الشعب العربي في هذا الصدد هو موقفهم بتأييد تقسيم فلسطين عام ١٩٤٨ ، ولكن .. هل كان تأييد قيام دولة يهودية في جزء من وطننا هو كل موقفهم المتآمر على هذه القضية ؟

ابدا .. والموقف اطول من ذلك بكثير ..

ونستطيع ان نميز في موقف الشيوعيين بصدد قضية فلسطين أربع فترات رئيسية :

الفترة الاولى : تمتد منذ تأسيس الاحزاب الشيوعية حتى التقسيم عام ١٩٤٧ ، وفي هذه الفترة كان الشيوعيون يعادون بشدة — في موقفهم الدعاوي على الاقل — فكرة الوطن القومي اليهودي ويهاجمون التقسيم بحماس مستندين في ذلك الى جملة من التحليلات الفكرية والسياسية للقضية . وفي هذه الفترة وصفت فكرة الوطن القومي اليهودي بأنها فكرة باطلة تعمل لها الحركة الصهيونية الرجعية طليعة الرأسمالية ، ووصفت مشاريع التقسيم بأنها جزء من المؤامرة الاستعمارية الكبرى على العرب .

ولكن جنبا الى جنب مع هذا الموقف ، عمل الشيوعيون على طمس جوهر النزاع العربي اليهودي فتجاهلوه ودعوا الى فكرة الاخاء العربي اليهودي ، كما اتخذوا موقفا سلبيا انهزاميا من الثورات التي قامت وخصوصا في أعوام ١٩٣١ — ١٩٣٩

الفترة الثانية : موقفهم من التقسيم عام ١٩٤٧ ومن حرب فلسطين عام ١٩٤٨ . وهنا نجد انقلابا غريبا فى الموقف القديم ، حيث عاد الشيوعيون ومسحوا كل أفكارهم السابقة وايدوا التقسيم ، مؤيدين بذلك طبعا فكرة الوطن القومي اليهودى وقدموا فى تبرير هذا الموقف التآمرى التاريخى جملة من المبررات الفكرية والسياسية جاءت تناقض مناقضة غريبة لمبررات الفترة الاولى . **فجعلوا من** (اسرائيل) ((واحة للديمقراطية فى فى الشرق الاوسط)) ، وجعلوا اليهود امة تكون وشعبا له حق الحياة فى فلسطين !

كما وقفوا موقفا أكثر خزيا من حرب فلسطين بعد ذلك بعام ، فطمسوا مرة أخرى جوهرها كحرب فى سبيل حق قومى ضد الاغتصاب اليهودى والاستعمار ، وجعلوها « حربا عنصريه دينيسة، وحربا اقطاعية ، وحربا قامت بها البورجوازية لالهاء العمال عن مطالبهم الاقتصادية ، وحربادبرها الاستعمار لتدريب الجيوش العربية على القتال استعدادا للحرب ضد الاتحاد السوفييتى)) ! ولم يشتركوا فى هذه الحرب ، بل قامت مظاهراتهم ، وظهرت منشوراتهم تدعو الى ايقاف ما سموه دون اى خجل (الحرب الفلسطينية القذرة) !

الفترة الثالثة : موقفهم منذ وقوع النكبة وقيام اسرائيل عام ١٩٤٨ حتى بداية تغير السياسة السوفييتية وتقربها من العرب عام ١٩٥٥ ، وفى هذه الفترة دعوا الى تحقيق الصلح بين العرب واسرائيل ، بعد أن أيدوا شرعية قيامها عاملين بذلك على تثبيت كيانها وتحقيق حلمها الكبير فى الوطن ، ((لان التوتر لا يستفيد منه الا الاستعمار)) ! كما عملوا على خنق موجة النقمة العارمة التى سرت فى صفوف الشعب العربى اثر النكبة ، ودعوا الى الاخاء العربى اليهودى (لمقاومة مشاريع الاستعمار الحربية) .

الفترة الرابعة : وهى فترة السنوات التى تلت عام ١٩٥٥ حيث عاد الشيوعيون وسكتوا عن دعوة الصلح بين العرب واسرائيل ، ثم بدأوا لاول مرة يهاجمون اسرائيل كدولة ، وذلك بعد التحول الذى طرأ على السياسة السوفييتية تجاه اسرائيل فى تلك الفترة ، ارضاء للحركة القومية العربية الثورية التى كانت تخوض كفاحا عنيفا ضد الاحلاف ومشاريع الاستعمار ومؤامراته ، وبعد النمو العظيم الذى سجله المد الشعبى والذى كان لابد ، كالعادة ، من التلاؤم معه لضمان عدم الانعزال عنه . ولكن حتى فى هذه الفترة ، نجد أن الشيوعيين لم ينادوا أبدا بازالة كيان اسرائيل كدولة عاملين مرة اخرى على طمس جوهر قضية فلسطين ، كما كان لهم موقف أكثر بشاعة فى سلوكهم تجاه حرب فلسطين عام ١٩٤٨ ، وذلك حين دعوا الى التفاوض مع السلطات اليهودية فى فترة الاحتلال اليهودى لقطاع غزة اثر العدوان الثلاثى الغادر على مصر عام ١٩٥٦ .

هذه صورة عن تاريخ موقف الشيوعيين من قضية فلسطين . ولعل القارىء العربى تأخذه الدهشة لهذا التاريخ الحافل الذى فاق فى خياناته الصريحة خيانات فرسان النكبة من الحكام العرب فى مصر العهد البائد ، وفى العراق والاردن ، ولعل الافضل أن نعود الى الوثائق .

***

لابد لنا قبل البحث فى هذا التاريخ الحافل ان نتوقف قليلا عند ناحية تلفت انتباه كل متتبع لهذه القضية ، لانها تشكل ظاهرة عامة شاملة لكل الاحزاب الشيوعية فى الوطن العربى . وتلك هى : **ظاهرة الدور الرئيسى البارز الذى لعبه اليهود فى الاحزاب الشيوعية .** نحن نعلم طبعا أن الحزب الشيوعى هو حزب (الاممية البروليتارية) ويجب أن يكتل الناس (دون أى فرق فى القومية) ، ولكن من الصعب جدا اغفال هذه الظاهرة حين نتحدث عن قضية محددة معينة ، هى قضية فلسطين . وتصبح هذه الظاهرة جديرة فعلا بتفكير عميق حين نعلم أن الحزب الشيوعى اليهودى قد حارب العرب عام ١٩٤٨، تماما كما حاربهم جنودالهاجاناه ولماذا ؟ فى سبيل اقامة (دولة اسرائيل) هدف الصهيونية الكبير ! وحين تتذكر الدور المعروف للجميع الذى لعبه الحزب الشيوعى اليهودى فى حرب عام ١٩٤٨ يوم طار (ميكونيس) سكرتير عام الحزب الشيوعى اليهودى الى اوروبا الشرقية واستطاع أن يحصل منها على الاسلحة لتقوية مركز الهاجاناه ما بين الهدنة الاولى والثانيةللحرب! وحين نتذكر أن الحزب الشيوعى اليهودى فى اسرائيل لم يقف أبدا موقفا معارضا من العدوان الثلاثى الانجليزى الفرنسى اليهودى على مصر عام ١٩٥٦ ، بل اشترك أعضاؤه فى هذه الحرب ضد العرب كجنود فى جيش اسرائيل لتحقيق اهدافها التوسعية الجديدة !

لقد حارب اليهود الشيوعيون قبل النكبة وبعدها ، فى سبيل اقامة اسرائيل ، ثم فى سبيل تحقيق أهداف اسرائيل دولة الصهيونية العالمية ، ولم يكترثوا لحق العرب القومى فى فلسطين ، بل

حاربوه بنفس الروحية والعقلية التي حاربته بهـا كل المنظمات اليهودية .

اذن ، بماذا يختلف اليهود الشيوعيون في الاحزاب الشيوعية العربية عن اليهود في الحزب الشيوعي اليهودي ؟

الا تدعو هذه الظاهره للتفكير ، وبشكل خاص حين نعلم ان الدور الذي لعبه اليهود في الاحزاب الشيوعية لم يكن دورا ثانويا ابدا ، بل كان دورا قياديا من الدرجة الاولى !

فالحزب الشيوعي الذي تاسس في فلسطين ، في الربع الاول — تقريبا — من هذا القرن ، كان في البداية حزبا يهوديا خالصا ، ثم بدأت تدخله عناصر عربيه فيما بعد ، والحزب الشـيوعي الفلسطيني الذي انطلق في العمل بعد ذلك كان يضم الشيوعيين العرب الى جانب الشيوعيين اليهود ، وكانت اللجنة المركزية للحزب مختلطة ايضا من العرب واليهود ، واستمر هذا الوضع طيلة الاحداث الدامية المتوالية التي شهدتها فلسطين حتى عام ١٩٤٣ ، حيث لم يعد باستطاعة هذا الحزب أن يستمر في وضعـه المختلط المريب فاضطر الى الانفصال في ذلك العام . وشكل الشيوعيون اليهـود حزبا باسم : (الحزب الشيوعي اليهودي) وشكل الشيوعيون العـرب حزبهم تحت اسم (عصبة التحرر الوطني) في عام ١٩٤٤ ، ولكن هذا الانفصال لم يؤثر على عمـل الشيوعيين اليهود والعرب المشترك ، بل استمرت الاتصالات والتشاور لاتخاذ مواقف مشتركة مـن الاحداث الجارية .

وبقي هذا الوضع الى عام ١٩٤٨ حيث عـاد الحزبان واندمجا مرة ثانية بعد قيام اسرائيـل في (الحزب الشيوعي الاسرائيلي) (١) .

وعمل الشيوعيون العرب في هذا الحزب من جديد وبعد كل مواقفه في حرب ١٩٤٨ ، كما كانـوا يرشحون لعضوية الكنيسـت في اسرائيل ، وأما من خرج من فلسطين الى الاردن بعد النكبة من عصبة التحرر الوطني ، فقد اعادوا تشكيل الحزب باسم (الحزب الشيوعي الاردني) .

وفي الواقع لا مجال للتوسع في التحدث عن تأثير الشيوعيين اليهود على الشيوعيين العرب في فلسطين فلقد كانت القضية بالنسبة لشيوعيي فلسـطين مختلفة تماما ، اذ كان الشيوعيون اليهـود هم مؤسسو الحزب ، كمـا كان الحـزب في قيـادته مختلطا بعد ذلك بين العرب واليهود .

اما الحزب الشيوعي في سـوريا ولبنان الذي تأسس حوالي ١٩٢٥ ، فلقد كان في نشاته وثيـق الصله بالشيوعيين اليهود . فقد لعب (برغر) ، مندوب الحزب الشيوعي اليهودي في فلسـطين ، دورا كبيرا في جمع الاشخاص ذوي الميـول الشيوعية في لبنان في ذلك الوقت ، كما لعب ايضا (ابو سيام — أو ابو زيام) ، ثم (الياهو تيبر) و (بخشنسكي) دورا رئيسيا في تأسيس الحزب وتوجيهه في الفترات الاولى .

و «الياهو تيبر» و «برمو» و «انحمان ليتفنسكي» اسماء لشيوعيين يهود لعبوا دورا رئيسيا في توجيه الحزب آنذاك في نشاطه التنظيمي والسيـاسي . و (الياهو تيبر) انتخب مرتين على التوالي سكرتيرا عاما للجنة المركزية للحزب الشيوعي المؤسس في لبنان في أول تكوينه ، و«نخمان ليتفنسكي» لعب دورا هاما في توجيه مؤتمرات الحزب الاولى كما جاء في الكتاب المفتوح الذي وجهه رفيق رضا عضـو القيادة المركزية للحزب الشيوعي السوري اللبناني منذ عام ١٩٣٢ الى قيادة الحزب عام ١٩٥٩ والذي جاء فيه

((وفي عام ١٩٣١ — ١٩٣٤ والى ما بعد عـام ١٩٣٤ كنتم على احسن حال مع الشيوعيين اليهود وكنتم تبادلونهم ودا بود ، وتتبادلون معهم البعثات ، وتشركونهم في بحث سياستكم وأوضاع بلادكم . وقد أرسلتم فرج الله الحلو الى تل ابيب ليستطلع رأي الشيوعيين اليهود في خطة حزبكم ، ثم استقدمتم الى بيروت الشيوعي اليهودي « نخمان ليتفنسكي » لتأنسوا برايه في أحد مؤتمرات الحزب ، وقـد حضر فعلا واشترك بأعمـال المؤتمر المذكور ، وأوصاكم أن تعدلوا موقفكم من الاحزاب والجماعات الوطنية في سوريا ولبنان ، وأن تتشددوا في الحملة عليها على اعتبار أنها أحزاب انتهازية ، هذا في وقت كان فيه الاستعمار الفرنسي يمعن في بعض هـذه الاحزاب اضطهادا ونفيا وتشريدا .

« وقبل نخمان كان مستشاركم السياسي برنمو وبعد نخمان وفد عليكم العديد من المستشارين الذين كانت لهم الكلمة الاولى في سياسة حزبكم ، وهؤلاء

---

(١) : لعب فؤاد نصار — السكرتير العام « لعصبة التحـرر الوطني » في فلسطين ثم « للحزب الشيوعي الاردني » بعد النكبة الذي اصبح الاسم الجديد لعصبة التحرر منذ عام ١٩٥١ — دورا رئيسيا في اعادة توحيد الشيوعيين اليهود والعرب .

بجميعا حملوا اليكم الاموال الاجنبية ونقلوا اليكم التوجيهات الاجنبية .. » .

(نشر هذا الكتاب المفتوح الذى وجهه رفيق رضا — عضو القيادة المركزية للحزب الشيوعى السورى اللبنانى منذ عام ١٩٣٢ الى حين خروجه من الحزب عام ١٩٥٩ — الى القيادة المركزية للحزب فى صحيفة الجماهير التى كانت تصدر فى سوريا ، عدد ٦٩ ، ١٥ تموز ١٩٥٩ . وقد تحدى رفيق رضا فى هذا الكتاب القيادة المركزية أن ترد عليه أو تكذب حرفا مما قال ، باعتباره كان مسئولا رئيسيا منذ تلك الفترة التى يتحدث عنها .. ولم ترد القيادة المركزية) .

اما الحزب الشيوعى فى العراق ، فان الدور الذي لعبه اليهود فيه كان أبرز وأوضح منه فى اى حزب آخر ، وهو دور يدعو للدهشة فعلا .

فقبل أن يتأسس هذا الحزب رسميا ، حين كان يشكل حلقات متناثرة ، كانت هذه الحلقات على اتصال بالشيوعيين اليهود فى فلسطين تتبادل واياهم النشرات والكتب والرسائل . ولكن هذا الطور لا يهمنا كثيرا فى الواقع بقدر مايهمنا الدور القيادى الذى لعبه اليهود الشيوعيون المقيمون فى العراق فى الحزب بعد ذلك .

فالمسئول الاول فى اللجنة المركزية الثانية للحزب الشيوعى العراقى كان اليهودى (صديق يهودا) . وهو الذى استلم قيادة الحزب مباشرة بعد اعتقال مكتبه السياسى عام ١٩٤٧ . وفى عهد اللجنة المركزية الاولى ، ثم الثانية بشكل خاص ، كان فى الحزب عدد كبير من اليهود يتسلمون مراكز حزبية تنظيمية هامة جدا ، وعلى سبيل المثال فقط نذكر **بعض** هذه المراكز الحزبية الهامة :

فالمسئول الاول فى الحزب يهودى هو : صديق يهودا .

والمسئول الاول عن العمال فى بغداد ، يهودى : يوسف زلوف ، وأصبح فيما بعد مسئولا عن تنظيم عمال البصرة لاهمية المنطقة .

كذلك كان من أبرز من تناوبوا مسئولية العمال اليهوديان : حسقيل صديق وموشى مراد كوهين .
والمسئول الاول عن مجلة (العصبة) التى كانت تصدرها منظمة (عصبة مكافحة الصهيونية) التى اسسها الحزب الشيوعى العراقى بين ١٩٤٥ — ١٩٤٦ ، والذى كان يلعب دورا رئيسيا فى توجيه هذه المجلة بصدد قضية فلسطين (!) كان يهوديا يدعى : يوسف زلخة .

ولجنة الترجمة الرئيسية فى الحزب ، والتى كان مفروضا أن تترجم كافة الموضوعات العسكرية والسياسية سواء للتثقيف الحزبى الداخلى او الشعبى ، كانت يهودية مئة فى المئة ، قد تالفت من ثلاثة أعضاء ، وكان الثلاثة يهودا وهم : ساسون دلال ، موشى مختار ، وابراهيم شاؤول !

وكان اربعة اعضاء من اللجنة العمالية المكونة من سبعة أعضاء ، التى الفتها اللجنة المركزية الثانية ، يهودا هم :

عن عمال الاحذية : سليم منشى .

عن عمال الخياطة : موشى كوهين .

عن عمال الصياغة : يوسف زلوف .

عن عمال النجارة : حسقيل ابراهيم .

والمسئول الاول عن الرخ ببغداد ، يهودى يدعى : مير يعقوب كوهين .

والمسئول الاول عن القطاع الجنوبى ببغداد ، يهودى يدعى : ابراهيم شاؤول .

والمسئول الاول عن القطاع الشمالى ، يهودى يدعى : موريس يعقوب .

وناجى شاؤول ، عضو اللجنة المحلية للبصرة ، ويونان وليم ، عضو اللجنة المحلية فى كركوك ، وغيرهم كثير ..

هذه بعض أسماء اليهود الذين كانوا يلعبون دورا توجيهيا وتنظيميا هاما فى الحزب كما يظهر بوضوح أما الاعضاء اليهود العاديون فقد كانوا يشكلون نسبة كبيرة جدا أيضا ، وكانوا يقومون بمهمات عديدة مثل : تنظيم جباية التبرعات من لجان التجار واليهود ، وشبكة مراسلات الحزب فى الالوية الخ ..

وبعد اللجنة المركزية الثانية ، جاءت اللجنة المركزية الثالثة ، وكان المسئول الأول فيها الذى استلم قيادة الحزب الشيوعى بعد صديق يهودا ، يهودى أيضا ! وهو : ساسون شلومو دلال .

واستمر اليهود فى عهد هذه اللجنة يلعبون دورا هاما أيضا .

وعلى سبيل المثال فقط ، كان فى عهد هذه اللجنة المركزية :

من منظمى الحزب البارزين ، والساعد الايمن للمسئول الاول فى الحزب ساسون دلال ، خارج اللجنة المركزية اليهودى (حسقيل مناحيم قوجمان)

والمسئول عن ادارة مطبعة الحزب السرية وطبع مناشيره ونشراته يهودي يدعى : «يعقوب مير مصري» ومنظم المدارس والكليات يهودي يدعى موسى سليمان.

والمسئولة عن تنظيم النساء في الحزب ببغداد يهودية — وهي زوجة المسئول الاول — وتدعى سعيدة ساسون .

ومنظم عمال الخياطة والاحذية يهودي يدعى زكي يوسف .

وعضو لجنة العمال في البصرة يهودي يدعى : اسحق منشي شيرازي ، وغير هؤلاء كثير ..

واستمر دور اليهود في عهد اللجنة المركزية الرابعة ايضا .

فالمنظم الاعلى للعمال يهودي يدعى : منشي يعقوب عبد الله .

ومنظم المدارس الثانوية يهودي يدعى : ناظم يعقوب يونا .

ومنظمة النساء في لواء السليمانية يهودية تدعى حنينة هارون زلخة .

ومن مسئولي الحزب الرئيسيين اليهوديان شلومو دانيال ، وداود دانيال .

واللجنة المركزية الخامسة التي تكونت من ثلاثة اعضاء كان واحد منهم ، أي واحد من المسئولين الثلاثة الاول ، يهوديا يدعى : يعقوب قوجمان . وهذا المسئول اليهودي هو الذي عاد واستلم مسئولية قيادة الحزب لفترة بين اللجنتين المركزيتين الخامسة والسادسة ، وهو الذي عاد وشكل اللجنة المركزية السادسة للحزب .

وعلى سبيل المثال فقط كان في عهد اللجنة المركزية السادسة :

المسئول عن تنظيم عمال الاحذية يهودي يدعى : شالوم ميير .

ومنظم القطاع الجنوبي ، يهودي يدعى : سعيد شلومو بن صيون خلاصجي .

وعضو لجنة القطاع الجنوبي يهودي يدعى منشي صيون .

ومراسل اللجنة المركزية مع فرع البصرة يهودي يدعى : يوسف ساسون .

ومركز تبادل مراسلات الحزب في بغداد يهودي يدعى : شنطوب شميل .

هذه بعض أسماء فقط ، وعلى سبيل المثال فقط ، للشيوعيين اليهود والمراكز الحزبية التي كانوا يتولونها في الحزب الشيوعي العراقي . ولا شك أن هذا الدور القيادي الذي لعبوه في الحزب لم يكن دورا ثانويا ابدا . يضاف الى ذلك انه كان هناك نسبة هامة غير عادية ايضا — طوال عهد اللجان المركزية الست الاولى — من منظمي الفرق والاعضاء العاديين من اليهود الشيوعيين والذين كانوا يشكلون نسبة هامة من مجموع الحزب ككل .

وقد لعب هذا العدد الكبير من اليهود دورا هاما لا شك في جعل الحزب الشيوعي العراقي اكثر الاحزاب عطفا على أهداف اليهود في فلسطين ، وأشرسها في اتخاذ موقف الخيانة الصريحة المكشوفة لهذه القضية ، هذا الموقف الذي انعكس بوضوح ، سواء في الدعوة علنا في صحف الحزب ونشراته الى حق اليهود في وطن قومي في فلسطين ، أو في المظاهرات المتعددة التي قام بها الحزب استنكارا لحرب فلسطين ضد اليهود وتأييدا لاقامة دولة يهودية واحتجاجا على اعتقال بعض اليهود الذين كانوا يقومون بالتجسس وتهريب الاسلحة والرجال الى فلسطين ، والتي لعب اليهود الشيوعيون فيها دورا بارزا .

أما الحركة الشيوعيه في مصر ، فقد كان الدور الذي لعبه اليهود الشيوعيون في توجيه نشاطها مرافقا لمختلف مراحل عمل هذه الحركة ، منذ فترة تأسيسها وطوال السنوات التي اعقبت ذلك . وقد كان هذا الدور بارزا لدرجة دفعت الشيوعيين السوريين للاعتراف به ، فقد علق خالد بكداش اكثر من مرة على الموقف المعادي الذي كان يتخذه الشيوعيون في مصر من حكومة الثورة رغم وضوح سياستها التحررية (قبل أن يعود ويتخذ هو نفس هذا الموقف) ، بقوله :

هؤلاء ليسوا شيوعيين بل صهيونيين !

فالحركة الشيوعية في مصر التي تأسست عام ١٩٢٠ ، كان مؤسسها البارز اليهودي : (جوزف روزنتال) . وبقيت عائلة روزنتال اليهودية المعروفة تلعب دورا قياديا رئيسيا في الحركة الشيوعية بعد ذلك .

وفي هذه الفترة الاولى ، كان للحركة الشيوعية في مصر ، كما كان لباقي الاحزاب الشيوعية في الوطن اتصالا وثيقا بالحزب الشيوعي اليهودي في فلسطين حيث لعب قادته هنا ايضا دورا هاما في توجيه نشاط الشيوعيين في مصر . وكما أشرف (الياهو

ليبن ويرغن وليتفنسكي (على الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان ، نجد بالنسبة للحركة الشيوعية في مصر اسماء أخرى من اليهود الشيوعيين البارزين في فلسطين — نذكر منهم بشكل خاص :

ناحوم بخشنسكي ، الذى كان عضوا بارزا في الحزب الشيوعي بفلسطين ، ثم انتدب للاشراف على الحركة الشيوعية في مصر ، وكذلك (كوسي) الذى كان من شيوعيي فلسطين اليهود ثم انتدب للاشراف على هذه الحركة منذ تاسيسها حتى عام ١٩٣٦ .

وبعد اثنين وعشرين عاما من تاسيس الحركة الشيوعية في مصر ، أى في عام ١٩٤٢ ، جرت محاولة لتجديد الحركة ولم صفوفها المبعثرة بعد ان ثبتت هذه السنوات الطويلة فشلها الغريب في تحقيق أى نجاح ملموس ، وجاءت هذه المحاولة ، مرة أخرى ، على يد ايطالى يهودى يدعى : هنرى كوريل !

واستطاع اليهودى كوريل نتيجة هذه المحاولة ان يوحد المنظمتين الشيوعيتين الرئيسيتين في مصر آنذاك : الحركة المصرية للتحرر الوطنى ، والشرارة (الايسكرا) ، في حزب شيوعى جديد باسم (الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى) التى تسمى اختصارا ((حديتو)) والتى كان لها موقف مخز من قضية فلسطين كما سنرى .

كما لا يجوز أن نغفل ونحن بصدد بحث دور اليهود في الاحزاب الشيوعية في الوطن ، أن الخبراء الشيوعيين الذين كانت مناطة بهم في الكومنترن (الاممية) مهمة الاشراف على الاحزاب الشيوعية العربية ، كان اليهود يشكلون نسبة هامة فيهم ، ان لم نقل معظمهم .

فتلك الاسماء التى سبق ذكرها للشيوعيين اليهود الذين اشرفوا على توجيه نشاط الحركة الشيوعية في الوطن آنذاك ، لم يكونوا مجرد شيوعيين عاديين في الحزب الشيوعي اليهودى في فلسطين ، بل كان نشاطهم مقرا من قبل الكومنترن ومعتبرا كمهمة حزبية رسمية انيطت بهم من قبله. وتذكر بعض المصادر مثلا ، ان برغر احد الشيوعيين اليهود البارزين الذى مر ذكره ، قد عين بعد عودته من فلسطين الى موسكو رئيسا بقسم الشرق الاوسط في معهد فارغا للشئون الاقتصادية والسياسية العالمية .

لسنا من دعاة تضخيم خطر اليهود وتوهم وجوده في كل مكان او كونه وراء كل حدث كما يذهب البعض ، ولكن الا تثير هذه الظاهرة التى تحدثنا عنها التساؤل ؟ او لا تثير هذه الظاهرة التساؤل بشكل اكبر حين نسترجع موقف الحزب الشيوعي اليهودى من قضية فلسطين قبل النكبة واثناء الحرب وبعد قيام اسرائيل ؟

وكذلك حين نتذكر ان منظمات (عصبة مكافحة الصهيونية) التى تالفت في بعض اجزاء الوطن وتكونت بغالبيتها العظمى من اليهود الشيوعيين طبعا ، قد استقر معظم اعضائها بعد ذلك في اسرائيل ؟

والآن ، لنرجع الى بحثنا الاساسي لنرى ماتقول الوثائق في ذلك التاريخ الحافل الطافح بالخيانة الذى وقفه الشيوعيون من قضية فلسطين .

* * *

الفصـــل الأول

منذ تأسيس الأحزاب الشيوعية حتى التقسيم عام ١٩٤٧

الفترة الاولى:

من العبث أن نفصل بين سياسة الاتحاد السوفييتي ومواقفه، وبين سياسة الاحزاب الشيوعية في الوطن ومواقفها. وهذه الحقيقة التي اصبحت بمثابة قاعدة تسير عمل الشيوعيين اكدتها احداث قضية فلسطين عاما بعد عام طيلة هذه الفترة، كما عادت وأثبتتها بشكل صارخ الفترة الثانية والثالثة والرابعة.

منذ عام ١٩٢٠ كان المؤتمر الثاني للكومنترن المنعقد بذلك التاريخ قد اتخذ قرارا بشجب النشاط الصهيوني في فلسطين. وكان التقييم العام لهذه القضية، والذي بقي من الناحية الفكرية النظرية، ساريا طيلة هذه الفترة حتى عام ١٩٤٧ يقوم على: ان الحركة الصهيونية هي حركة رجعية يحركها كبار الرأسماليين، وأن فكرة «الوطن القومي اليهودي» فكرة مغلوطة غير صحيحة علميا، لان اليهود ليسوا أمة فليس لهم اذن حقوق قومية لا في فلسطين ولا في غيرها. وعلى هذا الاساس تحدد الموقف العملي: برفض فكرة التقسيم، ومعارضة الهجرة اليهودية الى فلسطين، والربط بين الصهيونية عامة والاستعمار. كان هذا هو الخط العام، وقد اصاب هذا الخط بعض الاهتزاز قبيل الحرب العالمية الثانية ثم اثناءها، ولكن هذا الاهتزاز لم يمس التقييم النظري العام لا سيما بالنسبة لطبيعة الحركة الصهيونية، بل تعلـق باعتبارات عملية كانت تقتضي مهادنة الاستعمار أحيانا حسب الظروف الدولية التي يمر بها السوفييت.

ولم يشذ الشيوعيون العرب عن هذا الخط، سواء من حيث التقييم الفكري النظري او التمهيدات العلمية، فهاجموا فكرة الوطن القومي اليهودي وحملوا بشدة على فكرة تقسيم فلسطين. ولكنهم كذلك لم يشذوا عن الاهتزاز مع اهتزازات الخط العام للسوفييت، فحين هادن السوفييت الاستعمار الانجليزي والفرنسي بدعوى الوقوف بوجه موجة الفاشية، هادنوه هم أيضا، فسكتوا عن الاستعمار الانجليزي في فلسطين.

ولكن القضية طبعا، لا يمكن ان تقف عند هذه الحدود بالنسبة لحركة لا تسير خطوة الا بعد ان يوحى لها بها من الخارج. ذلك أن الفترات التي كانت تقتضي مهادنة الاستعمار في الداخل تنفيذا لمصلحة الشيوعية الدولية في الخارج، كانت تقتضي أيضا محاربة قيام اي كفاح ضده في مثل تلك الفترات، اي عمليا، محاربة حركة النضال العربي في فلسطين حين تقوم بمثل هذا العمل، وبما ان هذه الحركة النضالية لم تكن موجهة ضد الانجليز فقط، بل ضدهم وضد الغزو اليهودي الذي كان خطره يتزايد بسرعة، فذلك كان يقتضي السكوت ايضا عن خطر الغزو اليهودي! وهكذا كانت تكتمل السلسلة.

ولعل هذا من جهة، وذلك الامتزاج بين الشيوعيين اليهود والعرب من جهة ثانية، والمنطلق اللاقومي من جهة ثالثة الذي كان يهيئهم نفسيا لقبول تنازلات قومية بحق وطنهم تصل لدرجة الخيانة، لعل كل ذلك قد اثر بشكل مشترك، على الموقف العملي للشيوعيين تجاه الاحداث الدامية

التى جرت فى فلسطين . فلقد كان الشيوعيون منعزلين انعزالا تاما عن الانتفاضات المتوالية التى قام بها عرب فلسطين ضد الانتداب الانجليزى والخطر اليهودى ، بل وهاجموها احيانا متهمينها بالفاشية ، فالموقف المخزى الذى وقفوه بعد ذلك من حرب فلسطين عام ١٩٤٨ يوم دعوا الى ايقافها وتسريح الجيوش العربية والاعتراف بحق لليهود فى فلسطين ، انما يجد جذورا له فى الواقع منذ هذه الفترة المبكرة .

فقد بقى الشيوعيون فى فلسطين منعزلين كليا عن الاحداث المعروفة التى قامت عام ١٩٢٩ و١٩٣٣ ولم يشتركوا بها ابدا . ولسنا نعرف كيف كان يمكن ان يشتركوا أصلا فى ظل اكثرية يهودية .

كذلك لم يشترك الشيوعيون فى فلسطين فى الانتفاضات الكبرى التى قامت عام ١٩٣٦-١٩٣٩ . وبينما كان الشعب العربى يحمل السلاح ضد الاستعمار الانجليزى وضد الغزو اليهودى المنظم ، لم يكتف الشيوعيون بهذا الموقف الانهزامى ، بل عملوا على قطع انفاس هذا الكفاح وتخدير الحس الثورى فيه . وهكذا صدرت صحيفة « صوت الشعب » عام ١٩٣٧ - لسان حال الحزب الشيوعى السورى اللبنانى - تقول :

« ليس ما يشغل بال الشعبين العربى واليهودى فى فلسطين مسألة من منهما سيسيطر على الثانى ، بل الذى يشغل بالهما : كيف الوصول الى رفع لواء السلام والهدوء والاخاء والعمل المنتج على ربوع ذلك القطر التعيس » (١) .

فليست القضية اذن قضية كفاح شعب فى سبيل ارضه وعروبته ، وليست قضية مخطط استعمارى صهيونى ينفذ عاما بعد عام ومن الواجب محاربته منذ خطواته الاولى ، بل القضية قضية : **سلام بين العرب وبين الاستعمار والغزو اليهودى ، واخاء بين العرب واليهود ، وعمل منتج !**

ولقد عاد ذلك الموقف وانكشف نهائيا حين اعترف الشيوعيون انفسهم بموقفهم ، وبرروه باتهام الثورة انها تعاونت مع الفاشية ! ففى نشرة داخلية وجهها الحزب الى الاعضاء بتاريخ تشرين الثانى ١٩٣٩ ، تقول فى تبرير عدم الاشتراك بالثورة :

« لقد اراد قادة الحركة العربية الوطنية ان يتابعوا ثورات ١٩٣٧ لانهم قد اعتقدوا خطأ ان الظروف الدولية فى صالحهم . وامتدت الثورة ولكن الحزب لم يشترك بها ، لان الجماهير كانت ضعيفة غير منظمة ، كما كنا نخشى التسرب الفاشستى . »

ولا شك انه تبرير موفق جدا للهروب من الكفاح ترى اذا كانت الجماهير « ضعيفة وغير منظمة » افليس هذا ادعى لان يشترك الشيوعيون بالثورة - اذا كان يهمهم مصيرها - لزيادة قوة الجماهير وزيادة تنظيمها ؟ او ليس هذا أدعى لان يناضل الامميون البروليتاريون للتقليل من امكانية التسرب الفاشى ؟

طبعا ، لم تكن القصة كلها الا كلمات تلقى لفلسفة الانهزامية . ولكن ما يهمنا هو ان نتساءل : الى اية نتائج يمكن ان يؤدى مثل هذا التوجيه الذى يطالب بعدم خوض الكفاح ضد الانتداب الانجليزى والخطر اليهودى الصهيونى المتزايد ؟

اما الفريق الشيوعى اليهودى فى الحزب ، فكان قد شكا للكومنترن قبل ذلك موقف بعض الافراد الشيوعيين العرب الذين اشتركوا بالثورة بشكل افرادى بقوله فى رسالة بعث بها اليه بتاريخ ايلول ١٩٣٩ « ان بعض الشيوعيين العرب من ذوى الروح العسكرية قد التحقوا بالوطنيين ، ورفضوا فيما بعد الانصياع لتعليمات المسؤولين فى الحزب » .

تلك التعليمات بالطبع التى كانت تطالب هؤلاء المنشقين بعدم الاشتراك فى الثورة ! **اما عن الشيوعيين اليهود ، فمنذ ذلك التاريخ ، وقبله ، وبعده ، كانوا يهودا اولا ، ثم شيوعيين ، أو اى شىء اخر ، بعد ذلك .**

وفى هذه الفترة التى شهدت فيها فلسطين اكبر انتفاضة عرفتها منذ حلول الانتداب الانجليزى ، كما شهدت تزايد خطر الغزو اليهودى الصهيونى المنظم بشكل خطير ، لم ينس الشيوعيون فى فلسطين كل ثوريتهم وصلابتهم المشهودة (!) فى مكافحة الاستعمار والحركات الرجعية ، فقد كان هناك ثورة اخرى فى العالم .. فى اسبانيا .. ومن الواجب ان يتطوع الشعب العربى للنضال مع الجمهوريين الاسبان فى حربهم ضد فرانكو !. وهكذا ، بمثل هذا التوجيه الخائن قوميا وانسانيا عمل الشيوعيون على توجيه انظار الشعب العربى بعيدا عن الانتداب الانجليزى وعن الاخطبوط اليهودى الصهيونى الذى بدأ يدخل ويثبت اقدامه فى فلسطين بمساعدته .

لا بد ان نذكر ان الخط العام للسياسة السوفييتية فى هذه الفترة التى سبقت الحرب العالمية الثانية ، كان يسير نحو استمالة بريطانيا وفرنسا بدعوى مجابهة النازية والفاشية فى المانيا وايطاليا (قبل ان يوقع الاتحاد السوفييتى فجأة ميثاق عدم الاعتداء مع المانيا النازية نفسها فى شهر

---

(١) : صحيفة « صوت الشعب » ، بتاريخ ١٧ تموز ١٩٣٧ .

آب ١٩٣٩ ؟ . وكان الطابع العام لموقف الشيوعيين في الوطن هو العمل على تثبيت هذا الخط وعدم اغضاب بريطانيا وفرنسا ، « الدولتين الديمقراطيتين » ! (١)

❊ ❊ ❊

وفي هذه الفترة قدمت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري اللبناني مذكرة الى مؤتمر بلودان في ٨ ايلول ١٩٣٧ لخصت في نهايتها مطالب العرب بصدد قضية فلسطين . وقد تجاهلت تجاهلا تاما وجود شيء اسمه استعمار انجليزي في فلسطين ، واسقطت مطلب التحرر ، اذ تلخصت مطاليب المذكرة بما يلي :

« فكل العرب وكل القوى الديمقراطية الشريفة في العالم العربي لا يمكن الا أن يؤيدوا مطاليب الشعب الفلسطيني وهي :

« ١ ــ رفض تقسيم فلسطين رفضا باتا .

« ٢ ــ وقف الهجرة اليهودية .

« ٣ ــ منع بيع الاراضي .

« ٤ ــ اقامة نظام دستوري يضمن انتشار السلام والهدوء في فلسطين . »(٢)

هكذا ، وبهذه البساطة المتناهية ، تناسى الشيوعيون الاستعمار الانجليزي ، وأصبحت القضية قضية « نظام دستوري » ! فهل يجوز لاى حزب ، وحزب يتبجح بمكافحة الاستعمار ليل نهار ، أن يغفل وجود الاستعمار في مطاليب يحددها للشعب العربي في فلسطين ؟ كان ذلك في عرف الشيوعيين جائزا .. فمخطط الشيوعية الدولية يأتي أولا وقبل مصلحة الوطن .

وعلى أساس هذه المهادنة المكشوفة للانتداب الانجليزي **والتي كانت تجر بدورها في كثير من الاحيان بالنتيجة مهادنة عملية للغزو اليهودي الصهيوني** ، أيد الشيوعيون في فلسطين « الكتاب الابيض » الذي أصدرته بريطانيا عام ١٩٣٩ من حيث الاساس وانتقدوا فيه فقط ، بلين ، أنه كان يجب أن يكون أكثر تحديدا بصدد منع بيع الاراضي . هذا مع العلم أن الكتاب الابيض لا يتعهد بايقاف الهجرة اليهودية ــ وهي اهم وجه عملي للنزاع العربي اليهودي آنذاك ــ الا بعد أن يكون قد دخل الى فلسطين أعداد معينة من اليهود حددها الكتاب المذكور ! .

لقد أوردنا هذه المقاطع كلها ، لالقاء الضوء على نتائج موقف الشيوعيين المهادن للاستعمار الانجليزي في هذه الفترة . فما كان الشيوعيون يجهلون أن الانتداب الانجليزي كان دوما هو السند الاول لليهود في تحقيق أمانيهم ، وهو الذي كان يدعمهم سياسيا على الصعيدين المحلي والدولي ، ويفتح لهم أبواب الهجرة ، ويقدم السلاح الخ . فماذا يعني السكوت عن الانتداب الانجليزي في مثل هذه الحالة ؟ هل يعني شيئا الا ترسيخ اقدام الانجليز في فلسطين ؟ وبالتالي ، افساح مجال أوسع أمام الغزو اليهودي الصهيوني لتحقيق أهدافه ؟

لقد اتخذت الحركة العربية في فلسطين خطا واضحا بهذا الصدد ، تجلى بشكل خاص في ثورة عام ١٩٣٦ وما بعدها باستمرار ، وقام على عدم الفصل ــ في كفاحها الشعبي ــ بين الانتداب الانجليزي والغزو اليهودي الصهيوني ، لا لانهما شيء واحد ، بل لان أية تجزئة في الكفاح ضدهما مجتمعين لا تعني سوى اجهاض حركة النضال العربي . فمن العبث تركيز النضال ضد الغزو اليهودي الصهيوني ومهادنة الانتداب الانجليزي مستعمر البلاد وسند الاهداف اليهودية في فلسطين وحاميها . ومن الخطأ تركيز النضال ضد الانجليز فقط و تجاهل واهمال العمل المنظم الدائب الذي تقوم به الحركة اليهودية سواء في فلسطين أو خارجها .

وكان واضحا وضوح الشمس أن توجيه النضال العربي في غير هذه الوجهة سيؤدي الى حرف النضال العربي و ايقاعه في حلقة مفرغة . فتبني ذلك الموقف الخاطيء من حزب رسمي منظم كالحزب الشيوعي المتضلع في مقارعة الاستعمار (!) المزود بتوجيهات وارشادات الكومنترن .. لا يمكن قبوله الا على أنه تآمر صريح على قضية فلسطين ومصيرها .

نلاحظ كذلك في هذه الفترة التركيز المتعمد المتواصل من قبل الاحزاب الشيوعية في فلسطين وباقي الأجزاء ، للتفريق بين الصهيونية وبين الشعب اليهودي في فلسطين . ففي الفترات التي

---

١) : تؤلف هذه الفترة كذلك بداية هجوم اخذ يشنه الكومنترن على الحركة الوطنية العربية « التي تحني ظهرها للنفوذ الفاشستي » !

٢) : نشرت المذكرة في صحيفة الحزب « صوت الشعب » ، عدد ١٢ ، ١٥ ايلول ١٩٣٧ .

كانت الحركة الشيوعية تهادن فيها الاستعمار ـ تبعا للظروف الدولية ـ كانت تركز هجومها عـلى الصهيونية مصورة معركة فلسطين على انها نضال مشترك بين العرب واليهود ضد الصهيونية • وفى الفترات التى كان مخطط الشيوعية الدولية يقتضى مكافحة الاستعمار ، كان التصوير السابق يبقى على حاله ، وكل ما فى الامر ، تضاف كلمة الاستعمار الى جانب الصهيونية ليصبح الشعار : كفاح العـرب واليهود ضد الاستعمار والصهيونية • وفحوى هـذا التصوير لمعركة فلسطين ، أن هناك شيئا اسـمه الحركة الصهيونية ، وهى « حركة قومية شوفينية متعصبة رجعيه ، تمثل مصالح الراسمالية الصهيونية والاستعمارية الناميه ، وأن هناك شيئا اسمه الشعب اليهودى فى فلسطين ، ومصلحته ، ولا سيما مصلحة الطبقة العاملة فيه ، لا تتفق مع الحركة الصهيونية وأهدافها ، بل هى على العكس تتناقض معها (أ) هذا بينما يجمع الشعب العربى والشعب اليهودى مصلحة واحدة (أ) فى الكفـاح كفريق واحد (أ) ضـد الصهيونية والاستعمار ، أو ضد الصهيونية فقط ، أو ضد الاستعمار فقط ».

وهكذا ، بناء على هذا التصوير المتقلب الصبيانى ، كانت الحركة الشيوعية تبدل فى جبهة القوى المعادية فى معركة فلسطين ، حتى يكون الشعار النضـالى المطروح متسجا دوما مع الشعار النضـالى الذى تقتضيه مصلحة الشيوعية الدولية حسب الظروف التى تمر بها ، وبغض النظر عن صحة هذا الشعار النضالى بالنسبة لمعركة الشعب العربى ، أو عـدم صحته !

ففى المرحلة التى سبقت عام ١٩٣٦ بشكل خاص (وقد ابتدأت هذه المرحلة قبـل فترة من ذلك التاريخ فى الواقع) ، أى قبل أن تضع الشيوعيـة الدولية مخططها على أساس ضرورة حشد القوى ، مهما كانت متناقضة ، طبيعة وهدفا ، ضد الفاشية وعدم استفزاز بريطانيا وفرنسا ، كان الاستعمار الانجليزى والفرنسى لا يزال يعتبر العـدو الرئيسى الاول برأى الشيوعيين • وهكذا كان شعار الحركة الشيوعية تجاه فلسطين : « الكفاح ضد الانتداب الانجليزى والصهيونية » ، وانه فى سبيل هـذا الهدف يجب ان يتكتل الشعب العربى واليهود يدا واحدة ! واذا تركنا جانبا الدعوة الى الاخاء العربى اليهودى ، فلا شك أن هذا الشعار النضالى صحيح تماما ..

وفى مرحلة عام ١٩٣٦ (قبلها قليلا والاعـوام التى تلتها) ، حين أصبح مخطط الشيوعية الدولية يقوم على استمالة الاستعمار البريطـانى والفرنسى وعدم استفزاز بريطانيا وفرنسا اللتين أصبحتا الان دولا ذات « قابلية ديمقراطية » (أ) ، لم نعد نجد ذلك التأكيد الشديد على الاستعمار الانجليـزى وكونه العدو الاول (كما يتضح من مذكرة اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السورى اللبنانى والاراء الاخرى الانفة الذكر) ، وأصبح التركيز على الصهيونيـة والشعار النضالى : الكفاح ضد الصهيونيـة والتقسيم الخ •• » وفى سبيل هذا الهـدف يجب أن يتكتل الشعب العربى واليهود الذين تجمعهم مصلحة واحدة متناقضة مع الصـهيونية ! وهكذا ارتكب الشيوعيون خيانة تزوير الشعار النضالى السابق عن سابق تعمد وهم مدركون ادراكا تاما خطـأه والنتائج التى سيؤدى اليها ، ضاربين عرض الحائط بمصير معركة فلسطين والشعب العربى •

وفى آب ١٩٣٩ ، وقع الاتحاد السوفييتى ميثاق عدم اعتداء مع المانيا النازية ، وأصبح خارج الحرب الدائرة بين بريطانيا وفرنسا بشكل خاص والمانيا وايطاليا ، وانقلب الوضع فجاة رأسا على عقب ! فلم تعد الفاشية والنازية هما الخطر الاول الذى يجب الذهاب الى حد مهادنة الاستعمار وتزوير شعارات المعركة من أجله ، بل اصبح الواجب الآن مهـادنة الفاشية والنازية ، ما دام الاتحـاد السوفييتى فى حلف معهما ! وهكذا عاد الاستعمار الانجليـزى فاصبح هو العدو الرئيسى وعاد الشعار القـديم : الكفاح ضد الاستعمار والصهيونية • والواقـع أن موضوع الصهيونية بدأ يصبح شيئا ثانويا فى هـذه الفترة ! فالاستعمار الانجليزى هو العـدو الرئيسى الذى يجب أن يتكتل الشعب العربى واليهـود للنضال ضده !•• وكان لا بد طبعا من تفسير لهذا الانقلاب العجيب من مهادنة الاستعمـار الانجليزى بحجة محاربة الفاشية ، الى مهادنة الفاشية بحجـة الاستعمار الانجليزى ! وجاء التفسير لا يقل غرابة عن كل هذا الموقف ، فى منشور صادر عن اللجنـة المركزية بتاريخ تشرين الاول ١٩٣٩ يقول :

« ان هتلر الذى يحاربه تشمبرلن الان لم يعد هو نفس هتلر الذى كان ينوى محاربة الاتحـاد السوفييتى • انه لم يعد جندى « تشمـبرلن » و « دلاديه » وعليه أن يفعل ما تقوله له موسكو » .

هل يمكن أن يكون هناك تزوير للحقائق اكثر من هذا ؟ حتى هتلر نفسه وحتى النازية كلهـا تغيرت للتلاؤم مع مخطط الشيوعية الدولية • والواقع ان هذا التحول القريب ، ما بين الذهاب الى اسـقاط الاستعمار ككل من حساب المعركة وأهداف الشعب ، الى حد العودة الى جعله فجاة العدو الرئيسى وهدف

المركة الملح ، يدعو للسخرية بقدر ما يدعو للدهشة ولكن بالنسبة للشيوعيين ، لم تكن هذه البهلوانية لتشكل اى احراج على ما يبدو بعد ان تعودوا على تغيير افكارهم ومواقفهم كما تتغير الفصول :

« ان العمال يأتوا ليسألوننا ما العمل لا انهم يطلبون نصيحة مخلصة ، ونحن نقول لهم ، حسنا ، صحيح أن الجيوش الالمانية والايطالية على الابواب •• ولكنه صحيح ايضا ان جيوش تشرشل هي في هذه البلاد • وواجبنا الاول هو محاربة العدو في الداخل . » (١)

ورغم ان الشيوعيين في فلسطين كانوا يرفعون هذه المرة شعار الكفاح ضد الاستعمار والصهيونية، الا ان الهجوم على الصهيونية لم يعد يتركز حول طبيعة هذه الحركة وأهدافها وأخطارها ومشروعاتها الجديدة ، بقدر ما تركز حول موقف المنظمات الصهيونية من الحرب الدائرة ، فهاجموها بعنف لاقدامها على التطوع ضد المانيا الى جانب الحلفاء •

كذلك نجد في هذه الفترة اشتداد دعوة الاخاء العربي اليهودي ، فهذا الاخاء المزعوم قد اصبح له برأى الشيوعيين موجبات جديدة هي الوقوف بوجه بريطانيا والصهيونية ضد حملة التطوع الموجهة ضد المانيا حليفة الاتحاد السوفييتي !

« انهم يدركون جيدا أن هذه الحرب ليست حربهم ، وجنبا الى جنب مع الجماهير العربية ، سوف يحاربون بريطانيا وعملاءها الصهيونيين » • (٢)

ولكن هل استمر هذا الموقف من الاستعمار الانجليزى والصهيونية ؟ والى متى ظل هذا الشعار مرفوعا ؟

في ٢٢ حزيران ١٩٤١ انتهى التحالف السوفييتي النازى ، واعلنت المانيا الحرب على الاتحاد السوفييتي وأصبح اصدقاء الامس اعداء اليوم ، واعداء الامس اصدقاء اليوم ، وأصبح الاتحاد السوفيتي في صف واحد مع بريطانيا وفرنسا ضد المحور •

ومرة اخرى انقلب الموقف راسا على عقب •

وبعد الحلف القديم ، تحركت الاحزاب الشيوعية في الوطن ، لتدعم الحلف الجديد •

وفي فلسطين ، لم يعد هناك شيء اسمه «استعمار انجليزى » في قاموس الشيوعيين ، فقد تحول الاسم الى: بريطانيا « احدى دول الديمقراطيات الغربية » • وهكذا عاد الشيوعيون وتناسوا الاستعمار ••

ولكن هذه المرحلة الجديدة التى استمرت طوال سنى الحرب العالمية الثانية كانت تتميز بشكل واضح بدرجة جديدة ومستوى جديد من المهادنة ، والواقع انه لا يجوز أبدا تسميتها مهادنة ، فالشيوعيون تحولوا طيلة هذه الفترة ، والى قبيل فترة وجيزة جدا من انتهاء الحرب ، الى حلفاء للاستعمار البريطاني يعملون في معسكر واحد ، فوضعوا أنفسهم كليا في خدمته ، وبعد أن كان الشعار في الفترة السابقة : عرقلة المجهود الحربى لبريطانيا ضد المانيا ، ومهاجمة التعاون التام بين المنظمات اليهودية وبريطانيا وشجب تطوعها في الحرب ، أصبح الشعار الجديد : دعم المجهود الحربي لبريطانيا والحلفاء ضد المانيا ، والدعوة الحارة للتطوع في الحرب « ضد الوحش الهتلرى » •وهذا الواجب ، هو الواجب الاول الذى يجب ان يتكتل في سبيله العرب واليهود يدا واحدة ! كذلك بلغت دعوة « الاخاء العربي اليهودى » مستوى جديدا ! فكل «الخلافات» يجب ان تنسى ! وكل عمل يقوم به الجانب العربي ، أو الجانب اليهودى ، هو « تخريب» للهدف الاول المطروح أمام « العرب واليهود » ، وهو : التعاون التام مع بريطانيا وتقديم كل التسهيلات والمساعدات لها !

وهكذا ، اسقط الشيوعيون الاستعمار والصهيونية سويه من معركة الشعب العربي •

* * *

واذا تركنا موقف الشيوعيين من الانتداب الانجليزى والصهيونية ، وتبديل شعارات المعركة وجبهة أعداء الشعب العربي حسب مقتضيات مخطط الشيوعيه الدولية ، فلا بد أن نتوقف هنا عند نقطة جوهرية هي : **موقف الشيوعيين من قضية التفريق المستمر بين الصهيونية وبين الشعب اليهودى في فلسطين والتي كانت ترافقها دوما دعوة « الاخاء العربي اليهودى »** • فلا يجوز المرور بسهولة على هذا الموقف الفكرى المنحرف الذى كان يؤدى الى موقف عملى نضالى منحرف ، يقوم على تصوير مشوه مغلوط

---

(١) : صحيفة « كول هاعام » الشيوعية اليهودية التى كانت تعبر عن موقف الحزب الشيوعى الفلسطينى المختلط — اذار ١٩٤١ •

(٢) : صحيفة « كول هاعام » كانون الاول ١٩٤٠ •

لحقيقة المعركة الدائرة في فلسطين • فرغم تلك التبدلات المستمرة في موقف الشيوعيين من نضال العرب في فلسطين وشعاراته ، الا أن الشيء الوحيد الذي ظل ثابتا طوال هذه المرحلة ، بل وطوال المراحل الاخرى منذ بداية معركة فلسطين حتى هذه الساعة هو هذه القضية •

ونحن لن ندخل هنا في بحث طويل لاثبات ان الصهيونية واليهودية هما كقاعدة عامة شيء واحد ، وان الدعوة الصهيونية تجسد رغبات الغالبية العظمى من اليهود ، وان « اسرائيل » ليست دولة اليهود المقيمين بها فحسب ، بل تعتبرها غالبية اليهود العظمى في كافه انحاء العالم دولتها أيضا ، وان الحالات التي تتعارض مع هذه الحقيقه هي حالات نادرة فرديه لا تلغي القاعدة العامة • لن ندخل في مثل هذا البحث الآن رغم أن الاحداث الجارية تؤكده كل يوم منذ زمن بعيد ، الا أننا سنقصر حديثنا على ساحة فلسطين نفسها • فاذا جاز الجدل مع بعض الآراء القليلة حول هذه الحقيقه ، والتي تريد أن تضخم تلك الحالات القليلة بحيث تلغي القاعدة وتجعل اليهودية والصهيونيه شيئين مختلفين ، فكيف يمكن الجدل حين نقصر البحث على ساحة فلسطين ؟

هل نحتاج لكثير من المنطق لكي ندرك انه لم يكن هناك في فلسطين شيء اسمه حركة صهيونية وشيء اسمه « شعب يهودي » لا علاقة له بدعوتها وأهدافها؟ أو هل نحتاج لكثير من التفكير والاثباتات لندرك ان القول بان « مصلحة اليهود في فلسطين متناقضة مع مصلحة الحركة الصهيونيه فيها » هو خرافة كبرى لا تبعث الا السخرية في نفس كل ذي بصيرة ؟

هذا التخلط الفكري يصل اليه الشيوعيون نتيجه محاولة ضحلة لتطبيق النظريه الشيوعية تطبيقا حرفيا ، وتعميمها تعميما خاطئا على كل القضايا والحالات التي تجابهها • وغاب عن الشيوعيين العرب المسجونين في تبعية فكريه عمياء تدعو للدهشة ان قضية اليهود في فلسطين هي مثال صارخ ، ولعله اصرخ مثال ، على خطأ اعطاء مثل هذه التعليمات الفكرية • فاليهود في فلسطين كانوا اقلية ضئيلة كأية اقلية اخرى في اية امة ، ولم يوجدوا في فلسطين على اساس تاريخي ، بل وجدوا نتيجة الهجرة التي فتح لهم أبوابها الاستعمار الانجليزي ، « والدولة » التي قامت بعد ذلك ، كونتها جموع اليهود المهاجرين من مناطق مختلفه من العالم • فكلهم اذن اتوا الى فلسطين تحركهم فكرة « الوطن القومي اليهودي » ، ولتحقيق هدف اقامة « اسرائيل » وقد قامت « اسرائيل » وهي قائمة اليوم فعلا على هذا الاساس •

وبعد •• فلماذا نذهب بعيدا ؟ ألم يحارب الشيوعيون اليهود انفسهم جنبا الى جنب مع باقي المنظمات اليهوديه في سبيل هذا الهدف ، ناسفين بذلك بقايا هذا المنطق الفكري المعكوس ؟

فعن اي فرق بين « الشعب اليهودي » والحركة الصهيونيه في فلسطين يمكن أن نتحدث ، وعن اي تناقض في المصالح ؟

لسنا بحاجة لان نسترسل في مناقشة هذا المنطق الفكري الضحل ، فان مجرد مناقشته تعطيه اكثر مما يستحق في الواقع • ولكن ما يهمنا هو الخيانة العملية لقضية فلسطين التي تؤدي اليها بالنتيجة هذه المغالطة الفكرية • فبناء على هذه النظرية الفكرية كانت تقوم دعوة « الاخاء العربي اليهودي » • الاخاء بين جموع المهاجرين اليهود الكبيرة التي جاءت لتقيم وطنا قوميا يهوديا في فلسطين ، وبين جموع الشعب العربي المناضلة للدفاع عن وطنها القومي ضد الاغتصاب اليهودي المتمثل في هذه الفكرة !

ان لقضية فلسطين وجهين في هذا الصدد • وجه الاستعمار الانجليزي ، ووجه الغزو اليهودي المنظم • فهل يمكن ان يؤدي تجاهل احد هذين العدوين الا الى افساح المجال لبقاء الآخر ؟ لقد كان الشعب العربي يناضل ضد اليهود وضد الاستعمار • ولم يكن يفرق بينهما ، لانهما كانا دوما جبهة واحدة ، كل لاهدافه الخاصة • فهل تعني نظريه الاخاء العربي اليهودي في مثل هذه الاوضاع الا طمس احد وجهي هذه المعركة ، والا مؤامرة لطمس جوهرها الحقيقي ؟

ولكن الشيوعيين لم يتورعوا ابدا عن العمل لتوجيه النضال العربي في هذا الاتجاه ، طامسين حقيقة المعركة واهدافها بتصويرها مجرد اهداف اقتصادية ! وطامسين بذلك مغزى النزاع العميق القائم بين العرب واليهود •• وهكذا كتب فرج الله الحلو ، عضو القيادة المركزية للحزب الشيوعي السوري اللبناني (واحد زعيمي الحزب الشيوعي اللبناني بعد انفصال الحزبين) في صحيفة الحزب الرسمية يقول مفسرا اهداف الحركة الصهيونية :

« فالصهيونية حركة استعمارية هدفها الاقتصادي تصدير الرساميل الى فلسطين وما جاورها من البلاد العربية وجعلها سوقا للاستثمار وتصريف البضائع ••

« والصهيونية بحكم كونها حركة استعمارية » تناقض اهداف العرب التحريرية والاستقلالية على خط مستقيم فهدفها السياسي خلق نقطة ارتكاز متينة امينة للنفوذ الاستعماري الاجنبي في فلسطين

اولا ، ونقاط ارتكاز اخـــرى او طابــور خامس للاستعمار فى بقية الاقطار المجاورة .. » (١)

هذه هى الحركة الصهيونية ، وهذه هى كــل اهدافها السياسية والاقتصادية برأى الشيوعيين . اما الهدف الاساسى ، اما الوطن القومى اليهودى ، فهو ليس الا مجرد ستار يختبيء وراءه الراسماليون اليهود وغير اليهود ، فالنضال يجب ان يتوجه ضد هؤلاء على اساس تكتل الشـــعب العربى واليهود « يدا واحدة » .

« لقد كنا وما زلنا نقول ان نضـــال العرب فى فلسطين ضد الصهيونية ، ليس نضــــالا بين عرب ويهود ، اى ليس نضالا عرقيا ولا دينيا .. » (صوت الشعب ، نفس المصدر) .

اما الشعب العربى فقد كان يقول ايضا ان النضال ليس عرقيا ولا دينيا ، ولكنه كان يقول ومـــا زال يقول ، انه نضال بين عرب ويهود وبين عـــرب واستعمار . النضال لم يكن عرقيا بمعنى أنه لم يقم على فكرة استعلائية تعصبية تريد استعباد الناس على أساس عرقى ودون أن تستند الى اى حق ، ولم يكن دينيا بمعنى انه لم يقم اصلا على فكرة اسلامية او مسيحية موجهة ضد اليهودية ، بـــل قام على اساس قومى بحت ، على اساس النضال لحماية حق العرب القومى فى فلسطين ، والقضـــاء على مؤامرة اغتصاب فلسطين استنادا الى حق قومى لليهـــود فيها . ولكنه كان فى احد وجهيه نضــالا بين عرب ويهود ، لان اليهود كانوا يعملون لتحقيـــــق هذه الجريمة .

وكانت هذه النغمة التى يقابلها بالطبـــع دعوة « الاخاء العربى اليهودى » ، تتردد باســتمرار فى كافة كتابات الشيوعيين .

ففى مقال كتبه قطب الحزب الشيوعى العراقى عبد القادر اسماعيل فى صحيفة « صوت الشعب » عام ١٩٤٥ ، يظهر هذا الاتجاه المتآمر بشكل أوضح حيث يحاول تصوير اليهود كمساكين وقعوا تحت نفوذ الصهيونية .. وانهم يودون ترك فلسطين ولكن منظمات الصهيونية تمنعهم .. بل ويبلغ التآمر وتزوير الحقائق حدا جعل قضية فلسطين برمتهـا نتيجة من نتائج الاضطهاد النازى لليهود ..

« ان القضية الكبرى الموضوعة امام فلسطين هى قضية حريتها واستقلالها ، ومتابعة النضال لالغاء الانتداب والحكم المباشر ومكافحــــة الصهيونية والرجعيين من العرب الفلسطينيين الذين يساندونها بصورة مباشرة او غير مباشرة ، والــكفاح لوقف الهجرة ، وازالة العراقيل التى تضعــها الوكالات الصهيونية لمنع اليهود من الرجـــوع الى اوطانهم المحررة ..

« هذا وان مكافحة الهجرة الصهيونية والعراقيل التى تضعها وكالات الصهيونيين فى سـبيل رجوع الجماهير اليهودية ــ التى أوت الى فلسطين هربا من الطغيان النازى ــ الى مواطنها الاصلية ، غدت أقرب منالا واسرع نجاحا » . (١)

طبعا ، لم يسمع قطب الحزب الشيوعى العراقى الكبير أن هناك شيئا اسمه وعد بلفور أعطته بريطانيا لليهود منذ عام ١٩١٧ ، أى قبل الاضطهاد النازى الذى يتكلم عنه بزمن طويل ، طويل جـــدا ! ، وأن المخطط اليهودى لغزو فلسطين استنادا الى فكرة الوطن القومى اليهودى قد ابتدأ ، وابتدأ النضـــال العربى ضده منذ ذلك الحين وبعد ذلك ، فى وقت لم يكن هتلر قد استلم فيه الحكم بعد ، وأن فلسطين شهدت ، قبل اشتداد الاضطهاد النازى لليهـــود ، معظم ثوراتها واحداثها الدامية .

وعاد خالد بكداش فاكد هذا الخط فى خطاب القاه يوم ١ أيار عام ١٩٤٦ فى دمشق ، نشرته « صوت الشعب » ، ويهمنا ماجاء فيه حول قضية فلسطين بعنوان « حرية فلسطين جزء لا يتجزأ من قضـــية الحرية والسلام فى الشرق العربى وفى العالم» !

« نحن لسنا أعداء لليهـــود بل نحـــن اعداء الصهيونية ، أعداء قدماء لها ، فهى حركة استعمارية رأسمالية رجعية ، مهمتها فى الغرب محاولة القـــاء الشقاق والتفرقة بين العمال اليهود وغيرهم مـــن العمال فى كل قطر ، ومحاربة الاشتراكيين ، ومهمتها فيما يتعلق بفلسطين خدع العمال اليهود وجرهم الى خدمة مآرب غريبة عن الديمقراطية والاشتراكية ، هى مآرب الاســـتعمار البريطانى والراســـمالية الصهيونيـــة المندمجـــة بالراســـمال الانجليزى والاميركى . » (١)

نريد ان نقول للشيوعيين الذين اثبتت مواقفهم السابقة كما ستثبت المقبلة ، كم هم «أعداء قدمــاء للصهيونية » فعلا ، شيئا واحدا :

نحن لسنا أعداء لليهود بالفطرة . لم نولد هكذا بالطبيعة ، وانما نحن اعداء لليهود فى فلسطين ، لانهم

---

(١) « صوت الشـــعب » ــ عدد ٨٢٦ ، بتاريـــخ ١٣ و ١٤ اب ١٩٤٤ . ولنلاحظ ان الحرب كانت فى اواخرها .

(١) : صوت الشعب ــ عدد ١٠٢٧ ، ١ اب ١٩٤٥ .

(١) : نشر نص الخطاب فى صحيفة « صوت الشعب » ــ عدد ١١٩٣ ، ايار ١٩٤٦ .

لم يرفضوا فقط ان يعيشوا مثلما تعيش ســائر الاقليات فى الامم ، بل ادعوا حقا قوميا فى أرضـــنا العربية ، وساروا فى مخطط شرس حاقد لاغتصابها، كانت نهايته هذه النكبة التى نسجوا خيوطها مــع الاستعمار الانجليزى ـ الذى هادنــه الشيوعيون صراحة ـ ثم أخرجوها بالاتفاق مع الحكام العرب الخونة • ونحن لانعتقد أن «اسرائيل» كان يمكن ان وفى سبيل غاية واضحة تماما لهم جميعا . فاذا كانت تقوم لو لم يعمل لذلك كل يهود فلسطين دون استثناء الصهيونية قد غررت بالعمال اليهود فى فلســطين الذين يتباكى زعيم الشيوعيين عليهم ، وجندتهــم لفكرة الوطن القومى اليهودى ، فهل ان الحـــزب الشيوعى اليهودى ، «حزب العمال» ، قد غرر هــو الاخر ايضا بالعمال حين خاض حرب فلسطين مــن اجل فكرة الوطن القومى اليهودى ..!؟

كان هذا التوجيه الفكرى المغلوط يملأ نشرات وصحف الشيوعيين طوال المدة . ولا بد كذلك ان نلفت الانتباه الى تعبير «النضال العرقى» الذى كان يتكرر باستمرار فى هذا التوجيه . ففى ٢٠ تشرين الاول ١٩٤٧ اصدر الحزبان الشيوعيان السورى واللبنانى بيانا مشتركا مطولا حول قضية فلســطين سنعود اليه فيما بعد ، ويهمنا منه فى هذا الصدد قوله :

« ان واجب الوطنيين الديمقراطيــين العرب فى نضالهم ضد التقسيم ، أن يقاوموا بقوة وحزم جميع المحاولات التى تحمل لواءها بعض الاوساط الرجعية المرتبطة بالاستعمار فى الاقطار العربيـــة ، تلــك المحاولات الرامية الى اخراج حركة التضامن العربى مع فلسطين من نطاق النضال ضــــد الاستعمار والاحتلال والصهيونية ، وتحويله الى نضال عرقى عربى يهودى . » (٢)

ذلك ان تعبير « النضال العـــربى » لا يستعمل اعتباطا من قبل حزب شيوعى يحمل الفكرة الماركسية اللينينية . بل يستعمل للدلالة على اتجــاه معــين محدد هو الذى تجسد بالنازية بشكل خاص . فهل كان نضال العرب فى فلسطين دفاعا عن أرضــهم ذا طابع ، أو بالاحرى ذا جوهر نازى ؟ هذا فى وقــت كان العرب يحاربون فيه اليهود والاستعمار سوية ؟ بل وبشكل خاص ، فى وقت اصبح فيه معروفا ان اليهود الذين كانوا يجابهون العرب ، لم يكونوا تلك الاقلية الضئيلة التى كانت تسكن فى فلســطين فى اوائل هذا القرن ، بل كانوا جموع اليهود المهاجرين الى فلسطين لاقامة «اسرائيل» .. فلأى غاية اذن بالعرقية ؟ ولمصلحة من كانت تشوه حركة النضال كان يتهم النضال العربى السائر فى هذا الخـــط العربى وتوصف بابشع أشكال التعصب والرجعية ؟

* * *

يهمنا ان نقرر ان الشيوعيين ، رغم تقلب موقفهم السياسى من جبهة الاعداء فى معركة فلسطين ومــن شعارات هذه المعركة ، ورغم نظرية « الاخاء العربى اليهودى » المغلوطة ، الا انهم اتخذوا طوال هــذه الفترة موقفا معارضا على طول الخط لفكرة الوطن القومى اليهودى وبالتالى لفكرة تقسيم فلســطين . بل ان التقسيم كان محط هجوم عنيف مركز استمر طيلة هذه المرحلة ، الى ان توقف فجاة عام ١٩٤٧ لينقلب الهجوم الحماسى الشديد الى تاييد حماسى اشـــد ..

واذا كان هذا الانقلاب الفجائى ، فى موقف الحركة الشيوعية من التقسيم ومؤامرة الوطـــن القومى اليهودى ، قد اعطى اصرخ مثال على تبعية الشيوعية المحلية المشينة للشيوعية الدولية ، وعلى العــين الاجنبية الغريبة التى تنظر بها هذه الحركـــة الى قضايا العرب القومية الخطيرة ، فانه قد أعطى ايضا أوضح صورة عن مقدرتها الفائقة على تزوير الحقائق الفكرية ، دون اى خجل ، لتبرير خياناتها النضالية.

لقد رفض الشيوعيون تقسيم فلسطين طوال هذه المرحلة استنادا الى مبررات فكرية وسياسية هامة واضحة محددة . ثم عادوا وايدوا التقسيم استنادا الى مبررات فكرية وسياسية جديـــدة . وكالعادة دوما ، جاءت مبررات المرحلتــين المتعاكستين كــل التعاكس ، من الزاوية العمليـــة السياســـية ، متناقضتين كل التناقض من الزاويـــــة النظرية الفكريه .

ولا نستطيع فى الواقع ان نلمس غرابة هـــذا الانقلاب الفجائى الذى دل على استعداد لا متنـاه للدوس بكل بساطة على حقوق الامة العربية خدمــة لمصلحة الشيوعية الدوليـــــة ، الا اذا استعرضنا الموقف المعارض الذى اتخــــذه الشيوعيون من التقسيم ودعوى الحق القومى اليهودى فى فلسطين، والذى لم يقل ـ دعاويا ـ عن موقف الحركة العربية نفسها .. فرغم استمرار ذلك التفريق المصـــطنع الخاطىء بين الصهيونية والشعب اليهـــودى فى فلسطين ، الا أن خط معارضة التقسيم «وحــق اليهود القومى» كان خطا عاما واضحا وضوحا تاما .

---

(٢) : نشر البيان فى صحيفة « صوت الشعب » ١٩ و ٢٠ تشرين الاول ١٩٤٧ .

كان موقف النظرية الشيوعية من قضية اليهود جليا كل الجلاء . فاليهود لا يؤلفون أمة لانهم لا يمتلكون مقومات الامة الواحدة . وكتابات ستالين حول المسالة القومية عام ١٩١٣ بشكل رئيسي قد فندت بقوة الاتجاه القائل بان اليهود يؤلفون أمة . وقد ظل هذا الاتجاه الفكري هو السائد طيلة هذه الفترة حتى عام ١٩٤٧ ، وهو الذي شكل الاساس النظري لرفض الشيوعية الدولية وكافة الشيوعيين العرب لفكرة الوطن القومي اليهودي. فما دام اليهود ليسوا أمة ، اذن فلا مجال للتحدث عن حق قومي يهودي ، وفكرة تقسيم فلسطين بين العرب واليهود، هي بالتالي ، فكرة خاطئة مغلوطة لا تستند الى أية جذور تاريخية قومية ، ولا بد من الوقوف بوجهها بقوة . وقبل ذلك أيضا كان لينين قد قال « ان الحركة الصهيونية في جوهرها حركة خاطئة ورجعية بصورة مطلقة ، وأن فكرة القومية اليهودية ذات صفة رجعية سافرة لا بالنسبة لمعتنقيها فحسب ، بل وكذلك للذين يحاولون خلق انسجام بينها وبين الافكار الاشتراكية » . لقد تناول ماركس ثم لينين ثم ستالين مسالة اليهودية ، واكد الثلاثة أن فكرة القومية اليهودية خرافة يجب فضحها بقوة .

وكان يسير بموازاة رفض فكرة كون اليهود امة، تقييم مماثل للحركة اليهودية التي تعمل بوحي هذه الفكرة، يقوم على أنها حركة رجعية تمثل مصلحة كبار الرأسماليين ، وانها تبتدع خرافة القومية اليهودية لتحقيق مآربها الاقتصادية الاستغلالية الخاصة .

* * *

وعلى هذا الاساس رفض الشيوعيون في فلسطين منذ زمن مبكر لبدء القضية فكرة الوطن القومي اليهودي والتقسيم كذلك . فرغم الموقف السلبي الذي اتخذوه من أحداث ١٩٢٩ و١٩٣٣ ، والموقف الانهزامي الذي اتخذوه من ثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩ وعدم الاشتراك فيها ، الا انهم كانوا يؤكدون باستمرار على شجب اى حق لليهود في فلسطين ورفض التقسيم ومعارضة الهجرة اليهودية .

ففي حزيران عام ١٩٣٦ اصدرت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في فلسطين بيانا لخصت فيه موقف الحزب من التقسيم بقولها :

« نحن ضد المغامرة الدامية الهادفة الى اقامة دولة يهودية ... »

وفي ١١ تشرين الاول ١٩٣٦ جاءت الى فلسطين «اللجنة الملكية» التي ارسلتها بريطانيا لدراسة الوضع اثر اندلاع الثورة ، وقد خرجت هذه اللجنة باقتراحها المعروف : تقسيم فلسطين واقامة دولتين عربية ويهودية . وعارض الشيوعيون في فلسطين هذا الموقف ، اذ اصدرت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي بيانا أعلنت فيه استنكارها لقرار التقسيم، معلنة فيه أن النضال ضد التقسيم « هو جزء من النضال الشامل في كل انحاء العالم ضد الفاشية . » (١)

كما عاد الحزب الشيوعي الفلسطيني فايد مقررات مؤتمر بلودان الذى عقد في ايلول ١٩٣٧ ردا على قرار اللجنة الملكية ، والتى اكدت على رفض تقسيم فلسطين ومقاومة انشاء دولة يهودية فيها .

وفي هذه الفترة ايضا أعلن الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان رفضه للتقسيم في المذكرة التي قدمتها لجنته المركزية الى مؤتمر بلودان والتي نصت على : « رفض تقسيم فلسطين رفضا باتا - وقف الهجرة اليهودية - منع بيع الاراضي الخ .. » (٢) كذلك اكد الحزب الشيوعي في فلسطين مرة أخرى رفضه للتقسيم على نفس الاسس السابقة حين صدور تقرير «اللجنة الفنية للتقسيم» في تشرين الاول ١٩٣٨ والتي كانت قد قدمت الى فلسطين في نيسان ١٩٣٨ لتضع مشروعا عمليا للتقسيم بناء على اقتراح لجنة عام ١٩٣٧ .

اما في المدة الواقعة بين آب ١٩٣٩ وحزيران ١٩٤١ ، اى في فترة ميثاق عدم الاعتداء السوفييتي النازى ، نلاحظ تجاهلا واضحا للشيوعيين في فلسطين لهذه القضية ولقضية النزاع العربي اليهودي ، وتوجيها للانظار ضد الاستعمار الانجليزي ، بشكل رئيسي ، الذى كان يخوض الحرب ضد المانيا صديقة الاتحاد السوفييتي . وقد استمر هذا التجاهل في سني الحرب العالمية الثانية ولكن بعد ان انعكست الاسباب .

ففي سنوات الحرب اصبح الواجب الاول هو مهادنة الاستعمار الانجليزي وتقديم كافة التسهيلات الممكنة ، لان الانجليز الان يخوضون الحرب ضد المانيا الى جانب الاتحاد السوفييتي ! وكان هذا يستتبع ، تسهيلا للمجهود الحربي للحلفاء ، الدعوة الى « استتباب الامن » في فلسطين ومعارضة كل عمل من شانه احداث اى ازعاج لبريطانيا

(١) : بيان صادر عن اللجنة المركزية بتاريخ اب ١٩٣٧ ، اى اثر ظهور قرار لجنة بيل في تموز ١٩٣٧ مقترحا تقسيم فلسطين ولنلاحظ هنا كذلك ، التركيز على الفاشية واغفال الانتداب الانجليزى .

(٢) : « صوت الشعب » - ١٥ ايلول ١٩٣٧ .

« الديمقراطية » ، ولا شك ان بقاء حالة التوتر بين العرب واليهود من شانه ارباك بريطانيا التي تخوض الحرب « في سبيل الديمقراطية » ضد النازية !

وقد استمر هذا الاهمال لقضية فلسطين الى أواخر فترة الحرب العالمية الثانية ، حيث نجد في عام ١٩٤٤ أول تعرض لهذه القضية طوال فتـــرة الحرب ! والواقع ان هـــذه الروح « الثورية » لم تتحرك في الشيوعيين في تلك الفترة ، الا بعـــد ان اشتد النشاط اليهودي في اميركا وبريطانيا وبدأت الهيئات الرسمية والشعبية تطالب صراحة بتبني مطالب اليهود حول فكرة الحق القومي اليهودي ، واقامة دولة يهودية ، والسماح بالهجرة على نطـاق أوسع ، هذا النشاط الكبير الذي انعكس آنذاك في عهد حكومة الرئيس الاميركي روزفلت ، ثم في موقف تنافس الحزبين الاميركيين الجمهوري والديمقراطي على تأييد مطالب اليهود عام ١٩٤٤ ، ثم في البيـــان الذي أصدره الرئيس الاميركي الصهيوني ترومان ، ودعا فيه الى فتح أبواب الهجرة الى فلسطين تمهيدا لاقامة دولة لليهود فيها في نفس العام .. وكذلك في القرار المؤيد لمطاليب اليهود الذي اتخذه حـــزب العمال البريطاني في آيار (مارس) ١٩٤٤.

هذا ولا بد ان نشير ان الهجرة اليهـــودية الى فلسطين لم تكن قد توقفت في تلك الفترة ، اذ نفذت بريطانيا ما جاء في الكتاب الابيض حول السمـــاح رسميا بدخول ٧٥ الف يهـــودي في مدة خمس سنوات ، وقد أعلنت بريطانيا عام ١٩٤٥ ان هـــذا العدد قد دخل فعلا ، هذا فضلا عن الهجرة التي كانت تنظمها وتشرف عليها المنظمات اليهـــودية تحت سمع بريطانيا وابصارها .

وقد حملت « صوت الشعب » ــ بعد كل ذلك ــ تعليقا لرئيس الحزب الشيوعي اللبناني ، يتحدث فيه عن هذه القضية بلهجة دبلوماسية رقيقة كما يتحدث أي مراقب اجنبي !

« اجتاحت لبنان والبلاد العربية كلها موجة من الاستياء والقلق على اثر التصريحات التي صـــدرت عن زعماء الحزبين الاميركيين الجمهوري والديمقراطي بعزمهم على جعـــــل فلسطين وطنا قوميـــــا للصهيونيين ... » (١)

كذلك اعلن الحزب الشيوعي العـــراقي في نفس الفترة موقفه المعارض للتقسيم وفكرة الوطن القومي اليهودي ، ففي تشرين الاول ١٩٤٥ اصدر الحزب بيانا بعنوان : « من اجل نصرة الشعب العـــربي في فلسطين وشجب فكرة انشاء الوطن القـــــومي الصهيوني في فلسطين » قال فيه :

« لقد اعلنا في مناسبات عديدة عداءنا للحركة الصهيونية ولفكرة انشاء الوطن القومي الصهيوني في فلسطين العربية ، واعلنا تضامننا مع الشعب العربي في فلسطين وتأييده التام لمطالبه بمنح الشعب الفلسطيني حق تأليف حكومة وطنية ديمقراطيـــة مستقلة » ... (٢)

***

ما يهمنا ، الان ، هو موقف الشـــيوعيين من التقسيم بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية . ذلك ان السنوات المنقضية ما بين انتهاء الحرب وقرار التقسيم تعطي صورة واضحة عن المعارضة العنيفة التي شنها الشيوعيون على فكرة تقسيم فلسطين . لقد انتهت الحرب الان ، وابتدأت الحرب الباردة بين السوفييت والغرب ، ووجد الشيوعيون الذين هادنوا الصهيونية وكانوا اخلص اصدقاء الاستعمار في هذه الفترة ، ان المهمة الجديدة الان هي العـــودة الى الشعار القديم : « الاستعمـــار والصهيونيـــة ، العدو الاول . » !

وهكذا ابتدأت حملة عنيفة ضـــد « مشاريع الاستعمار ومؤامرات الصهيونية المجرمة الهـــادفة الى تقسيم فلسطين واغتصاب حقوق العرب » :

ففي بيان صادر عن اجتماع اللجنـــة المركزية للحزب الشيوعي السوري واللبنـــاني في ٥ آذار ١٩٤٥ بعنوان « الحالة السياسية العامة في سوريا ولبنان » يهاجم البيان مشروع سوريا الكبرى لانه يهدف من جملة ما يهدف الى تنفيذ التقسيم :

« ان هذا المشروع يؤدي الى نتائج خطيرة علـــى العرب اهمها : اولا ــ خلق منطقة جـــديدة لنفوذ استعماري معين . ثانيـــــا ــ الاعتراف الرسمي بالصهيونية وتأليف دولة صهيونيـــة على شاطيء فلسطين العربية تكون حصنا للاستعمار وخطرا على كل الشرق العربي .. »

وفي ١٥ تشرين الاول ١٩٤٥ عقدت اللجنـــة المركزية للحزبين الشيوعيين في سوريا ولبنــــان اجتماعا صدر عنه بيان مطول حول قضية فلسطين حدد موقف الحزبين من هذه القضية بقوله :

---

(١) : مقال لفرج الله الحلو رئيس الحزب الشـــيوعي اللبناني ــ صوت الشعب ــ عدد ٨٢٦ ــ ١٣ و ١٤ آب ١٩٤٤ .

(٢) : نشر هذا البيان مرة ثانية في صحيفة « اتحاد الشعب » لسان الحزب الشيوعي العراقي عدد ٢٠٢ بتاريخ ٢٠ شباط ١٩٥٩

« كان حل قضية فلسطين حلا صحيحا هو في الغاء الانتداب عن فلسطين واعلان استقلالها التام ، ومنحها حريتها وسيادتها الوطنية ، ووقف الهجرة الصهيونية مع السماح لليهود الذين يرغبون في ذلك بالرجوع الى اوطانهم المحررة في اوروبا والتي سادت فيها الديمقراطية ، واقامة حكم وطني ديمقراطي في فلسطين يؤمن الحرية والحقوق الديمقراطية العامة لجميع المواطنين » . (١)

وكان موقف الاتحاد السوفييتي من قضية فلسطين في هذه الفترة معارضا ايضا بالطبع على طول الخط للتقسيم وللهجرة اليهودية ، كما كان يهاجم بشدة المناورات الانجلو اميركية « التي وضعت نفسها في خدمة الصهيونية » .

وقد برز هذا الموقف بشكل واضح جدا في الموقف الذي اتخذه الاتحاد السوفييتي من اللجنة الانجلو اميركية التي تشكلت « لبحث » قضية فلسطين عام ١٩٤٦ .

لم تكن هذه اللجنة في الواقع الا تعبيرا عن الدور الفعال الذي بدأت تلعبه اميركا في عملها لتحقيق اهداف اليهود في فلسطين بشكل سافر وقح ، كما وجد بيفن ان اشراك اميركا رسميا في ملابسات هذه القضية سيؤمن قوة عالمية سياسية اقدر على تنفيذ اهداف اليهود ومخططات الاستعمار في فلسطين وفي الوطن العربي عامة .

تألفت هذه اللجنة الانجلو اميركية في اوائل عام ١٩٤٦ وقدمت تقريرها في نيسان من نفس العام ، وطبعا نص التقرير على تقسيم فلسطين واقامة دولة يهودية . وهاجم الاتحاد السوفييتي اللجنة واجراءاتها ، اذ علقت مجلة « الازمنة الحديثة » الصادرة في موسكو على هذه اللجنة بقولها :

« ما هي الاسس القانونية التي تقوم عليها اللجنة البريطانية الاميركية المكلفة ببحث قضية فلسطين ؟ ومن الذي اعطاها سلطة حل هذه المسألة ؟ ان الجماهير العربية مستاءة من المحاولات التي تبذل في سبيل حل قضية فلسطين بغياب العرب .. »(١)

وعادت مجلة « الازمنة الحديثة » فهاجمت الهجرة اليهودية والتقسيم بعد ذلك بفترة وجيزة في اذار ١٩٤٦ فقالت : « ان مشروع انشاء دولة صهيونية يهودية في فلسطين ، تدعمه اوساط اميركية ذات نفوذ . فرسالة الرئيس ترومان التي تقترح نقل مئة الف يهودي من اوروبا الى فلسطين والمحاولات الانجليزية الاميركية حول هذه القضية ، زادت ايضا في تشويش العقدة الفلسطينية .

« فمن الجلي الواضح ان تأمين ظروف عادية لحياة يهود اوروبا ومستقبلهم لا يكون باللجوء لهجرة يهودية الى فلسطين ، بل باستئصال حازم لجذور الفاشستية من اوروبا ، وبالقضاء على التعصب العرقي ونتائجه » (٢)

لم يكن الاتحاد السوفييتي يتوقع انه سيقف ، بعد اقل من عام واحد فقط من هذا الكلام ، موقفا مناقضا اقل ما يقال فيه انه نسف جذري لكل هذه التحليلات ، وتأييد رسمي لاهداف اليهود ومخططات الاستعمار نفسه ، مهملا ، هو الاخر ، اهمالا تاما ، الكتابات الشيوعية المطولة حول خرافة القومية اليهودية وطبيعة الحركة الصهيونية ، فضلا عن حقوق العرب القومية .

وما كان الشيوعيون العرب يتوقعون ذلك ايضا . وهكذا استمرت هذه التظاهرات الحماسية ضد التقسيم .

يقول البيان الصادر عن « ممثلي قيادتي الحزبين الشيوعيين السوري واللبناني » في اجتماعهما المشترك المعقود في ٧ شباط ١٩٤٦ « لدراسة الوضع السياسي » :

« وبحث المجتمعون قضية فلسطين فتبين لهم ان قرار بيفن الاخير بفتح ابواب الهجرة الصهيونية الى فلسطين هو حلقة جديدة في سلسلة التدابير المتوالية التي اقدم الاستعمار على اتخاذها لجعل هذه البلاد مقرا دائما للاستعمار والصهيونية ، وبؤرة لمكافحة اماني الشعوب العربية في نضالها لاجل تحررها الوطني . وقد اظهر الشعبان السوري واللبناني في الاضطرابات والمظاهرات الاخيرة انهما سيكونان دوما في مقدمة البلاد العربية للدفاع عن فلسطين . » (١)

---

(١) : نشر البيان في صوت الشعب ـ عدد ١٠٦٧ ، ١٨ تشرين الاول ١٩٤٥ .

(١) : نشر تعليق مجلة « الازمنة الحديثة » في صوت الشعب ـ عدد ١١٢٧ ، شباط ١٩٤٦ .

(٢) : نشر مقال مجلة « الازمنة الحديثة » بعنوان « قضايا الشرق العربي » في صحيفة صوت الشعب ـ عدد ١١٦١ اذار ١٩٤٦ ـ ويلاحظ هنا ايضا الخطأ الذي يقع فيه الشيوعيون بجعل الغزو اليهودي المنظم مجرد نتيجة من نتائج الاضطهاد النازي .

(١) : نشر البيان في صحيفة الحزب صوت الشعب ـ عدد ١١٣٩ شباط ١٩٤٦ .

وفي آذار كتب فرج الله الحلو رئيس الحزب الشيوعي اللبناني مقالا في «صوت الشعب» بعنوان « الطريق الصحيح لحل قضية فلسطين » يهاجم بحماس فكرة التقسيم والاستعمار والصهيونية .

« .. وليس لهذه القضية سوى حل واحد هو الغاء الانتداب الانجليزي عن فلسطين ووقف الهجرة اليها ، واعلان استقلالها وافساح المجال لتأليف حكومة وطنية ديمقراطية فيها . هذا ما يطالب به عرب فلسطين وهم الاكثرية الكبرى ، وهذا ما تؤيدهم به جميع الشعوب العربية وجميع احرار الدنيا ، وهذا ما يقتضيه الحق والعدل والذوق السليم ..

« اما مشروع انشاء دولة صهيونية أو وطن قومي في فلسطين ، فهو يشكل اعتداءا صارخا على حقوق فلسطين ، كما انه لا يؤدي الى حل القضية الفلسطينية ولا الى حل ما سموه القضية اليهودية المزعومة .. » (٢)

اما خالد بكداش ، زعيم الشيوعيين في سوريا ولبنان ، فقد كان اقدرهم جميعا ، بل اقدر الشيوعيين العرب اطلاقا على التعبير عن هذا الحماس المتدفق ضد التقسيم ، (كما كان اكثرهم دفاعا عن تأييد التقسيم فيما بعد !) . لنستمع الى هذا المقطع الذي جاء في خطابه في ١ ايار ١٩٤٦ :

« ... اجل في اعناقنا جميعا واجب تأييد فلسطين ، لا الى اقصى حد ممكن فقط ، كما قال البيان الوزاري ، بل الى النهاية وبكل صراحة ودون مراعاة لاحد . ان في اعناقنا جميعا لا واجب التأييد لفلسطين ، بل واجب النضال جنبا الى جنب مع فلسطين ضد الانتداب وضد الصهيونية وضد الوطن القومي الصهيوني ، في سبيل استقلالها وقيام حكم ديمقراطي صحيح فيها . »

« اجل جنبا الى جنب مع فلسطين ، فالقضية يا اخواني ليست قضية فلسطين فقط ، بل هي قضية سوريا وقضية لبنان ، والعراق ومصر والمملكة العربية السعودية ، هي قضية كياننا جميعا . فما فلسطين في نظر المستعمر والمنتدب وحليفته الصهيونية سوى « رقبة جسر » للاحتلال والاستعمار والاضطهاد ضد الحركات الوطنية العربية ، ضد الحركات الديمقراطية العربية ، ضد الحركات النقابية العربية ، ضد العمال العرب والفلاحين العرب . ولهذا فقضية فلسطين هي قضية جميع الوطنيين العرب ، وجميع النقابيين العرب ، وجميع العمال والفلاحين العرب ، قضية فلسطين هي قضية العروبة بأسرها في كل اقطارها وديارها .. » (١)

هل يمكن ان نتوقع خطابا حماسيا أكثر من هذا ؟

فخالد بكداش أكثر ثورية من أن يقنع بتأييد فلسطين « الى اقصى حد ممكن » ، أنه يريد النضال في سبيل فلسطين « الى النهاية » . فقضية فلسطين هي قضية العروبة بأسرها .

لنتذكر هذه الكلمات الخطابية لنقارنها بكلمات اخرى سطرها خالد بكداش نفسه بعد فترة ، لنرى عندئذ ايضا ، كيف كان خالد بكداش أكثر ثورية من ان يقنع بخيانة فلسطين الى اقصى حد ممكن ، **بل خان فلسطين الى النهاية .. وخان بذلك قضية العروبة بأسرها الى النهاية .**

بعد ذلك بثلاثة أشهر عاد خالد بكداش فكتب مقالة حماسية أخرى في رفض التقسيم وغيرته على عروبة فلسطين قال فيها :

« ان موقف التساهل بل التخاذل انما يزيد المستعمرين والصهيونيين جراة علينا : فها هم يتكلمون صراحة عن مشروع التقسيم .. ولكن هنالك ادهى من ذلك . فقد بلغت بهم الجراة ان اصبحوا يقولون : مقابل كل ذلك ، اى مقابل الهجرة الجديدة والتقسيم ، تقترح انجلترا على اميركا دفع ١٠٠ أو ٢٠٠ مليون دولار للعرب ..

« حينما قرانا الخبر أمس .. احسسنا جميعا بما يشبه الكلاليب تنشب في اعماقنا ، أو بما يشبه الصاعقة تنقض على رؤوسنا ! .. » (١)

حقا انه لكلام مؤثر ! وقد ادرك الشعب العربي مدى الصدق فيه بعد سنة وأربع شهور ، حين أيد طرف آخر غير « المستعمرين والصهيونيين » مشروع التقسيم ، ولم ير الشعب العربي الكلاليب تنشب ولا الصواعق تنقض على رأس الشيوعيين ، بل نزل التأييد على راسهم بردا وسلاما .. فالاتحاد السوفييتي دوما على حق .. دوما نصير الشعوب !

---

(٢) : صوت الشعب – عدد ١١٦٥ ، اذار ١٩٤٦ .

(١) : نشر نص الخطاب في صوت الشعب بعنوان : « حرية فلسطين جزء لا يتجزا من قضية الحرية والسلام في الشرق العربي وفي العالم » عدد ١١٦٣ – ايار ١٩٤٦ .

(١) : صوت الشعب – مقالة لخالد بكداش بعنوان « المرحلة الحاضرة في تطور قضية فلسطين » – عدد ١٢٣٨ ، بتاريخ ٤ و ٥ اب ١٩٤٦ .

وجاء عام ١٩٤٧ ولم يغير الشيوعيون موقفهم قيد شعرة ، بل استمروا في حماسهم ومعارضتهم الشديدة التامة للتقسيم ، والتأكيد دوما أنه مشروع يقوم على تحالف استعماري صهيوني مقيت بين بريطانيا واميركا واليهود . هكذا كتب خالد بكداش في مقالة بعنوان « السياسه البريطانية في الشرق العربي » في كانون الثاني ١٩٤٧ ، يقول :

« وفي فلسطين عجزت بريطانيا عن ايجاد اي حل يوفق بين مصلحتها الاستعماريه من جهة ، ومطامع الصهيونية من جهة ثانية ، ورغبات الاميركيين من جهة ثالثة ، ومبادىء الامم المتحدة المتعلقة بالاراضي الواقعه تحت الانتداب من جهه رابعة .. وقد فشلت بريطانيا في مشروع لجنه التحقيق الانجليزية الاميركية ، ورغم جميع المناورات احبطت مقاومة الراي العام العربي مشروع التقسيم الذي اريد فرضه واقراره في مؤتمر لندن » (٢)

وفي اواسط شباط ١٩٤٧ اجتمعت اللجنتان المركزيتان للحزبين الشيوعيين السوري واللبناني واتخذتا عددا من المقررات صدرت في بيان عن « دائرة النشر المركزيه للحزبين الشيوعيين السوري واللبناني » . وجاء في القرار المتعلق بفضية فلسطين :

« ان الاجتماع المشترك للجنتين المركزيتين للحزبين الشيوعيين السوري واللبناني المنعقد في اواسط شباط ١٩٤٧ يقرر بالاجماع ، متابعة النضال بالتضامن مع جميع الوطنيين العرب لتاييد الشقيقة فلسطين في نضالها ضد مشاريع التقسيم الاستعماريه ، ولاجل الجلاء والاستقلال ، وقيام حكم دستوري وطني ديمقراطي في فلسطين ، وايقاف الهجرة الصهيونيه ، لان في ذلك لا مصلحة فلسطين وحدها ، بل مصلحة جميع الشعوب العربية في نضالها الوطني الصاعد للتخلص من الاستعمار ، ولاجلاء جيوشه ، وتحقيق التحرر الوطني . »

وينتهي القرار بقوله :

« عاش تضامن الشعوب العربية لاجل الدفاع عن فلسطين الشقيقة ضد الاستعمار والصهيونية . »

وفي شباط ١٩٤٧ ألقى خالد بكداش خطابا في « مؤتمر الاحزاب الشيوعية في الاقطار التابعة لبريطانيا » باسم الحزبين الشيوعيين في سوريا ولبنان ، له اهمية خاصة ، وستتطرق له عندما نأتي الى بحث موقف الشيوعيين في معركة التحرر العربي ضد الاستعمار ، ويهمنا منه هنا الفقرات التي تحدث فيها عن قضية فلسطين ، وأكد فيها الارتباط بين مشاريع الاستعمار ومؤامراته ، وبين مؤامرة تقسيم فلسطين فقال :

« ان السياسه الاستعمارية البريطانية الاميركية ، التي تؤيدها الصهيونية ، هذه السياسة القائمة على تقسيم فلسطين واقامة دوله يهودية فيها وابقاء نير الاحتلال عليها ، هي سياسه فاشلة حتما كما دلت الحوادث . وهي تهدد السلام في الشرق الاوسط ، كما انها ترمي لايجاد جو دائم من العداء بين العرب واليهود .. »

وبعد ان يتحدث عن مشروع سوريا الكبرى يقول :

« ولكن مهما كان من امر هذه المشاريع ، فهي فاشلة . فليس من يؤيدها في الشرق الاوسط الا الدوائر الرجعيه التركية ، وعملاء الاجنبي من كبار الرجعيين العرب امثال الملك عبد الله ذي العرش الكرتوني » « والسير » نوري السعيد واضرابه ، وصدقي باشا ، والزعماء الصهيونيين الذين يأملون ان تؤدي هذه المشاريع الى تحقيق حلمهم بتقسيم فلسطين واقامة دولة يهودية فيها . » (١)

اذن ، فهؤلاء هم فرسان السياسة البريطانية الراميه الى فرض المشاريع الاستعمارية والتقسيم . لنتذكر وجوه هؤلاء الفرسان ، فقد زادوا وجهها كالحا جديدا بعد فترة .. ولنمش مع الزمن .

في نفس هذه الفترة ، اصدر الحزب الشيوعي اللبناني منشورا يحاول ان يؤكد فيه عروبته ويهاجم التقسيم ، جاء فيه : « ان الشعب اللبناني يعلم ان مصلحته الحيويه تقضي بتقوية اواصر التضامن مع الشقيقه سوريا ، والسير بجراة في التعاون العربي . فهو اذ يستنكر بكل قوة دعايات انصار « الوطن القومي المسيحي » في لبنان والدولة الصهيونية في فلسطين ، يعلن تضامنه الوثيق مع جميع الشعوب العربية في النضال لحماية فلسطين من المؤامرات والمشاريع الانجليزية الاميركية ، ومن مطامع الصهيونية ، ويرفض كل مشروع يرمي الى التقسيم .. » (٣)

---

(٢) : نشر الخطاب في مجلة « الطريق » الصادرة في لبنان في عدد كانون الثاني ١٩٤٧ ، ص ٣٢ - ٤٢ .

(١) : نشر نص الخطاب في مجلة الطريق - العدد الثالث من السنة السادسة - ص ٩٢ - ١٠٠ .

(٣) : منشور صادر بتوقيع « اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني » ، بعنوان : « عاش تضامن لبنان مع فلسطين ومصر وجميع الشعوب العربية في نضالها ضد الاستعمار البريطاني وشريكه الاميركي » .

وكانت الاحداث تتتابع بسرعة بصدد مصير قضية فلسطين ، وبدا للجميع ان هذه الشهور القلائل القادمة ستحمل احداثا خطيرة •

وفي تموز ١٩٤٧ وصلت الى فلسطين اللجنة الدولية التي شكلتها هيئة الامم المتحدة لدراسة القضية ووضع اقتراحاتها بشأنها(٣) • وانقسمت اللجنة الى فريقين : فريق ايد التقسيم واقامة دولتين عربية ويهودية مع اتحاد اقتصادي ، وهو الفريق الذي يشكل الاكثرية ، وفريق ايد قيام دولة اتحادية ، وهو فريق الاقلية • وهكذا فاز التقسيم ـ كما هو متوقع ـ في نطاق لجنة التحقيق الدولية ، وكانت الخطوة الثانية نقل قرارات اللجنة الى هيئة الامم المتحدة •

وكانت اللجنة الدولية قد قدمت تقريرها في ايلول ١٩٤٧ •

وكانت الاحزاب الشيوعيه الى هذا التاريخ معارضة معارضة تامة للتقسيم •

ففي بيان صادر عن الحزبين الشيوعيين السوري واللبناني في ايلول ١٩٤٧ ، أكد مجددا على رفض التقسيم حيث قال :

« ويعرب ممثلو الحزبين مرة أخرى عن تضامن الشعبين السوري واللبناني في تأييد حق فلسطين الصريح في الجلاء والغاء الانتداب واقامة حكم ديمقراطي ووقف الهجرة الصهيونيه ، ورفض كل مشروع يرمي الى التقسيم او اقامة دولة يهودية في فلسطين » (٤)

كما استنكرت « عصبة التحرر الوطني » (الاسم الذي اتخذه الحزب الشيوعي العربي في فلسطين بعد انفصاله عن اليهود الشيوعيين عام ١٩٤٤) قرار اللجنة القاضي بالتقسيم • وأصدرت في ايلول ١٩٤٧ بيانا قالت فيه :

« ولكن الحل الذي وضعته أكثرية اعضاء اللجنة الدولية ، وهو الذي يقضي بتقسيم فلسطين ، وبمباشرة الحكومة البريطانية هذا التقسيم ، وبابقاء منطقة دولية في فلسطين ، ان هذا الحل يتيح حالا الى دسائس المستعمرين داخل منظمة الامم المتحدة التي يهدفون من ورائها الى التآمر على مستقبل فلسطين اولا ، والى التآمر على مستقبل منظمة الامم المتحدة ثانيا • » (٥)

نحن الآن قبل شهرين من اقرار التقسيم في هيئة الامم المتحدة ، **والشيوعيون حتى هذا التاريخ يقفون منه موقفا عدائيا صريحا •**

وقبل اربعين يوما من اقرار التقسيم في الامم المتحدة ، وبعد يومين من انتهاء اجتماعات جامعة الدول العربية في صوفر ، أصدر الحزبان الشيوعيان في سوريا ولبنان بيانا مشتركا في ١٧ تشرين الاول ١٩٤٧ ـ تحدثنا عنه آنفا ـ أعاد التأكيد على ان تقسيم فلسطين هو مشروع استعماري صهيوني •

« ان المستعمرين الانجليز ، وقد انضم اليهم في السنين الاخيرة المستعمرون الاميركيون ، قد عملوا دائما لجعل القضية الفلسطينية قضية نزاع عنصري عربي يهودي • ولاجل ذلك سعوا ، يساعدهم زعماء الصهيونية ، الى تغذية التوتر والحقد بين العرب واليهود في فلسطين ومنع اي تقارب او اتفاق بين الطرفين • وكان هدفهم دائما تأمين سيطرتهم والمحافظة على احتلالهم واستعمارهم • وها هم اليوم يستغلون الحالة التي خلقوها هم انفسهم لاجل تقسيم فلسطين واقامه دولتين فيها ، وهدفهم من ذلك هو هو ، تثبيت سيطرتهم واستعمارهم واحتلالهم بالتعاون مع زعماء الصهيونية وعملائها ودعاتها • »

واذا نحن تجاوزنا هذا التوجيه المغلوط الذي يتعمد اغفال خطر الغزو اليهودي المنظم ، ويحصر القضية كلها بالاستعمار فقط ، فان ما يهمنا بهذا الصدد هو اعطاء نموذج لمواقف الشيوعيين المعارضة للتقسيم قبل فترة وجيزة جدا من اقراره في هيئة الامم •

* * *

وكان الاتحاد السوفييتي طيلة هذه الفترة يؤيد مشروع الدولة الواحدة ، ويرفض فكرة التقسيم بشدة ، وهذا هو الموقف الذي تبنته يوغوسلافيا في لجنة تحقيق هيئة الامم المتحدة (ولم تكن قد خرجت من الكومنفورم بعد) كما كان «الغاء الانتداب وانشاء دولة مستقله ديمقراطية» هو الشعار الذي رفعته الصحافة السوفييتية باستمرار •

---

(٣) : تشكلت لجنة هيئة الامم المتحدة من : كندا وهولانده واستراليا والسويد وغواتيمالا وبيرو واوروغواي والهند وايران ويوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا •

(٤) : نشر نص البيان في مجلة الطريق ـ العدد العاشر للسنة السادسة ، ص (؟) ، ايلول ١٩٤٧ •

(٥) : نفس المصدر السابق •

(٦) : الطريق ـ العدد العاشر من السنة السادسة ، تشرين الاول ١٩٤٧ ، ص ٨٦ •

وعقدت هيئة الأمم المتحدة اجتماعا خاصا لمناقشة اقتراحي لجنة التحقيق الدولية . وايدت الدول الاستعمارية والواقعة تحت نفوذها التقسيم .. وجاء دور مندوب الاتحـــاد السوفييتي ، فالقى خطابا طويلا وضع في نهايته المفـاجأة الـكبرى للعرب وللعالم حين اعلن تأييد حكومته للتقسيم ايضا . وحاول غروميكو ان يبرر موقفه بخطاب جاء محتواه انكى من فداحة هذا الموقف نفسه كما سنرى .

وعاد المندوب السوفييتي « تساوابكين » ، فاعلن مرة اخرى تأييد التقسيم ، مؤيدا بالتالى فكرة الوطن القومي اليهودي ، في الاجتماع الثاني لهيئة الامم المتحدة الذي أقر التقسيم بشكل نهائي ، منسجما بذلك كل الانسجام مع قول لينين « ان الحـــركة الصهيونية في جوهرها خاطئة ورجعيـــة بصــورة مطلقة ، وان فكرة القومية اليهودية ذات صفة رجعية سافرة لا بالنسبة لمعتنقيها فحسب ، بل وكذلــــك للذين يحاولون خلق انسجام بينها وبين الافـــكار الاشتراكية » ؟

ولكن ألم يقل لينين نفسه منـذ زمن بعيـد أن « بعض مقتضيات الديمقراطية ، ومنها الحق في تقرير المصير ، ليست شيئا مطلقا ، بل هي جـزء من الحركة الديمقراطية العامة (وهي اليوم الحركة الاشتراكية العامة) العالمية . ويحتمل ، في بعض حالات خاصة معينة ان يناقض الجزء الكل ، وحينئذ ينبغي نبذه » (١) ؟

لقد كان الشعب العربي هو هذا « الجزء » برأي الشيوعية الدولية ؟ وطبعا كان ـ ولا يزال ـ من العسير على الشعب أن يفهم ، كما هو عسير على كل انسان مخلص ، ما هو هذا « الـكل » الذي ديست حقوقه المقدسة من أجله . هل هذا « الكل » هو الحركة الصهيونية « الخاطئة الرجعية بصــورة مطلقة » ؟! أم هذا «الكل» هو مصلحة الحركـــة الاشتراكية العالمية ؟ وفي هذه الحالة كيف يمكن ان تنسجم مصلحة الحركة الاشتراكية العالمية مع كون « فكرة القومية اليهوديه ذات صفة رجعيـــة سافرة لا بالنسبة لمعتنقيها فحسب ، بل وكذلـــك للذين يحاولون خلق انسجام بينها وبين الافكـــار الاشتراكية » ؟!

كلا ... لم تكن القضية قضية فكر ولا قضيـــة مبادىء . كانت القضية مصلحة الاتحاد السوفييتي السياسية كدولة .. وتصرف الاتحاد السوفييتي في هذا الصدد كما تصرفت سائر الدول الكبرى التي كانت لها مصالح وغايات محددة معينة من وراء هذا الموقف .. ولم يتردد بمجرد ظنه انه سيجني بعض الكسب السياسي بمثل هذا الموقف ، في ان يضرب عرض الحائط بكل تحليلاته الفـكرية ومواقفــه السياسية السابقة .

وبهذا اختتمت فصول هذه المسرحية التي ابتدأت نظريا بكتابات ماركس ولينين وستالين حول الخرافة القومية اليهودية . وعمليا بشجب الكومنترن الثاني لهذه الفكرة وللنشاط الصهيوني عام ١٩٢٠ ، لتنتهي بعد سبع وعشرين عاما بتأييد الاتحاد السوفييتي لهما في أروقة الامم المتحدة عام ١٩٤٧ .

وليس لنا الا ان نقول انها ليست نهاية مشرفة .

لقد كان الشعب العربي يتوقع أن تقف الـدول الاستعمارية الكبرى ، أميركا وبريطانيا وفرنسا ، هذا الموقف ، بل كان يعلم انها ستقفه ، ولكنه لم يتوقع ابدا ان يقفه الاتحاد السوفييتي كذلك . كان يعرف ويرى بعينيه المؤامرات والمخططات التي تحيكها الدول الاستعمارية أميركا وبريطانيا بشكل خـاص لاقامة دولة يهودية في فلسطين ، وكان يعرف مـا وراءها من دوافع ومصالح استعمارية بشعة توافقت مع أهداف اليهود في اغتصاب فلسطين ، ولكنه لم يكن يرى في كتابات الصحف السوفييتية على الاقل ، بل وفي المواقف العملية آنذاك مثل هذه المصالــح الاستعمارية .

فهل كانت هذه الكتابات دعاية للاستهلاك ؟

ولكن هذه النهاية لم تكن في الـــواقع الا بداية لموقف جديد للشيوعيين العرب بصدد قضيـــة فلسطين ، وبداية لاقبح موقف يمكن ان تقفه حركة تجاه أمتها ووطنها .

وقبل ان ننتقل لهذه المرحلة الثانية ، نلاحظ في المرحلة الاولى :

اولا : ان الشيوعية المحلية ، بكافة أحزابها في الوطن العربي ، لم تكن تنظر لقضية فلسطين نظرة عقائدية اصيلة ثابتة ، بل كانت مواقفها تجاههـــا وتجاه المخطط الاستعماري اليهودي وأهدافه ، تتقلب حسب مخطط الشيوعية الدولية بالنسبة للظروف السياسية العالمية السائدة ومقتضيات مصلحتـــه فيها .

---

(١) « في اسس اللينينية » ـ راي ـ ستالين ـ ص ٨٧ ـ دار الطبع والنشر باللغات الاجنبية ، موسكو

ثانيا : ان الشيوعية المحلية ، برغم انعزالها عمليا عن نضال الشعب العربي ضد الغزو اليهودي الفلسطيني ، ورغم مهادناتها في احيان كثيرة للاستعمار البريطاني والصهيونية ، ورغم مؤامرة « الاخاء العربي اليهودي » التي استندت اليها كتبرير للتقيد بمهادنات الشيوعية الدولية بعض الاحيان ، كانت تعارض بشدة دعوة « الوطن القومي اليهودي » وتهاجم بعنف « وحماس » فكرة تقسيم فلسطين . واستندت في ذلك الموقف الى مبررات فكرية (اليهود لا يؤلفون أمة) ومبررات سياسية (التقسيم مشروع استعماري) ، واضحة محددة ، واستمرت في هذا الموقف الى حين اقرار هيئة الامم المتحدة للتقسيم في ٢٩ تشرين الثاني عام ١٩٤٧ .

فماذا كان مصير هذا الموقف ؟ وماذا كان مصير تلك المبررات الفكرية والسياسية المطسولة التي قدمتها الاحزاب الشيوعية ؟

هذا ما اجابت عليه الاحداث القادمة ، فلنر مدى « قداسة الفكر » ومدى الصدق في التزام المواقف السياسية في عرف الشيوعية المحلية .



الفصل الثاني

موقف الشيوعية المحلية من التقسيم وحرب فلسطين

التقسيم :

كان لا بد لهذه السقطة النضسالية والفكرية التاريخيه المعيبه التى وقع فيها الاتحاد السوفييتى بتأييد الوطن القومى اليهودى والتقسيم ، والتى ناقض فيها كل مواقفه الفكرية « النظرية الشيوعيه » وكل مواقفه السياسية السابقة ، ووجه بها طعنة كبرى لحركه التقدم الانسانى عامة فضلا عن حقوق العرب ، كان لا بد لهذه السقطة التاريخيـة من اسس وتبريرات فكريه تستند اليها • فالاتحاد السوفييتى يقوده حزب « الاشتراكية العلمية » ولا يمكن أن يتخذ موقفا ما لم يكن له مبرراته الفكرية العلمية جدا ••

وجسدت هذه الاسس والتبريرات الفكرية والسياسية فى الخطاب الذى القاه غروميكو مؤيدا التقسيم ، وفى الموقف الذى اتخذه تساراپكين بهذا الخصوص أيضا •

فعلقت مجلة « الازمنه الحديثه » عدد ٢١ على خطاب غروميكو امام الامم المتحدة بتاريخ ١٤ آيار (مايو) ١٩٤٧ بقولها :

« لقد أجبر المندوب السوفييتى بقوة على ضرورة ايجاد حل سريع وعادل للمشكلة الفلسطينية بما يتفق ومصالح الفلسطينيين والسلم الدولى ؛ وبما أن فلسطين تقطنها امتان العربية واليهودية ، لهما جذور تاريخية في البلاد على السواء، فلا يمكن الدفاع عن مصالحهما المشروعة الا عن طريق انشاء دولة عربية يهودية مستقلة ديمقراطية . هذا ما طالب به غروميكو • انشاء دولة يتمتع بها العرب واليهود بحقوق متساوية وهى الوحيدة التى تستطيع أن تضمن التعاون بين الاثنين لمصلحتهما ورفاهيتهما المشتركة • وانه اذا استحال تحسين العلاقات بين السكان العرب واليهود ، وفى هذه الحالة فقط ، كما قال غروميكو فى آخر خطبته ، سنضطر الى اعتبار الاقتراح الآخر لحل المشكلة الفلسطينية ، وهو التقسيم الى دولتين مستقلتين ، احداهما عربية والاخرى يهودية • »

واكمل تساراپكين المندوب السوفييتى الثانى هذا الموقف بتقريره أمام اللجنه بقوله : « ان الاقتراحات التى تقدمت بها الاقليه (التى تنادى بدولة عربية يهودية) لا يمكن تطبيقها عمليا فى الظروف الحالية ، حيث بلغ سوء العلاقات بين العرب واليهود درجة يستحيل معها اى توفيق ، لذلك يجب أن نتوجه نحو مشروع الاغلبية التى تقترح تقسيم فلسطين الى دولتين مستقلتين ، لان هذا المشروع فى الظروف الراهنة هو الذى يمكن تطبيقه عمليا أحسن من أى مشروع آخر • »

هذا نموذج عن التبريرات التى بدأت تعطى لهذا الموقف • وانها فعلا تبريرات خطيرة ** يهمنا جدا أن نتوقف عندها قليلا لانها عادت وشكلت الاساس الذى ارتكزت اليه الاحزاب الشيوعية فى الوطن فى تبرير جريمة التقسيم وخيانة الامة العربية ، تلك الخيانة المشهورة •

فلاول مرة نجد فى موقف الشيوعية الدوليـة تعبير « ان اليهود أمة » ** واذا نحن تذكرنا تعريف ستالين للامة فهذا معناه : ان لليهود ارضا قومية خاصة بهم ، وهذه الارض هى فلسطين ! ان ستالين

الذي اكد عصارة ذهنه عام ١٩١٣ ليثبت ان اليهود ليسوا امه ، والذى جاءت كتاباته مليئة بالسخرية من هذه « الفكرة الخرافيه » هو نفسه ستالين الذى عاد وجعل من اليهودامه ،وارتفعت عصاةالاشتراكية العلمية، لتجعل ما كان يسمى « بالاشتات » وحدة تاريخية اجتماعية متماسكه !

ولاول مرة نجد اعترافا بأن لليهود « جــذورا تاريخية فى فلسطين » . كان الموقف المعــروف ان اليهود فى فلسطين أقلية ، وان اليهود قد اندمجوا وذابوا فى مجتمعات العالم التي حلوا فيها • هذا ما كانت تقوله النظريه الشيوعية • وفجاة ، وبقدرة قادر ، أصبح لليهود تاريخ بمعنى الامة فىفلسطين، مثلهم فى ذلك مثل العرب !

ولاول مرة نجد اعترافا صريحا حاسمــــا من الشيوعية الدولية بان لليهود « مصالح مشروعة فى فلسطين » ؟ وهذا يعني بكلمة أخرى اضفاء صفة الشرعية على الاغتصاب اليهودى لفلسطين • الم تكن الصهيونية حركة رجعية يحركها كبار الرأسماليين ؟ فهل أصبح اذن لكبار الراســماليين الصهيونيين والغربيين مصالح مشروعة فى بلادنا ؟

وما معنى « الحقوق المتساوية » للعرب واليهود ؟ هذا يعنى أن الشيوعية الدولية المتمثلة بالاتحـــاد السوفيتي لاتعتبر فقط أن لليهود حقا في فلسطين بل وتعتبر أن حقوقها فى ذلك هى متماثلة مع حقوق العرب ! وطبعا لم يكن السوفييت يجهلون أن اليهود كانوا أقلية صغيرة فى فلسطين ، وأنهم تكاثروا عن طريق الهجرة التى فتح لهم أبوابها الاستعمار ، وان وجودهم ككل فى فلسطين ليس الا نتيجة الغـــزو اليهودى المنظم المتآمر مع الاستعمار ، فلم يكن قد مضى بعد سوى زمن وجيز جدا على مهاجمة الهجرة اليهودية فى الصحف السوفيتية ، فبأى منطق أصبح اليهود والعرب يوضعون على قدم المساواة ؟

انها حقا لمهزلة •

لقد بنى الاتحاد السوفيتي موقفه فى تأييـــد التقسيم على نفس المبررات التى بنى على اســاسها طيلة هذه الفترة موقفه فى معارضة التقسيم !

كان التفسير القديم ان اليهود ليسوا امة .

وجاء التبرير الجديد أن اليهود أمة !

وكان التفسير القــديم أن ليس لليهود أى حق تاريخي فى فلسطين وانهم أقلية ، وجــاء التبرير الجديد أن لليهود جذورا تاريخية فى فلسطين كأمة ، ولهم مثل العرب حقوق متساوية ولهم مصـــالح مشروعة ؟ وهكذا ، وبهذه البساطة المتناهية زور حزب الاشتراكية العلميه ، أبسط معاني العلميــة وطعن أبسط معاني الاشتراكية • ومرة أخرى حرف الفكر ليخـــدم المواقف السياسية المصـــلحية التكتيكية •

ولم يستطع الشعب العربى أن يفهم مثل هــذا التناقض المخجل ، لا على الصعيد الفكرى ولا السياسى ولا الاخلاقى •• ولا نظن ان انسانا يستطيع ذلك •• بل حتى لانظن ان أى ماركسي مخلص مع نفسه يستطيع ذلك •• ولكن الاحزاب الشيوعية فى العالم التى تقرر مواقفها السلطة اكثر مما يقررها الفكر، ايدت كلها بالطبع هذا الانحراف وهذه الخيانة التى ارتكبتها الشيوعية الدولية •

***

والآن •• ماذا كان موقف الحركة الشيوعية فى الوطن العربى من التقسيم ومن حرب فلســـطين عام ١٩٤٨ ؟

ماذا كان موقف الحزب الشيوعى فى سوريا وفى لبنان « الذى أحس أن الكلاليب تنشب فى صدره والصواعق تنقض على رأسه » حين ســمع بان المستعمرين يطالبون بجراة بالتقســيم ؟! وماذا كان موقف الحزب الشيوعى العراقى الذى « أعلن فى مناسبات عديدة عداءه لفـــكرة الوطن القــومي الصهيوني » ؟ وماذا كان موقف الحركة الشيوعية فى مصر والحزب الشيوعى فى فلسطين الخ ••

بالنسبة للتقسيم ، لم تكن الاحزاب الشيوعية فى الوطن العربى الا الصدى الذى يردد صوت سيده « فان مصيبة الحزب الشيوعى فى كل بلد ، تكمن في تقلبه ، وتقلب الحزب الشيوعي مرتبط بسياسة موسكو •• وسياسة موسكو مرتبطة بمصالح الاتحاد السوفيتي •• ومصالح الاتحاد السوفيتي لايمكن أن تعبر عن مصالح كل بلد يوجد فيه حزب شيوعى » •

هذه هى الدوامة • والاحزاب الشيوعية فى هذه الدوامة لاتجعل محورها مصلحة الامة العربية بل تدور حول محور مصلحة الشيوعية الدولية المتمثلة بالاتحاد السوفيتي • وحين يكون محور دوران اية حركة محورا أجنبيا ، فلا بد أن يــؤدى ذلك الى الضرب بمصلحة الامة عرض الحائط • ومثل هذا العمل يسمى تخفيفا « الارتباط بالاجنبى » ويسمى صراحة « الخيانةالقومية » • وهذا هوبالضبط مافعله الشيوعيون فى الوطن تجاه قضية العـــــرب فى فلسطين !!

لقد اعطى موقفهم صورة نموذجية عن الأجراء النموذجيين .

فلم يكن قد مضى سوى ايام معدودة على تلك البيانات الحماسية ضد التقسيم ، ولم يكن قد جف بعد مداد تلك المنشورات الملتهبة ضد فكرة الوطن القومي اليهودي ، حتى انقلب الموقف راسا على عقب، وصدرت بيانات ومنشورات الشيوعيين الجديدة تؤيد تقسيم فلسطين ، وتدعو صراحة لتأييد فكرة الوطن القومي اليهودي .

الم تؤيد الشيوعية الدولية اقتراح الدول الاستعمارية بتمزيق فلسطين ؟ اذن فلتتحرك أحجار الشطرنج الخشبية في الوجهة التي تحركها الاصابع الكبيرة . فالاتحاد السوفيتي الجبار ، حصن الاشتراكية العظيم ، دوما على حق .. دوما بجانب حقوق الشعوب . ولم يكن الشيوعيون ليجهلوا أبدا بالطبع ، أنهم قد تحولوا أيضا الى بوق للحركة الصهيونية نفسها « الخاطئة الرجعية بصورة مطلقة » .. وانهم يساهمون جنبا الى جنب مع الغزو اليهودي ومع الاستعمار الغربي في تمزيق وطن أمتهم .. ولكن ماذا يهم ؟ ان الشيوعيين الحقيقيين يجب أن يترفعوا عن التعصب الشوفيني القومي !

ولم يكن موقف التقسيم منفصلا بالطبع عن حرب عام ١٩٤٨ . ومن يؤيد تمزيق فلسطين بحماس لابد أن يعارض قيام أي حرب ضد الغزو اليهودي بحماس أشد . وهذا هو بالضبط مافعله الشيوعيون أيضا . عارضوا دخول الجيوش العربية الى فلسطين وكانوا بحق مجرد قوة من قوات الهاغاناة تعمل في الخطوط الخلفية للعرب ..

وبالطبع ، وكالعادة دوما ، كان لابد من تبريرات فكرية وسياسية جديدة للموقف الجديد . ولم تكن هذه مشكلة عويصة ، فالشيوعية الدولية كانت قد خطت لهم الطريق الفكري والسياسي للموقف الجديد كل مافي الامر ، أن الشيوعيين العرب عبروا عن مبررات هذه الجريمة بشكل أصرح وأوقح ، اذ كانوا في حل من اعتبارات الدبلوماسية التي تقتضي صياغة الجريمة بأسلوب مهذب !

فاليهود أمة لهم حق الحياة في فلسطين .. والشعب اليهودي شعب ديمقراطي . و « اسرائيل » هي واحة الديمقراطية في الشرق الاوسط .. والدولة اليهودية الجديدة ستكون ذات ملامح اشتراكية واضحة .. والوقوف بوجه التقسيم ومنع قيام دولة يهودية ليس الا مؤامرة يديرها الاستعمار الانجلو أميركي !!

أما الحرب ضد اليهود ، فهي حرب عنصرية دينية يجب ايقافها حالا .. والجيوش العربية جيوش عدوانية محتلة يجب تسريحها فورا .. وكل من يتطوع في الحرب ضد اليهود انما يخون الحركة التقدمية الانسانية .. والواجب النضالي الاول المطروح أمام الشعب هو النضال ضد الحرب في فلسطين .. ضد « المؤامرة التي يدبرها الاستعمار لمنع قيام الدولة اليهودية !!

لقد أعطى الشيوعيون في موقفهم من الحرب عام ١٩٤٨ صورة نموذجية عن الخونة النموذجيين . ولعل القارئ يظن أننا نبالغ . اذن فلنرجع الى الوثائق .

* * *

في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧ نجح الاستعمار واليهود في حمل هيئة الامم المتحدة على اقرار مخططهم القديم فأيدت تقسيم فلسطين واقامة دولة يهودية في قسم منها .

وفي كانون الاول ١٩٤٧ نظم الحزب الشيوعي العراقي مظاهرات ، حشد فيها كل قواه ، طافت في الشوارع تؤيد قرار التقسيم وتطالب باقامة دولة يهودية في فلسطين . والشعب العربي في العراق مازال يذكر جيدا تلك المظاهرات التي كان يتصدرها في المقدمة شيوعيان عربي ويهودي وقد صالبا يديهما عاليا رمز « للصداقة والمحبة » العربية اليهودية !

وفي ١٥ أيار ١٩٤٨ دخلت جيوش الحكومات العربية فلسطين لتمنع بالقوة تنفيذ جريمة اغتصاب فلسطين واقامة دولة يهودية . ومهما قيل ، وكثير يمكن أن يقال ، في الحكومات العربية المنحرفة المتخاذلة التي قادت تلك الحرب ، وكانت السبب الرئيسي في النكبة ، فمما لاشك فيه أن دخول جيوش الدول العربية الى فلسطين قد كان تعبيرا عن السخط القومي الشعبي الجارف الذي اعتمل في نفوس الشعب العربي في كافة أنحاء الوطن ضد تمزيق فلسطين واقامة دولة لليهود فيها ، وتجسيدا لأعمق المشاعر القومية التي استفزت أقوى أحاسيس الوطنية والكرامة ضد الجريمة البشعة التي دبرها الاستعمار واليهود لاغتصاب أرضه علنا وبالقوة ، وتحقيقا لارادة الشعب العربي في خوض المعركة حتى النهاية دفاعا عن عروبة فلسطين . وكان الجو العربي ملتهبا والشعب يتقدم للتطوع صفوفا صفوفا من كل بقعة من الوطن ..

في تلك الفترة التاريخية الحاسمة * وفي ذلك الجو الملتهب ، عقد الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان اجتماعا مشتركا في مدينة بيروت بحث فيه قضية فلسطين والحرب ثم أصدر بيانا بعنوان «بيان الى الشعوب العربية * » حدد موقفه من الحرب بقوله :

١ – انها حرب دينية عنصرية *

٢ – ان على الجيوش العربية أن تنسحب من فلسطين فورا •

وعادت الى ذاكرة الشعب العربي وهو يقرأ هذا القرار التاريخي صورة خالد بكداش وهو يخطب ويكاد ينشق حماسا « أجل جنبا الى جنب مع فلسطين ، فالقضية ياأخواني ليست قضية فلسطين فقط ، بل هي قضية سوريا ولبنان ، والعراق ومصر والمملكة العربية السعودية ، هي قضية كيانتنا جميعا ، قضية جميع الوطنيين العرب ، وجميع النقابيين العرب ، وجميع العمال والفلاحين العرب قضية فلسطين هي قضية العروبة باسرها في كل اقطارها وديارها .. »

ولم يتردد الشيوعيون في سوريا ولبنان لحظة واحدة قبل أن يطعنوا العروبة بكل أسرها وديارها مؤكدين مرة أخرى خطابات خالد بكداش « أجل في أعناقنا جميعا واجب تأييد فلسطين لا الى أقصى حد ممكن فقط * بل واجب النضال جنبا الى جنب مع فلسطين ضد الانتداب وضد الصهيونية وضد الوطن القومي الصهيوني »

والحزبان الشيوعيان في سوريا ولبنان ، اللذان لم يفكرا مرة واحدة في اتخاذ موقف موحد مع الاحزاب الشيوعية الاخرى تجاه قضية كقضية الوحدة العربية مثلا سرعان ما تذكرا أهمية « وحدة الكفاح (ا) في تلك الفترة ، وارسلوا للحزب الشيوعي العراقي والحزب الشيوعي الفلسطيني ، يطلبون توحيد الشعارات بشأن قضية فلسطين ، واصدار بيان عام موحد في تأييد التقسيم واستنكار الحرب في فلسطين ضد الغزو اليهودي •

وفي هذه الفترة أصدر الحزب الشيوعي العراقي الذي حفظ جيدا في صفوفه روح قادته اليهود ، نشرة داخلية الى أعضاء الحزب لتكون بمثابة تعليمات رسمية بصدد المقاومة العربية ضد الاغتصاب اليهودي

وجاء في هذه النشرة التي حملت عنوان « توجيهات بشأن الحرب الفلسطينية القذرة » !

« ١ – على الديمقراطي العربي ان يحارب ويشجب الحرب الفلسطينية القذرة »

« ٢ – على الديمقراطي العربي أن يتعاون مع القوى الديمقراطية في اسرائيل لمنع هذه الحرب »(١)

« الحرب الفلسطينية القذرة » • هذا هو الوصف الذي أطلقه الشيوعيون العراقيون على الكفاح الذي كان يخوضه الشعب العربي للحفاظ على وطنه * وليس لنا أن نعلق على هذا الوصف ولا على المشاعر النبيلة التي كان يكنها الشيوعيون لفلسطين ، فان من يرتكب مثل تلك الخيانة القومية التاريخية دون أن يطرف له رمش ، لن يجرح أذنيه تفتيه بهذه الخيانة *

وبعد * فمن هي القوى الديمقراطية في اسرائيل » التي يجب أن يتعاون « الديمقراطي العربي معها ؟ عصابة الارغون ؟ شتيرن ؟ الهاغاناه ؟ أم لعله طبعا ، الحزب الشيوعي اليهودي الذي وجد أن أفضل طريقة يدلل بها على ديمقراطيته هي أن يخوض الحرب جنبا الى جنب مع الارغون وشتيرن والهاغاناة ضد العرب ؟!

وفي شهر نيسان ١٩٤٨ ، أي بعد اعلان قيام « اسرائيل » وبدء الحرب ، وبينما كانت قلوب الشعب العربي وأبصاره معلقة في الاحداث الدامية الخطيرة التي سيتوقف عليها مصير فلسطين ، وبينما كان الاستعمار الانجليزي يستميت ليزرع دولة لليهود قبل انسحابه ، في هذا الشهر ، نظم الحزب الشيوعي العراقي مظاهرات كبيرة ليعلن تأييده لقيام « اسرائيل » واعترافه بها كدولة !! وليعلن مجددا استنكاره للحرب في فلسطين ومطالبته بايقافها وتسريح الجيوش العربية ! ألم يعترف ترومان « باسرائيل » بعد دقائق من اعلان قيامها ؟ والسوفييت بعد أقل من ساعة ؟ ان الشيوعيين أبوا أن يكون ترومان أكثر « انسانية » منهم • فهنيئا للصهيونية التي وجدت في الشيوعيين ألف ترومان !!

وفي تموز ١٩٤٨ أصدر الحزبان الشيوعيان في سوريا ولبنان منشورا بتوقيع الحزبين بعنوان « الى الاتحاد في جبهة وطنية جبارة » يعيد تأكيده أن

---

(١) : نشر نص النشرة في كراس « ثورة ١٤ تموز بين الانقلاب الشيوعي وثورة الموصل » – عبد الهادي الكيكي *

الحرب ضد اليهود هي مؤامرة يديرها الاستعمار !! ويطالب بايقاف الحرب وسحب الجيوش العربية من فلسطين :

« لقد ثبت بشكل لايقبل الجدل ماقاله الشيوعيون العرب من أن الحرب الفلسطينية .. كانت مؤامرة مدبرة بين الانجليز وخادمهم الملك عبد الله والزعماء الصهيونيين ، مؤامرة فظيعة هائلة هدفها أولا : منع قيام الدولة العربية المستقلة في القسم العربي من فلسطين والحاق هذا القسم بمستعمرة شرق الاردن البريطانية .. »

« ان الشيوعيين السوريين واللبنانيين وعددا من الوطنيين الصادقين والديمقراطيين المخلصين ، قد حذروا من هذه الاخطار الكامنة وراء المغامرة العسكرية في فلسطين وبينوا أن قضية فلسطين هي قضية نضال ضد الاستعمار البريطاني والامريكي .

« الى الاتحاد في سبيل سحب الجيوش من فلسطين .. »

ان الشيوعيين في سوريا ولبنان يحاولون عبثا أن يصوغوا خيانتهم ودعوتهم الانهزامية بأسلوب ألبق من شيوعيي العراق !

أما أن نكبة فلسطين ، أي النتيجة التي آلت اليها الحرب ، كانت خيانة غرق فيها معظم الحكام العرب الى آذانهم ، فهذا مالا جدال فيه . ولكن هل كان هدف هذه المؤامرة بالدرجة الاولى منع قيام دولة عربية في جزء من فلسطين ؟ أم كان تثبيت قيام دولة يهودية ؟

وبالامس كان التقسيم مشروعا استعماريا واليوم النضال ضد التقسيم هو مؤامرة استعمارية ! ونحن لم نسمع أبدا أن أحدا من « الوطنيين الصادقين » قد دعا الى القاء السلاح والاستسلام للغزو اليهودي والاعتراف بشرعية قيام دولة مغتصبة في أرضنا ، بحجة أن الحرب ستكون مغامرة عسكرية .. سمعنا الوطنيين الصادقين فعلا يطالبون بتقوية الجيوش العربية في فلسطين وتنظيم الحرب وتوحيد القيادة وتصفيتها من القيادات المتعاونة مع الاستعمار ، لا بالغاء شرعية النضال ضد تمزيق فلسطين . وكل موقف غير هذا الموقف في فترة تخوض فيها الامة حربا دفاعا عن وجودها لايختلف اثنان أن تعبيره الوحيد هو : الخيانة .

أما الشيوعيون الفلسطينيون ، رفاق الشيوعيين اليهود القدامى ، فقد كانوا ينظرون بعين الاكبار الى اخوانهم الشيوعيين اليهود الذين يقاتلون ببسالة « الجيوش العربية المحتلة لوطنهم » !! وهكذا ، بينما قضت الخنادق الواحدة التي كان الشيوعيون اليهود يحاربون فيها جنبا الى جنب مع كافة اليهود والمنظمات اليهودية الاخرى ، على آخر أثر من خرافة التفريق بين اليهودية والصهيونية في فلسطين ، وبينما وجد المقاتلون العرب أنه لم يكن هنالك فرق بين رصاصة صهيونية ورصاصة « ديمقراطية » كان الشيوعيون الفلسطينيون مشغولين في كتابة المنشورات التي تطالب بوقف الحرب ضد اليهود . وفعلا ، قاموا بتاريخ ١١ تموز ١٩٤٨ – أي بعد يومين من انتهاء الهدنة الاولى واستئناف القتال – بتوزيع منشورات على السكان والجنود يهاجمون فيها استمرار القتال ويطالبون بوقف الحرب حالا والاعتراف لليهود بحق اقامة دولة في فلسطين !

وبينما كانت الصحف العربية تضج بأخبار القتال الدائر ، وبينما كان المفروض في كل صحيفة – وحزبية بشكل خاص – أن تلعب دورا كبيرا في التعبئة الشعبية النضالية ضد جريمة اغتصاب فلسطين ، ظهرت صحيفة « الاتحاد » لسان عصبة التحرر الوطني تقول :

« اننا ندعو الى مفاوضات مباشرة مع حكومة « اسرائيل » والحكومات العربية . ولكن على أي أساس ؟ ... على أساس انهاء الحرب الدائرة التي فرضها الاستعمار على سكان فلسطين ، وعلى أساس سحب الجيوش وتسريحها ... »

« اننا ندعو الى مفاوضات مباشرة تستهدف انقاذ عرب فلسطين من الاحتلال الاجنبي .. » وتحدد الصحيفة ماتقصده بالاحتلال الاجنبي فتقول : « ان احتلال جيوش الحكومات العربية الممالئة للاستعمار هو احتلال أيضا » (١) ...!

لقد اخترنا هذا المقطع من الكتابات الكثيرة التي شرح فيها الشيوعيون العرب في فلسطين موقفهم المخزي في تأييد اغتصاب فلسطين لانه عبارة عن تكثيف لكل عناصر هذا الموقف :

فالشيوعيون هنا أيضا سارعوا كباقي الاحزاب الشيوعية العربية الى الاعتراف « بحكومة اسرائيل »

---

(١) : « الاتحاد » الصحيفة الرسمية لعصبة التحرر الوطني (الاسم القديم للفرع العربي للحزب الشيوعي الفلسطيني منذ عام ١٩٤٤ وقد تخلى الشيوعيون الفلسطينيون عن هذا الاسم في حزيران ١٩٥١) – العدد الصادر بتاريخ ٢٢ تشرين الثاني ١٩٤٨ .

مؤكدين اعترافهم بشرعية قيام دولة يهودية مغتصبة في فلسطين . ولم يؤثر وجودهم في ارض المعركة في فلسطين نفسها ، أبدا على تأييد هذه الجريمة علنا بل والدعوة لها وتبريرها ، وبالتالي ، المساهمة فيها .

والشيوعيون هنا أيضا ، يعتبرون الحرب ضد تمزيق فلسطين ، ضد قيام دولة يهودية ، هي حرب املاها الاستعمار ويحركها الاستعمار !

واما وجود الجيوش العربيه في فلسطين فهو « احتلال أجنبي » ! ونسى شيوعيو فلسطين كليا وهم يتحدثون بوقاحة عن « الاحتلال الاجنبي » للقوات العربية ، الاشارة بكلمة الى الغزو اليهودي الذي كان في هذا الوقت قد ثبت اقدامه في فلسطين مثل هذا الموقف ، هل تكفي كلمة خيانة للتعبير عنه ؟

لقد مررنا بشكل سريع على بعض مواقف الشيوعيين في سوريا ولبنان وفلسطين والعراق لاننا نريد أن نقف برهة أطول عند الحركة الشيوعية في مصر . ذلك أن المبررات التي أعطتها لارتكاب هذه الجريمة تعطى أحسن صورة عن ذروة فلسفة الخيانة من جهة ، كما تعطى أوضح صورة عن المستوى الفكري والسياسي الضحل الذي وصل اليه الشيوعيون نتيجة تبعيتهم المطلقة للشيوعية الدولية من جهة ثانية ، وعن الاستخفاف المهين بعقل الشعب العربي ووعيه ومشاعره ، من جهة ثالثة .

ولم تشذ الحركة الشيوعية في مصر عن نفس الخط السابق : تقديم المبررات الفكرية والسياسية لتأييد قيام دولة يهودية وشجب الحرب والدعوة للصلح !! ولنر هذه المبررات التي تفتق عنها تفكيرها المريض .

* * *

في ٢٠ كانون الاول ١٩٤٧ حملت نشرة «الوعي» السرية التي يصدرها الحزب الشيوعي المصري ، في عددها السابع ، بحثا بعنوان « المشكلة الفلسطينية» تحدد فيه الموقف الفكري للشيوعيين تجاه قضية فلسطين نثبته فيما يلي :

« يرجع فهم الواقع الحالي لفلسطين من تطور اليهود فيها ونموهم كامة جديدة ..

« ان الحالة الجديدة في فلسطين لم تكن نتيجة لبعث الوطنية لدى يهود العالم كما تدعى خطأ الصهيونية ، بل كانت نتيجة لمولد وطني جاء على اثر تجمع عوامل تاريخية متعددة أدت الى جعل يهود فلسطين أمة .

« واذا قلنا امة وجب ان نعترف بحق تقرير المصير

« واذا قلنا حق تقرير المصير فمعنى ذلك تخويل الامة حق الانفصال .

« فاذا اعترفنا بحقيقه تكوين اليهود في فلسطين كامة ، فلا يمكن أن ننكر عليها حق الانفصال عن الامة العربية وتكوين دولة يهودية في جزء من البلاد . »

هذا هو الاحساس الايديولوجي الذي قدمه الشيوعيون في مصر لخيانتهم القوميه . فاليهود امة تكونت نتيجة «لمولد وطني جاء على اثر تجمع عوامل تاريخية متعددة» ! فهل هي الفكر والعملية والموضوعية — الى آخر هذه المترادفات الجوفاء التي يرددها الشيوعيون ليل نهار — هي التي تقرر مواقفهم ؟ ألم يكن الشيوعيون يعلمون ان وجود اليهود في فلسطين حتى عام ١٩٤٨ لم يكن نتيجة « لمولد وطني » بل كان نتيجة للهجرة الرسمية وغير الرسمية التي ابتدأت بفعل الانتداب الانجليزي وحركة اليهودية العالمية منذ زمن طويل ؟ أو لم يكن الشيوعيون يعلمون ان ما يسمونه الآن « عوامل تاريخية متعددة » ليس اذن شيئا آخر الا هذه الهجرة المنظمة التي جمعت من كافة انحاء العالم اليهود الذين لم يكن لهم أي ارتباط تاريخي ، من أي شكل بفلسطين ، بل لم يكونوا يعرفونها مجرد معرفة ؟

لعله من العبث مناقشة الشيوعيين موقفهم على أساس فكري كما هو واضح .. ولكن الى أي حد مخجل يذهب الشيوعيون في تأييد قيام دولة يهودية مغتصبة في فلسطين العربية ؟ اننا نعتقد بصراحة ، ان هذا التوجيه هو أشد خطرا بكثير من موقف الاستعمار والصهيونية . فالاستعمار الانجليزي والامريكي الذي كان السند الاول لفكرة الوطن القومي اليهودي ، لم يحشد كل هذه المبررات الفكرية لتأييد شرعية الاغتصاب اليهودي ، وقد كان في كل خطواته ومؤامراته على حق العرب القومي في فلسطين مكشوفا ومعروفا للجميع ، فهو في نهاية الامر ليس الا .. استعمارا . ونفس الامر ينطبق أيضا على عمل الحركة اليهودية المنظم في هذا الصدد ولكن الحركة الشيوعية لا تكتفي بتأييد قيام دولة يهودية لاعتبارات سياسية مثلا ، بل تسخر الفكر تسخير النظرية الشيوعية ، لارساء فكرة الوطن القومي اليهودي على أساس فكري واعطائها صفة الشرعية تحت ستار العلمية ! وهذا مالم يستطع الاستعمار نفسه أن يفعله . لقد قدمت الحركة

الشيوعية الاساس النظري للجريمة الاستعمارية اليهودية الكبرى .

اما الخيانة النضالية التي نبعت هذه الخيانة الفكرية ، فلقد كانت أشد وأنكى . وستثبت من النشرات الكثيرة التي أصدرتها الحركة الشيوعية في مصر بهذا الصدد ثلاث وثائق فقط ، لأن حصر كل ذلك النشاط الفكري في تأييد الاغتصاب اليهودي يحتاج مجلدا كاملا .

* * *

في ٢٩ تموز ١٩٤٨ أصدرت « الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني » وهي المنظمة الشيوعية التي يراسها اليهودي هنري كورييل ، بيانا رسميا يحدد موقف الحزب من قضية فلسطين وأسبابها ومن الحرب الدائرة يقول (١) :

« ان الاستعمار البريطاني المجرم هو الذي خلق مشكلة فلسطين .. فليس من المعقول أن نرسل قواتنا الى فلسطين ونترك أوطاننا رازحة تحت أقدام القوات الاستعمارية . وليس من المعقول ان نرسل قواتنا لمحاربة اليهود في فلسطين ، بينما نترك فلسطين باسرها تحت أقدام القوات البريطانية » . (!)

« ولكن الحكومات العربية خيبت آمال الشعوب .. فأمرت الجيوش العربية بالتحرك لا لتحرير الشرق العربي من الاستعمار .. ولكن لاثارة حرب دينية عنصرية في فلسطين ..

« وتساءلت الشعوب ! لماذا كل هذا التغاضي عن الاستعمار وهذا الحماس للحرب الدينية ؟ لماذا تكبت الحركات الوطنية ومطالب الشعب الاقتصادية ، وفي نفس الوقت تشجع الحرب الدينية في فلسطين ؟ وهل هناك علاقة بين كبت الحركات الوطنية وارهاب الشعب ، وبين تشجيع الحرب العنصرية الدينية في فلسطين ؟ . .

« فالاستعمار البريطاني والاستعمار الاميركي يباركان هذه الحرب في السر والعلانية .. فالقوات البريطانية التي تحتل معظم البلدان العربية لم تحرك ساكنا في وجه الجيوش العربية (!) والقوات البريطانية في فلسطين اعلنت أنها لن تدخل المعركة الحالية .. وقد سلمت بريطانيا التي طالما وقفت في وجه تسليح الجيش المصري ، سلمت حكومتنا اخيرا (٣٠ الف) طن من الاسلحة والذخائر . وتتدفق الاخبار .. بأن المتطوعين البريطانيين مع العرب يبلغون الالوف ، وتكيل الصحافة الاستعمارية البريطانية المدائح للحكومات العربية لاعلانها الحرب الدينية في فلسطين فالاستعمار الانجلو اميركي اذن من وراء هذه الحرب ويباركها .. » .

« هذه هي القوات التي تقود وتحرك الحروب العنصرية في فلسطين . الاستعمار الانجلو - أميركي وحلفاؤه الخونة من كبار الملاك والراسماليين الذين باعوا أوطانهم للاستعمار .. ان حربا هذه قيادتها وهذه طبيعتها لا بد ان تكون موجهة ضد مصالح الشعوب وضد حركاتها التحريرية مهما تسترت وراء شعارات دينية جذابة أو نداءات عنصرية خداعة . » !

ثم ينتقل البيان الى تحديد أهداف هذه الحرب في فلسطين فيقول :

« أهداف هذه الحرب :

« ان الاستعمار العالمي يعاني أزمة عميقة ، أزمة الاحتضار والانهيار .. فلجأ الاستعمار عن طريق حلفائه حكام الشرق العربي الى اشعال نيران الحرب الدينية في فلسطين كوسيلة لتحقيق أهداف الاستعمار . فهذه الحرب الدينية وسيلة جبارة لتحويل انظار الشعوب العربية عن قضاياها الوطنية ومطالبها الاقتصادية ، وتحويل صراعها الوطني ضد الاستعمار الى صراع عنصري ضد اليهود . فالصحف اليوم مليئة باخبار هذه الحرب ، وكأن لم يعد هناك قضايا وطنية للشعوب العربية (!)

« وهذه الحرب ستتخذ وسيلة أمام الهيئات الدولية لتبرير بقاء القوات البريطانية في فلسطين وفتح الباب لدخول قوات أميركية في أرض فلسطين الشقيقة .

« وقد اتخذت هذه الحرب طريقا لتحقيق المؤامرات الاستعمارية التي عجز الاستعمار عن تحقيقها بالطرق العادية . فالجيش الاردني الذي يسيطر عليه البريطانيون يعمل اليوم على تنفيذ مشروع سوريا الكبرى . كما اتخذت الحرب الدينية وسيلة لخلق كتلة عسكرية من الدول العربية تحت نفوذ الاستعمار الانجلو اميركي مما خلق الفرصة السانحة للاستعمار للقضاء على استقلال سوريا ولبنان .

« واخيرا لقد تستر الاستعمار وحلفاؤه وراء هذه الحرب ، واتخذوها مبررا لاعلان الاحكام على الشرق العربي باسره ، وذلك كي يستطيعوا عن طريقها ارهاب

---

(١) « صدر البيان بعنوان : « ايها المواطنون : كافحوا من اجل حريتكم المسلوبة ، من اجل تحرير وطنكم من الاستعمار والخونة - كافحوا من اجل حياة انسانية حرة سعيدة ، من أجل تحرير الشرق العربي من الاستعمار » »

الشعب وكبت الحركة الوطنية ونضال الطبقة العاملة .. »

ثم ينتهي البيان بدعوة حارة لمقاومة الحرب ضد اليهود فيقول :

« ايها المواطنون !

« تنبهوا . استيقظوا لمؤامرات الاستعمار وحلفائه الخونة ، واحذروا الوقوع في دماياتهم الآثمة المضللة التي تستهدف حرفكم عن طريق الكفاح ، وتحويل صراعكم الوطني الى صراع عنصرى عقيم .. ان هذه الحرب العنصرية حرب ظالمة يوجهها الاستعمار والخونة ضد مصالح العرب » !!

هنا ينتهي البيان الطويل . ورأينا تثبيته — على طوله — ليطلع الشعب العربي كيف كان نضاله يشوه بابشع صورة ، كيف كانت تبرر المؤامرة على مصيره بكل بساطة ، وكيف كانت الحقائق تزور دون أى تخجل . ترى لاى حد ذهبت الحركة الشيوعية فى طمس حقوق الشعب العربي والدوس على كرامته ومشاعره !

فبعد الاساس النظرى للخيانة العسكرية ياتي الاساس النظرى للخيانة السياسية النضالية .

فالحرب فى فلسطين ضد الاغتصاب اليهودى هى حرب عنصرية دينية . اى انها حرب تعصبية رجعية . هكذا ، وبهذا الاسلوب الرخيص ، طمس الشيوعيون الجوهر القومى للنضال العربي من اجل فلسطين ، وجعلوا الكفاح ضد الصهيونية التى تمثل اعلى درجات العرقية والتعصب والرجعية .. عملا رجعيا ! وليس لنا ان نناقش هذا التآمر الفكرى المتعمد ، فالشعب العربي يعرف الاجابة جيدا ، بل ويعرفها الشيوعيون الذين دفنوا كتاباتهم السابقة حول « الصهيونية الرجعية » تحت أستار الخيانة الكثيفة .

وبهذا الكلام الذى تفوح منه رائحة التآمر الوضيع على المصير المصرى يريد الشيوعيون ان يقولوا للشعب :

ان الاستعمار هو الذى يريدنا ان نحارب اليهود فى فلسطين (!) بدليل ان الجيوش البريطانية لم تحرك ساكنا .. وان الحرب ضد الاغتصاب اليهودى يباركها الاستعمار الانجلو اميركي ! وان الصحف البريطانية تشجع الحكومات العربية لسحق اليهود ! بل ويذهب الدجل الى حد القول بأن هناك الوفا من المتطوعين الانجليز يحاربون مع العرب ضد اليهود ! وتناسى الشيوعيون فى هذه المحاولة المهينة لاستغباء الشعب العربي :

ان هناك مؤامرة محكمة كانت تنفذ يوما بعد يوم بين الجيوش البريطانية المنسحبة والقوات اليهودية وبعض الخونة من الحكام العرب لوقف الزحف العربي وقطع انفاسه .

وان الثلاثين الف طن من الاسلحة التى يقول الشيوعيون ان بريطانيا اعطتها لحكومة مصر ، هى — اذا صح الخبر — الاسلحة الفاسدة التى اعطيت لترتد الى صدور الجنود العرب لا لتوجه الى القوات اليهودية من اجل منع قيام دولة يهودية .

وان مأساة « ماكو أوامر » كانت تردد على اسماع ضباط جيش العراق بأمر الاستعمار البريطاني عن طريق حكومة العهد البائد المؤتمرة بأمره ، لمنع هذا الجيش من الاطباق على تل ابيب بعد أن اصبح على مسافة بضعة كيلو مترات منها .

وان مأساة الانسحاب من اللد والرملة ، ثم فرض الهدنة الاولى تمت بعمل مستميت من الاستعمار وبعض الخونة المتخاذلين من الحكام العرب لشل الزحف العربي .

وان الحرب فى فلسطين لم تتخذ أبدا وسيلة امام الهيئات الدولية لبقاء الاستعمار البريطاني او دخول القوات الاميركية ، بل على العكس ، سارعت بريطانيا للانسحاب حسب خطة منظمة لتزرع وراءها دولة يهودية ..

نعم لقد لعب الاستعمار دورا كبيرا فى حرب فلسطين ، ولكنه قام بهذا الدور لمصلحة اليهود لا لمصلحة العرب ، لاقامة دولة يهودية لا لمنع قيامها . والشيوعيون الغيورون جدا على مصير اليهود من القوات العربية يعرفون جيدا هذه الحقيقة . فحين يقولون بهذا التحليل المعكوس ، ويصورون الحرب فى فلسطين حربا استعمارية دينية عنصرية، فلا يجوز ان نرجع ذلك الى منطق مزرى يصدر من اطفال صغار ، بل وبشكل قاطع ، إلى خيانة مزرية يرتكبها اجراء كبار .

والشيوعيون متضايقون جدا لان الصحف مليئة باخبار فلسطين ! « ألم يعد هناك قضايا وطنية أخرى للشعوب » ؟! ولم يكن الشيوعيون يجهلون بالطبع ، أنه حين تكون أية أمة فى معركة دفاعا عن بقائها ، فالمفروض ان تعبىء كافة امكانياتها المادية والتوجيهية لتلك المعركة ، والشيوعيون الذين مجدوا بقاء الاستعمار البريطاني فى مصر وفلسطين والعراق ، والفرنسى فى سوريا ولبنان والمغرب ، طبلة سنى الحرب ، بل وذهبوا الى حد نزع صفة « الاستعمار » عن بريطانيا وفرنسا وجعلهما دولتين ديمقراطيتين ، لانهما كانتا فى حلف مع الاتحاد السوفييتى ، نسوا فجأة ذلك الموقف ، وسكتوا عن خطر الغزو اليهودى المنظم الذى اعلن قيام دولة له فى فلسطين ، وباركوا هذه الخطوة بحجة ان الجهود يجب ان تتوجه لمحاربة الاستعمار البريطاني والفرنسى !

وهكذا في الوقت الذي كان الاستعمار البريطاني يجلو فيه عن فلسطين — حسب خطة مدروسة — ويخلي مواقعه لليهود ، كان الشيوعيون يطالبون بملاحقة قوات بريطانيا المنسحبة ، لانها هي الخطر الاول ، وتجاهلوا الدولة الغاصبة الجديدة التي اعلن قيامها والتي حلت محل القوات البريطانية التي انسحبت . ولم يقف الشيوعيون ليسالوا انفسهم ولو مرة واحدة : ترى لماذا سارعت بريطانيا الى الانسحاب من فلسطين بعد ربع قرن من الاحتلال ؟ هل الا لان ذلك الانسحاب الفجائي كان جزءا من المخطط الرامي الى اقامة دولة يهودية ؟!

وهكذا عادت عملية تزوير الشعارات تتصل مرة اخرى في اكبر جريمة ارتكبت ضد الامة العربية .

في سنوات ما قبل الحرب نسوا الاستعمار البريطاني وجعلوا الصهيونية هي العدو الاول .

وفي سنوات الحرب نسوا الاستعمار والصهيونية سوية .

وفي سنوات ما بعد الحرب نسوا الصهيونية وجعلوا الاستعمار هو العدو الاول .

ولم يكن ذلك مجرد «نسيان» .. ابدا ! بل كان مؤامرة سافرة رخيصة لطمس المعركة الدائرة في فلسطين ، وصرف انظار الشعب العربي عنها ، بل والذهاب الى حد جعل نضال العرب ضد الاغتصاب اليهودي خطرا على استقلال سوريا ولبنان ومقدمة للانضواء في تكتلات الاستعمار الحربية .

* * *

هذا نموذج عن الخيانة المزرية التي كان يرتكبها الشيوعيون بحق في فلسطين ، ولكنه ليس النموذج الوحيد . فالنماذج الاخرى تفوق الاول بشاعة ، وليضبط القارىء العربي اعصابه ، وليقرأ ..

في افتتاحية بعنوان « فلسطين .. الحرب التي املاها الاستعمار » كتبت نشرة «صوت البروليتاريا» لسان حال « المنظمة الشيوعية المصرية » ، في عددها الثاني ، تشرين الثاني ١٩٤٨ ، تحدد موقفها من قضية فلسطين والحرب الدائرة واسبابها وتعطي توجيهاتها بهذا الصدد ، فقالت :

« **مقدمة** : في ١٥ مايو ١٩٤٨ غزت جيوش البلاد العربية في فلسطين .

« هناك حرب قائمة في الشرق الاوسط منذ ٧ شهور ، ولكننا اذا درسنا هذه الحرب بتعمق لوجدنا انها ليست مجرد حرب عنصرية :

« أ — لقد املى الاستعمار البريطاني هذه الحرب واعد لها منذ سنين طويلة ليدافع عن مركزه في الشرق الاوسط .

« ب — ان هذه الحرب تخدم البورجوازية العربية بكبت البروليتاريا الصاعدة والتقدمية .

« جـ — ان هذه الحرب هي واحدة من مصادر الحرائق الكثيرة التي تشعلها الرجعية العالمية وذلك بهدف خلق ترسانات من بعض المناطق التي يريدون استخدامها كنقط للهجوم ضد الاتحاد السوفييتي .

« د — واخيرا فان هذه الحرب موجهة اليوم ضد الخطر الذي تمثله البروليتاريا اليهودية الثورية في فلسطين .

« ان هذه الاسباب جميعها والتي سندرسها واحدا واحدا تجعل من هذه الحرب حربا غير عادلة ضارة بمصالح البروليتاريا العالمية وبالبروليتاريا المصرية على الاخص . »

بعد هذه المقدمة التي تنضح بالخيانة تنتقل افتتاحية النشرة الى تحليل القتال الناشب في فلسطين فتورد تحت عنوان « الصفات المميزة للحرب في فلسطين » الصفات التالية :

« أ — **مناورات استعمارية** (واهم ما اوردتم الافتتاحية من النص الطويل حول هذه الصفة الاولى قولها) :

« — وفي خلال الحرب وبعد ان نمت الصناعة في فلسطين ، ظهرت بروليتاريا عربية ويهودية ، وقد تقارب هؤلاء العمال في مجال الكفاح المشترك ضد اصحاب الاعمال .

« — وفقد الصهيونيون تدريجيا تأثيرهم على الشعب اليهودي بتطور البروليتاريا اليهودية التي لها اتجاهات راديكالية تقترب من التقدمية ...

« ... واملت بريطانيا على حكومات البلاد العربية غزو فلسطين في ١٥ مايو ١٩٤٨ وسلحتهم لهذا الغزو ...

« هذه هي الصفة الاولى التي تجعل هذه الحرب غيرعادلة ، حربا ضد مصالح البروليتاريا ، ومصالح الشعب ، والتي تخدم مصالح الاستعماريين .

« ب — ان هذه الحرب هي حرب البورجوازية العربية ضد بروليتاريتهم :

« .. فماذا تمثل حرب فلسطين بالنسبة للحكومات الرجعية العربية ؟ !

« ١ ـ حلا سياسيا : القيام بحملة عنصرية تحول الشعوب العربية عن الحركات الوطنية وتمهد لتغلغل الايديولوجية الفاشية في الشعب (!)

« ٢ ـ فرصة حكم الارهاب : عن طريق الاحكام العرفية الموجهة ليس ضد الصهيونيين وانما ضد التقدميين في مناطق العمال •

« ٣ ـ ستار مناسب : لتحقيق (في مصر) التحالف الحربي مع بريطانيا في الوقت الذي يتحول فيه تفكير الشعب الى مشكلة فلسطين (!) •

« ٤ ـ حل اقتصادي : لحل مشكلة البطالة وتشغيل آلاف العمال اما في الجيش أو الاعمال المتعلقة به ••

« وهذه هي الصفة الثانية التي تجعل من هذه الحرب حرب البورجوازية العربية التي تعمل على حل مشاكلها على حساب مصالح البروليتاريا التي يقع عليها عبء الاضطهاد والكبت والازمة •

« ج ـ قاعدة للهجوم على الاتحاد السوفييتي :

« واليوم وبالرغم من الحركات الوطنية الثورية وبالرغم من البروليتاريا الثورية فان البلاد العربية تكون في مجموعها القاعدة المثالية في الهجوم على الاتحاد السوفييتي •

«وفي سبيل هذا الهدف اثيرت حرب فلسطين ، لاثارة مركز للفتن والقلاقل يمكن أن يكون مصدرا للاضطرابات ضد الاتحاد السوفييتي • واليوم فان الحكومات العربية خدم الاستعمار هي التي تشن الهجوم • واليوم (بحسب أخبار هذا الاسبوع) قد ركزت بريطانيا الجنود الذين نقلوا حديثا الى شرق الاردن على حدود فلسطين ، ويقال أن حتى هذه الجيوش قد قامت بأعمال عدائية ضد اليهود •• »

هذا هو جوهر القتال الناشب في فلسطين بين العرب واليهود برأي الحركة الشيوعية في مصر ! ولكن هذا ليس كل شيء ! ليضبط القارىء العربي أعصابه ويتابع القراءة ••

تستمر افتتاحية النشرة فتقول تحت عنوان « الحرب الموجهة ضد البروليتاريا اليهودية » !

« ••• ولكن الانجليز وأكثر منهم الاميركان كانوا يعتمدون على سيطرة الزعماء الصهيونيين على الشعب اليهودي ، وكانوا لذلك لا يخشون التقسيم وتكوين دولة يهودية في فلسطين • ولكن اتضح لهم في الحرب الحالية أن الدولة اليهودية التي تكونت حديثا كانت مهددة بالانتقال (وهي تنتقل حاليا بالتدريج) من يد الزعماء الصهيونيين الى يد الشعب • وهكذا ، فمن وجهة نظر الاستعمار يوجد هناك خطر تكوين دولة يهودية اشتراكية في فلسطين (!)

« وان الخطر الذي يمثله اتجاه كهذا وتأثيره ، والمساعدة التي يمكن أن يؤديها للحركة التقدمية العربية (!) قد أخاف معسكر الرجعية • وتصرخ الحكومات العربية متادية بالخطر الشيوعي ، وتؤيد انجلترا الدول العربية تأييدا تاما (!) ، وهي تتدخل حربيا (بحسب الانباء الاخيرة) عن طريق شرق الاردن (!) • أما فرنسا التي كانت تؤيد الدولة اليهودية فترفض الاعتراف بها (!) • أما موقف أميركا فهو مطابق تماما للسياسة الاستعمارية • فقد كانت تؤيد اليهود قبل الانتخابات الاميركية لخوف ترومان من فقد أصوات اليهود ، ولكن بمجرد أن انتهت الانتخابات فان أميركا أعلنت بوضوح أنها تخشى الخطر الشيوعي في فلسطين •• (!) •

« وعلى هذا فالبورجوازية بأجمعها تتجمع ضد البروليتاريا اليهودية • والبروليتاريا المصرية لا يمكنها أن تحارب ضد بروليتاريا صديقة (!) • ان الطبقة العاملة في أي بلد لا يمكن ولا يجب أن تكافح ضد الطبقة العاملة في بلد آخر لمصلحة البورجوازية ••

« ان البروليتاريا المصرية يجب أن تتحد مع البروليتاريا اليهودية ضد العدو المشترك ، ضد الاستعمار (!) • وهذا هو السبب في أن الحرب في فلسطين هي ضد مصالح الشعب على العموم وضد مصالح البروليتاريا المصرية على الاخص • » •

لا نعتقد أن هناك خائنا يتباهى بخيانته بوقاحة كما يفعل الشيوعيون المصريون •

واذا كان القارىء العربي لم يكن قد فقد أعصابه ومزق هذا الكتاب ، فليتابع القراءة •

تتابع النشرة فتقول تحت عنوان « لماذا نؤيد التقسيم كالحل الوحيد الممكن حاليا » :

« ان واجبنا اليوم هو ان ندرس الموقف دراسة موضوعية حتى نفهم ضرورة التقسيم • ان موقفنا بالنسبة لتقسيم فلسطين هو موقف مبني على أساس المبادىء (!) وان ما يمليه هو حق الشعوب في تقرير مصيرها » • وبعد أن تستشهد الافتتاحية بأقوال لينين وستالين حول حق تقرير المصير تنتقل لتطبيق ذلك على فلسطين فتقول :

« فلندرس الآن حالة الشعب اليهودي : لقد عانى الشعب اليهودى فى فلسطين اضطهادا لمدة طويلة الخ ان الشعب اليهودى الفلسطينى يريد ان يحصل على استقلاله الذاتى . وأن فرض الوحدة مع العرب ، تلك الوحدة التى يرفضها الشعب اليهودى ، معناه أولا اننا نناقض مبدأ حق تقرير المصير ، وهو يعنى ثانيا تحطيم هذه الوحدة ، فهو سيؤدى الى استمرار روح العداء بين الشعبين ، وبذلك يجعل من كلا الشعبين مضادا للاخر ..»

« فالى جانب حق تقرير المصير الذى نعترف به لليهود (!) فماذا ننصحهم أن يعملوا ؟ ما هو خطنا بالنسبة لهم ؟ انه التقسيم »

« .. ان التقدميين يرسمون خطهم على أساس اعتبارات المبادىء ومصلحة البروليتاريا وحركتها التقدمية . وان اليهود يكونون اليوم شعبا ديمقراطيا (!) ، وتزداد سيطرتهم على حكومتهم يوما بعد يوم ، فى حين أن الحكومة العربية فى فلسطين حكومة فاشية تعمل خادمة للاستعمار .. وان القضاء على الدولة اليهودية واخضاع اليهود لهذه الحكومة العربية ، معناه القضاء على جزيرة للديمقراطية يمكن أن تكون ذات تأثير حسن على الجزء العربى فى فلسطين ، وتلعب دورا ايجابيا فى الشرق الاوسط » !!

ثم تنتقل النشرة الى تحديد واجبات العمال الفلسطينيين والمصريين فتقول :

واجبات البروليتاريا الفلسطينية :

« اليوم فى وسط المعارك فى فلسطين ظهرت شرارة .. فمنذ بضعة أيام قرأنا فى الجرائد أن جريدة التقدميين العرب - الاتحاد - قد طالبت بانسحاب الجيوش العربية من فلسطين، وهى بذلك قد اتخذت الموقف الصحيح الذى اتخذه الاتحاد السوفييتى ..

« ان واجب العمال الفلسطينيين ، العرب واليهود ، هو أولا تقوية وحدتهم فى الكفاح اليومى ضد الاستغلال المشترك فى المصنع (!) ، ضد البورجوازية عربية كانت أم يهودية .. وستكون هذه الوحدة هى التمهيد للوحدة السياسية ضد العدو المشترك ، أى الاستعمار ، وضد البورجوازية الفلسطينية .

« وعندما تتم هذه الوحدة الاخيرة ، وعندما يكون هناك حزب تقدمى فلسطينى واحد ستجتمع الشعوب الفلسطينية - عرب ويهود - حول البروليتاريا وعندئذ تتم وحدة فلسطين ويطرد الاستعمار .. وعندئذ تتخلص البروليتاريا الفلسطينية من استغلال البورجوازية المحلية ..»

« واجبات الطبقة العاملة المصرية :

« ان البورجوازية المصرية قد انتهزت فرصة ضعف الطبقة العاملة لتدخل فى حرب اجرامية (!) ، ولكن البروليتاريا المصرية لن تترك لها ميزة السبق فى العمل طويلا .

« - على البروليتاريا المصرية أن تنظم نفسها وأن تضغط كقوة سياسية منظمة لترغم البورجوازية المصرية على الانسحاب من الاراضى الفلسطينية .

« - ان على البروليتاريا المصرية أن تقوم بواجباتها الدولية بالدفاع عن حقوق الشعوب فى تقرير مصيرها . »

هنا تنتهى هذه الافتتاحية الطويلة . وفيها نجد العناصر الكاملة ، الفكرية والسياسية والنضالية ، لموقف الشيوعيين من قضية فلسطين . ونحن نعترف بصراحة أننا عاجزون عن ايراد التعليق الذى يمكن ان يعبر عن مشاعر الازدراء التى تمتلك أى عربى ، سواء على الصعيد الفكرى أو العاطفى ، حين يقرأ هذه الاراء . ان كل كلمة من هذه الافتتاحية مؤامرة فكرية نضالية على مصير العرب ، وكل سطر فيها يرسم خطا فى الصورة المتكاملة للجريمة القومية التى ساهم فى ارتكابها الشيوعيون فى الوطن ، والتى ستظل محفورة على جبينهم الى الابد !!

فاذا تركنا جانبا هذه التحليلات الفكرية والسياسية لمعركة العرب ضد اليهود فى فلسطين ، والتى تتدنى الى مستوى طفولى مشين فى ضحالته فاننا لا نستطيع أبدا أن نمر بسهولة على هذا الحماس الشديد لليهود وهذا الحقد الحيوانى على العرب والذى يحاول الشيوعيون عبثا اخفاءه وراء تلك التحليلات الفكرية السياسية المضحكة ، بل لا يجوز لنا أبدا الا أن نعتبره توجيها متعمدا مدروسا لتحطيم نضال العرب ضد الاغتصاب اليهودى .

فكل العالم يتجمع ضد اليهود المساكين !!

الاستعمار سلح الحكومات البورجوازية العربية « لغزو » فلسطين لسحق اليهود ، بل هو يعتدى معها على اليهود . وأميركا تخشى الدولة اليهودية الجديدة وفرنسا ترفض الاعتراف بها ! وهذا الثالوث الذى يمثل ذروة الحقد على العرب وذروة تأييد فكرة الوطن القومى اليهودى ، هو الذى اختاره الشيوعيون

ليقولوا انه يعتدى على اليهود المساكين ويساعد العرب ضدهم ! هل تجرأ احد على سوق مثل هذا الدجل المعيب بهذه البساطة ؟ وهل تجرأ انسان على الاستهزاء بعقل الشعب العربى وذكائه الى هذه الدرجة ؟

والاستعمار والبورجوازية العربية تتجمع لتقاتل اليهود خوفا من البروليتاريا اليهودية الثورية ! هذه البروليتاريا التى لم تسخر الاستعمار لتسليحهم ومساندتها فحسب ، بل سخرت دول اوروبا الشرقية نفسها ــ التى تحكمها احزاب شيوعية ! ــ يوم استنجد بها الشيوعيون اليهود ــ طليعة البروليتاريا الثورية ــ فطار « ميكونيس » الى اوروبا الشرقية ، وتدفق السلاح على القوات اليهودية تستخدمه فى اغتصاب الارض العربية ٠٠

« والشعب اليهودى عانى اضطهادا طويلا فى فلسطين » ! وممن ؟ من الشعب العربى بالطبع يقول الشيوعيون ــ والشيوعيون « حزب التضامن الاممى البروليتارى » ، لا يستطيعون أن يسكتوا على اضطهاد اليهود المساكين ! هذا الاضطهاد الذى برز فى الغزو اليهودى المنظم المتآمر على فلسطين مع الانتداب الانجليزى ٠٠ وفى مجازر دير ياسين وقبية ونحالين ٠٠ وفى العدوان على قطاع غزة عام ١٩٥٥ ، وعلى طبريا ، وفى العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ والمجازر البشعة التى ارتكبها اليهود فى غزة والعريش ورفح آنذاك ٠٠!

والشعب اليهودى شعب ديمقراطى ! والدولة اليهودية الغاصبة دولة ذات ملامح اشتراكية ! وهى ستكون « جزيرة للديمقراطية » فى الشرق الاوسط ! ولهذه الصفات التقدمية لدى اليهود تحاربهم الحكومات العربية والاستعمار !

يا للعار ٠

ترى لو أرادت الحركة الصهيونية فى دعايتها الكاذبة أن تلصق بالعرب ابشع التهم ، هل كان يمكنها أن تقول أكثر مما قال الشيوعيون ؟ هل يمكنها أن تدافع عن الغزو اليهودى بحماس أكثر من هذا الحماس الذى أظهره الشيوعيون ، بل هل كان يمكن لاى خائن أن يقول أن النضال ضد اغتصاب جزء من الوطن العربى بالقوة ، هو ضد مصلحة الشعب العربى ، ضد العمال والفلاحين ؟

ان هذا الموقف هو بصراحة أكثر من خيانة عظمى بكثير ٠٠

ولكن هذا ليس الا النموذج الثانى للخيانة البشعة والاسفاف الفكرى السياسى المخجل ، فليضبط القارىء العربى أعصابه ويتابع قراءة النموذج الثالث ٠

* * *

فى عام ١٩٤٩ ــ ١٩٥٠ أصدر الحزب الشيوعى المصرى دراسة نشرت فى تقرير رسمى من ٥٠ صفحة بعنوان « تطور الرأسمالية وكفاح الطبقات فى مصر » خصصت الصفحات الثلاث الاخيرة منها لقضية فلسطين بعنوان « غزو فلسطين » ! حيث أعطت أسباب القتال بين العرب واليهود عام ١٩٤٨ ، فلنر ما يقول منطق الخيانة هذه المرة :

« غزو فلسطين ٠٠٠

« ٠٠٠ واذا كانت مشكلة فلسطين قد خلقها الاستعمار الانجليزى ، واذا كانت قد تفاقمت بالنزاع بين هذا الاستعمار والاستعمار الاميركى ، فان حروب فلسطين سنة ١٩٤٨ قد ارادتها البورجوازية والاقطاع فى مصر مجتمعة لاسباب فى غاية الاهمية :

« أولا :

« النزاع الاقطاعى الاستعمارى بين فاروق وعبد الله :

فلو لم يدخل فاروق أرض فلسطين مع جيوش الملك عبد الله ، لاستقل هذا بالعمل فى فلسطين ولكانت جيوشه تجرى منذ زمن طويل فى أرض سوريا تحقيقا لسياسة سوريا الكبرى الانجليزية ٠٠ ومعنى هذا أنه كانت تغدو شرق الاردن فى مركز ممتاز بالنسبة لمصر بين بلاد الجامعة العربية ، وهذا ما لا يرضاه الاقطاع الاستعمارى فى مصر الذى دخل فلسطين ليحد من توسع شرق الاردن وليأمن خطر الرأسمالية اليهودية فى ذات الوقت ، وليدعم مركزه فى الجامعة العربية ويفرض سيطرته عليها !

« ثانيا :

« رغبة البورجوازية والاقطاع فى مصر فى شغل الشعب عن مشاكله الحقيقية :

« عن تفاقم متناقضات النظام الرأسمالى الحاضر واخماد كل مد ثورى ٠٠ وهنا يأتى دور الفاشية المصرية ، خادمة الرأسمالية والاقطاع فى اعداد الاذهان لغزو فلسطين والدعوة الى الحرب ؟ »
(ص ٤٩) »

ثالثا :

« تمرين الجيش المصرى على القتال استعدادا للحرب العالمية القادمة ضد الاتحاد السوفييتى بتهمة تأييد حكومة اسرائيل ..

« .. ومن ناحية أخرى ، دلت حرب فلسطين على تفاقم متناقضات النظام الرجعى الذى اصبح لا يقوى على الاحتفاظ بمركزه فى مصر بغير الالتجاء الى استعباد شعب آخر (أ) .. هذا النظام الذى يفضل تبذير أكثر من مئة مليون جنيه بين يوم وليلة فى حرب فاشلة ، على انفاق مليون جنيه على التعليم والصحة أو التأمين الاجتماعى .. » (ص ٥٠) .

فبما أن كل شيء يجب ان يكون له تفسير فى الوضع الاقتصادى ، اذن يجب أن يكون للحرب التى خاضتها الحكومات العربية فى فلسطين تفسير اقتصادى . وبحث الشيوعيون طويلا حتى انتهوا الى هذا الحل العبقرى وهو : أن حرب فلسطين هى نزاع اقطاعى استعمارى بين فاروق وعبد الله، وهى نتيجة دعوة فاشية اعدت الاذهان لغزو فلسطين !! والنتيجة المنطقية لهذا الاسفاف الفكرى هى القول : بأن كل من يساهم فى القتال ضد اليهود انما يساعد اذن فى تنفيذ مخططات الرأسمالية والاقطاع ، وانه على العكس ، كل من يصافح اليهود ويقف الى جانبهم ، انما يساهم فى الحركة التقدمية !

ونحن نقول ، واثقين ، ان انسانا فى الدنيا ، مهما بلغ من الغباوة والضحالة الفكرية ، لم يعط مثل هذا التفسير لقضية فلسطين . ولهذا ، فنحن نقول واثقين ايضا ، ان القضية لم تكن قضية اسفاف فكرى مخجل هنا أيضا ، بقدر ما كانت خيانة نضالية مخجلة حاول الشيوعيون عبثا سترها بمثل هذا الهراء . لم يعد هناك فرد عربى واحد لا يعرف اليوم أن الحكومات العربية لم تدخل حرب فلسطين بملء رغبتها ، بل دخلتها مجبرة تحت ضغط النقمة الشعبية الجارفة التى سرت بين صفوف الشعب العربى ضد تمزيق فلسطين وضد اغتصابها واقامة دولة يهودية فيها . ولكم كان يود الحكومات العربية ألا تدخل تلك الحرب ، لان معظمها كان يأتمر بأوامر الاستعمار البريطانى الذى عمل طيلة ربع قرن كامل على تنفيذ مشروع التقسيم واقامة دولة يهودية فى فلسطين . ولكنها اذ اضطرت أن تدخل الحرب بتأثير المد الشعبى الجارف الذى قابل به العرب مؤامرة التقسيم ، فقد سعت بالمقابل الى تنفيذ التقسيم بأسلوب آخر ، غير اسلوب عدم دخول الحرب ، وهو أسلوب التآمر والخيانة داخل أرض فلسطين نفسها .. فهل دخل فاروق وعبد الله الحرب فى فلسطين ليتنازعا على « استعباد اليهود » ؟ أم ليتساعدا فى تثبيت دولة لليهود فيها ؟

وهل يجهل أحد ان فاروقا وعبد الله ونورى السعيد وأعوانهم فى الحكم كانوا هم فرسان لكبسة العرب فى فلسطين ؟ وانهم دخلوا الحرب بعد أن اتفقوا على كبح جماح الجيش وجعل القتال صوريا ليمكنوا اليهود من تحقيق أهدافهم فى اغتصاب فلسطين واقامة دولة لهم فيها ؟

فلأى هدف تقلب الحقائق وتعكس الغايات المعروفة للجميع ؟ هل الا لتبرير شرعية قيام دولة يهودية فى فلسطين ؟

وهكذا أيضا ، بما أن كل حدث سياسى ، يجب ، كالعادة ، أن يربط بالاتحاد السوفييتى ، من قريب أو بعيد ، فتش الشيوعيون عن طريقة لربط النزاع بين العرب واليهود بالسوفييت فخرجوا بهذا الربط وهو : « تمرين الجيش المصرى على القتال استعدادا للحرب ضد السوفييت » . فهل هناك تحليل مضحك أكثر من هذا ؟ وهل يمكن لاى حركة تحترم نفسها ، وتحترم بعض الشيء على الاقل ، العلمية والموضوعية أن تسوق مثل هذا القول ؟ كان المعروف بالطبع ، كما هو واضح للجميع أن الاستعمار ساهم فى خلق « اسرائيل » (لا سعى لعدم خلقها كما يقول الشيوعيون) ليتخذ منها قاعدة لمخططاته الاستعمارية فى الوطن العربى ، ولكن الشيوعيين ما كان بامكانهم الاعتراف بهذه الحقيقة ـ التى أثبتتها كل الاحداث فيما بعد ـ طالما انهم يؤيدون هم انفسهم قيام « اسرائيل » ، فخرجوا بذلك التفسير العبقرى .. وجاءت الاحداث لتثبت فعلا فيما بعد أن « اسرائيل » تمثل فى هذه المنطقة جزءا من مخططات ومشاريع الغرب . ولم يسع الشيوعيون كما سنرى ، الا أن يعودوا ويتركوا هذا المنطق الى منطق جديد ، يوم أصبحت « اسرائيل » فى رأيهم مركزا أماميا للاستعمار الغربى .!

* * *

هذه هى ، بالوثائق ، حقيقة موقف الحركة الشيوعية فى الوطن العربى من قضية تعد أهم وأخطر قضايا العرب القومية ، وهى قضية فلسطين والاغتصاب اليهودى الذى يتمثل اليوم بدولة يهودية غازية تنتصب فى قلب الوطن لتزيد فى تعميق التجزئة فيه وتثبيت ركائز الاستعمار والتآمر باستمرار على مصير العرب القومى .

ولم يكن موقف الحركة الشيوعية من هــــذه القضية الخطيرة موقفا انهزاميا فقط ، بل كان موقفا خائنا طعنت فيه النضال العربي بحقد حيـــواني غريب ، ووضعت نفسها في خدمة الصهيونيــــة والاستعمار وعملت كطابور خامس لهما في صفوف الشعب العربي •

وجاءت هذه المرحلة تتصل في بعض جوانبهـــا بالمرحلة السابقة • فلقد استمر تزوير شـــعارات المعركة وتبديلها بحيث تكون ملائمـــة دوما لمخطط الشيوعية الدولية • وهكذا تغافل الشيوعيون عمدا عن خطر الغزو اليهودي ، وحاولوا صرف أنظـــار الشعب العربي عنه بحصر المعركة في الاستعمار •

واستمرت المؤامرة الفـــكرية التي كانت ، وما زالت ، تدور حول تقسيم يهود فلسطين تقســـيما مصطنعا زائفا الى « يهود » و « صهيونيين » ، هذه المؤامرة الفكرية التي فضحها نهائيا الموقف الموحد الذي وقفته كافة المنظمات اليهودية ، من أقصى اليمين الى أقصى اليسار ، ضد العرب وفي سبيل تحقيــق فكرة الوطن القومي اليهودي على حســـاب الارض العربية في فلسطين ••

وجاءت هذه المرحلة تناقض في بعض جوانبها على خط مستقيم بعض جوانب المرحلة الســـابقة • فأيد الشيوعيون تمزيق فلسطين وفكرة الوطـــن القومي اليهودي ، وعملوا لها بحماس لا يقـــل عن حماس اليهود أنفسهم ، ضاربين عرض الحائـــط ، وبدون أي خجل ، بكل أقوالهم ومواقفهم السابقـــة بصدد هذه الفكرة • وأثبتت الحركة الشيوعية في الدوس على مصلحة الامة العربية ومصيرها ، حالما تتعارض مصلحتها القومية مع الشيوعية الدولية التي تسيرها بدورها اعتبارات مصلحية بحتـــة حسب تطورات الظرف الدولي •

ولم تقف الحركة الشيوعية عند حد تأييـــد التقسيم ، بل اندفعت في محاولات مستميتة لطعن النضال العربي ضد اغتصاب فلسطين على الصعيدين الفكري والعملي •

فعلى الصعيد الفكري ، جعلت اليهود امة لها حق شرعي » في فلسطين ، بل وجعلت اليهـــود شعبا ديمقراطيا ، والدولة اليهودية دولة تقدمية اعتبرتها بمثابة جزيرة للديمقراطية في الشرق الاوســـط ، وجعلت النضال العربي ضد الاغتصاب اليهودي نضالا استعماريا رجعيا فاشيا هدفه القضاء على جـــزيرة الديمقراطية التي نشأت في هذه المنطقة من العالم ! وطمست جوهر قضية العرب في فلسطين وجعلتهـــا قضية عنصرية دينية لتعطيها طابعا رجعيا يؤلب عليها الرأي العام العالمي تماما كما كانت تفعل المنظمـــات الصهيونية العالمية • وزورت الاحداث السياســـية وعكست الحقائق بكل وقاحة • وأثبتت مرة أخرى أن الفكر ليس الا ثوبا باليا ترتديه كل يوم بشكل جديد حسب الظروف الجديدة • وأن العلميـــة والموضوعية الخ .. ليست كلها الا دجلا لا يمت للواقع الذي تعيشه بصلة ، فما أسهل ما طمســـت مواقف فكرية واستخرجت مواقف جديدة مناقضة للاولى ، تحت ستار الفكر والعلمية والموضوعية !

وعلى الصعيد العملي ، خانت قضية العرب القومية في فلسطين كأبشع ما تكون الخيـــانة ، وفي الوقت الذي كان الشهداء العرب يتســـاقطون دفاعا عن فلسطين ضد الغزو اليهودي وضد مخطط الاستعمار لتهويد فلسطين ، وضعوا أنفسهم مرة أخرى تحت تصرف الاستعمار والغزو اليهودي ، فدعوا الى عدم التطوع في الحرب ضد اليهـــود ، وعملوا على بث الروح الانهزامية في صـــفوف الشعب والجيش ، ووزعوا المنشورات التي تدعو لايقاف الحـــرب « العنصرية الدينيـــة الفاشية » ضد اليهــــود المسالمين !

وأدرك الشعب العربي ، أنه الى جانب الغـــزو اليهودي والاستعمار اللذين كان يقاتلهما وجها لوجه، عليه أن يقاتل حركة صهيونيـــة استعمارية أخرى داخل صفوفه ، هي الحركة الشيوعية •

* * *

موقف الشيوعية المحلية من معركة فلسطين بعد النكبة

منذ النكبة حتى بدء تغير السياسة السوفييتية تجاه الوطن العربي

بعد ان قامت اسرائيل نتيجة لاسباب عديدة لا مجال لبحثها الآن ، كان امام الشعب العربي واجبات جديدة ضخمة طرحتها النكبة كمهمة قومية ملحة .

فمنذ ان نجح الاستعمار واليهود في اقامة اسرائيل بالتآمر مع المتخاذلين من الحكام العرب ، بداوا فورا يعدون للخطوة الثانية وهي : تثبيت كيان اسرائيل وتدعيمه وتقويته لكي ينفسح المجال امام اليهود لتحقيق اهدافهم التي لم تكن تقتصر على فلسطين وحدها ، ولكي يحقق الاستعمار اهدافه في استخدام اسرائيل كركيزة متينة في الوطن العربي

وكان الكل يعلم جيدا ، الشعب العربي من جهة ، والاستعمار واليهود من جهة اخرى ، ان هذه الخطوة الثانية لن تتحقق بنجاح الا بطمس قضية فلسطين نهائيا عن طريق فرض الصلح بين العرب واليهود ، بين الحكومات العربية واسرائيل .

فمن الناحية السياسية ، سيكون الصلح اعترافا رسميا من العرب بشرعية الدولة اليهودية الغاصبة التي قامت في فلسطين العربية . وبذلك تطمس نهائيا قضية فلسطين ، وتنتهي حالة الحرب ، ويقضى على العداء العربي اليهودي ، وتتوطد اركان اسرائيل بموافقة العرب انفسهم .

ومن الناحية الاقتصادية ، سيؤدي الصلح الى افساح المجال امام الاقتصاد اليهودي لينمو ويزدهر على حساب الاقتصاد العربي ، ويتحقق بذلك هدف اليهودية والاستعمار بجعل اسرائيل مصنعا ضخما في وسط زراعي متخلف ، اي تحويل الوطن العربي الى سوق واسعة للاقتصاد اليهودي والاستعماري يتحكم اليهود عن طريقه بمقدرات الوطن العربي تدريجيا .

ومن الناحية العسكرية ، سيؤدي الصلح الى حالة من الاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي تمكن اسرائيل من الانصراف الى بناء كيانها داخليا وتدعيم اقتصادها الحربي وتقوية جيوشها وتنفيذ برامج الهجرة وتحويل اسرائيل الى معسكر حربي كبير ينتظر الفرصة الملائمة للانقضاض مرة ثانية وتوسيع حدود اسرائيل باغتصاب اراض عربية جديدة .

وكانت مخططات الاستعمار واهدافه العدوانية في الوطن العربي تتفق وتنسجم انسجاما تاما مع كل خطوة من الخطوات السابقة كما هو واضح للجميع . ولذلك اتجهت المخططات اليهودية والاستعمارية منذ الايام الاولى للنكبة الى التآمر مجددا مع الحكام العرب الخونة لتحقيق هذا الهدف .

اما سياسة الاتحاد السوفييتي في هذه الفترة الممتدة من النكبة حتى عام ١٩٥٤ ــ ١٩٥٥ ، فلم تكن ابدا بجانب العرب ، ويمكننا أن نقول انها كانت تتلاقى ، في النتيجة ، مع الترتيبات العملية لاهداف اليهود الجديدة بعد قيام اسرائيل .

تأييده للتقسيم ـ القتال الذي نشب في فلسطين واصفا الحرب بأنها (عمل عدواني نظم بتدبير الاستعمار الانجلو ـ اميركي) كما ورد آنفا .. ثم عارض مشروع برنادوت للتقسيم (والذى رفضه العرب كذلك) ولكن من زاوية أخرى ! لانه يجحف بحقوق اليهود .

وفي عام ١٩٥٠ تراجع الاتحاد السوفييتي عن الموقف الذى كان قد اتخذه عام ١٩٤٩ بشأن قضية القدس ـ والذى لم يوافق فيه على ضمها لاسرائيل وأيد اقتراح التدويل ـ تراجع عن هذا الموقف فعارض مشروع التدويل ، ثم أيد بعد ذلك خطوة اليهود باعتبار القدس عاصمة لاسرائيل حين سبق السفير السوفييتي سفراء دول الغرب فى تقديم أوراق اعتماده فى القدس معتبرا اياها عاصمة اسرائيل !

ولكن أكثر ما يهمنا في الواقع ، هو موقف الاتحاد السوفييتي من مؤامرة الصلح بين العرب واليهود فقد أيد الصلح ودعا الى انهاء (حالةالعداء والتوتر) بين العرب واليهود (لان بقاء التوتر لن يستفيد منه سوى الاستعمار) ! وطبعا لم يكن الاتحاد السوفييتى يجهل النتائج الخطيرة البعيدة المدى التى تترتب على الصلح بالنسبة للعرب قوميا وسياسيا واقتصاديا وعسكريا ، وقد قدم الاتحاد السوفييتي لتأييد هذه الخطوة الخطيرة تبريرا غريبا مفاده : أن الواجب الاول امام (سكان هذه المنطقة من العالم) هو مقاومة مشاريع الاستعمار الغربى الحربية ، وفى سبيل هذا الهدف يجب ان ينسى الجميع (خلافاتهم) ويضعوا يدا بيد (!) لتوحيد الكفاح ضد الاستعمار . وكان معنى هذا عمليا ، تحقيق الصلح بين العرب واليهود .

اما الشعب العربى ، فقد كان يدرك فى المقابل أن النكبة قد حملته واجبات قومية خطيرة جديدة يزيدها تعقيدا مثل ذلك الجو السياسى الدولى . فاذا كانت اسرائيل قد قامت فان عليه أن يخوض نضالا حازما صلبا على جبهاتمتعددة تلتقيجميعها فى جبهة واحدة كبيرة : كان عليه واجب عدم الاعتراف بالاغتصاب اليهودى (سياسيا) ومقاطعة الدولة الغاصبة مقاطعة تامة والعمل على عزلها ، ومقاومة كل خطوة تهدف للصلح ، والقضاء عليها ، ومحاربة المشاريع العديدة التى يعدها الاستعمار واليهود لفرضها على العرب والهادفة الى تصفية قضية فلسطين ، وتعبئة الشعب العربى نضاليا وفكريا ضدجريمة النكبة، والافادةمندروسها لتنظيم صفوفه واعداده للجولة الثانية ضد اسرائيل، ودراسة العدو الجديد الذى قام فى وطننا ،وتوعية

فمنذ البدء عارض الاتحاد السوفييتي ـ بعد الشعب على طبيعته وأهدافه واساليب عمله الخ .. كان على الشعب ان يقوم بهذا الواجب الكبير الملح الذى طرحته النكبة الى جانب معركته فى سبيل الوحدة والتحرر .

وكان واضحا أن القضاء على مؤامرة الصلح بين العرب واليهود وكل مشروع يهدف اليها ، هو أهم هذه الواجبات وأخطرها .

فماذا كان موقف الحركة الشيوعية فى الوطن من قضية فلسطين بعدتاييدهاالمخزى لقيام اسرائيل واضفائها صفة الشرعية على الاغتصاب اليهودى ؟

لقد استمرت سلسلة التآمر على حق العرب ومصيرهم القومى .

فبعد جريمة تأييد فكرة الوطن القومى اليهودى، وتأييد قيام اسرائيل ، عمل الشيوعيون على تدعيم كيان الدولة الغاصبة موجهين طعنة اخرى الى النضال العربى فى وقت كان أحوج ما يكون فيه الى الوقوف امام مؤامرات طمس قضية فلسطين نهائيا .

وقد سار مخطط الخيانة الجديد فى الخطوط التالية :

أيد الشيوعيون مؤامرة تحقيق الصلح بينالعرب واليهود ودعوا اليها بحماس !

واستمرت مؤامرة (الاخاء العربى اليهودى) ، رغم النكبة ورغم كل الاحداث الدامية التى شهدتها فلسطين !

واستمروا فى تأييد تمزيق فلسطين ومباركةقيام اسرائيل ، بل وأيدوا الامعان فى الاغتصاباليهودى بتأييدهم لتوسيع رقعة اسرائيل !

ولم يعترفوا أن اسرائيل هى دولة غاصبة ، ولم يهاجموها أبدا ككيان ، بل قالوا ان اسرائيل كأية دولة عربية لا ينظر اليها بشكل متجانس ، ففيها اتجاهات رجعية وفيها اتجاهات تقدمية !

ترى هل نبالغ ؟

اذن لنقرأ سطور المؤامرة الجديدة فى وثائقهم .

* * *

بعد دخول الجيوش العربية الى فلسطين ،عينت هيئة الامم المتحدة فى ايار (مارس) ١٩٤٨ الكونت برنادوت ليقوم بمهمة الوساطة بين العرب واليهود، وقدم برنادوت مشروع التقسيم المعروف باسمه فى حزيران ١٩٤٨ ، وقد رفض العرب هذا المشروع

لانه ـ اذا تجاوزنا التفاصيل ـ يقوم أصلا على تأييد التقسيم والاعتراف لليهود بحق قيام دولة في فلسطين. كذلك رفض اليهود هذا المشروع للتعديلات التي اقترحها بشأن القدس والنقب.

وقد هاجم الشيوعيون في سوريا ولبنان وفلسطين ومصر مقترحات برنادوت هجوما عنيفا. ولكن من اية زاوية ؟ ولاي سبب ؟

لقد كان من جملة اسباب مهاجمتهم لمشروع برنادوت أنه مجحف بحق اليهود ! وقد اعطى الشيوعيون في مصر أحسن تعبير عن هذا الموقف؛ فقالت نشرة (صوت البروليتاريا) التي تصدرها (المنظمة الشيوعية المصرية) في تشرين الثاني ١٩٤٨، في معرض مناقشة مشروع برنادوت :

((وان الاقتراح بجعل حيفا، وهو أهم ميناء لفلسطين ومنفذ لانابيب البترول، ميناء حرا لهو اقتراح موجه في صالح ملوك البترول الامريكيين، وفي نفس الوقت يشل اقتصاد الدولة اليهودية بحرمانها من هذا الميناء الحيوي)) (١)

كان هذا من اهم الاسباب التي يجب ان يرفض من اجلها اقتراح برنادوت براي الشيوعيين ! ان الحركة الشيوعية لم تؤيد الصهيونية في اغتصاب فلسطين فقط، بل نصبت من نفسها مدافعا غيورا عن جريمتها، وهي لم تفكر لحظة واحدة برفض اقتراح برنادوت لانه يطمس حق العرب في فلسطين، بينما اهتمت كثيرا بمصير ميناء حيفا وضرورة عدم حرمان الدولة اليهودية منه لانه يشل اقتصادها !

واستمرت الحملة على الحرب ضد اليهود والتي أصبح يواكبها الآن الدعوة لتحقيق الصلح. فبعد برنادوت جاء بانش، وهاجم الشيوعيون الوسيط الدولي الجديد، ولكن من أية زاوية أيضا ؟ ولاي سبب ! هل لان بانش كان معروفا بتحيزه لليهود ؟ هل لانه كان ينطلق من الاعتراف لليهود بحق قومي في فلسطين ؟ كلا بالطبع. بل قالوا انه بالاشتراك مع الاستعمار يعمل لمنع تحقيق الصلح بين العرب واليهود !

((ان الاستعماريين البريطاني والامريكي واذنابهما في البلاد العربية والوسطاء الدوليين يعملون كل ما في وسعهم لمنع وقف الحرب بطريقة فعالة.

« ـ وهم يرفضون انسحاب الجيوش العربية المغيرة (!) من فلسطين.

« ـ ويرفض العرب، وتؤيدهم بريطانيا وبانش، الدخول في مفاوضات مباشرة مع اليهود بهدف الوصول الى صلح ..

((وزيادة على ذلك فان هذا المعسكر يريد اتخاذ اجراءات اقتصادية ودبلوماسية وسياسية ضد اليهود، وهي اجراءات ستستفزهم في الاستمرار في القتال، ولكن يؤكد الاستعماريون تصميمهم على أن تستمر الحرب فانهم يدخلون هم انفسهم في عمليات حربية ضد اليهود)) (المصدر السابق نفسه) ».

مرة اخرى نعود الى ذلك الدجل الوقح .. (فالاستعماريون يدخلون في عمليات حربية ضد اليهود) !

والاستعماريون الامريكان والانجليز يريدون معاقبة اليهود !

ولذلك .. فالواجب انقاذ اليهود المساكين الذين تتألب ضدهم أمريكا وبريطانيا وهيئة الامم المتحدة، وكيف لا بتحقيق الصلح بينهم وبين العرب اي بالاستسلام للغزو اليهودي والاعتراف بشرعيته والسكوت عن اغتصاب فلسطين وفتح ابواب الوطن العربي له على مصراعيها !

وتؤقت هذه الفترة كذلك استمرار هجوم الحزب الشيوعي العراقي على حرب فلسطين حتى بعد انتهائها، وطبعا من نفس الزاوية القديمة، زاوية انها حرب دبرها الاستعمار ضد اليهود. ونلاحظ ان تأييد القتال ضد اليهود في فلسطين قد اصبح برأي اللجان المركزية المتتابعة للحزب الشيوعي العراقي (انحرافا خطيرا) تتهم به اللجان المركزية بعضها البعض كلما ارادت كل منها أن تدلل على تخاذل الاخرى !

ففي رسالة وجهها حميد عثمان المسئول الاول في اللجنة المركزية الرابعة للحزب الشيوعي العراقي الى احد مسئولي الالوية بتاريخ ٢٨ نيسان ١٩٤٩، يتهم فيها اللجنة المركزية السابقة (الثالثة) بالخيانة والتخاذل لانها لم تقف ضد الحرب في فلسطين كما كان يجب، يقول :

« أما قضية فلسطين فالكل يدرك خيانة القيادة وتأييدها للحرب الاستعمارية على فترة ليست بقليلة كان الواجب يقضي شن هجوم منظم فور اعلان الحرب، ولكن نظرا للهبوط الثوري الذي اصاب حركتنا آنذاك، كان الواجب سحب الكادر الى

---

(١) « صوت البروليتاريا » ـ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٨ ـ العدد الثاني ـ ص ٥

المؤخرة وتهيئة جو ملائم للاقدام على هجوم منظم على الحرب ورفع شعار « لتسقط الحرب » (١)

أي ان قيادة الحزب الشيوعي العراقي في عهد اللجنة المركزية الرابعة ، لا تخمل على القيادة السابقة لانها خانت قضية فلسطين وأيدت التقسيم ونظمت المظاهرات انتصارا للحق القومي اليهودي، ولكن لانها أيدت الحرب الفلسطينية الى فترة ليست بقليلة ! وكان الواجب شن هجوم منظم ضدالحرب أو تهيئة جو ملائم لرفع شعار : لتسقط الحرب ! وقد رأينا الهجوم الشرس الوقح الذي شنهالحزب الشيوعي العراقي على اعلان الحرب ضد اليهود ، والمظاهرات التي نظمها والمنشورات التي وزعها مطالبا « بايقاف الحرب الفلسطينية القذرة) عام ١٩٤٨ ، وهذا يعني أن ذلك الموقف الخائن المخزي لم يكن كافيا برأي اللجنة المركزية الرابعة ... لقد كانت تطالب بخيانة أكبر للامة العربية ».

وكذلك هاجمت اللجنة المركزية السادسة للحزب الشيوعي العراقي القيادة السابقة بنفس (التهمة) تهمة تأييد الحرب العربية ضد اليهود في فلسطين ! ففي (نشرة خاصة بالاعضاء) أصدرتها اللجنة المركزية السادسة للحزب بتاريخ ١٦ آب ١٩٤٩ بتوقيع (المركز) ، تتهم فيها القيادة السابقة بالتراجع امام مطالب البورجوازية فتقول :

« ... فافسحت القيادة بذلك التراجع المجال الكافي للعدو ليعبيء قواه المشتتة .. وفعلا قد هيأ هو بالاشتراك مع القيادة ظروف الهجوم المعاكس، فأثار الحرب الفلسطينية المقدسة التي أيدتها قيادة مالك يهودا (!) فنشرت الشعارات الشوفينية في صفحات جريدة الاساس ، فنادت ابناء الشعب لانقاذ « عروبة » فلسطين ، فكان موقفها موقف الاشتراكيين الشوفينيين ، وذلك بعد معارضتها للتقسيم حينما أيدته جميع الاحزاب الشيوعية في العالم ... »

اننا نعرف جميعا جيدا بالطبع ، أن اللجان المركزية المتتابعة للحزب الشيوعي العراقي قد أيدت كلها تقسيم فلسطين ، وشنت جميعها حملة وقحة عنيفة على فكرة الحرب ضد اليهود ، ولكن تأييد الحرب ضد اليهود كان « تهمة كبيرة » توجه لاي قيادة شيوعية ، فهي اذن نقطة حساسة يمكن أن تستخدمها كل قيادة جديدة للتدليل على خيانة القيادة السابقة ! فانقاذ عروبة فلسطين هو شعار شوفيني تعصبي ، وهو انحراف يميني خطير ...

(١) : ذيلت الرسالة بتوقيع « المركز » .

اما طمس عروبة فلسطين وتأييد أهداف الحركة الصهيونية ، فهو الديمقراطية عينها واليسارية نفسها .

بالمهزلة الفكر !

مع مضي الزمن كانت دعوة الشيوعيين للصلح وللاخاء العربي اليهودي تشتد وتتصح ..

وفي تموز ١٩٥٠ أصدرت عصبة التحررالوطني بيانا بتوقيع «لجنة عصبة التحرر الوطني في فلسطين في منطقة الاحتلال المصري (!) » يعيد تأكيد تأييد شيوعيي فلسطين للتقسيم ، ويدعو للصلح مع اليهود ، ويهاجم « الاحتلال المصري » لقطاع غزة يقول البيان :

« أيها الاخوان والاخوات : ان ما حل بشعبنا من مصائب وكوارث .. انه نتاج مؤامرة الاستعمار الانجلو أمريكي على حرية فلسطين ومقاومته الوحشية لمنع تنفيذ قرار هيئة الامم المتحدة (!) الصادر بتاريخ ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ .. والآن ما هو السبيل لانقاذ الشعب الفلسطيني من هذه الكارثة ؟ ..

« ان سبيل شعبنا للخروج من هذه الكارثة هو غير سبيل اولئك الخونة المجرمين الذين جلبواهذه الكارثة عليه . ان سبيله هو السبيل الذي رسمته له عصبة التحرر الوطني منذ اللحظة الاولى التي صدر فيها قرار هيئة الامم المتحدة بتاريخ ٢٩ نوفمبر ٤٧ . إنه في النضال الواعي لتنفيذ هذا القرار (!) وتحرير القسم العربي من جيوش فاروق وعبد الله وبن غوريون ، واقامة الدولةالديمقراطية المستقلة فيه **المتحدة اقتصاديا مع اسرائيل والصديقة للشعب اليهودي . (!)**

« ان عصبة التحرر الوطني تدعو جميع القوى الديمقراطية والوطنية الشريفة في انحاء القسم العربي المحتل من قبل عبد الله وفاروق الى توحيد صفوفها في جبهة واحدة للوصول الى هذا الهدف. ان العصبةفي هذه المنطقةتمدبدها الى كلديمقراطي ووطني وشريف لتكوين هذه الجبهة الموحدةللنضال من أجل تحرير الشعب العربي الفلسطيني ، ومن أجل عودة المشردين الى ديارهم ومن أجل اقامة الدولة الديمقراطية المستقلة الصديقة للشعب اليهودي (!)

« ان السبيل الوحيد لانقاذ جماهيرنا من قبضة المحتل المصري ، ولعودة المشردين الى ديارهم ،ومن اجل التحرر والانعتاق والحصول على لقمة الخبز

بالعمل الشريف ، هو في النضال الواعي من اجل تنفيذ قرار هيئة الامم المتحدة ، وفي التفاهم والتعاون مع الشعب اليهودي (!)

« يا جماهير شعبنا في هذه المنطقة : ان جماهير الشعب العربي الفلسطيني بقيادة عصبة التحرر الوطني في منطقة الاحتلال الهاشمي تناضل من اجل الحرية والانعتاق ايضا . ان جميع القوى الديمقراطية في اسرائيل (!) وفي طليعتها الحزب الشيوعي الشقيق هنالك ، تناضل من اجل الحرية والسلم في اسرائيل وفي فلسطين باكملها » !

هذا هو موقف الشيوعيين في فلسطين والاردن من معركة فلسطين ومن الاغتصاب اليهودي واسرائيل بعد النكبة واحداثها الدامية ، وبعد تشرد مليون عربي كانوا يهيمون على وجوههم .. لنقرأ هذا البيان بتمعن ولنتساءل : هل يمكن ان يصدر مثل هذا البيان عن حزب فيه ذرة من احساس بالكارثة التي اصابت العرب ، أو ذرة اهتمام بما يؤول اليه مصيرهم ؟! لقد ادى الشيوعيون واجبهم تجاه الصهيونية على الوجه الاكمل في المساهمة باقامة اسرائيل ، والآن يأتي الواجب الثاني وهو تدعيم الكيان اليهودي وتقويته ومده بأسباب النمو والازدهار .

وهذا هو سبيل الخلاص من الكارثة الذي يرسمه الشيوعيون في الاردن والارض المحتلة وغزة – منطقة الاحتلال المصري ! – للشعب العربي .

سبيل الخلاص من الكارثة ليس في النضال ضد الدولة اليهودية الغاصبة التي قامت في وطننا ، بل في « النضال الواعي لاقرار حق اليهود في اغتصاب جزء من فلسطين واقامة دولة يهودية فيها » ..

وليس هذا فحسب ، بل وفي النضال الواعي لتحقيق « الاتحاد الاقتصادي مع الدولة اليهودية الصديقة » .. اي لتحقيق الصلح مع « اسرائيل » !

وسبيل انقاذ جماهيرنا العربية ، ليس في القضاء على الدولة اليهودية التي اغتصبت ارضهم ، بل « في التفاهم والتعاون مع الشعب اليهودي » !

وسبيل الحصول على لقمة الخبز ليس في طرد اليهود الذين اغتصبوا لقمة خبزنا وارضنا وبيوتنا وثروتنا ، بل هو « في التفاهم والتعاون مع الشعب اليهودي » !

وليس غريبا بعد كل هذا ، ان يأتي البيان ، الذي يسمي وجود الجيش المصري في غزة «احتلالا» خاليا تماما من مجرد الاشارة الى الاحتلال اليهودي الذي تمركز في دولة رسمية . فهل كان الشيوعيون في الاردن وفلسطين وغزة يجهلون وهم يتغنون بديمقراطية اسرائيل وبنضال الحزب الشيوعي «الشقيق» ، المترتبات الخطيرة التي تترتب على فرض الصلح بين العرب واليهود سواء بالنسبة لقضية فلسطين او بالنسبة للوطن العربي عامة ؟

لم يكونوا ابدا يجهلون ذلك . وقد عملوا على الترويج لهذه الجريمة الجديدة وتاييدها وهم واعون تماما لاخطارها الفادحة . ولكن .. ماذا يهم مصير فلسطين ومصير العرب كلهم اذا كان في اتخاذ هذا الموقف المتآمر ارضاء للشيوعية الدولية ؟!

* * *

كانت الدول الاستعمارية طيلة هذه الفترة تعمل بجد لتدعيم وتثبيت كيان اسرائيل . فاصدرت امريكا وبريطانيا في أيار (مارس) ١٩٥٠ البيان الثلاثي المعروف الذي كان يهدف الى اعطاء حماية عالمية جديدة لاسرائيل وتثبيت حدودها ، كما كان بمثابة اعلان رسمي من قبل هذه الدول الاستعمارية الثلاث عن استعدادها لان تقاوم بالقوة كل اتجاه لاسترجاع فلسطين أو اي تقليص لحدود اسرائيل ولم يكن احد يجهل ابدا أن هذا هو الهدف من البيان الثلاثي ، وأنه موجه لمصلحة اليهود وكيان اسرائيل كدولة ضد العرب .

وفي نفس هذه الفترة أصدر الحزبان الشيوعيان في سوريا ولبنان بيانا مشتركا حدد موقفهما من البيان الثلاثي ورايهما فيه . وقد جاء هذا البيان المشترك يعطي صورة واضحة من مخطط الشيوعيين الجديد تجاه قضية فلسطين بعد النكبة وقيام اسرائيل . فقد تجاهل البيان المشترك تجاهلا تاما ان الهدف الرئيسي المعروف للبيان الثلاثي الاستعماري هو حماية اسرائيل كدولة وككيان ، وعمل على صرف انظار الشعب العربي عن كل تفكير يتعلق بكيان اسرائيل ، واعطى موقفا يعكس الحقائق عكسا تاما مفاده : ان البيان الثلاثي موجه ضد مصلحة الشعب العربي والشعب اليهودي لمصلحة الحكام الرجعيين العرب والحكام الصهيونيين اليهود . وهكذا عادت مرة أخرى نظرية التقسيم المصطنع لليهود في فلسطين ، الى يهود وصهيونيين ، لتشكل الاساس الفكري للمؤامرة الجديدة ، التي تهدف الى طمس جوهر قضية العرب في فلسطين وعدم اعتبارها نزاعا بين الشعب العربي من جهة ، واسرائيل ككيان وكدولة غاصبة يساندها الاستعمار من جهة ثانية .

فحول البيان المشترك للحزبين الشيوعيين في سوريا ولبنان معلقا على البيان الثلاثي وهدفه :

« وهكذا يفضح البيان الحكام الرجعيين والخونة في الاقطار العربية ، ويهتك الستر عن اكاذيبهم واضاليلهم حين كانوا يزعمون انهم يريدون التسلح لرد « العدوان الصهيوني » أو « انقاذ » فلسطين ، كما يهتك الستر عن اكاذيب واضاليل حكام اسرائيل الصهيونيين الرجعيين الذين كانوا يزعمون ايضا انهم يتسلحون لرد « العدوان العربي » (!) . فقد اتضح من البيان أن هؤلاء وهؤلاء جميعهم مضللون منافقون . وانهم يستخدمون السلاح الاميركي والانجليزي والفرنسي من جهة ضد الجماهير الشعبية، لقمع نضالها من اجل السلم والديمقراطية والحرية والخبز، ومن جهة اخرى لخدمة المستعمرين الانجلو اميركيين والفرنسيين في الحرب العدوانية التي يهيئونها ضد الاتحاد السوفييتي ، وضد بلدان الديمقراطيات الشعبية في اوربا وآسيا» (!) .

بعد هذه المغالطة الشنيعة التي يحاول فيها بيان الحزبين الشيوعيين ان ينزع الصفة العدوانية لكيان اسرائيل يتابع فيقول :

« ومن المفهوم ان الحكام الرجعيين العرب ، وحكام اسرائيل الصهيونيين ، سيتابعون اكاذيبهم ومناوراتهم لكي يفتحوا باب التسابق الجنوني الى التسلح، فيستفيد من ذلك تجار الموت الراسماليون أصحاب معامل الاسلحة في الولايات المتحدة الامريكية وعملاؤهم وسماسرتهم في انجلترا وفرنسا ، وتكون نتيجة ذلك زيادة الاعباء المالية على الجماهير الشعبية في بلادنا ، والامعان في ارهاقها بالضرائب وفي اغراقها بالبؤس لسد نفقات التسلح » .

ويستمر البيان فيقول تحت عنوان « الاستعمار الاميركي وشركاؤه مستعجلون لتهيئة بلادنا للحرب وتحويلها الى قاعدة عدوان على الاتحاد السوفييتي ، صديق العرب العظيم » :

« ان للبيان الثلاثي معنى واحدا هو انه فاتحة هجوم جديد واسع النطاق على كل اقطار الشرق الادنى من جانب المستعمرين المحرضين على الحرب .. فها هي انجلترا تعلن ، بموافقة اميركا ، انها لن تجلو عن قناة السويس ولا العراق .. وها هي اميركا التي تستعمر البلاد العربية السعودية ، توطد استعمارها في اسرائيل (!) ، بواسطة الحكام الاشتراكيين اليمينيين وبقية الزعماء الصهيونيين الرجعيين، وتشترك اكثر فاكثر في استعمار البلدان العربية الاخرى .. »

في غمرة هذا الهجوم الحماسي على الاستعمار تكمن خطوط المؤامرة الجديدة على قضية فلسطين، وقد استمر الشيوعيون في هذا الاسلوب الذي يغطي عمله لطمس جوهر قضية فلسطين وراء مثل هذه العبارات الحماسية في مهاجمة المستعمرين وتجار الحروب والمكائد التي تعد للاتحاد السوفييتي وقمع نضال الشعب من اجل الحرية والسلم والديمقراطية والخبز الخ .. ونحن نريد أن نتوقف قليلا هنا :

اولا : يتجاهل البيان المشترك للحزبين الشيوعيين في سوريا ولبنان تجاهلا تاما قضية فلسطين تحت ستار هذه الجمل التي صففت بحماس — ولكن بلا اي معنى — تجاه هذه القضية . وهكذا طمس الهدف الاساسي للاستعمار من وراء البيان الثلاثي وهو حماية حدود اسرائيل وكيانها .

والسبب واضح ! فالشيوعيون الذين كانوا هم انفسهم يدعون لحماية كيان اسرائيل كدولة ، ما كان باستطاعتهم أن يهاجموا البيان الثلاثي الاستعماري من زاوية هدفه الاساسي، والا لهاجموا انفسهم وفضحوا موقفهم !

ثانيا : ينفي البيان المشترك الصفة العدوانية عن اسرائيل بكل صراحة ! فحكام اسرائيل لايتسلحون، كما يدعون ، « لرد العدوان العربي » ولا لاغتصاب اراض عربية جديدة ، ولكن لقمع نضال جماهير اليهود المناضلة من اجل الحرية والسلم والخبز ! والنتيجة المنطقية لهذا القول ، ان الشيوعيين كانوا يسكتون عن حكام اسرائيل لو انهم كانوا فعلا يتسلحون للوقوف بوجه العرب ، ولكنهم يهاجمونهم لانهم مضللون منافقون لا يريدون استخدام السلاح لهذه الغاية ، بل لقمع الجماهير اليهودية المناضلة وللحرب ضد الاتحاد السوفييتي !

واذا تجاوزنا المغالطة الشنيعة الكامنة في هذا القول ، فاننا نريد أن نتساءل : الام يهدف الشيوعيون من اطلاق هذه الاكاذيب؟ والام ينتظرون ان يؤدي هذا التوجيه الذي يوهم العرب أن اسرائيل لا تتسلح لمتابعة عدوانها على الوطن العربي ؟ هل الا لتمييع حدة العداء العربي ضد اليهود ، وأهم من ذلك ، لايجاد نوع من الاطمئنان التخديري تجاه نوايا اسرائيل في الوقت الذي لا يجهل فيه طفل عربي أن اسرائيل تاخذ السلاح من الاستعمار لتوجهه الى صدور العرب لا الى جماهير اليهود لانه لا فرق بين الاثنين ، ولتعتدي به على الوطن العربي وتحقق أهداف الصهيونية لا لتعتدي على الاتحاد السوفييتي !

ثالثا : بالاضافة الى استمرار مؤامرة طمس جوهر قضية فلسطين بتمييع نقمة الشعب العربي

ضد الاغتصاب اليهودي بدعوى التفريق بين «اليهود والصهيونيين» في فلسطين ، تستمر مؤامرة طمس الالتقاء الكامل التام بين الاستعمار من جهة وبين اسرائيل كوحدة كلية ، وككيان ، وكدولة من جهة اخرى . ان الشيوعيين الغيورين جدا على حرية اسرائيل ، تجاهلوا عن وعي وتعمد ، أن الاستعمار لا يستعمر اسرائيل كما يدعي البيان المشترك ، ولكنه يساند اسرائيل في اغتصابها الذي يمثل شكلا نوعيا جديدا من الاستعمار افدح بكثير من شكل الاستعمار المعروف . وقد عادت هذه المغالطة الفكرية النضالية المتعمدة وشكلت مرة أخرى اساس نظرية الاخاء العربي اليهودي والدعوة للصلح مع اسرائيل بحجة وحدة كفاح الشعبين العربي واليهودي ضد الاستعمار والرجعية العربية والصهيونية !

* * *

واستمرت حلقات التآمر على مصير العرب القومي ..

في عام ١٩٥٠ شكل الحرس الوطني في الاردن ، وكانت هذه الخطوة ، من الزاوية القومية ، مشروعا جيدا يجب أن يدعم وأن يقوى ليصبح الحرس الوطني قوة فعالة تستطيع أن تساهم في حماية حدود الاردن الطويلة التي كانت مهددة من قبل اسرائيل أكثر من أية منطقة عربية أخرى ، فضلا عن أنها خطوة نحو تجنيد الشعب العربي في الاردن وفي الجزء العربي من فلسطين للقيام بواجبه تجاه فلسطين وابقاء قضيتها حية في أذهان الشعب . وضرب الشيوعيون عرض الحائط بكل هذه الاعتبارات ، وهاجموا الحرس الوطني على اساس الحجة القديمة المكرورة ، التي تثار بمناسبة ودون مناسبة ، والتي أصبحت شعارا يخفي الشيوعيون وراءه موقفهم المتآمر على قضية فلسطين ، فخرجت عصبة التحرر الوطني تقول « ان الحرس الوطني هو جزء من الاستعدادات التي يقوم بها الاستعمار لتهيئة حرب عالمية ثالثة ضد الاتحاد السوفييتي » .!

وفي حزيران عام ١٩٥١ أصدر الحزب الشيوعي الاردني ــ عصبة التحرر الوطني سابقا ــ برنامجه الذي سيخوض على أساسه الانتخابات ، ووعد البرنامج بـ « تأمين صلح ديمقراطي مع اسرائيل »! وقد عاد الشيوعيون واستبدلوا هذا البند في آب من نفس العام ــ بعد ان ادركوا ثقل وطأة هذه الجريمة على أسماع الشعب العربي ــ بـ «تقسيم فلسطين طبقا لقرارات هيئة الامم المتحدة عام ١٩٤٧ » ».

فهل كانت القضية المطروحة هي «ديمقراطية» الصلح مع اسرائيل أو عدم ديمقراطيته ، أم كانت جريمة الصلح نفسه الذي كان ، ولا يزال ، يعني تصفية قضية فلسطين نهائيا ؟ ان الشيوعيين لم يقفوا ليفكروا لحظة واحدة بالجريمة الجديدة التي كانوا يدعون الى ارتكابها ، ولم يكن قد جف بعد دم الشهداء العرب في فلسطين ، ولكنهم كانوا مهتمين جدا بأن يكون الصلح « ديمقراطيا » يحفظ حقوق اليهود كاملة ويمنع رجحان كفة العرب !

وعاد الشيوعيون في مصر واستمروا في مطالبتهم بتمزيق فلسطين ، اذ طالب البرنامج الوطني العام ١٩٥٠ ــ ١٩٥١ لحركة التحرر الوطني الديمقراطي ــ حديتو ــ بتطبيق قرارات التقسيم وانشاء دولة عربية مستقلة ديمقراطية في قسم من فلسطين .

ولكن الايام التي كانت تمر كانت تبرز وتظهر فضلا عن هذا الموقف الذي هو سلسلة لا تنتهي من التآمر والخيانة المكشوفة ، ذلك الحقد الحيواني الذي كان الصفة العامة المعبرة لكل موقف الشيوعيين من قضية فلسطين . فمهما تحدثنا عن الخيانات التي ارتكبت في معركة فلسطين ، الا أن أحدا لم تبلغ به الخيانة حد التنكر للنازحين من عرب فلسطين الذين شردوا عن ديارهم في نزوح جماعي لم تعرف البشرية لقسوته مثيلا . ان هيئة الامم المتحدة لم تستطع السكوت عن مأساة النازحين ، بل وحتى الدول الاستعمارية نفسها التي لعبت الدور الاول في اقرار التقسيم ثم في النكبة ، اضطرت تحت ضغط الضمير العالمي لان تساهم في اغاثة النازحين ، ولو دعاية وتظاهرا على الاقل .

ولكن الشيوعيين كان لديهم الاستعداد لان يذهبوا في خيانة هذه القضية أكثر مما ذهبت الدول الاستعمارية نفسها ، ولم يكن لحقدهم الحيواني الغريب تجاه قضية فلسطين من حدود يقف عندها .

ففي عام ١٩٥٢ قامت في مصر حملة تبرعات واسعة للنازحين العرب الفلسطينيين الذين لجأوا اثر النكبة الى قطاع غزة باعداد كبيرة . واطلق على القطار الخاص الذي سيحمل التبرعات الى مدينة غزة اسم قطار الرحمة . فماذا كان موقف الشيوعيين من هذه الحملة ؟ لقد هاجموها بعنف وهاجموا حكومة الثورة في مصر قائلين ان الشعب العربي في مصر لم يكن مسؤولا عن مأساة النازحين ، فهو اذن غير مسؤول عن التبرع لهؤلاء النازحين !! فلقد علقت

«راية الشعب» جريدة «الحزب الشيوعي المصري» عدد ٣١ ، على الحملة بقولها :

« في كلمة القاها احد العسكريين الفاشست من محطة الاذاعة ، بسبب الاحمق شعبنا (!) المكافح ، فيزعم « ان كارثة اللاجئين سبة في جبين الشعب المصري » ويطالبنا تبعا لذلك بالتبرع لما اسموه قطار الرحمة لاعانة هؤلاء اللاجئين .

« فهل نحن مسؤولون حقا عن كارثة اللاجئين ؟.

« .. فقد سيق الشعب المصري الى تلك المذبحة في ظل الاحكام العرفية الرهيبة والاستبداد المنكر المخيف ، كما سيق أبناؤه الى ساحة القتال ، يحصدهم الموت من الامام والخلف ...

« .. ان المسؤولين عن كارثة فلسطين ومحنة اللاجئين هم سادة محمد نجيب نفسه ، وهم الآمرون الناهون في عصابته الفاشية الحاكمة . ولكن هذه العصابة تزيف التاريخ لكي تحمي سادتها من المستعمرين والرجعيين والخونة (!) ، لكي تفرض المزيد من الاعباء على عاتق الشعب والوطنيين (!) .

« اما قطارات الرحمة فلن تحل مشكلة اللاجئين .. الحل الوحيد لمشكلة اللاجئين هو تكوين دولة فلسطين العربية الديمقراطية المستقلة ، وذلك بسحب هذه الجيوش الاجنبية التي تحتل اراضيها ، والكف عن اثارة الاحقاد العنصرية ضد اليهود . » !! (المصدر السابق ، ص ١٠) .

هكذا تنهار كل تلك المحاولات الفاشلة لصبغ خيانة الشيوعيين لقضية فلسطين بصبغة فكرية ، ويختفي كل ذلك الحشد من التحليلات النظرية المغلوطة التي قدمت لتبرير تأييد اغتصاب اليهود لفلسطين ، ليتكشف الموقف في حقيقته عن أبشع مشاعر الحقد والكراهية للعروبة .

ونحن لا نعتقد ان هناك موقفا يفوق هذا الموقف بشاعة .

فالشعب العربي غير مسؤول عن كارثة النازحين ، فلا دخل له اذن بمصيرهم ! ولكن الشيوعيين الذين لم تهز ذرة من احساسهم الميت مأساة مليون عربي يهيمون على وجوههم ، كانت قلوبهم السوداء الحاقدة طافحة بالمشاعر الانسانية تجاه «اليهود المساكين الذين عانوا طويلا من الاضطهاد في فلسطين » ..

والتبرع للنازحين « يزيد الاعباء على عاتق الوطنيين والشعب » ! والشيوعيون الوطنيون جدا ، بصفتهم حزب الشعب ، يقاومون بشدة زيادة الاعباء على عاتقه ! ولكن لا بأس ، بل من الضروري جدا ، مباركة الاغتصاب اليهودي الوحشي لفلسطين بكل ما فيه ، وتحويل الشعب العربي في فلسطين الى نازحين لا يجدون مأوى ولا طعام ، فهذا ابسط ما يقتضيه التضامن الاممي البروليتاري نحو البروليتاريا اليهودية الثورية التي تجمعت ضدها عام ١٩٤٨ اميركا وبريطانيا وفرنسا والحكومات العربية الرجعية ، خوفا من ملامحها التقدمية الاشتراكية !! هل تجرأ احد على دوس ابسط المشاعر القومية بل والانسانية باسم «الوطنية» بهذه الوقاحة التي داس بها عليها الشيوعيون ؟

اما الحل ، فهو في تأييد تمزيق فلسطين شرعيا ورسميا ، وسحب الجيوش الاجنبية والكف عن اثارة الاحقاد العنصرية ضد اليهود !

ما يسميه الشيوعيون بلا أي خجل « جيوشا اجنبية » هو الجيش العربي المصري الذي كان يعسكر في قطاع غزة . فهل نسي الشيوعيون الذين باركوا احتلال جيوش الصهيونية لفلسطين ، ان انسحاب قوات الجيش المصري من غزة كان يعني آنذاك حتما احتلال قوات اليهود فورا للقطاع ! ابدا .. وهذه دعوة صريحة لتوسيع الاغتصاب اليهودي باحتلال أراض عربية جديدة ، فما كانت تلك الدعوة ، في مثل تلك الظروف ، لتؤدي لغير هذه النتيجة الحتمية .

واخيرا .. فالنازحون يجب ان يتركوا لمصيرهم في الخيام ، لان كل محاولة للتعبير عن ابسط واجبات الشعب العربي تجاههم ، سواء عن طريق التبرع او غيره ، هي حملة فاشلة تعصبية تثير الاحقاد العنصرية ضد اليهود .. واليهود الآن يبنون دولتهم التي ستكون «جزيرة الديمقراطية في الشرق الاوسط» ومثل تلك الحملات تضر بتطوير الحركة الديمقراطية العالمية !! ان الشيوعيين في تبعيتهم المطلقة الذليلة للشيوعية الدولية ، لم يدوسوا فقط على حقوق العرب القومية ، بل تحولوا الى اجراء ذليلين للصهيونية العالمية . ولا نعتقد ان الحركة الصهيونية كانت ستجد ، مهما فتشت ، أجراء اطوع واخلص منهم لتنفيذ مخططاتها ضد مصير العرب وأهدافهم .

***

نحن الان في عام ١٩٥٣ . والاستعمار يعمل جاهدا ، منذ عام ١٩٥٠ بشكل خاص ، لفرض مشاريع الدفاع المشترك والاحلاف الاستعمارية على الشعب العربي . وكانت مؤامرات الدفاع المشترك والاحلاف تسير جنبا الى جنب مع مؤامرة فرض الصلح ، بين العرب واليهود فالاستعمار ، فضلا عن مصلحته في تقوية كيان اسرائيل عن طريق الصلح ، كان يدرك ان اهدافه في تحويل الوطن العربي الى قاعدة منسجمة متماسكة تدعم

مخططاته الاستعمارية ، لن تتحقق على الوجه الاكمل، الا بتصفية قضية فلسطين نهائيا ، وانهاء حالة الحرب والعداء بين العرب واليهود . ومنذ ان تأكد للاستعمار واليهود وبعض الحكام العرب العملاء استحالة تحقيق الصلح بشكل مباشر مكشوف نظرا للمقاومة الشعبية الهائلة التي جوبه بها مجرد التفكير بهذه الجريمة الجديدة ، لجأوا الى محاولة تحقيقه بشكل غير مباشر عن طريق الدفاع المشترك والاحلاف .

وفي هذه الفترة التي بلغت فيها مؤامرات الاستعمار واليهود والحكام العملاء اوجها لربط الشعب العربي بعجلة الاحلاف وتحقيق الصلح ، بلغت ايضا حملة الاحزاب الشيوعية في الوطن اوجها لتحقيق الصلح مع « اسرائيل » !!

ولنبدأ بالشيوعيين في سوريا ولبنان ، فان المغالطات الشنيعة التي حشدوها لتبرير جريمتهم الجديدة بعد جريمة ١٩٤٨ ، تعطي صورة نموذجية عن الحد الذي بلغه الشيوعيون في خيانة « العروبة بكل اقطارها وديارها » !

في الرسالة الداخلية الشهيرة التي وجهتها القيادة المركزية للحزبين الشيوعيين في سوريا ولبنان بعنوان « الى اعضاء اللجنة المركزية في اللجان المنطقية » كتلخيص للاجتماع الهام الذي عقدته القيادة المركزية، والتي قالت عنها انها بمثابة « دستور للحزب » نظرا لاهميتها القصوى ، وطالبت بالحذر الشديد كيلا تقع في يد « الاعداء والجواسيس » ! ، في هذه الرسالة بحثت القيادة المركزية قضية فلسطين من الزاويتين الفكرية والعملية (١) :

« وفي القضية الفلسطينية تبين للجنة المركزية ان الحوادث والتطورات اكدت وبرهنت صحة موقف الاتحاد السوفييتي من قضية التقسيم ، وبالتالي ، صحة الموقف الذي اتخذه الحزب بتأييد قيام دولتين مستقلتين عربية ويهودية في فلسطين ، والنضال ضد الحرب الفلسطينية رغم المقاومات التي لقيتها هذه الخطة من بعض العناصر المسؤولة في الحزب (!) ..

« ومن المهمات الرئيسية الموضوعة امام الحزب ، كما قررت اللجنة المركزية ، ايضاح مسألة فلسطين من الوجهة المبدئية ايضا . فاذا كان اليهود في العالم لا يؤلفون قومية **فان اليهود الذين تركزوا في فلسطين اخذوا يؤلفون امة في طريق التكوين . فلهم مثل جميع الامم والقوميات ، حق تقرير مصيرهم ، بصرف النظر عن الظروف** التي رافقت مجيئهم الى فلسطين ، وكذلك بصرف النظر عن الاتجاهات الرجعية المالئة للاستعمار الاميركي التي تتميز بهما البورجوازية اليهودية الصهيونية .. (!) . (ص ٩) .

« .. ان المستعمرين الانجليز والاميركيين والرجعيين العرب ، والرجعية الصهيونية ، هم جميعا يريدون بقاء العداء بين جماهير العرب واليهود لالهاء هذه الجماهير عن النضال ضد الاستعمار والاضطهاد وضد الاستعمار الانجليزي والاميركي وضد الرجعية الحاكمة نفسها (!) . كما ان اعمال الاضطهاد لليهود في الاقطار العربية ، وللعرب في دولة « اسرائيل » ترمي لنفس الغاية . فمسألة العمل لسيادة السلام والتقريب بين الجماهير العربية واليهودية، وفضح مآرب اليهود الصهيونية والرجعيين العرب من منع سيادة السلام والصداقة بين الشعبين هي مسألة هامة جدا لاجل تطوير النضال الوطني الديمقراطي في الاقطار العربية في الحاضر والمستقبل.

« وينبغي القيام بنضال لاهوادة فيه ضد دعايات الرجعيين وبعض الذين يسمون انفسهم « القوميين العرب » القائلة بأن الخطر الصهيوني اعظم من الخطر الاستعماري ، أو أن الخطر الاستعماري يمكن زواله ولكن الخطر الصهيوني اذا تمركز فلا يمكن استئصاله . وينعكس ذلك احيانا في دعاية بعض رفاقنا الذين يتأثرون بهذه الاتجاهات ... ويشبه ذلك قول البعض ان الدولة اليهودية في فلسطين ، كدولة ، تؤلف خطرا على الشعوب العربية . فالحقيقة هي أولا : ان الصهيونية هي خطر لانها عميلة الاستعمار الاميركي الانجليزي. فمن هنا منشأ خطرها الاكبر . ثانيا : ان الدولة اليهودية هي ، مثل كل الدول البورجوازية ، **ليست كلا موحدا متجانسا** فالنظرة اليها بهذا الشكل هي نظرة **قومية بورجوازية** شوفينية (!) ومثل ذلك قولنا ان الانجليز من حيث هم امة او دولة هم خطر على جميع شعوب العالم . فهنا ننكر وجود الطبقة العاملة الانجليزية التي يكفي ان تحطم حكم البورجوازية وعملائهم الاشتراكيين اليمينيين وان تتولى هي الحكم بقيادة حزبها الشيوعي ، حتى تصبح الدولة الانجليزية مثلا قوة تقدمية في العالم . يجب ان نذكر دائما قول ماركس بأن في الامة امتين . **وذلك يصح على الدولة اليهودية التي تناضل فيها الجماهير الشعبية اليهودية ، وفي مقدمتها العمال اليهود وطليعتهم الحزب الشيوعي في اسرائيل ، لاجل التحرر الوطني الديمقراطي ولاجل الاشتراكية** . مثلهم مثل الجماهير الشعبية العربية والعمال العرب . فكما ان الخطر على الجماهير

---

(١) : مقررات القيادة المركزية بعنوان « قضية فلسطين » ،وهي تتمة للمقررات التي اتخذت بصدد الوحدة بعنوان « موقفنا من القضايا العربية وقضية فلسطين » .

العربية هو من فئات الاقطاعية والبورجوازية الحاكمة الرجعية عميلة الاستعمار ، فكذلك الخطر في دولة اسرائيل ناشىء من البورجوازية الصهيونية الرجعية عميلة الاستعمار • ولا ريب أن احسن وسيلة لاجل التعجيل في تعميق التفريق الطبقي بين العمال والجماهير اليهودية من جهة ، والبورجوازية الصهيونية من جهة اخرى ، هي استتباب السلام في فلسطين ، وقيام دولتين مستقلتين ، عربية ويهودية ، فان ذلك ينزع سواء من الحكام الرجعيين اليهود او من الحكام الرجعيين العرب ، وطبعا من سادتهم المستعمرين ، سلاحا هاما ، اذ يمكن اذ ذاك النضال بصورة أنجع للتقرب وقيام اواصر صداقة وتفاهم بين الجماهير الشعبية العربية واليهودية » • (ص ٨ — ١١) .

هذا هو موقف الشيوعيين من قضية فلسطين ومن الصلح في أوج فترات الضغط الاستعماري اليهودي لفرض الصلح ، وبعد سنوات من النكبة . وهذه المقررات للقيادة المركزية للحزبين الشيوعيين في سوريا ولبنان ، تدل على احتمالين لا ثالث لهما : اما انها تعبير عن مستوى فكري سياسي ضحل لدرجة مخجلة ، واما انها تجسيد للخيانة لدرجة مخزية . ليس من احتمال ثالث . ونحن نجزم بصحة الاحتمال الثاني ، قطعا .

هذا الموقف الذي بني على مغالطات فكرية وسياسية تزور الاحداث وتعكس الحقائق بنفس الاسلوب المهين في استغباء الشعب العربي لا يجوز المرور عليه ببساطة .

اولا : لن نناقش الشيوعيين اقرارهم بأن اليهود يؤلفون امة ، وان لهم كباقي الامم « حق تقرير المصير » على اشلاء المصير القومي للعرب ، فقد أصبح من العبث الاستمرار بهذه المناقشة بعد أن رأينا الطريقة المضحكة التي اعترفوا بها بأن اليهود امة ، والتي لم يكن يفصل فيها بين المعارضة الشديدة لهذه الفكرة ، والتأييد الشديد لها الا ايام أو ساعات معدودة .. لن نناقش هذه القضية ، لاننا نعلم انها تقررت نتيجة للتبعية العمياء للشيوعية الدولية لا نتيجة لمبررات فكرية ، وانه مذ شد غروميكو الخيط في جلسة هيئة الامم مقرا التقسيم ، تحرك الحصان الخشبي في كل مكان ليردد « صوت سيده » .. ولكن ما يهمنا ان نشير اليه ان الشيوعيين يعترفون بأن لليهود حق تقرير المصير ، اي حق اغتصاب فلسطين واقامة دولة اجنبية فيها « بغض النظر عن الظروف التي رافقت مجيئهم » ، اي رغم انهم جاءوا لفلسطين غزاة مغتصبين بمعاونة الاستعمار الانجليزي !!

ثانيا : و « اسرائيل » لا تؤلف ، كدولة ، خطرا على العرب .. لأن الدولة اليهودية ليست متجانسة .. ففيها رجعيون ، وفيها تقدميون هم العمال اليهود وطليعتهم الحزب الشيوعي اليهودي الذي يناضل من أجل الديمقراطية والاشتراكية .. وحين يستلم الحزب الشيوعي اليهودي الحكم تصبح « اسرائيل » قوة تقدمية !!

يا للدجل ..

ان « اسرائيل » ، تغتصب ارض العرب وتؤلف خطرا عليهم ، **كدولة وككيان** ، بكل ما في هذه الدولة من قوى ومنظمات واتجاهات واحزاب ، بما في ذلك العمال اليهود والحزب الشيوعي اليهودي وكافة القوى التي تسمى زيفا تقدمية . ان « اسرائيل تعطي في هذا الصدد نموذجا مختلفا قائما بذاته لا يمكن مقارنته بأية دولة اخرى . « فاسرائيل » **ككيان وكدولة** وجدت اصلا ، ومنذ البدء ، على اساس العدوان والاغتصاب ، ووجدت منذ البدء بالتالي ، على أساس رجعي مناف للواقع التاريخي ومناف للحق وللديمقراطية وللتقدمية . فكافة القوى والتيارات التي ساهمت في اقامة هذا الكيان العدواني ، هي قوى غاصبة عدوانية مهما كانت الاسماء التي تتسمى بها . ان هذا القول هو دجل مفضوح سواء على الصعيد النظري الفكري ، او سواء على الصعيد العملي كما اثبتت الاحداث قبل النكبة وأثناءها وبعدها •

فحتى عام ١٩٤٨ كان الشيوعيون يهاجمون بشدة فكرة « الوطن القومي اليهودي » وفكرة اقامة دولة يهودية . اذن نريد ان نسأل واضعي هذا الدجل المفضوح : لماذا هاجرت هذه الجموع من العمال اليهود ومن الشيوعيين اليهود الى فلسطين اذا كانت لا توافق حقا على قيام دولة « اسرائيل » في فلسطين ؟ فهل دخل العمال اليهود والشيوعيون اليهود الى فلسطين خفية تارة ، وبمساعدة الاستعمار الانجليزي تارة اخرى ، رغم انهم لا يوافقون على الهجرة اليهودية الغازية ولا على قيام دولة يهودية غاصبة ؟!!

من يعتقد الشيوعيون المتآمرون انهم يستغبون بهذا الكذب الرخيص ؟

وبعد ذلك .. من الذي حارب العرب في فلسطين عام ١٩٤٨ ، هل حاربنا « الصهيونيون » فقط ، أم حاربنا الشعب اليهودي بكافة منظماته واتجاهاته وتياراته ؟ ومن الذي حاربنا في العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ، هل حاربنا « الصهيونيون » ام حاربنا « اسرائيل » **كدولة وككيان بكافة منظماتها** واحزابها وتياراتها ، وبما فيهم العمال اليهود

والشيوعيون اليهود ؟ وفى حالة وقوع حرب قادمة سيحاربنا فيها اليهود ايضا ككل واحد متماسك .

ونحن لم نسمع قط ــ بعد ــ باتجاه اشتراكى ديمقراطى حقيقى غير مزيف يسير ضمن المخطط الصهيونى مئة بالمئة ، ويعمل لخدمة اهداف الصهيونية منذ بداية عملها حتى هذه اللحظة ! فاذا كانت « اسرائيل » دولة غير متجانسة فى نطاق كيانها الداخلى ، واذا وجد فيها تيارات اشتراكية فانها متجانسة كل التجانس ، موحدة كل التوحيد ضد الشعب العربى وحقوقه ، فكل قواها وتياراتها مهما اختلفت اتجاهاتها داخليا ، تعمل خارجيا ضد العرب ككيان واحد ودولة متجانسة . ولسنا بحاجة لكثير من الشرح لنبين ان مثال دولة انجلترا لا ينطبق ابدا على مثال كيان « اسرائيل » كما لا ينطبق عليها ايضا حال اية دولة من الدول .

ثالثا : وعلى أساس هذه المغالطة الفكرية تبنى المؤامرة السياسية التى تنطوى على مغالطة أكبر .

« فالمستعمرون الانجليز والاميركيون والرجعيون العرب والرجعية الصهيونية » هم الذين يريدون بقاء العداء بين العرب واليهود ويقاومون سيادة السلام بينهما ! أى انهم هم الذين يقاومون الصلح بين العرب و « اسرائيل » ! ولذلك .. فان تحقيق الصلح بين « الشعبين الصديقين العربى واليهودى » بعزل الاستعمار والرجعية هو الضربة الكبرى التى توجه للاستعمار والصهيونية !!

وهذه المغالطة التى تعكس منطق الاحداث والواقع راسا على عقب ، بنيت هى الاخرى على الفكرة الاساسية فى النظرية الشيوعية التى تقول : ان البورجوازيات فى الدول المختلفة تميل دوما للتفاهم مع بعضها البعض لمقاومة النضال الطبقى الموجه ضدها من الطبقة العاملة فى كل امة . وعلى هذا الاساس ، فالحكام اليهود والحكام العرب تجمعهم مصلحة واحدة فى استثمار شعوبهم وكبت نضالهم الطبقى ، والشعب العربى والشعب اليهودى تجمعهما بالمقابل مصلحة واحدة فى النضال ضد البورجوازية العربية واليهود !

وليسمح لنا « الاشتراكيون العلميون » ان نقول لهم ان نظريتهم بصدد قضية « اسرائيل » والعرب هى خاطئة بصورة مطلقة ويرفضها الواقع رفضا تاما .

لقد قامت « اسرائيل » على اغتصاب الجزء الاكبر من فلسطين ، وليست الصهيونية هى التى تغتصب الارض العربية ، وانما هم كافة يهود « اسرائيل » . ومصلحة الشعب العربى ــ فضلا عن حقه ــ ليس لها الا تعبير واحد فى هذا الصدد هو : طرد اليهود الغاصبين وتهديم كيان « اسرائيل » واسترجاع الارض العربية . واليهود فى « اسرائيل » يقاومون هذا الاتجاه بضراوة . اذن ، فعن اية مصلحة مشتركة بين « الجماهير العربية والجماهير اليهودية » يمكن ان نتحدث ؟ وعن اية صداقة ؟ وعن أى سلام ؟ ان نضال الشعب العربى معاكس على طول الخط لاهداف « اسرائيل » ويهود « اسرائيل » ، بل هو موجه بالضبط ضد هذه الاهداف .

* * *

ولكن هذه المؤامرة السياسية لتحقيق الصلح والتى يسخر الشيوعيون النظرية الشيوعية لتبريرها ، يتمزق آخر ثوب عنها حين ننتقل من نطاق ذلك المنطق الفكرى المفلوج ، الى نطاق الاحداث السياسية العملية .

فالاستعمار والصهيونية هما اللذان يقاومان الصلح بين العرب واليهود ! بينما أن مصلحة الشعب العربى هى فى المسارعة لعقد هذا الصلح !

ان مبلغ السخف الكامن فى هذه الدعوة يجعل هذه الخيانة مكشوفة حتى للاطفال العرب . وهى لا تستحق مجرد المناقشة .

ولكننا قبل أن نختتم تعليقنا على هذه المقررات التاريخية للقيادة المركزية للحزبين الشيوعيين فى سوريا ولبنان ، والتى تقول القيادة المركزية أنها يجب أن تكون « دستورا لعمل الحزب » ، نريد أن نسأل الشيوعيين :

لمصلحة من كانوا يستميتون فى ايهام الشعب العربى أن « اسرائيل » التى تعمل ليل نهار لتدعيم كيانها وتوسيعه بالاعداد لاغتصاب جديد ، ليست خطرا على العرب ؟

ولمصلحة من استماتوا فى ايهام الشعب العربى أن الصلح هو ضمانة هامة جدا لتطور نضاله الوطنى الديمقراطى فى « الحاضر والمستقبل » ؟! هل كان الشيوعيون السوريون واللبنانيون ، هنا أيضا ، يجهلون أن الصلح يعنى اقرارا نهائيا من العرب بشرعية الحق القومى اليهودى الزائف فى فلسطين ؟ وانه استسلام نهائى للاغتصاب اليهودى ؟ هل كانوا يجهلون ان الصلح الذى سيجعل « اسرائيل » مصنعا ضخما ــ يدعمه الرأسمال العالمى والخبرة الفنية ــ فى وسط زراعى متخلف ، سيؤدى الى تدمير الاقتصاد العربى وجعله تابعا للاقتصاد اليهودى فى « اسرائيل » وفى العالم ؟ وان الصلح سيفسح المجال أمام

« اسرائيل » لان تحقق برامج الهجرة واعداد الجيش اليهودي وتقويته لتوسيع اغتصابها ؟

اذن ، لمصلحة من تجاهل الشيوعيون كل هذه المترتبات الفادحة الخطورة ، ودعوا لجريمة الصلح بذلك الحماس ، وحاولوا الباسه ثوبا فكريا وتسخير النظرية الشيوعية لتبريره بالنتيجة ؟

* * *

واستمرت الحملة تسير جنبا الى جنب مع الضغط الاستعماري اليهودي لفرض الصلح .

وكتبت « راية الشعب » - جريدة « الحزب الشيوعي المصري » السرية - تقول في ٣ تشرين الثاني « نوفمبر » ١٩٥٣ ، بعنوان « يجب حل مشكلة فلسطين المعلقة والانسحاب من الجامعة العربية » :

« ... ان حكومة اسرائيل مثل الحكومات العربية الخائنة تجعل من فلسطين قرحة لا تندمل بل تنزف دائما . ولكن الشعوب العربية الكافحة وشعب اسرائيل المناضل تنادي بحل مشكلة فلسطين حلا سلميا نهائيا . وان الوطنيين المصريين يطالبون بالانسحاب فورا من الجامعة العربية الاستعمارية وعقد صلح مع اسرائيل على أساس اقرار حق اللاجئين العرب في تكوين دولتهم المستقلة ... »

ولنذكر أن هذا الكلام عن الشعب اليهودي « المناضل » قد قيل بعد خمسة عشر يوما من الاعتداء الوحشي الذي قام به اليهود على قبية في ١٥ تشرين الاول ١٩٥٣ !

* * *

وفي نفس هذه الفترة وبعد اسبوع واحد من مجزرة قبية ، وبعد ست سنوات من النكبة لم يخل شهر منها من اعتداء يهودي على العرب ، أصدر الحزب الشيوعي العراقي بيانا الى الشعب نشر في جريدة « القاعدة » - الجريدة الرسمية للحزب - بتاريخ ٢٢ تشرين الاول ١٩٥٣ ، بعنوان « الاستعمار الاميركي والانجليزي يدفعان حكومة اسرائيل للاعتداء على سكان العرب الابرياء ، والرجعية العربية الحاكمة الخائنة ، اخذت تهيىء الجو بأمر من المستعمرين الاميركان والانجليز ، لاعادة الجولة الثانية من مهزلة الحرب الفلسطينية ! » جاء فيه :

« يا جماهير شعبنا العظيم :

« لا بد وانكم قد اطلعتم ، وتبينت لكم ولجميع الشعوب العربية ، على ما قام به الاستعماريون الانجليز والاميركان من مؤامرة دنيئة في اثارة الحرب الفلسطينية ، عام ١٩٤٨ ، من أجل تقسيم مناطق النفوذ بينهما على حساب أشلاء ودماء الضحايا من الكادحين العرب واليهود ... ان الغاية الاساسية لابقاء القضية الفلسطينية هي أن تتخذ من هذه القضية (قميص عثمان) ، ومتى أراد الاستعماريون تنفيذ خططهم الاجرامية فيمكن أن يجعلوا من هذه المشكلة ذريعة لضرب الحركات الوطنية التحررية وتصفية الحركات الديمقراطية ، وفرض مشاريعهم العدوانية الحربية على شعبنا والشعوب العربية ، ولصرف انتاجهم الحربي على حساب قتل الكادح العربي لاخيه الكادح اليهودي ... » (١) .

« ان الرجعية العربية الحاكمة وحكومة اسرائيل الصهيونية ، تعملان بكل الوسائل الدنيئة لتنفيذ أوامر وخطط الاستعمار الانجلو - أميركي لفرض مشاريعها الحربية العدوانية . فالاعمال التي تقوم بها الجيوش الاسرائيلية ضد السكان العرب الآمنين الابرياء ، والاعمال الاستفزازية التي يقوم بها جيش كلوب باشا والجيوش المصرية ضد السكان اليهود البسطاء الابرياء ، ما هي الا تمهيدا لخلق جو ملائم لاعادة مهزلة الحرب الفلسطينية مرة ثانية .

« ... ان حكومة الجمالي الخائنة الخانعة ، تسلك سبيل الاجرام والخيانة الوطنية المكشوفة لارضاء الاسياد المستعمرين ، بزج شعبنا في حرب قذرة ... وان شعبنا وجميع شعوبنا العربية وشعب اسرائيل الشقيق ، يناضلون ضد هذه المؤامرة الدنيئة وضد هذه الحرب المجرمة ، ويناضلون أيضا من اجل حل القضية الفلسطينية حلا عادلا جذريا ، وهو تاليف حكومة عربية مستقلة ديمقراطية محبة للسلم في القسم العربي من فلسطين وارجاع جميع اللاجئين العرب الى ديارهم، وايجاد علاقات أخوية ، اقتصادية وثقافية بين الشعبين العربي والاسرائيلي على أساس المنفعة المتبادلة ، وعدم السماح للمستعمرين باتخاذ اسرائيل وبلداننا العربية قواعد حربية عدوانية ، وعدم الارتباط بأي مشروع استعماري حربي عدواني ، وجلاء جيوش كلوب باشا من اراضي القسم العربي من فلسطين ، وكذلك جلاء الجيوش المصرية منها ، هذا هو الحل الصحيح لقضية فلسطين . (١) »

« يا جماهير شعبنا المجاهد ...

« ان خونة شعبنا الحاكمين المحليين الخانعين للمستعمرين يحاولون زج أبناء شعبنا في مهزلة الحرب الفلسطينية مرة أخرى . فينبغي على جميع

القوى الوطنية ان تهب بوجه حكومة الجمالي الخائنة ضد مؤامرة الحرب الفلسطينية القذرة .. (ا)

« ليعيش نضال شعبنا من أجل احباط هـــذه المؤامرة الدنيئة . ليسقط المستعمرين . لتســـقط مؤامرة الحرب الفلسطينية القذرة .. » (١)

ان هذا البيان الذى صيغ بهذه اللهجة اليهودية الصهيونية الحاقدة ، هو نسخة اخرى من المغالطات الشنيعة التي تغلف بها ـ فضلا عن خيانة قضـــية فلسطين ـ مؤامرة فرض الصلح بين العـــرب واليهود .

وحين يساق مثل هذا الكلام الذى يطل منه هذا الحقد الحيوانى بعد ستة اعوام من النكبة فليس لنا ان نمر عليه ببساطة .

حين يقال بعد ستة أعوام من قيام « اسرائيل » أن الاستعمار الاميركى والانجليـــزى والحكومات الرجعية المرتبطة به ، هى التى تهيىء للحرب ضـــد اليهود وتغذيها ، فى وقت اثبتت فيه هذه السنوات الست لكل انسان فى العالم أن الاستعمار هو السند الاول « لاسرائيل » ، وأنه يمدها بالقروض الخيالية، ويدعمها فى المجال الدولى ، ويستميت لتحقيق أهدافها بفرض الصلح على العرب ، وانه مستعد لان يوقف بالقوة أى حرب حقيقية يشنها العرب ضد «اسرائيل» لاسترجاع وطنهم السليب ، فلا يجوز أن نقول أن الشيوعيين يجهلون ذلك ، بل هم يتجـــاهلون ذلك لتبرير خيانتهم القديمة ولتثبيت مؤامرتهم الجديدة .. الصلح .

وحين يقال بعد ست سنوات من النكبة وبعد كل المجازر التى ارتكبها اليهود ، أن جيش مصر يعتدى على « اليهود البسطاء الابرياء » ، وان شـــــعب « اسرائيل » الشـــقيق لا يريد ان يحارب العرب ، وانه يجب أن تقوم بين العرب واليهـــود علاقات اخوية اقتصادية وثقافية ، فليس لنا الا أن نقـــول ان الحركة الشيوعية قد تحولت عمليـــا الى فرع للحركة الصهيونية ، يعمل لطعن نضـــال الشعب العربى وقطع أنفاسه فى أبشع مؤامرة حيكت عـــلى المصير العربى .

وحين يتحدث حزب عن نضال العرب العادل ضد الاغتصاب اليهودى بهذه الاوصاف الوقحة ، ويدعى أن عملاء الاستعمار من الحكام العرب يعملون لتهيئـــة حرب ضد اليهود ، فى وقت اصـــــبح معروفا لكل انسان ، ان هؤلاء الحكام هم الذين تخاذلوا فى حرب فلسطين ومكنوا اليهود من اقامة دولتهم الغاصبة . فلا يجوز ان نفسر هذا الموقف بغـــير انه مؤامرة رخيصة لصبغ نضال العرب ضد الاغتصاب اليهودى بالصبغة الاستعمارية الرجعية من جهة ، ومنــــع الشعب العربى من الاعداد لاسترجاع أرضه من الغزاة من جهة ثانية .

واستمرت حلقات الخيانة تتتابع ..

وفى نفس شهر تشرين الاول ١٩٥٣ ، عـــادت جريدة « القاعدة » لسان الحزب الشيوعى العراقى ، فجددت دعوتها للصلح و «محبتها» للشعب اليهودى الشقيق وأسفها للظروف غير الاعتيادية التى تمنـــع تلاقى « الاشقاء » .

« ان شعوبنا العربية تكن للشعب الاسرائيـــلى الشقيق أخلص الاحترام والاخوة الصـــادقة . أما الظروف غير الاعتيادية الموجودة فى الوقت الحاضر، فهى ليست تعبيرا لارادة الشعوب العربيـــة ، بل خلقتها الاوساط الاستعمارية والزعامات العربيـــة الرجعية والصهيونية الاسرائيلية ، ولا يمكن أن تكون هذه الظروف الغير اعتيادية تعبيرا عن وجهة نظر واتجاه الشعوب العربية وشعب اسرائيل ، ولهذا فالشعوب العربية تناضل ببسالة جنبا الى جنب مع الشعب الاسرائيلى لاعادة العلاقات الاخـــــوية الصادقة . » !

والجدير بالذكر أن الحزب الشـــيوعى العراقى الذى يزور مشاعر الشعب العربى تجاه اليهـــود الغاصبين بهذا الشكل ، والذى يتحدث بهذا الحماس عن احترامه لليهود الاشقاء ويطالب بتحقيق الصلح وعودة العلاقات ، لم يكتب مقالا واحدا يطالب فيـــه بالوحدة العربية ، أو يطالب فيه بشكل جـــدى بتنمية العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية بين أجزاء الامة العربية !

ومع نمو تيار الحركة القومية العربيـــة الذى أطلقته فداحة النكبة فى صفوف الشعب العـــربى ، ومع ازدياد ضغط الاستعمار لفرض الاحـــلاف التى خطط لها ان تكون واسطة جمع الحكومات العربيـــة « واسرائيل » وفرض الصلح عمليـــا على الشعب العربى ، استمر الشيوعيون فى العمل لتثبيت كيان اسرائيل » بالدعوة لتحقيق الصلح .

ففى ٢٦ كانون الثانى ١٩٥٤ كتبت جـــريدة « القاعدة » لسان حال الحزب الشيوعى العراقى فى عددها الحادى عشر تقول :

---

(١) : ذيل البيان بتوقيع : « مطبعة القاعدة ـ الحـــزب الشيوعى العراقى » .

« ولقد اخذت الفئات الحاكمة فى البلدان تطبل وتزمر من جديد بشكل اكثر جنونية من السابق لاثارة روح الكراهية القومية ضد الشعب الاسرائيلى الشقيق ، وراحت الصحف المأجورة والاجتماعات تحت ستار القومية والدين تمهد لاثارة حرب قذرة فى فلسطين • وأخذت الحكومات العربية الخائنة تعد العدة بكل الوسائل لاعادة الجولة الاولى للحرب الفلسطينية القذرة ••

« والحل العلمى الصحيح وبصورة جذرية هو تقسيم فلسطين لتكوين دولتين صديقتين من الشعب الاسرائيلى والشعب العربى " »

مرة أخرى : هل كانت الحركة الصهيونية تجد اجراء اخلص من الحركة الشيوعية فى الوطن لكبح المد القومى الشعبى الثورى الهادف لتطهير الوطن العربى من الاغتصاب اليهودى ؟

* * *

اما حركة انصار السلم ، فلم يكن موقفها باعتبارها منظمة واجهة للاحزاب الشيوعية ، الا الموقف المتآمر نفسه لهذه الاحزاب •

ففى « مؤتمر شعوب الشرق الادنى والاوسط » الذى انعقد فى بيروت عام ١٩٥٣ ، رفض المؤتمر اتخاذ قرار بشأن قضية فلسطين يقضى باسترداد الارض المغتصبة ! ورغم أن الشيوعيين فى هذا المؤتمر قد بحثوا جميع القضايا العالمية من افريقيا حتى فورموزا والفيتنام ، الا انهم ابوا بحث قضية فلسطين واتخاذ قرار يشجب الاغتصاب اليهودى (١)

ولكن اكثر ما يتضح هذا الموقف الخائن لحركة انصار السلم تجاه قضية فلسطين ، ومؤامرة الصلح ، فى الخطاب الذى وجهه « يوسف حلمى » رئيس حركة أنصار السلم فى مصر ، فى ١٤ تشرين الثانى عام ١٩٥٥ الى اليهود فى « اسرائيل » والى الرئيس جمال عبد الناصر ، ونشر هذا النداء فى الصحف الشيوعية الاجنبية ، وفيه يقول :

« •• ظلت ابواق الاستعمار وعملائه تثبت فى رأينا العام مشاعر الكراهية والتعصب وسوء الظن ضد اسرائيل ، وتفعل فى أسرائيل مثل ذلك ضدنا ، لابقاء حالة التوتر قائمة •• بحيث منعت كل تفكير فى امكان تحقيق سلام عادل وحل هذه المشكلة بالطرق السلمية •

« •• فالاستعمار سوف يضع كل عراقيل ممكنة فى طريق أى حل سلمى . لان اقرار السلام بين الدول العربية واسرائيل سوف يحطم راس الحربة المصوبة الى ظهورنا والى قلب سياسة الاستقلال الوطنى (!)

« •• ولكن ماذا بعد ذلك ؟ هل هذا يكفى ؟ ان جعبة الاستعمار لن تخلو من الحيل والمكائد ، فلماذا لا نقطع رأس الافعى وننتهى ؟

« اما كيف نقطعها •• فتلك هى المسالة كما يقول هاملت •

« سيقول بعضهم ، وهم موجودون فى معسكرك وحولك •• نلقى باسرائيل الى البحر "

« ولا شك فى انك معى فى أن أقل ما يستحقه قائل هذا الهذر أن يموت ضربا بالنعسال لا بشىء آخر• ان اسرائيل قد وجدت وستوجد، وسيستحيل القاءها فى البحر (!)

« واذن ؟

« وهنا يقتضى الموقف بعض الايضاح ؟

« ينبغى أن نفرق تفريقا دقيقا بين حكومة اسرائيل والعناصر الاستفزازية فيها ، وبين جموع الشعب الذى يستوطن هذه الدولة ، والذى يحمل وحده أعباء الحرب ومهالكها ، والذى يسقط رغما عنه فريسة للدعاية المسمومة المسلطة عليه ليل نهار (!) ••

« والآن كيف السبيل الى التنفيذ ؟

« أرأيت الى الاتحاد السوفييتى كيف يرفع شعارات السلام الى أعلى مكان فى سياسته الداخلية والخارجية ؟

« •• ارأيت كيف تنتصر سياسة السلام هذه وكيف تتراجع سياسة الحرب •؟

« لماذا لا تفعلون مثل ذلك ؟ لماذا ترفضون دعوة بن غوريون ؟ (!) ••

« •• لماذا لا تخاطبون شعب اسرائيل بكل اللغات شارحين له قضية السلام الحقيقية ؟••

« لماذا لا تقولون له لقد انقضى عهد الحكومات الملكية الخاضعة للاستعمار ، والتى كان من مصلحتها المشتركة مع الاستعمار ابقاء حالة التوتر واشاعة الكراهية والبغض والحذر بين العرب واليهود ، وبان

---

(١) : صفحات مجهولة من تاريخ الحزب الشيوعى فى سوريا ولبنان » جه محمد على الزرقا ، الياس مرقص •

البلاد العربية دخلت في طور استقلالي جديد لا ينكر حقوق الشعب الاسرائيلي ، ولا يريد سوى حقوق الشعب العربي ومصالح الشعبين لا تتناقض ؟ (١)».

« واخيرا ، فان الحل العملي هو ان تطلبوا عقد مؤتمر دولي مثل مؤتمر جنيف الذي حقق السلام في الهند الصينية ، على أن يضم هذا المؤتمر الدول العربية واسرائيل ودولا من مؤتمر باندونغ فضلا عن الدول الاربع الكبرى ».

« ... فلتخرجوا ايها الناس من السياسة القوقعية التي حبسنا فيها الاستعمار وأصحاب المصالح من شركائه . فلتطلبوا عقد مؤتمر على نطاق دولي ... لاقرار السلام في اسرائيل ... فلتبدو الاستعداد للاعتراف بحقوق الشعب الاسرائيلي في دولته التي لم يفدنا الموقف السلبي منها الا أن تبقى حكومتها سلاحا بيد الاستعمار ... »

هذا هو رأي « انصار السلم » المنظمة الواجهة للحركة الشيوعية في معركة فلسطين ! ان الخيانة التي تتفق من بين سطورها لا تحتاج لاي تعليق .

* * *

بعد تحول السياسة السوفييتية تجاه الوطن العربي منذ عام ١٩٥٥

منذ عام ١٩٥٥ ابتدأ الاتحاد السوفييتي يجري بعض التغيير في سياسته الخارجية انعكست في المواقف الودية التي ابتدأ يتخذها ازاء الحركات القومية التي تكافح للتحرر من سيطرة الاستعمار الغربي . وكان هذا التغيير هو بدء التحول عن السياسة السوفييتية السابقة التي كانت تحارب بشدة فكرة الحياد الايجابي ، وتتخذ بالتالي موقفا مختلفا تجاه حركات التحرر القومي التي تتبنى هذه الفكرة . ولا يهمنا ان نناقش هنا فيما اذا كان التغيير الذي اتى به خروشوف هو تغيير مبدئي أم تكتيك مصلحي ، ولكنه من الواضح انه بني على القاعدة القائلة : بأن موقف الجفاء تجاه حركات التحرر القومي في آسيا وافريقيا ، سيؤدي الى زيادة سيطرة الاستعمار الغربي على هذه الاقطار وتقويته ، وان مساندتها هو احسن وسيلة للاسراع في اضعافه وتحطيمه .

وكان التقرب من الحركة القومية العربية ، يتطلب ضمنا اجراء تعديل في موقف السياسة السوفييتية السابق المؤيد لقيام « اسرائيل » ، والعامل لتثبيت كيانها بتحقيق الصلح بين العرب واليهود . ذلك ان الشعب العربي ، من جهة أولى ، لم يكن يفصل معركته مع الاستعمار عن معركته مع « اسرائيل » ، كما أن الاستعمار من جهة ثانية ، لم يكن يفصل كذلك مخططاته لتدعيم سيطرته في الوطن العربي عن سعيه الدائم لتدعيم اركان « اسرائيل » فيه .

وكانت صفقة الاسلحة التشيكية عام ١٩٥٥ اول تعبير رسمي عملي عن تغير السياسة السوفييتية تجاه بعض جوانب معركة العرب التحررية . ولكن التغير في سياسة السوفييت تجاه بعض جوانب قضية فلسطين ، أتى بعد العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ . ويهمنا أن نؤكد بشكل خاص هنا ، اذا استثنينا البيان الذي أصدرته وزارة الخارجية السوفييتية في ١٧ نيسان ١٩٥٦ والذي هاجمت فيه « اسرائيل » ولاول مرة هجوما عنيفا ، على التصريحين اللذين أعطاهما بولجانين وخروشوف بصدد قضية « اسرائيل » آنذاك . فقد صرح بولجانين قائلا : أن وجود « اسرائيل » ككل يجب أن يعاد النظر فيه بعد اشتراكها في العدوان الثلاثي ... وصرح خرشوف قائلا : ان اليهود لا يملكون خصائص تكوين مجتمع ثابت .

ولسنا بحاجة لكثير من التفكير لندرك ، منذ الوهلة الاولى ، أن هذين التصريحين يشكلان موقفا فكريا وسياسيا جديدا مناقضا كل المناقضة لموقف الاتحاد السوفييتي السابق .

في عام ١٩٤٧ اعلن غروميكو ان اليهود امة لها جذور تاريخية في فلسطين(*)

وفي عام ١٩٥٧ أعلن خروشوف ان اليهود لا يمتلكون مقومات تكوين مجتمع يهودي متميز ثابت ، أي ، أنهم لا يملكون مقومات الأمة .

وطيلة الفترة الممتدة بين عام ١٩٤٨ ــ ١٩٥٥ ايدت الشيوعية الدولية « وجود اسرائيل » . وفي عام ١٩٥٦ ، ١٩٥٧ ، أعلن بولجانين أن « وجود اسرائيل » يجب أن يعاد النظر فيه .

يحق للشعب العربي ان يتساءل ، بناء على أي اساس فكري ، وعلى أي منطق سياسي اذن ، بنت الشيوعية الدولية موقفها الفكري والسياسي السابق تجاه قضية فلسطين والاغتصاب اليهودي ؟!

ولكن لنترك موقف الشيوعية الدولية جانبا ، فما يهمنا هنا هو موقف الشيوعية المحلية في الوطن العربي في هذه الفترة . لقد كان عليها ان تركض لاهثة لتنفذ الخط السياسي الجديد من جهة ، ولتضمن عدم انعزالها عن التيار القومي الشعبي من جهة ثانية . وتناست احجار الشطرنج مواقفها الفكرية

السابقة ، وابتدأت تمد لوضع منطق فكري جديد يناسب المرحلة الجديدة !

* * *

وكانت السياسة الجديدة للشيوعية المحلية في الوطن تجاه معركة فلسطين هي : اجراء تحول جديد في موقفها من قضية فلسطين على الصعيد النظري الدعاوي ، والحفاظ على نفس موقفها من قضية فلسطين على الصعيد العملي التطبيقي .

ولنرجع الى الوثائق .

* * *

كان الحزب الشيوعي السوري هو اول من بادر لاجراء الانقلاب المسرحي في موقفه الدعاوي : فبعد تلك الحماسة في التأكيد « ان اليهود يؤلفون امة في طريق التكوين » ، و « أن اليهود شعب لهم حق الحياة » ، ألقى خالد بكداش خطابا في المجلس النيابي في ٦ تشرين الاول ١٩٥٥ ، هاجم فيه بعنف الدعوة الصهيونية التي تقول « أن اليهود تتوفر فيهم مقومات الامة !! » ومن الواضح ان هذه المقومات والميزات غير متوفرة بتاتا في يهود العالم لكي يقال بانهم يؤلفون امة أو قومية . فاية رابطة مثلا بين يهود اميركا ويهود الصين ؟ أو بين يهود بولونيا ويهود تركيا أو غيرها ؟ » .

لقد أكد خالد بكداش عام ١٩٥١ و١٩٥٣ « ان اليهود في فلسطين يؤلفون أمة في طريق التكوين » ، فهل نسي خالد بكداش عام ١٩٥٥ ما قاله قبل بضع سنوات ؟ أم انها مقتضيات التكتيك الجديد في التدجيل على الشعب العربي ؟!

وفي الاجتماع الذي عقدته اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان في ٧ ايار عام ١٩٥٦ ، والذي صدرت مقرراته في كراس « نحو آفاق جديدة » تطرقت المقررات الى قضية فلسطين ، وبعد أن كان اليهود « شعب لهم حق الحياة » ، وبعد ان كانت « اسرائيل » « جزيرة للديمقراطية في الشرق الاوسط » ، وبعد ان كان الاستعمار البريطاني الاميركي يستميت لمنع قيام « اسرائيل » (أ) ، هاجمت المقررات هذه الآراء نفسها ولكن من زاوية متناقضة كليا .

« ان فكرة ايجاد « الوطن القومي » اليهودي بفلسطين ، الذي تحول فيما بعد الى « دولة اسرائيل » كانت من أساسها فكرة استعمارية عدوانية مجافية للعدالة ومنطوية على مؤامرة سافرة ضد شعب آمن لا ذنب له » !! (نحو آفاق جديدة ، ص ٢٦) .

« وهكذا قامت اسرائيل من اساسها على العدوان والاغتصاب ، وبقوة حراب الاستعمار ... »

« لقد اثبتت اسرائيل ، منذ وجودها ، انها ركيزة للاستعمار في قلب الشرق العربي ، فهي يد استعمارية في قفاز صهيوني كما وصفها احد الوطنيين العرب ، يستعملها الاستعمار أداة ضغط وعدوان وتهديد لكبح الحركة الوطنية في الشرق العربي ، ولمحاولة ارغام البلدان العربية على الانضمام الى الاحلاف العسكرية الاستعمارية كحلف بغداد » .

« ويمضي الاستعمار الاميركي الانجليزي في مساعيه لجعل اسرائيل مركزا عسكريا وصناعيا قويا لتثبيت مواقعه المزعزعة في الشرق العربي ، وللاستمرار في نهب ثرواته البترولية ، ولبسط سيطرته السياسية والعسكرية على الشرق الاوسط ، ولاكتساح أسواق البلدان العربية وتهديم اقتصادها ومنعها من تحقيق ما تنشده من تقدم وازدهار ... » .

وفي اواسط كانون الثاني ١٩٥٧ ، أصدرت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان بيانا حول مبدأ ايزنهاور قالت فيه : « ومن اهدافه أيضا انعاش عملاء الاستعمار ورفع معنوياتهم المتضعضعة والاستمرار في تقوية « اسرائيل » اقتصاديا وعسكريا بوصفها ركيزة وأداة للاستعمار ، وجعلها مركزا صناعيا لكل الشرق الاوسط بوسعه أن يسيطر على الاسواق العربية ، تحقيقا لحلم الاحتكارات الاميركية والصهيونية العالمية . » (١)

هذا نموذج عن الموقف الدعاوي الجديد للشيوعية المحلية تجاه قضية فلسطين . ولا شك أن القارىء العربي سيصدم هنا أيضا بهذا الانقلاب الفكري والسياسي العجيب. ان الشيوعيين يهاجمون هنا « اسرائيل » على أساس نفس المبررات الفكرية والسياسية التي أيدوا بها قيام « اسرائيل » !

نريد أن نسأل الآن : عندما كان الشيوعيون في الوطن العربي يتغنون « باسرائيل جزيرة

(أ) في العدد ٤٩ الصادر بتاريخ نيسان ١٩٤٩ علقت الافتتاحية جريدة « نضال الشعب » السرية الناطقة بلسان الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان على انقلاب حسني الزعيم بقولها : « وسمع الناس تفاسير اخرى ، منها ما زعمته وكالة الانباء العربية من ان سبب الحركة هو الاستياء الشعبي من اقدام حكومة العظم على قبول المفاوضة مع اسرائيل ! مع ان ابسط انسان يعلم ان الشعب السوري يريد من كل جوارحه ان يستتب السلام في فلسطين ! » .

الديمقراطية » وينادون بوقاحة « بالصلح مع اسرائيل » وينصبون انفسهم حماة لليهود « المساكين المشردين » . هل كانوا يريدوننا اذن ان : نعقد الصلح مع ركيزة الاستعمار ، وان نصافح اليد الاستعمارية ذات القفاز الصهيوني ؟ وهذا الكلام الذى يبدو مدركا جدا لاخطار الصلح على اقتصاد البلاد العربية وثرواتها البترولية ، كان ناسيا هذه الحقائق عن الصلح مع « اسرائيل » قبل بضعة سنوات حين جعل ذلك شعارا رئيسيا من شعاراته ؟

الواقع ان الشيوعيين لم يكونوا جاهلين لهذه الحقائق ابدا .. ولكنها مقتضيات تحقيق السياسة الاجنبية التى كانوا ينفذونها كاجراء لا يهمهم فيها مصير الامة العربية بقليل او كثير .

* * *

ولكن هل كان هذا الموقف النظرى الجديد الذى اتخذته الشيوعية المحلية تجاه معركة فلسطين يعنى موقفا عمليا جديدا ؟

هنا نحتاج لتفحص ادق لهذه النصوص وغيرها . ذلك ان مثل هذا التدقيق يظهر بجلاء ان هذا الموقف النظرى كان موقفا دعاويا لا يتضمن اى تغيير عملى . يظهر هذا الامر بوضوح حين نفتش كافة كتابات ومقررات الحركة الشيوعية فى الوطن فى هذه الفترة ، حيث نلاحظ انها لم تقدم اى حل عملى واضح لقضية فلسطين . لقد حددت الحركة القومية الثورية موقفها بما لا يقبل اى غموض فقالت : ان الحل الوحيد الذى لا يقبل اى نقاش هو تحطيم كيان « اسرائيل » وطردها من الارض المحتلة واسترجاع فلسطين كاملة .

فماذا كان الموقف العملى للشيوعية المحلية ؟

اولا : لم تعط اى موقف عملى يطالب بتحطيم كيان « اسرائيل » واسترجاع فلسطين كاملة . فمقررات اللجنة المركزية للحزب الشيوعى فى سوريا ولبنان « نحو آفاق جديدة » والتى كانت مليئة بتلك العبارات الحماسية ضد « اسرائيل » ، انهت مقرراتها بموقف غامض يتسع لتفسيرات متعددة :

« ان الملابسات التى تكتنف قضية فلسطين بتشابكها مع مطامع المستعمرين واهدافهم العسكرية والسياسية والاقتصادية فى كل الشرق العربى ، تجعل الوصول الى حل عادل نهائى لهذه القضية ، امرا معقدا ، يتطلب من العرب يقظة دائمة وتنبها شديدا ازاء مؤامرات الاستعمار والصهيونية » ؟

نحو آفاق جديدة ، ص ٣٠)

فما هو المقصود بالحل العادل النهائى ؟ لا تذكر ابدا مقررات اللجنة المركزية ..!!

ثم تتابع المقررات :

« ولا ريب ان صون استقلال البلدان العربية المتحررة وتوطيده لاستكمال استقلال البلدان العربية الاخرى ، والتعاون الوثيق بين جميع الشعوب العربية هى من اهم العوامل ، فى جميع الظروف ، للوصول الى حلول لقضية فلسطين تتفق مع مبادىء الديمقراطية والعدالة وتضمن حقوق العرب . »

مرة اخرى ، ما هو المقصود بالحلول الديمقراطية والعدالة ؟ لا تذكر المقررات ايضا !!

ان الغموض فى المواقف والحلول العملية حول قضية مثل قضية فلسطين له خطورة خاصة ، وله معنى خاص ، لا سيما حين يصدر عن لجنة مركزية لحزب منظم . فقد تحدث الشيوعيون فى الوطن كثيرا عن « الحل الديمقراطى » لقضية فلسطين ، وعن « ضمان حقوق العرب » .. وظهر للشعب العربى ان لهم تفسيرا خاصا لمعنى « الحل الديمقراطى » و « لحقوق العرب فى فلسطين » .. وذلك هو : اقتسام فلسطين مناصفة بين العرب واليهود ! وهذا الموقف الدعاوى الحماسى لا يغير قيد شعرة من ذلك الموقف العملى الخائن .

ثانيا : لم تؤيد الشيوعية المحلية فى الوطن ابدا - حتى فى هذه الفترة - الدعوة الى تهديم كيان « اسرائيل » . يتضح ذلك بجلاء من الرفض القاطع الذى قابلت به اللجنة المركزية للحزب الشيوعى فى سوريا هذا المطلب الذى تقدمت به بعض الفئات المعارضة فى الحزب لموقف الحزب من قضية فلسطين . وقد فضح بعض هؤلاء المعارضين بصدد ذلك هذا الموقف الخائن للجنة المركزية :

« وبالاضافة الى المطالبة بتقويم الوضع التنظيمى فى الحزب دعت العناصر المعارضة الى دراسة تاريخ الحزب السياسى ، دراسة موضوعية تكشف عن الاخطاء ولا تقتصر على النجاحات .

« وطالبت باتخاذ موقف صحيح واضح من قضية فلسطين ، موقف يقوم على اعتبار اسرائيل صنيعة للاستعمار ، اى جزءا منه وامتدادا له ، والنص على ضرورة ازالة كيان اسرائيل ، واعتبار ذلك هدفا اساسيا للعرب . كما عارضت الرأى القائل ان موقف الحزب الشيوعى السورى يجب ان يكون موقف

الاتحاد السوفييتي ذاته من هذه القضية ، وأكدت أن موقف الحزب الشيوعي السوري لا يجوز أن يعتمد الا على تأكيد حق العرب الصريح الكامل الذى لا يتحقق الا بازالة كيان اسرائيل ، وعلى الفهم العلمي الصحيح لجوهر نضال العرب ، أى ، على القومية العربية • ولكن اللجنة المركزية رفضت اجراء اى تعديل بهذا الخصوص وأعلنت أن القرار الصادر في أوائل ايار ١٩٥٦ في قضية فلسطين هو اقصى ما يمكن التفكير به ..» (١) !

ولعل هذه الوثيقة أوضح من أن تحتاج لاى تعليق لاظهار الموقف العملي الحقيقي للشيوعيين العرب من قضية فلسطين •

ثالثا : لقد اتضح هذا الموقف العملي الخائن بشكل لا يقبل الجدل فيموقف الخيانة الصريحة الذى اتخذه الشيوعيون في قطاع غزة من الاحتلال اليهودى أثناء العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ • فما زال الشعب العربي يذكر بجلاء أن الشيوعيين عملوا على تحويل نضال المقاومة العربية آنذاك ، من نضال ضد الاحتلال اليهودى الى نضال ضد : الاحكام العرفية وفي سبيل زيادة الاجور!! لقد تقدم الشيوعيون للاشتراك في هيئة المقاومة الشعبية السرية التى تشكلت في قطاع غزة ابان الاحتلال اليهودى ، على أساس هذه المطالب وما زالت هذه الوثيقة تدينهم عمليا وتفضح بالدليل المادي الملموس قيمة ذلك التحول الدعاوى الذى قاموا به مختبئين وراء تلك الجمل الحماسية الكاذبة •

* * *

ولكن موقف الشيوعية من معركة العرب المقدسة في فلسطين لم ينته بعد • ولا بد أن نضع نصب أعيننا منذ الان ، وبوضوح تام ، أنه لا يمكن أن يكون للشيوعية الدولية ، او للشيوعية المحلية ، موقفا عقائديا ثابتا بصدد هذه المعركة • فرغم أن هذه الفترة تمثل تحولا واضحا في موقف الشيوعية الدولية من حركة التحرر القومي العربي ، الا أننا لا نستطيع الا أن نسجل فداحة ذلك الموقف الذى وقفته مؤخرا الشيوعية الدولية ، حين رفعت الحظر عن الهجرة اليهودية الى فلسطين كمحاولة واضحة للضغط على الحركة القومية العربية ، والهائها عن متابعة معركة الوحدة في العراق عام ١٩٥٩ !

(راجع الصور الزنكغرافية لاهم المنشورات حول قضية فلسطين في الملحق بآخر الكتاب) •

* * *

(١) ــ (الياس مرقص ومحمد على الزرقا) صفحات مجهولة من تاريخ الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان ، ص ٢٦٣ والكاتبان هما من الشيوعيين المارقين واحدهما من الذين تقدموا بهذه المطالب •

القسم الرابع

موقف الشيوعية المحلية من معركة التحرر العربي

موقف الشيوعية المحلية من معركة التحرر العربي

لا مجال للاسهاب في التحدث عن ان التحرر القومي الكامل الشامل كان ولا يزال هو الهدف الكبير الذي خاضت وتخوض الامة العربية من أجله معركة ضارية شرسة تعد من أعنف وأهم معارك التحرير الانساني ان لم نقل اهمها • فمنذ دخل الاستعمار الغربي الى الوطن العربي في فترات متفاوتة من القرنين التاسع عشر والعشرين ، عمل باستماتة وضراوة لا مثيل لهما على تثبيت وتعميق سيطرته في الوطن بشتى الوسائل ، وكان ولا يزال القوة الكبرى التي تقف في وجه حركة تقدم الامة العربية ، وتعمل لابقاء الواقع العربي الفاسد الشاذ على حاله • ولا مجال هنا أيضا للتحدث عن الآثار العميقة التي خلفها الاستعمار في وطننا طوال سني استعماره • فهو الذي ثبت وعمق حالة التخلف العام السياسي والاقتصادي والاجتماعي التي تشكل الطابع المميز للوطن العربي في صورته الغالبة ، وهو الذي جزأ الوطن العربي الواحد ، وفي عهده تم اغتصاب أجزاء هامة من الوطن العربي ، وهو الذي ينهب ثروات الشعب العربي وموارده وطاقاته ، وغير ذلك كثير •• وكان واضحا للشعب العربي ، طيلة هذه السنوات ، أن الكفاح ضد الاستعمار وتصفيته بشتى مظاهره من الوطن العربي تصفية نهائية ، هو الخطوة الاساسية الاولى لبناء المجتمع العربي الموحد المتحرر التقدمي ، وأنه لا مجال للتحدث عن أية دولة عربية واحدة ، وعن أية حرية تامة ، وعن أية عدالة اجتماعية ، طالما بقي الاستعمار يسيطر على مناطق هامة في الوطن • وكل ذلك ، كان بالمقابل يطرح واجب نضال التحرر القومي من سيطرة الاستعمار كواجب رئيسي أول ، واذا كانت بعض أهداف العرب القومية تتحمل بعض التقديم والتأجيل ، من **الزاوية العملية** ، فان هدف النضال الصلب الحازم الدائم ضد الاستعمار الذي لا هوادة فيه ولا توقف ، كان ولا يزال هو المهمة النضالية الرئيسية المطروحة بشكل دائم مستمر في كل لحظة •

فماذا كان موقف الحركة الشيوعية في الوطن من هذه المعركة ؟

لقد كان الاستعمار هو الورقة الدائمة التي حاولت الحركة الشيوعية ان تحتفظ بها بيدها دوما •

فباسم النضال ضد الاستعمار ، أهملت النضال من أجل الوحدة العربية ، وتجاهلت هذا الهدف حتى على الصعيد النظري •• وباسم النضال ضد الاستعمار ، وقفت ذلك الموقف الخائن من قضية فلسطين « لان التقسيم هو الطريق لجلاء الاستعمار الانجليزي ! » •• وباسم النضال ضد الاستعمار ، طمست عروبة الجزائر « لان اتحاد الشعب الجزائري بعربه وفرنسييه وبربره الخ ••• في وحدة كفاحية هو السبيل لطرد الاستعمار الفرنسي ! » لقد كان الاستعمار هو الملاذ الاخير ، وهو المخرج الذي تلجأ اليه الحركة الشيوعية في كل مأزق وفي كل موقف متآمر •

والواقع ، أن الانطباع السائد لدى قسم هام من المواطنين العرب ، هو أن الحركة الشيوعية ، رغم كل مواقفها التآمرية السابقة التي كانت تصل لدرجة الخيانة الصريحة ، قد ساهمت جديا في معركة التحرر ضد الاستعمار ، وأن قضية موقفها من الاستعمار هي القضية الوحيدة التي لم تلوث فيها الحركة الشيوعية بأية مساومات ، ولم ترتكب أية خيانات على غرار مواقفها من القومية العربية والوحدة العربية وقضية فلسطين •

وقد استماتت الحركة الشيوعية في الوطن لتثبيت هذا الانطباع وتضخيمه •

لقد ذهبت في هذه المحاولة الى احاطة نفسها بهالة من الدعاية الكثيفة مؤداها : أن الشيوعيين هم أصلب فئة في مكافحة الاستعمار ! وانهم الدعامة الاساسية لمعارك التحرر الوطني ! وكالعادة ، كان لهذه الهالة الدعاوية أساسها الفكري . فالشيوعيون باعتبارهم حزب الطبقة العاملة ، هم القادرون على السير في معركة التحرر الوطني ضد الاستعمار الى النهاية ، لانهم متحررون من الرواسب البورجوازية التي تجعل مواقف كافة الحركات الاخرى تتراوح ما بين الميوعة والتردد أو الميل للتفاهم مع الاستعمار ..

لقد كان الاستعمار هو الورقة الاخيرة بعد أن تساقطت الورقات الاخرى واحدة بعد واحدة ، فهو انسب ستار لتغطية الثغرات القتالة في مواقفها التآمرية المشهودة من قضايا الشعب القومية الاخرى .

وكان الاستعمار هو الثوب الاخير لستر عريها بعد ان مزقت الاحداث عمليا كافة الاثواب واحدا بعد الآخر ..

ولكن .. ما هو نصيب هذه الهالة الدعاوية من الصحة ؟

لقد أخرست الاحداث العملية ، حتى في هذا الميدان ، وأظهرت هذه الهالة الدعاوية على حقيقتها ، مجرد ضجة تختفي وراءها خيانات نضالية لمعركة التحرير العربي لا تقل عن خيانات القضايا الاخرى .

وفي غمرة الكفاح الذي كان يخوضه الشعب العربي ضد الاستعمار ، مزقت الاحداث العملية حتى هذا الثوب الاخير عن جسم الحركة الشيوعية .

***

ان موقف الحركة الشيوعية المحلية من الاستعمار في معركة التحرر العربي ، منذ وجود هذه الحركة حتى الآن ، لم يكن شيئا آخر الا موقف الشيوعية الدولية من الاستعمار . وموقف الشيوعية الدولية من الاستعمار سواء في عهد الكومنترن (١٩١٩ - ١٩٤٢) أو في عهد الكومنفورم (١٩٤٧ - ١٩٥٦) ، لم يكن الا انعكاسا للسياسة الخارجية للاتحاد السوفييتي تجاهه . وموقف الاتحاد السوفييتي لم يكن يتحدد دوما بالموقف الفكري للنظرية الشيوعية تجاه الاستعمار ، بل بمصلحة الاتحاد السوفييتي كدولة حسب الظروف الدولية السائدة في فترة ما ، وهكذا ، كانت - وما زالت - تتكامل حلقات السلسلة - وهذا ما يفسر لنا كيف كانت مواقف الاتحاد السوفييتي من الاستعمار ، وبالتالي الشيوعية الدولية ، وبالتالي الحركات الشيوعية ومن ضمنها الحركة الشيوعية في الوطن ، تتراوح ما بين المهادنة التامة والسكوت التام أحيانا ، والعداء الشديد والهجوم العنيف أحيانا أخرى ، رغم ان الموقف الفكري لم يتغير طبعا في أساسه بهذا الشأن ! فلكي نعرف اذن موقف الحركة الشيوعية من معركة التحرر العربي في فترة معينة ، لا بد لنا أن نفتش أولا وأخيرا ، ودوما ، عن موقف السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتي من الاستعمار في تلك الفترة .

وهكذا تعود الدوامة الازلية مرة أخرى .

وفي غمرة هذه الدوامة التي تدور فيها الحركة الشيوعية حول محور السياسة الخارجية للسوفييت كانت تضيع مصلحة الامة العربية وتداس حقوقها ببساطة متناهية . فاذا هادن السوفييت الاستعمار الغربي ، هادنه الشيوعيون في الوطن . واذا هادن الفاشية هادنها الشيوعيون ، واذا تحالف مع الاستعمار ، تحالف معه الشيوعيون ووضعوا أنفسهم في خدمته الى النهاية . واذا عاد الاتحاد السوفييتي الى موقف العداء والهجوم ، عاد الشيوعيون الى معاداته .

وهكذا ..

فالحركة الشيوعية « دعامة التحرر الوطني ! » تحولت في كثير من الاحيان الى خنجر يطعن نضال التحرر الوطني !

والحركة الشيوعية « اصلب فئة في مكافحة الاستعمار ! » تحولت في فترات كثيرة الى أكبر حليفة للاستعمار !

وحاولت الحركة الشيوعية أن تبرر تآمرها الجديد في هذا الميدان ، مرة أخرى ، بنظرية تضحية الجزء في سبيل الكل . هذه النظرية التي تحولت الى مؤامرة مكشوفة ، بيع فيها حق العرب القومي في فلسطين من أجل كسب ود اليهودية العالمية ، وعورضت فيها وحدة العرب القومية خوفا من نمو الحركة القومية التقدمية ولابقائها في وضع يتيح مجال المساومة معها .

وهكذا ، يظهر تاريخ الحركة الشيوعية في الوطن ، انها هنا أيضا ، لم تكن في معركة التحرر العربي ضد الاستعمار ، الا حصانا خشبيا يخوض المعركة ، أو ينسحب منها ، أو ينقلب ضدها .. حسب اتجاه

الخيط المربوط في عنقه والذي يبتدىء في مكان بعيد جدا عن ساحة الوطن العربي • فقد هادنت الحركة الشيوعية الاستعمار الغربي في كثير من الفترات مهادنة تامة ، وسكتت عن وجوده في الوطن القائم على العدوان والاستعباد والاستغلال ، مساهمة في ذلك، شاءت أم أبت ، في عرقلة النضال العربي التحرري ومطيلة عمر الاستعمار في الوطن •• وسكتت عن اغتصاب لواء الاسكندرون كما أيدت بعد ذلك اغتصاب فلسطين ، وتآمرت على حرية الجزائر واستقلالها ••

وليس لنا الا أن نعود للتاريخ •

لن نقدم في هذا المجال عرضا تاريخيا متسلسلا مفصلا لموقف الحركة الشيوعية من الاستعمار في معركة التحرر العربي ، لان مثل هذا العرض يتطلب مجلدا قائما بذاته • ولكننا سنعرض للموضوع من زاويتين رئيسيتين :

الزاوية الاولى ، هي المعالم البارزة لموقف الشيوعيين من معركة التحرير ، والتي تعطي صورة نموذجية عن التقلبات الفجائية العارضة في موقفهم من الاستعمار ، وعن المهادنات المخجلة التي تجاهلوه فيها تجاهلا تاما ، أو عن تأييد عملاء الاستعمار يختلف أبدا عن تأييد عملاء الاستعمار انفسهم له ، أنفسهم له ، بل كان على العكس اكثر اتقانا وبراعة !

والزاوية الثانية ، هي موقف الحركة الشيوعية من الحياد الايجابي وعدم الانحياز • وهذه ناحية لها اهمية قصوى في تقييم موقف أية فئة أو حركة من معركة التحرر العربي • وفي الظروف الدولية السائدة في العالم منذ مدة لا يمكن أبدا فصل الحياد الايجابي عن هذه المعركة ، بل هو الوجه الثاني لمعركة التحرر العربي ، حيث يشكل النضال ضد الاستعمار الغربي الوجه الاول ، والنضال الملازم والموازي له ضد الارتباطات الاجنبيه من أي نوع كانت ــ الحياد الايجابي ــ الوجه الثاني ..

واذا كان موقف الحركة الشيوعية من الاستعمار قد اتصف بالتقطع والتقلب والتآمر أحيانا كثيرة ، فان موقفها من عدم الانحياز كان سلسلة متصلة الحلقات من التآمر • فالحركة الشيوعية لم تؤمن يوما بالحياد الايجابي كمبدأ في السياسة القومية الخارجية ، وسنرى كيف انها ــ بحكم تبعيتها الاجنبية الفكرية والسياسية المطلقة ــ قد هاجمت الحياد هجوما عنيفا ، ودعت للانحياز والارتباط بالشيوعية الدولية ، ولم تخفت دعوتها الصريحة هذه للارتباط الا منذ بضع سنوات حين اصبح الحياد الايجابي ، وعدم الانحياز للمعسكرات والتكتلات مقياسا فرضه الوعي الشعبي التحرري ، وأصبح لا بد لتلك الدعوة الصريحة أن تنحني قليلا للعاصفة وتنتظر الفرص السانحة لتعود للظهور مرة أخرى !!

وهذا في الواقع يعطينا الحق الكامل في أن نصدر حكمنا القاطع النهائي على الدور الذي يمكن ان تلعبه الحركة الشيوعية في معركة التحرر العربي • فاذا تجاوزنا كون نضالها ضد الاستعمار تابعا لتقلبات الشيوعية الدولية ، لا تابعا من مصلحة الامة العربية، نجد أنها تعمل في النهاية لربط الشعب العربي بقوة أجنبية جديدة ، مهما قيل في اختلافها عن الاستعمار ، وهذا صحيح من بعض الوجوه ، الا أنها تبقى في النهاية قوة أجنبية نختلف معها في كثير وكثير من نواحي الحياة بل ونتناقض معها على خط مستقيم في كثير منها •

فهل كان الشعب العربي يخوض معركة من أدمى معارك التحرر الانساني ليستبدل سيطرة الاستعمار بنفوذ أجنبي جديد أقل ما يقال فيه أنه سيسلبه حريته السياسية ؟•

هذا ما سيكون موضوع حديثنا الثاني •

ويهمنا ان نبدأ الآن بموقف الحركة الشيوعية من الاستعمار الغربي في معركة التحرر العربي ، لنرى كيف تتمزق ورقة التوت ، وكيف تطمر هذه البقية الباقية من رصيد الحركة الشيوعية تحت أستار عدة خيانات لا تقل خطورة عن السابقة •

* * *

في الفترة الاولى التي اعقبت الثورة في روسيا ، كان المؤتمر الثاني للكومنترن (١٩٢٠) قد حدد مهمة الحركات الشيوعية في البلاد المستعمرة : بالنضال ضد الاستعمار من خلال جبهات وطنية تقيمها مع الحركات الوطنية « البورجوازية الوطنية » • وقد بنيت هذه السياسة على أساس اختلاف الأوضاع في « الشرق » المستعمر عنها في الغرب المستعمر • ففي بلاد الشرق المستعمرة حيث لا يوجد بروليتاريا صناعية قوية نتيجة وجود الاستعمار الذي امتلك كل شيء تقريبا في البلاد وعرقل تطورها الصناعي، يصبح تحالف الحركة الشيوعية مع الحركة الوطنية للنضال ضد الاستعمار هو الواجب الاول لتصفية الاستعمار واقامة حكم بورجوازي وطني تمهيدا للحكم الديمقراطي الشعبي ثم للثورة الاشتراكية • أما في الغرب ، حيث الصناعة متطورة والبروليتاريا

المتخاصمة قوية ». فالواجب الاول هو النضال ضد البورجوازية وعزلها عن الشعب(١) ».

ولا نستطيع في الواقع في هذه السنوات ان نلمس صدى سياسة الكومنترن الثاني في الوطن ، لان الاحزاب الشيوعية كانت في طور تاسيسها الاول ، ومنها ما لم يتاسس بعد . فلم يكن هناك حركة شيوعية في السودان طبعا ، ولم يكن الحزب الشيوعي العراقي قد تاسس بعد ، كذلك لم يكن الحزب الشيوعي الجزائري قد انفصل بعد عن الحزب الشيوعي الفرنسي . أما الحزب الشيوعي المصري ، فقد كان غارقا بالاقليات الاجنبية ـ اليهودية بشكل خاص ـ كما انه فضلا عن ضآلة عدده كان يحاول تطبيق نظرية الصراع الطبقي على المجتمع في مصر ، ويعد ـ خلافا لسياسة الكومنترن ـ لتنظيم النضال الطبقي ، مما زاد في عزلته عزلا تاما كليا عن الحركة الوطنية القائمة ضد الاستعمار الانجليزي آنذاك .

أما الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان ، فقد قام ببعض المحاولات للاشتراك في النضال ضد الاستعمار الفرنسي في نطاق ضيق ، وعن طريق بعض المقالات والمنشورات بشكل رئيسي ، وكان الحزب آنذاك مشغولا بتنظيم نفسه من جهة ، وبالصراع على قيادة الحزب من جهة ثانية .

ولكن سياسة الكومنترن الثاني لم تدم طويلا ، فقد اتخذ المؤتمر السادس للكومنترن (١٩٢٨) سياسة جديدة مناقضة تماما للاولى . فقد حدد المؤتمر الجديد المهمة الجديدة للحركات الشيوعية بالنضال ضد البورجوازية الوطنية لعزلها عن الشعب ».

والواقع ان أوضاع بلاد « الشرق » المستعمرة لم تتغير تغييرا جذريا في هذه السنوات القلائل . وكان المفروض أن يبقى الكفاح ضد الاستعمار هو جوهر كل حركة في هذه المرحلة ، ولكن التبرير الفكري الذي أعطي للسياسة الجديدة ـ والذي لا يعسر ما في الواقع ـ هو : ان الحركات الوطنية (البورجوازية الوطنية) في البلاد المستعمرة غير ثابتة في نضالها ضد الاستعمار ، كما أنها ستنقلب ضد الشعب ـ الطبقة العاملة ـ في المستقبل وحالما تحقق أول نصر ، حفاظا على مصالحها ، ولذلك ، فمن الواجب عزلها وعدم التعاون معها .

وكان تطبيق مثل ذلك الاتجاه يعني عمليا آنذاك :

اتخاذ موقف عدائي هجومي ضد الحركة الوطنية التي كانت تخوض الكفاح ضد الاستعمار .

وفي هذه الفترة التي امتدت ست سنوات من انعقاد المؤتمر السادس للكومنترن عام ١٩٢٨ حتى المؤتمر السابع عشر للحزب الشيوعي السوفييتي (١٩٣٤) ، والكومنترن السابع عام ١٩٣٥ ، نجد ان موقف الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان كان منسجما كل الانسجام مع ذلك الخط ! ففي عام ١٩٢٨ نجح الشعب العربي في سوريا بعد ثورة عام ١٩٢٥ ـ ١٩٢٦ وما تلاها ، في فرض مطلب الدستور على الانتداب الفرنسي ، وانتخبت في ذلك العام اللجنة التاسيسيه التي وضعت الدستور المعروف بدستور ١٩٢٨ . ورفضت السلطات الفرنسية ذلك الدستور واصدر المفوض السامي الفرنسي دستورا معدلا جعل السلطة الفعلية في النهاية بيده ، وأقر الانتداب كما أقر تجزئة البلاد السورية وابقاء « حكومة » جبل الدروز و « حكومه » اللاذقية (العلويين) ، خارج سوريا ، وعرف بدستور عام ١٩٣٠ . وثار الشعب العربي في سوريا ضد دستور سلطات الانتداب ، وقامت الانتفاضات المعروفة بين عام ١٩٣١ـ١٩٣٢ ، والتي ازدادت بعد أن أقدمت فرنسا على تعطيل الدستور كليا وحل الجمعية التأسيسية .

وفي هذه الفترة هاجم الشيوعيون في سوريا ولبنان الجمعيه التاسيسية واتخذوا موقفا عدائيا من الكتلة الوطنيه . وقد عبر رفيق رضا (عضو اللجنه المركزيه للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان منذ عام ١٩٣٢ـ١٩٥٨) عن ذلك الموقف المتآمر بقوله :

« لقد شهدت أولا في عام ١٩٣١ـ١٩٣٢ انتفاضة سوريا العربيه الباسله على المستعمرين الفرنسيين يوم ارادوا تكبيل الدستور الذي سنته الجمعية التأسيسية آنذاك ... وضغط الشعب على نوابه ليرفضوا طلب المندوب السامي ، وسقط الشهداء في شوارع دمشق وحمص وحماه وحلب ولم يجد المفوض السامي الفرنسي بدا من تعطيل الدستور ، وحل الجمعية التأسيسية ، وعندئذ اشتدت مقاومة الشعب وعمت تظاهراته الوطنية جميع الاحياء والساحات والشوارع ..

« وفي هذا الجو الوطني اللاهب ، وفي الوقت الذي استباح فيه الفرنسيون

---

(١) لقد ذهبت الحركات الشيوعية في اوروبا ـ لتطبيق هذه السياسة : ـ الى التحالف مع الاتجاهات الفاشية والنازية ضد الديمقراطية البورجوازية والديمقراطية الاشتراكية على السواء واستمرت في هذه السياسة في فترات ازدياد قوة الحركة النازية الى الوصول لاستلام النازية الحكم في المانيا .

كرامة الامة وانتهكوا قدسية ارادتهـا ؟ كانت قيادة الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان تنادي في نشراتها ، وبما كانت تخطه ايدي اعضاء الحزب البسطاء على جدران شوارع المدن السورية ، وحتى على جدران البرلمان السوري نفسه : فليسقط الدستور ولتسقط الجمعية التأسيسية الخائنة ..

« وكانت فضيحة وطنية كبرى اهتز لها قلب الشعب السوري وارسل اللعنات على رؤوس قائليها والداعين اليها .

« لقد التقت سياسة الحزب هذه صراحة وفي أعين جميع المواطنين مع سياسة أفظع المستعمرين .

« هذه اولى الحقائق التاريخية عن مواقف قيادة الحزب الخائنة المجرمة من قضايا جهادنا الوطني ، وقد شهدتها بنفسي وعشتها بحسي ويذكرها مواطنون كثيرون ممن عاشوا الايام الدامية عام ١٩٣١-١٩٣٢ . » .

ولعل اقوال عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان لا تحتاج لتعليق . من الماركسيين من يناقش أن الحزب في ذلك الموقف كان مصابا « بمرض الطفولة اليسارى » (*) اما نحن فليس يهمنا أبدا أن نناقش هذا الموقف من هذه الزاوية بعد أن أصبحت نصوص الماركسية تتيح المجال لجميع الفرق - مهما كانت متناقضة - لان تستشهد بها لتظهر انحراف الاخرين .. ما يهمنا نحن بالدرجة الاولى، أن الشيوعيين في سوريا ولبنان عملوا على اضعاف النضال الوطني التحرري ضد الاستعمار الفرنسي ، فلمصلحة من كان ذلك الموقف ؟

عاد المؤتمر السابع للكومنترن عام ١٩٣٥ فعدل سياسة مقاومة الحركات الوطنية « التي لم تؤد الا الى انعزال الاحزاب الشيوعية عن نضال الشعب » وتبنى مرة أخرى الخطوط العامة لسياسة الكومنترن الثاني مع تأكيد على استهداف التحالف للاجنحة الثورية في الحركة الوطنية . وهنا أيضا ، لا نستطيع أن نجد تفسيرا لهذا التعديل على أساس فكري ، فلم يكن قد مضى بعد سوى سنوات قلائل على التبرير الذى قدمه المؤتمر السادس ! ولكننا نجد هذا التفسير في الاوضاع السياسية الجديدة التي بدأت تنشأ في العالم آنذاك ، والتي تقتضي مصلحة الشيوعية الدولية اجراء بعض التعديل لمجابهتها منذ عام ١٩٣٤ وما بعد ذلك بشكل خاص . فرغم أن الحركة الفاشستية كانت تحكم ايطاليا منذ عام ١٩٢٢ ، الا أن العنصر الحاسم الذي دخل الوضع الدولي هو استلام الحركة النازية للحكم في ألمانيا عام ١٩٣٣ .

لذلك نجد الاتجاه الجديد لسياسة الشيوعية الدولية ، فضلا عن قرار الكومنترن السابع ، في المؤتمر السابع عشر للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي ، حيث تطرق ستالين الى هذه الناحية في التقرير الذى قدمته اللجنة المركزية لمؤتمر الحزب بقوله : « وليس مما يدهش ان تصبح الفاشستية أكثر البضائع رواجا في الوقت الحاضر في اوساط الساسة البورجوازيين المأخوذين بحمى الحرب . ولا اعني فقط الفاشستية بوجه عام ، بل اعني ، قبل كل شيء ، الفاشستية ذات الطراز الالماني .» (١)

وهكذا ، ابتدأت منذ عام ١٩٣٤ ، وعام ١٩٣٦ بشكل خاص ، مرحلة جديدة في السياسة الخارجية للشيوعية الدولية ، كانت تؤقت بدورها اتجاها جديدا في علاقات الاتحاد السوفييتي بالقوى العالمية ، خطه العام : التقرب من الدول الاستعمارية، بريطانيا وفرنسا بشكل خاص ، وكذلك اميركا وتركيا ، كخطوة احتياطية للوقوف بوجه ألمانيا حين يقتضي الامر .

وهذه المرحلة هي التي تهمنا في الواقع بصدد بحث موقف الحركة الشيوعية من الاستعمار في معركة التحرر العربي . ففي هذه الفترة كان قد مضى عدد من السنوات على ابتداء نشاط الحزب الشيوعي في مصر وفي سوريا ولبنان، كما كان الحزب الشيوعي قد ابتدأ عمله - ولو بشكل محدود - في العراق ، كذلك انفصل الحزب الشيوعي الجزائري عن الحزب الشيوعي الفرنسي عام ١٩٣٦ . فابتداء من هذه الفترة نستطيع ، أكثر من الفترة السابقة ، أن نستعرض بوضوح الدور الذى لعبته الحركة الشيوعية في معركة التحرر العربي .

* * *

(١) : « تقرير عن نشاط اللجنة المركزية قدم للمؤتمر السابع عشر للحزب الشيوعي (البولشفي) في الاتحاد السوفيتي » - دار الطبع والنشر بالتغات الاجنبية ، موسكو - ص ٦ .

الفصـــل الأول

موقف الشيوعية المحلّية من معركة التحرر العربي

١٩٣٦ — ١٩٣٩

الحركة الشيوعية تهادن الاستعمار باسم مكافحة الفاشية

توقت هـذه الفتره ما بين عـــام ١٣٦ حتى آب ١٩٣٩ اتجاها واضحا في السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتي والشيوعية الدولية ، يقوم على التقرب من الاستعمار ومهادنته نسبيا بدعوى ان الخطـر العالمي في هذه المرحلة ليس الاستعمار ـ البريطاني والفرنسي بشكل خاص ـ بل هو خطر الفاشـــية الالمانية بالدرجة الاولى .

وفي هذه الفترة أيضا ، كانت معركة التحـــرر العربي تمر في سلسلة أحداث هامة نتيجـة تزايد بطش الاستعمار واستبداده من جهة ، واشـــتداد حركة النضال العربي التحرري من جهة ثانيـــة . والواقع ان هذه السنوات التي سبقت الحـــرب العالمية الثانية ، كانت من اهم واقسي فترات تاريخ حركة التحرر العربي واغناها بالاحداث الدامية .

فقد شهدت هذه الفترة معاهــــدة عام ١٩٣٦ السورية ـ الفرنسية ، واشتداد نضال الشـــعب العربي في سوريا ضد الانتداب الفرنسي ، ونضـــال الشعب في لواء الإسكندرون وباقي أنحاء ســـوريا ضد جريمة اغتصاب اللواء التي ارتكبتها تركيــــا بالاتفاق مع الانتداب الفرنسي ، وثورة عام ١٩٣٦ الى ١٩٣٩ التي خاضها الشعب العربي في فلسطين ضد الانتداب الانجليزي والصهيونية ، كما شهدت اشتداد حركة النضال العربي في أجزاء المغـــرب العربي تونس والجزائر ومـــراكش ضد سياسة الفرنسة والدمج وتعميق ركائز السيطرة الاستعمارية وطمس عروبة المغرب ..

وباختصار ، كان الوطن العربي يضج من اقصاه الى اقصاه بانتفاضات وثورات تحررية عنيفـــة لتصفية الاستعمار وتحرير أرض الوطن .

وقد طرحت تلك الفترة على عاتق الحـــركات العاملة في الوطن واجبات نضالية ضخمة للافـادة من هذه الموجة التحررية العارمة ، وتوجيهها ودفعها الى مداها الاقصى .

كان على الحركات ان تعمل على تنظيم صـــفوف الشعب العربي وتغذية النقمة الشعبية المتزايـدة ضد الاستعمار والعبودية ، وتمتين ركائز النضال العربي في جبهات متعددة نضالية وتنظيمية وفكرية واختيار افضل اشكال الكفاح الثوري لتوجيـــه النضال وفقها .

وفي تلك الفترة من تاريخ معركة التحرر العربي ، وامام تلك المهمات النضالية الاساسية ، ماذا كـــان موقف الحركة الشيوعية في الوطن العربي ؟

كان على الحركة الشيوعية أن تختـــار بين موقفين :

بين الانســجام مع سياسة التهدئة والمهـــادنة والتقريب التى اتبعتها الشيوعية الدولية تجـــاه

وبريطانيا وفرنسا وتركيا واميركا . اي ، مهادنة الاستعمار في الوطن العربي والتقرب منه تدعيما لسياسة الشيوعية الدولية . وبين الانسجام مع معركة المصير التي يخوضها الشعب العربي في سبيل حريته ضد الاستعمار الذي يستعمره بالقوة ، ويحرمه من ابسط حقوقه ويسلبه كل ما يملك .

ولم تتردد الحركة الشيوعية لحظة واحدة في الاختيار . ضربت بمصير الشعب العربي عرض الحائط ، وداست على معركة البقاء الدامية التي كان يخوضها ، ووضعت نفسها في خدمة المخطط السياسي للشيوعية الدولية ، وبالتالي ، في خدمة الاستعمار الذي كان يبطش بالشعب العربي بكل ما اوتي من قوة .

وبالاضافة الى سياسة السوفييت الجديدة في مهادنة الاستعمار الانجليزي والفرنسي ، والتقرب من تركيا ورفع شعار « الفاشية هي الخطر الاكبر » دخل صورة الوضع الدولي مع ابتداء هذه المرحلة عامل جديد زاد في ارتباط الحركة الشيوعية بهذا الموقف المهادن المستسلم للاستعمار . هذا العامل هو فوز « الجبهة الشعبية » في الانتخابات الفرنسية واستلامها الحكم في ربيع عام ١٩٣٦ (١)

وكان على الحركة الشيوعية في الوطن أن تدعم هذه الجبهة الشعبية دعما تاما .

ففضلا عن أن الاتحاد السوفييتي كان يؤكد على ضرورة استمرار الجبهة الشعبية في فرنسا بالحكم ، كان الحزب الشيوعي الفرنسي يشترك في الجبهة الى جانب الاشتراكيين والراديكاليين ، ولم يكن باستطاعة الحركة الشيوعية في سوريا ولبنان والمغرب أن تتخذ اي موقف معارض لسياسة الجبهة الشعبية ، مهما كانت هذه السياسة ، كيلا يؤدي ذلك الى احراج الشيوعيين الفرنسيين المشتركين بها ، او الى انهيار حكم الجبهة الشعبية ككل ، وخسارة الشيوعيين الفرنسيين للمركز الذي كانوا يحتلونه في فرنسا على صعيد التوجيه والسلطة .

اذن ، فلابد لكل الاسباب مجتمعة من تأييد سياسة الجبهة الشعبية تأييدا تاما . وكان هذا الموقف يعني من الزاوية العملية : أن تهادن الحركة الشيوعية الاستعمار الفرنسي ، وأن تبرر كافة جرائمه ، وأن تقف ضد استمرار الكفاح التحرري الذي يخوضه الشعب ضد سيطرته .

وقامت الحركة الشيوعية بهذا العمل باخلاص استحقت عليه ثناء الشيوعية الدولية والحزب الشيوعي الفرنسي والاستعمار الفرنسي على السواء . وفي سبيل خلق عهد من السلام لحكم الجبهة الشعبية الفرنسية ، تجاهلت بحر الدماء الذي أوجده في الوطن العربي حكم الجبهة الشعبية نفسها !.

وهكذا .. في مقابل الكفاح ضد الاستعمار رفعت الشيوعية شعار الكفاح ضد الفاشية . ولم يستطع الشعب العربي أن يفهم كيف أن الاستعمار القابع بعيدا في المانيا أشد خطرا عليه من الاستعمار الانجليزي والفرنسي القابع في عقر داره ، والجاثم فوق صدره يمعن فيه تكبيلا واذلالا ونهبا وتقتيلا ، ولكن لم يكن الشعب العربي هو من تفكر فيه الحركة الشيوعية بهذا الصدد ، بل كانت : فرنسا ومصلحة الشيوعية الدولية !

واذا كانت الفاشية تشكل خطرا مباشرا على الشيوعية الدولية وعلى فرنسا ، فهل كان على الشعب العربي أن يتناسى مصيره ويدفن حقوقه ويقبل ايدي مستعمريه وجلاديه لتنفيذ مخطط الشيوعية الدولية ؟

نعم .. قالت الحركة الشيوعية ! فالجزء يجب ان يضحى به في سبيل الكل .

ومرة أخرى كان الشعب العربي هو كبش الفداء .. وفي سبيل اي « كل » هذه المرة ؟ في سبيل حكم الجبهة الشعبية التي لم يقل حكمها — كما سنرى — استعمارية وبطشا وعدوانا عن اية حكومة فرنسية أخرى .

ومرة أخرى وقفت الحركة الشيوعية تزور شعارات المعركة النضالية وتتآمر على حرية الشعب العربي .

ولنرجع الى التاريخ ..

* * *

---

(١) : كانت الجبهة الشعبية تحالفا بين الحزب الشيوعي والحزب الراديكالي والحزب الاشتراكي ، وتألفت الحكومة التي انبثقت عنها من الاشتراكيين والراديكاليين برئاسة « الاشتراكي » ليون بلوم عام ١٩٣٦ . وقد دام حكم الجبهة الشعبية حتى عام ١٩٣٨ حيث استقال ليون بلوم والف الحكومة ديلادييه (في نيسان ١٩٥٨) . وحصل الحزب الشيوعي الفرنسي في الانتخابات التي خاضتها الجبهة الشعبية عام ١٩٣٦ على (٧٢) مقعدا .

كان هذا الموقف ، تجاهل الاستعمار ورفع شعار مكافحة الفاشية ، موقفا عاما في الواقع لكافة الاحزاب الشيوعية في الوطن .

ففي هذه الفترة الممتدة ما بين عام ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ ، ايد الحزب الشيوعي العراقي انقلاب بكر صدقي عام ١٩٣٦ ، الذي عرف بعدائه الشديد للحركة القومية العربية .

وكان موقف اللين هو الطابع العام لسياسة الحزب تجاه الاستعمار الانجليزي ، حيث كان الشيوعيون يركزون هجومهم على مقاومة حركة الفداء التي كانت تجيش بقوة في صفوف الجيش والشعب آنذاك ضد الاستعمار الانجليزي ، بحجة خطر الميول النازية التي تحملها هذه الحركة !

وفي فلسطين ، رأينا كيف سكت الحزب الشيوعي عن الانتداب الانجليزي والصهيونية معا ، ورفض الاشتراك بالثورة الكبيرة التي قام بها الشعب العربي ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ ضد الاستعمار والغزو اليهودي ، بحجة « الخوف من وقوع هذه الثورة تحت تأثير نفوذ الفاشية » !

وفي مصر ، تشاغلت الحركة الشيوعية ، رغم انشقاقاتها وعدم تجانسها ، عن الاستعمار الانجليزي بتركيز الهجوم على حزب الوفد ، بل وذهبت الى القول أن بعض أوساط الوفد قد وقعت تحت نفوذ الفاشية !

هكذا كان الطابع العام لموقف الاحزاب الشيوعية من الاستعمار الانجليزي اذا تجاوزنا التفاصيل . ولكن ما يهمنا أن نقف عنده في هذه الفترة ، هو موقف الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان ثم الحزب الشيوعي في الجزائر . ذلك أن الارتباط المباشر بين هذين الحزبين وبين الحزب الشيوعي الفرنسي ، يعطي صورة أكثر وضوحا ، صورة نموذجية ، عن تآمر الحركة الشيوعية على معركة التحرر العربي ارضاء لارتباطاتها الاجنبية ، هذا أولا . ولان هذين الحزبين هما اللذان كان لهما صلة مباشرة بجريمتين داميتين : بجريمة اغتصاب لواء الاسكندرون التي سكت عنها الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان (كما أيد جريمة اغتصاب فلسطين فيما بعد) ، وبالتآمر على عروبة الجزائر وحريتها حيث وقف الحزب الشيوعي الجزائري في هذه الفترة ، وبعدها ، وحتى هذه الساعة ، موقفا لم يختلف أبدا بصدد هذه المعركة الدامية من حيث المبدا عن موقف الاستعمار الفرنسي نفسه .

ولنبدأ بالحزب الشيوعي في سوريا ولبنان .

كان أهم قضيتين جابهتا الشعب العربي في سوريا في كفاحه التحرري ضد الاستعمار الفرنسي ما بين ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ ، هما معاهدة عام ١٩٣٦ ، ثم اغتصاب لواء الاسكندرون .

المعاهدة :

بعد انتفاضات الشعب العربي في سوريا عام ١٩٣١ ـ ١٩٣٢ ، قدمت فرنسا مشروع معاهدة في عام ١٩٣٣ رفضها الشعب لانها كانت تكريسا للاستعمار واستمرارا في تجزئة سوريا . واستمرت الانتفاضات الشعبية الى أن اضطرت فرنسا الى تقديم معاهدة جديدة عام ١٩٣٦ ، وكانت الجبهة الشعبية قد استلمت الحكم في فرنسا آنذاك .. كانت المعاهدة الجديدة تحوي ثغرات اساسية ، اذ انها في مقابل الوعد بانهاء الانتداب ، قد أبقت للسلطات الفرنسية السيطرة على الشئون السياسية الخارجية والمالية والثقافية ، كما أباحت لفرنسا الاحتفاظ بقواعد عسكرية ، وبقواتها الكاملة في جبل الدروز واللاذقية (العلويين) لمدة معينة .

والواقع أن الفريق الذي قبل المعاهدة آنذاك قبلها على اساس أنها خطوة تضع أساسا جديدا لمفاوضات وتعديلات جديدة .

فماذا كان موقف الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان من هذه المعاهدة ؟ هل رفض المعاهدة وأعلن انها لا تمثل مطالب الشعب العربي في سوريا ؟ هل درس المعاهدة وفضح نصوصها التي تضع اهم مقدرات حياة الشعب بيد فرنسا ؟ هل طالب على الاقل ، باجراء تعديلات على المعاهدة ؟

لم يفعل الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان شيئا من هذا .. أبدا .. بل على العكس تماما :

١ ـ أيد الحزب الشيوعي المعاهدة تأييدا مطلقا بلا قيد ولا شرط ، واعتبرها نصرا وطنيا عظيما ، بل وذهب الى القول أن مستقبل الشعب في سوريا وتطوره معلقان على هذه المعاهدة !

٢ ـ عمل على تحطيم اليقظة النضالية الثورية في صفوف الشعب ، ودعا الى الوثوق بفرنسا ثقة تامة ، وهاجم كل من عمل على تحذير الشعب وتوعيته على نوايا الاستعمار الفرنسي ، حتى بعد أن ظهر بوضوح أن فرنسا تماطل في تصديق المعاهدة !

٣ ـ وبعد ان رفضت فرنسا تصديق المعاهدة ، وكشفت بوضوح انها تعمل لفرض سيطرتها الاستعمارية الكاملة على سوريا ، استمر يطالب بتصديق المعاهدة بدل أن يدعو الشعب الى تجديد كفاحه ضد الاستعمار الفرنسي ، الذي أوضح

موقفه انه لن يقبل أية تنازلات مهمـــا كانت ضئيلة .

٤ ـ شجب بشدة اساليب النضال الســورية وجعل المفاوضات والبرقيات الخ .. اعلى اشكال النضال !

٥ ـ وطيلة هذه الفترة، لم تكن علاقته بالسلطات الفرنسية علاقة مستعمر بمستعمر بل علاقة صديق بصديق ، فنزع صفة الاستعمار عن فرنسا وكان يتغنى بفرنسا « الديمقراطية » وفرنسا «الصديقة» عاملا على امتصاص النقمة الشعبية ضد الاستعمار الفرنسي والتى تعد عنصرا أساسيا فى التعبئـــة النضالية للشعب .

ولعل هذا الموقف المتآمر غير المشرف لا يجوز أن يترك بلا سند .. فلنرجع الى الوثائق :

يقول رفيق رضا عضو اللجنة المركزية للحـــزب الشيوعي فى سوريا ولبنان بصدد موقف الحزب من المعاهدة فى الايام الاولى : (١)

« كانت البلاد كلها تضغط على المفاوض السورى لكى يرفض شروط فرنسا ورفضاباتا ، وكانت البلاد كلها تطالب بالاستقلال والسيادة الوطنية غــير المشروطتين اطلاقا . وماذا كان موقف الحـــزب الشيوعي آنذاك ؟

« أذكر ، وقد كنت فى باريس ، ان قيادة الحزب الشيوعي الفرنسى استدعتنى اليها وطلبت منى أن أصارح قيادة الحزب الشيوعي السورى بوجـوب الدعوة الى قبول المعاهدة المذكورة، وحث المفاوضين السوريين على التساهل ، لان الحزب الشـيوعي الفرنسي لا يريد أن يحرج موقف الحكومة الفرنسية، وقد كان آنذاك يؤيدها على اعتبـــار أن الظروف الدولية تقضى بالتساهل . وقد كتبت الى قيـادة الحزب فى سوريا ولبنان منوها برأى قيادة الحزب الشيوعي الفرنسى هذا، وبالفعل قامت قيادة الحزب فى سوريا باتصالات واسعة مع المسئولين السوريين وطلبت اليهم التساهل وقبول المعاهدة كمـا كان قد عرضها الجانب الفرنسي مع شيء من التعديل. هذا وقد رافق كل ذلك تبدل فى موقف جـريدة « صوت الشعب » لسان حال الحزب الشيوعي فى بيروت ، التى أخذت تدعو المفاوضين الســوريين الى تقدير الظرف الدولى والتقرب من الجـــانب الفرنسى ، كما وانتشرت خطوط هذه السياســـة على ألسنة جمهور أعضــاء الحـــزب فى ســـوريا ولبنان » .

وقد كان الحزب الشيوعي فى سوريا ولبنان أمينا فعـــلا لتعــاليم الشيوعيين الفرنسيين . فالحزب الشيوعي الفرنسي لا يريد أن يحرج الحــكومة الفرنسية ! ولا شك أنه تبرير نضالى ثورى جدا ، جدير بأن يختزل نضال الشعب العربى من أجله الى معاهدات ممسوخة !

ففى ٢٢ كانون الثانى ١٩٣٧ القى خالد بكداش، السكرتير العام للحزب ، خطابا فى مدينة حلب حدد فيه موقف الحزب فى سوريا ولبنان من المعــاهده ، فأيدها ودعا الى التعاون مع سلطات الاستعمـــار الفرنسي لتطبيقها (١)

« أيدنا اذن المعاهدة السـورية الافرنسية، وأيدنا مساعى الوفد لعقدها . بل قمنا بما فيه المستطاع للاشتراك فى تذليل العقبات التى كـانت تقف فى طريق عقدها ..

« .. فتنفيذ المعاهده فى جو ملائم من حســن النية والاخلاص لمصلحة الشعب يحقق لبـــلادنا بعض أمانيها الوطنية وحرياتها الانسانية والاصلاحات التى تساعدها على التقدم والرقى فى ســـلام واخاء ..

« ان المعاهدة السورية الافرنسية ، والمعاهــدة اللبنانية الافرنسية ، وضعتا النصوص والمبادىء ، والآن فى عهد الانتقال سيجرى التمهيد لتطبيـــق النصوص تطبيقا تاما ، بعد ثلاث سنـــوات حين زوال الانتداب . ومعنى هذا عمليا : خلال هـــذه السنوات الثلاث ، انه يجب ان يجرى تعاون متين بين حكومتى سوريا ولبنان من جهة ، وبينهما وبـين ممثلى الانتداب والموظفين الافرنسيين من جهـــة أخرى ، لتفسير النصوص وتطبيقها والتمهيـــد لزوال الانتداب .

(١) : كان الحزب الشيوعى فى سوريا ولبنان قد ارســـل عضو اللجنة المركزية رفيق رضا الى فرنسا ليكون صلة وصـــل بينه وبين الحزب الشيوعى الفرنسى كما يقـــول رفيق رضـــا نفسه : « .. عام ١٩٣٦ حضرت اجتماعا للقيادة المركزية عولج فيه الوضع السياسى العام والعلاقات السورية الفرنسية ، فتقـــرر ايفادى الى فرنسا كمندوب لدى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الفرنسى . فقصدت باريس واتصلت بقيادة الحزب فيها . وباشرت عملى فى مركز القيادة ، حيث افرد لى مكتب خاص وكانت مهمتى تتناول تنسيق الجهود المشتركة للحزبين فى جميـــع القضايا التى تتعلق بمصالح فرنسا فى سوريا ولبنان وشمال افريقيا .. »

(١) : نشر نص هذا الخطاب ووزع فى كراس بعنوان : « فى سبيل حريات الشعب الوطنية والديمقراطية » .

« ممن ينكر اذن ، بان حسن النية من جانب الموظفين الافرنسيين سيلعب دورا كبيرا في هذا الدور ؟ والفرق كبير بين أن يكون في سوريا موظفون افرنسيون ديمقراطيون يساعدون بنزاهة على تنفيذ النصوص وتسهيل مهمة الحكومة الوطنية ، وبين ان يكون في سوريا موظفون افرنسيون فاشيست رجعيون يعملون على عرقلة المهام وخلق صعوبات جديدة عوضا عن السعي للتغلب على الصعوبات »!

هنا نجد أنه :

اولا : ايد الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان المعاهدة بل وعمل جهده لتحقيقها .

ثانيا : ان بنود المعاهدة التي تجعل الشئون العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية بيد الاستعمار الفرنسي لم تثر في أذهان الحزب الشيوعي « المتسلح باليقظة الثورية » ! اعتراضا واحدا ، مجرد اعتراض ، بل على العكس ، فان المعاهدة في رأيه ستساعد الشعب العربي على التقدم والرخاء! وستفسح المجال للاصلاحات ! ولم يكن هذا السكوت المتآمر عن تلك النصوص في المعاهدة مجرد صدفة ، بل كان تغريرا متعمدا بالشعب خدمة للحزب الشيوعي الفرنسي الذي لا يريد أن يحرج حكومة الجبهة الشعبية !

ثالثا : هذا التغرير المتعمد يذهب اكثر من ذلك، فالسيد خالد بكداش لا يفترض في الاستعمار الفرنسي « حسن النية فقط » بل يفترض فيه ايضا امكانية «الاخلاص لمصلحة الشعب» ! فهل أصبح الشيوعيون فجأة جاهلين لمعنى الاستعمار وطبيعة الاستعمار ؟ اذن فلمصلحة من كان الشيوعيون يحاولون ايهام الشعب العربي أن الاستعمار يمكن أن يكون مخلصا لمصلحته ؟ هل الا لمصلحة الاستعمار الفرنسي نفسه ؟

رابعا : والتغرير المتعمد يتلوه تخدير متعمد ايضا . فما من هيئة وطنية في سوريا آنذاك ، وحتى الفريق الذي ايد المعاهدة كخطوة في الطريق، كانت تعتقد أن الشعب العربي يمكن أن ينال استقلاله الا عن طريق انتزاعه انتزاعا من الاستعمار الفرنسي بالقوة . والحزب الشيوعي في سوريا ولبنان ، بدلا من ان يطلب من الشعب العربي ان يكون مستعدا متيقظا ، عمل على ايهامه أن عهد النضال قد انتهى! لان المعاهدة ستتيح مجال التقدم «بسلام واخاء » !

ونحن نريد أن نعرف : هل يمكن لاي حزب فيه ذرة اخلاص لمصير هذا الشعب أن يقول بامكانية قيام « سلام » بين الشعب والاستعمار الذي يستعبده ؟ وأن يدعو لان تكون علاقة الشعب بالاستعمار علاقة « اخاء » ؟ وحتى في حالة تطبيق المعاهدة ، فهل تكون المرحلة الجديدة مرحلة اعداد الشعب لاستئناف النضال بشكل أقوى وأحزم لالغاء المعاهدة وتصفية الاستعمار نهائيا ، أم تكون مرحلة يطلب من الشعب فيها أن « يذهب الى بيوته » ويلقي السلاح وينسى وطنه ومصيره ، لانهما أصبحا الآن في أيد أمينة .. أيدي الاستعمار الفرنسي الملطخة بدماء هذا الشعب ؟!

خامسا : واخيرا ، فالقضية ليست قضية الاستعمار كنظام .. وانما كل القضية هي قضية موظفين !

ولكن هذا لم يكن كل شيء ..

ففي هذه الفترة ، حيث كان الاستعمار الفرنسي يجثم فوق صدر الشعب العربي في سوريا ولبنان وحيث كانت حتى المعاهدة التي اعتبرها الشيوعيون « الثوريون » نصرا تحرريا عظيما ، لم تصدقها فرنسا بعد، كان الحزب الشيوعي السوري اللبناني يعتبر أن العهد آنذاك هو **عهد الحكم الوطني** ! .. وليس من اثنين يمكن أن يختلفا في تفسير معنى تعبير العهد الوطني ..

المفروض في العهد الوطني أن تكون فيه السلطة وطنية لا أجنبية ، وأن تكون السيادة وطنية لا ينتقص منها « وجود » استعمار أو ارتباطات أجنبية استعمارية مفروضة على الشعب بالقوة .

ولكن الشيوعيين في سوريا ولبنان كان لهم رأي آخر في الموضوع !

لقد ذهبوا في مهادنة الاستعمار الفرنسي ، بل وتأييد وجوده ، واختراع المبررات الوقحة لبقائه الى حد جعل حكمه الاسود عام ١٩٣٧ حكما وطنيا، ومرة اخرى كان السكرتير العام للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان هو الناطق بتلك الخيانة السافرة لمعركة التحرر العربي ..

ففي خطاب القاه خالد بكداش في حي باب توما والقصاع بدمشق في ٢٥ نيسان ١٩٣٧ ، وذلك في الاحتفال الذي اقيم لصدور العفو عن بعض المبعدين السياسيين، وقف يتغنى بالمعاهدة وبحكم الاستعمار .. الوطني ، فقال متحدثا عن شهداء ثورة ١٩٢٥ في سوريا :

«اننا نحتفل بهم لاننا نرى **العهد الوطني الجديد**(!) نرى المعاهدة الفرنسية السورية الاخيرة ، نرى الآمال والاماني التي نصبو الى تحقيقها في المستقبل القريب ، نرى كل ذلك من صنعهم ايضا ..

« فلولا عام ١٩٢٥ لما كانت المعاهدة السورية ـ الفرنسية!

« ولولا عام ١٩٢٥ لما كان الحكم الوطني ..!

« ولولا عام ١٩٢٥ ببطولته وبسالته ، ودمائه وتضحياته ، لما كان عام ١٩٣٧ بمعاهدته وحكمه الوطني والآمال التى نعلقها عليه » (١)

فهل كان الشعب العربي في سوريا هو الذى يحكم ، ام كان الاستعمار الفرنسي الذى يسيطر على كل مقدرات البلاد صغيرها وكبيرها ؟ ولكن زعيم الشيوعيين الذى تفنى من قبل « باخلاص الاستعمار للشعب » ! لم يتورع أيضا عن أن يسبغ على الاستعمار صفة « الوطنية » .

لقد قال البعض ان عهد الحكم الوطني فيسوريا يبتدىء عام ١٩٤٣ ، وقال البعض الآخر انهيبتدىء عام ١٩٤٦ بجلاء قوات الاستعمار الفرنسي نهائيا عن سوريا ، ولكن أحدا لم يقل ان عهد الحكم الوطني يبتدىء عام ١٩٣٧ سوى عملاء هذا الاستعمار ، وهذا هو بالضبط ما كانه الشيوعيون في ذلك الموقف .

* * *

واستمر الحزب الشيوعي السوري اللبناني في سياسة مهادنة الاستعمار الفرنسي والعمل لقطع انفاس النضال العربي . ففي عام ١٩٣٨ أصبح واضحا من التقارير التى وضعتها لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ الفرنسي ، ان الحكومة الفرنسية لن تصدق معاهدة ١٩٣٦ « لان فرنسا قد تنازلت بموجبها عن أكثر مما يجب » ، وزاد هذا الموقف وضوحا بعد ان عاد الاستعماري المتطرف « ديلاديه » ليترأس الحكم مرة أخرى .. وفي هذا العام ايضا ازداد بطش سلطات الانتداب الفرنسي بالوطنيين ، ووقعت في ربيع عام ١٩٣٨ الاحداث الدامية المعروفة ، ووجد الحزب الشيوعي السوري نفسه مضطرا لان يقول شيئا ما ، ولو لكى يستطيع الاستمرار في اداء دوره التخديري التآمري على الاقل ، فماذا قال ؟ هل تراجع وأعلن خطأ موقفه السابق حين تحدث عن « حسن نية » الاستعمار الفرنسي « واخلاصه للشعب » ؟ هل هاجم الاستعمار الفرنسي واعلن ان احداث ربيع ١٩٣٨ لم تكن الا برهانا على ان الاستعمار يقاتل لتثبيت وتعميق سيطرته بشراسة ؟

لعل القارىء العربي يكاد لا يصدق عينيه حين يقرأ ان كل موقف الحزب ، وبعد كل هذه التطورات ، تلخص فيرسالة عتاب بعث بها زعيم الحزب خالد بكداش الى المفوض السامي الفرنسي قال له فيها :

« نحن نعلم ان كل هذه الاعمال لا تمثل ارادة فرنسا التى نحبها وتحبنا ، فرنسا التى عقدت معنا المعاهدتين ، فرنسا التى أنجبت الجبهة الشعبيه .. ! (٢)

هل هذه هي لهجة حزب « مناضل ضد الاستعمار » في مخاطبة الاستعمار ؟ ان هذه اللهجة هي اقل من عتاب ودى بين أصدقاء ، وهذه هي فعلا العلاقة التي كانت تسود بين الشيوعيين والاستعمار الفرنسي طيلة فترة ١٩٣٦ـ١٩٣٩ ، ولسنا ندرى كيف تجرأ حزب ، مهما بلغ موات المشاعر الوطنية فيه ، أن يتغنى بحب فرنسا فيوقت كان فيه الشهداء العرب يتساقطون برصاص الاستعمار الفرنسي ، والسجون تغص بالمناضلين من ابناء الشعب يدفعون اليها بقوة السلاح الفرنسي . وهل كان الحزب الشيوعي ، حزب الجماهير الشعبية ، يتكلم بلسان الشعب العربي في سوريا حين كان يتدلل « لفرنسا التى نحبها » ؟ وهل كان يتكلم بلسان فرنسا حين كان يتغنى « بفرنسا التى تحبنا » ؟ لقد عبر الشعب العربي بوضوح عن مدى « حبه » لفرنسا في سلسلة الانتفاضات الدامية المتتابعة التي قام بها ضد الاستعمار الفرنسي ، وعبرت السلطات الاستعمارية الفرنسية عن مدى « حبها » للشعب العربي في سلسلة حملات البطش والتنكيل التى قامت بها ضد الشعب .. فالحزب الشيوعي لم يكن في الواقع يتكلم الا بلسان الاستعمار الفرنسي الذى كان يهمه جدا ، ان يجد فئة تسبغ عليه مثل تلك الاوصاف في الوقت الذى يعمل هو فيه للقضاء على الحركة الوطنية .

ولقد وجد الاستعمار الفرنسي هذه الفئة فعلا ، فسواء كان الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان قد لعب هذا الدور التآمري الرخيص ، وعمل على تخدير النضال الشعبي التحرري ، وتبرير جرائم السلطات الفرنسية ، لمصلحة الحزب الشيوعي الفرنسي وحكم الجبهة الشعبية ومخطط الشيوعية الدولية أو لاى سبب اخر .. فهو بالنتيجة العملية قد وضع نفسه في خدمة الاستعمار الفرنسي طيلة هذه الفترة ، وتآمر معه صراحة ضد معركة التحرر العربي في سوريا ولبنان .

---

(١) : طبع الحزب الشيوعي هذا الخطاب ووزعه ـ نص الخطاب ص ٥ .

(٢) : « صوت الشعب » ـ (المقال الافتتاحي ـ عدد ١٥٥ ، ٥ ايار (مايو) ١٩٣٨ .

ولكن طريق الخيانة لا ينتهي ..

ففي عام ١٩٣٩ كانت المعاهدة التي تستر وراءها الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان قد الغيت نهائيا ، وكانت الجبهة الشعبية التي برر باسمها كل هذه الطعنات التي وجهت للتحرر الوطني ، قد اقصيت عن الحكم عمليا منذ مدة ، ومع ذلك ، ورغم الاحداث الدامية التي وقعت في هذا العام ، ورغم ان الاستعمار الفرنسي كان في هذا الوقت يعد اخر فصول مأساة اغتصاب لواء الاسكندرون ، استمر الحزب الشيوعي في مهادنة الاستعمار الفرنسي ، ومقاومة كل عمل يقوم به الشعب ضد سيطرته البغيضة . ففي ٢٠ اذار ١٩٣٩ أصدر الحزب بيانا الى الشعب يعلق فيه على الاضطرابات الدامية التي وقعت في ١٩ اذار ، قال فيه : (١)

« ان الشعب السوري الباسل ليس شعب الفوضى والشغب ! انه يناضل في سبيل استقلاله وحقوقه التي نصت عليها معاهدة ١٩٣٦ » .

« ان الشعب السوري براء من اعمال التفرقة والشغب والتخريب التي يقوم بها بعض المدسوسين والجواسيس المدفوعين ، وبعض المأجورين لايطاليا والمانيا يريدون تشويه نضالنا الوطني العظيم ! فمسئولية هذه الدماء الكريمة تقع اذن على تلك السياسة الرجعية التي اوحى بها طغاة الاستعمار والعناصر الفاشية ، هذه السياسة التي ترمي الى عرقلة تصديق المعاهدة .. » !

بهذا التوجيه المتآمر الذي تفوح منه رائحة الخيانة ، كان الحزب الشيوعي السوري اللبناني يقيم الاحداث الدامية التي شهدها عام ١٩٣٩ ! والشيوعيون الذين يتحدثون عن مأجوري ايطاليا والمانيا ، والعناصر الفاشية وطغاة الاستعمار الذين يعدونهم مسؤولين عن دماء الشهداء ، لا يذكرون حرفا واحدا عن فرنسا والاستعمار الفرنسي !! لقد طعن الشيوعيون « نضالنا الوطني العظيم » ، وخانوا « الشعب السوري الباسل » ، وحتى هذا التاريخ كانوا ولا زالوا مستمرين في تجاهل الاستعمار الفرنسي كنظام ، وفي ايهام الشعب العربي ان كل قضيته هي قضية بعض العناصر التي تحاول عرقلة المعاهدة ، بعد ان دفنت فرنسا هذه المعاهدة بزمن طويل .

وبينما كان الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان مستمرا في مؤامراته القائمة على نظرية « فرنسا التي نحبها وتحبنا » كان الاستعمار الفرنسي مستمرا في عمله لفرض سيطرته التامة على سوريا ولبنان .

وفي نفس هذا العام ، ١٩٣٩ ، اقدمت السلطات الفرنسية على الغاء كل مظهر من مظاهر الحرية النسبية في البلاد ، فحلت المجلس النيابي ، وشكلت بعد استقالة وزارة هاشم الاتاسي ، حكومة مديرين ربطتها مباشرة بالمفوض السامي الفرنسي ، وخيم جو من الارهاب الاستعماري الاسود في كل انحاء البلاد .

اغتصاب لواء الاسكندرون :

في هذه الفترة الممتدة ما بين ١٩٣٦ - ١٩٣٩ ، جابهت الشعب العربي عامة وفي سوريا خاصة قضية من اهم قضايا معركة التحرر العربي ، تلك هي قضية لواء الاسكندرون . وكان النضال العربي ضد الاستعمار الفرنسي - والملابسات التي رافقت معاهدة ١٩٣٦ - يسير جنبا الى جنب مع النضال ضد المؤامرة البشعة التي كان ينفذها خطوة فخطوة الاستعمار الفرنسي وتركيا لسلخ لواء الاسكندرون عن سوريا واعطائه لتركيا . والواقع ان جريمة اغتصاب لواء الاسكندرون كانت ولا تزال ، من الزاوية القومية ، هي الوجه الرئيسي لاحداث هذه الفترة من تاريخ معركة التحرر العربي ، ذلك ان هذه القضية لم تكن قضية تكبيل الشعب العربي وفرض السيطرة الاستعمارية عليه ، وانما كانت قضية مختلفة نوعيا « لانها جريمة اغتصاب جزء عربي ، وطمس عروبته ، وسلخه نهائيا عن جسم الامة العربية . وقضيتنا في لواء الاسكندرون هي من هذه الزاوية ، زاوية اختلافها عن اشكال الاستعمار المعروفة في الوطن ، تماما كقضيتنا في فلسطين ، وقبل ذلك في عربستان ، وكالمحاولات المستمرة لفرنسة الجزائر .

ومنذ اواخر عام ١٩٣٦ ابتدأت فرنسا وتركيا في اعداد فصول هذه الكارثة القومية ، كما كانتا قد اقدمتا من قبل في عام ١٩٢١ - بموجب اتفاقية « انقرة » الاولى - على اقتطاع كيليكيا من سوريا والحاقها بتركيا . وابتدأت المؤامرة باتفاق مسبق بين فرنسا وتركيا على رفع ادعاء تركيا لحقوقها المزعومة في اللواء الى عصبة الامم المتحدة في اواخر عام ١٩٣٦ . وتمخضت هذه الخطوة الاولى في المؤامرة عن اتفاقية « جنيف » عام ١٩٣٧ التي نزعت سيادة سوريا عن اللواء ، ووضعت له نظاما اساسيا خاصا ، واقرت اجراء انتخابات جديدة . وكانت الخطوة الثانية هي اقدام فرنسا وتركيا على

(١) : صدر البيان بعنوان « دماء شهدائنا » ، وبالتوقيع التالي : « عن اللجنة المركزية - السكرتير العام ، خالد بكداش »

تزوير الانتخابات بشكل فاضح ، ثم اجتياح القوات التركية للواء بمساعدة فرنسا ، حيث تمت الانتخابات تحت ضغط وتزوير القوات الفرنسية والتركية عام ١٩٣٨. ونال الاتراك بالطبع الاكثرية في المجلس الجديد . ثم كانت الخطوة الثالثة والاخيرة هي الاتفاق الذي عقد بين فرنسا وتركيا عام ١٩٣٩. وعرفت باتفاقية « انقرة » الثانية ، حيث سلخ اللواء نهائيا عن سوريا ، والغيت عمليا اتفاقية جنيف - بالامر الواقع - وجعلت تركيا اللواء العربي جزءا تابعا لها .

وكان الوضع الدولي الذي نفذت فيه هذه الجريمة ملائما تماما لارتكابها باقل ضجة ممكنة . صحيح ان فرنسا وتركيا كانتا الدولتين اللتين وجهتا الطعنة المباشرة للواء ، ولكن الدول الكبرى ، كلها ، وافقت على هذه الجريمة ، تماما كما اجتمعت كلها يدا واحدة ضد حق العرب في فلسطين بعد ذلك بعشر سنوات .

فتركيا تريد اغتصاب هذا الجزء العربي ذي الموقع الاستراتيجي الخطير والثروات الكبيرة .

وفرنسا التي تستعمر سوريا تريد الامعان في تجزئة سوريا، كما يهمها ان تكسب ود تركياوتجعل منها جارة حليفة ، بدل ان تقوم على أطراف سوريا الشمالية دولة مجافية للاستعمار الفرنسي .

وبريطانيا يهمها جدا ايضا ارضاء تركيا وفرنسا من جهة ، لاستغلال هذه الجريمة كورقة رابحة ، في مقابل المشاكل التي كانت تركيا وفرنسا قد بدأتا تثيرانها في وجه بريطانيا ، بشأن ادخال الموصل وشمال العراق ضمن نفوذ الاستعمار البريطاني ، ومن جهة ثانية ، ليسير اقتسام الوطن العربي بين بريطانيا وفرنسا في جو مسالم ، فيسكت الاستعمار البريطاني عن جرائم فرنسا ، ويسكت الاستعمار الفرنسي عن جرائم بريطانيا .

والاتحاد السوفييتي ، وفق سياسته العامة في تلك الفترة التي سبقت الحرب ، يهمه جدا أن يكسب ود تركيا بشكل خاص ، وفرنسا وبريطانيا كذلك ، لانه يريد حلفاء يقفون بجانبه ضد المانيا . وهكذا بارك الاتحاد السوفييتي هذه المؤامرة دون أي اعتبار لعروبة اللواء .

في هذا الجو الدولي المتآمر الذي استوت فيه كافة الدول الكبرى في موقف استعماري واحد صارخ ، بدأت تنفذ جريمة اغتصاب لواء الاسكندرون .

كان تأييد الدول الاستعمارية الغربية لسلخ اللواء عن سوريا واضحا ولا يحتاج لشرح . اما الاتحاد السوفييتي ، فقد أيد الخطوة الاولى في المؤامرة التي تمخضت عن نزع سيادة سوريا عن اللواء وايجاد نظام خاص به .

وفي ٢٧ كانون الثاني ١٩٣٧ ، وبعد أن ناقشت عصبة الامم تقرير الوسيط الدولي « ساندلر » عن الوضع في اللواء ، أيد الاتحاد السوفييتي الحل الذي تقدم به ، والذي مهد لاتفاقية جنيف معتبرا اياها خطوة جيدة !

وقال « ليتفينوف » وزير الخارجية السوفييتية معلقا على ذلك الحل :

« أن حكومته قد اهتمت لهذه القضية منذ البداية لانها تخص دولتين ترتبط بهما بصلات وثيقة: فتركيا لها صلات صداقة وثيقة جدا بالاتحاد السوفييتي منذ بدء حياتها ، وفرنسا ترتبط معه بمصالح مشتركة وبميثاق للتعاون المشترك . ومن الطبيعي أننا نرغب أن يتوصل اصدقاؤنا بصورة عملية الى هذه الصداقة » (١)

« وفي الجلسة السادسة من اجتماع عصبة الامم السابع والتسعين المنعقد في جنيف في ٢٩ أيار ، والذي وقع فيه على الصيغة النهائية لاتفاقية جنيف الجائرة التي ألغت السيادة السورية عن اللواء ، تكلم الرفيق ليتفينوف أيضا ، وكان وزيرا لخارجية الاتحاد السوفييتي ، فعبر عن ارتياحه لهذه التسوية « السارة » لانها تدل على نجاح الحكومة الفرنسية التي تربطها مع الحكومة السوفييتية رابطة الصداقة، وعلى نجاح الحكومة التركية التي ارتبطت معها أيضا بروابط صداقة قديمة لم تتبدل ، وعلى نجاح العصبة التي تعتبرها حكومته عنصرا مهما في سياستها »(٢)

وهكذا في خضم هذا السيل من الود والصداقات والاعجاب بسلسلة « النجاحات » في هضم حقوق الامم ، بارك الاتحاد السوفييتي هذه الجريمة تماما كما باركتها وعملت لها الدول الاستعمارية .

---

(١) : خطاب ليتفينوف في مجلة عصبة الامم الرسمية ، ص ١٢١ ، شباط ١٩٣٧ ، - الطبعة الانجليزية » عن : « صفحات مجهولة في تاريخ الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان » ، محمد علي الزرقا والياس مرقص ، ص ٤٥ .

٢) : خطاب ليتفينوف في مجلة عصبة الامم الرسمية ، ايار وحزيران ١٩٣٧ ، ص ٣٢٢ - ٣٢٣ ، الطبعة الانجليزية - عن : « صفحات مجهولة من تاريخ الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان » ، محمد علي الزرقا والياس مرقص ، ص ٤٦ .

أما الحزب الشيوعي الفرنسي ، فهو هنا ايضا ، لا يريد احراج حكومة الجبهة الشعبية الفرنسية مهما اتخذت من مواقف استعمارية تآمرية صارخة • فقد استدعى الحزب الشيوعي الفرنسي مرة أخرى مندوب القيادة المركزية ، رفيق رضا ، لينقل التعليمات بطريق التسلسل الى الاجير الثالث ، الحزب الشيوعي السوري اللبناني ! وقال رفيق رضا عضو القيادة المركزية في بيانه عن ذلك الموقف :

« كنت لا ازال آنذاك في فرنسا ايضا ، واتصلت بي قيادة الحزب الشيوعي الفرنسي ، وبسطت لي الموقف وذكرت أن فرنسا غير مستعدة لاغضاب تركيا ودفعها الى الوقوف بجانب محور برلين روما ، خصوصا ووزارة الخارجية البريطانية تصر على وجوب ارضاء تركيا بأي ثمن كان • وقيل لي صراحة أن الحزب الشيوعي الفرنسي يقف بواقع هذا الحال موقفا دقيقا من هذه الازمة الدولية ، على اعتبار أن احراج موقف الحكومة الفرنسية سيؤدي الى استقالتها ، والاستقالة تؤدي الى انهيار حكم الجبهة الشعبية • وهنا الكارثة في نظرهم ، خصوصا والاتحاد السوفييتي يلح بوجوب تجنب كل ما يؤدي الى تغيير الوضع السياسي والحكومة في فرنسا ، لانه كان يعلق آمالا كبيرة على استقرار الوضع العام فيها • »

وابلغ مندوب القيادة المركزية التعليمات الى القيادة المركزية • « هذا وقد نقلت وجهة نظر القيادة الفرنسية ، الى قيادة الحزب في سوريا ولبنان جملة وتفصيلا ، وفي هذه المرة أيضا أخذت القيادة المذكورة برأي قيادة الحزب الشيوعي الفرنسي •• » (بيان رفيق رضا) • وقد وافقت القيادة السورية على هذا الموقف من قضية اللواء ، لانها هي أيضا ؛ قد وجدت أنه « قد قارب بين الدول الديمقراطية وفي مقدمتها انجلترا وفرنسا ، ووطد الصداقة التقليدية التي تجمعهما الى تركيا ، وبهذا كله جنب العالم اخطار توتر دولي في منطقة الشرق الاوسط •• » (بيان رفيق رضا) •

ومرة اخرى ، كان الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان أمينا جدا لمخطط الشيوعية وتعاليم الحزب الشيوعي الفرنسي ، وبرهن أنه مستعد كل الاستعداد للترفع عن « التعصب القومي السوفييتي » وبعد الموافقة المبدئية على ارتكاب هذه الخيانة القومية الفادحة ، انتقل الى وضع المخطط التفصيلي لتنفيذها ، ووقف الى جانب الاستعمار الفرنسي والتركي يدا بيد ، يحكمون تسديد الخنجر الى قلب اللواء العربي .

كانت قضية الاسكندرون مطروحة على عصبة الامم المتحدة ، حين وقف خالد بكداش السكرتير العام للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان يفتتح ، كالعادة ، بدء المؤامرة المجرمة • ففي الخطاب الذي القاه في حلب في ٢٢ كانون الثاني ١٩٣٧ ، حدد - تحت ستار كثيف من الجمل الحماسية الرنانة - موقف الحزب المبدئي بقوله : « وسوريا التي ستعمل للدفاع عن حقوقها المشروعة في بقعة من أرضها ، لن تؤخذ في الوقت نفسه باحابيل من يريدون الاستفادة من نزاع الاسكندرون لاضعاف جبهة السلام » •(١)

وكان هذا الخيط المائع الذي رماه الشيوعيون آنذاك بمثابة خطوة لحفظ خط الرجعة • فاذا تطورت قضية الاسكندرون واضطر الشيوعيون الى تاييد جريمة الاغتصاب حتى النهاية ، فيمكن عندئذ طمس جوهر النزاع بين الشعب العربي من جهة ، وتركيا وفرنسا من جهة ثانية ، بالدعوة الى عدم اضعاف جبهة السلام • فقد كان واضحا أن الذي يقصده خالد بكداش « بجبهة السلام » هو : الجبهة التي كانت سياسة السوفييت تهدف إلى ايجادها آنذاك من فرنسا وبريطانيا وتركيا وأميركا ، فاذا ما تعارض أي حدث مع انسجام هذه الجبهة فيجب سحقه بلا تردد ، أي اذا كان نضال الشعب العربي ضد تركيا وفرنسا لمنع جريمة اغتصاب اللواء سيؤدي الى اضعاف « جبهة السلام » ، فيجب الدوس على حق العرب القومي ، وسحق النضال العربي بلا تردد • ولم يكن زعيم الشيوعيين ليجهل أبدا بالطبع ، أن السلام الذي يتحدث عنه بين تلك الدول الاستعمارية هو سلام طافح بأبشع انواع الخيانة والتخاذل ، ولا أنه « سلام » سيقوم على أرض مخضبة بدماء آلاف الشهداء العرب ، وعلى تمزيق الوطن العربي ، بل كان يدرك ذلك تمام الادراك ، وكان يمهد بهذا الموقف للمؤامرة ، مرة أخرى ، عن سابق تعمد وتصميم •

وابتدا المخطط يوضع موضع التنفيذ ، ويسير بموازاة المخطط الاستعماري الفرنسي التركي • ففرنسا وتركيا دولتان ديمقراطيتان لا يجوز اغضابهما !

---

(١) - من الخطاب الذي نشر في كراس « في سبيل حريات الشعب الوطنية والديمقراطية » ص ٢٢ .

على الوقت الذى كانت فيه تركيا تدفع الاقلية التركية في اللواء الى التكتل ، وتمدها بالمال والسلاح للضغط على عصبة الامم من جهة ، والتمهيد للمؤامرة الكبرى من جهة ثانية ، وكمحاولة لارهاب الشعب العربي في اللواء - حسب ظنها - من جهة ثالثة ، خرج الشيوعيون يدعون الى « الاخاء العربى التركي » ويتغنون بتركيا الديمقراطية ، عاملين على طمس الجوهر القومي للنزاع القائم بين العرب والاتراك ، بتقديم تفسير اقتصادى طبقى للاحداث الجارية في اللواء ، على غرار ذلك التفسير الطبقي الميت المفلوج الذى قدموه لطمس الجوهر القومي لقضية فلسطين ونزاع العرب واليهود ، بعد ذلك بعشر سنوات .

وحين سار المخطط التركي الاستعماري لاغتصاب اللواء خطوات بعد اتفاقية جنيف واجتياح القوات التركية للواء ، سكتوا عن هذه الجريمة بل وبدأوا يؤيدونها .

وطيلة هذه السنوات الثلاث ، لم يسكتوا فقط عن الدور الكبير الذى كانت تلعبه فرنسا في تنفيذ المؤامرة ، بل عملوا على تبرئتها من هذ الجريمة ! واستمروا في تأييد معاهدة ١٩٣٦ والدعوة الى « التحالف السورى الفرنسى » رغم انه كان قد أصبح واضحا حتى للعميان ، أن فرنسا تفصل تماما بين معاهدتها مع سوريا ، وبين قضية لواء الاسكندرون التي اعتبرتها قضية خاصة يجب ان تعالج على انفراد ، فقد كان هذا الموقف أسهل لتنفيذ مخطط الاغتصاب .

ولنر كيف سار المخطط بعد تمهيد خالد بكداش للمؤامرة .

منذ عام ١٩٣٧ ، وبناء على الموقف العام للحزب ، حدد سكرتير الحزب الشيوعي السورى في لواء الاسكندرون ، قاسم رضوان ، رأى الحزب في جوهر النزاع القائم في اللواء بقوله :

« ان أهم ما يميز الوضع الحاضر في لواء الاسكندرون ، هو حبك المناورات ليل نهار لتشجيع التناحر والعداء القومي والطائفي .

« ويرى المتأمل ان الرجعيين على اختلاف قومياتهم يتفقون مع بعضهم لاستغلال نتاج أبناء الشعب ، سواء كان المستغل عربيا أو تركيا او ارمنيا ، وبالوقت نفسه يعملون لبذر الشقاق والعداء بين جماهير الشعب العاملة » (١) !

وان هذا الموقف الفكرى والعملي بصدد جوهر النضال القائم في لواء الاسكندرون ، ليس برأى الشعب العربي في اللواء في سوريا وفي الوطن عامة ، الا خيانة صريحة للنضال ضد اغتصاب اللواء ، ومحاولة وضيعة لطمس جوهر القضية .

أولا : من الذى « يشجع التناحر القومي » في لواء الاسكندرون ؟ ان سكرتير الحزب الشيوعي السورى في اللواء يضع « المسؤولية » في هذا العمل على فريق من العرب ، تماما كما يضعها على فريق من الاتراك والارمن ، وعلى نفس المستوى ! والواقع اننا لم نكن نتصور أن يصل كذب الشيوعيين ارضاء « لجبهة السلام » الى هذا الحد من الوقاحة . فالشيوعيون يتجاهلون تاريخ أحداث اللواء ، ويتجاهلون أن تركيا هي التي أثارت القضية حين طلبت من فرنسا اثر معاهدة ١٩٣٦ ، أن تعقد معاهدة خاصة مع لواء الاسكندرون ، تضمن بها « استقلاله » عن سوريا على أساس ان اللواء ليس جزءا من الارض السورية .. وان تركيا وفرنسا بالتآمر مع بعضهما هما اللتان رفعتا قضية اللواء الى عصبة الامم ، حيث كان معروفا مسبقا أن الدول الكبرى ، على اختلافها ، ستؤيد الحل الذى تتقدمان به .. وأن الاتراك القاطنين في اللواء بدأوا يتكتلون ويطالبون باللواء ، رغم أنهم أقلية ، كجزء من المخطط الفرنسي التركي لاغتصاب اللواء .

فهل يجهل أحد من الشعب العربي هذه الحقائق ؟ فلأى هدف ، ولمصلحة من ، كان الشيوعيون يتجاهلون تماما الدور الذى لعبته تركيا في هذا الصدد ؟ ويتجاهلون أنها كانت البادئة في تشجيع الاتراك في اللواء على التكتل ؟ اذن .. فبأى منطق كان الشيوعيون يلومون الوطنيين الذين كانوا يعملون لاذكاء الروح القومية في صفوف الشعب العربي في اللواء حفاظا على عروبة اللواء ؟ هل كانوا ، حسب هذا المنطق ، يطالبون اذن بترك القضية ونسيانها في الوقت الذى بدأ فيه خنجر الاستعمار التركي يتسلل الى قلب اللواء العربي ؟

اننا نقول للشيوعيين أن هذه المحاولة لتجاهل حقيقة الاوضاع في اللواء ، وهذا العمل لالهاء الشعب عن قضيته القومية الخطيرة ، لم يكن الا منطقا متآمرا على مصير اللواء .. ونقول لهم ، ان كل المنظمات والاندية والمواطنين المخلصين في اللواء ، على اختلافهم ، كانوا يثيرون الشعور القومي ضد

---

(١) : مقال نشر في « صوت الشعب » لقاسم رضوان سكرتير الحزب الشيوعي السورى في اللواء - عدد ٢٥ ، بتاريخ ٦ تشرين الاول ١٩٣٧ - « صفحات مجهولة .... » ص ٣٦ .

ادعاءات الاتراك في اللواء ، وهذا كان واجبهم بالضبط . فما يسوقه الشيوعيون على أنه عمل « رجعي » ، يدرك كل مواطن في الشعب أنه جوهر التقدمية لانه يهدف للدفاع عن حق الشعب العربي ضد اغتصاب أجنبي دخيل ».

فهل كان الشيوعيون يعتقدون غير ذلك ؟

ثانيا : ولكن هذا المنطق المتآمر يتضح أكثر في محاولة تسخير النظرية الشيوعية ، كالعادة ، لدعم الخيانة النضالية . فكل قضية لواء الاسكندرون ليست في النهاية برأي الشيوعيين في سوريا ، « الاشتراكيين العلميين (!) » الا قضية اقتصادية ! الا تعبيرا عن الصراع الطبقي بين المستغلين الرجعيين عربا ، واتراكا ، وبين الطبقة العاملة من العرب والاتراك ! ونحن لا نرى ، كما لا يرى كل انسان ذي عقل حتما ، في هذا المنطق ذرة واحدة من العلمية بقدر ما نراه محملا بأوزار الخيانة . فهذا المنطق ليس له الا هدف واحد هو : طمس حقيقة النضال العربي في اللواء الذي هو في جوهره نضال قومي، هذا من جهة ، وطمس حقيقة الدور الذي تقوم به تركيا وفرنسا لاغتصاب اللواء ، من جهة ثانية .

ان قضية الشعب العربي في لواء الاسكندرون ليس لها الا تفسيرا واحدا : هناك أرض عربية ، وهناك مؤامرة تركية - فرنسية لاغتصاب هذه الارض وتتريكها .

فالقضية قضية قومية بين الشعب العربي المدافع عن حقه ، وبين الاتراك الغاصبين وفرنسا المستعمرة .. وفي هذه المعركة يقف الشعب العربي ، كل الشعب العربي ، في طرف ، بينما يقف الاتراك الغاصبون والاستعمار الفرنسي في الطرف المقابل . فهل كانت مأساة لواء الاسكندرون هي نضال الطبقة العاملة في سبيل مطالبها الاقتصادية ، أم كانت نضال الشعب العربي في سبيل حقوقه القومية ؟ ومن الذي قال أصلا ان مصلحة العمال العرب في اللواء كانت منسجمة مع مصلحة العمال الاتراك ؟ فهل اذن من حاربنا من الاتراك القاطنين لواءنا العربي كانوا حفنة من الرجعيين ؟ أم كانوا كل هؤلاء الاتراك ؟

لقد أعطى الشيوعيون هذا التفسير المغلوط المتآمر نفسه لقضية فلسطين والنزاع العربي اليهودي ، حيث دعوا الى الاخاء بين العرب واليهود ، وطمسوا جوهر القضية القومي .. وكان من السهل على الشيوعيين السوريين ان يعطوا هذا التفسير الطبقي الخاطيء لجوهر النضال القائم في الاسكندرون ؟ فهم أصلا كانوا معزولين كليا عن النضال القائم هناك في سبيل عروبة اللواء ، ولم تكن القضية بالنسبة لهم سوى أن يقبعوا في غرفهم ويفتحوا أي كتاب ماركسي وينقلوا منه حرفيا مثل هذا الكلام الفج لتبرير مؤامراتهم المفضوحة .

واستمرت المؤامرة .

في ٢٩ أيار ١٩٣٧ كانت عصبة الامم قد أقرت اتفاقية جنيف الآنفة الذكر ، وفي ٢٩ تشرين الثاني ١٩٣٧ أصبحت هذه الاتفاقية نافذة المفعول . وكان الشعب العربي قد قابل قرار عصبة الامم في ٢٧ كانون الثاني ١٩٣٧ - الذي يجعل اللواء وحدة سياسية منفصلة عن سوريا - كان قد قابل ذلك القرار باستنكار شديد ، واحتجت الحكومة السورية على هذا القرار ، وعلى تقرير « ساندلر » كما رفضه المجلس النيابي السوري . كذلك لم تكن الحركة الوطنية في سوريا آنذاك تفصل أبدا بين نص معاهدة ١٩٣٦ على انهاء الانتداب ، وبين شمول هذا النص للواء الاسكندرون أيضا . فاللواء جزء من سوريا يسري عليه ما يسري على سوريا ككل ، بل ان المناقشات التي دارت في المجلس النيابي السوري قبل اقرار النظام الاساسي للواء في اتفاقية جنيف ببضعة ايام ، قد اكدت انها تعلق مصير المعاهدة بين سوريا وفرنسا ، ككل ، على انتهاء قضية لواء الاسكندرون على أساس كونه جزءا من سوريا ، وعدم قبول أية مساومات في هذا الصدد . وقد جاء في مذكرات المجلس النيابي السوري في جلسة ٢٥ أيار ١٩٣٧ ، أي قبل اقرار اتفاقية جنيف الجائرة بأربعة أيام فقط ما يلي :

« .. ان تقرير ساندلر لا يقر لسوريا بالسيادة وانما يقر لها بشيء يسمى ولاء ، يريد أن يقوم بين سوريا والاسكندرون . فاذا قبلت عصبة الامم هذا التقرير فاننا نكون عندئذ في حل من المعاهدة المعقودة مع فرنسا ، بل أذهب الى أكثر من هذا وأقول ، أنه لا يجوز لنا أن نعتبرها مصدقة أو موجودة لان دستورها الصوري ينص على أن سوريا وحدة سياسية لا تقبل التجزئة . فاذا لم تكن السيادة السورية موجودة في جزء من سوريا ، هو الاسكندرون فمعنى ذلك اننا نخل بالدستور السوري ، ومعنى ذلك اننا نعمل عملا لا يجوز لمجلس نيابي أن يعمله .. »

هذا على الصعيد الرسمي . وطبعا كان لاستنكار هذه الخطوة الاولى في المؤامرة مظاهر عديدة على الصعيد الشعبي في اللواء وفي سوريا عامة .

اما الحزب الشيوعي السوري اللبناني .. فقد ايد اتفاقية جنيف مؤيدا فصل لواء الاسكندرون عن سوريا !

ففي ١٧ ايلول ١٩٣٧ – أى بعد توقيع اتفاقية جنيف واتمام الخطوة الاولى فى المؤامرة التركية الفرنسية – ، علقت « صوت الشعب » على خبر كانت قد أوردته جريدة « فلسطين » مفاده أن هناك تعديلا سيطرأ على المعاهدة السورية الفرنسية يتعلق بمسألة لواء الاسكندرون « ولم تكن المعاهدة قد نصت على اى شيء يتعلق باللواء لانه حكما جزء من سوريا » ، علقت بقولها :

« ... واذا صح الخبر ، فنحن ، مع كل ثقله ووطأته ، نحب بكل قوانا أن نصدق مراسل فلسطين فى ان التعديل يقتصر على مسألة لواء الاسكندرون فقط . بل لن يكون هذا التعديل امرا جديدا ، اذ من الطبيعي ان تنعكس فى المعاهدة حلول الاسكندرون بعد ان صدقتها عصبة الامم . » (١) !

هذا اعتراف رسمى من الحزب الشيوعي فى جريدته الرسمية بتاييد اتفاقية جنيف الجائرة ، التى اقرت جعل اللواء كيانا سياسيا مستقلا عن سوريا . وتلك الاتفاقية لا تثير مجرد اعتراض واحد فى أذهان الحزب الشيوعي السوري اللبناني ، ولو دعاويا على الاقل ، بل على العكس ، يراها هذا الحزب المتآمر « شيئا طبيعيا » ! بل وأكثر من ذلك أيضا ، فقد ذهب هذا الحزب فى مساندة جريمة اغتصاب اللواء ، الى حد تأييد اعطائها صفة شرعية ، بقبول تضمنها فى المعاهدة الرسمية بين سوريا وفرنسا .

ولنلاحظ كذلك بالمقابل ، أن الحزب الشيوعي السوري اللبناني ، يستمر فى تأييد معاهدة ١٩٣٦ حتى ولو نصت على اقتطاع لواء الاسكندرون من جسم الوطن العربي ! وفى مثل هذه الحالة ، هل تكون المعاهدة خطوة نحو الاستقلال أم مبررا للاغتصاب ؟ ولكن الحزب الشيوعي ضرب عرض الحائط بقرار المجلس النيابي السوري ، وبانتفاضات الشعب العربي فى سوريا ، وكان مستعدا فى سبيل عقد هذه المعاهدة ، دعما لحكم الجبهة الشعبية فى فرنسا ، أن يوغل أكثر من ذلك فى التآمر على معركة التحرر العربي وقضية لواء الاسكندرون . –

ولقد فعل ! .

فبعد أن دعا الى تأييد المعاهدة ، ولو نصت على اغتصاب لواء الاسكندرون ، وأيد فصل اللواء عن سوريا ، دعا الى ربط سوريا بالاحلاف الاجنبية ولو ادت الى الاقرار بحق تركيا فى اللواء ، لان فرنسا وتركيا دعامتان هامتان فى مثل هذه الاحلاف التى قال الحزب الشيوعي عنها آنذاك : انها ستدعم جبهة السلام !

فبعد يوم واحد من اعلان الحزب الشيوعي تاييده لاتفاقية جنيف على صفحات صوت الشعب ، حملت « صوت الشعب » فى ١٨ ايلول ١٩٣٧ تعليقا تؤيد فيه ميثاق سعد آباد الاستعماري بقولها :

« منذ الآونة التى تم فيها الميثاق الشرقي بين دول الشرق الادنى الاربع (تركيا ، العراق ، ايران ، افغانستان) وأقطار البلدان السورية متجهة الى هذا الحلف ، الذى اقل ما يقال فيه انه حلف يرمى الى تعزيز السلام العالمى (١) . فلما عقدت المعاهدة السورية الفرنسية ، بات من المنتظر أن تتجه بنفسها نحو الحلف الشرقي ، ولا سيما بين فرنسا وتركيا أواصر وثيقة ، فضلا عن اتفاقية لواء الاسكندرون القاضية بالدفاع عن سوريا وفاق معاهدة ثلاثية تعقد بين هذه الدول الثلاث . ومن كل هذا يتبين لنا ، أن الوضع السياسي يساعد على تحقيق التآلف والدفاع المشترك بين أقطار الشرق الادنى ، خصوصا ونحن فى غمرة من غمرات نزوع الفاشية الى اجراء تقسيم جديد للعالم وتوزيع مناطق النفوذ . » (١)

وهكذا باسم مكافحة الفاشية ، كان الشيوعيون يعملون ، تنفيذا لمخطط الشيوعية الدولية ، على وضع عنق الشعب العربي بين يدى الاستعمار . ولعل القارىء العربي يلاحظ بوضوح :

اولا : أن هذا الميثاق الشرقي المعروف بميثاق سعد أباد يكاد يكون فى تكوينه نفس حلف بغداد المنهار باستثناء أفغانستان ، وهذا الميثاق الذى يقول عنه الشيوعيون بكل وقاحة أنه « اقل ما يقال فيه انه يرمى الى تعزيز السلام العالمى » ، كان معروفا للجميع انه حلف اقل ما يقال فيه انه « يرمى الى تعزيز الاستعمار العالمى » . ولا يهمنا فى الواقع أن نبحث

---

(١) : « صفحات مجهولة من تاريخ الحزب الشيوعي فى سوريا ولبنان » .
(١) : صوت الشعب – عدد ١٥ ، ١٨ ايلول ١٩٣٧ .

للشيوعيين ان يؤيدوا في فترة بحماس غريب مثل هذه الاحلاف الاستعمارية ، ثم يهاجمونها في فترة أخرى بعنف أشد ! ولكن ما يهمنا أن نشير اليه ، انهم لم يكتفوا بتأييد معاهدة ١٩٣٦ دون قيد أو شرط ، بل عملوا ايضا وبنفس الوقت على اقحام الشعب العربي في أحلاف اجنبية لا مصلحة قومية له فيها ، ولا تخـــدم المصلحة الانســـانية كذلــــك أبدا . ولـــكن مصير الشعـــب العربي غير ذي اهمية حين يتطلب مخطط الشيوعية الدولية ، في فترة ما ، تجاهل مصائر الشعوب ؟

ثانيا : ولكن هذه الدعوة التآمرية لا تقف عند هذا الحد. فالشيوعيون لايطلبون من الشعب العربي أن يكبل نفسه بارتباطات ومعاهدات أجنبية جديدة عن طريق المعاهدة السورية الفرنســية ، بل وأن يدخل في حلف « تآلف وسلام » مع تركيـــا التي كانت قد أتمت أول خطوة في مؤامرة اغتصاب اللواء، وتعمل باستماتة لاتمام كامل فصول هذه الجريمة . أي : أن يمد الشعب العربي يده ليصافح يد تركيا المخضبة بدمائه ويبارك لها اغتصــــاب جزء من وطنه .

ثالثا : ان الحزب الشيوعي في هذه الدعوة يحدد موقفه بشكل مباشر وبوضوح تام تجاه قضـــية الاسكندرون . فهو لا يعتبر أن اتفاقية فرنســـا وتركيا لاغتصاب اللواء اتفاقية مؤيدة ومنتهيـــة فحسب ، ولكنه يعتبرها أيضا خطوة هامة جديدة « في تعزيز اواصر الصداقة بين تركيا وفرنسا » !! وهنا أيضا لم يكن الحزب الشيوعي يجهل أن اواصر الصداقة بين تركيا وفرنسا التي يحرص عليها كل الحرص ، لم تكن شيئا آخر الا أواصر الصـــداقة الاستعمارية بين هاتين الدولتين ، والتي كان ثمنها تقديم فرنسا لواء الاسكندرون الى تركيـــا . ولكن الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان ، لم يكن يعتبر « كما هو واضح ، أن هذا ثمنا غاليا .. فاللواء ، بل وكل الوطن ، ثمن بخس في سبيل تنفيـــذ مخطط الشيوعية الدولية الذي يضعه « الاتحاد السوفييتي العظيم .. نصير الشعوب المظلومة » ! (١)



وجنبا الى جنب مع الخطوات الجديدة التي كان يحققها الاستعمار الفرنسي في مؤامرة ســـلخ لواء الاسكندرون واعطائه لتركيا ، كان الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان يزداد تجاهلا لجرائم الاستعمار الفرنسي في البلاد ، بل لقد ذهب الى حد تبرئة فرنسا كدولة من أي دور في جريمة اللواء ! بل وأكثر من ذلك ، فقد نصب من نفسه مدافعا عن فرنسا « التي يوجهون اليها هذا الاتهام غير العادل . » وكان خالد بكداش السكرتير العام للحزب هو الناطق بهـــذا الدفاع الحار عن الاستعمار الفرنسي ، اذ كتب في « صوت الشعب » بتاريخ ٧ حزيران سنة ١٩٣٨ يقول :

« ليست فرنسا هي التي خيبت آمال اللـــواء وآمال العرب . ليست فرنسا هي التي تراجعت أمام الاستعمار التركي ، وتخلت عن تعهداتها الدولية ، ورضيت بدوس قرارات عصبة الامم نفسها . كلا فرنسا لم تفعل ذلك . بل فعـــل ذلك بعض الدبلوماسيين الفرنسيين .. » (١)

---

(١) : لم يكن ميثاق سعد اباد هو الارتباط الاجنبي الوحيد الذي عمل الشيوعيون لاقحام الشعب العربي فيه ، ولا هو المشروع الاستعماري الوحيد الذي جعلوه « مشروعا نحو السلام » في هذه الفترة التي هادنت فيها الشيوعية الدولية الاستعمار . فكما ايدوا الهيكل الاساسي لحلف بغداد ، ايدوا كذلك هيكل مشروع سوريا الكبرى الذي اكتشفوا انه جريمة كبرى فيما بعد ، وشنوا عليه حملة عنيفة حالما انتهت الحرب العالمية الثانية . ففي ٢٢ كانون الاول ١٩٣٧ نشرت صوت الشعب مقالا لسليم حيسو الاعضو اللجنة التنفيذية الكومنترن ، بعنوان « كيف يمكن حـــل المشكلة الفلسطينية » ، يهمنا منه المقطع التالي :

« وهناك مشروع عربي آخر يستحق الذكر ، هو مشروع الامير محمــــد علي وصي العرش المصري ، الذي جاء مطابقـــا لمشروع الشخصيتين النافذتين في العالم اليهودي ، السر هربرت صموئيل رئيس حزب الاحرار في بريطانيا العظمى والمفوض السامي البريطاني الاول في فلسطين ، والدكتور ماغنيس رئيس جامعة القدس العبرية سابقا . ويرمي هذا المشروع الى ضم فلسطين وسوريا وشرقي الاردن الى حكومة ديمقراطية موحدة حيث يصبح اليهود فيهـــا اقلية وطنية .» ومن احدى ميزات هذا المشروع انه لا يضمن التعاون والصداقة بين اليهود والعرب فحسب ، بل هـو يخفف اخطار الحرب في البحر المتوسط الشرقي ـ ذلك بما لا يستطيع احد انكاره ـ ويخلق بلادا تحبذ السلم العالمي ، وحليفا جديدا للامم الديمقراطية ، فرنسا وانجلترا بنوع خاص ، في نضالهما ضد الحرب والفاشستية . »

وحالما انتهت الحرب ولم تعد انجلتـــرا وفرنســا دولتين ديمقراطيتين (!) بل دولتين استعماريتين ! عاد خالد بكداش فهاجم هذا المشروع نفسه بشدة ، مبرزا دور المفوض السامي الانجليزي ، واليهودي ماغنيس ! في وضعه ، ومتجاهلا مقال سليم حيسو وتأييد الشيوعيين انفسهم له ! وسنتطرق لمقال خالد بكداش في حينه .

(١) : صوت الشعب ـ عدد ١٨٤ ـ ٧ حزيران ١٩٣٨ .

.. بهذا الكلام الصفيق يريد زعيم الشيوعيين في سوريا ولبنان ان يبرىء الاستعمار الفرنسي من جريمة اللواء . وهذا الكلام يقال قبل شهر واحد بالضبط من اجتياح القوات التركية للواء الاسكندرون بمساعدة السلطات الفرنسية .. وبعد ان عملت السلطات الفرنسية على فصل اللواء عن سوريا عام ١٩٣٧ مخالفة بذلك صك الانتداب نفسه، الذى حظر أن تقدم فرنسا على أية خطوة من شأنها ان تجزىء سوريا أو تقلص اراضيها .. وبعد حملات البطش والتنكيل التي قامت بها السلطات الفرنسية لتزوير الانتخابات التي كانت تتم تحت اشراف اللجنة الدولية في اللواء بعد ان ظهر لتركيا وفرنسا أن النتيجة هي لصالح العرب بشكل ساحق ..

فمأساة لواء الاسكندرون ، هي ببساطة غريبة ، مسؤولية « بعض الدبلوماسيين الفرنسيين ! » ومتى كان بعض الدبلوماسيين في أية دولة من دول العالم يتصرفون بشكل فردي ، ويستطيعون جر دولة بكاملها الى جريمة انسانية رغما عن ارادة هذه الدولة ؟! هل هذا منطق تسوقه حركة تحترم نفسها او تحترم الشعب الذى تدعي انها تعمل من أجله ؟

ولكن هذا الكلام لم يقله خالد بكداش اعتباطا .. فهو كلام تمويه القي لسببين :

- اولا : لامتصاص موجة النقمة الشعبية ضد الاستعمار الفرنسي ، وقطع أنفاس النضال العربي ، وتبرير مهادنة الشيوعيين لهذا الاستعمار خاصة بعد ان أصبح واضحا لكل فرد انه لا يمكن لفرنسا ان تتنازل عن سيطرتها الاستعمارية الا بالقوة .. فهي بالوقت الذى تماطل بتصديق المعاهدة - رغم ثغراتها - تعمل بالتآمر مع تركيا لاغتصاب جزء من سوريا . ولا شك ان أحسن تفسير لتبرير هذه الجريمة وتحقيق الغايات السابقة هو : القاء التبعة على « بعض الدبلوماسيين » . فالقضية بهذا الشكل هي تصرف فردى من بعض الاشخاص ، وليست تعبيرا عن سياسة الحكومة الفرنسية تجاه سوريا !

ثانيا : لايجاد تبرير لوقوع جزء كبير من هذه الجريمة الاستعمارية في عهد حكومة الجبهة الشعبية ، التي يشكل فيها الحزب الشيوعي الفرنسي جناحا هاما ويباركها الاتحاد السوفييتي .

وبعد .. ما هو حكم الشعب العربي على هذا الحزب الذى يكد ذهنه ويستخدم « عبقريته » لتبرير سلوك الاستعمار ، وطمس قضية الاسكندرون التي يعتبرها الشعب العربي من اخطر قضاياه القومية ، في الوقت الذى كان الشعب يجابه فيه غزوا تركيا مدبرا ، واستعمارا فرنسيا وحشيا ؟ وما هو حكم الشعب على هذا الحزب الذى يتغزل بفرنسا ، ويضع في الاستعمار تلك الثقة العمياء ، ويدعو الشعب للوثوق به في الوقت الذى ينكل فيه بالحركة الوطنية ، ويبطش بالشعب ، ويعمل لاغتصاب جزء من وطنه ؟

وطريق الخيانة ما زال طويلا .

بعد شهر من ذلك الدفاع الحار الذى قدمه الحزب الشيوعي لتبرئة فرنسا « الديمقراطية » ، احتل الجيش التركي لواء الاسكندرون في ٥ تموز ١٩٣٨ بمساعدة السلطات الفرنسية وترحيبها ! كانت تركيا وفرنسا قد ادركتا بوضوح من سير انتخابات اللواء التي كانت تتم باشراف اللجنة الدولية لعصبة الامم ، أن الاكثرية ستكون للعرب بشكل ساحق . وكانت القوة هي السلاح الاخير بعد فشل كافة المناورات ، وصمود الشعب العربي في اللواء للضغط والبطش .. وبقوة السلاح اشرفت القوات الفرنسية والتركية بعد الاحتلال على سير الانتخابات اثر انسحاب اللجنة الدولية ، فقامت بحملة واسعة من الاضطهاد والاعتقالات الغت فيها كل نشاط للهيئات العربية ، وفي ذلك الجو ، زورت الانتخابات حتى نال الاتراك الاكثرية (٢٢ مقابل ١٨) رغم اكثرية العرب العددية الساحقة . وفي ايلول من نفس العام اتخذت فرنسا وتركيا الخطوة قبل الاخيرة في مؤامرة الاغتصاب ، فعين للكيان الجديد المصطنع الذى قام على أساس الانتخابات المزورة ، رئيسا تركيا ، وأطلق الاتراك عليه اسم « جمهورية هاتاي » ..

وفي وسط تلك الاحداث الدامية ، وفي غمرة موجة الاستنكار والنقمة التي كانت تسرى في صفوف الشعب العربي ضد فرنسا التي لعبت الدور الرئيسي الاول في هذه الجريمة الاستعمارية ، اصدرت القيادة المركزية للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان بيانا في ١٧ أيار ١٩٣٩ تقول فيه :

« اننا أبناء سوريا العربية ندرك تماما ان التحالف السوري الفرنسي هو الوسيلة الوحيدة المؤدية الى حفظ كيان وطننا امام مطامع الدول الفاشية » ! (١)

(١) بيان صادر عن القيادة المركزية [illegible] الشعب ، عدد [illegible] أيار ١٩٣٩ .

لم تكن دماء شهداء عروبة اللواء قد جفت بعد » وكانت انظار الشعب العربي مسمرة في اللواء العربي الذى سمي « جمهورية هاتاي » ، حين كانت القيادة المركزية للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان تحبر هذه البيانات الاستعمارية الوقحة دون ان تهتز لها يد • ولم تكن اليد التي تحبر مثل تلك البيانات في الواقع بالنتيجة العملية الا « يد استعمارية في قفاز شيوعي » •

* * *

لم يكن الكيان المصطنع الذى استحدث للواء الاسكندرون الا خطوة تمهيدية لاغتصاب اللواء نهائيا ، وبعد اقل من عام من تلك الخطوة ، وبعد حوالى شهر من بيان القيادة المركزية للحزب الشيوعي السابق ، أقدمت فرنسا على اتمام آخر فصول جريمتها الاستعمارية الكبرى • ففي ٢٣ حزيران ١٩٣٩ عقدت فرنسا وتركيا اتفاقية عرفت باتفاقية انقرة الثانية ، وبموجبها الغى « الكيان المستقل » للواء وأصبح — الى حين — ولاية تابعة لتركيا •

وبينما كانت جموع النازحين من عرب اللواء تعبر « الحدود » الى الاراضي السورية ، وفرنسا وتركيا تتبادلان الانخاب احتفالا بالاتفاقية الجديدة ، كان خالد بكداش ، السكرتير العام للحزب يكتب في « طريق الاستقلال » :

« فلو نظرنا الى العالم اليوم في الوقت الحاضر مثلا ، لرأينا كما قدمنا أن الخطر الاساسي على كياننا الوطني نحن العرب ، مصدره ايطاليا والمانيا الفاشيتان اللتان تعملان للتوسع والاعتداء ، وتقومان بهجوم استعماري شديد هدفه الرئيسي الاستيلاء على الشرق الادنى والبلاد العربية ، سوريا والعراق ومصر وفلسطين بوجه خاص • ان مصلحتنا الوطنية تقضي علينا بأن نوطد عرى التحالف مع احدى الدول الديمقراطية الكبرى • وهذه الدولة لا يمكن أن تكون بالنسبة لنا نحن السوريين واللبنانيين الا فرنسا الديمقراطية (!) •

« لذلك يضع الشيوعيون في سوريا ولبنان وجميع الوطنيين الواعين (!) مسألة التحالف السوري — اللبناني — الفرنسي في مقدمة المطالب الوطنية التي تناضل بلادنا في سبيلها ، ويرون أن احسن وسيلة لتحقيق هذا التحالف هي عقد معاهدة مع الديمقراطية الفرنسية تسمح لبلادنا بتقوية نفسها وربط اجزائها (!) وتثبت كيانها الوطني •.... (!) »(١)

لم يكن مستغربا بعد هذا التاريخ الحافل في مهادنة الاستعمار وتأييد وجوده وتبرير جرائمه بذلك الشكل المخجل ، ان يتمتع الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان بحرية تامة في العمل طيلة هذه الفترة الممتدة ما بين عام ١٩٣٦ — ١٩٣٩ • ففي عام ١٩٣٧ سمحت سلطات الاستعمار الفرنسي للحزب باصدار جريدته الرسمية اليومية « صوت الشعب »(٢) ، كما سمحت له بممارسة نشاطه السياسي والحزبي بكافة أشكاله ، هذا في الوقت الذى كانت تتعرض فيه الحركة الوطنية للاعتقال والنفي والتنكيل كلما شعرت الحكومة الفرنسية أن نشاطها قد جاوز الحد الموسوم ، وذلك وفق الخط العام الذى حاولت ان تظهر به حكومة الجبهة الشعبية ، كذبا وتدجيلا ، أنها أكثر ليونة من الحكومات الفرنسية الاستعمارية السابقة • والواقع أن سلطات الاستعمار الفرنسي » لم تكن لتجد أبدا في وطننا حزبا يمكن ان يسخر فكره ونشاطه السياسي ومطبوعاته ونشراته لحرف النضال العربي التحرري ، وتبرير السياسة الاستعمارية ، كما وجدت في الحزب الشيوعي السوري اللبناني والحركة الشيوعية في المغرب « وهكذا سكت الاستعمار عن الحركة الشيوعية ، وسكتت الحركة الشيوعية عن الاستعمار • ولم يكن هذا الحلف غير المكتوب الا خنجرا موجها الى معركة التحرر العربي •

وقبل ان نختتم هذه الفترة في موقف الحركة الشيوعية من معركة التحرر العربي ، لابد أن نتوقف قليلا عند التفسير الرئيسي الذى اعطته لتبرير تآمرها المشترك مع الاستعمار الفرنسي في سوريا ولبنان والمغرب العربي ، ومع الاستعمار الانجليزي في فلسطين والعراق ومصر • ولا سيما الاستعمار الفرنسي بشكل خاص •

كان التبرير الفكري السياسي يتمثل في الشعار الذى رفعته الحركة الشيوعية المحلية تجسيدا

---

(١) : مقدمة كتاب « طريق الاستقلال » لخالد بكداش ص ٢٠ — ٢٢ — « صفحات مجهولة من تاريخ الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان » — ص ٧٦ •

(٢) : اصدر الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان جريدة « صوت الشعب » عام ١٩٣٧ وظل يصدرها بانتظام الى عام ١٩٤٨ ، وتوقفت الجريدة في فترة التحالف السوفيتي النازي ١٩٣٨ — ١٩٤١ • وفي عام ١٩٤٨ اصدر الحزب جريدة « نداء الشعب » واصبحت هي صحيفة الحزب الرسمية •

للشعار الكبير الذي رفعته الشيوعية الدولية وهو : مهادنة الاستعمار لمكافحة الفاشية . فبريطانيا وفرنسا هما دولتان « ديمقراطيتان » والواجب الاول هو كسب ودهما لاقامة « جبهة سلام ديمقراطية » تجابه « جبهة العدوان الفاشية » ..

ولنا على هذا الموقف ثلاث ملاحظات أساسية :

أولا : نحن لا ننكر ولا نتجاهل خطر النازيسة والفاشية على الوطن العربي وعلى العالم ، آخذين بعين الاعتبار الاساس الفكري التعصبي العدواني الذي قامت عليه الحركتان الفاشستية والنازية . ولكن ما من وجهة نظر يمكن أن تبرر تجاهل الاستعمار البريطاني والفرنسي الرابض في عقر دارنا بحجة مكافحة الفاشية . ان كلا الطرفين هو في نهاية الامر .. استعمار . فقد حاولت بريطانيا وفرنسا أن تخفيا استعمارهما تحت ستار نقل الحضارة الغربية والديمقراطية الغربية الى « الشعوب المتأخرة » ، وترى شعوب العالم منذ مئات السنين حتى هذه اللحظة الراهنة ، كيف أن هذه الدعوة لم تكن الا استعبادا وحشيا مجرما للشعوب . وحاولت النازية والفاشية أن تخفيا استعمارهما تحت نظرية « العرق الاسمى » و « سيادة النخبة » المفضوحة للجميع . فان كان هناك أي اختلاف ، بالنتيجة العملية ، بين هاتين الدعوتين فهو ينحصر فقط : في أن دعوة « الديمقراطية الغربية » كانت أكثر اتقانا في « تقنيع » استعمارها ، أو لنقل اقل صراحة في التبجح بدعوتها الاستعمارية . ومثل هذا الاختلاف في الواقع هو كالاختلاف الكائن بين مجرم يرتكب جريمته بوحشية متناهية ويعلن عنها ، ومجرم يرتكبها بصمت ، وفي كلتا الحالتين تبقى النتيجة العملية هي .. جريمة قتل .

فبأي منطق اذن ، يمكن أن نسكت عن جيوش الاحتلال الاجنبية الرابضة فوق صدرنا والقائمة فوق أرضنا ، بحجة الاستعداد لمحاربة احتلال أجنبي قد يأتي في المستقبل لارضنا ؟!

ثانيا : لم تكن حكومة الجبهة الشعبية التي تكونت من الحزب الراديكالي والاشتراكي والشيوعي لتشذ في الواقع عن القاعدة السابقة رغم محاولة الشيوعيين – آنذاك – وصفها بالتقدمية ! فالحزب الاشتراكي الذي كان يرأسه ليون بلوم هو نفس الحزب الاشتراكي الذي يرأسه الآن غي موليه . وتاريخ هذا الحزب هو سلسلة لا تنتهي من الخيانات ، « والاشتراكية » منه براء . ويعرف العالم أجمع مواقف هذا الحزب سواء بالنسبة لبرنامجه الاشتراكي داخل فرنسا ، أو سواء بالنسبة لسياسته الخارجية الاستعمارية ، التي شهدت لها الاحداث الدامية التي مرت على المغرب العربي وسوريا ولبنان قبل الحرب وبعد الحرب أيضا . أما الحزب الراديكالي فهو يقف على « يمين » الحزب الاشتراكي ، أي أنه أكثر تطرفا منه بصدد السياسة الخارجية الاستعمارية .

هذا هو تركيب هذه الجبهة الشعبية التي برر الشيوعيون ارتكاب كل هذه الجرائم بحق الشعب العربي باسم المحافظة على حكمها . فهل كان الاتحاد السوفييتي والكومنترن ، والاحزاب الشيوعية في سوريا ولبنان والمغرب العربي ، تجهل حقيقة تركيب هذه الجبهة حين أيدتها وأيدت سياستها الاستعمارية ذلك التأييد المطلق الغريب ؟ ان ليون بلوم ، زعيم الجبهة ، هو الذي كان قد قال أيضا منذ أوائل عهد الجبهة : « أنه لن يكون أبدا كيرنسكي يمهد الطريق للينين » ، وانه حتى اذا اضطر هو وحزبه للتخلي عن الحكم ، فسيعمل على تهديم الحزب الشيوعي الفرنسي أولا .!

ثالثا : لم تكن القضية اذن قضية موقف فكري كما حاول الشيوعيون العرب – تدجيلا – أن يصوروها ، ويستغبوا الشعب العربي للمرة الالف ، سترا لتعاونهم الوثيق المخجل مع الاستعمار الفرنسي ضد معركة التحرر العربي . بل كانت القضية قضية تبعية مطلقة لمخطط الشيوعية الدولية التي كانت تريد أن تكسب ود بريطانيا وفرنسا كدول بغض النظر عن السياسة الاستعمارية التي كانتا تتبعانها .

وما يهمنا نحن بشكل خاص ، هو موقف الاحزاب الشيوعية في الوطن بصدد هذه القضية . فاذا كانت الشيوعية الدولية ، متكلمة بلسان الاتحاد السوفييتي ، تعتبر أن الخطر يأتي من الفاشية لا من الاستعمار البريطاني والفرنسي ، فالحالة لم تكن متماثلة بالنسبة لنا نحن العرب الذين كان يستعمر وطننا من قبل بريطانيا وفرنسا . بالنسبة لنا كان الشعار التحرري المنسجم مع نضالنا التحرري القومي هو : مكافحة الاستعمار البريطاني والفرنسي والفاشية الالمانية والايطالية على السواء . ولكن الحركة الشيوعية في الوطن ضربت عرض الحائط بنضالنا القومي التحرري ، عاملة بذلك على تعميق سيطرة الاستعمار في الوطن العربي ، لتخفف خطر الفاشية والنازية عن الاتحاد السوفييتي ..

وقد برهنت الاحداث في تلك الفترة هذه الحقيقة مرة بعد مرة ، وفضحت نهائيا الثوب الفكري الذي

حاولت الحركة الشيوعية في الوطن أن تلبســه لتآمرها ضد معركة التحرر العربي . فاذا تجاوزنا طبيعة الجبهة الشعبية الفرنسية « وخـــــرافة « تقدمية » هذه الجبهة ، فقد كان المفروض مثلا ، أن يتخلى الشيوعيون في الوطن عن مهـــادنة الاستعمار الفرنسي ، وعن الدعوة للتحالف معه حين انتهى حكم الجبهة الشعبية في فرنسا . واستلمت الحكـــم الاتجاهات اليمينية المتطرفة ، ولكن ماذا نجـــد ؟ نجد أن الشيوعيين استمروا في تأييد وجـــود الاستعمار الفرنسي !

* * *

ففي كانون الثاني ١٩٣٨ تشكلت في فرنســا الحكومة الجديدة التي اســتبعدت الاشتراكيين ، ولعب فيهـــا الراديكاليون الدور الاول بـــدل الاشتراكيين بالتعاون مع الاتجاهات الاخــــرى « الاكثر يمينية » .. ورغم ذلك ، بقي الشيوعيون في سوريا ولبنان والمغرب يعتبرون فرنســا « دولة ديمقراطية » ويدعون لمهادنتها !

وفي نيسان ١٩٣٨ استقال ليون بلوم نهائيا ، وفي ١٠ نيسان ألف الحكومة الجديدة الفرنسي اليميني الاستعماري « دالادييه » .. ورغم ذلك استمـــر الشيوعيون في الوطن العربي يدعون لمهادنة « فرنسا الديمقراطية » !

كان قد أصبح من المعروف حينئذ أن الجبهـــة الشعبية لم تعد هي التي توجه سياسة فرنسا كليـا كما كان في الوضع السابق ، ولكن التبرير الذي أعطاه الشيوعيون لاستمرارهم في تبرير سياســـة الحكومة هو : ضرورة مهادنة الحكومة الفرنســية الجديدة لمنع أي تقارب بينها وبين المانيا النازية !

وفي ٢٩ ايلول ١٩٣٨ انقطع حتى هذا الخيط الواهي الاخير .

ففي ذلك التاريخ عقدت فرنسا وبريطانيا مـــع المانيا وايطاليا اتفاق « ميونيخ » ، الذي وافقتا فيه على اعطاء المناطق الشمالية من تشيكوســلوفاكيا لالمانيا النازية دون أي اعتبار لمصير تشيكوسلوفاكيا الذي أصبح مصيرها بيد هتلر منذ ذلك الوقت(١) . وفي ذلك الاتفاق خانت « فرنسا الديمقراطية !! » تعهداتها تجاه تشيكوسلوفاكيا ، والتي كانت تقتضي الدفاع عنها في حالة تعرضـــها للخطر ، ولم يجد هذه الاخيرة ، تحالفها مع فرنسا من قيام فرنســا نفسها بتسليمها لالمانيا النازية !

فهل غير الشيوعيون في الوطن العربي بعد هـذا الحدث موقفهم من الاستعمار الفرنسي ؟ وهـــل تزعـــزعت ثقتهم المطلقة به وبنواياه الاستعمارية المكشوفة ؟ أبدا .. ورغم كل هذه التطورات؟ استمر الشيوعيون يدعون لمهادنة الاستعمار الفرنسي ، بل وذهبوا الى القول - كما رأينا - أن مثل هذا التحالف هو الطريق الوحيد « لحفظ كياننا أمام مطامــع الدول الفاشية » !!

* * *

وهكذا .. باسم مكافحة الفاشية تجــــاهلوا الاستعمار .. وباسم مكافحة الفاشـــية ، أيدوا المعاهدة في عام ١٩٣٦ دون أي شرط ، وعملوا لقطع أنفاس النضال العربي التحرري .. وباسم مكافحة الفاشية ، أيدوا جريمة اغتصاب لواء الاسكندرون.. وباسم مكافحة الفاشية ، سكتوا عن حملات التنكيل الوحشية التي كانت تقوم بها سلطات الاســتعمار الفرنسي في الجزائر وتونس ومراكش .. وباســم مكافحة الفاشية ، أسبغوا على فرنسا تلك الاوصاف التي حولتها من دولة استعمارية الى دولة ديمقراطية .. وباسم مكافحة الفاشية ، أيدوا وعملوا لربـط الشعب العربي بالتكتلات الاجنبية الاستعمارية ، وحولوها من مشاريع استعمارية الى مشاريع للسلام .. وان كان الشيوعيون قد قدموا لستر كل هــذه الخيانات منطقا فكريا سياسيا فضحته أحداث هذه المرحلة نفسها .. فان أحداث المرحلة القـــادمة جعلت هذا المنطق الفكري السياسي أضحوكة العالم ، وأثبتت مرة أخرى أن الشيء الوحيد الثـــابت لدى الحركة الشيوعية في الوطن هو ، فقط ، تبعيتهــا المطلقة العمياء للشيوعية الدولية ، هذه التبعية التي لا تقيم اي وزن لا لمصير الامة العربية ، ولا للمواقف السابقة للحركة الشيوعية نفسها ..

فماذا كانت أحداث المرحلة القادمة ؟

(١) : وقد استولت المانيا فعلا على هذه المناطق في تشــرين الاول ١٩٣٨ .

الفصل الثاني

موقف الشيوعية المحلية من معركة التحرر العربي

١٩٣٩ - ١٩٤١

الحركة الشيوعية تهادن الفاشية باسم مكافحة الاستعمار !

لعل القارىء العربي سيقف مدهوشا عند هذا العنوان ، أو بالاحرى عند هذا الانقلاب الفجائي في موقف الحركة الشيوعية .

وله كل الحق في ذلك ، بعد أن رأى كيف هادنت الحركة الشيوعية بريطانيا وفرنسا وتركيا ، وأيدت كل جرائمها ، ونزعت عنها صفة « الاستعمار » وجعلتها دولا « ديمقراطية » ، باسم مكافحة الفاشية . فما الذي تغير حتى انعكس الشعار كليا وأصبح مهادنة الفاشية لمقاومة الاستعمار البريطاني والفرنسي ؟ هل تغيرت الفاشية الالمانية والايطالية واصبحت نزعة وديعة مسالمة ، واصبحت « الديمقراطيات الغربية ! » دولا استعمارية يفوق خطرها خطر الفاشية ؟ هل لهذا الانقلاب الفجائي في موقف الحركة الشيوعية في الوطن أساس فكري ؟ هل وجدت أن مصلحة الامة العربية في معركتها التحررية تقتضي مثلا اتخاذ هذا الموقف الجديد المناقض على خط مستقيم للموقف السابق ؟

لعل دهشة القارىء العربي ستزول ويدرك الاجابة على كل تلك التساؤلات ، حين يتذكر الموقف السياسي العالمي الجديد الذي ساد في هذه الفترة الاولى من الحرب العالمية الثانية ما بين ١٩٣٩-١٩٤١ . فلم يكن هناك ، كالعادة ، تفسير فكري لهذا التحول الفجائي الغريب ، كما لم تكن مصلحة الامة العربية هي التي اقتضت هذا التحول ، بل كان كل هذا التحول الفجائي ، كالعادة دوما ، ايماءة من الخارج من الشيوعية الدولية ..

اذن لنرجع الى الموقف السياسي للشيوعية الدولية في هذه الفترة ، ففيه وحده الجواب على سر التحركات الجديدة للحصان الخشبي !

* * *

في ايلول ١٩٣٩ قامت الحرب العالمية الثانية ، ودخلت بريطانيا وفرنسا - اللتان كانتا قد وقعتا اتفاق ميونيخ قبل عام - الحرب ضد المانيا . وكان معروفا أن هاتين الدولتين لم تدخلا الحرب في سبيل انقاذ البشرية من خطر النازية والفاشية ، بل تحقيقا لمصالحهما الخاصة . فهذه الحرب قد كانت حربا بين طرفين استعماريين ، يدافع كل منهما عن مصالحه الخاصة كدولة ، وعن مصالحه العامة كاستعمار .

اما الاتحاد السوفييتي ، فقد رأينا أن سياسته الخارجية كانت قائمة منذ عام ١٩٣٤ على التقرب مما كان يسميه بالديمقراطيات الغربية (بريطانيا وفرنسا ثم تركيا وأميركا الخ ..) للوقوف بوجه المانيا وايطاليا ، وهذا ما مثله شعار الشيوعية الدولية طيلة هذه الفترة وهو : اقامة « جبهة ديمقراطية » مقابل « الجبهة الفاشستية » . وكان المفروض أن يكون موقف الاتحاد السوفييتي من هذه الحرب - ليأتي منسجما ومتمما لموقفه وسياسته

القائمة قبيل الفترة السابقة للحرب – أحد أمرين : « إما أن يدخل الحرب الى جانب ما سماه بالديمقراطيات الغربية ضد المانيا النازية وايطاليا الفاشية »

وإما أن يقف على الحياد من الحرب الدائرة بينهما .

ولكن موقف الاتحاد السوفييتي كان مفاجأة ضخمة للعالم أجمع ! فرغم أن الاتحاد السوفييتي لم يحارب الى جانب أي من الطرفين عمليا ، الا انه وقف الى جانب المانيا وايطاليا نظريا ودعاويا ، وهاجم بريطانيا وفرنسا متذكرا فجأة أنهما دولتان استعماريتان ، وجاعلا المانيا وايطاليا دولتين تعملان للسلم العالمي !

وكان التجسيد العملي لهذا التحول السياسي المفاجيء هو ميثاق عدم الاعتداء الذي عقده الاتحاد السوفييتي والمانيا النازية في ٢٣ آب ١٩٣٩ . ولعله مما يدعو للسخرية ، أن الميثاق السوفييتي الالماني قد جاء مشابها في كثير من الوجوه – بل أفدح في الواقع – لاتفاق ميونيخ الاستعماري الذي عقدته بريطانيا وفرنسا مع المانيا قبل عام واحد بالضبط . ففي كلا الاتفاقين ، كانت المانيا النازية هي القاسم المشترك ، وتغير فقط الطرف المقابل . وكما قام اتفاق ميونيخ على المساومة على تشيكوسلوفاكيا ، قام الاتفاق السوفييتي الالماني على مساومات أكثر وأقدح .

واتضحت سريعا أسباب هذا الانقلاب الفجائي العجيب في سياسة الاتحاد السوفييتي ومهادنته النازية بعد ذلك الهجوم العنيف عليها ، فاذا الامر في حقيقته دفاع عن مصالح الاتحاد السوفييتي كدولة ، وعن مصالحه العامة كسيطرة من نوع جديد . فالاتفاق السوفييتي الالماني الذي عقد في ٢٣ آب ١٩٣٩ ، حمل الى جانب بنوده العلنية ، بنودا أخرى سرية كانت نتيجتها سلسلة من الابتلاعات التي قام بها الاتحاد السوفييتي ليوسع بها حدوده !

وهكذا ، اقتسمت بولندا بين الاتحاد السوفييتي والمانيا النازية . وانتهى استقلال دول البلطيق الثلاث ليثوانيا ولاتفيا واستونيا لتلحق بالاتحاد السوفييتي – بموافقة مجلس نيابي مزيف – عام ١٩٤٠ .. كما اقتطع جزء من رومانيا – بسارابيا وبوكوفينا – وشكل من بسارابيا ومولدافيا ، جمهورية مولدافيا السوفييتية الاشتراكية الجديدة في آب ١٩٤٠ .. كما ابتدأت مساومات جديدة حول فنلندا .

ولا شك انه اتفاق حافل . لم تتناس فيه الشيوعية الدولية الضجة العالمية التي أثارتها حول خطر الفاشية الالمانية والايطاليه فحسب ، ولكنها تناست فيه كل الجمل الرنانة حول حقوق الشعوب وقداسة الحرية والاستقلال الخ ...!

وكان على الاتحاد السوفييتي أن يدفع ثمنا مقابلا لموافقة المانيا النازية على سلسلة الابتلاعات التي قام بها .. ولم يتردد الاتحاد السوفييتي في دفع هذا الثمن . وهكذا ، وفجأة أصبحت الدول الديمقراطية استعمارا عدوانيا ، وأصبحت الفاشية والنازية دعوة سلمية .. ولعل أفضل ما يعبر عن التعبئة الدعاوية التي قام بها السوفييت والشيوعية الدولية لمساندة المانيا وايطاليا ضد بريطانيا وفرنسا ، هو ما جاء في خطاب « مولوتوف » الموجه الى مجلس السوفييت الاعلى في ٣١ تشرين الاول عام ١٩٤١ حيث قال في معرض تحليل الموقف السياسي العالمي :

« واليوم ، فيما يتعلق بالقوى الاوروبيه الكبرى ، فان المانيا في موقف الدولة التي تكافح للانهاء العاجل للحرب في سبيل السلام ، بينما أن بريطانيا وفرنسا اللتان كانتا بالامس تهاجمان العدوان ، تفضلان مواصلة الحرب وتعارضان احلال السلام .. » !

واتخذ الكومنترن موقفا مماثلا بالطبع ، فهو في الوقت الذي عارض فيه الحرب هاجم بريطانيا وفرنسا لان مسئولية الحرب تقع عليهما بالدرجة الاولى .. وكان على الاحزاب الشيوعية في العالم ، أن تتكيف مع السياسة الجديدة ، وأن تهادن المانيا وايطاليا بعد أن أصبحت تجمعهما بالاتحاد السوفييتي علاقة صداقة جديدة .. وهكذا بدأ يرتفع شعار جديد له وجهان : نظري وعملي . فالوجه العملي كان يطالب بالوقوف على الحياد ، والوجه النظري كان يهاجم بريطانيا وفرنسا بعنف ، ويحمل عبارات التودد والصداقة لالمانيا وايطاليا !

نحن لا يهمنا في الواقع ، في هذا البحث ، ذلك الموقف في سياسة الاتحاد السوفييتي ، ولا تلك المساومات والابتلاعات التي وضعته على نفس صعيد الدولتين الاستعماريتين بريطانيا وفرنسا . كذلك لا يهمنا كثيرا الانقلاب الفجائي الذي أجرته الاحزاب الشيوعية في العالم ، لتوافق موقفها مع موقف السوفييت ، متناسية كل مواقفها وكتاباتها السابقة

بين ليلة وضحاها ..(١) ولكن يهمنا جدا ان نتلمس أثر كل تلك التطورات على الحركة الشيوعية ، بأحزابها المختلفة في الوطن العربي ..

* * *

لقد رأينا كيف هادنت الحركة الشيوعية في الوطن ، الاستعمار الانجليزي والفرنسي ، وسكتت عن جريمة اغتصاب لواء الاسكندرون ، ومخطط فرنسة الجزائر ، وحملة البطش التي كان يشنها الاستعمار على الحركة الوطنية التحررية في كافة أرجاء الوطن ، وكيف دعت الى مهادنة الاستعمار والتحالف معه ، والى زج الشعب العربي في التكتلات الاجنبية الاستعمارية . كما أن الحركة الشيوعية طيلة هذه الفترة ، لم تقم بعمل ايجابي واحد ضد فرنسا ، بل على العكس ، دعت الى ايقاف النضال العربي وعدم اثارة أية « مشاكل » قد تزعج « جبهة السلام .. كما لم تصدر منشورا واحدا يهاجم الاستعمار الفرنسي ، بل على العكس أسبغت على فرنسا سيلا من الصفات التحررية والديمقراطية .. وكان الشعار الرئيسي الذي رفعته تبريرا لكل هذه الخيانات هو : مكافحة الخطر الفاشي .

ولكن هذا الموقف انقلب فجأة منذ آب ١٩٣٩ — ١٩٤١ ، كما انقلب موقف كافة الاحزاب الشيوعية في العالم تنفيذا لمخطط الشيوعية الدولية الجديد . وليس لنا ان نستغرب ، فالاحزاب الشيوعية في الوطن العربي ليست الا احصنة خشبية صغيرة اذا ما قورنت بالاحزاب الشيوعية العالمية الاخرى ، فكان احرى بها ان تنسف ، بطرفة عين ، كافة مواقفها وتبريراتها السابقة لتتحول الآن ضد فرنسا وبريطانيا ..

وكالعادة ، لم تتردد الحركة الشيوعية في الوطن في تنفيذ التعليمات الجديدة بحماس منقطع النظير ، ورغم ان الاحزاب الشيوعية في الوطن قد تفاوتت في سرعة تغيير الموقف ، الا ان هذا التفاوت لم يتجاوز بضعة اسابيع .

وهكذا ، انقلبت الحركة الشيوعية في الوطن ، فجأة ، الى عدو شديد المراس (!) لفرنسا وبريطانيا ، واكتشفت فجأة انهما دولتان استعماريتان لا دولتان ديمقراطيتان ! وان الواجب الوطني يقتضي شن حملة دعاوية شديدة عليهما ، وتعبئة الشعب العربي ضد طغيانهما الاستعماري !. وبعد ان كان التحالف مع فرنسا هو « الطريق الوحيد لحفظ كيان العرب امام المطامع الفاشية » اصبح الحياد ومهاجمة الحرب « الاستعمارية » التي تشنها فرنسا وبريطانيا هو شعار المرحلة الجديدة !

وادرك الشعب العربي ، في غمرة هذه المواقف المتناقضة المتذبذبة ، مدى الخدمة التي يمكن ان تساهم بها الحركة الشيوعية في معركة التحرر العربي .. فهذه الحركة التي تذهب من اقصى درجات التأييد الاستعماري ، وتبرير جرائمه ، الى العداء الشديد للاستعمار والهجوم العنيف عليه ، في مدة لا تتجاوز بضعة اسابيع ، لا يمكن ابدا ان تكون حركة اصيلة في محاربة الاستعمار ، ولا حركة جسدية في مساهمتها في معركة التحرر العربي ، والشيء الوحيد الذي يمكن ان تخلص له هو : تبعيتها المطلقة العمياء للمخطط العالمي للشيوعية الدولية .

---

(١) : لقد أيدت الاحزاب الشيوعية في البداية بريطانيا وفرنسا ضد المانيا .. ولكن هذا التأييد لم يكن في الواقع الا قوة الاستمرار بتأثير موجة « معاداة الفاشية » ، السابقة ولم تمض بضع أيام على الميثاق السوفيتي النازي ، الا وتكيفت هذه الاحزاب مع السياسة الجديدة .

فالحزب الشيوعي الفرنسي مثلا — الذي يرتبط به الحزب الشيوعي السوري اللبناني بروابط تبعية وثيقة — كان قد هاجم المانيا بشدة حين قيام الحرب واعلن عزمه من الدفاع عن فرنسا . ففي ٢٥ آب كتبت جريدة الحزب الشيوعي الفرنسي « الاومانيتيه » تقول : « اننا سنقاوم كل أعمال العدوان ، والشيوعيون مستعدون للقيام بكافة واجباتهم كفرنسيين ضمن نطاق الاتفاقات المعقودة من قبل دولتهم وهم مستعدون للقيام بكافة مسئولياتهم ، فاذا ما هوجمت بولندا ، فان الاتفاق المعقود معها يجب ان يوضع موضع التنفيذ .. » كذلك صرح موريس توريز ، السكرتير العام للحزب في نفس اليوم قائلا : « اذا ما اعلن هتلر الحرب بالرغم من كل شيء ، فليعلم انه سيجد امامه شعب فرنسا الموحد ، والشيوعيون في الصف الامامي للدفاع عن سلامة الوطن وحريته واستقلال جميع الامم » (السياسة الخارجية لروسيا السوفييتية ، ماكس بيلوف — ص ٢٨٧) وتبع ذلك تطوع موريس توريز وبعض الاعضاء البارزين في الحزب للدفاع عن فرنسا .. ولكن ما ان تبلور الموقف نهائيا بعد عقد الميثاق بين المانيا والاتحاد السوفييتي ، واتخذ الكومنترن نفس الخط الجديد ، حتى فر موريس توريز ورفاقه من الجيش الفرنسي ولجأوا الى موسكو معلنين احتجاجهم ضد الحرب الثالمة !!

كذلك اتخذ الحزب الشيوعي الالماني نفس الموقف ، واعلن ان العمال الالمان يجب الا يقوموا باى عمل تخريبي ضد الحرب التي تخوضها المانيا ، وهاجموا الحرب الاستعمارية التي يقودها الحلفاء ضد المانيا . (بيانات الحزب الشيوعي الالماني ، ١٣ حزيران ١٩٤٠ — المصدر السابق) .

فالحركة الشيوعية في مصر ، التي تجاهلت طيلة الفترة السابقة وجود الاستعمار البريطاني في مصر ، وتشاغلت عنه بالهجوم على « الوفد » على اساس انصياعه للنفوذ الفاشي ، نسيت موقفها السابق ، وطيلة هذه الفترة الممتدة مابين آب ١٩٣٩ ــ حزيران ١٩٤١ ، تركزت دعايتها حــول نقطتين رئيسيتين : اتخاذ موقف الحياد من الحرب الدائرة ، والمهاجمة العنيفة « للحرب العدوانية التي تشنها بريطـانيا ضد المانيا » .

كذلك شن الحزب الشيوعي في العــراق حملة شديدة على بريطانيا . وتخافتت الحملات العنيفة التي كان يشنها هذا الحزب على الفاشية والنازية ، والتي اثار حولها من الضجيج اكثــر من اي حزب شيوعي اخر في الوطن .. وهاجم بشدة الحــرب الاستعمارية التي تعد بريطانيا هي المسئولة الاولى عن اثارتها .

اما الحزب الشيوعي في فلسطين ، فلعل افضل ما يعبر عن الانقلاب الفجائي في موقفه من الاستعمار البريطاني بعد تلك المهادنة الطويلة ، هو ما قاله منذ بدء الحرب « ان هتلر الذي يحاربه تشمبرلن الان لم يعد هو نفس هتلر الذي كان ينوي محاربة الاتحاد السوفييتي . انه لم يعد جندي تشمبرلن ودلادييه »

فهذا الحزب الذي كان في السابق قد ذهب في تطبيق شعار « مهادنة بريطانيا الديمقراطية لمكافحة الفاشية » الى حد تبرير عدم الاشتراك بثورة الشعب العربي في فلسطين عام ١٩٣٦ بحجة ميولها الفاشية ، رغم ان هذه الثورة الشعبية كانت موجهة ، بشــكل رئيسي ، ضد الاستعمار البريطاني ، قد تذكر فجأة ان في فلسطين جيوش احتلال بريطانية ، ومن الاجرام برايه ان نتناسى الاستعمار القابع في اوضنا لنتطلع الى الجيوش الالمانية البعيدة عنها !! ترى الم يــكن هذا هو بالضبط ما كان يفعله هذا الحزب طيــلة نضال الشعب العربي ضد الاستعمار البريطاني في ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩ !! ولكن الحزب الشيوعي في فلسطين لم يكتف بذلك ، بل ذهب في تطبيق الشعار الجديد «مهادنة المانيا وايطاليا لمكافحة الاستعمار البريطاني» الى حد تغيير طبيعة النظام النازي نفسه !. وتغيير شخصية هتلر نفسها ! فهكذا ، وفجأة ، تغير هتلر ، وتغيرت افكار هتلر ونظرياته ومخططاته ، واصــبح « مطيعا » لدرجة انه « لا يفعل الا ما تقــوله له موســكو » !

واما الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان ، فهو ايضا قد اكتشف فجأة خطر الاستعمار الفرنسي ونواياه ! واكتشف فجأة ضرورة النضال ضد سيطرته ! وان الحياد لا التحالف هو « الطريق الوحيــــد لحفظ كياننا » !!

ففي آب ١٩٤٠ أصدر الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان بيانا بعنوان « فلتسقط الحرب الاستعمارية! فليسقط الارهاب الاستعماري .. » يقول :

« نريد عملا وخبزا ! نريد حياد بلادنا واستقلالها ! فليسقط الارهاب الاستعماري !

« يا ابناء وطننا الاشاوس : ان سياسة الاستعمار الفرنسي اوصلت بلادنا امام خطر مجــاعة اكيدة . فتقنين البنزين يقتل المواصلات ويشل التجــارة والزراعة ويرمي الوف السائقين في البطالة .. فكل البلاد تعاني البؤس ولا يتمتع بالهناء الا موظفــو الاستعمار واصحاب الشركات الاجنبية وكبار التجار المحتكرين ..

« يا ابناء سوريا ولبنان : ان الراسمالية الفرنسية تريد تعويض خسائرها في الحرب على حسابنا نحن شعوب المستعمرات ، وعلى حساب اخواننا العمــال والفلاحين الفرنسيين .

« فالى الاتحاد والتنظيم والنضال ! ولنعلم بان موقف عدونا الاجنبي يزداد ضعفا يوما بعد يوم ! فلو نظرنا الى العالم راينا التناقضات تشتد بين الدول الراسمالية وتضعضع اسس العالم الراسمالي ، بينما ان الاتحاد السوفييتي صديق العرب ، وكل الشعوب المظلومة ، يزداد قوة ومنعة ويسير تحت قيــادة ستالين العظيم من انتصار الى انتصار ، وكل كلاب الاستعمار العالمي يتراجعون امامه .. فلنطالب بحياد بلادنا واستقلالها ... »

ولا شك ان القارىء العربي يلاحظ بجلاء هــذه اللهجة الحماسية العنيفة في مهاجمــة الاستعمار الفرنسي ، والتي تناقض على طول الخط اللهجــة السابقة التي كانت تتغنى بفرنسا « الديمقراطية » ، وفرنسا « الجبهة الشعبية » ، وفرنسا « التي نحبها وتحبنا » .. كذلك لنلاحظ ، ان الحزب الشيوعي السوري اللبناني ، الذي سكت عن الاستعمار كنظام كلي ، ويرر جريمة اغتصاب اللــواء ببشــاعتها اللامتناهية ، اصبح وطنيا جدا بين ليلة واخــرى بحيث اصبح يهاجم الاستعمار الفرنسي : « لتقنين البنزين » !!

وعاد الحزب فهاجم الاستعمار الفرنسي ، وطالب بالحياد تجاه الحرب بعد ذلك بشهر ، في بيان صادر بتوقيع « اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان » في ايلول ١٩٤٠ ، حيث جاء فيه :

« ... ايها المواطنون : لقد طفح الكيل ! واذا تركنا الاستعمار الفرنسي يفعل ما يشاء فامامنا في هــذا الشتاء اهوال لا تقل عن اهوال « السفر برلك » في سنة ١٩١٧ . فلنتحد ونناضل في سبيل المطاليب الحيوية التالية :

« اولا : اعلان حياد سوريا ولبنان وعدم استخدامهما في اى غرض حربي . » الخ .

وهكذا ادرك الحزب الشيوعي السوري اللبناني « اخيرا » ان الكيل قد طفح ! وكان الشعب العربي قد ادرك هذه الحقيقة منذ زمن بعيد جدا حين كان الحزب الشيوعي حزب « اليقظة الثورية » ! غارقا في تمجيد الاستعمار الفرنسي .

وككل الاحزاب الشيوعية في الوطن العربي ، ذهب الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان في غمرة هذا الانقلاب السياسي الفجائي ضد فرنسا وبريطانيا ، الى تحميل فرنسا مسئولية اثارة الحرب . ففي بيان صادر بتوقيع : « يوسف خطار » عضو اللجنة المركزية في ايلول ١٩٤٠ وبعنوان « الفلاح اللبناني يجوع ، بينما تتحول اتعابه الى ذهب في صناديق المحتكرين والشركات الاجنبية » يقول :

« لقد سجنتم وعذبتم عشرات الشيوعيين ، وحكمتم على فرج الله الحلو ، ابن لبنان البار ، وعلى اخوانه بالسجن خمس سنوات . ولماذا ؟ لاننا قلنا : فليسقط الاحتكار ، ليحيى خبز الشعب ، ولتسقط الحرب الاستعمارية ، هذه الحرب المشئومة التي تحمل الدولة الاستعمارية الفرنسية اكبر قسط من المسئولية في نشوبها . . »

فالحزب الشيوعي ، « حزب الطبقة العاملة ! » الذي نسي مصير الطبقة العاملة وخانها ارضاء لفرنسا طيلة الفترة السابقة ، يتذكر الان ان الفلاح اللبناني يجوع ! والحزب الذي يقول هذا الكلام الان ويجعل « الدولة الديمقراطية الفرنسية » « دولة استعمارية فرنسية » لم يكن يجهل ان الفلاحين العرب ، السوريين واللبنانيين والتونسيين والجزائريين والمراكشيين ، كانوا يجوعون وتتحول اتعابهم الى ذهب في صناديق فرنسا منذ ان وطئت اقدامها ارض هذا الوطن ، وفي الوقت الذي كان الحزب قد ادار ظهره لجماهير العمال والفلاحين ليقبل اعتاب الاستعمار الفرنسي . ولكن . . هكذا كان يقتضي مخطط الشيوعية الدولية في المرحلة السابقة ، وهكذا اصبح يقتضي في المرحلة الجديدة ، وليس على الحركة الشيوعية الا ان تردد ما يقال لها .

نلاحظ كذلك في كل هذه البيانات ، ان هناك اغفالا تاما للنازية والفاشية ! والواقع ان المخطط الجديد ارتكز الى ثلاثة وجوه كانت تسير طوال هذه الفترة جنبا الى جنب . فالفاشية التي كانت الخطر الاول اهملت نهائيا . . وفرنسا وبريطانيا اللتان كانتا دولتين ديمقراطيتين اصبحتا دولتين استعماريتين . والدعوة الى تمجيد النضال ضد الاستعمار بحجة عدم « ازعاج » جبهة السلام ، اصبحت دعوة الى النضال بحزم ضد الاستعمار !

وهذا ما عبرت عنه صحيفة « نضال الشعب » السرية في عددها العاشر ، تشرين الاول ١٩٤٠ ، حيث كتبت في افتتاحيتها بعنوان « الحروب الاستعمارية في مرحلتها الجديدة » تقول :

« ... كما ان تنظيف حكومة تشرشل من العناصر المترددة (استقالة تشمبرلن من الحكومة ومن حزب المحافظين) يبرهن ان العناصر القائلة بمتابعة الحرب للنهاية تزداد قوة ونفوذا في اوساط الحكومة البريطانية وفي حزب المحافظين ، الحزب الرئيسي للبورجوازية الانكليزية »

ثم تطالب الافتتاحية بتعبئة الشعب للنضال ضد الاستعمار فتقول :

« ومن هنا نرى كل الرياء والخداع والتضليل في دعايات الجزويت الذين يطلبون من اللبنانيين ان لا يفكروا في النضال وان يكتفوا بالانتظار « والدعاء » ويوهمونهم « ان الفرج قريب » ، وكذلك في دعايات بعض الزعماء الكتلويين (جماعة جريدة الانشاء) الذين يطلبون من السوريين العدول عن كل مقاومة لسياسة الاستعمار ، ويسعون الى خنق كل نضال وطني ، ويخدرون الشباب ويقولون لهم : ليس امامنا سوى ان ننتظر انتهاء الحرب حتى نسعى للاتفاق مع الدولة التي ستنتصر . . ان شعب سوريا ولبنان لا يستطيع الاصغاء الى دعايات الجزويت وهذا النفر من الكتلويين ممثلي مصالح البوايكة وكبار تجار البزورية ! ان شعب سوريا ولبنان لا يستطيع ان يقاسي مكتوب اليدين آلام البؤس والبطالة اليوم ، واخطار الموت من الجوع والقنابل غدا ! »

والحقيقة ، ان اى مواطن عربي ، لا يمكن الا ان يصيبه التقزز من هذه القدرة الفائقة على اتقان النفاق التي يتصف بها الشيوعيون في وطننا . فهذه الاتجاهات التي يهاجمها الحزب الشيوعي السوري اللبناني بهذه الحدة ، هي نفس المواقف التي وقفها الحزب نفسه من الاستعمار الفرنسي قبل عام واحد ! بل هي في الواقع اقل خطرا منها بكثير ! فالحزب الشيوعي الذي يهاجم الجزويت لانهم يكتفون بالدعاء لم يكتف هو نفسه باتخاذ مثل هذا الموقف ، بل ذهب في مهادنة الاستعمار الفرنسي الى حد الدعوة للتحالف مع هذا الاستعمار . . والحزب الشيوعي الذي يهاجم من يسميهم ممثلي مصالح البوايكة وكبار تجار البزورية ، لم يكتف هو نفسه قبل عام واحد بالغاء كل نضال ضد الاستعمار ، بل واتهم النضال الذي كان يخوضه الشعب العربي ، ومن ضمنه الكتلويين انفسهم ، بانه « فوضى وشغب » يهدف الى عرقلة تصديق المعاهدة المشهودة مع فرنسا !! فاذا كان الكتلويون يمثلون مصالح كبار تجار البزورية ،

فمصالح من كان يمثل الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان ، سوى مصالح الاستعمار الفرنسي ؟!

* * *

وطبعا ، كان يرافق هذا الموقف المصطنع الزائف الجديد ، تمجيد مباشر وغير مباشر للسياسة السوفيتية القائمة على الصداقة الالمانية السوفيتية في تلك الفترة ، وتأييد واضح لكل الابتلاعات التي قام بها السوفييت ثمنا لمهادنة النازية . ففي عددها الحادي عشر ، تشرين الثاني ١٩٤٠ ، كتبت صحيفة « نضال الشعب » تقول مفتخرة :

« لقد اراد الاستعماريون جر الاتحاد السوفييتي الى الحرب ، ولكن ستالين العظيم وقف في آذار ١٩٣٩ وقال للشعوب السوفييتية بلغته البسيطة ولهجته الهادئة الجبارة : « احذروا احابيل الذين يحاولون اخراج الكستناء من النار باصابع غيرهم . » ويعد عشرين شهرا مضت على هذه الكلمة الحكيمة .. كان تاريخ القرن العشرين يسجل حقائق جديدة عظيمة هي ، أن اذكي واقدر دبلوماسية في العصر الحديث هي الدبلوماسية السوفييتية ، وان اقوى جيش في الدنيا من الوجهة العددية والميكانيكية والمعنوية هو الجيش الاحمر ، وان أهم عنصر فعال في الحياة الدولية هو السياسة السوفييتية ، وان اعظم قواد العالم كلمة وتبصرا وجرأة وعبقرية هو ستالين ، وان قائد الانقلاب نحو الاخاء والحرية والنور هو ستالين ! »

ونحن لا يهمنا عبارات التمجيد الغريبة هذه (والتي تصدر عن حزب عقائدي !) ، ولا ان الدبلوماسية السوفييتية التي تتحدث عنها « نضال الشعب » — باسلوب خالد بكداش المعروف — هي التي كانت قد باعت لواء الاسكندرون لكسب ود تركيا وبعض امتيازات في المضائق ، ولكن يهمنا ان نشير الى ان « الحقائق الجديدة العظيمة » التي اكدتها العشرون شهرا — ما بين توقيع الاتفاق السوفييتي النازي وتاريخ صدور المقال — كان من جملتها ، اغتصاب ليثوانيا ولاتفيا واستونيا والمعاهدة التي عقدها الاتحاد السوفييتي مع فنلندا ليقتطع منها اجزاء متعددة .. (١)

كما حمل هذا العدد نفسه من « نضال الشعب » مقالا بعنوان « الاتجاه الجديد في الحرب الاستعمارية الحاضرة » حمل في مقطع منه بعنوان « سياسة بعض الزعماء الوطنيين » هجوما شديدا على الاستعمار الفرنسي ، وطالب بالنضال الفوري لطرده من سوريا ولبنان ، فقال :

« اما سياسة بسط الايدي نحو السماء وارسال الوفود لمقابلة سفراء المانيا وايطاليا وتركيا او غيرها ، فهي سياسة خيانة ومتاجرة على اكتاف الشعب السوري . ويجب على هؤلاء « الزعماء الوطنيين » الذين يحملون علم سياسة من هذا النوع ، ان يدركوا ان الشعب السوري لم ينس ، ولن ينسى ابدا ، ان في سوريا استعمارا فرنسيا وحشيا يمص من دمه ، ويسلط عليه سيف ارهابه ، ويسلم لقمة خبزه الى المرتشين والمحتكرين ، ويتآمر مع سادته واتباعه على سلامة كيان الوطن . »

ان هذا المقال يعطينا في الواقع صورة واضحة عن الموقف الجديد للحزب الشيوعي السوري اللبناني من الاستعمار الفرنسي .. ويذكر القارىء جيدا ان الحزب لم يذكر كلمة واحدة طيلة الفترة السابقة عن الاستعمار الفرنسي الوحشي ، ومص دماء الشعب ، وتسليط سيف الارهاب عليه ، وسرقة لقمة خبزه . كذلك ، لنتذكر هذه الاقوال لنرى مصيرها في المستقبل القريب ..

واستمر هذا الموقف .. ونشرت صحيفة « نضال الشعب » في عددها الخامس عشر ، آذار ١٩٤١ بيانا صادرا عن اللجنة المركزية للحزب يحدد موقف الحزب العام من الحرب العالمية القائمة ، ومطاليب الحزب السياسية والاقتصادية في لبنان بما يلي :

« ١ — استقلال لبنان العربي وحريته وحياده ، ٢ — الغاء التدابير الاستثنائية التي اتخذت عقب نشوب الحرب ، ٣ — اطلاق الحريات العامة للشعب : حرية الصحافة والنشر والكلام والاجتماع والتظاهر والاضراب ، ٤ — اطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين من وطنيين وشيوعيين ، ٥ — اعادة الحياة الدستورية للبلاد ، ٦ — اقامة حكم دستوري مستمد من ارادة الشعب ... »

---

(١) : كان « ريبنتروب » ثم هتلر قد عرضا على مولوتوف وزير خارجية الاتحاد السوفييتي مشروعا رباعيا لاقتسام العالم يقوم في خطوطه العريضة على : ان تكون اوروبا دائرة نفوذ المانيا (فضلا عن مستعمرات افريقيا) ، ومنطقة البحر الابيض المتوسط دائرة نفوذ ايطاليا ، واسيا الوسطى وامتدادات الخليج العربي دائرة نفوذ روسيا (فضلا عن امتيازات في الطرف الشرقي لاسيا يتفق عليها مع اليابان) ، وجنوب شرقي اسيا منطقة نفوذ اليابان . ولم يرفض مولوتوف المشروع من حيث المبدأ ولكنه اراد دراسة مفصلة عن المشروع من جهة ، كما عارض في استقلال المانيا باوروبا لا سيما فيما يتعلق بدول البلطيق ومستقبل اوروبا الشرقية .

هذه لمحة عامة عن موقف الحركة الشيوعية من معركة التحرر العربي في هذه الفترة ما بين آب ١٩٣٩ وحزيران ١٩٤١ . وفي هذه الفترة اتخذت الحركة الشيوعية موقفا مناقضا مناقضة تامة لموقفها في الفترة السابقة ، وهنا نلاحظ :

أولا : ان الحركة الشيوعية تناست الفاشية التي ارتكبت كل الخيانات السابقة باسم مكافحتها .

ثانيا : ان فرنسا وبريطانيا لم تعــــدا دولتين ديمقراطيتين ، بل اصبحتا استــــعمارا يمص دم الشعب ، كما اكتشفت الحركة الشيوعية فجــأة ؛ انهما ليستا « جبهة سلام » بل دولتين عدوانيتين ؛ ومسئولية الحرب العالمية الدائرة تقع عليهما بالدرجة الاولى .

ثالثا : ان الشعب العربي يجب ان يخوض نضالا فوريا حازما لتحطيم الاستعمار الفرنسي والبريطاني وان كل دعوة لمهادنة فرنسا ، اى شكل اتخذت ، هي خيانة للوطن ، وكل دعوة لايقاف النضال ضـــد الاستعمار بحجة الحرب القائمة هي مؤامرة عـــلى الشـــعب .

ويكفي ان يقارن القارىء العربي هذه الخطـــوط العامة لموقف الشيوعيين من الاستعمار في هـــذه المرحلة مع خطوط المرحلة السابقة ، ليدرك فداحـــة هذا التحول البهلواني من المهادنة الكلية الى العـداء الكلي .

ولكن .. هل كان هذا كل شيء ؟

ان خرافة اصالة الشيوعية المحلية في مكافحـــة الاستعمار لم تنته .. بل ان المفاجأة الكبرى في هذه التمثيلية الخرافية لم تأت بعد ...

* * *

الفصـــل الثالث

موقف الشيوعية المحليّة من معركة التحرر العربي

١٩٤١ ــ ١٩٤٥

الحركة الشيوعية تحالف الاستعمار باسم مكافحة الفاشية !

هكذا ، وفجأة ، عاد شعار التحالف مع الاستعمار ليظهر مرة اخرى ويصبح هو شعار المعركة العربية ! فما الذى حدث ؟ هل جلا الاستعمار الفرنسي والبريطانى عن الوطن العربى ؟ هل تغيرت « طبيعة » فرنسا وبريطانيا الاستعمارية واصبحت « طبيعة » تحررية ؟ لم تكن اوضاع الوطن العربى هي الدافع وراء هذا الانقلاب الفجائي الجديد في موقف الشيوعية المحلية ، وانما يكمن سر تحركات الحصان الخشبي الجديدة ، مرة اخرى ، في تغير الاوضاع العالميــة .

ففي ٢٢ حزيران ١٩٤١ ، انتهى التحـالف السوفييتي ــ الالمانى ، ودخل الاتحاد السوفييتي الحرب ضد المانيا الى جانب بريطانيا وفرنسا . وكان هذا الموقف الجديد يقتضي اجراء انقلاب اساسي في موقف الاحزاب الشيوعية عامة : الحرب ضد المانيا النـازية ، والاخوة « للديمقراطية » البريطانية والفرنسـية ! وبلمحة عين ، طوت الشيوعية المحلية لافتاتها السابقة ورفعت اللافتات الجديدة ، ولم تتوقف لحظة واحـدة لترى مدى التناقض المخزى بينهما .

فبعد ان كان الشعار القديم « لتسقط الحرب الاستعمارية » اصبح الشعار الجديد « لتحيـا الحرب التحريرية » !

وبعد ان كان الشعار القديم « بجنود تشرشـل القابعة فى ارضنا هى الخطر الاول ، وهتلر صديق السوفييت اليومَ هو غير هتلر صديق بريطانيـا امس » ، اصبح الشعار الجديد « جبهة واحدة من طبرق إلى لينينغراد لقتل الوحش الهتلرى » !

وبعد ان كان الشعار القديم « الى الاتحـاد والتنظيم والنضال ضد الاستعمار الفرنسي » اصبح الشعار الجديد « الى التطوع فى صفوف فرنسـا الحرة » !

وبعد ان كان الشعار القديم « الفلاح يجوع بينما تتكدس الارباح فى جُيوب المستعمرين » ، اصبح الشعار الجديد « كل الشعب لدعم المجهود الحربى للحلفاء » !

ووقف الشعب العربى يراقب مبهوتا هذا التزوير السافر لشعار معركة التحرر القومى . فهذا الشعار الذى طرحته الشيوعية المحلية كان له نتيجة عملية واحدة : هى زج الشعب العـربى فى اتون الحرب العالمية الثانية اولا ، ودفعه للسكوت عن الاستعمار البريطانى والفرنسى الرابض فوق صدره ثانيا . واذا كانت حركة النضال العربى التحررى يجب ان لا تنحاز لالمانيا النازية ، فقد كان من الواجب ايضا الا تنحاز للاستعمار الغربى . ولهذا لم يلق الشـعب العربى بالا الى هذا الشعار العجيب الذى كان يدعوه « للتحالف مع الاستعمار الغربى ضـد الاستعمار النازى » ، واستمرت حركة الكفاح التحررى فى كثير

من اجزاء الوطن العربي . وهكذا وجدت الشيوعية المحلية نفسها مجددا امام امتحان الاختيار : الكفاح ضد الاستعمار في سبيل حرية العرب ، او مهادنة الاستعمار في سبيل مصلحة الشيوعية الدولية . ومرة اخرى ، لم تتردد الشيوعية المحلية في الاختيار .. فهادنت الاستعمار وبررت جرائمه ودعت للتحالف معه ، وعملت معه ضد حركة التحرر العربي . لقد نجحت في امتحان الخيانة .. بتفوق .

فباسم مقاومة النازية ، وقفت مع الاستعمار البريطاني ضد ثورة ١٩٤١ في العراق .

وباسم مقاومة النازية ، تحالفت مع الاستعمار الفرنسي في سوريا ولبنان والمغرب ضد الحركة التحررية التي قامت في هذه الاجزاء ابان سني الحرب .

وباسم مقاومة النازية ، بررت احتلال بريطانيا لمصر وهاجمت كل دعوة تحررية .

وباسم مقاومة النازية ، هادنت بريطانيا والغزو اليهودي في فلسطين .

وباسم مقاومة النازية ، اتهمت كل حركة عربية تحررية بانها عميلة للنازية .

ولعل تتبع خيانات الاحزاب الشيوعية لنضال العرب التحرري طوال سني الحرب يحتاج لمجلد كامل . لذلك سنقصر حديثنا على نموذجين اثنين فقط وهما : الحزب الشيوعي العراقي والحزب الشيوعي السوري اللبناني .

* * *

في ايار ١٩٤١ قام الضباط الاحرار في الجيش العراقي بثورتهم المعروفة ضد الاستعمار الانجليزي وعملائه في القصر والحكومة . وكانت تلك الحركة بروحها القومية العامة والاهداف التي وضعتها لنفسها ، حدثا نضاليا كبيرا في معركة العرب القومية، وتعبيرا عن ارادة الشعب العربي في التحرر والوحدة .. وفي ذلك التاريخ كان التحالف الالماني ـ السوفييتي مازال قائما ، فسارع الاتحاد السوفييتي للاعتراف بالحكومة الجديدة .

وطبعا ، سرعان ما ايد الحزب الشيوعي العراقي هذه الثورة واعتبرها نصرا تحرريا عظيما ، وظهرت بياناته تمجد الثورة « التي لقنت الاستعماريين الانجليز ، مصاصي دماء الشعوب ، درسا لا ينسى » .

وظن البعض ان هذا الموقف المؤيد هو بادرة وطنية اصيلة في نفوس شيوعيي العراق ، لا مجرد امتثال لموقف الاتحاد السوفييتي . ولكن الايام لم تترك هذه القضية طويلا بلا اجابة .

ففي ٢٢ حزيران ، اي بعد اقل من شهر واحد من قيام الثورة ، انتهى التحالف السوفييتي ـ الالماني واصبح الاتحاد السوفييتي حليف بريطانيا وفرنسا ضد المانيا . وطبعا ، سرعان ما سحب تأييده للثورة ، ذلك أن بريطانيا قد تحولت الان من دولة « استعمارية » الى دولة « ديمقراطية » .

وفجأة ، انقلب موقف الحزب الشيوعي العراقي ، وفي اقل من شهر واحد ، من التأييد الحار للثورة الى العداء العنيف لها ! وبعد ان كانت « درسا للاستعماريين الانجليز » اصبحت « عميلة للنازيين والفاشستيين » ! وبعد ان كانت موجهة ضد « مصاصي دماء الشعوب » اصبحت « موجهة ضد الديمقراطية » !

وفي الوقت الذي كان جهاز العملاء في العراق يعمل باستماتة لخنق الثورة ، وفي الوقت الذي كانت فيه بريطانيا تزحف من الاردن بقوات غلوب باشا للقضاء عليها ، كان الحزب الشيوعي العراقي يشن حملة عنيفة على قادة الثورة « عملاء هتلر » ساهما صراحة في تهيئة الجو لعودة الاستعمار الانجليزي .

وطبعا ، لم يكن شيء قد تبدل خلال هذه الاسابيع القليلة ، في طبيعة ثورة ١٩٤١ في العراق ، فهي ثورة شعب مستعمر ضد جلاديه المستعمرين ، ولكن مجرد تحالف بريطانيا مع الاتحاد السوفييتي كان مبررا كافيا بنظر الشيوعيين « الشيوريين » للدوس على حرية الشعب العربي ، بل وللعمل على تثبيت دعائم الاستعمار ، بل ولتحويل بريطانيا من دولة استعمارية الى دولة ديمقراطية !

وقد اتخذت الاحزاب الشيوعية في المشرق العربي نفس هذا الموقف الخائن لثورة ١٩٤١ . بل ولم تترك فرصة الا هاجمتها فيها منذ قيامها حتى انتهاء الحرب . مثال واحد على ذلك الموقف ، هو ما عادت ونشرته صحيفة الحزب الشيوعي السوري اللبناني الرسمية « صوت الشعب » مهاجمة ثورة الضباط الاحرار ، وبلسان من ؟ بلسان نوري السعيد وعناصر العهد البائد في العراق ! ففي حزيران ١٩٤٣ ، نشرت « صوت الشعب » ، في معرض ثنائها على صداقة حكومة العراق لبريطانيا ، الخبر التالي :

« رسالة نوري السعيد باشا وبيان تحسين بك قدري بمناسبة عيد الامم المتحدة . »

« واذاع حضرة تحسين قدري بك قنصل العراق العام ، للمناسبة نفسها ، بيانا بسط فيه موقف العراق من الحرب جاء فيه :

« ولما قامت الحرب الحاضرة بين المانيا والدول الديمقراطية ، كان طبيعيا ان يقف العراق الى جانب

حلفائه ، فقطع علاقته بالمانيا ، واعتقل رعاياها وعمالها ، وعمل على تأمين حاجات حليفته بريطانيا العظمى وفق ما تقضي به معاهدة التحالف .. لكن دعايات المحور ودسائسه استمرت مع هذا على العمل لهدم كيان العراق ، حتى دبرت بعض الحوادث المؤسفة التي وقعت خلال شهري نيسان وايار عام ١٩٤١ .. » (١)

وصحيفة الحزب توافق موافقة تامة على ان ثورة ١٩٤١ في العراق كانت نتيجة (دعايات المحور ودسائسه) ، وأنها كانت تستهدف (هدم كيان العراق) ، وانها (حوادث مؤسفة) لانها سببت بعض الازعاج (للديمقراطية البريطانية) .

ولم يكتف الحزب الشيوعي العراقي بذلك الموقف المتآمر على ثورة العراق التحررية ، فمن ذلك التاريخ والى نهاية الحرب العالمية الثانية ، تحول هذا الحزب الى طابور خامس يعمل مع السلطات البريطانيه لخنق كل بادرة تحررية . فقد لجأت سلطات الاستعمار الانجليزي منذ ذلك الحين الى اتخاذ سلسلة من التدابير كانت تستهدف تصفية ثورة عام ١٩٤١ نهائيا من جهة ، ودعم وتمكين ركائز استعمارها في العراق من جهة ثانية . وكان من هذه التدابير (جمعية اخوان الحرية) التي شكلتها وافتتحت لها فروعا في انحاء العراق باسم (اندية اخوان الحرية) لتتعاون مع مكاتب الاستخبارات البريطانية في تحقيق الغايات الآنفة ولا يزال الشعب العربي في العراق يذكر جيداً أن هذه الجمعية ، التي كان يترأسها فاضل الجمالي ، كان يعمل فيها عدد من الشيوعيين العراقيين البارزين امثال عزيز الشريف ، وعبد الفتاح ابراهيم ، وسليم طه التكريتي ، وعبد الهادي المنتفكي (١)

* * *

اما الحزب الشيوعي السوري واللبناني ، فان المواقف التآمرية الصارخة التي وقفها من معركة التحرر العربي في هذه الفترة ، تجسيدا للشعار الجديد (محالفة الاستعمار لمكافحة الفاشيـة) ، تستحق منا ، كالعادة ، وقفة طويلة .

فهذا الحزب لم يكتف بمهادنة الاستعمار الفرنسي ، بل تحالف معه تحالفا صريحا ، واسبغ عليه كل ما في ذهن قادته التآمري من اوصاف تحررية .

وعمل على تخدير النضال الشعبي التحرري وكبح المد الثوري كلما شعر انه أصبح يهدد الاستعمار الفرنسي بالخطر .

وجعل من نفسه داعية لسياسة ديجول وكاترو وهيللو ، وسخر صحافته ومنشوراته ومهرجاناته للتبشير بها .

وظل متعلقا بأذيال الاستعمار الفرنسي حتى بعد أن بدأ النضال الشعبي بطرده خارج سوريا ولبنان ففي الوقت الذي كانت فيه معركة الجلاء على اشدها كان الحزب الشيوعي السوري اللبناني يطالب بعقد معاهدة متبادلة مع الاستعمار الفرنسي

ولنرجع للوثائق .

* * *

في عام ١٩٤٢ كان الجنرال كاترو قد ادلى بتصريح وعد فيه باعادة الحياة النيابية الى سوريا ولبنان . وكان واضحا وضوح الشمس للجميع ، أن هذا التصريح الذي ادلى به هذا الاستعماري الفرنسي المفضوح ، لم يكن الا مجرد وعد باعادة الحياة النيابية لا الجلاء التام ، وأنه يمكن ان يكون مجرد مناورة لكبح المد الشعبي التحرري وامتصاص التحفز الشعبي ، ما لم تدرك الهيئات والاحزاب هذا المحذور وتعبيء الشعب لمواصلة الكفاح ضد سيطرة الاستعمار الفرنسي .

في هذه الفترة اصدر الحزب الشيوعي كراسا للسكرتير العام خالد بكداش بعنوان : (الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان ـ سياسته الوطنية وبرنامجه الوطني) (١)

استعرض فيه الوضع السياسي وحدد الواجبات الجديدة الملقاة على عاتق الشعب .

وكان المفروض في أي حزب وطني مخلص أن يؤكد للشعب : أن الحرب الدائرة هي حرب بين دول استعمارية لحماية مصالحها الخاصة ، وأن الحياد هو الموقف القومي الوحيد السليم للشعب العربي تجاهها ، وأن يعبيء الشعب للكفاح ضد الاستعمار الفرنسي وسيطرته ، وأن ينبه

---

(١) : « صوت الشعب » ـ حزيران ١٩٤٢ ـ عدد ٥٦٦ ، السنة السابعة .
(١) : « نحن والشيوعية في الازمة الحاضرة » ـ سعدون حمادي .
(٢) : ايار ١٩٤٢

للمناورات الاستعمارية التي قد تؤدي لخنق نضاله التحرري ، ما لم يمتلك اليقظة الثورية الكاملة .

فماذا كان توجيه الحزب الشيوعي السوري اللبناني في تلك الفترة ؟ يقول خالد بكداش في كراسه :

(ان تصريح الجنرال كاترو باعادة الحياة الدستورية أدخل سوريا ولبنان في عهد جديد . فاننا مقدمون على حياة نيابية .. ونحن نستعد للانتخابات وقلوبنا تزخر املا ببلوغ حياة احسن في ظل البرلمان والدستور .. ولكن هل يمكن ان يكون املنا هذا وطيدا ما دامت الهتلرية حية لم تقتل ؟ ! .. كلا ليس هذا ممكنا . ومن ثم يبقى كل تفكيرنا وكل حيويتنا متجهة نحو فكرة أساسية وهي : قتل الهتلرية . ونحو غاية أساسية وهي : متابعة تأييد المجهود الحربي الذي يبذله حلفاؤنا السوفييت والانجليز والاميريكيون والفرنسيون المحاربون في الشرق الادنى وغير الشرق الادنى .

(أجل ان كل تفكيرنا وجهدنا ، وكل حيويتنا وكل أخائنا وتضامننا وشعورنا الوطني والانساني والقومي ، وكل عاطفة الحب للحرية التي تملأ صدورنا متجهه في يوم اول ايار .. الى الجيوش الفرنسية والانجليزية والامريكية التي تطهر تونس من القطعات الهتلرية ، والى الجيش الاحمر الجبار الذي ناضل سنتين ضد كل قوى المانيا وحلفائها ، الى الشعوب السوفييتية التي حملت قضية الحرية على عاتقها ببسالة لا تكاد تصدق ، والى زعيمنا ، ورفيقنا ، وصديق كل شعوب العالم ، الى قائد جبهة الحرية نحو النصر الاكيد ، الى زعيم اول ايار : ستالين العظيم).

هذا الكلام يوجهه زعيم الشيوعيين في سوريا ولبنان الى الشعب في ظل الاحتلال الاستعماري الفرنسي والبريطاني .. لقد كنا نفهم ان يهاجم زعيم الشيوعيين في سوريا ولبنان النازية والفاشية وبما شاء من عنف ، ولكن أن يطلب من الشعب ان يتجه بكل تفكيره وكل جهده وكل حيويته وكل اخائه (!) وكل شعوره الوطني والقومي الى جيوش فرنسا وبريطانيا التي تستعمر الوطن العربي ، ولا تقل عدوانا عن النازية الا شكلا ، فهذا ما لا نفهمه ابدا الا على أنه دعوة تآمرية صريحة لتخدير النضال الشعبي ، وتخفيف كراهية الشعب للاستعمار الفرنسي والانجليزي .

وهذه الحقيقة تظهر بجلاء أكبر كلما كان الموقف يقتضي وضع النقاط على الحروف بصراحة أكبر ، فلنتابع قراءة هذا التوجيه التآمري الرخيص :

(ولكن قوى الحرية كثيرة في الدنيا . وفي صفوفها الاولى قوة الشعوب الاوربية .. وبين هذه الشعوب الاوربية شعب نردد اسمه كثيرا نحن الشيوعيين والديمقراطيين العرب : وهو الشعب الفرنسي الباسل الكبير . فللشعب الفرنسي ايضا مكان خاص في قلوبنا نحن المناضلين السوريين واللبنانيين

(.. لذلك نلتفت الى الشعب الفرنسي ، وليست حركة الجنرال ديجول في نظرنا سوى تعبير عن ارادة التحرر التي تعمر صدر الشعب الفرنسي ولذلك ، فبصرف النظر عن كل اعتبار سياسي يتعلق بسوريا ولبنان ، في الماضي والحاضر ، ننظر الى حركة الجنرال ديجول نظرة عطف واحترام) .

ونحن لا يهمنا ان نناقش عواطف (العطف والاحترام) التي يكنها الشيوعيون السوريون واللبنانيون لديجول ، فالحزب الذي حول هتلر الى (رجل جديد) ما بين ١٩٣٩ — ١٩٤١ ؛ لمجرد تحالف الشيوعية الدوليه معه ، يستطيع بسهولة اكبر ان يحول ديجول الى « داعية للسلام » . ولكن يهمنا ان نشير الى ان عواطف « المحبة والعطف والاحترام) لدى الشيوعيين العرب تتشكل (بصرف النظر عن كل اعتبار سياسي يتعلق بسوريا ولبنان ، في الماضي والحاضر) .. ومعنى هذا الكلام الوقح أن عواطف الشيوعيين تتشكل بعيدا جدا عن آلام الشعب العربي وتتحدد خارج حدود هذا الوطن ، وأن ربع قرن من الاستعمار الفرنسي الوحشي في سوريا ولبنان ، بكل ما في هذه السنوات من دماء ودموع وشهداء ، يجب الا تؤثر ابدا على (احترامنا العميق لديجول) . فالشيوعيون (علميون) والعلم فوق العواطف .

وهذه (العواطف النبيلة) التي يجيش بها صدر الحزب الشيوعي السوري اللبناني لم تكن تقتصر على الاستعمار الفرنسي وحده ، بل طالب الشيوعيون الشعب العربي ، بأن يكن نفس المحبة لبريطانيا واميركا وان يتبع ازاءهما نفس السياسة .. سياسة الاحترام .

(فحبنا للشعب الفرنسي لا يمنعنا من حب الشعب الانجليزي .. وتأييدنا لحركة الجنرال ديجول لا يلهينا عن تأييد الديمقراطية الانجليزية ، المرتبطة بأكثر الاقطار العربية والتي لها فضل كبير ، كبير جدا .. في ابعاد خطر الحرب وويلاتها عن بلادنا والتفاتنا الى الديمقراطية الانجليزية لا يمنعنا من تقدير الديمقراطية الاميركية الكبرى) (الكراس ص ٢٠)

ولم يكن خالد بكداش ليجهل وهو يحبر هذا الكلام أن (الديمقراطية الانجليزية المرتبطة بأكثر

الاقطار العربية) هي (الاستعمار الانجليزي المسيطر بالقوة والاستبداد على اكثر الاقطار العربية ، وان (الفضل) الذي لبريطانيا على العرب هو (جريمة الطغيان والسلب والنهب) التي يرتكبها بحق الشعب العربي منذ عام ١٩١٦ .

ولكن ، هذا الموقف : اسباغ صفة (التحررية) على الاستعمار ، ومحاربة التعبئة الفكرية والعاطفية في صفوف الشعب ضده ، لم يكن الا وجها واحداً للمؤامرة على نضال العرب التحرري في هذه الفترة .

* * *

وكان الوجه الثاني هو الدعوة لـ (شرعية وجود فرنسا في سوريا ولبنان) . واعلان (الولاء التام للاستعمار الفرنسي)

والواقع أن المتتبع للنشاط الحزبي والتوجيه السياسي للحزب في هذه الفترة ، لا يسعه الا أن يقف مذهولاامام الكيفية الوضيعة التي كان الحزب يؤيد فيها سياسة الاستعمار ويدعو لها . هذا الموقف نستطيع ان نأخذه بوضوح من دراسة صحيفة الحزب الرسمية (صوت الشعب) التي حولها الشيوعيون آنذاك الى نشرة دعاوية للسلطات الفرنسية .

والواقع أن نماذج الاخبار والتعليقات التي كانت تحتل الامكنة البارزة في الصحيفة وتشكل مادتها الرئيسية تدعو فعلا للعجب . فخطابات ديجول مثلا ، كانت تبدأ دائما في مادة الصحيفة (التوجيهية) رغم ما فيها من نزعة استعمارية واضحة ، وهذه بعض نماذج .. في حزيران ١٩٤٣ نشرت صحيفة الحزب الرسمية (صوت الشعب) الخطاب الذي القاه ديجول آنذاك وجاء فيه : (وسط القتال الرهيب الدائر باستمرار ، تملك فرنسا امكانيات عديدة للقتال ، تملك امبراطوريتها مع جميع مواردها بالرجال والاعتدة ، وتملك ولاء سكان الامبراطورية الطيبين) (١)

وفي نفس الشهر ايضا عادت (صوت الشعب) ونشرت خطاباجديدا لديجول : (استعرض الجنرال ديجول صباح امس جميع القوات الامبراطورية بحضور جمهور عظيم جدا ، وقد أذاع من الراديو خطبة ، هذه أهم مقاطعها :

(.. ان فرنسا رغم قيودها تغلي بثورتها الوطنية . ان فرنسا تتجدد ، وسيكون الشعب نفسه ، في النطاق نفسه ، على رأس الامبراطورية نفسها ، هو الذي يعود الى الظهور فور تحطيم قيوده) (١)

ان هذه الخطابات التي تقول صحيفة الحزب الرسمية ، لتدلل على شعبية ديجول ، انه قد حضرها (جمهور عظيم جدا) ، هي نمط الخطابات التي كان يتحدث عنها خالد بكداش آنفا ، والتي كان يصفها (بانها تقدمية) .

الشيوعيون (الضليعون) بالتحدث ساعات عن اسباب الاستعمار ونتائجه لا يجدون الان أية غضاضة في تحويل صحيفتهم الى نشرة تمجد (امبراطورية فرنسا) .

وهل كان يجهل الشيوعيون ان الامبراطورية التي يتبجح ديجول (بامتلاكها) كانت تضم الجزائر وتونس ومراكش وسوريا ولبنان ؟

(وولاء سكان الامبراطورية الطيبين) ، هل كان المقصود به شيئا آخر الا مطالبة الشعب الثائر بأن تكون علاقته بالاستعمار الفرنسي علاقة (ولاء للاستعمار) لا علاقة (ثورة على الاستعمار)

وبعد .. ان ديجول ، حتى في تلك الفترة من الحرب ، لم يكن يخفي نزعته الاستعمارية الوقحة ، فهو يصر على انه ليس في نيته التخلي عن شبر واحد من الامبراطورية ، وفرنسا ستكون بعد الحرب (على رأس الامبراطورية نفسها) .

هذا ما كان يقوله ديجول .. اما ما كان يوهم به الشيوعيون الشعب العربي ، بتدجيل ما بعده تدجيل ، فهو تلك الكلمات المأثورة لخالد بكداش (ان فرنسا الغد لن تكون كفرنسا الامس)

فلمصلحة من كان الشيوعيون يزورون نفس خطابات وآراء ديجول الاستعمارية الواضحة ويجعلون منها (وعودا تحررية) ؟

مرحى .. لقد وجد ديجول حزبا منظما يضفي على نزعاته الاستعمارية صفة الديمقراطية ، وعلى آرائه صفات التقدمية ، ويدافع عن امبراطوريته الفرنسية .

● والحزب يطالب الشعب بالثقة والمحبة لفرنسا ويبارك (مركزها التاريخي) في الوطن .

(ابلغت المندوبية العامة ، ان فخامة جان هيللو سفير فرنسا في سوريا ولبنان عين مندوبا عاما مطلق الصلاحية لفرنسا في الشرق خلفا لفخامة

---

(١) « صوت الشعب » ـ حزيران ١٩٤٣ ـ عدد ٥٦٠ ـ السنة السابعة .

(١) « صوت الشعب » ـ حزيران ١٩٤٣ ـ عدد ٥٧٥ ـ السنة السابعة .

الجنرال كاترو ، وقد أدلى فخامة المبعوث الجديد لهذه المناسبة بالتصريح التالي :

« ... وفي هذه المهمة مصاعب لا أخفيها ، بيد أنها تنطبق كل الانطباق على رسالة فرنسا التقليدية في العالم .. ان السوريين واللبنانيين حافظوا على ثقتهم بفرنسا ومحبتهم لها في الايام العصيبة كما في الايام السعيدة .. فقد فهموا أن انهزاما مؤقتا لا يمنع مطلقا فرنسا من الاحتفاظ هنا بمركزها التاريخي ... » (١)

ان الشيوعيين الذين يؤيدون كل التأييد أقوال « فخامة » المندوب الاستعماري الجديد حول « مركز فرنسا التاريخي » في الوطن العربي ، لم يكونوا يجهلون ان هذه الدعوة الوقحة هي تثبيت لشرعية بقاء الاستعمار الفرنسي في الوطن ، بل وإسناد ذلك لجذور وحقوق تاريخية .

وعادت صحيفة الحزب (صوت الشعب) فنشرت بعد ذلك بيومين رسائل (فخامة الجنرال كاترو) بمناسبة انتقاله من سوريا ولبنان .

(وجه الجنرال كاترو ، بمناسبة تعيينه حاكما عاما للجزائر ، الرسالة التالية للدكتور أيوب ثابت رئيس الحكومة اللبنانية :

« ... وأخيرا لا تجهلون أنني على اتم اتفاق ، فكريا ونظريا ، مع السفير هيللو الذي يقدرون جميعا في لبنان خبرته وصداقته . فلست ابعث بتحيات الوداع إلى اللبنانيين .. وأطلب اليهم ساعة تدبير شؤونهم ان يظلوا مخلصين للعاطفة التي جمعتهم حول شخصي وشخص الجنرال ديجول اعني مخلصين لفرنسا »

وقد أرسل فخامة الجنرال الى السيد عطا بك الايوبي رئيس الحكومة السورية رسالة ثانية جاء فيها :

« ... وباختصار ، على أصدقائنا السوريين الذين وضعوا ثقتهم بشخصي أن يتأكدوا من أن تعلق الجنرال كاترو بهم قد ظهر بشكله العملي .. وان النهج الذي اختطه بالاتفاق مع الجنرال ديجول لن يحاد عنه . وانا اكيد من انه عندما يتدبر السوريون سيوقنون بأن مصالح سوريا مرتبطة بمصالح فرنسا . وأن المحبة التي يمنحونها بلادي هي مستوحاة من العاطفة والعقل معا » (١)

معنى نشر هذه الخطابات « لفخامات الجنرالات الفرنسيين الاستعماريين » في صحيفة الحزب الرسمية ، ومحاطة بهذه الهالة من التبجيل ، أن هذا الحزب يؤيد ويبارك كل ما كان يأتي فيهما ، وان هذا الحزب قد تحول الى داعية لسياسة الاستعمار الفرنسي عينه .

هذا يعني ، ببساطة ، ان الحزب الشيوعي اللبناني ، كان من خلال هذه الرسائل يطالب الشعب العربي في لبنان : أن يظل مخلصا لفرنسا ، وأن يظل مخلصا في عاطفته لـ (كاترو) و (ديجول) .

وانه يطالب الشعب العربي في سوريا : بان يوقن ان مصالحه مرتبطة بمصالح فرنسا .. بمصالح الاستعمار الفرنسي ، وان (يحب) الاستعمار الفرنسي حبا نابعا من العاطفة والعقل .

● ان نشر هذه الخطابات الاستعمارية وتبنيها من قبل الشيوعيون في سوريا ولبنان ، لم يكن في الواقع الا من قبيل الاستعانة بوجهة نظر قادة الاستعمار الفرنسي لتأكيد وجهة النظر المماثلة التي كان يتبناها الشيوعيون انفسهم . فبينما كانت البلاد تضج مطالبة بالجلاء ، وبينما كانت الساحات مسرحا للحوادث الدامية التي جرت عام ١٩٤٣ ، ظهرت صحف الحزب الشيوعي السوري اللبناني تؤكد (الارتباط التاريخي) في علاقات الشعب العربي بالاستعمار الفرنسي ، وتطالب الشعب بأن يربط مصيره ومستقبله بفرنسا .

بعنوان (كلمة حول الموقف الحاضر) علقت صحيفة (صوت الشعب) في تشرين الثاني ١٩٤٣ ، على الاحداث الجارية فقالت :

« ولقد كنا ولا نزال من المعتقدين أن الشعب اللبناني لا يصبو الى اضعاف علاقاته بالشعب الفرنسي ، وان من هذه العلاقات ما يتعذر فصمه وقطعه تبعا لرغبات هذا أو ذاك من الناس ما دام متفقا ورغبات الشعب ومصلحة البلاد .. ان فرنسا ستكون بعد هذه الحرب غير ما كانت قبلها .. وكل وطني بصير يرى منذ الآن ان مصلحة لبنان ، عندما يحين له وقت اجراء العقود الدولية ، ان يتجه نحو الشعب الفرنسي لا ان ينصرف عنه ، وأن يسعى لتقوية علاقات الصداقة معه لا الى اضعافها » (١)

ان هذا التعليق يعطي بكل وضوح سياسة الشيوعيين تجاه النضال التحرري الذي كان يخوضه الشعب العربي ضد الاستعمار في هذه الفترة .

(١) : « صوت الشعب » حزيران ١٩٤٣ — عدد ٥٦١ — السنة السابعة .
(١) : صوت الشعب — حزيران ١٩٤٣ — عدد ٥٦٣ — السنة السابعة .

فالشيوعيون لا يكتفون بتزوير (رغبة الشعب) حين يؤكدون انه لا يصبو الى اضعاف علاقاته بفرنسا ، بل يضعون لهذا الموقف التآمري اساسا فكريا سيسيا أيضا (لأن هذه العلاقات بين الشعب العربي وفرنسا لا تقطع وفق رغبة هذا او ذاك من الناس .. لانها متفقة مع رغبة الشعب ومصلحة البلاد) ..

فكل حركة النضال الشعبية التي كانت قائمة ضد فرنسا هي مجرد رغبة فردية يتبناها هذا او ذاك من الناس .. ومعني هذا الكلام ، أن الشيوعيين لم يكونوا يعترفون بنضال الشعب .. فهل كانت دعاية الاستعمار الفرنسي تريد شيئا الا تصوير حركة النضال بأنها حركة بعض أفراد ؟ وبوقاحة من مات في ضميره كل احساس وطني ، يقرر الشيوعيون . ان بقاء الاستعمار الفرنسي هو لمصلحة البلاد .. وأن بقاءه هو عين (رغبة وإرادة الشعب العربي) ..

والواقع ان كافة المدارس المرتبطة بالاستعمار التي ظهرت في وطننا لم تجرؤ على اغداق هذه المحبة على الاستعمار .

أما الشعب العربي ، فقد كان يقول : (ان كل خائن كبير يرى ان مصلحة لبنان هي مع مصلحة الاستعمار الفرنسي)

وبعد .. فالسبب العبقري الكامن وراء كل هذه الدعوة الصريحة لطعن الكفاح التحرري هو :

(ان فرنسا ستكون بعد الحرب غير ما كانت قبلها) وهذه الثقة العمياء التي يضعها الشيوعيون في الاستعمار الفرنسي — والتي لم تفدكل تفسيرات الماركسية اللينينية حول الاستعمار في زحزحتها شعرة واحدة — ليست جديدة على الشعب العربي . وهي تذكرنا بموقف فكري مشين مماثل اتخذ لغاية مناقضة للتي يستخدم فيها الآن ، في فترة مهادنة الفاشية . وذلك حين قالوا : (ان هتلر الامس هو غير هتلر اليوم) ..

وعادت مجلة الطريق فتغنت (بديمقراطية الاستعمار الفرنسي) واكدت مطالبة الشيوعيين للشعب بربط مصيره بفرنسا ، فقالت معلقة على دعوات الجلاء :

(ان في سوريا ولبنان اثرا ابرز للديمقراطية ، وقوى انشط واغنى للحرية ، من سائر الاقطار العربية .. ونحن لا ننسى أن كثيرا من هذه المزايا يعود الفضل فيها الى نضال الشعب الفرنسي الذي ننظر الى وضعه الراهن ، والى خطوط مستقبله بعد الحرب .. فنؤثر أن نبقى شركاء لشعب يحتم عليه وضعه أن يقدم النضال في سبيل الديمقراطية والحرية على كل نضال) (١)

آثار الديمقراطية والحرية (البارزة النامية الناشطة) التي يتحدث عنها الشيوعيون في سوريا ولبنان كانت الحوادث الدامية المعروفة التي قابل بها الاستعمار الفرنسي مطالبة الشعب بالحرية عام ١٩٤٣ ، والحوادث الدامية المعروفة التي سفكت فيها دماء الشعب العربي في سوريا ولبنان عام ١٩٤٤ .

* * *

وكان من الطبيعي ان تنعكس هذه السياسة التآمرية العامة للشيوعيين في سوريا ولبنان بوجهين رئيسيين : الوجه الاول ، هو علاقات الود والصداقة بين الحزب الشيوعي وسلطات الاستعمار الفرنسي .. **والوجه الثاني** ، هو مقاومة كل حركة نضالية تحررية ثورية ضد الاستعمار الفرنسي ، هذا الموقف الخائن الذي تجسد بوضوح في موقف الحزب من النضال الشعبي من أجل الجلاء .

* * *

لقد كان الاستعمار الفرنسي وفيا للشيوعيين مكافأة على موقفهم المتفاني في دعم سيطرته والدعوة لسياسته ، فتمتع الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان ، والحركة الشيوعية في المغرب ، وكذلك الحزب الشيوعي في العراق ، والحركة الشيوعية في مصر ، تمتعت كلها بحرية تامة في العمل ، وكانت تمارس نشاطها في ظل رعاية سلطات الانتداب ، هذا في الوقت الذي كانت تتعرض فيه الحركة الوطنية لمختلف انواع التنكيل والبطش .

وقد اتخذت هذه الصداقة الحميمة بين الاستعمار وبين (اصلب فئة في مكافحة الاستعمار) مظاهر شتى طوال هذه الفترة .

منها تلك الاخبار والتعليقات التي كانت تملأ صحف الحزب الشيوعي السوري اللبناني حول زيارات ونشاطات قاعدة الاستعمار الفرنسي .

اقام السيد هيللو المندوب العام يوم أمس في مقره بقصر الصنوبر مأدبة غداء .. فكانت حفلة شائقة خلقت أطيب الاثر في نفوس المدعوين) (١)

(١) : صوت الشعب : ١٠ - ١١ - ١٩٤٢ - عدد ٦٦٢

(١) : الطريق - اول ايار ١٩٤٣ - العدد ٧ - ص ٢

وأصل فخامة الجنرال كاترو زيارته للمدن السورية . وعند الساعة العاشرة والنصف وصل الى حلب وكان جمهور غفير جدا يملأ شرفات المنازل والسطوح والشوارع ويهتف بأصوات حادة : عاشت فرنسا)

(لا يزال الجنرال ديغول في افريقيا موضع حفاوة الفرنسيين والوطنيين في الجزائر) (٢)

(زار بيروت في الشهر الماضي السيد روجيه غارو سفير فرنسا الحارية وممثلها ، وقد قابله في قصر الصنوبر .. الاساتذة خالد بكداش وفرج الله الحلو ونقولا الشاوي قادة الحزب الشيوعي ، ثم زاره الاساتذة انطون ثابت وعمر فاخوري ورئيف الخوري وقدري القلعجي ممثلو عصبة مكافحة النازية ، وجمعية أصدقاء الاتحاد السوفييتي في سوريا ولبنان) (٤)

فالجنرال ديجول (موضع حفاوة الوطنيين في الجزائر) ومآدب هيللو (تخلق اطيب الاثر) ، وفخامة كاترو يقابل بجماهير الشعب العربي الغفيرة التي تهتف : عاشت فرنسا ..

لقد تحولت صحيفة الحزب الشيوعي (المناضل) الى نشرة توجهها السلطات الفرنسية الاستعمارية ومن مظاهر هذه الصداقة الحميمة ان نشاط الحزب الشيوعي (المناضل) تركز حول اقامة المهرجانات التي تدعو لتأييد المجهود الحربي للحلفاء وتمدح الاستعمار الفرنسي تحت ستار مكافحة النازية ! وفي الوقت الذي كان يشتد فيه بطش الاستعمار الفرنسي بالحركة الوطنية التحررية المطالبة بالجلاء ، وتسفك دماء الشعب في شوارع سوريا ولبنان ، كان الحزب الشيوعي يستجمع كل (ثوريته) ويرسل (مذكرات عتاب) للمندوب السامي الفرنسي .

فأعلن خالد بكداش عام ١٩٤٢ في معرض حديثه عن الشعارات التي سيخوض الحزب على أساسها الانتخابات بناء على وعد كاترو باعادة الحياة النيابية (اننا نحترم جميع الدول المتحدة الديمقراطية ونعترف بفضلها في ابعاد الحرب عن بلادنا . ونرى وجوب تقوية علاقات الصداقة معها جميعا . ولذلك ندخل الحملة الانتخابية على أساس الدفاع عن حرية الشعب وخبزه ، ومتابعة المجهود الحربي للدول الحليفة ، وتوطيد الصداقة معها جميعا) (١)

تأييد المجهود الحربي للحلفاء ، وتوطيد الصداقة مع الاستعمار .. هذه هي الاهداف التي يلتزم الحزب الشيوعي بتحقيقها للشعب .

ومهرجانات عصبة مكافحة النازية والفاشية تركزت حول (المناداة بالحرية للشعب الفرنسي) وقد دعا الخطباء الى تأييد المجهود الحربي للحلفاء وحيوا جميعا نضال الشعوب المضطهدة ، وفي مقدمتها الشعب الفرنسي الباسل . وكانت تحيتهم : تحية السيد للسيد (٢)

لقد كانت حرية فرنسا أهم بكثير لدى الشيوعيين من حرية الشعب العربي الذي تستعمره فرنسا .

وفي تشرين الثاني ١٩٤٣ قامت سلطات الاستعمار الفرنسي بتعطيل الحياة الدستورية واعتقال عدد كبير من عناصر الحركة الوطنية المطالبة بجلاء قوات الاستعمار ، وعمت البلاد موجة سخط شعبية عنيفة ضد فرنسا ، وفي ذلك الجو الملتهب وجد الحزب الشيوعي السوري اللبناني نفسه مضطرا للقيام بعمل ما ، وبدلا من أن ينزل الشارع مع الحركة الوطنية ، استجمع كل قواه وبعث بمذكرة عتاب الى الجنرال كاترو :

(فخامة الجنرال كاترو ــ بيروت

(منذ أيام ولبنان مسرح لحوادث جسيمة . ونرى من واجبنا كلبنانيين يحبون وطنهم ويغارون على كرامته وحريته كمواطنين يعلمون أن مصلحة بلادهم مرتبطة بقضية النضال العالمي ضد الهتلرية ، أن نطلعكم على حقيقة الموقف .)

هل هذه لهجة حزب وطني مخلص في مخاطبة الاستعمار ؟ ومنذ متى كانت قضايا حرية الشعوب تحل (بنضال المذكرات) المحاطة بآيات التفخيم لمندوب الاستعمار الذي يبطش بنضال الشعب العربي بوحشية متناهية ؟

ومن مظاهر هذه الصداقة الحميمة ، بل هذا التحالف المخزي ، سكوت الشيوعيين سكوتا تاما عن قضايا العرب القومية التحررية الاخرى ، بل واتخاذهم نفس موقف الاستعمار بصددها .

فتبنوا نفس موقف الاستعمار الفرنسي تجاه قضية الجزائر .

بعنوان (تصريحات هامة لضيف بيروت الكبير السيد روجيه غارو سفير فرنسا بموسكو) ،نشرت

---

(٢) : « صوت الشعب » ــ تموز ١٩٤٣ ــ عدد ٥٨٢ .
(٣) : « صوت الشعب » ــ حزيران ١٩٤٣ ــ عدد ٥٥٨ .
(٤) : « الطريق » ــ ١٥ تشرين الاول ١٩٤٤ .
(١) : كراس خالد بكداش « الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان ــ سياسته الوطنية وبرنامجه الوطني » ص ١٦ .
(٢) : « الطريق » ــ اول ايار ١٩٤٢ ــ العدد السابع ص ٣ .

« صوت الشعب » التصريحات التي ادلى بها هذا السفير لقادة الحزب الشيوعي السوري اللبناني بشأن قضية الجزائر – والتي أيده فيها هؤلاء « القادة » – والتي قال فيها :

« لا اخالكم تجهلون ان الشيوعيين المسلمين في الجزائر ، والشيوعيين الفرنسيين الموجودين هناك يعملون متكاتفين باخلاص واخاء ، وهم يتعاونون مع حركة الجنرال ديجول بصورة خاصة ، ومع لجنة التحرر بصورة عامة . وهم متفقون على جميع النقاط التي يناضل الفرنسيون الشرفاء من أجلها الآن وفي طليعتها تحرير الوطن . وهذا التعاون يرمي الى توطيد أواصر الصداقة بين الشعب الجزائري وبين الشعب الفرنسي على أساس المساواة في الحقوق » (١)

فالهدف الذي كان يناضل من اجله الشيوعيون الجزائريون ، والذي يؤيده كل التأييد الشيوعيون في سوريا ولبنان ، هو : تحرير الوطن الفرنسي . « فحرية الاستعمار الفرنسي » أهم بكثير من حرية الشعب العربي الذي تستعمره فرنسا .

وتغنوا بديمقراطية تركيا متناسين كليا اغتصاب لواء الاسكندرون :

فقالت مجلة « الطريق » تمدح تركيا :

« ان تاريخ نضال الشعب التركي لاجل استقلاله والطريق التي اختارتها تركيا خلال العشرين سنة منذ اعلان الجمهورية ، وتقاليد كمال اتاتورك خالق تركيا الجديدة ، وتعاليمه المجيدة ، كل ذلك يناقض تماما سياسة هتلر في الحقد على الانسانية ، وقد قرب الجمهورية التركية ولا يزال يقربها من الشعوب الشغوفة بالحرية » (٢)

ونسي الشيوعيون في غمرة هذا التمجيد « للتقاليد التركية » ان « الطريق التي اجتازتها تركيا خلال العشرين سنة » قد مرت خلالها على الوطن العربي واغتصبت منه لواء الاسكندرون ، ولكن ، هل ينسى الشعب هذه المواقف ؟

* * *

الشعب يطالب بالجلاء التام والشيوعيون يطالبون بمعاهدة مع الاستعمار

وطبعا ، لم يؤمن الشعب العربي أن « مذكرات الاسترحام لفخامة الجنرال كاترو » يمكن أن تحقق حريته في يوم من الأيام . ومنذ عام ١٩٤٣ وطبقا للوعد الذي أعطته فرنسا آنذاك ، كانت حركة التحرر تشتد وتقوى وتصطدم بالاستعمار الفرنسي الذي كان يحاربها بشراسة . وفي هذه الفترة الهامة من تاريخ النضال العربي التحرري ، وفي الوقت الذي كان فيه مطلب الجلاء التام غير المنقوص هو المطلب الشعبي الذي تنادي به الحركة الوطنية ، كان الشيوعيون في سوريا ولبنان يقفون ذلك الموقف الفكري والعملي الخائن ، متحالفين بذلك مع الاستعمار الفرنسي ضد معركة التحرر العربي .

وفي عام ١٩٤٤ بشكل خاص ، اشتدت حركة النضال الشعبي المطالبة بجلاء قوات فرنسا الاستعمارية عن سوريا ولبنان ، وقامت في لبنان وسوريا مظاهرات عنيفة قاومتها السلطات الفرنسية بالنار ، وسقط عدد من الشهداء ، فماذا كان موقف الحزب الشيوعي السوري اللبناني ؟

لقد أعلن « أسفه » لهذه الحوادث

وطالب الشعب بالقاء سلاحه

فقد أصدر المكتب السياسي للحزب الشيوعي اللبناني بيانا بمناسبة الاحداث جاء فيه :

« عقد الحزب الشيوعي جلسة مستعجلة ، على اثر الحوادث التي جرت بعد ظهر أمس – الخميس – في بيروت امام قاعة المجلس النيابي . وهو يبدي بهذه المناسبة أسفه الشديد لهذه الحوادث ويستنكرها ، ويدعو الشعب اللبناني كله الى التمسك بالرصانة ورباطة الجأش والهدوء .. ونبذ الايدي الغريبة التي تحاول اثارة الشغب والقلاقل ..

« فكل محاولة لاثارة الاضطراب في البلاد لا تخدم سوى مآرب أجنبية وتضر بقضية لبنان .. واللبنانيون مهما كانت أحزابهم وآراؤهم السياسية وأديانهم ، صف واحد وضد أية محاولة من هذا النوع » (١)

ان هذا الموقف الذي تحدده القيادة المركزية للحزب الشيوعي ، أقل ما يقال فيه ، في مثل تلك الظروف الدامية ، انه خيانة سافرة لكفاح الشعب التحرري .

ففي الوقت الذي يخوض فيه الشعب معركته للتحرر من الاستعمار الفرنسي ، ويسقط فيها الشهداء من أجل الجلاء ، والمفروض في كل حزب

---

(١) : « صوت الشعب » – ايلول ١٩٤٣ – عدد ٦٢٨ .
(٢) : الطريق – عدد ٧ كانون الاول ١٩٤٣ .
(١) بيان المكتب السياسي للحزب الشيوعي اللبناني – « مكتب الدعاية والنشر » عدد ٢٨ نيسان ١٩٤٤

وطني مخلص ، أن يرمي بكل ثقله في المعركة، تطالب القيادة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني : بالرصانة والهدوء ورباطة الجأش » ومعنى هذه الدعوة عمليا : أن يترك الشعب الكفاح ويعود الى منازله ».

وفي الوقت الذي يحتاج فيه الشعب العربي ، في تلك الظروف الدامية ، الى كل الجهود لتعميق التعبئة النضالية ، ودفع المد الثوري ، وزيادة ثقة الشعب بعدالة القضية التي يكافح من اجلها ،تظهر بيانات الشيوعيين لتشكك الشعب بأصالة نضاله، فاذا ذلك الكفاح الشعبي هو من فعل (أيدي غريبة) ، واذا ذلك الهدف النبيل هو (شغب وقلاقل) ، واذا الثورة على الاستعمار الفرنسي هي (اضطراب) يضر بقضية لبنان ويخدم (مآرب أجنبية) .

وبعد هذه الاتهامات التي كانت تكال للنضال التحرري ، برزت دعوة أخرى لقطع انفاس معركة الجلاء ، اذ بدأ الشيوعيون يطالبون بتأجيل (كل القضية) الى ما بعد انتهاء الحرب . فكتب خالد بكداش موضحا هذه الدعوة التآمرية) :

(أما نحن فنؤكد أن مئات الالوف من صغار التجار ومن صغار المنتجين في القرية والمدينة ،ومن العمال والطلاب ورجال العلم والفكر ، متجهون اليوم بأفكارهم نحو شيء رئيسي هو بلوغ حالة من الاستقرار يتمكنون بها من معالجة شئون معاشهم وحياة اطفالهم وعائلاتهم بصورة مجدية مثمرة حتى نهاية الحرب .

ومعنى ذلك أن المهمة الاولى الموضوعة أمام بلادنا اليوم ، هي دعم مجهود الحلفاء الحربي في سبيل سحق المانيا الهتلرية ، فذلك أقرب طريق لانتهاء الحرب) (٢)

لقد كان جلاء الجيوش الاجنبية هو الهدف الذي كان يعمل من أجله (مئات الالوف من العمال والطلاب وصغار التجار والمنتجين ورجال العلم والفكر) ، ومن أجله كانت السجون تغص بالمناضلين والشهداء يتساقطون . والغاية الوحيدة لتلك الدعوة التي اطلقها الشيوعيون ، في مثل تلك الظروف ، هي حرف القضية عن كونها نضالا وطنيا من أجل الجلاء والاستقلال ، فهي دعوة مفضوحة لالقاء السلاح ، وبعد الحرب (يخلق الله ما لا تعلمون)

وهكذا ، جنبا الى جنب مع اشتداد دعوة الجلاء في صفوف الشعب في سوريا ولبنان، كان الشيوعيون يعملون لايهام الشعب العربي أن الجلاء أمر مضمون بمجرد انتهاء الحرب ، وان فرنسا ستقدم له الحرية على صحن من ذهب (ان اللبنانيين والسوريين يحيون انتصارات الحلفاء المجيدة على جميع جبهات الحرب ضد الطغيان الهتلري ، ولهم وطيد الامل بأن انتصار قوى الحريه القريب سيكون فاتحة عهد جديد ، عهد حرية وأمان وسلام لجميع الشعوب ولسوريا ولبنان ايضا) (١)

* * *

ومنذ بدء عام ١٩٤٥ ، كان مطلب الجلاء الكامل لقوات الاستعمار قد بلغ حدا من القوة وضع الشيوعيين على الحد الفاصل ، فلم يعد بالامكان ستر موقفهم بعبارات مائعة عائمة (كالاستقرار) و (السلام) وكان لابد أن يحددوا موقفا واضحا من مطلب الجلاء الكامل الناجز .

وحدد الشيوعيون موقفهم ، فطالبوا بدل(الجلاء الكامل) بمعاهدة مع فرنسا

واوضحت (صوت الشعب) هذا الموقف الخائن في افتتاحية ١٥ كانون الثاني ١٩٤٥ فقالت : ان حزبنا الشيوعي السوري قد أوضح موقفه من هذه القضية بجلاء ووضوح في اخر اجتماع عقدته لجنته المركزية ، فأعلن صراحة أن سوريا تؤيد معاهدة لا تكون غطاء لسيادة استعمارية واطماع استثمارية فاشية ، بل تكون صك صداقة وتحالف بين الشعبين السوري والفرنسي) .

وعاد نقولا الشاوي فكتب في افتتاحية (صوت الشعب) ١٧ أيار ١٩٤٥ يقول :

(لقد أصبح واضحا الآن أن الجانب الفرنسي يطلب عقد معاهدة مع سوريا ومعاهدة مع لبنان ، وهذا أمر لا تعارض فيه البلاد (كذا) لان من شانه أن يساعد على ايجاد حالة استقرار داخلي وخارجي في كلا القطرين)

اذن .. فالبلاد لا تريد الجلاء الكامل الفوري ، وانما تريد معاهدة ..

بعد أكثر من ربع قرن من الاستعمار ، وفي ظل ظروف دولية ، لا يوجد أنسب منها للعرب، يلخص هدف الكفاح الوطني الطويل بعقد معاهدة جديدة مع فرنسا : أما الجلاء الفوري ، والاستقلال التام ، هذان المطلبان اللذان كانا يترددان على كل لسان

(١) افتتاحية « صوت الشعب » بقلم خالد بكداش - نيسان ١٩٤٤ - عدد ٧٤٥.
(٢) بيان مشترك صادر عن اجتماع اللجنتين المركزيتين للحزب الشيوعي اللبناني والحزب الشيوعي السوري - ٢٣ تشرين الاول

آنذاك ، فهما ليسا من القضايا المطروحة في تلك المرحلة

ومثل هذه الدعوات الخائنة كان الشيوعيون (التوريون) يطرحونها بلسان قادتهم — كما يدل تاريخ كتابتها — بعد ثماني أيام فقط من مذبحة النصر في الجزائر في ٨ ايار ١٩٤٥ التي قتل فيها الاستعمار الفرنسي ٤٥ ألف شهيد عربي ، وقبل عشرة أيام فقط من العدوان الفرنسي الوحشي على سوريا في ٢٩ ايار ١٩٤٥

في ٢٩ ايار قامت قوات السلطات الاستعمارية الفرنسية بعدوانها الغادر على سوريا ، فقصفت المدن بالقنابل ، وارتكبت مذابحها المعروفة ، وفي غمرة هذه المعركة الدامية من أجل الجلاء ، أصدر الحزب الشيوعي السوري نداء يلخص فيه المطالب الوطنية للشعب العربي ، فقال :

(.. ولذلك يطلب الشعب السوري باسم مبادىء الحق والعدل :

١ — محاكمة الذين ارتكبوا هذه الجنايات .

٢ — ارجاع المنهوبات الى اصحابها .

٣ — الزام هؤلاء المجرمين بكل الاضرار التي لحقت بالاهلين) (١)

أي ، انه حتى ذلك التاريخ ، كان الشيوعيون في سوريا ولبنان ، مازالوا يتجاهلون مطلب الجلاء ويتنكرون له .

والقضية ، برأي الشيوعيين التوريين ، لم تكن قضية جيوش احتلال اجنبية ترابط في ارضنا ، وانما هي قضية (ارجاع المنهوبات والتعويض عن الاضرار) .

لم يكن اسهل على الاستعمار الفرنسي أن يعوض المتضررين اذا كانت القضية يمكن أن تختزل الى هذا المستوى ، وما دامت لا تمس وجوده المباشر كاستعمار ولا تقرب قوات احتلاله .

فلمصلحة من كانت القضية الوطنية تختزل من قبل الشيوعيين بهذه الصورة المخجلة ، ولمصلحة من كانت أهداف النضال الشعبي تمسخ الى هذا المستوى ؟

هل الا لمصلحة الاستعمار الفرنسي ؟ وهنا ايضا هل كان الاستعمار الفرنسي يجد فئة أدق تمثيلا لرغباته وأطوع امتثالا لسياسته من الشيوعيين في سوريا ولبنان ؟ لا نعتقد ذلك .. أبدا .

وفي ٩ حزيران ١٩٤٥ صدر قرار مجلس جامعة الدول العربية بضرورة جلاء الجيوش الاجنبية عن سوريا ولبنان ، وأصبح مستحيلا على الشيوعيين الاستمرار في تجاهل مطلب الجلاء ، فتقدم الحزب الشيوعي السوري ، بهذا التاريخ ، بمذكرة الى جامعة الدول العربية ، يطالب فيها بجلاء الجيوش الاجنبية

ولعله من الحقائق المؤلمة ان نذكر أن الاستعمار الانجليزي — مدفوعا بمصالحه طبعا — كان قد سبق الشيوعيين بالنص على الجلاء ، اذ صرح الاستعماري (ايدن) في جلسة مجلس العموم بتاريخ ٣١ ايار ١٩٤٥ بضرورة جلاء القوات البريطانية عن سوريا ولبنان ...

* * *

اسطورة محالفة الاستعمار لمكافحة الفاشية :

كانت الحرب العالمية الثانية قد وضعت أوزارها في عام ١٩٤٥ حين كان الشيوعيون في سوريا ولبنان ما زالوا يهادنون الاستعمار الفرنسي بتلك الصورة المشينة ويحالفونه ضد معركة الجلاء ، فما هو السبب يا ترى ؟ كان الحلفاء قد كسبوا الحرب واندحرت النازية ، فاذا كان المنطق السياسي المتآمر وراء كل الخيانات التي ارتكبها الشيوعيون في هذه الفترة هو التكتل في وجه النازية ، فما هو المنطق السياسي المتآمر الجديد للاستمرار في الارتماء بأحضان الاستعمار الفرنسي بعد استسلام المانيا .

هنا تعود القصة الازلية مرة أخرى ... تعود قصة التبعية المهينة للشيوعية الدولية لتمزق للمرة المائة اقنعة الدجل التي يختفي وراءها وجه الشيوعية المحلية ، ولتظهر هذا المنطق الفكري في عريه الكامل ، منطقا موجها للتآمر على مصير الشعب العربي .

ففي عام ١٩٤٥ ، بعيد انتهاء الحرب ، استلم الحكم في فرنسا تحالف ثلاثي ضم : الديجوليين والشيوعيين والاشتراكيين ، وكان للحزب الشيوعي الفرنسي بعض الوزراء في هذه الحكومة الفرنسية لما بعد الحرب ، كما كان له (١٥٤) نائبا في الجمعية الوطنية .

وكالعادة ، تتكامل حلقات السلسلة ، الشيوعيون الفرنسيون لا يريدون احراج شركائهم الديجوليين الحساسين جدا لقضية (الامبراطورية الفرنسية) والشيوعيون في سوريا ولبنان — والمغرب — لا

(١) نشر النداء في « صوت الشعب » — ٥ حزيران ١٩٤٥ ، عدد ٩٩٨ — « صفحات مجهولة من تاريخ الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان » ، الياس مرقص ومحمد علي الزرقاء .

يستطيعون احراج (رفاقهم) الشيوعيين الفرنسيين وفى هذا الجو من المساومات ، ينبثق الموقف السياسي والعملي للشيوعية المحلية من معركة التحرر العربي : (البلاد تريد عقد معاهدة مع فرنسا ، وهذا ضروري لاستقرار الأوضاع في سوريا ولبنان) !

سؤال اخير نود أن نطرحه على الشيوعيين : ترى أين كان يقود الشعب العربي مثل ذلك التوجيه السياسي ، فيما لو كان للشيوعيين العرب من القوة ما يمكنهم من توجيه التيار الشعبي ؟ وماذا كان يمكن ان يكون مصير معركة التحرر العربي ، لو أن الشعب العربي لم يكن متقدما مراحل ومراحل في حسه القومي السياسي السليم عن حزب (طليعة الجماهير) ؟

* * *

للذكرى ...

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، انقلبت الاوضاع السياسية في العالم كما كان متوقعا ، واصبح الاستعمار الغربي ، من جديد ، هو العدو الاول . وتذكر الشيوعيون فجأة ، أن على الشعب ان يكافح الاستعمار الفرنسي والانجليزي !

« فكيف يمكن ان يسير وطني واحد في سوريا ولبنان ، مع المستعمرين الفرنسيين الملطخة ايديهم بدماء شهداء الثورة السورية عام ١٩٢٥ ، مع جيوش ديجول وزملائه الذين دمروا دمشق بطائراتهم ومدافعهم عام ١٩٤٥ (!) ، وسحقوا بدباباتهم الاطفال اللبنانيين في طرابلس عام ١٩٤٣ ؟ (!) او مع المستعمرين الانجليز الذين قمعوا طوال عشرات السنين ، بالنار والحديد ، الانتفاضات الوطنية التحريرية لاخواننا المصريين والعراقيين وعرب فلسطين (!) او مع الرجعيين الاتراك غاصبي لواء الاسكندرون ، واحفاد جمال السفاح شانق ابطال التحرر الوطني ؟ (!) او مع الاستعماريين الاميركيين الذين يتقاسمون السيطرة مع الانجليز ... » (١)

حقا ...! « كيف يمكن ان يسير وطني واحد في سوريا ولبنان » في مثل هذا الطريق ؟ ليرجع الشيوعيون الى تاريخهم القريب ، لقد ساروا في هذا الطريق ... الى نهايته .

وتذكر الشيوعيون ايضا ، فجأة ، أن ديجول « رجل استعماري » ، وان العدوان الفرنسي على سوريا هو « جريمة وحشية » ، وتناسوا التحالف « الديجولي — الشيوعي » الذي كان قائما في فرنسا آنذاك ، وكتبوا في معرض تهنئة موريس توريز — سكرتير عام الحزب الشيوعي الفرنسي — بعيد ميلاده عام ١٩٥٠ — يقولون :

« وفي عام ١٩٤٥ حين عمد الفاشستي ديجول (!) صنيعة تشرشل اذ ذاك (!) وعميل الدولار اليوم (!) الى ضرب عاصمتنا دمشق بالقنابل ، وحين كانت المنازل تهدم على اطفالنا ونسائنا ، كنا نعلم ان موريس معنا ، ونصيح عاليا في وجه دسائس القوميين البورجوازيين ، نعم ، ان موريس توريز يفكر فينا الان ، ويعمل في سبيلنا ضد ديجول ... » !! (٢)

* * *

(١) بيان صادر بتوقيع « الحزب الشيوعي السوري » « الحزب الشيوعي اللبناني » ، ٤ اذار ١٩٤٩ ، بعنوان « الشعبان السوري واللبناني لن يحاربا الاتحاد السوفييتي »

(٢) من برقية اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في سوريا الى موريس توريز مهنئة بعيد ميلاده الخمسين — نشرت في « نضال الشعب » ، حزيران ١٩٥٠ — عدد ٧٠

الشيوعية المحلية وموقفها من الحياد الايجابي

بعد ان وضعت الحرب العالمية الثانية اوزارها عاد الشيوعيون العرب الى رفع شعار: الاستعمار الغربي هو العدو الاول . ذلك ان المعركة الناشبة بين « الشرق والغرب » اصبحت تملي ، حكما ، انخراط الشيوعية المحلية في معركة التحرر العربي ضد الاستعمار الغربي ، كاحدى القوى العاملة في هذه المعركة . واوجد ذلك نوعا من الالتقاء بينها وبين حركة النضال القومي التحرري بحيث ظن البعض ان التناقض الذي اظهرته الفترات السابقة بين موقفيهما من اهداف التحرر العربي ، والذي مثل تعارضا واضحا عملت فيه الشيوعية المحلية صراحة ضد هذه الاهداف ، قد زال نهائيا في مثل هذه المرحلة الجديدة .

ولكن قبول هذا « الظن » ، بمجمله ، لخاطيء تماما

فاذا تجاوزنا الوجوه الاخرى للمعركة العربية التي تبدي تناقضا مباشرا بين حركة النضال القومي والشيوعية المحلية ، كالايمان الفكري بالقومية العربية ومعركة الوحدة العربية ومعركة فلسطين ، واذا تجاوزنا الحقيقة الهامة في ان تلك المواقف المتخاذلة يمكن ان تعود في حالة تغير الوضع السياسي الدولي ، واذا تجاوزنا تلك التحالفات الغريبة التي دخلت فيها الشيوعية المحلية مع الرجعية العربية اكثر من مرة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، على فداحتها (1) . اذا تجاوزنا كل ذلك على اهميته الكبرى ، فان حقيقة موقف الشيوعية المحلية من معركة التحرر العربي ، يمكن ان نأخذه في هذه الفترة من : موقفها من سياسة الحياد الايجابي التي تمثل الرد التحرري لحركة النضال العربي على دعوة الانحياز والارتباط التبعي بالمعسكرات المتصارعة في العالم .

والحكم هذه المرة ايضا ، ليس في صالح الشيوعية المحلية ابدا . بل اننا نجد هنا ايضا ، مظهرا آخر للعمل ضد الكفاح العربي من اجل الحرية الكاملة .



فان كان الحياد الايجابي مبدأ جديدا كتعبير ، فمما لا شك فيه انه ليس مبدأ جديداً كمفهوم . فهو وجه معركة التحرر العربي على الصعيد الخارجي ، اي امتداد الكفاح التحرري الذي يخوضه الشعب داخل الوطن العربي الى خارج الوطن على صعيد السياسة الدولية . فمعركة التحرر العربي هي في جوهرها كفاح ضد السيطرة الاجنبية والتبعية الاجنبية بمختلف اشكالهما ، وهدفها تحقيق الحرية التامة الشاملة للامة العربية سواء على صعيد التحرر السياسي ام الاقتصادي ام الثقافي ، وافساح المجال امام الامة العربية لان تحقق وجودها وتختار انظمتها وتدير شئونها بنفسها ودون اي تدخل واي ضغط من اية قوة اجنبية اخرى . وعلى هذا الاساس ، فليس الحياد الايجابي الا تعبيرا عن النضال الذي يخوضه الشعب العربي ضد الارتباط الاجنبي مهما كان شكله .

---

(1) لقد تحالف الحزب الشيوعي السوري مع بعض العناصر الرجعية المعروفة في انتخابات عام ١٩٤٧ و ١٩٤٩ — وقبل الاشتراك في الانتخابات التي اجراها اديب الشيشكلي عام ١٩٥٣ لايجاد مجلس نيابي يدعم حكمه الديكتاتوري في الوقت الذي قاطعتها الهيئات الوطنية — وتحالف مع حركة الاخوان المسلمين في انتخابات عام ١٩٥٤ الخ ...
وكذلك تحالفت الحركة الشيوعية مع حركة الاخوان المسلمين وبقايا حزب الوفد عام ١٩٥٣ — ١٩٥٤ المتكتلين ضد ثورة مصر مرتكبة بذلك انحرافا خطيرا جدا .

ومنذ وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها عام ١٩٤٥ ، وانقسمت جبهة الحلفاء الى معسكرين متصارعين ، رافق ذلك الانقسام تسابق واضح حول اكتساب مناطق العالم ذات الاهمية الستراتجية والاقتصادية . وقد حدد هذا الوضع السياسي الجديد الذى نشأ فى العالم ، مهمات جديدة على عاتق حركات النضال القومى الهادفة للوحدة والتحرر. ففى الوقت الذى كان عليها ان تتابع النضال بحزم ضد الاستعمار داخل نطاق الوطن ، كان عليها ان تبتعد عن الصراع العالمى الدائر بين المعسكرين « الشرقى » بقيادة الاتحاد السوفيتى ، و « الغربى » بقيادة اميركا ، وان تتابع النضال بصلابة ضد التيارات والمحاولات الهادفة الى اقحامها فى هذا الصراع ، واخضاعها للنفوذ الاجنبى .

ولذلك اصبح الكفاح من اجل الحرية ، منذ انقسام العالم الى معسكرين متصارعين ، مرتبطا ارتباطا عضويا بالكفاح من اجل الحياد الايجابى وعدم الانحياز لاى من المعسكرين . كما اصبح من الواضح انه لا يمكن لاية فئة او حركة ان تدعى المساهمة الاصيلة الجدية فى معركة التحرر العربى ، ان كانت لا تؤمن بمبدأ الحياد الايجابى ، وتعمل لدفع الشعب العربى الى الانحياز والارتباط باحد المعسكرين المتصارعين ، فالنضال الداخلى ضد الاستعمار ، والكفاح الخارجى ضد الارتباط الاجنبى ليسا الا وجهين لمعركة التحرر العربى .

وليس هناك من ضرورة للتوسع فى اثبات كون الحركة الشيوعية فى الوطن العربى لا تؤمن بمبدأ عدم الانحياز ، ذلك انه من الواضح ان الشيوعية المحلية مذ ارتبطت ذلك الارتباط التبعى بالشيوعية الدولية ، قد حددت موقفها بجلاء : **بانها تعارض الحياد الايجابى كمبدأ وكسياسة عملية** . فالحياد الايجابى ، يعنى اول ما يعنى ، حرية الشعب العربى فى اختيار مواقفه الفكرية والسياسية بناء على مصلحته القومية المنسجمة مع مصالح الامم الاخرى ، بينما تظهر مواقف الحركة الشيوعية فى الوطن ـ كما يدل العرض السابق طيلة عشرات السنوات ـ انها حركة تستوحى مواقفها ومخططاتها وسلوكها عامة من مواقف الشيوعية الدولية ، **فمهمتها بالدرجة الاولى هى تطبيق مخططات الشيوعية الدولية فى الوطن العربى** .

ورغم ان هذا التاريخ الطويل للشيوعية المحلية بمختلف احزابها فى الوطن ، يظهر بجلاء ان ذلك الارتباط العملى بالشيوعية الدولية الناتج عن الارتباط الفكرى بالنظرية الشيوعية ، هو مناقض على خط مستقيم لمفهوم الحياد الايجابى كتعبير عن الحرية العربية ، فاننا يهمنا ان نشير هنا ، الى ان الشيوعية المحلية قد اعترفت بنفسها ، على صفحات جرائدها ، بارتباطها السياسى والعملى بالشيوعية الدولية وتقيدها « بأوامرها » .

ففى ٢٧ ايار ١٩٤٣ قررت الحركة الشيوعية العالمية ، او لنقل قرر الاتحاد السوفييتى ، حل منظمة « الاممية الشيوعية » المعروفة « بالكومنترن » والتى كانت تتولى قيادة وتوجيه كافة الاحزاب الشيوعية فى العالم . وقد اقدم الاتحاد السوفيتى على هذه الخطوة آنذاك ، كدليل على « حسن نواياه » تجاه حلفائه فى الحرب ، بريطانيا وفرنسا واميركا . وعمم هذا الموقف على كافة الاحزاب الشيوعية ، التى كان مفروضا بها ، ان تؤيد هذه الخطوة وتمدحها

وفى ٢٧ ايار ١٩٤٣ عقدت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى فى سوريا ولبنان اجتماعا أيدت فيه هذه الخطوة . وجاء فى قرار اللجنة المركزية بهذا الصدد :

« ان اللجنة المركزية للحزب الشيوعى فى سوريا ولبنان ، فى اجتماعها المنعقد فى ٢٧ ايار ١٩٤٣ ، باشتراك ممثلى اهم منظمات الحزب ، بعد ان بحثت الاقتراح المعروض عليها من قبل رئاسة اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية ، والذى ينص على « حل الاممية الشيوعية كمركز **قيادى لحركة العمال الاممية** ، **بجعل فروع الاممية الشيوعية فى حل من الواجبات** التى تقتضيها قوانين وقرارات مؤتمرات الاممية الشيوعية » تقرر بالاجماع تأييد رئاسة اللجنة التنفيذية والموافقة على اقتراحها . .

« هذا ومن جهة اخرى ، فان **انفصال** الحزب الشيوعى فى سوريا ولبنان رسميا الان عن كل **مركز دولى** ، هو نتيجة طبيعية لتطور سياسة الحزب الشيوعى فى سوريا ولبنان . .

« ولا ريب فى ان الوضع الجديد للحزب الشيوعى ، الناشىء عن قرار حل الاممية ، يعطى الحركة الوطنية والشعبية فى سوريا ولبنان قوة جديدة . . . »

ولا يهمنا ان نناقش هنا فيما اذا كان هذا القرار مجرد خطوة شكلية ، ولا كيف ان الحزب الشيوعى السورى اللبنانى عاد ومسح كل حديثه عن « هذه الفوائد التى نتجت عن حل الكومنترن » حين اعيد تشكيل الاممية الشيوعية باسم « الكومنفورم » عام ١٩٤٧ ، ولكن يهمنا ان نثبت هنا ، باعتراف الحزب نفسه :

ان الحزب الشيوعى السورى اللبنانى كان، كباقى الاحزاب الشيوعية ، فرعا تابعا لمركز قيادى .

وانه كان يقوم بتنفيذ الواجبات التى تقتضيها قرارات الكومنترن .

.. وانه كان مرتبطا رسميا بمركز دولي ».

فكيف يمكن لحركة من هذا النوع ان تؤمن بالحياد الايجابي وعدم الانحياز ؟

هذه الحقيقة التي اكدتها مواقف الحركة الشيوعية في الوطن طيلة تاريخ عملها ، عادت فاكدتها مواقفها فور انتهاء الحرب العالمية الثانية .

فما ان وضعت الحرب اوزارها ، وانتهى ذلك التحالف بين الاتحاد السوفييتي ودول الغرب ، حتى سعى كل من المعسكرين الجديدين الى تصوير العالم وكانه مقسوم الى قوتين ، احداهما تمثل الخير ، والثانية تمثل الشر . وكان كل من المعسكرين يدعي انه هو ممثل الخير .. طبعا . اما ما كان يقوله **الواقع** ، وما اثبته منطق الاحداث عمليا طوال هذه السنوات ، فهو ان كلا المعسكرين لا يمثل الخير ، « وان كلاهما صادق بما يتهم به الاخر ، كاذب بما يدعيه لنفسه » . ومهما قيل في عدم امكانية وضع المعسكرين الشرقي والغربي على نفس الصعيد والمستوى ، واذا جاز لنا ان نقول ان المعسكر الشرقي اخف اطماعا من دول المعسكر الغربي ، فالحقيقة الثابتة ان مثل هذا الاختلاف هو اختلاف في الدرجة وليس اختلافا في النوع فكلا المعسكرين يستهدف اكتساب مناطق نفوذ جديدة في العالم لتقوية نفسه ، ومهما اختلفت الاهداف ، فكلا المعسكرين ليس له الحق في ذلك ، ليس له الحق في فرض آرائه ومواقفه على شعوب العالم ، مهما كان المبرر الذي يعطيه لعمله .

وهكذا شن المعسكران ـ معسكر الاستعمار الغربي والمعسكر « الشرقي » ـ هجوما عنيفا حادا على سياسة الحياد الايجابي وعدم الانحياز منذ اللحظة الاولى التي وضعت فيها الحرب اوزارها وابتدأ الصراع العالمي بينهما .

واذا تركنا جانبا هنا موقف المعسكر الغربي ، لانه ليس هدفنا في هذا البحث فضلا عن ان موقفه الاستعماري الشرس واضح للجميع ، فاننا نجد ان موقف الحركة الشيوعية العالمية يبرز صورتين متناقضتين واضحتين بصدد الحياد الايجابي : فطيلة الفترة الممتدة بين انتهاء الحرب العالمية الثانية حتى عام ١٩٥٥ ، ١٩٥٦ ، كانت الحركة الشيوعية العالمية **تعارض موقف الحياد الايجابي وتهاجمه بعنف متهمة اياه بانه موقف استعماري ، ومتهمة الداعين له بانهم عملاء للاستعمار يستترون وراء تعبير « الحياد »** .

وابتداء من عام ١٩٥٥ ، وفي عام ١٩٥٦ بشكل خاص ، الذي انعقد فيه المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي السوفييتي ، تغير الموقف الى النقيض .

فاعترف المؤتمر العشرون بسياسة الحياد الايجابي وابتدأ عهد التعاون مع الدول التي تتبناها .

ولم يكن موقف الشيوعية المحلية ليشذ عن موقف الشيوعية الدولية . فقد حاربت الحياد بشدة في الفترة الاولى ، واستمر هذا الموقف المعادي للحياد الايجابي الى حين انعقاد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي عام ١٩٥٦ ، حيث نجد انقلابا فجائيا في هذا الموقف ، اذ تحولت الحركة الشيوعية في الوطن ، بين ليلة وضحاها ، الى موقف تأييد الحياد الايجابي والتغني بصحة هذا المبدأ !

وقد كان لهذا الانقلاب السحري تفسير ! والتفسير لم يكن آتيا من الحركة الشيوعية نفسها في الوطن ، دائما نجده ـ كالعادة ـ في ذلك المخطط الجديد للشيوعية الدولية . اي ان هذا الايمان المفاجئ بسياسة عدم الانحياز ، لم يكن سببه ان الحركة الشيوعية ادركت خطأها وتراجعت عن عملها المقصود المتعمد لربط الشعب العربي بقوة عالمية ولاقحامه في دوامة الصراع العالمي الرهيب ، وانما كان السبب هو تلك التغييرات السياسية الجديدة التي تمخضت عن المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي ، والتي وجدت ان السياسة الستالينية السابقة التي حاربت باستمرار حق الشعوب في عدم الانحياز كانت سياسة خاطئة .

وهكذا غيرت الشيوعية الدولية موقفها ، وضغطت « الزر » فحدث ذلك التغيير المفاجئ في موقف الاحزاب الشيوعية في الوطن ، وفي العالم .

* * *

ولئن كانت الحركة الشيوعية في الوطن تدل بشكل قاطع ـ كما تثبت الوثائق ـ انها مجرد ظل لمواقف الشيوعية الدولية ولا تستوحي ابدا من مصلحة الامة العربية ، فان موقفها من قضية الحياد الايجابي وعدم الانحياز يثبت هذه الحقيقة بصورة اكثر جلاء ووضوحا .

ولنرجع الى الوثائق .

* * *

في المؤتمر الذي عقدته الاحزاب الشيوعية الاوروبية في فرصوفيا في ايلول ١٩٤٧ ، والذي اعلن تشكيل « الكومنفورم » ليحل محل منظمة الشيوعية الدولية السابقة « الكومنترن » ، حلل « جدانوف » الشيوعي السوفييتي المعروف ،

الوضع السياسي العالمي بعد انتهاء الحرب تحليلا مؤداه ان في العالم :

« خطتين سياسيتين متعارضتين : ففي احد القطبين ، تأتي سياسة الاتحاد السوفييتي والبلاد الديمقراطية الاخرى ، وهي تهدف الى دك الاستعمار وتقوية الديمقراطية . وفي القطب المقابل سياسة الولايات المتحدة وانجلترا ، التي تهدف الى تقوية الاستعمار وخنق الديمقراطية .» (١)

وكان هذا التحليل بمثابة القاعدة التي ارتكز اليها المخطط السياسي تجاه قضية الحياد الايجابي وعدم الانحياز . فقد كانت الترجمة العملية لهذا التحليل ، ان الحياد بين هاتين السياستين هو تقوية لمعسكر الاستعمار ، والاستبداد ضد معسكر الحرية الديمقراطية .

وعلى هذا الاساس ، ابتدأ منذ ذلك التاريخ ، هجوم عنيف على موقف الحياد الايجابي شنته الشيوعية المحلية في الوطن تحت ستار دعوات شتى : فالحياد الايجابي هو « احتياطي السياسة الاستعمارية ... » والحياد الايجابي هو « موقف انهزامي سلبي من الصراع الدائر بين الخير والشر» والداعون لعدم الانحياز ليسوا الا « أعوانا مستترين للاستعمار » ...

ومهدت الحركة الشيوعية لهذا الموقف المعادي للحياد بتبني نفس التحليل الذي اعطاه الكومنفورم للوضع السياسي العالمي ، اي كونه مقسوما الى معسكر خير ومعسكر شر .

وكانت هذه الخدعة الفكرية والسياسية الكبرى ، هي الاساس النظري الذي استندت اليه الحركة الشيوعية في الوطن لتبرير هذا الموقف الموجه ضد معركة التحرر العربي .

* * *

ففي عددها الصادر بتاريخ شباط ١٩٤٧ كتبت مجلة الطريق في معرض التعليق على الوضع السياسي العالمي ، تقول :

« ... فقد تبين ، بكل وضوح ، خلال هذه المرحلة ، ان في السياسة الدولية اتجاهين يقفان وجها لوجه . فهناك من جهة اتجاه نحو اقامة سلم ديمقراطي عادل ، نحو توسيع التعاون الدولي على أساس المساواة بين جميع البلاد ، وعلى أساس احترام مصالحها الحيوية ، وفقا للمبادىء المعلنة في ميثاق هيئة الامم المتحدة . وهناك من جهة ثانية ، الميول الاستعمارية التوسعية الجامحة على حساب الشعوب والبلاد الاخرى ، عن طريق سياسة القوة ، سياسة فرض ارادة بعض الدول على البعض الاخر . » (ص ٢٤)

ومن الواضح ، ان هذا التحليل منقول حرفيا عن تحليل « جدانوف » في جلسة اعلان قيام الكومنفورم قبل اربعة شهور من هذا المقال .

كما كان واضحا ايضا ، ان هذه الصورة التي وضعها الشيوعيون للوضع السياسي العالمي « صورة انقسام العالم الى قوتين وحيدتين احداهما تمثل السلام والديمقراطية والاخرى الاستعمار والعدوان » ليست الا الاساس النظري السياسي الذي بنيت عليه سياسة العداء الشديد التي سارت فيها الاحزاب الشيوعية تجاه عدم الانحياز .

ففي البرقية التي ارسلتها اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري الى موريس توريز السكرتير العام للحزب الشيوعي الفرنسي في حزيران ١٩٥٠ - مهنئة اياه بعيد ميلاده - تقول (١)

« .. لقد صنت ، ولا تزال تصون ، وحدة الحزب ضد جميع حملات اعداء الماركسية - اللينينية ، ضد تكتلات التفرقة ، ضد الانشقاقيين والانهزاميين والتروتسكيين واليمينيين والعملاء التيتويين وسائر عملاء العدو . وهكذا اصبح الحزب الشيوعي ببطولته ونظامه الثوري وتلاحم وحدته حولك ، وامانته لشعبه وتعلقه غير المشروط بالاتحاد السوفييتي ، وأمانته لستالين العظيم ، لقد اصبح ، تحت قيادتك ، مثالا ساطع الضياء للحزب البروليتاري الحقيقي .»

ويهمنا نحن من هذه الفقرة الجمل الاخيرة فيها ..

فالحزب الشيوعي السوري يمجد الحزب الشيوعي الفرنسي : لتعلقه غير المشروط بالاتحاد السوفييتي ! وامانته لستالين العظيم ! فما دام الحزب الشيوعي السوري يعتقد ان هذه العلاقة هي علاقة مشرفة ، فما احراه هو نفسه ان يعمل لنيل شرف التعلق غير المشروط بالاتحاد السوفييتي والامانة غير المشروطة لستالين . وطبعا ، يدرك اليوم ، كل فرد في الشعب العربي ، أن تعبير « التعلق غير المشروط » هو التعبير المرادف « للتبعية المطلقة » ..

(١) مجلة الطريق - بيروت ، تشرين الاول ١٩٤٧ ، السنة السادسة ، العدد ١٠ ، ص ١٠١

(١) نشرت البرقية في صحيفة « نضال الشعب » الصادرة عن الحزبين الشيوعيين السوري واللبناني - عدد ٧٠ ، حزيران ١٩٥٠ .

وفي حزيران ١٩٥٠ ، اصدر الحزبان الشيوعيان السوري واللبناني بيانا مشتركا حول « البيان الثلاثي » جاء في احدى فقراته بعنوان :

« مكان بلادنا هو في المعسكر الديمقراطي العالمي الجبار » .

« لقد جاء البيان الثلاثي دليلا جديدا للجماهير الشعبية ولكل الوطنيين المخلصين ، مهماكان حزبهم، على أن **مكان بلادنا** وشعبنا هو في **المعسكر** العالمي الديمقراطي الجبار الذي يضم ٨٠٠ مليون نسمة في الاتحاد السوفييتي والصين والديمقراطيات الشعبية .. »

ان الترجمة العملية لهذا التوجيه السياسي ، انه دعوة صريحة للانحياز الى سياسة المعسكرات.

لقد بنت حركة القومية العربية موقفها تجاه العلاقات السياسية الدولية على اساس الحياد الايجابي الذي يقوم على التفريق دوما وبوضوح : بين**الصداقة** ، وبين **الارتباط** بعجلة المعسكرين المتصارعين . بين **المنفعة المتبادلة** من مبدا التعايش القومي السلمي ، وبين **التبعية** المترتبة على سياسة الانحياز .

والشعب العربي ، على اساس هذا المبدا الواضح ، لا يعتقد ابدا ان « مكانه » في اي من المعسكرين ، بل مكانه في وطنه .

وفي تموز ١٩٥٠ ، اصدر الحزبان الشيوعيان في سوريا ولبنان بيانا مشتركا حول الحرب الكورية بعنوان « ارفعوا ايديكم عن كوريا » (١) هاجما فيه سياسة الحياد الايجابي بعنف على اساس ان لا حياد بين الخير والشر :

« واي « حياد » ممكن بين السلم والحرب ، بين الاستعباد والحرية ، بين العدوان والدفاع عن النفس » .

* * *

ولكن اوضح موقف لعداء الشيوعية المحلية الشرس للحياد الايجابي ودعوتها الصريحة لربط الشعب العربي بعجلة المعسكر الشرقي ، نستطيع ان نأخذه من مقررات اجتماع ممثلي اللجنتين المركزيتين للحزبين الشيوعيين السوري واللبناني في ١٥ تموز ١٩٥٣ ، والتي وجهت في دراسة رسمية داخلية « الى اعضاء اللجنة المركزية في اللجان المنطقية » ، ووصفتها في مقدمة القرارات بانها يجب أن تكون « دستورا للحزب » . فقد حددت المقررات موقفها الصريح من الحياد وعدم الانحياز في معرض التحدث عن « الشعارات الاستراتيجية للحزب » ، فقالت :

« موقفنا من الاتحاد السوفييتي .

« وضعت اللجنة المركزية كمسألة رئيسية ذات أهمية أولى ، وضع قضية التحالف مع الاتحاد السوفييتي كقضية كبرى رئيسية في النضال الوطني الديمقراطي ، ومكافحة **كل ميل الى التحفظ في هذا الميدان** .. »

« **ان الموقف من الاتحاد السوفييتي هو اليوم المسألة الكبرى** ، والمحك لا لكل شيوعي فقط ، بل لكل ديمقراطي على الاطلاق . وواجب الشيوعيين الدفاع **عن كل ظاهرة** للسياسة الخارجية السوفييتية وشرحها (!) وبيان موافقتها لمصلحة السلم ومصلحة نضال الشعوب ضد الاستعمار العالمي .

« ويرتبط بذلك ارتباطا وثيقا واجب ايضاح قضية المعسكرين في العالم : المعسكر الديمقراطي المناضل ضد الاستعمار ، والمعسكر الاستعماري المعادي للديمقراطية ، وذلك بشكل بسيط مفهوم من الجماهير ، والرجوع في هذا الموضوع الى تقرير فقيدنا الكبير جدانوف ، **والاصرار على انه ليس من الممكن ان يكون أي امرىء او اي بلد بين المعسكرين، وان حكاية القوة « الثالثة » أو « الحياد » هي خداع وتضليل لكبح جماح الانعطاف الثوري لدى الجماهير** .. » (ص ٧ و ٨) .

ان هذه المقررات ، تعطي من بين البيانات الاخرى العديدة ، صورة نموذجية لموقف الشيوعية المحلية الحقيقي من الحياد الايجابي .

فالشيوعية المحلية ، تطالب الشعب العربي بالتحالف مع المعسكر الشرقي **دون أي تحفظ** ، اي انها تطالبه **بالتعلق غير المشروط به !** ان الشعب العربي بنى صداقته مع المعسكر الشرقي على اساس المساواة والمنفعة المتبادلة وعلاقة الند للند . وحين يطالبه الشيوعيون في الوطن بأن يتحالف تحالفا غير مشروط ودون اي تحفظ مع هذا المعسكر ، فبماذا عندئذ تختلف هذه الدعوة عن دعوة اعوان المعسكر الغربي .!!

والشيوعية المحلية ترى ان من واجب الشعب العربي الدفاع عن **كل ظاهرة** للسياسة السوفييتية اي انها تطالبه بأن يتحول الى دمية تتحرك في

---

(١) صدر المنشور بتوقيع : الحزب الشيوعي السوري ــ الحزب الشيوعي اللبناني .

الوجهة التي تدفع فيها ! ان الشعب العربي قد حدد بوضوح ان اتجاهاته السياسية تستمد من مبادىء القومية الانسانية ، من التعايش القومي السلمي وحق تقرير المصير ، من حرية الاختيار والاعتقاد ، لا من رغبات الدول الكبرى .

ان الشعب العربي الذي يعرف تمام المعرفة وحشية الاستعمار الغربي وويلاته ، ويحارب هذا الاستعمار بتصميم وصلابة في نطاق الوطن العربي وفي النطاق العالمي ، لا يجهل كذلك ان سياسة المعسكر الشرقي تسيرها المصالح الخاصة لا المبادىء في كثير من الاحيان ، كما دل هذا التاريخ القريب ، وان الرأى القائل بضرورة عدم وضع المعسكرين على نفس المستوى ، لا يعني اطلاقا ان مواقف الشيوعيه الدولية تنطبق على مصلحة الشعب العربي ، بل يدرك انها قد تعارضت معها في كثير من الفترات والقضايا . فحين تطالب الشيوعية المحلية الشعب العربي ، بان يصبح ظلا للمعسكر الشرقي ، فبماذا تختلف هذه الدعوه عن دعوة عملاء المعسكر الغربي الذين يريدون ان يكون الشعب العربي العوبة بيد هذا المعسكر !!

والشيوعية المحلية ترى انه لا يمكن لاى بلد ان يكون بين المعسكرين ، وان الحياد خداع وتضليل لكبح الانعطاف الثوري لدى الجماهير ! اى ، ان الشيوعية المحلية تطالب الشعب العربي بان ينحاز لصف المعسكر الشرقي ويربط مصيره بسياسته . اما الشعب العربي فقد حدد بوضوح ان الحياد من الصراع العالمي وعدم الانحياز هو الموقف الوحيد المنسجم مع كفاح الحرية الكاملة ، وان مكانه هو بالضبط بين المعسكرين ، وان هذا الموقف لن يزعزعه قيد شعرة عن متابعة القتال بحزم ضد الاستعمار الغربي في الوطن العربي ، وضد المواقف المنافيه لحرية الامم ولحق تقرير المصير التي قد يتخذها اى من المعسكرين . الشعب العربي ليس مع معسكر ضد معسكر ، **وانما هو مع الحرية وضد كل محاولات السيطرة القهرية من اى معسكر اتت ،** وهذه هي القاعدة القومية الانسانية التي تتحدد على اساسها اتجاهاته ومواقفه في النطاق العالمي سواء في الصعيد العقائدى او السياسى .

فحين تطالب الشيوعية المحلية الشعب العربي ، بتجاهل كل ذلك ، والانحياز التبعي الى معسكر ضد اخر ، فبماذا تختلف دعوتها عن دعوة عملاء المعسكر الغربي الذى يحاولون دفع الشعب العربي للانحياز التبعي اليه ؟

اننا نعتقد بايمان ، ان الحق والحرية والعدالة هى (المعسكر) الوحيد الذى ننحاز اليه ، والذى لا يجوز ان نتخذ منه موقف الحياد . ودعوة الشيوعية المحلية للانحياز ومحاربتها للحياد الايجابي تستوى ، في مبدا الحرية العربية الكاملة ، مع دعوة عملاء المعسكر الغربي للانحياز ومحاربتهم للحياد الايجابي . وكل من الدعوتين في اعتقادنا موجهة ضد معركة التحرر العربي .



هذا هو الموقف الحقيقي للشيوعيه المحلية من الحياد الايجابي طوال هذه السنوات على الصعيدين النظرى والعملي .

على الصعيد العملي ، ارتبطت ارتباطا تبعيا وثيقا بالشيوعية الدولية . ففي اذار ١٩١٩ تأسست الامميه الشيوعيه « الكومنترن » ، وظلت توجه نشاط الشيوعية المحلية في الوطن (١) حتى ايار ١٩٤٣ حين حل « الكومنترن » لاسباب تتعلق بمقتضيات التحالف الحربي .

ولكن الاممية الشيوعية اعيد تشكيلها باسم « الكومنفورم » في ٥ تشرين الاول ١٩٤٧ ، وعادت الشيوعية المحلية « التى كانت قد تغنت بفوائد حل الكومنترن » فابدت حماسها الشديد لقيام الكومنفورم . ومهما قيل في ان الكومنفورم قد اقيم كرد عملي على مشروع « مارشال » الغربي ، فان « الكومنفورم » ظل يوجه الشيوعية المحلية من تاريخ تكونه حتى نيسان عام ١٩٥٦ حين حل بعد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي .

المهم أن نذكر ، ان الارتباط التبعي للشيوعية المحليه بالشيوعية الدولية ، لا يتحدد فقط بوجود منظمة مركزيه للاممية الشيوعية او عدم وجودها . ذلك انه في الفترات التي لا توجد فيها مثل هذه المنظمات ، يبقى مخطط الشيوعية الدولية عامة هو المصدر الذى تستوحى منه الشيوعية المحلية مواقفها السياسية ، هذا فضلا عن الاساليب غير الظاهرة الاخرى التي يمكن ان تنسق من خلالها الصلات .

اما على الصعيد النظرى الدعاوى ، فقد عارضت الحياد الايجابي كمفهوم وكسياسة ، وهاجمته بعنف ، واتهمت المؤمنين به بانهم « مخادعون مضللون يعملون لكبح المد الشعبي الثوري . » ولم يقتصر هذا الهجوم الذى شنته الشيوعية المحلية ضد

---

(١) بشكل مباشر احيانا ، وعن طريق الاحزاب الشيوعية الاخرى ، كالحزب الشيوعي الفرنسي والايطالي احيانا اخرى .

الحياد الايجابي ودعاته على الوطن العربي فقط ؟ بل تعداه الى خارج الوطن ، فشنت طوال هذه الفترة هجوما مماثلا على نهرو الذي كانت تدعوه « كلب حراسة الامبراطورية البريطانية العجوز » !



الشيوعية المحلية تتغنى بالحياد الايجابي !

كان عام ١٩٥٥ هو بداية التحول الواسع في موقف الشيوعية الدولية من دعوة الحياد الايجابي التي كانت قد بدأت تنتشر في اسيا وافريقيا ، ومن حركات التحرر القومي التي تتبنى هذه الدعوة في هذه الاقطار . وقد تأكدت هذه السياسة الجديدة في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي الذي انعقد في شباط ١٩٥٦ ، اذ ادرك الاتحاد السوفييتي أن مساندة حركات التحرر القومي هي أفضل وسيلة لاضعاف المعسكر الغربي في الصراع العالمي الناشب بينهما .

وكان الوطن العربي يشهد في هذا العام والاعوام التي تلته احداثا هامة . وهكذا ، ايد الاتحاد السوفييتي كفاح العرب التحرري ضد الاحلاف وضد حلف بغداد الذي قام في شباط ١٩٥٥ ، كما ايد مؤتمر باندونغ المنعقد في نيسان ١٩٥٥ والذي كان اول تظاهرة عالمية جماعية لسياسة الحياد الايجابي ، وتمت صفقة الاسلحة التشيكية في ايلول ١٩٥٥ ، كما قام خروشوف وبولجانين في هذا العام برحلتهما الى بعض اقطار اسيا وافريقيا .

والواقع انه باستثناء البيان الذي ادلى به خروشوف وبولجانين اثناء رحلتهما الى بريطانيا في منتصف عام ١٩٥٦ « الذي ألح الى الاعتراف بحقوق « اسرائيل » في فلسطين وضرورة تحقيق الصلح بينها وبين العرب » ، فان علاقات التعاون الهام استمرت بين حركة التحرر العربي وبين الاتحاد السوفييتي طيلة هذه الفترة حتى عام ١٩٥٨ ، وكانت متخذة مظاهر متعددة من الدعم السياسي الى المساعدات الاقتصادية والعسكرية .

وكانت هذه الفترة ، مرافقة زمنيا ، للتحول العام الذي اجرته الشيوعية المحلية من حركة القومية العربية عامة ، وكما اجرت فجأة ، ذلك الانقلاب الزائف في موقفها من القومية العربية والوحدة العربيه . وكما سكتت فجأة الدعوة لتحقيق الصلح ولشرعية التقسيم بالنسبة لقضية فلسطين ، تبنت فجأة دعوة الحياد الايجابي ، وتحول نهرو من « كلب حراسة الاستعمار » الى « الاخ العظيم » ، واصبح عبد الناصر بطلا وطنيا كبيرا « عجيب الوطنية عجيب الذكاء » ، وامتلأت نشرات الشيوعية المحلية في مصر وسوريا ولبنان بالدعوة للحياد الايجابي كمظهر للسياسة التحررية !!



الشيوعية المحلية
وموقفها من معركة الجزائر

لا نكون مغالين ابدا اذ نقول ان معركة الجزائر هي أصدق تجسيد حي ناطق لمعركة الحرية الدامية التي تخوضها الامة العربية ضد الاستعمار الفرنسي وضد الاستعمار العالمي الذي يؤيده ويسانده . بل لعلنا لا نكون مغالين حين نقول ان معركة الجزائر هي ادمى جبهات نضال الانسان في معركة الحرية التي يخوضها ضد الاستعمار عامة كنظام .

هذه الثورة البطولية النبيلة التي تقاتل من اجل حرية الشعب العربي من خلال بحور الدماء التي يسفكها الاستعمار الفرنسي والعالمي ، والتي هزت ضمير كل انسان شريف في كل بقعة من العالم ، ماذا كان موقف الشيوعية المحلية منها ؟

ان الشيوعية المحلية ، في تاريخها الأسود الطويل ، بل وفي حاضرها حتى هذا اليوم ، لم تنس هذه الثورة العربية الدامية من خياناتها ، فكانت مواقفها تجاهها اشد اسودادا واكثر لؤما من اية قضية تحررية عربية أخرى !

ولكي نستطيع ان ندرك حقيقة الدور الخائن الذي لعبته ، وتلعبه ، الشيوعية المحلية تجاه معركة الجزائر ، لا بد ان نعود مرة اخرى الى مهزلة الدوامة التي تدور فيها وتضعها احيانا كثيرة في صف واحد مع الاستعمار .

ان موقف الشيوعية المحلية من قضية الجزائر ـ والحزب الشيوعي الجزائري منها بشكل خاص ـ لم يكن طوال هذه السنوات الا ظلا تابعا لموقف الحزب الشيوعي الفرنسي من هذه القضية. وموقف الحزب الشيوعي الفرنسي كان بدوره يتحدد بعاملين :

اولا : مخطط الشيوعية الدولية ، الـذي كان يقتضي في كثير من الاحيان ، وحسب الظروف السياسية السائدة ، القيام بمحالفات والدخول في مساومات غريبة مع اكثر الاطراف يمينية في فرنسا والتي لها موقف استعماري واضح تجاه الجزائر .

ثانيا : النظرية الخاصة التي يتبناها الحزب الشيوعي الفرنسي حول تكوين « الامة الجزائرية » هذه النظرية التي كانت تسجنه دوما في موقف ، ان اختلف عن موقف الاستعمار الفرنسي من حيث الدرجة ، فهو لم يختلف عنه ابدا من حيث المبدأ .

وهكذا تعود الدوامة لتدور ، وتبتلع كل «ثورية» الشيوعية المحلية في مكافحة الاستعمار ، فتضعها مع اكثر الاحزاب رجعية في الوطن العربي. والواقع انه اذا كان يحق لنا ان نقول ان موقف الحزب الشيوعي الفرنسي من قضية الجزائر قد وجه طعنات اليمة لمعركة التحرر الانساني ، فاننا نستطيع ان نقول ، وبكل اطمئنان ، ان موقف الشيوعية المحلية منها ، والحزب الشيوعي الجزائري خاصة ، هو خيانة سافرة صريحة .

ولنرجع للوثائق .



نظرة الشيوعيين الفرنسيين في « الامة الجزائرية » هي الوجه الاول للتآمر على حرية الجزائر !

لقد عرضنا آنفا (١) النظرية الفكرية الغريبة التي تبناها الشيوعيون الفرنسيون والجزائريون

---

(١) راجع القسم : الشيوعية المحلية وموقفها من القومية العربية والوحدة العربية .

حول الجزائر ، والتي كانت مؤامرة فكرية قامت على اساس نفي عروبة الجزائر ، والقول بأن هناك « امة جزائرية » منفصلة عن الامة العربية ، تتكون من : المستوطنين الاوروبيين ـ الفرنسيين واليونان والاسبانيين والمالطيين واليهود ـ والعرب والبربر . وسائر الاجناس التى وردت الى خيال الشيوعيين الفرنسيين المريض . ورأينا كيف تبنى الحزب الشيوعى الجزائرى هذه النظرية ايضا وعبر عنها بوضوح فى بيانه الصادر فى تموز ١٩٤٦ .

ولم تكن هذه النظريه الفكرية الا القاعدة العملية لسلسلة من المؤامرات على مصير الجزائر دفعت الشيوعيين ، حكما ، الى تبنى كثير من مخططات الاستعمار الفرنسى نفسه تجاه هذا الجزء العربى .

الشيوعيين يتبنون مخطط « الدمج » الاستعمارى !

فرنسه الجزائر : تحويل عربها الى متفرنسين : .. قتل اللغة العربية .. تذويب الثقافة العربية الخ .. هذا هو الهدف الكبير الدائم الذى عمل له الاستعمار الفرنسى منذ ان وطئت قدماه ارض الجزائر . فقد كان الاستعمار الفرنسى يدرك ، ان هذا هو المخطط الامثل لتحويل الجزائر الى جزء من فرنسا والقضاء على « فكرة الاستقلال » نهائيا . وكان الشعب العربى فى الجزائر يدرك تمام الادراك بالمقابل فداحة هذه المؤامرة على مصيره ، فكانت الحركة الوطنية ـ ممثلة فى « نجم شمال افريقيا » ثم « حزب الشعب الجزائرى » فى تلك الفترة ـ تقاوم بعنف كل خطوة فى هذا المخطط .

وكان مفروضا فى الحزب الشيوعى الفرنسى والحزب الشيوعى الجزائرى ، كما كان مفروضا فى اية هيئة حرة ، ان يفضحا اهداف هذا المخطط ، وان يقاوما قوانين « التجنيس » وغيرها من الاجراءات التى كانت تتخذ لتحقيقه تحت ستار « المساواة » و « الاصلاح » .

هذا ما كان مفروضا فى اية « هيئة حرة » . ولكن نظرية الشيوعيين التآمرية فى « الامة الجزائرية » كانت تحدد لهم موقفا مناقضا كليا . فقد تبنى الشيوعيون الفرنسيون والجزائريون « نظرية الدمج » ، واعلن موريس توريز ، السكرتير العام للحزب ، قائلا :

« يجب دمج كافة الناس الذين يودون ان يعيشوا احرارا ، كل فرنسى فرنسا والفرنسيين المجنسين والاسرائيليين ، وانتم ايها المسلمون العرب والبربر ، كل الابناء الذين وحدهم الدم ، أو على الاقل قلب الثورة الفرنسية العظيمة » (١)

المعنى العملى لدعوة زعيم الشيوعيين الفرنسيين ـ والذى يعتبر كلامه تعاليما مقدسة للحزب الشيوعى الجزائرى والحزب الشيوعى فى سوريا ولبنان ـ ان يتناسى عرب الجزائر عروبتهم وحريتهم واستقلالهم كجزء من الامة العربية ! انه حقا قلب نابض هذا الذى يدعو موريس توريز عرب الجزائر باسمه لان يسحقوا شخصيتهم .. نابض بالتآمر على حرية الشعوب ومصيرها .

الفرنسيون شركاء للعرب فى أرض الجزائر !

وهذا هو الوجه الثانى من التآمر على استقلال الجزائر ، والذى كان لابد أن تؤدى اليه ، حكما ، نظرية الشيوعيين فى « الامة الجزائرية » .

ذلك أن هذه النظرية التى قامت على اعتبار المستوطنين الاوروبين ـ والفرنسيين غالبيتهم العظمى ـ جزءا من « الامة الجزائرية » ، كانت تتضمن حكما الاقرار بشرعية وجود هؤلاء المستوطنين فى الجزائر ، وبشرعية « امتلاكهم » جزءا منها ، وهم ، بناء على هذا المنطق المتآمر ، يتساوون فى هذا (الحق) مع العرب !

هكذا ، وببساطة متناهية ، تناسى الشيوعيون أن المستوطنين الفرنسيين ليسوا الا طليعة الاستعمار الفرنسى ، وانهم جاؤوا الى الجزائر كمستعمرين ، وأجلوا الشعب العربى فى الجزائر عن أراضيه بقوة حراب الاستعمار ، وان هؤلاء المستوطنين يمثلون الآن قمة الاتجاه الاستعمارى ، قمة الاتجاه المطالب بفرنسه الجزائر وجعلها مقاطعة فرنسية بحتة .

والمعنى العملى لدعوة الشيوعيين هذه ، ان يتناسى عرب الجزائر ـ والشعب العربى كافة ـ وطنهم ، وان يتنازلوا عن جزء ثالث لليونان والمالطيين الخ .. فهل هناك دعوة للتآمر على استقلال الجزائر العربية أكثر صراحة من هذه الدعوة ؟ وبماذا يختلف الشيوعيون والشيوعيه المحلية فى هذا الموقف عن موقف الاستعمار الا بالدرجة ؟

وهذا يعنى ، أن الشيوعيين الفرنسيين والشيوعيين العرب ، حتى ولو تخلوا عن موقفهم المعارض للاستقلال التام للجزائر ـ كما سنرى ـ وطالبوا بالاستقلال التام ، فان مثل هذا الموقف «

(١) ليون فيكس ـ « الجزائر حتف الاستعمار » !

لو حدث ، لا يعني اقرارا واعترافا بأن الجزائر هي لعرب الجزائر ، وانما يعني ان الجزائر هي لسكان الجزائر من العرب والمستوطنين الاوروبيين .

ومثل هذه الدعوة ، التي قد تمثل أقصى مايمكن أن يفكر فيه الشيوعيون ، هي في اعتقادنا ، وفي مفهوم التحرر الفعلي ، دعوة « لاستقلال » مشوه و « حرية » مبتورة . فمرحى لثورية الشيوعيين !

ولكن هذا ليس في الواقع الا الوجه الثاني فقط لمؤامرة الشيوعيين الفرنسيين والشيوعية المحلية على الحرية التامة الكاملة للجزائر العربية .

« الاستقلال » المزيف الذي يطالب به الشيوعيون للجزائر . وهذا هو الوجه الثالث لتآمر الشيوعيين على حرية الجزائر .

ولا بد هنا أن نتوقف برهة ، ذلك أن موقف الشيوعيين الفرنسيين والشيوعية المحلية في الوطن العربي من استقلال الجزائر ، ليس واضحا كما يجب في أذهان كثير من أفراد الشعب العربي . بل ان الهالة الدعاوية الكثيفة التي تنشرها الاحزاب الشيوعية حول نفسها وحول « ثوريتها وتقدميتها وتحرريتها » كادت تطمس الموقف المتآمر الخائن الذي يقفه الشيوعيون من استقلال الجزائر ، وتظهرهم بمظهر المطالبين بالحرية التامة والاستقلال الكامل .

فاذا تركنا جانبا الحقائق الآنفة ، والتي هي طعن صريح لأبسط معاني الاستقلال ، فان موقف الشيوعيين يتضح بجلاء أكبر ، وينزاح قناع التمويه بوضوح ، حين نأتي الى آرائهم حول قضية استقلال الجزائر نفسها . وهنا نجد أن الموقف المتآمر على الاستقلال الكامل التام للجزائر ينعكس بموقفين رئيسيين :

الموقف الأول ، هو الغموض الذي كانت تتصف به في كثير من الاحيان مواقف وبيانات الاحزاب الشيوعية تجاه قضية حرية الجزائر ، هذه القضية الواضحة تمام الوضوح والتي يعد كل غموض تجاهها ، ولا سيما من حزب « عقائدي » منظم ، وجها من وجوه التآمر على القضية .

والموقف الثاني ، هو الرأي الواضح الذي كان يضطر لابدائه الشيوعيون حول استقلال الجزائر ، حين لم تكن الظروف تسمح بالاستمرار في موقف الغموض . وهنا نجد ، أن هذا الموقف كان يظهر على حقيقته : دعوة صريحة لربط الجزائر بفرنسا ، واقرارا صريحا بوجود حقوق « شرعية » لفرنسا في الجزائر !

ولنرجع الى الوثائق

* * *

منذ زمن طويل ، كان الحزب الشيوعي الفرنسي ، واحزاب الشيوعية المحلية طبعا ، والحزب الشيوعي الجزائري منها بشكل خاص ، قد حددت بوضوح تام ، أن مفهومها « لاستقلال الجزائر » ، ليس هو المفهوم المتعارف عليه انسانيا لمعنى الاستقلال ، أي الاستقلال القومي ، السياسي والاقتصادي والثقافي الخ .. وانما هو مفهوم غريب مشوه ينسجم تمام الانسجام مع غرابة مؤامرة نظرية الشيوعيين في « الأمة الجزائرية » .

وأوضح موريس توريز ، منذ زمن بعيد ، هذا المفهوم « لاستقلال » الجزائر بقوله : « مادام ممكنا للفرنسيين في الالزاس واللورين أن يتمتعوا بنظام ديني خاص .. ومادمنا قد قبلنا ذلك مرة بروح **الوحدة الفرنسية** ، أفلا يمكن أن نقبل به للسبب نفسه فيما يخص مسلمي الجزائر » (١)

ونحن نعتقد أن ليس هناك أي خلاف جوهري بين هذا الموقف وبين موقف الاستعمار الفرنسي نفسه !

أولا ، فقضية الجزائر كلها بنظر الشيوعيين الفرنسيين والشيوعية المحلية ، هي قضية استقلال ديني ! فهي ليست قضية الحرية التامة للجزائر ، وانما هي حرية **المعتقدات** لشعب الجزائر !

لم يكن هدف الاستعمار الفرنسي الرئيسي ، وفي أي يوم ، هو فرض **نظام ديني خاص** على الشعب العربي في الجزائر ، وانما كان هدفه : اقتطاع الجزائر من جسم الوطن العربي ، والحاقها بفرنسا والسيطرة على كل مواردها وثرواتها . وحين يحول الشيوعيون الفرنسيون والمحليون قضية الاستقلال من قضية « وطنية » الى قضية « دينية » .. قضية معتقدات ، فاننا نريد أن نسأل هؤلاء « الاشتراكيين العلميين » ، العلميين جدا ، لمصلحة من يشوه معنى الاستقلال ويمسخ مفهوم الحرية بهذه الصورة ؟ وهل يمكن أن يكون مثل هذا الموقف ، الا خيانة سافرة صريحة لقضية التحرر الانساني عامة ؟

---

(١) « الحزب الشيوعي الفرنسي وقضية الجزائر » ، الياس مرقص ، ص [illegible]

ثانيا ، ان مبدأ « الوحـــدة الفرنسية » ، أى « وحدة الوطن الفرنسى » الذى يضم الجزائر كجزء منه ، مبدأ مسـسلم به ولا خـــلاف حوله ، برأى الشيوعيين الفرنسيين والشيوعية المحلية ! فكما ان الألزاس واللورين هى جـزء من فرنسا « قوميـــا » ولكنها تتمتع بنظام خاص « دينيا » ، كذلك الجزائر يمكن ان تكون جزءا من فرنسا « قوميـــا » وتتمتع بنظام خاص « دينيا » ولا فرق بين المثالين !

وهكـذا تتخلص القضية كلها : الى « مناشدة » الاستعمار الفرنسى أن « يتنازل » ويرضى بأن يلحق عرب الجزائر « بالوحدة الفرنسية » ، رغم انهم مسلمون !!

وهذا الموقف المتآمر على استقلال الجـــزائر ، والذى لنا كل الحق فى أن نعتبره خيـــانة لمعركة التحرر الانسانى عامة ، استمر يطبـــع مواقف الشيوعيين الفرنسيين والعرب ، بشكل أو بآخر طوال هذه الفترة .

ففى عام ١٩٤٧ ، كان قد مضى عامان على انتهاء الحرب التى طالب الشيوعيون الشعب فى الجزائر والوطن عامه بتأجيـل كل قضية حريته الى مابعد انتهائها ، وكان قد انقضى عامان على مذبحة عام١٩٤٥ المروعة فى الجزائر . أى ، أن الظروف السياسية التى يرد الشـيوعيون ، باسـمها ، تلك المهادنات البشعة للاستعمار كانت قد تغيرت ، وكان لابد من ايضاح الموقف الجديد للشيوعيين الفرنسـيين والجزائريين من قضيه استقلال الجزائر ، فهل حمل هذا الموقف الجديد أى تغيـيـير ؟ ابدا ! بل علـى العكس تماما ، حمل هجوما وضيعا شرسا على فكرة استقلال الجزائر .. وأوضح ليون فيكس ، عضـو اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الـفرنسى هـذا الموقف بقوله :

« ان فكرة الاستقلال المباشر للجزائر التى يدعو اليها حزب الشـعب الجزائرى تقوده الى أوخـم العواقب . ان وضع الجزائر الحالى ، هذا البلـد المستعمر الذى أبقى اقتصاده فى حالة تأخــر ، سينقلها فورا تحت سطوة التروستات الأمريكية » .

« الشيوعيون لا يمكنهم ان يؤيدوا ذلك الجزء من الحـركة الوطنية الـذى ينادى لهذه البـلاد بالاستقلال المباشر ، اذ ان هــذه الـدعوة لا تخدم لا مصالح الجزائر ولا مصالح فرنسا !!

« ان استقلال الجزائر سيكون فى آن واحد خدعة وتدعيما لركائز الاستعمار فى الجـزائر ... » - أما الاتحاد الفرنسى « فيعطى حاليـا لشعوب ما وراء البحار الامكانية الوحيدة للسير فى طريق كسب الحرية والديمقراطية » (١)

انه حقا لموقف تحررى ثورى !

فاستقلال الجزائر هو تدعيـم لركائز الاستعمار فى الجزائر .. وأما الحاق الجـزائر فى اتحـاد امبراطورية الاستعمار الفرنسى ، فهو الطريق لحرية الجـزائر !

وانه حقا لمنطق فذ . وبناء على هـــذا المنطق « فالشيوعيون الفرنسيون والشيوعيون المحليـون » لا يؤيدون اسـتقلال الجزائر المباشر لأنه لا يخـدم مصالح الجزائر ولا مصالح فرنسا . وهنـــا بيت القصيد . « فمصالح فرنسا » اصبحت هى المقياس فى الحكم على حركة التحرر ، وهى القـاعدة التى يحدد الشيوعيون على اسـاسها موقفهم من قضـية الجـزائر !

لم يكن الشعب العربى يجهل أن استقلال الجزائر هو ضد مصالح الاســتعمار الفرنسى ، واذا كـان الشيوعيون الفرنسيون والشيوعيون العرب خائفين على مصير مصالح فرنسا من استقلال الجزائر ، فان هذا الاستقلال هو موجه بالضبط ضد هذه المصالح الاستعمارية .

طوال الحـرب عارض الشـــيوعيون الفرنسيون والمحليون استقلال الجزائر بحجة أن خروج الاستعمار الفرنسى سيوقعها فى قبضة الاستعمار الالمـــانى . وبعد أن انتهى دور هذه الحجـــة بانتهاء الحرب ، عارض الشيوعيون استقلال الجزائر بحجة أن خروج الاستعمار الفرنسى سيوقعها فى براثن الاســتعمار الأمريكى .

المهم أن يكون هنـــاك ، فى كل الاحوال ، حجــة دائمة تجعل خروج فرنسا من الجزائر خطرا عـلى استقلال الجزائر !

ولو عممنا هذا المنطق الغث المتآمر ، لكان المفروض أن نطالب ببقاء الاستعمار الفرنسى فى سوريا ولبنان وتونس ومراكش واجزاء أخـــرى من افريقيـــا ، والاستعمار البريطانى فى مصر والسودان والهند ، والاستعمار الهولندى فى اندونيسيا الخ .. ولماذا ؟ لأن اقتصاد كافة هذه الاقطار هو « فى حالة تأخر » ويمكن أن تقع بالتـــالى تحت سيطرة « التروستات الأمريكية » !!

(١) « الحزب الشيوعى الفرنسى وقضية الجزائر » - الياس مرقص ، ص ٤٤

وهكذا تلتقي هذه الدعوة صراحة مع النظريات التي وضعها الاستعمار لتبرير وجوده . فهذه الشعوب ليست جديرة بعد بحكم نفسها ، والاستقلال سيكون خطرا عليها ... اذن لنستعبدها لنعلمها معنى الاستقلال !

لنعترف «...» ان الاستعمار الفرنسي نفسه ما كان يستطيع ان يخترع مثل هذا المنطق العبقري لتبرير سيطرته البشعة وللتآمر على حرية الجزائر العربية «.»



وفي ١ تشرين الثاني ١٩٥٤ اندلعت ثورة الجزائر البطولية ضد الاستعمار الفرنسي وفي سبيل الحرية التامة للجزائر العربية «.» وجاءت هذه الثورة باهدافها الواضحة من جهة ، وببطولاتها وتصميمها من جهة ثانية ، وبوجهها العربي الذي عبر عنه بيان الأول من تشرين الثاني من جهة ثالثة ، ردا قويا حاسما على الاستعمار ، وعلى نظرية « الامة الجزائرية التي تجمع العرب والفرنسيين » وعلى نظرية الاستقلال المشوه ، وعلى كافة تلك الدعوات التي وضعت الشيوعيين الفرنسيين والشيوعية المحلية والعناصر المترددة ، في صف واحد مع الاستعمار الفرنسي ضد حرية الشعب العربي في الجزائر «.»

فماذا كان موقف الشيوعيين في الوطن العربي والحزب الشيوعي الفرنسي من هذه الثورة ؟ هل اعتبروها تعبيرا عن ارادة الشعب بانتزاع حريته من الاستعمار الفرنسي ؟ هل أيدوا هدف الاستقلال الكامل الذي قامت من أجله ؟

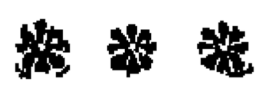
لم تكن اهداف الثورة لتحمل أي غموض ، كما لم يكن الموقف الجديد الذي نشأ ليبيح أي تردد «.»

هدف الثورة هو حرية الجزائر العربية التامة «.»

والموقف العملي « لاية هيئة » اما ان يؤيد هذا الهدف فيكون مع الثورة ضد الاستعمار الفرنسي ، او ان يعارض هذا الهدف ويكون مع الاستعمار ضد الثورة «.»

ولقد اختار الشيوعيون الفرنسيون والشيوعيون المحليون جانب الاستعمار الفرنسي مع بعض الاختلاف في الشكل «.»

فعارضوا صراحة الاستقلال التام الذي قامت ثورة الجزائر من أجله . ولكن كان لابد من شكل لاخراج هذا الموقف المخزي ، اذ كان من الصعب معاداة الثورة علنا – فلا بد أن يبقى هناك بعض الاختلاف بين الاستعمار والشيوعية المحلية ولو شكلا – وهكذا ، كان أفضل شكل لاخراج ذلك الموقف هو كالعادة « معارضة الاستقلال وراء ستار من الهجوم على الاستعمار » ، واللف والدوران والغموض ، ولكن بحيث يبقى الموقف بعيدا عن الاقرار بتأييد الاستقلال التام من جهة ، وواضحا في الاقرار بمصالح « وحقوق » فرنسا في الجزائر من جهة أخرى «.»



فاصدر الحزب الشيوعي الجزائري ، بلسان المكتب السياسي للحزب ، بيانا حدد فيه موقفه من هذه المرحلة الجديدة في تاريخ نضال عرب الجزائر بالدعوة الى :

« البحث عن حل ديمقراطي يحترم مصالح جميع سكان الجزائر دون ما تمييز في العرق أو الدين ، ويأخذ بعين الاعتبار مصالح فرنسا » ! (١)

والواقع ، ان كل كلمة في هذه الفقرة التي تحدد موقف الشيوعيين في الجزائر من الثورة هي مؤامرة سافرة على حرية الجزائر «.»

فالبيان أولا ، يطالب : « بالبحث عن حل » « والدعوة الى البحث عن حل في وقت قامت فيه الثورة الشعبية المسلحة ضد الاستعمار ، يعني أن هذه الثورة ليست هي الحل ، وان الاهداف التي رسمتها ليست هي الطريق . ويعني ثانيا ، ان الشيوعيين الجزائريين ليسوا متخلفين بمراحل عن المد الشعبي التحرري فقط ، وانما انهم يحاولون الرجوع الى الوراء بنضال الشعب التحرري والانخفاض به من مستوى « الثورة المسلحة » الى مستوى « البحث عن حلول » !

والبيان ثانيا ، يطالب : بايجاد حل ديمقراطي « فهل قضية الجزائر هي قضية حل ديمقراطي أم قضية حرية تامة واستقلال كامل ؟ الديمقراطية ، في هذا الصدد ، تتعلق بالاسلوب الذي تحكم بموجبه فرنسا الجزائر ، والحرية تتعلق بوجود فرنسا اصلا وككل في الجزائر . وثورة الجزائر لم تقم لتحويل

---

(١) « الاومانيتيه » [illegible] صحيفة الحزب الشيوعي الفرنسي » عدد ٨ تشرين الثاني ١٩٥٤ – « الحزب الشيوعي الفرنسي وقضية الجزائر » ، البيان مرافق «.»

حكم فرنسا الى حكم ديمقراطي ، بل لطمس الوجود الفرنسي ككل من أرض الجزائر .

فهل كانت الشيوعية المحلية تجهل الفرق النوعي بين هاتين الدعوتين حين اخفت معارضتها للاستقلال التام وراء عبارات الحلول الديمقراطية ؟ هل كانت تجهل أنها بهذا تحول نضال عرب الجزائر من نضال قومي سياسي في سبيل الحرية ، الى نضال اصلاحي داخلي في سبيل المســاواة ؟ لقد دعت الشيوعية المحلية من قبل الى ايجاد حل ديمقراطي لقضيــة فلسطين وذلك حين كان الهـدف المطروح هو : الرفض البات لفكرة الوطن القومي اليهودي وطـرد « اسرائيل » من فلسطين . واتضح أن عبارة « الحل الديمقراطي » لم تكن آنـذاك الا ستارا لموافقـة الشيوعية المحلية على قيام « اسرائيل » ودعـوة لاقتسام فلسطين بين العرب واليهود .

والقضية الآن بالنسبة للجزائر هي عيـن ذلـك الموقف الخائن . اقتســام الجزائر بين العــرب والفرنسيين ، وتقليص قضية الاستعمار الى « شكل عادل للانتخابات » ، وماشابه !

والبيان يطالب ثالثا ، باحترام مصالح جميـــع سكان الجزائر . ومن الضروري أن نوضح هنـا أن تعبير (جميع سكان الجزائر) الذي يتردد باستمرار على لسان الشيوعية المحلية والشيوعيين الفرنسيين ، لم يلق هكذا ، اعتباطا . وانما هو تجسيد لنظرية « الأمة الجـــزائرية التي تتـكون من الاوروبيين والعرب » ، وتعبير عن دعوة اقتسام الجزائر بيـن الاوروبيين المستوطنين وبين العرب تحت شعار « الجزائر للجزائريين » ! وهكذا تتحول هذه الدعوة الى اقرار رسمي من الشيوعية المحلية بشرعية حقوق هؤلاء المستوطنين الاستعماريين في الجزائر ، والمناداة بأن كل حل لقضية الجزائر يجب أن يقـوم علـى الاعتراف بشرعيتها !

وبعد ، فلماذا نطيل المناقشة ؟ ان البيان يطالب صراحة بضرورة الاعتراف بمصالح فرنسا في الجزائر واخذها بعين الاعتبار .

فحرية الجزائر يجب ان تقوم على الاعتراف بمصالح الاستعمار الفرنسي في الجزائر .. وهذه هي حقيقة الحل الديمقــراطي الذي ينادي به الشـيوعيون الفرنسيون والشيوعيون في الوطن العـربي ! فهل هناك اي اختــلاف في المبدأ بين موقف الاســتعمار وبين هذه الدعوة ؟

لعله من المفيد أن نذكر ، من قبيل المقارنة ، أن الجمعية الوطنية الفرنسية ، كانت قد تبنت في عام ١٩٤٧ ، أي قبل هــذه الحــلول التي يقـــدمها الشيوعيون بسبع سنوات ، الدعوة الى : « المساواة الفعلية لجميع مواطني الجزائر الفرنسيين ، دون مانظـر الى أصلهم ، أو جنســـهم ، أو لغتهـم ، أو دينهـم » .

مرة اخرى ، أين هو الفرق بين الموقفين ؟ موقف الاســتعمار وموقف « أصلين فئـــة في مكافحة الاستعمار » ؟!

* * *

وفي ٨ تشرين الثاني ١٩٥٤ ، أي بعد اسبوع من قيام ثورة الجزائر ، أصدر الحزب الشيوعي الفرنسي بدوره بيانا حدد فيه موقفه من الثـــورة ، وطالب فيه بـ :

« الاعتراف بحق الشعب الجزائري وبمطالبته بحريته » .

« بحث هذه المطــالب مع الممثلــين الشرعيين لمجموع الرأي العام العربي الجزائري : من ممثـلي جميع أحزاب الحركة الوطنية والمهنية والدينيـــة والشخصيات » .

كما جاء فيــه :

« ان الحزب الشيوعي الفرنسي ، الامين لتعاليم لينين ، لا يستطيع أن يوافق على اللجوء الى أعمال فردية من شأنها خدمة أسوأ غايات المستعمرين ، هذا ان لم يكونوا هم الذين يدبرونها » (١)

هذا البيان يعطي الموقف الرســـمي للحـــزب الشيوعي الفرنسي من قضية استقلال الجزائر ، ومن الثورة . وسنعود الى بحث الموقف الذي يحـــدده البيان من الثورة ، ولكن يهمنا الآن ، ونحن بصـــدد بحث مفهــوم الشيوعيين الفرنســيين والمحليين لاستقلال الجزائر ، أن نتوقف عند الفقرة الأولى من هذا البيان .

فالبيان اولا ، يطالب بالاعتراف « بحق الشعب الجزائري » .

حق الشعب الجزائري في ماذا ؟ حقه في الحكم الذاتي ؟ حقه في الاستقلال الداخلي ؟ حقــه في المساواة مع الفرنسيين ؟

ان بيان الحزب الشيوعي الفرنسي لا يحدد طبعا !

---

(١) نشر هذا البيان في كتيب ليون فيكس « الجزائر حتف الاستعمار » ص ٤٣ .

وحين تكون القضية قضية ثورة شعب مستعمر ضد مستعمرين ، فان موقف « اللا موقف » معناه الانحياز لصف الاستعمار ، عمليا .

والبيان ثانيا ، يطالب بالاعتراف للشعب الجزائرى « بمطالبته بحريته » .

ان الملابسات السياسية التى تحيط بثورة الجزائر تجعل لقضية المصطلحات والكلمات والتعابير اهمية قصوى . ذلك ان وراء كل تعبير منها موقفا معينا .

فالحزب الشيوعى الفرنسى — والحزب الشيوعى الجزائرى والشيوعية المحلية ككل طبعا — يطالبون : بالاعتراف بحق الشعب فى مطالبته بحريته . انهم لا يطالبون بحرية الشعب العربى فى الجزائر واستقلاله ، بل بحقه فى الحرية والاستقلال .

وبين الموقفين فرق واضح قد لا ندركه لاول وهلة .

ولعله من الجدير بالذكر ، أن جبهة التحرير الوطنى ، كانت وما زالت دوما تدرك بوضوح تام ، الفرق بين الدعوتين . الحرية ، والحق فى الحرية .

فالمطالبة بالحرية والاستقلال شىء ...

والاعتراف بالحق فى الحرية والاستقلال شىء آخر ...

فما أكثرها هى المرات التى اعترف بها الاستعمار فى كثير من بقاع العالم بحق الشعب المستعمر بالاستقلال ، ولكنه حجب عنه هذا الاستقلال عمليا .

المطالبة بالحرية التامة تعنى الزاما عمليا باعطاء الاستقلال الكامل وانسحاب الجيوش الاستعمارية وكافة مظاهر الوجود الاستعمارى الفرنسى فى الجزائر .

أما الموافقة على الحق فى حرية الشعب ، فلا تعنى الا وعدا نظريا باعطاء الاستقلال وبالجلاء .

وبين الاستقلال الفورى والوعد فى الاستقلال فرق كبير ...

وبين انسحاب الاستعمار الفرنسى والوعد بالانسحاب فرق كبير ...

فهل غابت عن أذهان الشيوعيين فى فرنسا وفى الوطن العربى هذه الحقيقة ؟

لم تغب هذه البديهية عن أذهانهم أبدا ...

وحقيقة الامر ، ان هذه التعابير لم ترد « عفوا » فى البيان الرسمى للحزب الشيوعى الفرنسى ، وانما وضعت بهذا الشكل عن تعمد وتصميم ، لانها ، ببساطة ، تعبر عن موقف الشيوعيين الفرنسيين والمحليين المعارض لقضية الاستقلال التام الكامل الفورى للجزائر .

وبينما كانت ثورة الجزائر تعلن فى كل يوم جديد تصميمها على مطلب الاستقلال التام الكامل ، كان الشيوعيون الفرنسيون والشيوعيون فى الوطن العربى يزدادون اصرارا على موقفهم المعارض للاستقلال التام الكامل .

ففى ٢ آذار عام ١٩٥٦ ، عاد الحزب الشيوعى الفرنسى ، فأصدر باسم مكتبه السياسى بيانا حدد فيه من جديد موقفه من النضال الدامى الدائر فى الجزائر . فهل تغير هذا الموقف بعد مرور هذه المدة الطويلة على الثورة ؟ أبدا ! بل على العكس . عارضه من جديد .

« اننا نؤيد وجوب بقاء ودوام روابط سياسية واقتصادية وثقافية خاصة بين الجزائر وفرنسا ، يجب قطعا تبديل السياسة ازاء الجزائر ، ويجب أن تقوم على احلال السلم فيها . ولا سبيل الى ذلك الا بمفاوضة الذين نحاربهم لكى نوقف بأسرع ما يمكن اطلاق النار بشروط تقر بمناقشة حرة ، ونمنع القمع ونطلق سراح المعتقلين ... » (١)

فهذا البيان الجديد ، ورغم مرور هذه المدة على ثورة الجزائر :

١ — ينادى علنا بوجوب بقاء روابط سياسية واقتصادية وثقافية خاصة بين فرنسا والجزائر » ولو كان الحزب الشيوعى الفرنسى ، وأحزاب الشيوعية المحليه ، تقر حقا باستقلال الجزائر ، لكان المفروض أن يترك أمر بقاء العلاقات بين فرنسا والجزائر للشعب الجزائرى نفسه . فهو وحده الذى له حق التقرير فى ذلك . وليس لفرنسا ، ولا للحزب الشيوعى الفرنسى . ولا للشيوعيه المحلية ، اى حق فى أن تفرض عليه وجوب بقاء هذه العلاقات .

وتعبير « بقاء روابط خاصة » ، يختلف هنا تمام الاختلاف عن تعبير « قيام علاقات متبادلة » بين فرنسا والجزائر . وحينما يطالب الشيوعيون الفرنسيون والعرب بوجوب بقاء روابط خاصة ، فهذا

(١) ليون فيكس — « الجزائر حتف الاستعمار » .

يعني انهم يطالبون باستمرار ربط الجزائر بالاستعمار الفرنسي .

٢ — ليس في هذا البيان الذي يحدد موقف الشيوعيين الفرنسيين ، اي نص صريح واضح يطالب : باستقلال الجزائر العربية الفوري الكامل . وبدل هذا المطلب التحرري الواضح الذي قامت من أجله الثورة ، يطالب الشيوعيون «بتبديل السياسة ازاء الجزائر » ! وبدل المطالبة بالحرية الفورية التامة للجزائر ، يطالب الشيوعيون بـ احلال السلم فيها » !

لقد قامت ثورة الجزائر من اجل طرد الاستعمار الفرنسي من الجزائر كليا ، لا من أجل « تبديل في السياسة » ، ومن أجل الحرية الكاملة للشعب وسيادته التامة على ارضه ، لا من اجل « احلال السلم فيها » . وحين يستمر الشيوعيون في فرنسا وفي الوطن العربي ، في تجاهل هذه المطالب والاختباء وراء عموميات فارغة ، وحين يستمرون في تحويل القضية من قضية نضال وطني الى نضال اصلاحي داخلي لا يقتلع الاستعمار الفرنسي من الجذور ، فليس لنا الا أن نقول ان الشيوعيين الفرنسيين والشيوعيين العرب ، يتآمرون صراحة ضد قضية الجزائر ، وضد نضالها الوطني ، وضد معركة التحرر العربي .

لا استقلال بل اتحاد مع فرنسا !

ان هذا الموقف المتآمر على استقلال الجزائر ، كان يتجلى بوضوح وتزول تلك العموميات المائعة التي تعب الشيوعيون طويلا في انتقائها ، حين كان الحزب الشيوعي الفرنسي يضطر للافصاح عن موقفه الصريح ، كلما كانت الأوضاع السياسية الداخلية في فرنسا تضطره لذلك .

وهكذا شرح ليون فيكس ، عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي الاسس التي يجب ان تقوم عليها العلاقات بين فرنسا والجزائر فقال :

« فقد اثبتت حوادث الهند الصينية أن من الممكن أن تقيم مع هذه الشعوب ، متسقة الاعتراف بحقها في الحرية ، علاقات صداقة ، اقتصادية وسياسية ، مؤسسة على الثقة والاحترام المتبادلين ، « وضمانة حقوق فرنسا الجوهرية » (١)

هذه هي حقيقة الاسس التي يريد ان يقيم على اساسها الحزب الشيوعي الفرنسي والحزب الشيوعي الجزائري العلاقات بين فرنسا والجزائر .

فالشيوعيون الفرنسيون والمحليون ، بعد طعنهم لمفهوم الاستقلال باقرارهم ان للمستوطنين الاستعماريين الأوروبيين حقا في الجزائر ، يطعنون مجددا مفهوم الاستقلال ، بالاقرار بأن لفرنسا حقوقا جوهرية في الجزائر . والعلاقات يجب ان تقوم على ضمانة هذه الحقوق .

فهل أصبح للاستعمار الفرنسي حق جوهري في الجزائر ؟ وحق جوهري يجب ضمانته ؟! وهل هذا هو الاساس لعلاقات « الصداقة » القائمة على الثقة والاحترام المتبادلين ؟!

وفي ٣ تموز ١٩٥٦ ، أدلى « اتيين فاجون » عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي الفرنسي ، بتصريح حدد فيه موقف الشيوعيين الفرنسيين من قضية استقلال الجزائر بقوله :

« يرى الحزب الشيوعي الفرنسي وجوب قيام علاقات دائمة بين فرنسا والجزائر في الميادين السياسية والاقتصادية والثقافية ضمن اتحاد فرنسي حقيقي » ! (٢)

كذلك ، عاد « كازانوفا » فالقى في ٢٠ اذار ١٩٥٧ خطابا امام الجمعية الوطنية الفرنسية تحدث فيه عن سياسة الحزب الشيوعي الفرنسي وقال فيه في معرض تأييد فكرة « الجزائر ضمن اتحاد فرنسي حقيقي » :

« ان حزبنا ياخذ بعين الاعتبار أمورا اضافية هي : وجود روابط فعلية بين فرنسا والجزائر ، وجود شعب جزائري من اصول فرنسية واوروبية على أرض الجزائر منذ اجيال عديدة (!) ، وان مصالحه لا تتفق بشيء مع الاستعمار ... » (١)

هذا هو الطريق الذي يرسمه الشيوعيون في فرنسا وفي الوطن العربي لاستقلال الجزائر !

تأييد الوجود الاستعماري الفرنسي تحت اسم « علاقات وروابط دائمة بين فرنسا والجزائر » !

معارضة استقلال الجزائر والعمل على طمسه عمليا بالدعوة « لاندماج الجزائر في اتحاد مع الاستعمار الفرنسي » !

تأييد وجود « حقوق جوهرية » لفرنسا في الجزائر ، والمطالبة بضماناتها !

---

(١) ليون فيكس ، « الجزائر ضد الاستعمار » ، ص ٤٨ .

(٢) مجلة « المجاهد » لسان حال جبهة التحرير الجزائرية ، العدد الصادر باللغة الفرنسية — جريدة البعث — عدد ٢٠١٤ تاريخ ٣٠ آيار ١٩٥٨

(١) مجلة « المجاهد » لسان حال جبهة التحرير الجزائرية ، العدد الصادر باللغة الفرنسية — جريدة البعث — عدد ٢٠١٤ تاريخ ٣٠ آيار ١٩٥٨ .

فمن مفهوم الاستقلال الكامل للجزائر العربية بالاقرار ((بحق)) المستوطنين الاوروبيين فى أرض الجزائر !

ولن يجد الشعب العربي الحرية فى نهاية مثل هذا الطريق ، بل سيجد الاستعمار الفرنسي نفسه، مرة أخرى . ولم يكن الشيوعيون فى فرنسا ولا فى الوطن العربي ليجهلوا هذه الحقيقة .

* * *

مساومات الشيوعيين الفرنسيين والرجعية الفرنسية

الوجه الثانى للتآمر على استقلال الجزائر

والواقع ، ان المواقف التآمرية التي وقفهـا الشيوعيون الفرنسيون والشيوعيون المحليـون نتيجة التحالفات العجيبة التي كان يقيمها الحزب الشيوعي الفرنسي مع أحزاب اليمين والوسـط الفرنسية تنفيذا لمخطط الشيوعية الدولية ، كانت أفدح فى خيانتها وادمى فى طعناتها للكفاح العربي فى الجزائر من المواقف التي دفعتهم اليها مؤامرة « الامة الجزائرية المكونة من العرب والاوروبيين ».

وان هذه المواقف التآمرية الغريبة التي وقفهـا الشيوعيون فى فرنسا وفى الوطن العربي تجـاه قضية الجزائر طوال هذه السنوات ، تضع علامة تساؤل كبرى دامغة حول اسطورة تقدمية هـذه الحركات ، لا على صعيد معركة الجزائر فحسب ، ولا فى نطاق الوطن العربي فقط ، وانما على صعيد معركة التحرر الانساني عامة . وهي تعيد هنا ، مرة أخرى ، ذلك التساؤل الكبير : ترى بماذا كانت تختلف الشيوعية المحلية ، فى تلك المواقف المخزية ، عن عملاء الاستعمار الغربي الذين داسوا على مصير الشعب العربي وجعلوا من انفسهم اداة لتنفيـذ مخططاته وضمان مصالحه الاستعمارية ؛

* * *

ففى الفترة الممتدة بين ١٩٣٦ ــ ١٩٣٨ ، كـان الحكم فى فرنسا بيد « الجبهـة الشعبية » التي تكونت من ائتـلاف الاشتراكيين والراديكاليين والشيوعيين . وفى تلك الفترة وافق الحـزب الشيوعي الفرنسي والشيوعية المحليـة على قوانين « التجنس » التي أصدرتهـا الحكومة الفرنسية كجزء من مخطط فرنسة الجزائر كمشروع « بلوم ــ فيوليت » ، وسكتوا كليا عن عمليات القمع التي اتخذتها الحكومة الفرنسية ضد الحركة الوطنيـة فى الجزائر عامة ، وضد حركة «نجم شمال افريقيا» خاصة ، كما سكتوا كليا عن الاجراءات التي اتخذتها ضد الحركة الوطنية فى تونس ، حين عادت حكومة الجبهة الشعبية ونقضت التعهدات التي كانت قد اعطتها لها . وكان الشعار المتخاذل الذى سـار وراءه عمل الشيوعية المحلية طوال تلك الفترة : « بقاء الجبهة الشعبية فى الحـكم ، يأتي اولا » . وعلى هذا الاساس تبنت كل مواقفها وسكتت عن جرائمها بحق الشعب العربي ، بل وعملت ضـد استقلال الجزائر فطالبت باندماجها فى اتحاد فرنسي بحجة الخوف من مطامع فرانكو وموسوليني .

وفى فترة الحرب العالمية الثانية الممتدة بين ١٩٤١ ــ ١٩٤٥ ، كان الشعار الذى طرحته كافة الحركات الشيوعية هو : مهادنة الاستعمار لمكافحة الفاشية والنازية وتأييد المجهود الحربي للحلفاء . وعلى هذا الاساس أيد الشيوعيون الفرنسيـون ، كما أيدت الشيوعية المحلية المجهود الحربي للحلفاء . وعلى هذا الاساس ايد الشيوعيون الفرنسيون ، كما أيدت الشيوعية المحلية مشروع الجنرال كاترو للاستمرار فى فرنسة الجزائر ، وقتل الشخصية العربية تحت شعار المساواة والاصلاح عام ١٩٤٤ . وطيلة هذه الفترة تعاونت تعاونا تاما مع الاستعمار الفرنسي ، وسكتت عن كل جرائمه ، وهاجمت كل خطـوة موجهة ضده .

و فى الفترة الممتدة بين ١٩٤٥ ــ ١٩٤٧ ، قام فى فرنسـا تحالف بين الديجوليين والاشتراكيين والشيوعيين ، حيث مثل الحزب الشيوعي الفرنسي فى الوزارة ، كما كان له عدد من المناصب الهامة فى أجهزة الـدولة . وارضاء لديجول وللحـزب الاشتراكي سكت الحزب الشيوعي الفرنسي عـن السياسـة الاستعمارية المتطرفة التي اتبعتها تلك الحكومة تجاه نضال الجزائر ، بل واشترك فيها . ارضاء للحزب الشيوعي الفرنسي سكتت الشيوعية المحلية عن هذه السياسة وبررتها .

فتجاهلت كليا مطلب الاستقلال الذى عـاد الشعب العربي فى الجزائر يعمل له بقوة فور انتهاء الحرب ، ويطالب فرنسا بتعهداتها التي قطعتهـا أثناء الحرب ، بل واكثر من ذلك ، هاجمت ، كما رأينا ، مطلب الاستقلال وطالبت باندماج الجـزائر فى اتحاد فرنسي خوفا من مطامع الاستعمـار الاميركي !

وفى عهد هذه الحكومة وابان هـذا الائتلاف ، دبرت السلطات الفرنسية مجزرة ٨ أيار ١٩٤٥ التي ذهب ضحيتها ٤٥ الف شهيد من عرب الجزائر فى أبشع وأقسى مذبحة استعمارية عرفهـا العصر الحديث . ولكن هذه المجزرة ، بكل وحشيتها ، لم تفلح فى تحـريك واجب « التضـامن الاممي

البروليتاري » في صفوف الحزب الشيوعي الفرنسي وأحزاب الشيوعية المحلية !

فتلك المجزرة الاستعمارية تلخصت برأي الشيوعيين الفرنسيين والجزائريين الى « بعض اضطرابات وحوادث مؤسفة » .

ومسؤوليتها لا تقع على السلطات الفرنسية وحدها ، بل ان قسطا كبيرا منها يقع على عرب الجزائر انفسهم !! فكتبت صحيفة الحزب الشيوعي الفرنسي تقول في هذا الصدد : « اما أن بينهم بعض الهتلريين ، فهذا من الامور البديهية ، لا سيما وان احد الزعماء القوميين المزيفين في المانيا ابان التسليم الهتلري ، وقد وصل الان الى احدى بلدان افريقيا الشمالية » (١) وكانت سلطات الاستعمار الفرنسي قد ارجعت اسباب تلك المجزرة الى بعض « عملاء هتلر » من العرب الذين دفعوا الشعب للتظاهر ، وتبنت صحيفة الحزب الشيوعي جانبا من هذه المغالطة الاستعمارية واكتفت بأن تلقي بعض اللوم ايضا على السلطات الفرنسية !

وعادت صحيفة الحزب الشيوعي الفرنسي ، فكتبت بوقاحة غريبة :

« المطلوب انزال العقاب المستحق بالقتلة الهتلريين الذين اشتركوا في الحوادث ، وبالزعماء القوميين الذين حاولوا عمدا خدع الجماهير المسلحة ، خادمين بذلك مصالح الأسياد المئة في سعيهم لايجاد القطيعة بين السكان الجزائريين وشعب فرنسا » . (١)

فليست حوادث ٨ أيار ١٩٤٥ تعبيرا عن ارادة الشعب العربي بأسره في التحرر ، وانما هي حوادث يحركها بعض الهتلريين لخدع الجماهير !

وليست مجزرة ٨ أيار جريمة وحشية ارتكبها الاستعمار الفرنسي ضد الشعب العربي في الجزائر ، وانما يقع قسط من مسؤوليتها على الزعماء القوميين العرب « المزيفين » !

وهكذا جند الشيوعيون الفرنسيون والشيوعيون العرب انفسهم لتبرير جرائم الاستعمار الفرنسي بعد تبرير سياسة هذا الاستعمار .

وطيلة الفترة التي اعقبت انتهاء الحرب مباشرة ، رفع الحزب الشيوعي الفرنسي شعار « التحالف مع كل حزب ممكن لمقاومة حلف الاطلنطي واعادة تسليح المانيا » . وعلى هذا الاساس ، كانت سياسة الشيوعيين الفرنسيين تقوم على عدم اغضاب احزاب اليمين مهما كان الثمن . وكان جزءا من ثمن هذه السياسة ، هو التغاضي عن سياسة التطرف الاستعماري التي تنادي بها هذه الاحزاب تجاه الجزائر . وطبعا ، تقيدت الشيوعية المحلية بهذا الموقف دون أي تردد ، وبرزت الفضيحة المبدئية والاخلاقية التي يقوم عليها .

في عام ١٩٥٦ دخل الحزب الشيوعي الفرنسي في شبه ائتلاف مع الحزب الاشتراكي الذي يترأسه غي موليه . وكانت سياسة الحزب الاشتراكي تجاه قضية الجزائر تقوم على نفس الاسس النظرية التي تقوم عليها سياسة الحزب الشيوعي الفرنسي تجاهها : « الجزائر لسكان الجزائر » أي للمستوطنين والعرب والبربر ! « والدعوة الى ادخال الجزائر في اتحاد مع فرنسا » . اما على الصعيد العملي ، فلم يكن موقف الحزب الاشتراكي يختلف عن موقف الهيئات اليمينية الاستعمارية . فقبل الحرب العالمية وبعدها ، كان هذا الحزب يقاتل النضال التحرري في الجزائر بنفس العنف والشراسة ، ولم يجد الشعب العربي في الجزائر ، عمليا ، أي فرق بين جنود سوستيل أو جنود لاكوست . وكانت سياسة الحزب الشيوعي الفرنسي عدم اتخاذ اية خطوة من شأنها احراج حكومة الحزب الاشتراكي ، رغم وضوح سياستها الاستعمارية .

وفي ١٢ اذار ١٩٥٦ ، طلب الحزب الاشتراكي منحه سلطات عسكرية استثنائية مطلقة لقمع الثورة التحريرية في الجزائر ، أي لزيادة الحشد العسكري الفرنسي البربري الموجه ضد الشعب العربي في الجزائر ، وصوت الشيوعيون الفرنسيون بكتلتهم النيابية الكبيرة في الجمعية الوطنية الفرنسية الى جانب الحزب الاشتراكي .. الى جانب الاستعمار ضد الحرب التحريرية في الجزائر !

وكتبت مجلة « المجاهد » ، لسان جبهة التحرير الوطني في الجزائر ، تقول :

« في ١٢ اذار ١٩٥٦ صوت الحزب الشيوعي الفرنسي ، الذي لا يريد على حد زعمه بأن يضحي بالكل في سبيل الجزء ، على السلطات العسكرية المطلقة التي طلبتها حكومة غي موليه ، مع العلم بأن اتجاه الحزب الاشتراكي الاستعماري قد ظهر واضحا كل الوضوح في حرب الهند الصينية ولدى موظفيه في الجزائر كنجلان وبيشار » .

---

(١) « الاومانيتيه » صحيفة الحزب الشيوعي الفرنسي ، ١٢ أيار و ١٩ أيار ١٩٤٥ — الحزب الشيوعي الفرنسي وقضية الجزائر الياس مرقص ، ص ٤٤

(١) نفس المصدر السابق

وبارك الشيوعيون في الجزائر طبعا هذا الموقف « التقدمي » ، كما ايدته وبررته احزاب الشيوعية المحلية في الوطن .

وفي ٥ حزيران ١٩٥٦ ، عادت حكومة غي موليه فطرحت الثقة في جلسة الجمعية الوطنية الفرنسية المنعقدة بذلك التاريخ ، على اساس منحها سلطات استثنائية جديدة لمواجهة ثورة الجزائر ، ونالت الحكومة هذه الثقة باغلبية ٢٧١ـ٩٥ وامتناع ٢٧١ عن التصويت ، فاذا احسنا الظن وفرضنا ان الشيوعيين الفرنسيين قد امتنعوا عن التصويت هذه المرة ، فان هذا الموقف لا يختلف ابدا في اعتقادنا عن موقف التصويت مع السلطات الاستثنائية . فالحزب الشيوعي الفرنسي «حيادي» بين الاستعمار وبين حرب التحرير الجزائرية ! وهو يفضل ان يقف موقف « المتفرج » وينظر لهذه المأساة البطولية الدامية نظرة « تنافس رياضي بين فريقين » ! المهم ، برأي الشيوعيين الفرنسيين ان يبقى الحزب الاشتراكي في الحكم ولو على اشلاء ضحايا حرب التحرير ، والمهم بالنسبة للشيوعية المحلية ، ان يبقى الحزب الشيوعي الفرنسي راضيا ولو على اشلاء حرية الجزائر !

وفي كانون الاول ١٩٥٦ ، عاد الحزب الشيوعي الفرنسي ، فصوت مرة أخرى الى جانب الحزب الاشتراكي في الجمعية الوطنية الفرنسية ! كان قد مضى زمن على العدوان الثلاثي الغادر على مصر ، ولم يختلف الحزب « الاشتراكي » الحاكم ، في موقفه الاستعماري العدواني في هذه الحرب ، عن حزب المحافظين في بريطانيا ، ولا عن موقف « اسرائيل » ، ورغم كل ذلك ، صوت الشيوعيون الفرنسيون الى جانب « الاشتراكيين الفرنسيين » ، وبذلك لم يصوتوا ضد الجزائر فحسب ، بل ضد معركة التحرر العربي عامة .

وفي عام ١٩٥٨ ، اعطى الحزب الشيوعي الفرنسي الثقة لحكومة فيليكس غايار على اساس سلطات استثنائية تمتد من الجزائر ، لمجابهة الثورة القائمة الى داخل فرنسا ، لمجابهة الحملات التي تنظمها فدائيو جبهة التحرير داخل المدن الفرنسية .

وفي عام ١٩٥٨ ، استلم ديجول الحكم بعد ان مهدت له الطريق هذه المواقف الانهزامية المتخاذلة، خلافا لما يدعي الشيوعيون . وفي عام ١٩٥٩ قدم مشروعه الاستعماري المعروف لتمزيق الجزائر والقضاء على الثورة باسم (استفتاء) المزيف .

واصدر الحزب الشيوعي الفرنسي بيانا هاجم فيه « مشروع ديجول الاستعماري » وهللت الشيوعية المحلية في الوطن العربي لهذا الموقف التحرري « النادر المثال » . ولكن الى متى ؟

كانت احداث سياسية هامه تجري على الصعيد الدولي في تلك الفترة . محاولات لعقد مؤتمر الاقطاب ، وخطب تلقى وزيارات يزمع اجراؤها لكسب ديجول عن طريق نفخ غرور العظمة الفرنسية فيه كمحاولة لشق المعسكر الغربي . وكان هذا الوضع ، برأي الشيوعيين الفرنسيين والشيوعية المحلية ، يقتضي السكوت عن ديجول « عميل الدولار وممثل مصالح كبار الراسماليين الاحتكاريين » ، بل والسكوت عن مخططاته الاستعمارية تجاه الجزائر ! .. وهكذا .. عاد الحزب الشيوعي الفرنسي فتراجع عن بيانه السابق بصدد مشروع ديجول ، لان البيان السابق « ابتعد عن تحليل الحزب للمشكلة الجزائرية » !

نعم ! لم يكن تحليل الشيوعيين الفرنسيين والشيوعيين المحليين يبتعد كثيرا من حيث المبدا عن تحليل ديجول للمشكلة الجزائرية .

* * *

موقف الشيوعيين الفرنسيين والشيوعية المحلية من الثورة

الوجه الثالث للتآمر على حرية الجزائر

لا حاجة بنا في الواقع لان نطيل في عرض الموقف المتآمر الذي يقفه الشيوعيون الفرنسيون والمحليون من ثورة الجزائر ، ذلك ان كافة تلك المواقف الانفة الذكر كانت هي « القواعد النضالية » التي حددت موقفهم العملي تجاهها .

فالشيوعيون الفرنسيون والمحليون ، لم يعترفوا بأن جبهة التحرير الوطني الجزائرية ، وحكومة الثورة المؤقتة فيما بعد ، هي الهيئة الرسمية التي تتكلم باسم الشعب العربي في الجزائر وتعبر عن ارادته في التحرر .

وقد اتضح هذا الموقف بجلاء مثلا البيان الذي اصدره الحزب الشيوعي الجزائري والحزب الشيوعي الفرنسي في ٣ تشرين الثاني و ٨ تشرين الثاني ١٩٥٤ ، حيث دعا بيان الحزب الشيوعي الفرنسي في الفقرة الثانية منه الى « بحث هذه

المطالب مع الممثلين الشرعيين لمجموع الرأى العام العربي الجزائرى من ممثلي جميع أحزاب الحركة الوطنية والمهنية والدينية ، والشخصيات .

ومعنى هذا الكلام ان جبهة التحرير الوطني ليست هي « الممثلة الشرعية لمجموع الرأى العام العربي الجزائرى » ؟ أى أن الثورة التحريرية القائمة هذه الجبهة على قيادتها ليست تعبيراً عن ارادة شعبية جماعية ، ويجب بالتالي ، تقرير مصير الجزائر . ببحثه مع الاحزاب الوطنية والمهنية والدينية والشخصيات الخ ... ومن الجدير بالذكر أن هذا هو عين موقف الاستعمار الفرنسي بالضبط . ذلك أن وجها رئيسيا من وجوه تآمر الاستعمار الفرنسي على حركة التحرير الشعبية في الجزائر هو عدم الاعتراف بأن جبهة التحرير ، ثم الحكومة المؤقتة ، تمثلان الرأى العام العربي الجزائرى . وكان الاستعمار ، وما زال ، يتخذ هذه الدعوى حجة في المحافل السياسية الدولية لتبرير الحرب الوحشية التى يشنها فى الجزائر .

كذلك رفض الشيوعيون فى الجزائر الاشتراك فى الثورة المسلحة القائمة ضد الاستعمار الفرنسي .

ففى بداية الثورة برر الشيوعيون الجزائريون هذا الموقف المتخاذل والمنسجم تمام الانسجام مع موقف الاستعمار « بأن الحزب الشيوعى لا يقسن اللجوء لاعمال فردية ارهابية » ! وبهـذا حاول الشيوعيون تصوير الثورة وكأنها مجرد اعمال فردية تقوم على الاغتيالات ، مع انه كان واضحا للجميع ، أن الاغتيالات التى كان يقوم بها الفدائيون العرب فى المدن كانت جزءا بسيطا جداً من ثورة شعبية جماعية مسلحة يخوضها جيش التحرير فى كافة انحاء الجزائر .

وبعد ان استمرت الثورة وفرضت وجودها المادى على العالم أجمـع ، لم يعد باستطاعة الشيوعيين فى الجزائر التمسك بتلك الحجة المتآمرة ، وكان لا بد من حجة جديدة تبرر انزواءهم المخجل عن النضال البطولى الذى يخوضه الشعب ، ولم يكن من الصعب ايجاد هذه الحجة مهما كانت مفضوحة .

فاشترط الحزب الشيوعى الجزائرى ، لاشتراكه فى الثورة ، ان يمثل فى جبهة التحرير الوطنى كقيادة مستقلة قائمة بذاتها ، وان يشترك اعضاء الحزب فى القتال لا كجنود فى جيش التحرير ، وانما كمقاتلين يرتبطون نظاميا بقيادة الحزب الممثلة فى جبهة التحرير .

وكان واضحا للشيوعيين فى الجزائر ، أن جبهة التحرير لن تقبل بمثل هـذا الشرط . لان ذلك معناه ، عمليا ، تحويل جيش التحرير الى مجموعة فرق واتجاهات ، وتحويل قيادة هذا الجيش - جبهة التحرير - الى عدة قيادات ، ومعناه بالتالى ، فقدان الانضباط العسكرى الذى هـو شرط أول لمجابهة جيوش فرنسا المنظمة .

ولكن الحزب الشيوعى الجزائرى اصر على هذا الموقف طوال هذه الفترة . وقد أوضح هـذا الموقف ، السكرتير العام للحزب الشيوعى الجزائرى « العربى بوهالى » فى تصريح ادلى به بهذا الصدد لجريدة « رودى برافو » التشيكوسلوفاكية فى اذار ١٩٥٨ فقال : « وحزبنا لا يعمل من خلال جبهة التحرير الوطنى التى طلبت من الحزب حل نفسه وانضمام أعضائه للجبهة بصفتهم الشخصية ، فان حزبنا يتمسك باحترام كيانه الذاتى واستقلاله السياسى (!) ومع ذلك فهو يؤيد كل التأييد كفاح جبهة التحرير الوطنى » !

وعاد سكرتير الحزب ، العربى بو هالى ، فأكد هذا الموقف المتخاذل مرة اخرى فى مقـال كتبه فى مجلة «مسائل السلم والاشتراكية» بتاريخ تشرين الاول ١٩٥٨ ، فقال : ان الحزب لا يعتقد بصحة الموقف الداعى لان يحل الحزب نفسه ، ويدعو اعضاءه للالتحاق بجبهة التحرير الوطنى بصفتهم الشخصية كما اقترحت الجبهة ... ولكن ، بينما يقف الحزب مستقلا من الناحيتين السياسية والتنظيمية عـن الجبهة فانه يؤيد النشاط (!) المعادى للاستعمار الذى تقوم به جبهة التحرير الوطنى ، كما يؤيد فكرة العمل (!) »

ولعلنا بعد ذلك ، يجب ان نشـكر للحزب الشيوعى فى الجزائر هذا الموقف « الثـورى » فى « منح » تأييده « المعنوى » للكفاح الوطنى ، بينما يقبع أعضاؤه « المناضلون » فى بيوتهم يتفرجون على الكفاح الدامى الذى يخوضه الشعب ضـد قوات فرنسا وحلف الاطلنطى .

اما الحزب الشيوعى الفرنسى ، فلم يختلف موقفه المتخاذل من الثورة المسلحة القـائمة عن موقف الحزب الشيوعى الجزائرى ، فهو الذى رسـم للاخير هذا الموقف اولا واخيرا . وباستثناء الاختلاف فى درجة التطرف الذى يميز نظرة هذا الحزب عن نظرة الاستعمار لقضية الجزائر ، فان هذا الحزب لم يقدم اية مساهمة فى الحرب التحريرية البطولية القائمة ، ولم يعلن « الحرب على الاستعمارية » بل على العكس ، فبالاضافة لذلك التاريخ الحافل مـن المواقف المتآمرة على قضية حرية الجزائر :

اولا : لم يقم الحزب الشيوعي الفرنسي — رغم امتلاكه لقوة تبلغ ثلث الجمعية الوطنية الفرنسية تقريبا ، وقاعدة شعبية كبيرة — بأى عمل جسدى داخل فرنسا من شأنه الوقوف بحزم امام السياسة الاستعمارية التي تتبعها الحكومة الفرنسية تجاه الجزائر . وهذا الحزب الذى كان « ثوريا جدا » تجاه الحرب فى كوريا والحرب التحريرية فى الهند الصينية ، كان اكثر من رجعي تجاه قضية الحرب التحريرية فى الجزائر .

ثانيا : وليس هذا فحسب ، بل لقد قاوم الحزب الموجة التحريرية التي كانت تنمو احيانا فى فرنسا ، وتطالب بايقاف الحرب وعدم ارسال قوات فرنسية جديدة للجزائر . وقد فضحت جبهة التحرير الوطني على صفحات « المجاهد » هذا الموقف فقالت :

« فى ١٩٥٥ — ١٩٥٦ ، لاقت مظاهرات العمال ضد ذهاب المدعوين للخدمة العسكرية معارضة الحزب الشيوعي الفرنسي . واخذت جريدة الاومانيتية « تفضح » اليساريين ، مخربي غرنويل ولم تدع الى توسيع العمل ، ولم تطلق اى شعار للجنود الذاهبين للدفاع عن الامتيازات الاستعمارية وسكتت مدة طويلة عن موقف البان ليشتي وامثاله الذين رفضوا ان يحملوا السلاح ضد شعبنا » (1)

ولم يكن وقوف الشيوعيين الفرنسيين ضد المد التحررى فى فرنسا نفسها حادثة عارضة آنذاك ، فقد استمر الحزب فى هذا الموقف الرجعي العجيب حتى هذه الفترة . ففي ايلول ١٩٦٠ ، اصدر الحزب الشيوعي الفرنسي بيانا فى صحيفة « الاومانيتية » اعلن فيه « معارضته لحملات رفض القتال فى صفوف الجيش الفرنسى فى الجزائر » ! وقد علقت مجلة « المجاهد » لسان حال جبهة التحرير على بيان الحزب الشيوعي الفرنسي هذا بقولها : « أليس الاجدر بالحزب الشيوعي الفرنسي ان يغير اسمه حتى يصبح أكثر مطابقة للواقع فيسمي نفسه مثلا : الحزب الفرنسي اولا ... الشيوعي بعد ذلك » !!

* * *

هذه هي حقيقة موقف الشيوعيين الفرنسيين والشيوعية المحلية فى الوطن من معركة الجزائر ، اولى جبهات معركة التحرر العربى والانساني . سلسلة مواقف متآمرة وسلسلة خيانات سافرة . وبينما تتقدم ثورة الجزائر البطولية بتصميم خارق ، ويتطلع الشعب الى هذه المواقف ، تعود لذاكرة الشعب العربى كلمات اللجنة المركزية للحزب الشيوعي فى سوريا وفى لبنان :

« حين كانت المنازل تهدم على اطفالنا ونسائنا ، كنا نعلم ان موريس توريز معنا ، ونصيح عاليا فى فى وجه دسائس القوميين البورجوازيين ، نعم : ان موريس توريز يفكر فينا الان ، ويعمل فى سبيلنا ضد ديجول » !!

* * *

---

(1) المجاهد : باللغة الفرنسية : عدد (٤٤) : نيسان ١٩٥٨ — « الحزب الشيوعي الفرنسي والقضية الجزائرية »

القسم الخامس

نحو فهم أعمق
لمعركتنا مع الشيوعية المحلية

نحو فهم أعمق لمعركتنا مع الشيوعية المحلية

هذه هي حقيقة الدور الذي لعبته الشيوعية المحلية في معركة العرب القومية بكافة وجوهها الرئيسية طيلة هذه السنوات وحتى يومنا هذا .

والآن .. يحق لنا أن نطرح ذلك التساؤل الكبير الذي أكدته كافة تلك المواقف السابقة :

ما هي المواقف التي قدمتها الشيوعية المحلية للاهداف العربية وللمعركة القومية بجبهاتها المتعددة ؟

ماذا قدمت على الصعيد الفكري ؟

وماذا قدمت على الصعيد السياسي ؟

وماذا قدمت على الصعيد الاجتماعي ؟

وهل كانت الشيوعية المحلية ، بكل ذلك التاريخ الاسود ، قوة دافعة لاهداف المعركة العربية ، أم قوة معرقلة لهذه الاهداف ومتآمرة عليها ؟

اسطورة « الحقيقة الفكرية » لدى الشيوعية المحلية

فلم تسهم الشيوعية المحلية ، ولا بشكل من الاشكال ، في اغناء وتطوير الفكر العربي في اتجاه طبيعي أصيل . فاعتناق الشيوعية المحلية للماركسية ـ اللينينية كان بشكل انغلاق تام منعها ضمن جدران النظرية الشيوعية ، لا بشكل اعتناق يبيح التفاعل مع الظواهر الفكرية والاجتماعية التي يبديها الواقع العربي . ولهذا لم تستطع الشيوعية المحلية أن تنظر لهذه الظواهر ، الا من خلال النظرية الشيوعية التي أخذتها بشكل تلقين حرفي ، وحفظتها بشكل ببغائي . لا نقصد بالطبع أن الفهم المتطور للماركسية ـ اللينينية كان يمكن أن يؤدي الى تحويل التناقض القائم بينها وبين الحركة القومية العربية الاشتراكية الديمقراطية الى التقاء كامل ، لان كثيرا من عناصر هذا التناقض تكمن في المنطلقات الاساسية للنظرية الشيوعية نفسها ، ولكن المقصود أن تلك التبعية الفكرية المغلقة التي تطبع الشيوعية المحلية ، قد أثرت تأثيرا كبيرا في المواقف الفكرية الخاطئة المتصلبة تجاه العديد من قضايا الوطن العربي ، وجعلت من المستحيل عليها أن تخرج من القوقعة الفكرية التي سجنت نفسها فيها ، لتنظر نظرة فهم عميق متطور للظواهر الفكرية الجديدة التي يبديها الواقع العربي ، أو لتجري أي تطوير يلائم النظرية الشيوعية مع هذه الظواهر .

فكرة القومية العربية مثلا ، التي تحمل في الوطن العربي مرتكزات وصفات لا ينطبق عليها منطق الشيوعية الكلاسيكي بصدد مسالة القومية ، لم تدفع الشيوعية المحلية أبدا الى أخذ هذا التطور المتميز بعين الاعتبار ، وظلت الآراء التي أطلقها ماركس قبل قرن كامل ، ولينين وستالين منذ عشرات السنين ، بكل ما فيها ، هي المنطق الخاطىء الذي تقيم على أساسه القومية العربية ، فكرتها ومرتكزاتها وطبيعتها وأهدافها ؟

قضية « اسرائيل » لا يمكن أبدا ، علميا ، أن ينطبق عليها منطق النظرية الشيوعية حول « الوحدة الطبقية » بين العمال العرب واليهود ، لم تدفع الشيوعية المحلية أبدا الى الاعتراف بهذه الظاهرة

الصارخة ، وظل التحليل التقليدى الذى يؤدى لفكرة « الوحدة الطبقية المصيرية » للعمال العرب واليهود ضد « الوحدة الطبقية المصيرية » للبورجوازية العربية واليهودية ، والخاطىء بصورة مطلقة فى هذا الصدد ، هو المنطق المغلوط الذى تناقش به الشيوعية المحلية قضية فلسطين والاغتصاب الصهيونى .

ثم التحليل الفكرى الذى أعطى لقضية الاسكندرون ، ولقضية الجزائر وغيرهما كثير من قضايا الوطن العربى ... كلها ، أمثلة عن التبعية الفكرية العمياء التى تميز الشيوعية المحلية وتجعلها عاجزة عن الانفتاح على أحداث الواقع العربى والتطور معها فكريا .

ولكن التبعية الفكرية العمياء ليست الا وجها من وجوه اسطورة « علمية » الشيوعية المحلية . فان هذه الاسطورة ، أو لنقل أزمة الفكر فى الشيوعية المحلية ، تبرز بشكل أوضح فى آثار التبعية السياسية العمياء فى هذا الميدان .

فالتبعية السياسية العمياء للشيوعية الدولية ، والتى تقتضى التقيد التام بمواقف الشيوعية الدولية والالتزام بالمخطط الذى يحقق مصلحتها ، قد افقد الحقيقة الفكرية كل قداسة لدى الشيوعية المحلية ، وجردها من قيمتها الاولى التى هى فى الالتزام الاخلاقى بها ، أى يجعلها المقياس الاول لكل موقف عملى . فالفكر لدى الشيوعية المحلية لم يعد تعبيرا عن حقيقة ، بل خادما لتكتيك ، والحقيقة الفكرية لم تعد مصدرا للتوجيه وسلطة للتقرير ، بل أصبحت مصلحة الشيوعية الدولية هى المصدر الاول للتوجيه ، والسلطة الفعلية فى تقرير مواقف الشيوعية المحلية .

وهكذا تحول الفكر فى غمرة هذه التبعية السياسية العمياء الى مجرد « حذلقات فكرية جاهزة » مهمتها الاولى تبرير المواقف العملية للشيوعية الدولية خارجا ، وللشيوعية المحلية فى نطاق الوطن .

وهذا الواقع الفكرى الذى يطبع الشيوعية المحلية يطرح قضية الالتزام لديها على بساط البحث . لا يمكن أبدا الاطمئنان الى أن التزام الشيوعية المحلية لاى موقف بصدد أية قضية ، يمكن أن يكون التزاما ثابتا دائما ما دام مصدر التوجيه ومرجع الالتزام هو المخطط السياسى للشيوعية الدولية ، والذى يمكن أن يتبدل فجأة من موقف الى موقف مناقض ، كما حدث بصدد قضية فلسطين مثلا . الالتزام السياسى لا بد أن يستند الى التزام فكرى مسبق . وما دام التزام الشيوعية المحلية هو التزام بمخطط الشيوعية الدولية لا بالحقيقة العلمية ، وما دام موقف الشيوعية الدولية لا يمثل فى أحيان كثيرة الحقيقة العلمية بقدر ما يعبر عن المصلحة السياسية ، اذن فمن العبث أن نتوقع أى التزام ثابت دائم للشيوعية المحلية بأى موقف بصدد أية قضية .

وهذا ما يفسر لنا تلك المواقف الفكرية المخجلة فى ضحالتها احيانا ، وتقلباتها المتناقضة احيانا أخرى ، والتى كانت تشكل الطابع الفكرى العام للشيوعية المحلية طيلة هذه السنوات .

فالموقف الفكرى للشيوعية المحلية بصدد القومية العربية والوحدة العربية تحول خلال هذه السنوات : من نفى وحدة الامة العربية ومعارضة الوحدة « لانها تطور تاريخى موضوعى لا يمكن ايقافه » ، الى معارضة الوحدة العربية « لان القومية العربية الواحدة لا تعنى الدولة العربية الواحدة » !!

والحياد الايجابى تحول فى أقل من سنة من « دعوة استعمارية مستترة » قبل ١٩٥٥ ، الى « دعوة تحررية ايجابية » بعد ١٩٥٥ ، رغم أن فكرة الحياد لم تتغير قبل ذلك التاريخ وبعده !

وفكرة « الوطن القومى اليهودى » تحولت خلال اشهر معدودة من فكرة خاطئة رجعية ، الى فكرة صحيحة مبررة تاريخيا وتقدمية مع العلم انه لم يطرأ أى تغيير فكرى على طبيعة دعوة الوطن القومى اليهودى .

وتقسيم فلسطين تحول خلال اسابيع معدودة من « مؤامرة يديرها الاستعمار الانجلو اميركى والصهيونية الرجعية » ، الى « حل عادل يؤدى للتحرر من سيطرة الاستعمار الانجلو أميركى » !

ومؤامرة الصلح بين العرب « واسرائيل » كانت فى سنة « خطوة تحررية يقتضيها الكفاح المشترك ضد الاستعمار الغربى » ، وفى السنة التالية « مؤامرة يديرها الاستعمار الغربى » !

وفرنسا تحولت خلال هذه السنوات الماضية : من « دولة استعمارية » (حتى ١٩٣٦) - الى « دولة الحرية والاخاء والمساواة » (١٩٣٦ - ١٩٣٩) ، الى دولة استعمارية تستعبد الشعب فى سوريا ولبنان وتونس والجزائر ومراكش » (١٩٣٩ - ١٩٤١) ، الى « دولة الحرية والاخاء والمساواة (١٩٤١ - ١٩٥٥) ، الى « دولة استعمارية » بعد انتهاء الحرب . وكذلك كان الامر بالنسبة لبريطانيا أيضا .

وخلال عشر سنوات تحول هتلر من « رجل استعمارى عدوانى شوفينى » (١٩٣٦ - ١٩٣٩) ،

الى « رجل عظيم لا يفعل الا ما تقــوله له موسكو » (١٩٣٩-١٩٤١) ، الى « رجل استعماري عـدواني شوفيني » (١٩٤١-١٩٤٥) ، وطبعا ، لم يكن قد طرأ أي تعديل فكري على آراء هتلر طوال هــذه الفترة .

وخلال أقل من سنة ، تحول ديجول من « رجل عظيم يمثل أماني فرنسا » ، الى « صنيعة تشرشـل وعميل الدولار » ، رغم أن ديجول لم يتغير فكريا في كلا الحالين .

والامثلة في الواقع أكثر من أن تحصى اذا أردنا الاستمرار .

كل هذه الوقائع لم تكن تبدي اي تغييــــر في « طبيعتها الفكرية » يملي اجراء تغيير فكري مقابل في نظرة الشيوعية المحلية اليها . بل كان السبب في هذه التقلبات الفكرية المتناقضة المعيبة هو تغيرات المواقف السياسية للشيوعية الدولية حسب تغيرات الظروف الدولية الســــــائدة ، وتغيرات المواقف السياسية للشيوعية المحلية حسب مقتضيات تكتيك مصلحتها الحزبية .

ولهذا نجد بالنتيجة ، انه من الصعب جدا ان لم نقل من المستحيل ، ايجاد مقيـــــاس فكري حقيقي تلتزم به الشيوعية المحلية اخلاقيا ، تســـتطيع أن تمارس عن طريقه عملية نقد ذاتي فكري دائـــم لمواقفها العملية ، ويمكن أن يجنبها الانحرافات التي كانت تصل بها الى حد خيانة المعركة العربيـــة في أحيان كثيرة .

فمن جهة ، أصبحت الماركسية - اللينينية تتسع بعمل الحركات الشيوعية لتبرير كافة المواقف التي قد تكون متناقضة كل التناقض فيما بينها . لقد طبقت فكرة « النسبية » على الحقائق الفكرية المسلم بها ، لا على المواقف العملية فقـــــط ، ودون أي تحفظات فكرية . فهناك دوما مســــتند فكري في الماركسية اللينينية يمكن الاستناد اليه فكريا لتبرير المواقف السياسية .

ومن جهة أخرى ، حين يكون من الصعب احيانا ايجاد سند فكري لموقف سياسي ما ، حتى ضــمن الدائرة المطاطة للماركسية اللينينية ، فلا ضير من الدوس على الافكار التي تؤكدها الماركسية - اللينينية نفسها (كما حدث بالنسبة لموقف الحركة الشيوعية من فكرة الوطن القومي اليهودي مثلا) . فالمقياس هنا ليس المنطق الفكري كسلطة تقرير وتوجيــه ، وانما المصلحة السياسية للشيوعية الدولية .

فمن أي التزام اذن يمكن أن نتحدث بصدد الطابع الفكري للشيوعية المحلية ؟

وكل هذه الاعتبارات التي أكدها سلوك الشيوعية المحلية خلال تاريخها الطويل ، انما تطرح قضـية « علمية » الشيوعية المحلية على بســـــاط البحث ، لا لتضع حولها علامة استفهام كبرى ، بل لتصـدر عليها في الواقع حكما قاطعا . فحين يخضـع الفكر لمتطلبات التكتيك السياسي الذي تقرره ظـــروف خارجية ، وتتبدل طبيعة الاشــــياء الفكرية بشكل بهلواني بتبدل الاوضاع السياسية الدولية ، ويفقد الالتزام الاخلاقي الفكري بالحقائق الفكرية العلميـة المسلم بها ، وتنعدم روح التواضع أمام الحقيقــة والاعتراف بالخطأ ، وتصبح التغيرات السياســية المصلحيه هي سلطة التوجيه الاولى ، فعن اية «عملية» عندئذ ، يمكننا أن نتكلم ؟

اننا اذا تجاوزنا ذلك الدور الخطير الذي لعبته الشيوعية المحلية على الصعيد الفكري ، بطرحهـــا طرحا ببغائيا تلك الافكار الخاطئة حول وحدة الامة العربية ، والقومية العربيـــة ، والحياد الايجابي ، والتي يمكن أن يكون لها آثار سلبية خطيرة على أمة لم تستكمل وحدتها القومية بعد ، اذا تجاوزنا كل ذلك ، فان مساهمة الشيوعية المحلية على الصـعيد الفكري لم تقتصر على عدم تقديم اية مساهمة لاغناء الفكر العربي وبلورته ، وانما كانت مؤامرة موجهة ضد أصالة الفكر وقداسته .

اسطورة « وطنية » الشيوعية المحلية

ما هي المساهمة التي قدمتها الشيوعية المحليـة لمعركة الوحدة العربية وللتطور القومي التـاريخي للعرب نحو الدولة الواحدة ؟

لقد طرحت الشيوعية المحلية نفسها ، ولا سيما في السنوات الاخيرة ، كحركة « وطنيــة » تؤمن بالقومية العربية الواحدة وتعمل للوحدة العربية . ونستطيع الآن ، بعد ذلك الاستعراض ، أن ندرك حقيقة ذلك الادعاء .

في الفترة الاولى حاربت الشيوعية المحليـــة فكرة القومية العربية الواحدة نظريا ، وحركة الوحـــدة العربية عمليا . ففي مقابل « التطور القومي العربي الواحد » قدمت الشــيوعية المحليــة نظـرية « التطور القومي الاقليمي المستقل للاجزاء العربية » . وفي مقابل « الدولة العربية الواحـــدة » ، طرحت شعار « التعاون والتقارب » . ولم تكن الشيوعيـة المحلية في موقفها النظري لتختلف عن الدعــوات الاقليمية والشعوبية التي عملت لطمس حقيقة وحدة

الامة العربية ، كما لم تكن في مواقفها العملي لتختلف عن المحاولات الاستعمارية الرجعية التي عملت لسلب فكرة الوحدة العربية معناها الثوري الاصيل .

وفي الفترة الثانية ، اقرت بالقومية العربية الواحدة ، وبالوحدة العربية نظريا ، ولكنها لم تقدم أية مساهمة ايجابية لدفع معركة الوحدة العربية عمليا .

وفي الفترة الثالثة ، عادت الشيوعية المحلية لمحاربة القومية العربية الواحدة نظريا ، وحركة الوحدة العربية عمليا . وفي مقابل فكرة « الوحدة العربية المنبثقة عن وحدة الامة العربية ، قدمت نظرية « القومية العربية الواحدة لا تعني بالضرورة الدولة العربية الواحدة » ، وفي مقابل « التطور العربي الموحد » قدمت نظرية « اختلاف الظروف الموضوعية والمستويات الحضارية للاجزاء العربية » وفي مقابل مطلب « الدولة الواحدة » عادت مرة أخرى الى شعار « التضامن والتقارب » . وهكذا عادت الشيوعية المحلية لتقف مرة أخرى بعد تلك السنوات الطويلة ، في صف الدعوات والمحاولات الانفصالية الاستعمارية الرجعية .

ان موقف الشيوعية المحلية لم يقتصر على عدم تقديم أية مساهمة لمعركة الوحدة العربية ، بل كانت في نظرياتها الفكرية ومواقفها العملية قوة معرقلة للتطور العربي القومي . انه يحق لنا ، بكل موضوعية واطمئنان ، أن تصدر حكمنا على هذا الموقف : لقد تحولت الشيوعية المحلية الى قوة من قوى التجزئة التي يستند اليها الواقع العربي المجزأ والمدعوم بحراب الاستعمار .

اسطورة « تحررية » الشيوعية المحلية

وما هي المساهمة التي قدمتها الشيوعية المحلية لمعركة التحرر العربي ؟

لقد طرحت الشيوعية المحلية نفسها كممثلة الاتجاه التحرري ، واصلب فئة في مكافحة الاستعمار ! وان كان ذلك التاريخ الحافل لمواقف الشيوعية المحلية من معركة التحرير العربي يؤكد شيئا ، فهو انما يفضح نهائيا هذا الادعاء الذي حاولت تثبيته زورا في اذهان الجماهير العربية .

فقد هادنت الاستعمار وحالفته وتآمرت معه ، ووقفت بالنتيجة العملية ، ضد التحرر العربي ، وسكتت عن سلخ لواء الاسكندرون ، وأيدت الاغتصاب اليهودي في فلسطين ، وتبنت موقفا شبيها بموقف الاستعمار من قضية الجزائر (*) ولم يكن دورها في تلك المواقف مجرد دور « المتفرج » أو « الحيادي » ، على فداحة مثل هذا الموقف ، وانما لعبت في كثير من الاحيان دورا « ايجابيا » خطيرا في التآمر على تلك القضايا العربية التحررية الكبرى ، سواء في توجيهاتها السياسية أو مواقفها العملية .

ولعله اصبح من العبث بعد ذلك الاستعراض ، ان نؤكد ان الشيوعية المحلية لم تلعب أي دور قيادي في كفاح العرب التحرري ، وأنها كانت دوما في ذيل الاحداث ، ومتخلفة بمراحل عن يقظة الشعب ونضاله من أجل حريته . ذلك أنه من العبث أن ننتظر من الشيوعية المحلية أية مساهمة جدية ، بينما كانت غارقة في معظم فترات هذه السنوات الثلاثين الاخيرة في تلك التحالفات والمهادنات الغريبة مع الاستعمار .

وقد كان السند الفكري الدائم الذي قدمته الشيوعية المحلية لتبرير تلك السلسلة الطويلة من الانحرافات التي وصلت أكثر من مرة الى حد الخيانة القومية الصريحة ، هو : نظرية تضحية الجزء في سبيل الكل .

ونستطيع الآن ان ندرك ماهية هذا « الكل » الذي كانت حرية الشعب العربي هي دوما « الجزء » الذي يجب ان يضحى به في سبيله . لقد كان هذا الكل هو استرضاء الاستعمار الفرنسي والرجعية التركية في مؤامرة اغتصاب الاسكندرون ، وكسب ود الصهيونية العالمية في مؤامرة اغتصاب فلسطين ، والتقرب من الرجعية الفرنسية في قضية الجزائر (*) الخ ...

وهذا يطرح على بساط البحث هنا أيضا ، القاعدة الاساسية التي توجه سلوك الشيوعية المحلية في معركة التحرر العربي ، والتي ستبقى توجهها باستمرار .

معركة التحرر العربي بنظر الشيوعية المحلية ليست غاية قومية ومساهمة انسانية بآن واحد ، وانما هي بالدرجة الاولى وسيلة لخدمة مخطط الشيوعية الدولية . فالشيوعية المحلية في الوطن العربي قوة تنفذ مخططا مرسوما خارج حدود هذا الوطن ، وقد يقتضي ذلك المخطط التحالف مع الاستعمار أحيانا ، ومهادنته أحيانا أخرى ، ومحاربته أحيانا ثالثة . فهي لا تستوحي ، في موقفها من معركة التحرر العربي ، مصلحة الامة العربية وحريتها ، وانما مصلحة الشيوعية الدولية ومخططاتها .

ولذلك لا يمكن ابدا اعتبار الشيوعية المحلية قوة تحررية ثابتة في معركة التحرر العربي ضد

الاستعمار ؟ فهي مثلا جعلت مقياسها في هذه المعركة مصلحة مخطط الشيوعية الدولية ، لا حرية الامة العربية المنسجمة مع حق تقرير مصير سائر الامم . قد فقدت كل امكانية لان تكون حركة تحررية أصيلة في كفاح الشعب العربي .

اسطورة « تقدمية » الشيوعية المحلية

وطرحت الشيوعية المحلية نفسها لا كاحدى الاتجاهات التقدمية وانما كممثلة الاتجاه التقدمي في الوطن العربي . ويهمنا بصدد كشف القناع عن هذه الهالة الدعاوية الجديدة أن نحدد مفهوما عاما لمعنى التقدمية .

ان تقدمية اى اتجاه تتحدد ، بالمعنى الكامل ، بمقدار التزامه بالخطوط التالية :

اعتباره المعركة العربية الراهنة ، تحرير الوطن العربي وتوحيده وتحقيق الاشتراكية الديمقراطية ، كلا واحدا لا يتجزأ ، أولا .

تقدمية الاهداف والبرامج الاقتصادية الاجتماعية التي ينادي بها ، ثانيا .

اخلاقية المفاهيم والاساليب النضالية التي يسير عليها ، ثالثا .

وانسانية المبادىء التي يؤمن بها على الصعيد العالمي ، رابعا .

اذا طبقنا هذا المقياس على الشيوعية المحلية ماذا نجد ؟

الشيوعية المحلية أولا لا تنظر لمعركة العرب الراهنة كوحدة كلية لا تتجزأ . فهي تنظر للمعركة العربية بعين خارجية ومنظار أجنبي . مقياسها للتقدمية ليس التقدم بالمجتمع العربي كجزء من معركة التقدم الانساني ومساهمة فيها ، وانما مقياسها هو التقدم بمعركة الشيوعية الدولية و « تطويع » المعركة العربية لها . لذلك فهي لا تؤيد المعركة العربية معتبرة أنها بكافة جوانبها ، وكوحدة ، تعبير عن حركة التقدم العربي عامة ، بل تؤيد من هذه المعركة الجوانب التي تجدها منسجمة مع مخطط الشيوعية الدولية ، وتعارض الجوانب التي لا تلتقي مع هذا المخطط حتى ولو كانت تجسيدا لصميم معركة التقدم العربي والانساني .

وهكذا نجد هنا أيضا ذلك المنطلق الخاطىء الذي يحدد سلوك الشيوعية المحلية تجاه أية قضية . لقد اخضعت التقدمية للمواقف السياسية والفكرية للشيوعية الدولية وجعلتها مرادفة لها . وحركة من هذا النوع لا تدفع معركة التقدم العربي للأمام . فالموقف العملي المترتب على مثل هذا المنظار الاجنبي هو تعريض حركة التقدم العربي للانقطاعات وتشويه اصالتها ووضع مصيرها في مهب الرياح ؟

وهذا المنطلق كاف لوحده في الواقع لان يمكننا من اصدار حكمنا على « تقدمية » الشيوعية المحلية . ذلك انه يضعها — كما حدث فعلا — في موقف المعارض كليا لحركة التقدم العربي أحيانا ، وفي موقف المؤيد جزئيا لبعض جوانبها في أحسن الحالات . ولكن هذا الحكم يكتسب مبرراته الاوضح حين ندخل الى دائرة المعركة العربية نفسها .

فالتقدمية في الاوضاع الراهنة للوطن العربي ليست مفهوما عائما ، وانما لها تحديدات واضحة . مقياسها العام ، هو الكفاح للتقدم بالامة العربية من وضعها المستعمر المجزأ الشاذ ، الى وضع متحرر موحد اشتراكي ديمقراطي ، أي أن حركة التقدم العربي الحديثة لا يمكن النظر اليها ، بشقيها السياسي والاجتماعي ، الا كوحدة لا تتجزأ .

فالاقليمي الانفصالي الذي يؤمن بالتحرر الانساني والاشتراكية الديمقراطية ، ولكنه يعادي عمليا الوحدة العربية ، لا يمكن اعتباره عنصرا في حركة التقدم العربي في الظروف الراهنة .. والرأسمالي الذي يؤمن بالوحدة العربية والتحرر ، ولكنه يحارب الاشتراكية الديمقراطية ، لا يمكن ايضا اعتباره عنصرا في حركة التقدم العربي في الظروف الراهنة .

والشيوعية المحلية ينطبق عليها نفس هذا الحكم . بل ان سلوكها النضالي يبدى حين تدخل في الدائرة التفصيلية للمعركة العربية ، ظواهر أخرى منافية على خط مستقيم لمعنى التقدمية .

موقف الشيوعية المحلية من معركة التحرر العربي مثلا ، كان في معظم فترات تاريخها موقفا موجها ضد معنى التقدمية . فعن أية تقدمية يمكن أن نتكلم في موقف الشيوعية المحلية من اغتصاب لواء الاسكندرون ؟ وعن أية تقدمية يمكن أن نتكلم في موقفها من اغتصاب فلسطين وتأييدها لفكرة الوطن القومي اليهودي ؟ وعن أية تقدمية يمكن أن نتكلم في موقفها من قضية الجزائر ؟ وعن أية تقدمية يمكن أن نتكلم في تلك المهادنات والمساومات المخجلة مع الاستعمار ضد حركة التحرر الوطني ؟

وموقف الشيوعية المحلية من معركة الوحدة العربية كان ولا زال موقفا موجها ضد معنى التقدمية . فكون الوحدة العربية هي أساس لكل نهضة فعلية

جذرية شاملة يجعل الموقف من الوحدة هو في نفس الوقت مقياس من مقاييس التقدمية في الوطـــن العربي • والشيوعية المحلية في تحولها الى قوة من قوى التجزئة التى تعمل لتعميق ركائز الواقع المجزأ الذى أوجده الاستعمار ، انما تقف صراحة مع قوى الرجعية ضد حركة التقدم العربي •

فمهما بدت البرامج الاقتصادية الاجتماعيـــة للشيوعية المحلية تقدمية ، الا أنها في الواقع برامج مقطوعة الجذور في أرض هذا الوطـــن • فكما ان الاهداف القومية الوحدوية التحـــررية لا تكتسب صيغتها التقدمية الكاملة الا اذا كانت ذات مضمون تقدمي، اشتراكي ديمقراطي ، كذلك فان البرامـــج الاقتصادية الاجتماعية لا تكتسب صيغتها التقدمية الحقيقية الا حين ترتكز على أساس وحدوي تحرري، حين تكون الدولة العربية الواحـــدة المتحررة هي مداها الطبيعي •

ويحق لنا طبعا ، ونحن نرى بأعيننا ســـلوك الشيوعية المحلية تجاه الاهداف العربية منــذ بدء عملها حتى الآن ، أن نضع علامة تساؤل كبرى حول امكانية تطور الشيوعية المحلية نحو اكتساب المعنى الحقيقي الكامل للتقدمية •

فانغلاق الشيوعية المحلية يجعـــل كل تغير في مفاهيمها مشروطا بعاملين :

تطور تدفع اليه بمقتضيات مخطط الشيوعيـــة الدولية •

وتطور تدفع اليه قسرا نتيجة الخوف من الانعزال عن المد الشعبي •

وكلا هاتين الحالتين ليستا تطورا طبيعيا ، وانما هى تلاؤما تكتيكيا • وتظهر هذه الحقيقة بجلاء حين نجد ان برامج الشيوعية المحلية ـ والحزب الشيوعي السوري اللبناني بشكل خاص ـ كانت برامج أقرب الرجعية في الواقع منها للتقدمية في عهود العمـــل العلني للحزب ، بينما كانت تعود وتصبح شديدة التطرف في عهود العمل السرى •

هذا عن المعركة العربية الاجمالية •

اذا انتقلنا للتطبيق ، فالى أى حد نســـتطيع أن نجرد السلوك النضالى العملي من اخلاقية النضـــال ونتحدث عن التقدمية ؟ ان السلوك النضالى هو في اعتقادنا جزء من وحدة النظرية والتطبيـــق • والمقياس الاخلاقى للنضال العقائدى لا يضع مجرد علامة تساؤل حول تقدمية الشيوعية المحليـــة في أساليبها النضالية ، بل يصدر عليها حكما قاطعا •

فالالتزام الاخلاقي بالحقيقة العلمية مقياس رئيسى من مقاييس التقدمية • لان التقدمية تفقد معنـــاها وتتحول الى تقدمية شكل لا تقدمية جوهر حين تفقد القدرة على الالتزام • والشيوعية المحلية قد اضاعت كل قدرة على الالتزام بالحقيقة العلمية وجعلها مصدر التقرير في المواقف العملية ، وذلك حين ربطت نفسها بتلك التبعية الفكرية والسياسية الغريبة •

وكون الوسيلة هى جزء من الغاية ، مقياس آخر رئيسى من مقاييس التقدمية • لان التقدمية تفقـد معناها الاصيل حين نجردها من الصلة الاخلاقيـــة الوثيقة الكائنة بين الهدف وطريق الوصول اليه • ان الغاية في اعتقادنا تتلوث حين تكون وســـيلة تحقيقها وسيلة ملوثة • وقطع كل صلة بين الوسيلة والغاية كان هو القاعدة النضالية التى سارت عليها الشيوعية المحلية ، ولا زالت تسير حتى الان •

نظرة الشيوعية المحلية ، للجبهة الوطنية ، على أنها أسلوب تكتيكى لتصفية الاتجاهات القـــائمة واحدا بعد الآخر ، لا كوسيلة لتجنيد أوســـع الجماهير في المعركة العربية ، هي مظهر من مظاهر الغاية تبرر الوسيلة •

التقلبات السياسية المفاجئة التى كانت تجعـــل الشيوعية المحلية تارة مؤيدة لقضية ما ثم معـــادية لها ، ثم مؤيدة ثم معادية ، دون أن يجرى فى تلك القضية أى تبديل يبرر هذه التقلبات البهلوانية ، هى مظهر آخر من مظاهر الغاية تبرر الوسيلة •

المجازر الوحشية التي ارتكبها الشـــيوعيون في العراق لضرب الاتجاه القومي والوصـــول للحكم خلال بحر من الدماء ، مظهر ثالث من مظاهر فقدان الصلة الاخلاقية بين الغاية والوسيلة ••

ان اسطورة تقدمية الشيوعية المحلية تفضحهـــا معظم مقاييس التقدمية الحقيقية • ان ســـلوك الشيوعية المحلية فى الوطن العربى لم يضعها خارج نطاق التقدمية فى كثير من الاحيـــان فحسب ، بل جعلها قوة معرقلة للتقدم العربى فى معظم هــــذه الاحيان (*)

نحو فهم أعمق لمعركتنا مع الشيوعية المحلية

(٢)

في صراع حركة القومية العربية الاشتراكية الديمقراطية مع الشيوعية المحلية في الوطن العربي عدة نقاط رئيسية يجب أن تكون بمثابة قواعد أساسية توجه سير الحركة القومية وتجنبها محاذير عديدة تحاول القوى المعادية ايقاعها فيها . ويهمنا هنا بشكل خاص أن نؤكد على القواعد العامة التالية :

لا التقاء مع الرجعية العربية

صراعنا مع الشيوعية المحلية يجب ألا يدفعنا لاي تقارب ، من أي نوع وبأي شكل ، مع الرجعية العربية . ثورية الحركة القومية العربية ، هي في مقدار محافظتها على صفاتها التحررى ، وتعميق صلابتها في مكافحة الاستعمار وعملائه من الرجعيين العرب ، جنبا الى جنب مع صراعها ضد الشيوعية المحلية .

وقد خرجت كل من الرجعية العربية والشيوعية المحلية بدعوة جديدة لحرف الكفاح العربي عن خطة التحررى الثورى .

فالرجعية العربية تظن أن التناقض القائم بين الشيوعية المحلية وبين الحركة القومية العربية هو « فرصتها السانحة » للنفوذ الى داخل الحركة القومية في محاولة لتمييع الخط التحررى الثورى . والرجعية العربية تحاول دخول هذا الباب تحت ستار دعوات مختلفة : « المحافظة على التقاليد العربية في وجه « الشيوعية » ، « حماية القومية العربية » ، « حماية الدين » . وهذه الدعوات مهما اختلفت مسمياتها كلمات حق أريد بها باطل .

ليس هدف الرجعية العربية حماية التقاليد العربية ولا القومية العربية ولا الدين ، هدفها ايجاد منفذ لتسرب رجعي يعمل على امتصاص ثورية الحركة القومية العربية من الداخل ، وقطع أنفاس المد التحررى باسم مكافحة الشيوعية .

والشيوعية المحلية ، بالمقابل ، تظن أن موقف الرجعية العربية المعادى لها ، هو أيضا « فرصتها السانحة » للادعاء بأن أي موقف تتخذه الحركة القومية ضد الشيوعية المحلية لن تستفيد منه الا الرجعية . وليس هدف الشيوعية هو مجابهة الرجعية العربية بالدرجة الاولى ، وانما هدفها هو الضرب على وتر التقدمية الحساس للتستر على موقفها الانفصالى المعادى للوحدة العربية ، بحجة أن فضح هذا الموقف هو كسب للاتجاه الرجعي .

وكلا الدعوتان موجهتان في الواقع ضد حركة القومية العربية . وقد أوضحت الاحداث عمليا هذه الحقيقة في الحلف غير المكتوب الذى قام بين الرجعية والشيوعية المحلية في العراق ، وأجزاء أخرى من الوطن ، ضد حركة الوحدة العربية .

وموقف الحركة القومية العربية من كلا الدعوتين واضح جدا .

لا التقاء مع الرجعية في معركتنا مع الشيوعية المحلية ، بل محاربة كل تسرب رجعي يحاول اقحام نفسه بطرق في صف الاتجاه القومي الثورى .

ولا تستر على الشيوعية المحلية ولا التقاء معها بحجة « تخويف » الحركة القومية من الرجعية العربية .

التحركة القومية العربية الثورية تعرف طريقها بوضوح ، وفى زحفها التاريخي ستبقى تعمل على محاربة الرجعية العربية بلا هوادة ، وعلى عزل الشيوعية المحلية فى نفس الوقت بلا انقطاع .

* * *

عداء الحركة القومية العربية موجه

للشيوعية المحلية لاللمعسكر الشرقي

الصراع الناشب بين الحركة القومية العربية والشيوعية المحلية ، هو صراع داخلي لا انعكاس له على المعسكر الشرقى على الصعيد الخارجي . فوقوف الحركة القومية العربية ، بالتالى ، موقف العداء من الشيوعية المحلية ، لا يمنع بأى حال من الاحوال استمرار علاقات الصداقة والتعاون بينهما وبين الاتحاد السوفييتى وسائر بلدان المعسكر الشرقي .

فهنا أيضا ظهرت كل من الرجعية العربية والشيوعية المحلية بدعوة جديدة لحرف الحركة القومية عن خطها التحررى الثورى .

فحاولت الرجعية العربية أن توهم الشعب العربي أن الصراع الذى نشب بينه وبين الشيوعية المحلية هو « تصويت » ضد المعسكر الشرقي ، وضد سياسة الحياد الايجابى ، وضد امكانية استمرار علاقات التعاون بين العرب وبين المعسكر الشرقي . لقد أرادت الرجعية العربية أن تجعل من صدام الحركة القومية والشيوعية المحلية ورقة بيدها تزلزل عن طريقها الشعب العربى ضد المعسكر الشرقي كخطوة لاحكام طوق المعسكر الغربى حول عنقه .

وحاولت الشيوعية المحلية ، بالمقابل ، أن توهم الشعب العربى أن معاداته لها تعنى معاداة المعسكر الشرقى وضرب علاقات التعاون القائمة بينهما .

لقد أرادت الشيوعية المحلية أن تجعل من « تخويف » الشعب العربى من اتخاذ أى موقف معارض لها ، ورقة بيدها تشترى بها سكوته عن تآمرها الصريح على الوحدة العربية ، وقبول خياناتها برأس مطاطىء .

والحركة القومية العربية الثورية تحارب كلتا هاتين المحاولتين (*)

فهى منذ آمنت بمبدأ الحياد الايجابى أعلنت بوضوح انها تقيم علاقاتها مع كافة دول العالم على أساس المساواة والمنفعة المتبادلة . وهى تميز تمييزا واضحا بين حقها الكامل فى أن تتخذ من الشيوعية المحلية الموقف الذى تمليه المصلحة القومية العليا ، وبين ضرورة استمرار علاقات التعاون مع المعسكر الشرقى ما دامت قائمة على أسس غير مشروطة .

* * *

تقدمية الحركة القومية العربية **

ضمانة انتصارها الاكيدة

ان الاستمرار فى توضيح الاهداف الاشتراكية الديمقراطية لحركة القومية العربية ، التبشير بها على أوسع نطاق جماهيرى ممكن ، تعميق الايمان بها وجعلها دستورا للشعب فى تطلعه نحو الحياة العربية الجديدة ، ثم السير بسرعة فى تحقيق تطبيقاتها العملية فى نواة الوحدة ، الجمهورية العربية المتحدة ، هذه هى الضمانة الكبرى لكافة المعارك التى تخوضها الحركة القومية العربية سواء مع الشيوعية المحلية ، أو مع الرجعية العربية ، أو مع القوى الاخرى التى تلتقى ، لاسباب مختلفة ، فى محاربة حركة القومية العربية وأهدافها .

فليست معركتنا مع الشيوعية المحلية معركة كلام أبدا . وليست معركة تسجيل مواقف . انها معركة اتجاه فى الحياة ضد اتجاه آخر يحاول أن يحرف التطور القومى التاريخى للعرب عن خط سيره . وتحاول الشيوعية المحلية فى هذا السبيل، أن تستفيد من التخلف العام الذى يطبع معظم مرافق الحياة العربية الراهنة .

فبقدر ما تنتقى حركة القومية العربية من الشوائب الرجعية ، وبقدر ما تتعمق فيها ملامح الاشتراكية الديمقراطية وتصبح هى مضمونها الوحيد ، وبقدر ما يشعر كل مواطن عربى أنها ثورة اجتماعية كبرى على الواقع الشاذ الراهن ، ثم بقدر ما تتجسد فى مجتمع نواة الوحدة ، مجتمع الجمهورية العربية المتحدة ، وملامح المجتمع العربى المقبل الذى سيختفى منه الاستغلال والظلم والفقر والجهل والمرضى ، وتتحقق فيه العدالة بأوسع معانيها ، بقدر ما نستطيع أن نقول اننا قد وضعنا الاساس الراسخ لمعركة القومية العربية مع كافة القوى المعادية للتقدم العربى القومى ، أنى كان لونها .

وليس من قبيل العبث في الواقع ، أن تجـــد أن سببا رئيسيا من أسباب هذا الموقف العدائي الشرس الذي تقفه الشيوعية المحلية من الوحدة العربية ومن حركة القومية العربية عامة ، هو خوفها من الملامح التقدمية الاشتراكية الديمقراطية التي تحملها هذه الحركة ، ومن بعض تطبيقاتها الاوليـــة التي بدأت تأخذ طريقها في الجمهورية العربية المتحـــــــدة . فالشيوعية المحلية تدرك تمام الادراك أن تعمق هذه الملامح وازدياد امكانيات السير في تطبيقاتها باتساع دولة الوحدة ، هو الخطوة الايجابية المضمونة لقطع الطريق عليها نهائيا ، وافقادها مبرر وجودهـــا في الوطن العربي .

والحركة القومية العربية تدرك بالمقابل . ويجب أن تدرك أكثر فأكثر ، أن تقدميتها هي ضمانتهـــا الاولى والاكيدة .



الثمن 